تاريخ النقد الأدبي

في الأندلس

الطبعة الأولى
١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م

دراسات أندلسية



الدكتور
محمد رضوان الداية





مقدمة

هذه دراسة عن (النقد الأدبي في الأندلس) قصدت فيها الى أن تكون بياناً عن ناحية من نواحي الحياة الأدبية والفكرية في الأندلس وإننا لنرى ازدياد الإهتمام بالتراث الاندلسي عامة من جهة ، وتقدم البحوث في الدرسات الأدبية والفكرية الأندلسية من جهة ، ممـا يشجع على متابعة ذلك السير ، اهتداء بمن تقدم وأبدع ، واقتداء بمن اجتهد وأخلص

وهو موضوع جديد على الدراسات الأندلسية ، فليس هناك كتاب جامع لِما عُرف عند الأندلسيين من بحوث نقدية وملاحظات بلاغية ، ولا أحصيَتْ كتبهم في ذلك، وظل الظن بأن الأندلس صورة مشرقية شاحبة . ولا يعنيني في هذه المقدمة أن أثبت خطأ هذه الفرضية ولا أن أحتج لها ، فذلك بحث آخر له غير هذا المجال ، وإنما هي ملاحظة عابرة للدلالة على أن الأندلس كثيراً ما كانت تشملها الأحكام العامة — أصابت أم جانبها الصواب — وكثيراً ما افتقرت الى الشواهد والأدلة ومن هنا كانت أهمية هذه الدراسة وطرافتها

ومنذ أن لاح لي هذا الموضوع وأنا أعنّي نفسي بجمع مادته ، وتبين مداه ، والبحث عن أصوله ، والتهيؤ لذلك كله بالعَود الى التراث الأندلسي من شعر ونثر ، ومن كتب تراجم وكتب مختارات ، ومؤلفات ومشيخات ، لأكون في دائرة البحث ، وجوّه ، ولأتمكن — ما قدر لي ذلك — من ربط الموضوعات

بعضها ببعض ، والإفادة من كل ما يمكن من المواد .

وأول ما عانيت منه هو قــلة ما بين أيدينا من الآثار النقدية الأندلسية ، وسأشير في فصل خاص الى بعض ما علمنا من أسماء تلك الكتب المفقودة ، والى أسماء أعلام عُرفوا بالبصر في تذوق الأدب ونقده، وسأتحدث أيضاً عن موضوع يتفرع من هــذا : أكان نقص ما بأيـدينا من تلك الآثار بسبب ضياعها — لأسباب مختلفة — فحسب ، أم أن عوامل أخرى أثرت في ذلك مثل قلة تلك الكتب أصلاً ، وعدم اهتمام الأندلسيين اهتماماً كافياً يقابل ما في المشرق على الأقل — بدراسة الشعر والنثر ونقدهما ؟

كان من الصعب أن أعين فترة محددة أقصر اهتمامي عليها في دراسة النقــد الأدبي في الأندلس ، لقلة المصادر أولاً ، ولأن أي دراسة كهذه ينبغي أن تقوم على تمهيد طويل يبين ما قبل تلك الفترة ، وهذا سيؤول الى ما صرنا اليه . وإذا عرضنا سريعاً لأنــواع مصادر البحث ظهر معنى ما ذهبت اليه من حمــل لدراسة عامة ، ومحاولة تبين معالم البحث ، واستخلاص نتائجه من كل العصور لأدبية الأندلسيه .

وافترضت منذ البداية أن كل الـتراث الأدبي الأندلسي يمكن أن يرفـــد اوضوع ، ويمكن أن يكون من المصادر والمآخذ ، مثل دواوين الشعر ، كتب المختارات الأدبية ، وكتب التاريخ والطبقات ، والكتب المؤلفة في فنون اصة من أنواع الأدب ، وكتب الادب العامة ، بالاضافة الى ما تحقق أنه أثر دي أو بلاغي ، وما نقلته المصادر المشرقية من الآثار الأندلسية وكان في ه الكتب المطبوع والمخطوط ، والمصور والمكبر ، والمصغر على أفلام . فكان من صحبة المخطوطات والأفلام نصيب ، وكان لي من مساعدة أساتذة كرام صدقاء خلص في تقديم مصورات وتسهيل اجتلاب أفلام نصيب أوفر .

والمقصود بهذه الدراسة هــو استقراء تطور النقــد الأدبي ، والوقــوف عند ـاد الأندلسيين بالترجمــة لهم وعرض آرائهم سواء أكان ذلك في آراء مبثوثه

كان بسام في الذخيرة ، أو في مقامات نقدية كالسرقسطي ، أو في كتب وصلتنا وهي ثلاثة : إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي والوافي في نظم القوافي لأبي الطيب بن شريف الرندي ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني الأندلسي .

ويتقدم ذلك عَرْضٌ لأهم الشراح الأندلسيين وآثارهم ، باعتبار الشروح التي وضعوها تمثل وجهة نظر خاصة ، فهم على اختلاف عصورهم ومناحيهم يدلّلون على ذوق خاص ، وينتقدون أثناء شروحهم ، ويعقبون بالاستحسان أو الاستهجان ، ويبينون مواطن الجمال ، ويتعرضون لتطبيقات نقدية وبلاغية متفاوتة - كالحديث عن الأخذ والسرقة ، والتشبيه والاستعارة ، والاقتباس والإعارة ، وما شابه ذلك . وللشراح - وأكثرهم رواة للشعر في الوقت نفسه ، وشيوخ في حلقات - أهمية في توجيه الثقافة الأدبية ، وشيوع دواوين بأعيانها ، ورسوخ مقاييس محددة ، وذوق خاص . وقد خرّجوا كثيراً من الدارسين والباحثين ، والشعراء والكتاب ، كما أثاروا حركة نقدية لدينا من بقاياها ما يشهد بأهميتها . ويضاف الى الموضوع ملاحظات أخرى بلاغية تُتم الدراسة وتكملها .

وينتظم ذلك كله دراسة شاملة لأهم القضايا التي شغلت النقاد والشراح الأندلسيين تكون نتاجاً للبحث وخلاصة لما انتهينا اليه مما وقع من الآراء النقدية ، ومقابلة ذلك كله في مواضعه بروافده المشرقية ، على قدر ما تسمح بذلك دراسة قائمة على بقايا آثار ، وشتات آراء منثورة . ولا شك في أن مجرد العرض والاستقراء ، واستنباط الأحكام دراسة مستقلة ذات مغزى واضح ، وعمل متكامل ، كما أن عرض ذلك بالتفصيل على الآثار المشرقية بمقابلة جزئيه دقيقة ، واستصدار أحكام مقارنة عمل متكامل آخر ، وسيكون بحثنا هنا هو الأول المخصوص بالعرض واستنباط الأحكام ، مقارناً ما أمكن بمصادره المشرقية . وستكون الحلقات المفقودة من سلسلة التراث الأندلسي عقبة تواجهنا دائماً ، وتحمل ما يصدر عنه من آراء وأحكام رهناً بالرجحان والتغليب ،

تمهيد

في الحياة والبيئة والثقافة في الأندلس

سماتٌ من الحياة الأندلسية

الأندلسية

الثقافة في الأندلس

أرعج موسى بن نصير – بعد فتح الأندلس بقليل – فقل معه مَن أحب من المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها [١] .

وبالاضافة الى غنى الأندلس الطبيعي فإن العرب سرعان ما تأقلموا وشاركوا في معالجة أمور الزراعة والصناعة وشادوا حضارة عربية جديدة على أرض جديدة ، وانتشر العمران في أنحاء الأندلس واتصلت المدن بالمدن والقرى بالقرى في إتقان عمل وبهاء منظر ؛ وهذا يستمر الى زمن ابن سعيد الذي يصف بلاده : « وميزان وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخِصب والعمارة من كل جهة فمتى سافرت من مدينة الى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة » . وبعد هذا الحديث عن خصب الارض وجمالها يأتي الحديث عن أهل البلاد وعاداتهم ومظاهر تمدنهم « ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتمنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها [٢] » .

ومن هنا كان تعلق الاندلسيين ببلادهم وحنينهم اليها إذا سافروا عنها تعلقاً حقيقياً ، لأنهم يجمعون الى ما يكون من حب الوطن بعامة تمتعاً شديداً وامتزاجاً بالبيئة وراحة اليها . وينعكس ذلك بوضوح في آثار الاندلسيين اذا كتبوا بعد اغتراب او بعد مُحاجّة ولجاج . فابن سعيد يذكر الاندلس – بلاده – في كتبه كثيراً ، ويهتبل الفرص ليوازن بينها وبين كثير من البلاد في المشرق والمغرب ، ولتكون الاندلس دائماً الاغنى والاوفى والاجمل والاحسن . والشّقُندي يفخر بالاندلس ويفضلها على المغرب في حديث طويل سنأتي على ذكره في فقرة تالية [٣] ، ولسان الدين بن الخطيب يقيم مفاخرة بين مالقة وسلا [٤]

---

(١) نفح الطيب ١ ٢٦٢

(٢) نفح الطيب ١ / ١٩

(٣) نفح الطيب المقري ٤ ١٧٧

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رسائله) جمعها الدكتور أحمد مختار العبادي – مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ صفحة ٥٧ .

ليكون لمالقة القِدْحُ المُعَلّى . ونقع على مادة أكثر طرافة ، وهي تصنيف الاندلسيين في المفاضلة بين المدن الاندلسية وتعيين صفات كل واحدة بأسلوب شعري رقيق يكشف عما في نفوسهم من الأنس بتلك البلاد ، والشغف بمعطيات الحياة فيها . من ذلك رسالة أبي بحر صفوان بن إدريس[1] صاحب كتاب زاد المسافر، التي رفعها الى الامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، صور فيها منافسة متخيَّلة بين مدن الاندلس للظفر بالامير ودعوته ، وخرج منها الى بسط مآثر كل مدينة وما تنفصل به سواها ومن ذلك ما أورده لسان الدين بن الخطيب عن بعض مدن الاندلس في مقاماته : (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار) من وصف لها وذكر لخصائصها ومآثرها .

متنزهات وأشعار

وكان من انفعال الاندلسيين بالطبيعة أنهم دأبوا على الخروج الى مُتَنَزَّهاتها والاستمتاع بمهرجانات واحتفالات كانوا يعقدونها . وفي الكتب والدواوين أخبار لا تحصى عن هذا المَوضوع فإذا ما أقبل الربيع وَجَّه بعضهم الى بعض بطاقات دعوة ـ ومن الطرافة أن بعضها شعري ـ وخرجوا الى المتنزهات والجنان والمياه ، وفيها تهادوا الازهار والاوراد والنواوير ، وارتجلوا فيها الشعر وعقدوا الموازنات والمقارنات وفي كتاب البديع في وصف الربيع للحميري [2] قصص وأخبار وأشعار أندلسية ومعاصرة للمؤلف تصلح أمثلة لما نقول وهو يقدم لتأليفه بقوله [3] « لست أودعه إلا ما أذكر لأهل الاندلس خاصة في هذا المعنى إذ اوصافهم لم تتكرر على الأسماع ولا كَثُر امتزاجها

(١) نفح الطيب ١/ ١٦ ، وبعلها محقق كتاب زاد المسافر انظر ١٢٣/١٢٨ .

(٢) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري تحقيق هنري بيريس ـ طبع الرباط ١٣٥٩ ١٩٤٠ .

(٣) صفحة ٢

بالطباع فتردها مُشْتقة وتزودها تَيْقة » وقال في خبر له : « وأخبرني الفقيه أبو الحسن بن علي قال : كان في داري بقرطبة حائر (بستان) صُنع فيه مرج بديع وظُلّل بالياسمين فنزهت اليه أبا حفص الشذميري في زمن الربيع فقال . ينبغي أن تسمي هذا المرج الشندسة ، وصنع على البديهة أبياتاً [1] .

وشارك النثر الشعر في وصف الرياض[2] ومفاسلة بعض الأزهار على بعض[3] .

وأنشد الحميري لأبي القاسم البلمي .

انظُر وَنَزّه ناظريك بروضةٍ	غَنّاء ما زالت تُراح وتُمطَر
لتُريك من صَنعاء صنعة وَشيها	بطارفٍ من تَستَتَرٍ لا تستُر
ألوانُها شَتّى وطيبُ نسيمها	يُقصي العبير به ويُنسى العَنبر

ومن الأبيات السائرة في الأندلس ، وأعجب أهلها بها ، قول ابن سفر المريني [4] .

في أرض أندلسٍ تلتذّ نَعماء	ولا يفارق فيها القلبَ سرّاءُ
وليس في غيرها بالعَيش متّسَعٌ	ولا تقوم بحقّ الأُنس صَهباءُ
فيها خلعتُ عِذاري ماها عِوَضٌ	فهي الرّياضُ وكل الارضِ صَحراءُ

وهذه الأبيات مختزأة ، وإنما هي تدل على نفس الشاعر ومدى اعجابه ببلاد جميلة تقوم له بحق الأنس ، وتفي له بأسباب البهجة والسرور ، وتمتع ناظره بما راق وحلا ، من ماء رقّ وعذُب وهواء طاب ، وشجر أثمر ، ونَور أزهر ، ولاعتب عليه اذا وصفها بأنها الرياض ، وكل الارض صحراء .

(١) البديع في وصف الربيع ١٩

(٢) انظر صفحة ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ الخ وفي صفحة ١٧ ، ٧٩ رسالة لعبد الملك بن ادريس الجزيري موصولة بشعر، عن ، سح الفاصرية، رفعها الى المنصور ابن أبي عامر

(٣) من ذلك رسائلهم بالمفاضلة بين البهار والورد والاسحار لاحدهما ، ولهم في ذلك رسائل ابن البرد ى الذي تحامل على الورد انظر ص ٧ - ١٧

(٤) نفح الطيب ١ ، ١٩٠ - ١٩٥

والشعر في هذا كثير ، ودواوينهم زاخرة بمثل هذا الإعجاب وهذه النفثات ، « والحق أن شعراء الأندلس كانوا في الطبيعة وشعرها يحسون ويهيمون ، ثم يعبرون عن حسهم وهيامهم . . وكثيراً ما خرج الشعراء جماعات وأفراداً يتمتعون النفس بجمال الطبيعة ثم يعبرون عما في أنفسهم[1] » . ونقف بعد على ملاحظة هامة ذكرها الحجاري عن أهل الأندلس ، قال « وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار ، الحائز فيه قصب الرهان ، وأما إذا هب نسيم ودار كأس في كف ظبي رخيم ورجع بم وزير وصفق للماء خرير . . أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها فأولئك هم السابقون السابقون . . وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية ، وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية[2] » وفي هذا النص الموجز نقف على ملاحظتين هامتين في تفسير شاعرية أهل الأندلس وبيان أصالتها ، فهو يعلل ذلك بأنسابهم العربية ، وما يكون لمحافظتهم على ذلك من أثر في الثقافة والشاعرية ، ويعلله ثانياً بأثر الطبيعة وقد جعلوا بلادهم مثالاً للجنة وفي ذلك يقول ابن خفاجة[3] بعد أن ذكر الأندلس في غربته بالمغرب الأقصى :

إن للجنة بالأندلس مجتلى مرأى وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا
صحت واشوقي إلى الأندلس !

---

١) شعر الطبيعة في الأدب العربي – الدكتور سيد نوفل مطبعة مصر ١٩٤٥ صفحة ٢٦١

٢) نفح الطيب ٤ : ١٥٠ – ١٥١

٣) نفح الطيب ١ : ١٩٥ .

تآليفهم في ذلك :

وقد ألف الأندلسيون كتباً في الربيع أو الشعر المتعلق به ، ووصف الطبيعة من شجر وزهر وحيوان ونبات وماء ، وما يتصل بذلك من إحساسات وانفعالات ، ووصف الرحلات والنزهات ومجالس الأنس . فصاحب رايات المبرزين ينقل عن كتاب (زمان الربيع) للحشني ؛ وفي بغية الملتمس في ترجمة يوسف بن هارون الرمادي أنه عمل في السجن كتاباً سماه « كتاب الطير » في أجزاء وكله من شعره ؛ وصف فيه كل طير معروف وذكر خواصه ، وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم [1] . ولأحمد بن فرج الجياني كتاب (الحدائق) في القطع الغزلية وهو مفقود عدا نقول قليلة منه في الكتب [2] . ولأبي الوليد الحميري كتاب « البديع في وصف الربيع » الذي سبق ذكره . ولأبي حفص أحمد بن برد رسالة وصف فيها خمسة من أنواع النواوير ، وعرضه تفضيل الورد[3] . ولأبي الوليد أيضاً رسالة في الرد على رسالة ابن برد هذه وصف فيها سبعة أنوار وعرضه تفضيل البهار [4] . ولأبي حفص بن الأبار رسالة في عدة من الأنوار[5] . ولأبي عامر محمد بن عبد الله بن مسلمة « كتاب الارتياح بوصف الراح » ذكر ما قيل فيها وفي الرياض والبساتين والنواوير واحتفل في ذلك [6] وغاية القول أن الأندلسيين أحسوا بجمال بلادهم ، ورأتهم الطبيعة خير أكلها وأحسن زينتها ، فكان لذلك أثره في نفوسهم ، وكان لتأثرهم بهذه

١) رايات المبرزين وغايات المميزين تحقيق إميلو غارثيا غومز - مدريد ١٩٤٢ صفحة ١١٠
٢) بغية الملتمس ٤٨١ .
٣) جذوة المقتبس ٩٧
٤) البديع في وصف الربيع ٢٣ .
٥) المصدر نفسه ٥٨
٦) المصدر نفسه ٦٧
٧) جذوة المقتبس ٦١ .

الخيرات وذلك الجمال نتائجه في خلاصة فكرهم من شعر ونثر وتأليف .

٢ — الأندلس ثغر إسلامي .

إن نظرة سريعة على التاريخ الأندلسي تبيّن بوضوح وجلاء أن الأندلسيين كانوا في صراع دائم مع العدو الذي تراجع بسرعة غريبة حتى أخلى شبه جزيرة إيبريا تقريباً إلا مواضع قليلة في الشمال معظمها جبلي وكانت فترات السلم قليلة، وعاش الناس على مدى ثمانية قرون وهم يوطّنون أنفسهم على أنهم أهل حرب، وفي ثغر يتطلب الجهاد المستمر والاستعداد الدائم [١] . وإذا كان الرخاء الداخلي واستتباب الأمن سبيل رضا الناس في الداخل فإنهم كانوا يتطلعون دائماً إلى أميرهم ليكون بالدرجة الأولى قائد معركة وبطل انتصار . وعرف الحكام هذا ،فكانوا يُكثرون من الغزوات ويتقربون إلى العامة والخاصة برفع راية الجهاد . وكثيراً ما كانت الاعتبارات على اختلافها تتداعى أمام هـذا الاعتبار الأكبر . وبهذه الحماسة وهذا الشعور رجّح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية في نهاية الأمر أن يكون « راعي جمال » على أن يكون راعي خنازير ، وتَوّن بين الحالين . وفي ذلك يقول الحُميدي عن الأندلس « وهي ثغر من ثغور المسلمين لمجاورتهم الروم واتصال بلادهم ببلادهم [٢] » . ويشهد المقري بعد استعلاء الأندلس برهان « أنه لو لم يكن للاندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافياً [٣] » .

---

١) لعل هذا يفسر ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان نوى إجــلاء الأندلس من المسلمين خشية عليهم من العدو لانقطاعهم من وراء البحر ، ولكن الأندلسيين بولوا اقناعه

انظر فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس — الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩ صفحة ١٣٦ ومراجعه في ذلك

٢) جذوة المقتبس ٧

٣) نفح الطيب . ١ ١٧٤

وكان لهذا الأمر بالاضافة إلى الاندلسيين اعتبار كبير وأثر واضح ، وإن بلداً بهذه الحال من مواجهة العدو ، والإقامة الدائمة في ظل الرماح والسيوف ، وتحت احتمال الحروب المستمرة لا بد وان يتأثر وتتصف كثير من مظاهره على وجه من الوجوه بما يلائم ذلك الاعتبار .

من ذلك أن كافة الأندلسيين صاروا – بحكم ما هم فيه – من أهل الثغور أو بمنزلتهم ، فساعد ذلك على بروز الناحية الدينية في الاندلس وظهورهـــا ، ومهّد للفقهاء – كما سنبين بعد – منزلة لا تفوقها الا رتبة الوزراء . ومن طريف تطبيقات هذا الرأي أن خصوم لسان الدين بن الخطيب عَدُّوا عليه خروجه عن الأندلس – الى المغرب – واعتبروه آثمـــاً ، لأنه غادر دار الجهـاد وانقلب على عقبيه .

وإذا كان الأندلسيون قد تصدوا للقتال جهد استطاعتهم فإن عدوهم كان يقتضي منهم أن يزيدوا عدداً وعدة ، واتسع هـذا بعد سقوط دولة بني أميـة وزوال العامريين ، ونشوء ملوك الطوائف . وبالرغم من كل المساعدات التي استتبعت ضعف المرابطين ، وضعف الموحدين في حينـه بعد أن كانوا دخلوا الأندلس لإنقاذها – فإن المبدأ الذي دخلوا به إلى الأندلس صحيح، ولو استمر المرابطون أو الموحدون كما بدأوا لكان للتاريخ في تلك البقعة وجه آخر .

ويصف كاتب اندلسي حال بلاده في أواخر القرن الثامن فيقول إنها «أسمى ثغر نالت به الهمم العالية مراتب وأقداراً ، وأكرم تربة رفع الإيمان بها علمـاً ومناراً ، وحل الدين الحنيفي مصراً ووسم دياراً ، فعرت حـاديـاً وكـرمت أنصاراً وأمر جزيرة الأندلس على سائر الاقطار منيف ، لأنها في ثغر بحّار وعدو جرّار ، ملازمين أهلها في الليل والنهار والروم بها أمم كثيرة مختلفة

لا يعلم عددها إلا الله تعالى ..»[1]

ولا بد أن ينعكس هذا في تراث أهل الأندلس وأدبهم فيظهر في امتداح الشجاعة والشجاع والدعوة الى إجابة الصريخ ، وحماية الديار والدمار . ونجد الى جانب ذلك أثراً آخر إذ صارت حياة كثير من الأدباء حياة قلقة مثل غيرهم فهم بين أمن وفزع ، ونصر وهزيمة ، وقد يُضاف الى ذلك اضطراب حبل السلطان الداخلي، فيكون القلق أوضح وأظهر . وقد أشار الى هذا ـ بأسلوبه ـ ابن بسام صاحب الذخيرة ، وقد اختار في كتابه أنماطاً من محاسن أدب معاصريه ، ووصف شعرهم ونثرهم ، وأثنى عليهم وأطرى ، قال «أودعت هذا الديوان الذي سميته بكتاب الذخيرة في محاسن هذه الجزيرة من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة . لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة .. على كونهم بهذا الإقليم ومصاقبتهم لطوائف الروم ، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية وأقصى خطى المآثر العربية ، وليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط والروم والقوط ، فحصاة مَنْ هذه حاله تُثير ، وتمدُّه بحر مسحور[2] ..»

٣ ـ الأثر الديني :

كان للأندلس وضع خاص من جوانب كثيرة . ومن هـذه الجوانب ما يلاحظه الدارس من أثر الأمور الدينية في الحياة الأندلسية على أشكال مختلفة .

١) تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لابن هذيل الغرناطي ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية (تيمور باشا) رقم ٩٩ الورقة ١٤ / ط . والكتاب قسيم كتاب آخر عنوانه (حلية الفرسان وشعار الشجعان) نشره الاستاذ محمد عبد الغني حسن في دار المعارف بمصر عن نسخة مصورة اخرى ، والكتابان مجلد واحد في جزأين

٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ـ القسم الأول ـ المجلد الأول صفحة ٤ ـ ٥

فمن الطبيعي أن يكون التدين، والعناية بشعائر الدين وأصوله وأهله عامة، واضحاً في بلد شغل بالحروب – كالأندلس – واتقدت فيه على وجه من الوجوه روح الجهاد والمرابطة والمناجزة. ولقد كان لجوار المسلمين مع النصارى ومعايشتهم أثر بالغ في توقد هذا الشعور، وفي نماء الكتابة في ذلك والتأليف.

بدأت الأندلس على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام[1]، واستمر ذلك الى أن دخلت الأندلس في حكم الدولة المروانية، وظهر فيها فقيه ذائع الصيت كان مكيناً لدى السلطان هو يحيى بن يحيى الليثي[2]. وينقل المقري عن ابن حزم رأيه في هذا؛ فهو يشبّه انتشار المذهب المالكي في الأندلس على يد يحيى كانتشار المذهب الحنفي في المشرق وأنهما داعيا معونة الحاكم قال: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان. مذهب أبي حنيفة ... ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء. وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومَن كان على مذهبه، والناس سراعٌ الى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به[3]». ويضيف ابن خلدون – على منهجه – سبباً آخر لذيوع المذهب المالكي ويعلله بأن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا الى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة[4].

١) قال ابن الفرضي في ترجمة زهير بن مالك البلوي: كان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس – قبل دخول بني أمية رحمهم الله (تاريخ علماء الأندلس – نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦) انظر ص ١٥٣

٢) انظر ترجمته في نفح الطيب ٢ ٢١٧

٣) نفح الطيب ٢ ٢١٨ .

٤) انظر مقدمة ابن خلدون عن أثر عبدالله بن حسن – المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ صفحة ٤٢٥ .

الفقهاء والقضاة :

وانتقلت أهمية الدين أيضاً الى الفقهاء لما كان لهم من المنزلة والمكانة بين ذوي الشأن . وفي كتاب قضاة قرطبة لمحمد بن الحارث الخشني[1] أمثلة رائعة لتنويه القاضي منزلته الرفيعة التي تخوله أن يقتص من السلطان ويرد رغبته ويعطل حكمه [2] ، متذرعاً بأحكام الشريعة . ومن هنا تكبر شخصيته في أعين العامة ، وتتضح أهميته ولعب الفقهاء ، وحملهم على المذهب المالكي ، دوراً هاماً في تثبيت مذهب مالك الى آخر نهاية المسلمين في الأندلس من جهة ، وفي إثارتها حرباً شعواء على أنصار المذاهب الأخرى – على قلتهم – من جهة أخرى ، كما كان لهم أثر لا يقل أهمية عما سلف في مضايقة الدراسات الفلسفية ، وربما العلمية المتصلة بالمنطق والفلسفة بأدنى سبب . وينقل المقري عن فقهاء الأندلس أن « خواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه .. وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي (فقيه) لأنها عندهم أرفع السمات [3] » . وكان لهم دورهم أيضاً في فتنة الربض التي أقامت الدنيا على الحكم بن هشام سنة ٢٠٢ وكادت تودي بملك الحكم لولا أن تداركها[4]

« وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك ، وكان بإلبيرة سبعة سمعوا كلهم من سحنون في زمان واحد ، وأصبح الفقهاء يدورون حول المدوّنة

١) انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي – مصر – ١٣٧٢ . ص ٤٩ – ٥٠ .
٢) قضاة قرطبة للخشني ٢٩ – ٣٠ .
٣) نفح الطيب ١ ، ٢٠٦ .
٤) المغرب في حلى المغرب ابن سعيد – تحقيق الدكتور . شوقي ضيف . (دار المعارف بمصر . ١٩٥٣) ١ ٤٢ – ٤٣ .

وكتاب آخر ألفه العتبي الأندلسي ويسمى العتبية أو المستخرجة ، وضاقت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث ، مع ان الحديث أصل مذهب أستاذهم إلا انهم شغلوا بالتفريعات والرأي .. واخذ بعضهم يتنقصون أهل الحديث [1] » . ومن الأمثلة على ذلك ما حل ببقي بن مخلد إذ أدخل كتباً في الحديث من المشرق فيها مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وقرىء عليه ، « فأنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته [2] » ولولا أن أمير الأندلس في وقته محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان « محباً للعلوم ، مؤثراً لأهل الحديث [3] » لما سلم بقي بن مخلد من العامة ولا من السلطان .

وأبو محمد بن حزم مثال كامل لعالم فقيه أندلسي خرج على رأي الجماعة عندهم واستقل برأيه ، فكانت بينه وبينهم خصومة لم تنقطع . وقد جمع ابن حزم فنوناً شتى وأتقنها وجاهر بما عنده ، وبرع بالحديث والفقه والجدل والنسب والأدب ، وشارك في المنطق والفلسفة وينقل ابن بسام أنه مال أول الامر إلى رأي الشافعي « فاستهدف لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ ، ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر . فنقحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه . حتى استهدف إلى علماء وقته فتمالؤوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو اليه [4] .. وسنفصل في شيء من هذا عند ترجمته ، ولكن وجه الحديث هنا أن خصومة الفقهاء لابن حزم فاقت حد الجدل العلمي والمناظرة العقلية إلى استعداء

1) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة الدكتور احسان عباس دار الثقافة بيروت - صفحة 24
2) جذوة المقتبس 12 .
3) المصدر السابق 11
4) الذخيرة - القسم الأول المجلد الأول ص 14 - 141

السلطان ، والتعريض بما يخالفه ابن حزم من عواقب ، وقالوا من ابن حزم كما أرادوا .

ووقف الأندلسيون من علوم الأوائل موقفاً معادياً إلا ما كان مباحاً كالطب ، وما استمر من البحوث المنطقية والفلسفية ، وما يتصل بالكواكب والنجوم ظل نشاطاً فردياً ولم يحظ بقبول العامة ولا سكت عنه السلطان إلا في القليل النادر . وسنحت فرصة نادرة من رعاية السلطان لهذه العلوم ، ولكنها كما نصفها نادرة ، ولم تعمر طويلاً ، فبالرغم من المكتبة التي أنشأها الحكم وتسامع بها الناس في الشرق والغرب الا أن مصير علوم الأوائل منها وما نحا ذلك المنحى كان الاحراق على يد منصور بن عامر تقرباً للفقهاء والعامة « وفعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس . اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسن رؤسائهم[1] . » وكان يطلق لقب زنديق على كل من تسامع الناس باشتغاله بالتنجيم أو قراءته الفلسفة ، وربما تجاوز الأمر هذا الى ما هو أسوأ منه « فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره السلطان أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر باحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت[2] . »

٤ — الغناء في الاندلس .

لما استقر الحال بالأندلس تحت ظل الدولة المروانية الجديدة التفت مَن بها إلى أسباب الحضارة ،ونشأ في قرطبة مركز جديد كبر مع الزمن فصارت عاصمة أخرى من عواصم العلم والأدب ومختلف الفنون والصناعات . ومن الطبيعي أن يبدأ كل شيء في البلد المفتوح النائي مستعيناً بحضارة المشرق ، وأن تستمر قيمه

١) طبقات الأمم لصاعد بن أحمد الأندلسي - مطبعة السعادة بمصر — صفحة ١٠٢ ١٠٣ وانظر النفح ١ ٢٠٥

٢) نفح الطيب ١ ٢٠٥ ، وانظر مقالة ابن سعيد في ذلك النفح ٤ ١٦٧ .

الفكرية والأدبية زمانا على غرار ما يصل الى أهله من تراث (مستورد) .

المغنون والمغنيات :

ومنذ عهد عبد الرحمن الداخل نقع على أسماء مغنيات مشرقيات قدمن الى الأندلس وبُذل في شرائهن واستقدامهن مال وفير . وقد أورد صاحب نفح الطيب في ذكر الوافدين على الأندلس من المشرق أسماء كثيرة لمغنيات دخلن الأندلس ؛ استقدم عبد الرحمن الداخل الجارية و العجفاء ، المغنية وابتيعت له من أحد موالي بني زُهرة بالمدينة و . . ت موصوفة بجمال الصوت وحسن الأداء. ويظهر أنه كان يجدّ في طلب المغنيات المشهورات من المشرق وخصوصاً المدينة لما اشتهر من إجادة جواريها بالغناء. فقد اشترى وصل»[1] المغنية وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال [2] و « علم » و « قلم » وهي رومية الأصل ، الى صواحب لهن أيضاً [3] .

ودخل المغنون بعد المغنيات ، وأول من دخل الأندلس علّون وزرقون ، « دخلا في أيام الحكم بن هشام فنفقا عنده وكانا محسنين .. » ومن أشهر المغنين الذين دخلوا الأندلس ، زرياب تلميذ إسحق الموصلي [4] ، وقد ترك آثاراً في الغناء والأدب والآداب الاجتماعية ما لا يستطيع رجل واحد تثبيته في بلد طويل عريض . كان زرياب في بغداد في خدمة الرشيد مع أستاذه اسحق ، وظهر من زرياب ما أثار حفيظة أستاذه وخشي منه مزاحمته في مركزه ، ورأى زرياب ذلك منه ، فأرسل الى صاحب الاندلس (الحكم بن هشام) في الورود عليه فرحب به وأرسل مغنياً يهودياً في طلبه ودخل زرياب الاندلس، وعلم بموت الحكم قبل الانتهاء الى قرطبة فاستقباه ابنه ... ولي الحكم لأن ولي العهد

١) نفح الطيب ٤ ١٣٨
٢) المصدر نفسه ٤ ١٣٦
٣) المصدر السابق ٤ ١١٦
٤) النفح ٤ ١١٧

لن يقصر عن سلفـــه في الاعجاب به . ونال زرياب من الحظوة في الاندلس ما تسامع به المشارقة ، وحُكي أمام المأمون [1] .

وشاع الغناء ، وانتشرت مجالس الطرب في قرطبة، وفي كثير من الأمصار الاندلسية ، وفي جذوة المقتبس [2] وطبقات الزبيدي [3] والذخيرة وغيرها من كتب الادب الاندلسية أخبار طويلة عن مجالس الأنس والطرب ، وما يدور فيها من شعر ونشيد وغناء . ومن طريف ما ذكر عن شيوع الغناء في مدينة فوق الحد المألوف ما جرى من المناظرة بين يدي « ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول غير أنه اذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيـع كتبه حُملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية [4] . وفي الذخيرة أن أحد الطنبوريين واسمه (زربوط) أصيب في وقعة (قنتيش) فأقام عليه الطنبوريون مأتماً مشهوراً بعد الحادثة [5] . والخبران طريفان ، وفيهما دلالة على كثرة المغنين ونفاق سوقهم . وقد استمر الحال بالغناء والمغنين طوال مدة العرب بالاندلس . ولديـــنا خبر أورده لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن عن أهل غرناطة يدل على انتشار الغناء ، وشيوعه بين فئات الناس المختلفـة قال « والغناء بمدينتهم فاشٍ حتى بالدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث [6]

١) نفح الطيب ٤ ١٢٨ - ١٢٩ .
٢) جذوة المقتبس ١٥٨ ، ١٨٠ ، ٣٢٤
٣) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمـد بن الحسن الزبيدي تحقيـق . محمد أبو الفضل ابراهيم - ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م نشر مكتبة الخانجي بالقاهره . انظر ص ٢٩١ ٢٩٢ .
٤) نفح الطيب ١ . ١٤٧ .
٥) الذخيرة - القسم الأول - المجلد الاول ٣١
٦) اللمحة البدرية في الدولة النصرية لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٧ صفحة ٢٨ .

موقفهم من الغناء :

تقبّل الاندلسيون الغناء قبولاً حسناً ، وقد تقدم من الاخبار ما يقوم دليلاً على ذلك ، وأقبل على سماعه وحضور مجالسه العامة والخاصة وأتقنه أحياناً بعض كرام الناس مثل الأمراء ، فقد ذكر ابن حزم أن المطرف بن الامير محمد كان عالماً بالغناء وكان له أخوان عارفين بالغناء جداً [١] . ولابن عبد ربه حكاية نقلها الحميدي « فقد وقف تحت رَوشن لبعض الرؤساء وقد سمع غناء حسناً من وراء الروشن ولم يعرف من هو فمال إلى مسجد قريب من المكان واستدعى بعض ألواح الصبيان فكتب :

يا مَن يَضن بصوت الطائر الغَرِدِ ما كنتُ أحسب هذا البخلَ من أحد
لو أن أسماع أهل الارض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تُملّده صوتاً يجول مجال الروح في الجسد [٢]

ولم يكن كثيراً على قاض من القضاة أن يحضر مجلس طرب أو يبدي إعجابة بغناء جاريه أو مغن أو زامر . فقد كان فيهم من أخذ هذه الأمور بصدر واسع [٣] ، وان كان هذا لا يعني أنه لا يجد من يشنع عليه وينتقص من هيبته . وإذا كان الخبر التالي يدل على مشاركة العلماء والقضاة في الأنس بمجالس الطرب وتذوق الأدب ، فإن فيه مغزى آخر هاماً . هو هذا الجانب من طبيعة الشعب الاندلسي القائم على البساطة والطرافة روى ابن حزم بإسناده أنه شهد « قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى في دار رجل من بني حدير مع أحبته

---

١) جمهرة أنساب العرب ابن حزم - تحقيق لفي بروفنسال - دار المعارف بمصر - صفحة ٩١
٢) جذوة المقتبس ٩٥
٣) لابن حزم (رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور) انظر رسائل ابن حزم - تحقيق الدكتور احسان عباس ٩٣ - ١٠١ (نشر الخانجي بمصر)

أبي عيسى في ناحية مقابر قريش وقد حرجوا لحضور جنارة ، وجارية للحديري تغنيهم هذه الابيات

طابَت بطيب لثاتك الأقداحُ ورَهت بحُمرة خـدك التفّاح
وإذا الربيع تنَسمّت أرواحُه طابت بطيب تَسيمك الأرواح
وإذا الحَنادِس ألبست ظلماءَها فضياءُ وجَهكِ في الدُّحى الِمصباح

قال : وكتبها قاصي الجماعة في يده ثم حرحوا ، قـــال فلقد رأيته يكتر للصلاة على الحمارة والأبيات مكتوبة على باطن كمه [١] .

المغنّي والزامر.

وتضاف إلى شخصية المغني صورة شخص آخره له دوره في إقامة الحفلات وتطريب الأغاني ، وهي شخصية الزامر. وكانت له رسوم خاصة وهيئة معهودة تكون بمثابة المظهر اللازم أو الملائم بالاضافة الى العمـل الأساسي وهو الزمر والإنشاد بشعر ما . ولدينا نموذج يصور زامراً في حفل عرس فيه وصف حاله، وفيه ذكر الشعر الذي كان ينشده . وينقل الحميدي رواية بعضهم : « فلعهـدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة والمكوري الزامر قاعـدٌ في وسط الحفل وفي رأسه قلنسوة وَشي وعليه خزٌ عبيدي وفرسه بالحلية المحلاة يمسكه غلامــه ، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر ، وهو يزمر في البوق بقول أحمـد بن كليب في (أسلم) .

أسلمي في هــواه أسلم هــذا الرّشا
غزالٌ له مقلةٌ يصيبُ بها من يَشا
وشى بيننا حاسِدٌ سَيُسأل عمّــا وَشى
ولو شاء أن يرتشي على الوَصل روحي ارتَشى

---

١) جذوة المقتبس ٧٠

ومغنٍّ محسنٌ يسايره فيها[1] ..».

ومن أوجه ازدهار فن الغناء وتنوّع أساليبه أن زرياب زاد في الأندلس وتراً خامساً على أوتار العود بعد أن كان ذا أوتار أربعة قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسطاً فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة[2] .

الغناء وكتبه :

تمكنت طرائق اسحاق الموصلي وزرياب في الأندلس ، وصارت عنواناً للذوق الراقي المتدارّس المتشّبع . وقد ورد في ترجمة عقيل بن نصر وهو شاعر أديب ، قديم أن « له أغان » يجري فيها مجرى الموصلي »[3] . بينما 'ذكر لأسلم ابن عبد العزيز « كتاب مشهور في أغاني زرياب»[4] . وصار باستطاعة الأندلسيين مجاراة أسماء زرياب في الغناء والنسيج على منوالهم واستحقاق إعجاب الناس والأمراء[5] . وألف أبو زكريا يحيى بن ابراهيم الأصمعي الحكيم المعروف بالخدوج كتباً كثيرة «أكثرها مختصرات » مما يدل على اهتمامه بالكتب السالفة ، وذكر الرعيني في ترجمته أنّ الخدوج عرض عليه « كتابه الكبير الذي سماه بالأغاني الأندلسية[6] » ولكننا لا نعثر لهذا الكتاب على أثر ، ولو وجد لكشف لنا عن ناحية هامة من نواحي الموسيقى والغناء والشعر والأدب ذات أهمية بالغة . وذكر الكتاب والمؤلفَ صاحبُ نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيد

١) جذوة المقتبس ١٣٤
٢) نفح الطيب ٤ ١٢٢
٣) جذوة المقتبس ٣٠٤
٤) جذوة المقتبس ١٦٢ وانظر ١٣٧
٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٩٢
٦) برنامج شيوخ الرعيني - تحقيق ابراهيم شبوح - نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ١٣٨١ - ١٩٦٢ ، صفحة ١٦٤ واختلف رسم (الخدوج) بين البرنامج والنفح

رسالة ابن حزم في فصل الاندلس ، وأضاف مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة ، ومنها كتب علم الموسيقى ، قال : « وليحيى الخدج المُرسي كتـــاب الاغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج، وهو ممن أدرك المئة السابعة[1] » وكان هناك اهتمام بالموسيقى الخالصة ان صح القول ، قال ابن سعيد . وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكربن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفايـة ، وهو في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد [2] » ولنا أن نخمّن أن كتاب يحيى الخدوج هذا جمع أغاني الأندلسيين . ألحانها وأصواتها من شعر وربما من زجل ايضاً ؛ لان قياسه بأغاني أبي الفرج الاصبهاني وتشبيهه به يدل على ضخامته واستيعابه ، وشموله اغاني أهل الاندلس . ومن كتاب ابن باجة نأخذ دلالة هامة ، ولنا ان نفترض ايضاً ان الذوق الاندلسي تطور مع الايام ، وبعد ان كانت الحان الموصلي وزرياب شائعة سائدة ، تبدل الحال ، وسادت ألحان ابن باجة الذي يصفه ابن سعيد بأنه « إمام الاندلس في الألحان [3] »

موسيقى أندلسية

وإذا كانت المغنيات والمغنون المشارقة قد أثروا في إشاعة الاشعار المشرقية في البيئة الاندلسية ، فإن تطور فن الغنـاء في الاندلس أخرجه عن التبعية المطلقة ، وجَدّ فيه جديدٌ خاصٌ به . وقد برع مغنون أندلسيون أهم مـا يلاحظ فيهم أنهم من نوابغ الشعراء ، فهم كانوا يغنّون من شعرهم ويلحنون لانفسهم ، وكان لشعرهم ذاك وألحانهم شيوع وذيوع . فمن رجال الذخيرة محمد ابن أحمد بن الحـدّاد الشاعر الكاتب، قال فيه ابن بسّام . « وله في العروض

١) نفح الطيب ٤ ١٧٦
٢) المصدر نفسه
٣) المغرب في حلى المغرب ح ٢ ١١٩

تأليف وتصنيف مشهور معروف مزج فيه بين الانحاء الموسيقية والآراء الخليلية [1] ، ولعله جاء فيه ببديع ، لان بعض معاصريه كان أنكر عليه آراءه وفي ترجمة ابن باجة الشاعر الفيلسوف الموسيقي انه مدح ابن تيفلويت ملك سرقسطة ، وانه اكثر من رثائه وغنى بقصائد رثائة في الحان مبكية [2].

وكان له تلميذ هو ابو عامر محمد بن الحمّارة الغرناطي ومن خبره أنه « برع في علم الألحان واشتهر عنه انه كان يعمد للشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به [3] » .. ومما يوضح هذا الرأي ويزيده وثوقاً أن الاندلسيين الذين اخترعوا الموشح وضعوا بأنفسهم ألحانه ، ومن ثم ألحان الازجال ، ويقول ابن سناء الملك عن الموشحات التي خرجوا بها عن أوزان العرب إنها لا ميزان لها إلا التلحين « واكثرها مبني على تأليف الأرغن والغناء بها على غير الارغن مستعار وعلى سواه مجاز [4] » . وفي كل هذا بيان عن الاتصال الوثيق بين الغناء وبين الأدب عموماً ، وعن آثاره المباشرة فيه .

٥ - الشعر والكتابة .

في فصل لاحق سأتحدث عن الذوق الاندلسي في فهم الشعر ، والإقبال على أغراض منه والإعراض عن اخرى ، وسأعرض لتطور هذا الذوق واختلافه وتلاؤمه مع البيئات المكانية والزمانية . وما نحن بسبيله هنا هو بيان إقبال الاندلسيين على الشعر ، ومن ثَمَّ الكتابة ، ومكانة الشعر والشاعر ، والكاتب

---

١) الذخيرة القسم الاول ـ المجلد الثاني ١ ٢ ، والخبر في نفح الطيب ٩ ٢٣١
٢) المغرب في حلى المغرب ٢ ١١٩
٣) المغرب ٢ ١٢ ، الشعراء شعره خرج عيداناً سداداً (اللسان) .
٤) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك ـ تحقيق الدكتور جودة الركابي ـ دمشق ١٣٦٨ - ١٩٤٩ صفحة ٣٥ .

وكتابته ، ودور ذلك في تكوين « بيئة ثقافية » تصلح لأن نحيل عليها أثناء فصول الكتاب ، في الحديث عن النقد والنقاد ، والأدب والأدباء .

وإذا كان الشعر « ديوان العرب » فيه مآثرهم وأخبارهم وقصصهم ومجالي حياتهم ، فإن ذلك أو ما هو قريب منه يصدق على معظم الشعر الأندلسي ، فإنه ديوان حياة الأندلس . وكان للشاعر من المكانة - على اختلاف في تقديرها - ما يؤهله لأن يكون ممثلاً لبيئته ومشاركاً في تكوين ثقافة الأندلس . والحكم العام الذي يتجاوز بعض الجزئيات أو يأخذ بالغالب الأعم أن نقول كما نقل المقري : « والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف ، والمُجيدون منهم ينشدون في مجالس ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما ، ولكن هذا الغالب ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها[1] » .

وكانت للكاتب في الأندلس شخصية أكثر ظهوراً في المجتمع وأعظم أثراً فقد كانت حاجة السلطان الى كاتب يعينه في توجيه أمور الحكم أكثر من شاعر يطربه ساعة من الزمن وكان ارتباطُ خطة الكتابة بالرياسة والسلطان السبب الأول في شهرة الكتّاب وذيوع صيتهم ، ووقوفهم مع القضاة في موقف متقارب من نظر العامة والخاصة من التعظيم والمكانة ويتقل المقري أن الكتّاب عندهم على ضربين « أعلاهما كاتب الرسائل وكان له حظٌ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السّمه يخصه من يعظّمه في رسالة وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظه ، وإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه

---

1) نفح الطيب ١ : ٢٠٧ .

والكاتب الآخر كاتب الزمام : هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون بالأندلس وبرّ العدوة لا نصرانياً ولا يهودياً[1] ... » . ولعل هذا التقسيم ينطبق على الاندلس بعد مرور فترة من الزمن على الاستقرار الأموي وتدوين الدواوين وضبط أمور الدولة . وذكر لسان الدين بن الخطيب[2] أن الأمير النصري يوسف بن اسماعيل (٧٣٤ — ٧٤٩) قلده (كتابة سره) إضافة الى منحه رتبة الوزارة ، في حين كان كاتبه (الرسمي) الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب ؛ وهذا منصب كتابي آخر . كما تأصّلت أيضاً خطة منصب جديد احتُفل له في الدولة النصرية ودول المغرب منذ القرن السابع وهو منصب كاتب العلامة وفي ذكر هذا الكاتب ومن تولّى هذا المنصب كتابٌ لابن الأحمر مطبوع[3] .

وقد زاد من مكانة الكاتب أنه كان يصل في بعض من الاحيان الى مرتبة الوزارة لِما يبديه من البراعة في تصريف الامور ، أو لِما يكون فيه من المواهب . والمثل مطّرد في مملكة غرناطة اطّراداً كبيراً .

هذه مكانة الكتّاب ومشاهير هم ، وسنعرض لطرائفهم ومآثرهم بالمشاركة في فصل آخر أكثر ملاءمة لسير البحث .

١) نفح الطيب ١ ٢ ٢ - ٣ ٢
٢) اللمحة البدرية في الدولة النصرية ٩١
٣) مستودع العلامة ومستبدع العلامة لأبي الوليد اسماعيل بن [illegible] بن الأحمر - [illegible] الرباط - ١٩٦٠ - تحقيق [illegible] بن تاويت التطواني ، [illegible] التونسي

الأندلسية

استمر الأندلسيون زماناً على الاكتفاء بما يردهم من المشرق من ثمرة الفكر ، ويعنينا من ذلك هنا الشعر والنثر والدواوين والآراء النقدية الأدبية ، والمثل المحتذاة في ذلك كله . وقد استمر إعجاب الأندلسيين بالمشارقة وبما هو مشرقي إلى آخر عهد المسلمين بالأندلس ، إلا أنه مرت عليهم فترة أحسوا فيها بأنهم (أندلسيون) أنجبت بلادهم علماء وشعراء وأدباء وشيوخاً في كل فن ، فاتجهت الى ذلك أنظارهم ، ووجد من يقدر أعلامهم حق قدرهم ، وكانت تلك حركة تطاولت مع الزمن ، هي ما نسميها بـ (الأندلسية) .

وليس المقصود بالأندلسية ما يتبادر الى الذهن أحياناً من معنى الإقليمية وتطبيقه على الدراسات الأدبية ، ولا علاقة لها مع نظرية البيئة التي شرحها أحد الباحثين ، وطلب أن يكون أساس تقسيم دراسة الأدب العربي الإسلامي « هو اختلاف البيئة وتغايرها ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فيها » [1] . ووجه الاختلاف من ناحيتين . الأولى أنّ تقصي هذه الفكرة والاحتجاج لها أو عليها له مجال آخر يطول ، وليس من برنامج هذا البحث الإفاضة في ذلك .

(١) مصر في تاريخ البلاغة ـ أمين الخولي ـ مقالة في مجلة كلية الآداب ـ مجلد ٢ جزء ١ مايو ١٩٣٤ ـ صفحة ٥ ـ ٦ .

والثانية أن التدليل على وجود ما يُشعر بالتفات الأندلسيين الى تاريخهم وعلمائهم وأدبهم وتراثهم لا يعني الأخذ بهذه النظرية ، ولا تندرج تحت أحكامها مظاهر تلك «الأندلسية» . ولا يدخل في نطاقها فيما نَصِفُ ونتحدث ما يتبادر الى الذهن من معاني القومية أو الإقليمية بمفاهيم اليوم ، فإن الأندلسيين لم يعتبروا أنفسهم يوماً جنساً آخر غير العرب بمعنى الكلمة العام ، ولا دولة أخرى تختلف عن بقية دول الإسلام . ولئن حصلت منافسة بين الأندلسيين والمشارقة فلإثبات الوجود – كما نقول – أو بينهم وبين المغاربة في بعض الأزمان فللاختلاف بين البداوة والحضارة بمدلول معاني الكلمتين في الأكثر الغالب .

لقد تجلّت هذه الاندلسية في شعور واضح بابتكارات الاندلسيين في التأليف والشعر والكتابة والعادات ، والتفاتٍ إلى تاريخ الأندلس وجغرافيتها وخصائصها ، وتاريخ علمائها وولاتها وقضاتها وكتابها وشعرائها ، ولا يعنينا تقصّي ذلك ، ولكن الاشارة العاجلة تعني ، وستكون بالإلمام بنصيب الادب والادباء وما يتصل بذلك

استقر العرب في الاندلس ووطدوا البنيان على اختلاف أبعاده وآدابه ، ولكنهم ظلوا مشدودين بأذهانهم ونفوسهم الى المشرق ينقلون أخباره ويستقطبون نوادره ويلحقون بركبه أينما اتجه ، ولا نستغرب من الأمير الأموي عبدالرحمن ابن معاوية داخل الاندلس أن يقول في شعر له بعد أن استتبت له الإمارة واستقر على كرسيها إنه يحن الى المشرق والعراق ، وكأنه يهوى أن يعيش سوقة بين بني العباس في مرابعه على أن يكون أمير غربه ، وما حاجته إلا نخلة مفردة !

يا نخلُ أنتِ غريبةٌ مثلي — في الغرب نائيةٌ عن الأهل
فابكي وهل تبكي مُكبَّسةٌ — عجماء لم تُطبع على حبل

لو أنها تسكي ادن لبكت	ماءَ العرات ومَنبت السَّحل
لكنهــا ذهلت وأدهلي	نعصي بني العَبّاس عن أهلي[1]

ودخل الى الأندلس عدد من المشارقـــة كان لبعضهم حظ وافر من العلم والثقافة والمقدرة على التلاؤم مع البيئة ، فأثّروا – كما سنبين – في ثقافـــة الأندلس وعاداتهم ، ومهّدوا لتثبيت المثُل المَشرقية في الفكر والأدب وكثيرٍ من نواحي الحضارة ، ولكنها لم تكن كلّ شيء في الحضارة الأندلسيــة . والى جانب مدرسة الشعر (القديم) الذي شجعه القالي وصَحبُه ازدهرت مدرسة الشعر الحديث وظهر منها أعلام كبار .

البَلّوطي

وقد بدأت مظاهر شعور بعض الأندلسيين النابهين بأنفسهم بعد استهتار مَن حولهم بمعرفة قيمتهم ، وعدم التفات المولعين بكل ما هو مشرقي – ومن ثمّ بالمشارقة أنفسهم – الى هؤلاء النفر النابهين فظهرت الشكوى من اهتضام الحقوق ، ومن إغفال المُبدعين، كما اتخذ الأمر في بعض الأحيان طريقة التّجريح على المشارقة ، والتندر عليهم ، لإيضاح هذا الغرض . ومن هذه الشكاوى ما روي عن خطيب بني أمية : منذر بن سعيد البلوطي ، الشهير، وكان من خبره أن رسولاً للروم وفد على الحكم المستنصر وخطب بين يديه فانتدب له أبا علي القالي للرد عليه فأرتج عليه وتلعثم ، فانتدر منذر وأنقذ الموقف » وأنشد لنفسه في آخر الخطبة

هذا المقالُ الذي ما عابه فَنَــدُ	لكن صاحبَه أزرى به البَلَدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطـّرفاً	لكني منهمُ فاغتالني النّكد

(١) الحلــة السيراء لابن الأبار . تحقيق الدكتور – حسين مؤنس – الشركة العربيـــة للطباعة الجزء الاول صفحة ٣٧

لولا الخلافةُ أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرضٍ ما بها أحد (١)

الغزال .

وأقذع يحيى بن حكم الغزال في هجاء زرياب فأزعجه عبد الرحمن عن الأندلس ، فدخل العراق ، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة فوجدهم يَلهجون بذكره ولا يُساوون شعر أحد بشعره ، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : مَن منكم يحفظ قوله .

ولما رأيت القوم أكدت سماؤهم تأبطتُ زِقّي واحتسبتُ إنائي

فلما أتيتُ الحانَ ناديت ربّه فثاب خفيف الروح نحو ندائي

قليل هجوع العين إلا تعلّةً على وجلٍ مني ومن نظرائي

فقلتُ أذقنيها ... الخ .

فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم خفّضوا عليكم فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركتُ في شرب النبيذ خطيئتي وفارقتُ فيه شيمتي وحيائي

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا وافترقوا عنه (٢) . ومن الطريف أن أندلسياً آخر انتصر للأندلس وشعرها فقدم إلى يحيى الغزال موهماً أن الشعر لأبي نواس على الطريقة نفسها (٣) .

ولم يتورع الأندلسيون عن [illegible] من المشارقة الوافدين ، [illegible] الذي وفد من المشرق [illegible] إلى أن [illegible] عليهم [illegible]

١) جذوة المقتبس ٣٢٦ و[illegible] ١٥١ .
٢) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية [illegible] القاهرة ١٩٥٤ صفحة ١٢٨ ، والخبر في نفح الطيب [illegible] ٣ [illegible] ٢٩ [illegible] المغرب .
٣) الجذوة ٢١٢

الناس اليه ، وخلا مجلس عالم أندلسي شهير وقتها هو الخُشَني ، فاحتال بعض تلامذته ودخل مجلس العجلي وخطّأه على مشهد من الحاضرين حتى أعاد الى حلقة الخشني حياتها [1] .

صاعد البغدادي :

ومن الامثلة السافرة على ما لقي بعض الوافدين إلى الاندلس من محاولات (الاختبار) ووضعه في موضعه الذي يرونه له ، والايقاع به . صاعد البغدادي الذي قدم في زمن المنصور بن أبي عامر وقد كان على علمه مُتَحرقاً ، وَصّاعاً « ولمّا دخل قرطبة دفعوه بالجُملة عن العلم باللغة ، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، ولذلك ما رضيه أحد من أهلها أيام دخوله إليها ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه ولا للاقتداء به [2] » . ولم يثبت أمام الجمع الذي جمعه المنصور للتباحث معه ، ولكنه ظل عنده كالنديم ، إلى شعر يصنعه وقصص يؤلفها .

ابن حزم . رسالته في فضل الأندلس

فإذا بلغنا القرن الخامس وجدنا أبا محمد بن حزم وله رسالة هامة « في فضل الأندلس وذكر رجالها » ، احتفظ بها المقري في نفح الطيب [3] ، وذكر أن أبا محمد وضعها للرد على رسالة أبي علي بن الربيب القروي (القيرواني) التي بعث بها إلى أبي المغيرة بن حزم [4] (ابن عم أبي محمد ومعاصره) يذكر فيها تقصير أهل الاندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسِيَرملوكهم ورفع أبو محمد بن حزم رسالته هذه إلى صديقه أبي بكر محمد بن إسحاق [5] .

١) طبقات الزبيدى ٢٩٨

٢) الذخيرة القسم الرابع - المجلد الأول - صفحة ٢ - ٣

٣) نفح الطيب ٤ ١٥٥ - ١٧٠ .

٤) رد أبو المغيرة على صاحبه رسالة ، في الذخيرة ١/١ ١١٣ ، ١١٦ مقتطفات منها

٥) جذوة المقتبس ٤٢ .

بدأ ابن حزم رسالته فذكر أنه وقع في يده كتاب ألفه رجل من مُصاقبي الاندلس أخذ فيه عليهم إهمال الأندلسيين لذكر علمائهم .. وأنه لقي من شجعه على التأليف في الرد عليه . قدّم الحديث بن ألف في مآثر الاندلس وأولهم أحمد ابن محمد الرازي التاريخي ، وقال إن قرطبة مع سر" مَن رأى في إقليم واحد « علنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا [1] » . وأقام دراسة مقارنة لطيفة خرج منها إلى أن « يسب الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل تارك لسكناها إلى أن مات [2] » . وهو على هذا يضيف القالي إلى الاندلسيين ، ولا ينازع في محمد بن هانيء « الاندلسي » . وصار بالشكوى من إعراض أهل الاندلس عن علمائه لأن أزهد الناس في عالم أهله « ولا سيما أندلسنا فانها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد [3] ». وهو هنا يقيس على ما حوله ويطلق على نفسه وما لقي من أهل عصره . وعدّد تآليف الأندلسيين في التفسير مثل تفسير القرآن الكريم لبقي بن مخلد « فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره [4] » . وذكر تآليفهم في أحكام القرآن وعلوم الشريعة وكتب السنة ، وكتبهم في اللغة وذكر كتباً ألفت في الشعر مثل كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الاندلس ، وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فرج الجياني الذي عارض به الزهرة لداود الاصفهاني ، والتشبيهات من أشعار أهل الاندلس ، صنعه علي بن محمد الكاتب ونوّه بشرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي وقال فيه إنه حسن

١) نفح الطيب ٤ ١٥٧
٢) نفح الطيب ٤ ١٥٩
٣) نفح الطيب ، ٤ ١٦١ .
٤) المصدر نفسه ١٦٢

جداً [1] ثم تحدث عن بحث الأخبار المتعلقة بتاريخ الاندلس ، وكتب الطب ، والفلسفة ، والعدد ، والهندسة ، وعلم الكلام . وعاد إلى استكثار ما يصدر عن الأندلسيين « وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ونأيه عن محلة العلماء فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والاهواز وديارمصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم ودويه ومراد المعارف وأربابها [2] » . وختم الرسالة بفضائل الاندلس من حيث مَنْ فيها من الادباء ، وقسم شعر الاندلسيين إلى قسمين . فمنه ما يجري على مذهب الاوائل ومنه ما يتبع طريقة المُحْدَثين؛ ودخل في موازنة شعراء الاندلس وأدبائها مع المشارقة مساوياً أو مرجحاً . وله في هذا نظرات صائبة ، فقال إن ذُكِر أبو الأجرب جعونة بن الصّمة الكلابي لم يُباهِ به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ولو أنصف لاستُشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الاوائل [3] » ووصل إلى المحدَثين من الشعراء فقال « ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن درّاج القَسطلي لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغُرة [4] » وختم بذكر احمد بن عبد الملك بن شُهيد ، ومحمد بن مَسَرّة .

ووصل ابنُ سعيد رسالةَ ابن حزم فذكر المؤلّفات التي خلّفها الأندلسيون بعد عصر ابن حزم ممّا رأى فيه طرافة وابتكاراً ومما يُفاخر به . واتخذ الطريقة نفسها من عَرض الكتب حسب موضوعاتها ، وذِكر أسماء المؤلفين ، ومنزلة

1) نفح الطيب ١٦٦
2) المصدر نفسه ١٦٩ .
3) المصدر نفسه ، ١٦٩ .
4) المصدر نفسه ٤٣ ١٧ .

الكتاب من فنه بين الكتب الأخرى .

المقارنات :

ومن واقع الصلة بين الأندلس والمغرب نشأت مفاصلات ومفاخرات بين البلدين فقد كان الأندلسيون يتعصبون دائماً لبلدهم ويفضلونه على غيره بنجومه وإقليمه وعلمائه وتراثه . ومن ذلك رسالة المفاضلة الذي كتبها أبو الوليد الشقندي [1] مناظراً أبا يحيى بن المعلم الطنجي بعد أن تنافسا مشافهة : كلٌ يفضل بلده فهذا الأندلس والثاني بر العدوة وكان الشقندي معاصراً لدولة الموحدين حيث كانت الرياسة للمغاربة على الأندلسيين فكان في هذه الرسالة ما يشفي بعض الصدور لما رأوه من ذهاب الملك عنهم وانتقال السلطان إلى سواهم . وتبدأ الرسالة بمقدمة عامة وإيثار للأندلس [illegible] بلهجة [illegible] ثم [illegible] العلماء و[illegible] أئمة في الفقه والحديث والقرآن والنحو واللغة والأدب ، من ذلك قوله « وهل لكم في حفظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب (المحكم) وكتاب (السماء) العالم الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته وهل لكم في النحو مثل أبي محمد بن السيد وتصانيفه ومثل ابن الطراوة ومثل أبي علي الشلوبين . وهل لكم في علوم [illegible] والفلسفة [illegible] [2] واعتنى بعدد من الشعراء وأثنى عليهم واختار لهم [illegible] ما [illegible] ووصف ما اختاره للإبداع [illegible] [illegible] الأندلس وأورد [illegible] أسماء [illegible] وتحدث عن بعض [illegible] الأندلس [illegible] على بعض المدن الأندلسية [illegible] ومالقة

[illegible]

١) نفح الطيب [illegible] ١١١ [illegible] ٨ ٢
٢) نفح الطيب ج ٤ ١١٢

بعض الاندلسيين رسائل في خصائص مدنهم واستعراض محاسنها على سبيل المفاخرة والموازنة . ومن هذه الرسائل : رسالة أبي بحر صفوان بن إدريس ، ورسالة لسان الدين بن الخطيب

تقليد المشارقة :

وكان ولع الاندلسيين بكل ما هو شرقي عجيباً ، فقد احتالوا في اقتناء الطُرف والجواري والمغنيات والكتب مما جاءهم من المشرق. وقد تُصنّع لهم الأشياء خصيصاً بناء على طلبهم . وقد اشترى الحَكَم كتاب أبي الفرج الاصبهاني (الأغاني) بألف دينار وهدايا كثيرة .

ومن ذلك أنهم سموا كثيراً من مدن الأندلس بأسماء مدن مشرقية لما رأوه من صلة وتشابه بين خصائصها . ونقل المقري أن أبا الخطار حسام بن ضرار الكلابي « كَثُر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل أهل دمشق إلبيرة لتشابهها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قِنسرين ، وأهل الاردن رية ومالقة وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شَذُونة وسماها فلسطين . وأهل مصر تدمير وسماها مصر » .

وقد وُجد من ينسب إلى الأندلس متنبّيها وبحتريها ومعريها بشكل يدعو للتوقف والنظر ، فان الأسماء كثيرة ، وعمليـة المقارنة استمرت زماناً وانتحلها كتاب كثيرون وانتقلت العدوى إلى المشرق فوجد فيهم من يسلك السبيل نفسه كالثعالبي . فابن اللبانة هو « سموأل الشعراء (المغرب ٢ ٤١١) وحمدة بنت زياد خنساء المغرب (المغرب (٢ . ١٤٥) وأبو الاجرب جعونة الكلابي عنترة الاندلس (المغرب ١ . ١٣١) وكانوا يقولون عن الرمادي (فُتح الشعر بكندة وختم بكندة (الجذوة ٣٤٦ ، البغية ٣٧٨) وأبو الربيع سليمان بن علي الشهير بكثيّر (الرايات ٢٩) والزبيدي ابن دريد (النفح ٥ ٢٤) والكاتب محمد بن سعيد الرحالي يلقب بالأصمعي (النفح ٥ ٨٢) ومؤمن بن سعيد . دعبل

الاندلس (المغرب : ١ /١٣٢) وأبو بكر محمد الأعمى المخزومي بشار الاندلس، وقد أحيى سيرة الحطيئة (المغرب : ١/٢٢٣) وشبهوا سيرة المعتمد بن عباد مع شاعره ونديمه ابن عمار بسيرة الرشيد مع جعفر بن برمك (المغرب ١/٣٨٩) وشبهوا أحمد بن محمد الحياني المعروف بتيس الجن بأنه يجري في وصف الخمر مجرى أبي علي الحسن بن هاني (الجذوة : ١٠٧ ، وسماه في المغرب ديك تيس الجن ٢ : ٥٨) ، والرصافي : ابن رومي المغرب (٢ : ٣٤٣) ونقل المقري في النفح أن مروان بن عبد الرحمن الطليق كان في بني أمية شبه عبدالله بن المعتز في بني العباس بملاحة شعره وحسن تشبيهه (٥ . ١٢٤) . وقد يجدون للرجل أكثر من شبيه لديهم فابن زيدون ، بحتري الاندلس (الذخيرة ١-١ : ٣٢٦) وأبو عبد الله بن محمد بحتري الاندلس أيضاً (الرايات ٠ ٧٨) وأبو العباس أحمد ابن عبد الله التطيلي الأعمى : معري الاندلس (الرايات . ٨٩ ، ويرى كرتشكوفسكي أن الصلة بينهما هي العمى فحسب ٨٥) وابن دراج القسطلي متنبي المغرب (عن اليتيمة في النفح ٤ ١٨٤ الرايات . ٧٣) . وكذلك ابن هانيء الاندلسي هو عندهم متنبي الاندلس . وأبو الحسن علي بن اسماعيل القرشي الاشبوني ، كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه (الذخيرة القسم الثاني(المخطوط) ٢٦٢/ط) . وابن خفاجة صنوبري الاندلس (النفح ٥ / ٣٥ [1]) . والعدد للشخصي كثير ، وهذه كانت نماذج من عصور متنوعة تدل على هذا الانكباب على المشرق وأعلامه

دعائم الأندلسية .

ولكن هذا كله كان يطوي في بعض الاحيان شعوراً جامداً أو داراً تتفوق الاندلسيين فهم بدأوا بإثبات المماثلة والمجاراة إلى تحقيق التفوق والمباهاة فابن حزم يريد أن يحتج في اللغة بأندلسيين معاصرين لجرير والفرزدق ، وابن شهيد

١) وذكر ابن سعيد في هذه الاسماء والألقاب أنهم « كانوا بالقياس الى نظرائهم ونقادهم بين بين وبين شعراء المشرق لا باب تماثل شعرهم وخط احادهم » ولعل هذا هو الغالب وان لم يكن دائماً مطابقاً للمشابهة والمساماة

يتفوق على المشارقة في رسالة التوابع والزوابع ، ونقلوا عن المتنبي إعجابه بشعر ابن عبد ربه وقوله لقد تأتيك العراق حبواً (النفح ٥ : ١٠٤) [1] وصاحب الذخيرة يفخر بالاندلسيين ويُزري بالثعالبي ورجاله في اليتيمة (الذخيرة ١-١ : ٣٢٠) وتداول الاندلسيون دواوين شعرائهم ووُجد من يجمع كثيراً منها كالحُميدي فقد جمع ديوان ابن حزم ، والسرقسطي جمع شعر ابن عمار ، وابن الخطيب رَتّب ديوان ابن الحباب ، وحبيب بن أحمد الشطجيري جمع ديوان الغزال ورتبه على الحروف (الجذوة : ١٨٧) . وشاعت دواوين شعرائهم وكتب المختارات التي كانوا ينتقون فيها من أحسن كلامهم كالذخيرة والقلائد والمطمح وزاد المسافر وتحفة القادم ، والبديع . وصارت لهم في بعض الفنون طرائق مميزة يدركونها كالنزعة الخفاجية نسبة الى أبي اسحاق بن خفاجة جَنّان الأندلس ، فقد حَمَّل عبد أبو بكر بن زهر ديوانه (زاد المسافر . ٥٥) [2] . وحذا ابن الزَّقّاق على طريقة ابن خفاجة في شعره [3] .

وألف الاندلسيون مؤرخين لأمّهات مدنهم : جغرافيتها وتاريخ وخصائصها ، وترجموا فيها لمشاهير الأعلام وكان المؤلف يترجم لأعلام مدينته ويصحح عدد التراجم بذِكْر معظم من ألمّ بتلك المدينة ،فيكون ذلك داعية الى الى إيراد أسماء كتب المترجم به وشيوخه وتلاميذه ، وإيراد نبذ من شعره وترسله ، فهي لاحقة بكتب التراجم من جهة ، وتعد في كتب تاريخ الأدب من جهة أخرى ، إضافة الى فوائد أخرى من جوانب متعددة . والمثال البارز لوجوده بين أيدينا - كتاب الإحاطة - أو هو مختصرة - الذي وضعه لسان الدين بن الخطيب في أخبار غرناطة . وذكر في مقدمة كتابه الكتب التي سبقته

١) ونقل في الذخيرة - القسم الثاني (المخطوط) ٢ / ١٧ ط عن المتنبي أنه قال عن (ابن هذيل الأندلسي) بعد أن سمع بمادح من شعره « هذا أشعر القوم »
٢) وغيره كثيرون انظر مقدمة الديوان ٨ - ٩ .
٣) المغرب ٢ ٣٢٣ .

في تواريخ مدن الأندلس ، وإن كانت لتثير الاعجاب وتدعو الى التأمل [1] .

معارضات :

ولدينا كتب وضعوها اختصاراً لكتب مشرقية – اهتماماً بهـا – وكتب أخرى معارضة لبعض الكتب . فابن فرج الجياني وضع كتـابه (الحدائق) معارضاً كتاب الزهرة لداود الاصفهـاني (الصلة ١ : ٥ ، الرايات : ٧٢) والطرطوشي عارض احياء علوم الدين للغزالي (البغية ١٢٥٠) وأبو القاسم عامر بن هشام الأموي القرطبي وضع مقصورة عارض بهـا مقصورة ابن دريد (برنامج شيوخ الرعيني : ١٩٧) وأبو عبدالله بن أبي الخصال عارض منهج الثعالبي بكتابه المنهج (فهرسة ابن خير ٣٨٦) وكان لكتاب يتيمـة الدهر للثعالبي شهرة عظيمة في الأندلس لما فيه من نماذج مشرقية ، وهذا ما دعا ابن بسام الشنتريني (٥٤٢) لأن يؤلف كتابه (الذخيرة) ليضمنه محاسن أهل جزيرة الاندلس ويعارض كتاب الثعالبي [2] . ومثل ابن بسام صنع أمية بن أبي الصلت (٥٤٦) وكان معاصراً له ، ورحل الى المشرق وألف كتاباً سماه « كتاب الحديقة على أسلوب كتاب اليتيمة [3] » . وكان همّ كثير من الكتاب إثبات تقـدم الاندلسيين ، فابن سعيد صاحب المغرب إذ ذهب مذهب المعارضة المشارقة لم يترك لبلدة من بلاده طرفة نابهة من طرف الشعر ولا تحفة نفيسة من تحف الموشحات والأزجال إلا جاء بها معارضاً متحدياً متجاوزاً في ذلك حد الحمية الى حد العصبية [4] »

الموشح :

وقد أحدث الأندلسيون في الشعر فناً جديداً كان وليد بيئتهم ومن اختراع شعرائهم هو فن الموشح ، وينص ابن بسام على هذا بقوله « وكانت صنعة التوشيح

١) الاحاطة – طبعة دار المعارف بمصر – الجزء الاول ص ٩١

٢) مقدمة الذخيرة (١ – ١)

٣) المغرب ١ ٢٥٦

٤) مقدمة الدكتور شوقي ضيف لكتاب المغرب – صفحة (د)

التي نهج أهل الاندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود ، فأقام عُمادة هذا مسآدها وقوّم ميلها وسادها .. وهي أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تُشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغني محمد بن حمود القبري الضرير [1] » .. وسأعود الى التفصيل في أمر الموشح وموقف الشعراء والنقاد منه في فصل آخر إن شاء الله .

الأمثال :

ومن دلائل اختصاص الأندلس ، ومظاهر استقلال الشخصيـة الأندلسية الأدبية انه — مع الزمن — أخذت الأندلس تستقل في أمثالهـا ، وفي طبيعـة لهجتها ولغتها [2] . فهي أمثال عندهم أسماء وعبارات واستعمالات تـدل دلالة قاطعة على أنها وليدة البيئة الاندلسية ، مثل (مـــا هذا إلا أبو حَرَش) و (أفصح من بكر الكناني) ، و (أفصح من الرشّاش) وهذه أسماء مؤدبين ولغويين من قدامى الاندلسيين أما ظاهرة الاستقلال اللغوي فالمقصود بها تميز اللهجة الاندلسية الدارجة وغوها مع الزمن ، إضافة الى ما حدث في البيئة الاندلسية عامة من تعبيرات ومصطلحات لو سمعها أهل المشرق لمّا عرفوا مدلولها ، مثل كلمة المسدّد أي الحاكم الذي يتولى شؤون بلدة صغيرة والقطيع للضريبـة التي يؤديها المسلمون في بلاد الاندلس وبخاصة بعد الفتنة . وكان لطبيعة أهل البلاد المؤلفين من عرب وبربر ومن أهل البلاد الأصليين أثره في ظهور لغة سائدة — الى جانب اللغة العربية (الفصيحة) يسمونها (الاعجمية) ومنها ثلاث لهجات كبرى هي الأرغونيه والبلنسية والقشتالية واستقصاء ذلك يخرج عن طبيعـة البحث ، ولكن المقصود هو الإشارة إلى أن الاندلس تهيأ لها من الأسباب مــا جعلها تتميز وتنفرد ببعض الخصائص

---

١) الذخيرة ١ ـ ١ صفحة ١

٢) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سياده قرطبة ـ الدكتور احسان عباس صفحه ٦٤ ـ ٦٥

الثقافة في الأندلس

بدأت الأندلس الإسلامية ولاية تابعة لعاصمة الدولة الأموية في دمشق . وكان الولاة يخرجون من الشام اليها ويحكمون هناك باسم الخليفة الأموي ويرمون عن قوسه في السلم والحرب . واضطرب الحبل سنوات قليلة فيما بين ضعف الدولة الأموية وبين ورود عبد الرحمن بن معاوية على المغرب ثم الأندلس، فتولاها عمال من إفريقية أو رؤساء موقتون ، حتى قامت دولة الداخل على ساقها ، بعد أن ألقى عصا التسيار

ومعلوماتنا عن هذه الفترة فيما بين الفتح وبين استتباب الأمر للدولة المروانية قليلة نزرة ، تتألف من أسماء الولاة ، وتفاصيل الفتح ، وتواريخ الغزوات في بلاد الفرنجة ، والنظر في العَود إلى المشرق عن طريق رومة والقسطنطينية ، ولكننا مع هذا لا نعدم لمحات قليلة واشارات مغيرة عن سير الحركة الأدبية في هذه الفترة من الزمن فقد كان أبو الأخرب جعونة الكلابي مداحاً للصميل بن حاتم وهو أحد رؤوس المضرية في الأندلس يوم نزاعهم مع اليمانية — وأدى فيه قوافيه ، وكان الصميل أغلظ القسم على نفسه ألا يراه الا أعطاه ما حضره ، وكان أبو الأخرب يعتمد إغباب لقائه ، وكان لا يزوره إلا مرتين في العيدين . وكان فارساً شجاعاً يدعى عنترة الأندلس [1] ، وفي الخبر نفسه اشارة أخرى متممة عن

---

١) المغرب ١ . ١٣١

معلم صبيان يعلم تلاميذه القرآن الكريم ، كان مَرّه الصميل .

المساجد والمدارس :

كانت المساجد هي دور العلم في الاندلس ، فإنه لم تنشأ فيهـا المدارس المستقلة إلا في زمن متأخر في عهد دولة بني نصر ، ففي أيام يوسف بن اسماعيل ابن نصر « بنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس في حضرتـه ، فتمت وكملت أوقافها [1] » . وظل المسجد في الغالب المصدر الاول لتلقي العلوم والآداب ، وبخاصة علوم الشريعة . وكانت فئة من الأمراء والكبراء تختلف لأبنائهـا المدرسين والمؤدبين ، ولكن هذه حالات قليلة لا تغير من الاصل الشائع وفي صلة ابن بشكوال خبر هام ، عن شيخ كان يؤمه القاصدون للعـلم من بلدان مختلفة ، وكان عددهم نحو صف (فصل) كامل يتلقون دروسه ، وينعمون عنده في فصل الشتاء بشهوره القاسية الماحلة بالدفء والغداء ، فنقل عن أحدهم قوله « كنت آتي إلى — أحمد بن سعيد بن كوثر الانصاري في طليطلة — من قلعة رباح وغيري من المشرق ، وكنا نيفاً على أربعين تلميذاً ، فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش بنسط الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الانسان مملوءاً فحماً يأخذ دفأه كل من في المجلس فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد باللبن بالسمن أو الزبد فنأكل حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ونحن قد روينا من ذلك الطعام فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام ، الثلاثة الأشهر ، فكان ذلك منه كرماً وجوداً وفخراً لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة [2] » . ولا شك في أن مثل هذه الحالة قليل ، ولكن دلالتها أبعد مرمى ، فقد وُجد فقهاء وعلماء يفتحون منازلهم للعلم ، بالاضافة إلى دور المساجد في ذلك .

١) اللمحة البدرية في الدولة النصرية — لابن الخطيب ٩٦ .
٢) الصلة لابن بشكوال ١ ٣٧ طبعة الدار المصرية .

أثر الحكام :

وكان للحكام دور فعال في تنمية الثقافة ، وتطويرها والتشجيع عليها . وكان من أهم الأمور اقتناء الكتب وبخاصة المشرقية منها ، وإضافتها إلى المكتبات ونشرها في أيدي العلماء والمتعلمين . وكان الحَكَم المستنصر مثالاً نادراً للخليفة الذي تشغله الدولة ، وتشغله أيضاً رغبته في العلم واقتناء الكتب والاشارة بتأليف الكتب في موضوعات يقترحها ؛ « ولم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمّم بها . أفاض على العلم ونوه بأهله ورغّب الناس في طلبه ووصلت عطاياه وصلاته إلى الامصار النائية عنه . وبعث الى أبي الفرج الاصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألّفه في الأغاني وما لأحد مثله فأرسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو بنسخة أحد منهم . وألف له ايضاً أنساب قومه بني أمية[1] .. » وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها . وذكر صاحب الحلة السيراء أسماء بعض ورّاقيه وينقل عن ابن حزم أن عدد الفهارس التي كانت في مكتبة الحكم لتسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط[2] ، وكان لعبد الله أخي الحكم هذا مكتبة ضخمة آلت إليه بعد مقتله[3] .

استمر الازدهار الثقافي إلى آخر بني أمية وفيها الدولة العامرية وتشجيع المنصور بن أبي عامر ونشأت دول الطوائف ، وقد سبقت الاشارة اليها ونضيف الآن أن كل دولة من هذه الدول حاولت أن تكون بؤرة ثقافة وهالة رياسة ، وان اختلف نوع الثقافة المسيطرة فيها وعماد الادب والأدباء وفي بلاطهم شعراء كان ذلك شعار ومنهم أنفسهم شعراء وأدباء وكان للمعتمد في الادب باع وباع في العلم وينثر وفي أيامه نفقت سوق الادباء وتسابقوا

---

(١) الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ... ج ١ ص ٢٠٩ ... ٢ / ٣
(٣) المصدر نفسه ١ / ٢٠٢

اليه وتهافتوا عليه [1]. وكان المعتصم بن صمادح التجيبي « يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث ، ولزم حضرته فحول من الشعراء كابن الحداد وابن عبادة وابن مالك [2] .. وكان محمد بن أحمد بن اسحاق بن زيد بن طاهر القيسي صاحب تدمير جواداً ممدحاً يتجمعه الشعراء ويقصده الأدباء [3] » . وكان أحمد بن رشيق الكاتب على ميورقة مقدماً من مجاهد العامري واشتهر عنه أنه « يشتغل بالفقه والحديث ويجمع الصالحين ويؤثرهم وهو آوى الفقيه أبا محمد بن حزم [4] » ولئن بدأت دولة المرابطين عسكرية بدوية فإنها سرعان ما تأقلمت مع الجو الأندلسي ، وازدهر الادب والشعر . ولا شك في ان الدراسات عموماً لم تتأثر بالتغير السياسي بمثل ما تتأثر به الحياة العامة ، لأنها عادة حلقات مستمرة متلاحقة يغذيها العلماء والوافدون من المشرق والآيبون من رحلات الحج والعلم والتجارة ، فاشتهر كتاب كبار وشعراء ذاع صيتهم. واستقدم علي بن يوسف بن تاشفين من كبار كتاب الأندلس نفراً كثيراً ، « ولم يزل أمير المسلمين من أول امارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك [5] كابن الجدوابن القبطرنة وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وابن عبدون

واستمر الحال من تشجيع الدولة للعلم والمتعلمين في دولة الموحدين أيضاً . فكان عبد المؤمن — أول أمرائهم — مؤثراً لأهل العلم محبباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنوية بهم والاعظام لهم، وقسم الطلبة طائفتين . طلبة الموحدين وطلبة الحضر بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين [6] . وعظمت مكانة الشعراء عند الموحدين وكثروا كما تقدم في فقرة سابقة وكان أبو يعقوب يوسف (ابنه)

١) الحلة السيراء ج ٢ ٥٥ ٢) الحلة السيراء – ج ٢ ٨٢ – ٨٣
٣) الحلة ٢ ١١٩ . ٤) الحلة ٢ ١٢٨ . ٥) المعجب ٢١٧ .
٦) المعجب ٢٦٩ .

بعيد الهمة سخياً جواداً . . مع إيثار العلم شديد وتعطش اليه مفرط . . وكان له مشاركة في علم الادب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو [1] . ودفعه طموحه العلمي الى معرفة الفلسفة ، فصحبه من علمائها : أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ونبهه على أبي الوليد بن رشد فقربه وأكرمه .

الاثر المشرقي :

هذا وجه من وجوه تقدم الثقافة وازدهارها ، ذلك هو أثر الدولة في الثقافة ومناحي العلم والمعرفة . ولكن هل كان هذا هو كل شيء عن الثقافة في الاندلس؟ لا بد من وقفة عند أثر الوافدين على الاندلس في صبغ بعض وجوه الحياة الاندلسية بصبغة مشرقية ، وتثبيت بعض النعم الفكرية والحضارية ، وتوجيه الدراسات الادبية وجهة معينة . والاستقصاء صعب وعير عملي ، ويعني في ذلك نماذج قليلة ندرسها ونحللها . وقد أورد المقري في النفح في الجزأين الثالث والرابع تراجم كثيرة وفيرة لمن رحل عن الاندلس إلى المشرق استقراراً ، أو لطلب العلم والحج والسماع — وهم الاكثر — ولمن وفد على الاندلس من أهل العلم والادب . ويستشف المرء من هذه التراجم مدى الأثر الذي تركه المشرق في الاندلس ، ويتبين مدى الصلة التي كانت تربط بينهما وان كانا في الادارة والسياسة في بعد واختلاف .

في سنة مئتين وست قدم إلى الاندلس من العراق علي بن نافع المعروف بزرياب مولى المهدي العباسي وتلميذ اسحق الموصلي ، فلقي حفاوة بالغة ، اذ تلقاه عبد الرحمن الأوسط [2] ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، ووفر له مرتباً ومؤونة واقطاعات كثيرة . ولما سمعه عبد الرحمن ونادمه زاد اعجابه به وعلت مكانته لديه وفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده [3] . ويبدو أن زرياب استطاب المقام واستقرت نفسه بما انثال عليه فعكف على ألحانه وآلاته ،

---

(١) المعجب ٣١ - ٣١١ (٢) نفح الطيب ١ ٣٢٢
(٣) نفح الطيب ٤ ١٢١

واستنبط شيئاً جديداً في آلة الغناء التي برع فيها . فزاد في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه [1] . واخترع مضراب العود من قوادم النسر معتاضاً به من مُرهَف الخشب . وكملت شخصية زرياب بأنه لم يكن مغنياً فحسب ، بل كان نديماً من الدرجة الاولى ، وكان عالماً بالنجوم وقسمة الاقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها [2] ، إلى جانب علمه في الموسيقى وحفظه عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها – كما ينقل المقري – وحمل زرياب مع ما حمل من المشرق نماذج وعادات وطرائق في آداب السلوك والمآكل ومعاشرة الملوك وأصول المنادمة وأنواع اللباس وأشياء كثيرة تدخل في باب الحضارة وزيادة التأنق في أسلوب التمدن ، فقد ورثت بغداد حضارة بني أمية وأضافت اليها ما استنبطته استناداً إلى ما نقلتها من حضارات الفرس وغيرهم. وان الناظر في قائمة بأسماء اقتباسات الاندلسيين مما أحدثه زرياب ليعجب من كثرتها وتنوعها ، ولعل الأهم من ذلك أنها استمرت زماناً طويلاً مُسَلَّماً بها ، مقصوداً اتباعها والاخذ بها ، وصار كل ما جاء به مستمراً ، إلى آخر أيام أهل الاندلس ، منسوباً اليه [3] .

اتخذ الاندلسيون(زرياب) ومن معه من أسرته وحاشيته قدوة، وقلدوهم في كل ما أحـــدثوه لديهم مثل قص الشعر وتطييب الاجسام وتنويع المآكل والمشارب. وقد أشاع فيهم تفضيل آنية الزجاج على آنية الذهب والفضة، ولبس كل صنف من الثياب في الزمان الذي يليق به وأحدث في مراسم (طرائق) الغناء أنماطاً بقيت مقلدة ومتبعة طوال عهد الاندلس واستمر بالاندلس أن كل من افتتح الغناء ، فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر ويأتي إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والاهزاج تبعاً لمراسم زرياب وقـــد أسلفت الحديث عن أغاني زرياب (المقطعات الملحنة) وشيوعها وحفظها .

١) نفح الطيب ٤ ١٢٢ ٢) نفح الطيب ٤ ١٢٣
٣) نفح الطيب ١٣٣

تمثل من الوافدين :

وقبل أن نعرض للتراث المشرقي في انتقاله إلى الاندلس أحب أن أقف وقفة أخرى عند شخصية هامة ذات أثر واسع مثل أثر زرياب في الأهمية ، تلك هي شخصية أبي علي البغدادي [1] . قدم أبو علي على الاندلس في خلافة الامير عبد الرحمن الناصر ، وتلقاه الحكم ولي العهد بما هو معروف عنه من قبول أهل العلم والفكر ، فاستوطن قرطبة ونشر علمه بها ، واستفاد الناس منه وعوّلوا عليه عليه ، واتخذوه حجة فيما نقله . وألف في الاندلس كتباً كثيرة أملى بعضها على حلقات المتأدبين والمتعلمين ؛ ومال اليه متعلموهم ، وعلماؤهم كالزبيدي مثلا . من كتبه الأمالي والنوادر والمقصور والممدود ، وكتاب البارع الذي كاد يضم لغة العرب [2] . وكان للقالي أثر في تعضيد المدرسة الشعرية القائمة على اتباع (مذهب العرب) الذي يقابل مذهب المحدثين وهذا كان شائعاً ... . ويظهر هذا الأثر من عرض الكتب والدواوين التي أدخلها إلى الأندلس وفي فهرسة ابن خير الأشبيلي الأندلسي ثبت بها قال و ... كتب الشعر وأسماء الشعراء الذي وصلها ابو علي ... البغدادي رحمه الله إلى الأندلس ، سوى ما ... عنه وأخذ بالقيروان ... والحـ ... شعر ذي الرمة ، وشعر عمرو بن قميئة ، وشعر الحطيئة ، وشعر حميد ، وشعر أبي النجم العجلي ، وشعر معن بن أوس المزني ، والمفضليات ، وشعر النابغة الذبياني ، وشعر علقمة بن عبدة التميمي ، وشعر الشماخ بن ضرار الثعلبي ، ونقائض جرير والفرزدق ، وشعر الأعشى ... بن قيس ، وشعر ... وعروة بن الورد ، وشعر المثقب ال... ... المازني ، وشعر النابغة الجعدي ، وشعر كثيّر عزة ، ... ... الأخطل ، وعروة ... وشعر ... ... عبدة بن الطبيب ،

---

١) انظر ... ١٥ ... ... وفهرسة ابن خير ٣٢٣ ، ٣٩٥ - ٤
٢) جذوة المقتبس ١٥٩

وشعر تميم بن أبي مقبل ، وشعر الأفوه الأودي ، وشعر زهير بن أبي سلمى ، وشعر عَبيد بن الابرص، وشعر المرقش الاكبر والاصغر ، وشعر سلامة بن جندل ، وشعر قيس بن الخطيم ، وشعر الطرماح بن حكيم الطائي ، وشعر امرىء القيس ، وشعر دريد بن الصمة ، وشعر أبي حلدة ، وخمسة أجزاء من شعر رؤبة ، وأربعة عشر جزءاً من شعر الهذليين ، وشعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وشعر أبي نواس، وشعر جرير ، وشعر طرفة بن العبد ، وشعر طفيل الغنوي ، وجزء من شعر أبي تمام حبيب بن أوس[1]. وحمل القالي عدداً من كتب الأخبار مثل أخبار نفطويه (٢٨ جزءاً) وخمسة أجزاء من أخبار ابن الأنباري، وسبعة أجزاء عن ابن أبي الأزهر ، وثمانية وخمسون جزءاً من أخبار ابن دريد ، وجزآن من أخبار وإنشادات عن الأخفش ، والمدخل للمبرد ، والمهذب للدينوري ، وكتاب الأخبار لأبي نصر، وجزء فيه عدة من أيام العرب ومعاني الشعر للباهلي ، وكتاب النهي للفرّاء . والصيفان لثعلب ، والعروض لابن درستويه [2]

كتب سائرة :

بدأت الحياة الفكرية في الاندلس في حين كانت الدولة العباسية في المشرق مستقرة ، والأمصار فيها زاخرة مزدهرة وبغداد تبدأ ألقها ونجومها . وفتح الأندلسيون عيونهم على الشعر الحديث الذي اتضحت خصائصه مع أعلام كبار من شعراء العباسيين واستقدموا ما كان شائعاً من شعر المشارقة في الوقت نفسه الذي استقدموا فيه دواوين الجاهليين والإسلاميين ، والكتب المؤلفة في أخبار العرب وأيامهم وبلادهم ، وما يتعلق بهم من خيلهم ونباتهم وأنوائهم ومن هنا كان هذا الازدواج في التذوق الشعرى .. أو لنقل إنه (تواجد) المصدرين المتكافئين من مصادر الثقافة . القديم الذي يعتمد بخاصة على دواوين الجاهليين

١) فهرسة ابن خير ٣٩٥ - ٣٩٧
٢) فهرسة ابن خير ٣٩٨ - ٣٩٩

والإسلاميين وشعرهم ، والحديث القائم على شعر المدرسة الحديدة كشعر أبي نواس وأبي تمام ومسلم بن الوليد .

ان استقصاء كتب الآداب ودواوين الشعر بترتيب دخولها الاندلس أمر عسير ، وخصوصاً إذا اعتبرنا ضياع بعض المصادر المساعدة ، ولكننا نستطيع أن نقارب في ذلك لنتبين تطور مصادر الثقافة الأندلسية وحركة قدوم الكتب المشرقية ، يساعدنا في ذلك النقول المثبوثة في كتب التراجم ، وكتب الأدب العامة ، والنصوص الهامة في كتب برامج العلماء التي يروي فيها مؤلفوها ما رووه عن شيوخهم بالتلقي المباشر أو السماع أو الإجازة المباشرة أو المكتوبة أو غير ذلك من الطرق . وسواء أكانت مرتّبة على الشيوخ أو على أسماء الكتب ، فان عرضنا منها سهل التناول ولا بد من أن نلاحظ ابتداء (مادة) الثقافة الاندلسية . والمقصود بذلك العلوم والموضوعات التي كانت شائعة في حلقات التدريس أو كانت لها أهمية كبرى في تكوين عقلية المتعلم الدارس . والمشاركة هي صفة غالبة على معظم الدارسين ، فقد كانت العلوم الإسلامية مختلطة بالعلوم العربية — المعتبرة أصلاً من علوم الآلة — وتكون دراسات الآداب الذوقية المحض رديفاً وتابعاً للدراسات الاساسية : الإسلامية والعربية [1] . ولا يهمنا هنا إلا ما يتعلق بالدراسات الأدبية بالدرجة الاولى — فهي موضوع تَعلُّقنا — فما هي كتبهم المعتمدة في هذا ، وكيف تطورت الكتب المختارة مع تطور الزمن ، وما هو نصيب الكتاب الاندلسي نفسه في حلقات المدرسين واعتماد المؤدبين .

تحدث ابن خلدون عن المقصود بعلم الادب ، والاسباب المؤدية اليه . وهو

---

١) قال ابن خلدون ان أركان علوم اللسان أربعة اللغة والنحو والبيان والأدب ، وعقب على ذلك بأن « معرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب . . فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة ٥٤٢ — ٥٤٣ (المقدمة للعلامة ابن خلدون الطبعة الثالثة - المطبعة الأميرية ببولاق — ١٣٢٠)

يتحدث عن المثقف العربي وشادي علم العربية بوجه عام ، معللاً بذلك المواد التي كانت تدرس وفوائدها مما تعود به على الملكة الشعرية والنثرية ، بمحاكمة دقيقة وأحكام استقرأها من مطالعاته ، وعاد في بعض منها إلى تقريرات شيوخه . فالمقصود هو «الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم[1]» والسبيل إلى ذلك الأخذ من كلام العرب بمقدار ما يهيىء حصول الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ، ومسائل في اللغة والنحو .. مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة ولا بد من هذا لفهم شعر العرب ، فان الحفظ لا يتأتى إلا بعد فهم وفسّر بَعْضُ معنى قولهم إن الادب هو الاخذ من كل علم بطرف بأنهم « يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث . إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب[2] . »

مراحل تثقيف الدارس :

لقد سارت الدراسات العربية في معظم أقطار المسلمين مواكبة ومتلائمة مع الدراسات الإسلامية ، ولا تشذ الاندلس عن ذلك ، بل ربما كانت هذه الناحية أشد وضوحاً في الاندلس منها في أي بلد آخر ، لظهور الناحية الدينية بعوامل مختلفة كما سبق أن بينت . ويعيننا على معرفة الكتب المعتمدة في الاندلس على تقلب الأيام ، كتب برامج العلماء التي أكثر الاندلسيون من تأليفها . والبرنامج « كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ، ذاكراً عنوان الكتاب واسم مؤلفه ، والشيخ الذي قرأ عليه أو تحمّله عنه وسنده إلى مؤلفه الاول[3] . » وإذا كنا بحاجة إلى سلسلة من كتب البرامج لا تنقطع من أول

١) المقدمة ٥٥٠ ٢) المقدمة ٥٥

٣) كتب برامج العلماء في الأندلس – مقالة الدكتور عبد العزيز الأهواني بمجلة المخطوطات – المجلد الأول – الجزء الاول والثاني . صفحة ٣ .

عهد الاندلس إلى آخره لتكون الصورة واضحة بغاية الدقة — وهذا متعذّر لفقدان الكثير من البرامج ولتأخر كتابها عن العصور الاولى — فان ما لدينا من البرامج يغني ويكفي لما في البرامج من أسانيد الكتب المدروسة عائدة إلى ناقلها الاول عن المؤلف ، أو عن حالتهـــا من المشرق إلى الاندلس بدقة وتفصيل

ويمكن أن نقسم حياة طالب العلم — قياساً على حياة بعض علمائها —أقساماً ثلاثة « المرحلة الاولى . مرحلة الابتداء التي يشترك فيها الولدان جميعـاً ، فيتعلمون الخط والقراءة ، ويؤخذون بمعرفة شيء من اللغة والنحو ، وحفظ القرآن إلى غير ذلك مما كان موضوعاً لفصل في مقدمة ابن خلدون (ص ٥٣٥) والمرحلة الثانية هي الانقطاع للعلم رغبةً في التخصص فيـــه واستعداداً لاتخاذه مهنة — وهي مرحلة طويلة — يؤخذ فيها الطالب بدراسـة كتب مقررة على شيوخ مختصين ، تقام حلقاتهم في المساجد غالباً [1] ، وتكون له فيها فرصة مطالعات حرة كثيرة في مواضيع شتى من التاريخ والشعر والترسّل والاخبار . والمرحلة الثالثة يتخذ فيها مكانه من حلقة التدريس معلماً ، يأخذ فرصته في التأليف ، ومطالعة العديد من الكتب والمؤلفات .

تحدث ابن خلدون عما يدرســه الطالب المبتدىء فـــيما هو المرحلة الأولى من مراحل التعليم ، وقال إن ذلك يختلف من قطر لآخر « أما أهـــل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو . وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لمّا كان القرآن أصل ذلك وأُسّه ومنبع الدين والعـلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان روايـة الشعر في الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربيه وحفظهـا وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عـنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقـــد شدا

١) كتب برامج العلماء ٢٦ - ٢٧

بعض الشيء في العربية والشعر والنصر بها ، وبرز في الخط والكتاب بأذيال العلم على الجملة [1] » .

وليس لدينا مستند معروف يحدد ما كان يدرس في هذه المرحلة بالنص ، ونتوقع أن تكون المختارات الشعرية المنتقـــاة من الشعر الجاهلي والإسلامي خاصة لأنها أقدر في الإعانـــة على فهم القرآن ، وغريب الحديث والوصل بين المعاني فيها جملة . وأما نصوص الترسيل فبين مشرقية تمثلها نماذج من اليتيمة ومن مقامات بديع الزمان والحريري ونثر المعري وبين أندلسية لابن حزم وابن شهيد وابن برد وابن زيدون، ومن ثَمّ لأبي عبدالله بن أبي الخصال، لما اشتهر عن هؤلاء وأضرابهم من براعة وحذق ونبوغ رسائل .

ما هي الأشياء المقررة في المقررة في المرحلتين الثانية والثانية والثـــالثة ؟ وبمعنى آخر . ما هي الكتب الأساسية التي دخلت الأنـدلس وكوّنت بذلك مصادر الفكر الأندلسي ؟ تسعفنا بذلك كتب برامج العلمـاء بالدرجة الأولى ، إضافة الى نقول كثيرة ومعلومات منثورة في كتب الأدب العامة والمختارات ، وما شاكل ذلك ، مع ملاحظة أن كتب برامج العلماء كانت في الغالب من عمل رجال الحديث أو علماء جُل همهم الرواية والحـــديث . فمن كتب البرامج ، فهرسة أبي محمد عبـــد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي المتوفى سنة ٥٤١ [2] ذكر فيه شيوخه الذين تلقى عنهم ، وفي أثناء ذلك أورد أسمـاء الكتب التي رواها . ونجد نصيب كتب اللغة وكتب النحو وافراً وكتب الأدب أقل وسوى ذلك نادر كالتاريخ مثلاً فقد ذكر الكافي في النحو لابن النحاس (١١ / أ) والجمل للزجاجي (١١ / ب) والمقتضب للمبرد (١١ / ب) وكتاب سيبويه . عن أبي الفتوح الجرجاني (٣١ / ب) والجمع والإعمـال والإيضاح

١) المقدمة . ٥٣٦

٢) فهرسة ابن عطية المحـــاربي ، مصورة ـ عن الأصل بالاسكوريال ـ بدار الكتب المصرية برقم ب ٢٦٤٩١

لأبي علي الفارسي (٣١ / أ) وشرح الجمل لابن بابشاذ (٤٣ / أ) ، ثم مشكل الحديث لابن فورك (١٢ / أ) وكتاب الألفاظ وكتاب اصلاح المنطق لابن السكيت . عن أبي علي القالي (١٢ / ب) وفصيح ثعلب . عن الجرجاني (٣٤ / ب) أمثال أبي عبيد (٢٩ / أ) ومن آثار الأندلسيين . الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٥٦/أ والدلائل لقاسم بن ثابت (٥٥ / أ) ونقل خبر رحلة قاسم بن ثابت ، ووالده ثابت بن حزم السرقسطي وأنهما أول من أدخل كتاب العين للخليل بن أحمد (٥٥ / ب) وذكر السيرة لابن اسحاق (٤٠ / أ) ومعاني القرآن للزجاج ، ومعاني القرآن للفراء (٤٠ /أ — ٤٠/ب) وفي التاريخ والتراجم . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٠ / ب) ومن الطبقات : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي الأندلسي (٢٩ / ب) وفي كتب الأدب،ومجاميع الشعر . مقصورة ابن دريد . عن أبي علي القالي (١١/أ) وحماسة أبي تمام .. عن الجرجاني (٣٥ / أ) والحماسة برواية عن أبي الحسن التبريزي وهو (بغدادي) قدم الى الأندلس سنة عشرين وأربع مئة ، فروى عنه جلة من الأندلسيين (٣٩ / ب) . ومن كتب الأدب العامة كتاب الأمالي لأبي علي (٢٣ / أ) وكتاب الفصوص لصاعد البغدادي (٣٦ / أ) وكتاب بهجة المجالس لابن عبد البر الأندلسي (٢٣ / أ) وكثيراً ما يشير الى (ألفاظ من اللغة) أو (ابيات من الشعر) دون تعيين وتحدث عن إجازات تلقاها من بعض شيوخه لرواية (جميع) مروياته او مؤلفاته أو مسموعاته . ولكنه لم يثبت أسماء في ذلك ، فصغر حجم كتابه بالقياس الى كتب البرامج التي تدون ذلك كفهرس ابن خير الاشبيلي مثلاً .

وابن خير هو أبوبكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي (٥٠٢-٥٧٥) صاحب البرنامج المشهور [1] ، وهو برنامج واسع كبير ، ويعد « أوسع الفهارس

١) فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وانواع المعارف الشيخ الفقيه ابن خير الأموي ، طبعة بيروت المنقوله عن طبعه سرقسطة الأولى

التي وصلتنا عن الاندلسيين من حيث صخامتها وكثرة ما ورد فيها من اسماء الكتب [1] » . وهو لا يقتصر على دكر الكتب التي قرأهـا فعلاً على شيخه أو التي قرأها شيوحه محتمعين ، ولكنه يصيف اليه ما أحير به من كتب ومؤلفات وهدا صخّم الكتاب وصاعف حجمه . ولكنه على كل حال هام في تعريفنا بالكتب التي كانت تدرس والتي كانت شائعة لعصره . بدأ كتابه بدكر مروياته من الدواوين المؤلفة في علوم القرآن مثل كتب القراءات ، والوقف والابتداء ، وناسخ القرآن ومنسوخه ، والأحكام والتفسير ، ثم أورد الحديث وما يتصل به من علوم ، ثم كتب السير والأنساب ، والفقه ، والزهـد والرقائق ويصل – بعد – الى باب فيه « من كتب الأنحاء واللغـات والآداب والشروحات وأشعار العرب والمحدثين ، وما يتصل يتصل بدلك من نوعه » .

فروى في كتب النحو كتاب سيبويه(٣٠٥) وكتاب المقتضب للمبرد، والأصول في النحو لأبي بكر بن السراج (٣٠٧) (والجمل للزجاجي . ٣٠٨) والكافي في النحو والمقنع لابن النحاس ، والايضاح لأبي علي (٣٠٩) والاعفال له (٣١٠) والموجز في النحو لأبي بكر بن السراج (٣١٠) وكتاب الواضح في النحو لأبي بكر الزبيـدي الأندلسي (٣١١) . وفي المرويات نسبة حسنة من كتب الأندلسيين مؤلفة في النحو أو تشرح كتب المشارقـة مثل كتب ابن السيد البطليوسي (٣١٦) وكتب أبي الحجاج الأعلم الشنتمري (٣١٤ – ٣١٥) . وكتاب المفتح في النحو لأبي الحسن بن أفلح (٣١٦) ومسائل لأبي عبدالله بن أبي العافية (٣١٦) . « ومن كتب الآداب واللغات والشروحات وما يتصل بدلك من نوعه [2] » . الكامل للمبرّد والنوادر للقالي (٣٢٣) . وديل النوادر له (٣٢٥) والتنبيه على أوهـام أبي علي ، واللآلي في شرح الأمالي للوزير الأندلسي أبي عبيد البكري (٣٢٥ – ٣٢٦) ، وكـتاب البيان والتبيين للجاحظ والفصوص لصاعد البغدادي والعقد لابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٦)

١) فهرسة ابن خير ٣٢٠

٢) كتب برامج العلماء ٢٠

ومجالس ثعلب ، وبهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر بن عبد البر الأندلسي (٣٢٧) . والألفاظ وإصلاح المنطق لابن السكيت (٣٢٩ — ٣٣٠) أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري (٣٣٣) فصيح ثعلب (٣٤٦) . وكتباً في الأمثال ، وكتباً في لحن العامة للزبيدي ، الأندلسي ، وللسجستاني ، وكتباً في اللغة ، وكتباً في العروض ، وكتب أبي زيد الأنصاري (٣٧١)

وروى كتاب (الموفقيات في الأشعار والأخبار للزبير بن بكار (٣٧٦) وأمالي الأخفش (٣٧٦) ، ومجموعة كبيرة من كتب ابن قتيبة . ويلاحظ أن ابن قتيبة قد ناله نصيب وافر من ذيوع كتبه في الاندلس ، وأهمها كتابه في (أدب الكتاب) الذي استمر إلى عهد ابن خلدون وما بعده ، وذكر كتاب الأنواء ، وكتاب المعارف (٣٧٧) وطبقات الشعراء ومعاني الشعر والمَيْسر (٣٧٨) ، وطبقات الشعراء لابن النحاس (٣٧٩) . وروى كتاب زهر الآداب للحصري (٣٨٠) والنقائض لأبي عبيدة (٣٨٣) ، وكتباً لابن ولاد (٣٨٥) .

واختلط المروي من المقامات الأندلسي بالمشرقي لولعهم بهذا الفن ومحاكاتهم إياه . فروى المقامات السبع من إنشاء الوزير الأديب أبي الحسن سلام بن عبد الله الباهلي، رواها عنه بمدينة شِلب (٣٨٦) ومقامات الحريري عن الشيخ أبي الحجاج يوسف بن علي الأسدي بدكانه بحاضرة المَرِيّة (٣٨٧) ، والمقامات اللزومية للسرقسطي ، رواية عن المؤلف نفسه (٣٨٧) .

ومن شروح الحماسات حماسة أبي تمام بتفسير أبي الفتوح الجرجاني (٣٨٧) وشرح معاني أبيات كتاب الحماسة لأبي علي الحسن بن علي النمري ، وكتاب شرح أشعار الحماسة للأعلم الشنتمري ، وكتاب شرح أشعار الحماسة لعاصم بن أيوب البطليوسي (٣٨٨) .

وروى من الأشعار : كتاب الأشعار الستة الجاهلية شرح الأعلم الشنتمري (٣٨٨) وشرحها لأبي بكر عاصم بن أيوب (٣٨٩) وأشعار هذيل برواية

الأصمعي (٣٨٩) والمفضليات ، والاصمعيات (٣٩٠) ومجموعة من الدواوين الجاهلية والإسلامية ، وما رواه القالي ونقله إلى الاندلس – مما تقدم ذكره – .

وذكر من شعر المحدثين . شعر أبي تمام الطائي متصلة روايته بأبي علي القالي (٤٠٢ – ٤٠٣) وشعر أبي الطيب المتنبي متصلة روايته بابن العريف ، وكل أسانيده في روايات الدواوين تتصل بأبي القاسم بن الافليلي شارح ديوان المتنبي ، والذي أثنى عليه ابن حزم في رسالته عن فضل الاندلس . وروى شعر ابن المعتز (٤٠٤) وكتابه الآداب (٤٠٥)وشعر ابن حجاج البغدادي ، وابن سكرة الهاشمي(٤٠٩).ومن أشعار الاندلسيين يبرز ديوان أبي اسحاق بن خفاجة (٤٠٧) ومحمد بن مطرف بن شخيص ، وأبي بكر يحيى بن هذيل (٤٠٨) ، وابن دراج القسطلي (٤١٤) .

كما كان يروي ديوان الصنوبري (٤١٠) ومجموعة من آثار أبي العلاء كتاب سقط الزند وضوؤه (٤١١) وشرح سقط الزند لابن السيد ، وترسيل أبي العلاء ولزومياته وذكر شيئاً من ترسيل المعري مما وصل اليهم – رواية أبي بكر ابن العربي ، وهنا تلتقي رواية صاحب الفهرسة هـذه مع رواية ابن عبدالغفور الكلاعي مع زيادات عند ابن عبد الغفور في كتابه « إحكام صنعة الكلام » مما سنعرض له بعد . وروى المختار من شعر أبي العتاهية وأخبـاره لابن العربي (٤١٤) ومن ترسيل الأندلسيين رسالة لابن أبي الخصال إلى النبي ﷺ وأخرى في الرد على ابن غرسيه (٤١٩) . وروى رسالة ابن السيد البطليوسي في الرد على ابن العربي ، وسنعرض لها مفصلا

وبعد ابن خير نقرن من الزمان بحد أبا الحسن علي بن محمد الرُّعيني الاشبيلي (٥٩٢ – ٦٦٦ هـ) صاحب كتاب في هذه السلسلة طبع في دمشق بعنوان « برنامج شيوخ الرعيني [1] » . وسنأخذ من مروياته ما يتعلق بالأدب وما يلحق

١) برنامج شيوخ الرعيني – تحقيق ابراهيم شبوح – مطبوعات وزارة الثقافة السورية دمشق ١٣٨١ هـ – ١٩٦٢ م

به ،وليكن ذلك أيضاً نموذجاً من أحد شيوخه ، ثم ما درسه المؤلف نفسه .
ففي ترجمة شيخه أبي العباس أحمد بن القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد اللخمي المعروف بابن أبي عزفة [1] قال إنه قرأ — على شيوخ سمّاهم — مختصر العين للزبيدي وأدب الكاتب لابن قتيبة . والجمهرة لابن دريد ، والكامل للمبرد ، ونوادر القالي ، والمقامات (الحريرية) [2] . والنوادر ، والأشعار الستة [3] والدلائل لقاسم بن ثابت الاندلسي [4] .

وفي ترجمة أبي بكر محمد بن طلحة بن محمد عبد الملك بن خلف . بن حزم الأموي [5] قال إنه لازمه أعواماً وقرأ عليه أكثر كتب المجلس نحواً وأدباً « كالجمل ، والإيضاح والاشعار الستة ، وأدب الكتاب ، وإصلاح المنطق ، وفصيح ثعلب ، والحماسة ، والمقامات (الحريرية) والأمثال (لأبي عبيد) . وسمعت عليه كثيراً من كتاب سيبويه ، ومن الكامل وشعر حبيب ، ونوادر أبي علي ، وغير ذلك على طريقة الفقه والتعلم » . وروى بيتين بعد ذلك عن أستاذه هذا لأبي الفتح البستي ، وقد أعجب الاندلسيون زمناً بطريقته في التجنيس . ونلاحظ تمكن الكتاب الاندلسيين من كتب الرواية ومن مكتبات الدارسين ، ولكن (المقرر) منها المتلو في حلقات التعليم ينقل عن كتب المشارقة ، ولئن داع كتاب (أندلسي الولادة) مثل الأمالي والنوادر والفصوص فإنما هي بضاعة مشرقية صرف ، لا ينازع في ذلك أحد . وقد نقل الرعيني أنه طلب الإجازة من أبي الربيع الكلاعي فبعث بها اليه قال : « وكان يكاتبني ويبعث اليّ بتواليفه [6] » . وأخذ إجازة أبي القاسم الملاحي صاحب تاريخ علماء إلبيرة [7] ، ومن أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي بن مخلد الأموي وهذا تلميذ من تلاميذ أبي جعفر بن مضاء روى عنه كتباً منها تنزيه القرآن عما لا

١) صفحة ٤٢ . ٢) صفحه ٤٤ . ٣) صفحة ٤٥
٤) صفحة ٤٤ . ٥) صفحة ٧٩ . ٦) صفحة ٦٧
٧) صفحه ٦٤ .

يليق به من البيان [1] . ونجد رواجاً أيضاً لديوان ابن خفاجة الأندلسي [2] . وقرأ الرعيني ديوان أبي بكر محمد ابن عبدالله اللخمي الإشبيلي على مؤلفه .

وعاصر الرُّعَيْني مؤلف آخر له برنامج هو عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع [3] ، ذكر فيه تلميذه ابن الشاط الأنصاري مرويات أستاذه . ويلاحظ فية قلة عدد الشيوخ وقلة الكتب ، وقلة الكتب المروية ، وهي الكتب التي كانت تدرس فعلياً في الحلقات — أو في بعض الحلقات بشكل أدق — مما حصره ابن أبي الربيع . ونَعد في كتب النحو اللغة والأدب : كتاب سيبويه ، والإيضاح للفارسي ، والجمل للزجاجي (٤٩) وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وأدب الكاتب لابن قتيبه ، وفصيح ثعلب ، وأمثال أبي عبيد ، وكامل المبرد (٥٠) وأمالي القالي ، وأشعار الستة بترتيب الأعلم ، والحماسة بترتيبه ومقامات الحريري ، وشعر أبي تمام (٧١) وشعر المتنبي ، وسقط الزند لأبي العلاء . وتتضح هنا حقيقة الكتب المعتمدة للتدريس المباشر فإذا هي مشرقية في معظمها . وسيدخل الأندلسيون بكتب كثيرة في الحلقات ولكن على هوامش الكتب وحواشيها في الشروح والتعليقات والتنبيهات ، كما سيمر في بحث (الشراح الأندلسيين) .

وبعد زمن يقول ابن خلدون « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (علم الأدب) وأركانه أربعة دواوين أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتَبَع لها ، وفروع عنها » . وأثنى بعد ذلك على كتاب الأغاني للأصبهاني [4] .

---

١) صفحة ٥٢ ٢) صفحة ٥٢

٣) كتب برامج العلماء في الأندلس (نص برنامج ابن ابي الربيع من ص ٣٦ — ٥٢) فصلة مجلة معهد المخطوطات — المجلد الأول — الجزآن الأول والثاني وانظر المقالة السابقة للبرنامج

٤) مقدمة ابن خلدون ٥٥١

خلاصة :

لقد أتقن الأندلسيون الشعر القديم : جاهليّه وإسلاميّه ، وعرفوا معظم الدواوين واحتلموها وقرؤوها ووضع بعضهم عليها شروحاً وتعليقات ، وتثقفوا بكتب المشارقة في الأشعار والروايات وأخبار العرب وأيامهم وبلدانهم ، ثم مالوا الى شعر المحدَثين فتلقفوا دواوينهم كأبي نواس ، وصريع الغواني ، وأبي تمام والبحتري ، وأبي العتاهية وابن المعتز ، ثم المعري والمتنبي . وعرفوا ترسل الطبقة الأولى كابن المقفع وعبد الحميد ومن تلاهم كسهل بن هارون والجاحظ وانخرطوا في السجع والتعقيد مع الصاحب والصابي والبديع ، ثم الحريري والمعري .

كان لا بد للأندلس من أن تكون على صلة مستمرة بالمشرق ، ولم ينقطع الوافدون إليها والراحلون عنها ، وظل المشرق دائماً مطلب الأندلسيين ومحط تقليدهم . وتنكروا في البداية لعلمائهم وأدبائهم وشعرائهم ، ثم وجدوا فيهم من يناهض شعراء المشرق وكتابه وأعلامه ، وعرفوا قيمة النزعة الحماسية في الشعر ، وحفظوا بعض رسائل مترسليهم ، فكانوا بين الانكباب على كتب الأندلسيين ، والإلتفات الى تراث المشارقة ، ولكنهم كانوا إلى المشرق أميل وبه أحفل .

الباب الأول

الشراح الأندلسيون

شروح تعليمية

الشروح الذوقية الجمالية

الشروح الخاصة

الشروح الأدبية الجامعة

في المغرب والمشرق على حد سواء نشطت منذ عهد مبكر حركة أدبيـة متصلة الحلقات ، عُنيت بشرح الكتب المختلفة في فنون متنوعة ، ومن أهمّها الشروح على كتاب الله العظيم ، وأحـــاديث الرسول (ص) ، وخطب الصحابة وتـنـل جمعُ الشعر العربي جاهليّه - خاصة - وإسلاميه حظة شرح واسعة النطـــاق في المشرق . وانتقلت المتون الشعريـــة ، وبعض الشروح الى الأندلس ، فكان من الشروح مثالٌ يُحتذى ، وكان من المتون مادة يَستقطب الطلبة من أجلها حول شيوخ وعلماء ، أو ينفرد بها بعضهم ، ليكون منها فيما بعد شروح أندلسية هامة .

ونقصد هنا بهذا الفصل أن ندرس حركة شرح الأندلسيين للشعر المشرقي - وبعض النثر كشرح المقامات - باعتبار ذلك ممّا يدخل على وجه من الوجوه في موضوعنا ، لأنه يفيد في تبين معالم الذوق النقدي الأندلسي ، ويكشف عن بعض اتجاهات الدارسين هناك واهتماماتهم الأدبية واللغوية ، ويعرض بين الفينة والفينة إلى قضايا تمس موضوع النقـد مسّاً مبـاشراً ، وهي - إلى ذلك - تكشف عن بعض مقاييس نقدية وبلاغية شاعت في فترة من الفترات لم تترك لنا كتب الأدب العامـــة ، ولا ما تـبَقّى من كتب النقد ، عنهـا شيئاً واضحاً بارزاً .

ومما يلفت النظر أن الأندلسيين اهتموا كثيراً بكتب الشروح ، ويظهر أن كلّ شيخ (مدرس) كان يعنّي نفسه بشرح ما يقرره على طلبته غير مكتف بما يصنعه غيره من الشراح ، اللهم إلا إذا كان من الشروح الذائعة لشارح كبير .

ولم يقتصر الأمر على شرح الشعر المشرقي ، بل تعداه الى كتب النحو واللغة والأدب . وتركز الاهتمام على بعض الكتب تركيزاً شديداً [1] ، فكتاب الجمل للزجاجي – وهو في النّحو – لقي عناية فائقة ووضعت عليه عشرات الشروح والتنبيهات ، وتطرق بعضها إلى شرح شواهده – على طريقتهم في كتب شرح الشواهد – وكتاب الحماسة من اختيار أبي تمام الطائي ، شرحه أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني نزيل الأندلس ، وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي ، وأبو الحجاج الأعلم الشنتمري وغيرهم [2] ، ولقيت مقامات الحريري عناية فائقة استمرت زماناً طويلاً كما سنفصل في موضعه .

وأدرك الأندلسيون أهمية شروح بعض علمائهم فتناولوها بالرواية والدرس ، وتناقلوها كما تناقلوا أحسن الآثار المشرقية ، بل إن حماسة الأعلم الشنتمري عطّت على حماسة أبي تمام زمناً [3] ، وفي كتاب إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج إشارة واضحة الى هذا ، قال « .. ولما كانت حماسة أبي تمام – الموضوعُ كتابا أبي الفتح هذان على ترتيبها – مجفوّة القدر في عصرنا ومطّرحة الاستعمال عند أبناء دهرنا حين أحسّت هذه الحماسة الأعلمية عليها باستمالة النفوس اليها [4] . . »

١)مثل شرح أبيات الجمل لمحمد بن هشام اللخمي (التكملة ١ ٦٧٥) وشرح الجمل لاسحاق بن الحسين (التكملة ١ ١٩٢) وكتاب وشي الحلل لاحمد بن يوسف اللبلي النحوي (النفح ٢ ٤٠٧) وشرح الجمل لابن خروف الأديب (النفح ٣ ٣٩٥) وشرح الجمل لعبد الله بن محمد البطليوسي (المغرب ١ ١١٢) وشرح الجمل لمحمد بن ميمون (رايات المبرزين ٤٦) ، وشرح الجمل لأبي بكر بن طلحة بن حزم الأموي (برنامج الرعيني ٨) الخ

٢) فهرسة ابن خير ٣٨٨ والتكملة ١ ١٢٨

٣) سنعرض لهذا ثانية في ترجمة الاعلم حين ندرس شرحه على الشعراء الستة

٤) مخطوط ايضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج لأبي الفتح بن جني مما عني بجمعه الشيخ الفقيه الاستاذ النحوي اللغوي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن منذر بن ملكون الحضرمي – مصور بالجامعة العربية (٢٤ لغة) .

وعُرفت مجموعة من الشرّاح الأندلسيين بالضبط في النقل، والدقة في الجمع، والتثبت في الرواية، والعناية في الشرح، وحفظوا لنا مجموعات شعرية ودواوين مفردة أحياناً. ومن هنا جاءت أهمية الشارح الأندلسي في تاريخ الأدب العربي. وفي هذا يقول محقق ديوان مسلم بن الوليد الذي شرحه الطبيخي الأندلسي « وهو – الشارح الطبيخي – في هذا الشرح لا يقل عن علماء المغاربة في شرح الدواوين القديمة، ويستوي في ذلك مع مواطنيه (الأندلسيين) كالبطليوسي والشنتمري ممن أسدوا يداً كبيرة إلى العربية في الرواية والجمع والشرح [1] ». وقد أتاحت ظروف الأندلس وتقلّب عدد من الأمراء من محبي العلم والأدب فرصة دخول علماء كبار من المشارقة نقلوا معهم أجناس تراث المشرق وأعلاه رتبة في الثقة والضبط والرواية، وأحله الدارسون محله من التكريم والحفظ وعادوا عليه بالشرح والتعليق والملاحظة والتنبيه استوى في ذلك الشعر والنثر، والشعر القديم والشعر المحدث. فهناك شروح على الكامل للمبرد، وأمالي القالي، وأدب الكتاب وشرح على الشعراء الجاهليين وخاصة (الشعراء الستة) وعلى مقصورة ابن دريد، وشعر حبيب وشعر المتنبي. فكانت الشروح شاملة لكثير من نواحي الثقافة والفكر ومتتبعة للنواحي الأدبية بشكل خاص.

وأثّرت هذه الشروح في تكوين جانب واضح من جوانب فكر الدارس آنذاك فقد كان حفظ الأشعار العربية وعلم معانيها ومعرفة ما فيها من خبر ولغة وأغراض بلاغية وميزات فنية جزءاً هاماً يقرر على الطلبة في حلقات الدرس، ويأخذ الدارس به نفسه من حفظ وفهم ودراية وكان للاغراق في الاهتمام بالشعر القديم، واستقطاب الدراسات والشروح حوله لدى بعضهم أثر في استمرار وجود (مذهب العرب) في الشعر، وهو يقابل (مذهب المحدثين) الذي مال اليه أكثر شعراء الأندلس وهو ما سنفصله في الفصل التالي

٢) ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد ـ تحقيق الدكتور سامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ـ مقدمة المحقق صفحة (م ٦٥)

وباستطلاع كتب التراجم الأندلسية نلاحظ كثرة واضحة في كتب الشروح من أوائل عهد التأليف المعروف لدينا الى أواخر أيامهم في غرناطة ، فإذا لاحظنا قلة تراث الأندلسيين في الدراسات البلاغية والنقدية ، وبخاصة من الوجهة النظرية ، أمكننا تفسير هذه الكثرة ، فكأنهم انصرفوا إلى الشروح مكتفين بتذوقهم هذا واستخلاص القيم الجمالية من النصوص نفسها . وكأنهم أيضاً مالوا إلى سَوق الذوق والتذوق إلى الدارس عملياً ومن خلال الجمل والفقرات والأبيات . ونحن لانعدم ملاحظات بلاغية ونقدية أغلبها تطبيقي ، كما أننا نلاحظ استفادة بعض الشراح من كتب النقد والبلاغة المشرقية بإشارةٍ حيناً وبإغفال ذلك أحياناً كثيرة وليس من الضروري أن يكون هذا سبباً وحيداً لتفسير قلة الكتب النقدية والبلاغية ، ولكنه سبب قد يعلل كثرة كتب الشروح ، التي تدلنا كتب التراجم وكتب برامج العلماء على أنها كانت عملية ومتداولة وشائعة .

وقد أفاد الأندلسيون من الشراح المشارقة ، ونَصّ أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي على أن شرحه على (الأشعار الستة) إنما هو جماع مما سجله العلماء والثقات قبله ممن يعتد برأيهم في اللغة والنحو الأخبار فقد عرفوا شروح الأصمعي وأبي حاتم السجستاني وابن قتيبة وابن جني وأبي علي البغدادي (القالي) والمعري والتبريزي وسواهم ممن كان لهم باع في بسط معاني الشعر ، والغَوص على غوامضه ، وتبيان أخباره وإشاراته فتكونت لهم ثقافة جيدة ، وتابعوا تطور الثقافة والأدب في المشرق وضموا القرين إلى قرينه بين متقدم ومتأخر ، فبلغوا بذلك شأواً يستحق الوقوف عنده .

ومقصودنا هو تتبع حركة الشرح ، وتبين المسالك التي انتهجها الشارحون ، واتجاهاتهم ، ومناحي شروحهم ، ولا شك في أن عملية عرض كافة الشروح الأدبية الأندلسية عمل طويل لا يمكن أن تكون هذه الرسالة مجاله ، فهذا لاحق بدرس مفصل خالص في إطار عمل يؤرخ للأدب الأندلسي بعامة . ولكني سأستعرض عدداً من الشراح في عدد من شروحهم ، اخترتهم

من عصور مختلفة ممتدة على مدى الفترة العمالة أدبياً وتأليفياً ، وتوخّيت أن تمثل المختارات ما توسمت أنه يشمل كافة الاتجاهات التي ظهرت في هذا الفن . وسيكون الحكم غالباً راجحاً ، ولا يمكن أن يكون قاطعاً باتاً ، بسبب طبيعة ما نريد من مجرد العرض والدرس ، وبسبب ما نلتزم من عرضٍ لمجموعة خاصة من تلك الكتب ، وفئة معدودة من الشراح .

فمن الشراح ، أبو العباس وليد بن عيسى الشهير بالطبيخي ، بقي لنا من آثاره شرحه على ديوان مسلم بن الوليد ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهري وله شرح على ديوان المتنبي ، وأبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده وله شرح على ما أشكل من شعر المتنبي ، وأبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري صاحب شرح الشعراء الستة وأبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز البكري صاحب اللآلي ، وكتب الشروح والتنبيهات . وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي وله شرح على الأشعار الستة أيضاً ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي صاحب شرح سقط الزند للمعري ، وغيره من المؤلفات الهامة ، وأبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي وله شروح على مقامات الحريري ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي الأندلسي صاحب شرح مقصورة ابن دريد ، وأبو القاسم عبد الملك بن عبد الله ابن بدرون صاحب البسامة (قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس) ، وأبو القاسم محمد بن أحمد المعروف بالشريف الغرناطي وله رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (وهي شرح على مقصورة أبي الحسن حازم القرطاجني الأندلسي) وكان أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني وافد الأندلس نموذجاً مشرقياً أندلسياً مبكراً في كتابه الذي شرح فيه حماسة أبي تمام باختصار

وبعض هؤلاء المؤلفين والشراح ترك عدداً من الكتب ، لم ألتزم دراستها كلها واكتفيت بنص واحد يمثل طريقة المؤلف ومنهجه ومصادره وقيمة كتابه ، ومنزلته بين الكتب الأخرى المماثلة وكان عليّ أن أعود إلى المخطوط من

هذه الكتب والمطبوع . وكان في هذا بعض المشقة المتوقعة ، كما أن بعض المخطوطات لم تصل إليّ بعد طلب وإلحاح ، وسيتكرر هذا في فصول أخرى من هذا البحث ، إذ سنحتوي، فيما بين أيدينا مما حصلنا عليه ، وأرجو أن يكون فيه الكفاية .

أنواعهـــا :

إذا عدنا الى الكتب التي أردنا دراستها ، استوقفنا قليلاً موضوع تقسيمها إلى فئات لتسهيل البحث من جهة ، ولتبيّن طرائق عامة تميز بعض الشروح عن بعض ، فتقرب بعضها من بعض ، وتحمل قسماً أو أقساماً مختلفةً متباينة . ومهما كان نوع التقسيم الذي سأنتهي اليه ، فإنه تقسيم يأخذ بالصفة الغالبـــة المميزة ، لأن الشرح القاصر على وجه أدبي أو فني قصوراً تاماً نادر ، كما ستتبين فيما بعد ويظهر لنا لأول نظرة أن كتب الشروح في قسمين اثنين بوجه عام . قسم تعليمي يقصد به - بحسب تأليفـــه واختصاره وشموله العام - إعطـــاء الشُّداة وطلبة العلم مادة جيدة طيبة في رواية الشعر - خاصة - وشرحـه وتبيان ما فيه من خبر وإشارة ، والتعليق على لفظة لغوية أو اصطلاح بلاغي والغالب في هذه الشروح عموماً الاختصار ، وتبدأ عادة بشرح الألفاظ شرحاً لغوياً ، ثم بسط المعنى المقصود من البيت أو الفقرة والإشارة أحيـاناً الى إعراب كلمة يترتب على توجيهها معنى أو معان ، أو تكون أثارت خلافاً قديماً ، أو حديثاً لدى الشارح نفسه ، وقد يتعرّض لاصطلاح عروضي إن كان في البيت شذوذ أو خلاف ، وقد يفيد من بعض الاصطلاحات البلاغيـــة . والشروح هذه تختلف فيما بينها بحسب ثقافة المؤلف وظروف تأليف كتابـه ، ومستوى من يكتب لهم كتابَهُ أو مؤلـّفه وسيبيّن هذه الفروق في التحليل المفرد لكل واحد من هذه الكتب . ويمثل هذا القسم في المجموعة الـتي أدرسها شرح ديوان مسلم بن الوليد للطبيخي ، وشرح ديوان المتنبي لابن الإفليلي ، شرح الأشعار الستة للأعلم الشنتمري ، وشرح الأشعار الستـة للبطليوسي ، وشرح مقصورة ابن دريد لابن هشام اللخمي .

والقسم الثاني مختلف عن القسم الأول بأنه قد يكون من الشروح المطولة حتى يكاد يلحق بكتب الأدب وتاريخه لاتساعه ، وقد يكون شرحه خاصاً بموضوع بعينه لا يعدوه ، أو يكون قائماً على أساس تذوقي جمالي ، فيه — إلى الشرح التدريسي التعليمي — خصائص يتاح العالم الأديب من تعمق على المعاني ، واستنباط آراء شخصية ، والوقوف موقفاً جديداً . فمن الطراز الأول القائم على التوسع ، شرح مقامات الحريري للشريشي ، وبعض (النسخة البسيطة) ومن الطراز الثاني شرح البسّامة وهو كامة الزّهر وصدفة الدُّررّ صنعه ابن بدرون على قصيدة ابن عبدون . وهو شرح تاريخي خالص لا مدخل فيه لشيء آخر . ومن الطراز الثالث شرح سقط الزند لابن السيد البطليوسي وشرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيدة .

وهذا التقسيم كما أسلفت اعتباري ، أنظر فيـــه الى الأمر الغالب والناحية الظاهرة ، ولا أزعم أن كتاباً من هذه الكتب لا يشارك الفئات الأخرى بعض المشاركة ، ولكن هذا أقرب الى طبيعة تلك الشروح ، وأدنى متناولاً من حيث الدرس والمعالجة . وعلى هذا فإن هذا الفصل سيكون في أقسام أربعة

١ — الشروح التعليمية العامة .
٢ — الشروح الذوقية الجمالية .
٣ — الشروح الخاصة (ابن بدرون)
٤ — الشروح الأدبية الجامعة اللاحقة بكتب تاريخ الأدب .

الشروح التعليمية العامة

ذكرت في الحديث عن الثقافة الأندلسية مدى اهتمامهم بالآثار المشرقية ، وكان من مكمّلات الثقافة دراسة مختارات من الشعر الجاهلي والإسلامي وهو ما يعبرون عنه باسم الشعر القديم ، ومختارات من الشعر المحدث الذي يشمل طبقة مسلم وبشار وأبي نواس ومَن بعدهم . وإذا كانت شروح شعر المحدثين داخلة في التعمق الأدبي ، فإن شروح الشعر القديم أولى وأشد ضرورة . ومن هنا تصدت جماعات لاختيار مجموعات من دواوين الجاهليين وشرحها والتعليق عليها ومعظم ذلك بقصد إلقائه في أيدي الطلبة وبين يدي الدارسين . ولعل ذلك اتصل – كما ألمحت قبل – بكثير ممن لا يصلح أن يتصدوا للخوض في الشعر الجاهلي – وربما ما تلاه – بآرائهم الشخصية على حين بررت معلوماتهم العامة عن حياة العرب وطرائق معايشهم ومقاصد شعرهم بعامة ، وقلّت معلوماتهم في اللغة وعلوم العربية . ولدينا كتاب ، يشير الى هذه الناحية ، بل هو يقوم أساساً للرد على أوهام مدرّسٍ شَرَحَ بعض أشعار شعراء الجاهلية ، وهو كتاب (التنبيه على المغالطة والتمويه وإقامة المُهال عن طريق الإعتدال بالبرهان الكافي والبيان الشافي) [1] لمؤلف مجهول كنيته ابو حاتم ، يرجح ان يكون من أعلام القرن الخامس [2] ،

١) مخطوط في الاسكوريال برقم ٢٩٦ ، مصور

٢) أبو المطرف بن عميرة المخزومي – محمد بن شريفة – منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس – الرباط (١٤٨٥ هـ – ١٩٦٦ م) – صفحة ٢٧٦

وهو يرد على معلّم ٍ كنيته أبو المطرف وينقد أخطاءه وأوهامه . وقال فيه .. « .. وقُرئت عليّ كتب فيها بعض أشعار شعراء الجاهلية قد جُردت من شرح المتقدمين أعني العلماء باللغة ، وعلى كل غريب وحشي شرحٌ بلفظه العامي مثل أن يشرح حرَجَعا بتحلفا وحَثّ بكد ، فتأملت ذلك كله فرأيته قد أخطأ في كثير من تفسير المواضع التي أغفلها العلماء لاشتهارها واستعمال الناس المنطق بأكثرها [1] » . والمؤلف يشير أحياناً إلى بعض المعلمين في معرض تخطئتهم في بعض معاني شروحهم [2] ، وقد قال في موضع آخر . « فالمتسوّرون في الصناعة كثير – أعني صناعة التفسير – فمنهم مؤدبون للأطفال في المكاتب ، ومنهم مؤدبون بالعربية ضعفاء في الأدب ، يؤدبون في البوادي قد خلا لهم الجو هنالك. ومنهم ورّاقون لا علم عندهم يريدون في التفسير من تلقاء أنفسهم وينسبون ذلك إلى الأسانيد والعلماء ، يريدون بذلك استجرار الثمن في ذلك الكتاب ، ومنهم شداة شيء من اللغة إذا أرادوا كلمة تشبه كلمة أخرى ظنوا أنها منها فوضعوها مكانها [3] » . وهذا نص هام لأن كتب التراجم وكتب البرامج لا تُعنى عادة إلا بالمعروف من الأعلام والمألوف من الكتب ، وضياع الكثير من التراث الأندلسي حجب عنا أموراً كثيرة ، ونستخلص منه إقبال الناس على شراء كتب الشروح واهتمامهم بذلك الى درجة سوّلت للوراقين التزيد في رقاقهم لإغراء المشتري إيهاماً وتدليساً.ويمكن أن نردّ كثرة كتب الشروح التي تذكرها كتب التراجم لعدد ضخم من المؤلفين إلى استمرار الثقافة الأندلسية على رأي صالح في الشعر القديم ، وإعجاب ٍ متواتر بما يجدُّ في المشرق من شعر ٍ وفنون ٍ نثر ، وسنفصل فيما التزمنا الحديث عنه إن شاء الله .

١) التنبيه صفحة ٣ .
٢) التنبيه صفحة ٥ .
٣) التنبيه صفحة ١٤٥ .

شرح ديوان صريع الغواني

للطبيخي

(••• – ٣٥٢)

هو أبو العباس وليد بن عيسى بن حارث بن سالم بن موسى ، من ولد رشيد مولى الوليد بن عبد الملك ، يعرف بالطبيخي ترجم له الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين [١] ترجمة قصيرة ، ولكنها غنية وهامة ، لأنها صادرة عن مؤلف ثقة في بابه ، معاصر لصاحب الترجمة [٢] . وذكره أيضاً ابن الفرضي في كتابه تاريخ العلماء والرواة [٣] . ولا تكاد تزيدنا ترجمته هذه شيئاً كثيراً عما في الطبقات . قال الزبيدي « وكان ذا علم باللغة والشعر ، وكان له حظ من علم العربية ، وكان بصيراً بمعاني الشعر ، حسن التلقين لمن تبلّد فهمُه عنهـا . وكان يقرّبها ويضرب الأمثال فيها حتى عُرف بذلك ، وتنافسه الملوك فلم يؤدب إلا عند الخلفاء » . وفي هذه الجمل القليلة أوصاف دقيقة وأخبار عن الطبيخي واضحة فقد عرف أنه عالم باللغة وعالم بالشعر وأن مهنته كانت التعليم ، وأنه تميز بطريقة خاصة له في تعليم الطلبة وتقريب معاني الشعر إلى أذهانهم ، وأنه زاد على ذلك في قدرته على تفهيم الطلبة ذوي الذهن المتبلد وكل هذه خصائص رغّبته إلى ذوي الجاه والسلطان فأدب أولادهم ، واستغنى بتعليم أبناء السّراة عمن سواهم . ونقل الزبيدي عنه أنه كان « خيّراً ديّناً [٤] » .

١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - ط الخانجي بمصر - صفحة ٣٢٦ .

٢) توفي الزبيدي سنة ٣٧٩ .

٣) تاريخ علماء الأندلس – ابن الفرضي – ط الدار القومية ١٩٦٦ – القسم الثاني . صفحة ١٦٢ – ١٦٣

٤) الطبقات : ٣٢٩ .

وذكر ابن الفرضي أنه كان « رجلاً طاهراً [1] ». ولعل هذه الصفات الشخصية من خلق عال ودين قويم ، مما زاد في شهرته وفي تقريبه إلى بيوت ذوي الجاه والسلطان .

أخباره .

لا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن دقائق ثقافة الطبيخي ، ولا عن شيوخه أو تلامذته ، وقد نقل الزبيدي في ترجمة أبي عبدالله العاني [2] ، أن الطبيخي أخذ عنه . وجاء في ترجمته أنه « كان من أحفظ الناس لأخبار أهل الأندلس وأشعار شعرائهم وأنه كان ذا فهم بارع وخلق نبيل » ثم قال . « وكان يُقرأ عليه شعر حبيب ، وعنه أخذ أبو العباس الطبيخي» .[3] . وقال ابن الفرضي في ترجمته إنه نقل بعض خبر الطبيخي عن عبد الرحمن بن سعد [4] ، ولم يفصح عن هذا الرجل بشيء . وفيما سوى ذلك لا نجد له أخباراً أخرى . ونستطيع أن نتوقع أنه درس ثقافة عصره على شيوخ ذوي عناية مثل شيخه السالف ، ولعله أفاد من قدوم أبي علي البغدادي إلى الأندلس ، وأخذ عنه بعض ما حمله من شعر ورواية .

أما مؤلفاته فقد ذكر الزبيدي أن له « شروحاً في شعر حبيب وصريع[5] » وصفها بأنها « قريبة مبسوطة [6] » وقال ابن الفرضي « شَرَحَ شعر أبي تمام الطائي ، وشعر مسلم بن الوليد ، فأخذ عنه الناس هذه المشروحات ، وكان مؤدباً بعيد الاسم في التأديب [7] » ، ولا نقع على ذكر غير هذين الكتابين .

١) تاريخ علماء الأندلس ٢ ١٦٢
٢) الطبقات ٣١٥ .
٣) طبقات الزبيدي . ٣١٥
٤) ابن الفرضي ٢ ٢٦٢ .
٥) طبقات الزبيدي ٣٢٩
٦) ابن الفرضي ٢ ١٦٢
٧) في التكملة ١ ٤١٧ في ترجمة محمد بن رزق الله بن مطرف ، وهو ممن رووا عن أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي ، أن له « في شعر حبيب بن أوس للطبيخي اختصاراً أفاد به ، وأضاف اليه من عنده ما دل على مكانه من البلاغة » والاشارة إلى شرح الطبيخي على ديوان أبي تمام انظر التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار – طبعة عزة العطار – نشر الخانجي – مصر

ولعله انشغل بالتدريس والتعليم الذي كان يدر عليه ربحاً وفيراً ، وأكب على شاعرين يفصلها ويتذوق شعرهما ، بالشرح والتحليل ، بما يلائم غرضه من التعليم أيضاً .

ديوان مسلم في سنة ١٨٧٥ نشر المستشرق الهولندي ميخائيل ده خويه ديوان مسلم بن الوليد بشرح أبي العباس الطبيخي لأول مرة عن « نسخة مغربية سافرت معه إلى خزانة ليدن من أعمال هولندة [١] » ، وطُبع بعد ذلك عدة مرات ، إلى أن حققه الدكتور سامي الدهان تحقيقاً علمياً ونشره في دار المعارف بمصر ، وقدم له بدراسة وافية [٢] » . ومخطوطة الديوان — وهي فريدة — لا تضم كل شعر مسلم ، ولا ما شرحه منه الطبيخي ، بفعل عوادي الزمن التي أتت على بعض أوراق النسخة ، « فهذه المخطوطة في أغلب الظن تحوي مختارات من شعر مسلم بن الوليد ، وتروي عيون شعره [٣] » . وأثنى المحقق على عمل الشارح في كتابه وألحقه بالمشهورين من الأندلسيين من الشراح الكبار كابن أيوب البطليوسي والأعلم الشنتمري [٤]

والموجود من الديوان كما حقق ذلك الدكتور الدهان قسمان من ثلاثة ، هما الثاني والثالث ، ويقع هذا من طبعته ما بين صفحة ١ و ٢٩٨ ويضم ٧٥ خمساً وسبعين قصيدة ومقطوعة. ويلاحظ أن القسم الضائع أخفى مصدر رواية الطبيخي أهي عن القالي أم عن غيره ؟. والموجود من شعر مسلم في شرح الطبيخي نحو ١٨٠٠ بيت ، في حين ان القرائن تدل على ان نسخة الطبيخي لو كانت كاملة لما زاد ما فيها عن نصف شعر مسلم الأصلي [٥] ولا نريد في تفصيل أمر الديوان عن هذا ، وهو متوفر بين أيدي الدارسين .

١) صفحة م ٥٤ من ديوان مسلم .
٢) شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨هـ - عني بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق - نشر دار المعارف بمصر - ١٣٧٦ - ١٩٥٧ وهي الطبعة المعتمدة لدينا في الهوامش كافة .
٣) صفحة م ٦١ . ٤) صفحة م ٦٥ ٥) صفحة م ٦٠.

شرح الطبيخي . ذكرت أن الشارح لم يبيّن لنا مصدر روايته ، لعقد أن القسم الأول من الديوان على ما يظهر ، ولكننا نلاحظ أنه يشير في بعض المواضع إلى روايات أخرى ينبه عليها . ففي القصيدة الأولى أورد البيت الرابع والستين ، وهو .

وقمتَ بالدين يوم الرسّ فاعتدلت   منه قوائمُ قد أوفت على مَيَل

وقال فيه : ويروى : منه دعائم قد أوفت على زلل ، ويروى وقمت بالملك[1] ، ويذكر الروايتين ويرجح في شرحه إحداهما ، وأورد البيت الثاني من القصيدة السادسة وهو

لله واشٍ رعى زوراً ألمّ بنا   لو كان يمنعنا في النوم أحلامَا

ثم علق في ذيل الشرح بقوله « والرواية لو أحسن من الرواية « بإن كان[2] » وقد يردُ الرواية بهائياً[3] ، كما سنفصل بعدُ .

وهو لا يقدم للقصائد بمقدمات طويلة ، وحسبه في ذلك ذكر غرض القصيدة العام ، أو فيمن قيلت إن كانت مدحاً أو هجاء أو ما شابه ذلك . وبدأ الموجود من شرحه بقصيدة قال فيها ، مفتتحاً القسم الثاني . « قـال صريع الغواني — واسمه مسلم بن الوليد الأنصاري — يمدح يزيد بن مزيد الشيباني[4] » وفي القصيدة الثانية « وقال أيضاً يمدح سهلاً[5] » وفي الثالثة « وقال أيضاً يتغزل ويصف الخمر[6] » ، وهكذا .

وفي شرحه ما يدل على أنه اطلع على عدد من كتب الأدب المشرقية ، وكتب اللغة . فهو ينقل عن أبي عمرو بن العلاء[7] ، والخليل بن أحمد[8] وأبي العباس المبرد[9] وينقل عن ابن قتيبة سبب تسميته صريع الغواني[10] ،

١) صفحة ٢٠ .   ٢) صفحة ٦١   ٣) صفحة ٥١
٤) صفحة ١ .   ٥) صفحة ٢٤   ٦) صفحة ٣٣
٧) صفحة ٣٨ .   ٨) صفحة ٥٠   ٩) صفحة ٣ ، ٩١
١٠) صفحة ٤٣

ورواية أخرى لبيت من الشعر ، توجّه معناه بتغير روايتــه [1] . وهو يبرهن على اطلاعه الواسع باحتجاجه بالقرآن الكريم ، وأمثــال العرب ، ومناقشاته للروايات ، وتقليبه المعاني على وجوههــا المحتملة . ولكن خروج الشارح عن شرح الألفاظ وتبيان المعــــاني إلى ما سوى ذلــك كان قليلاً ، يكتفي منه باللمحــة والإشارة والاختصار . فمن ذلــك إشارته الى انتصار صريــع الغواني للطرمــاح — بعد موته بزمان — ويعلل ذلك بجامــــع أنهما من طيء قال صريــع .

أحمي أبا نـفـَـر عظام حَميرة دَرست وباقي عرقها لم يَدْرُسِ

وقال في الشرح « وأبو نفر هو الطـّرمـّاح الشاعر ، وكان يهجو قوم الفرزدق ، وقد قال

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القَـطا ولو سلكت سبل المكارم ضلـّت

وكان شاعرٌ عارض شعر الطرماح بعد موته ، ونقض عليه في أيام (صريـع) فاحتمى عنه صريـع لطيىء إذ هي من اليمن فردّ على الطرماح ، فأراد أن يشكر طيئاً على ذلك [2] »

ولا يخلو شرحه من إشارات تاريخية لا بد منها كحديثــــه عن الوليد بن طريف الشاري [3] لأن الممدوح حاربه وقتله ، ومن أمثلة إشاراته التاريخيــة السريعة هذه ، ما جاء في مطلع القصيدة العاشرة من ديوان صريـع [4] وفيها :
« وقال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني

لولا سيوفُ « أبي الزبـير » وخيله نشرَ « الوليدُ » بسيفه الضحّاكا

يقول لولا سيوف أبي الزبير ، نشر الوليــد أي ابن طريف الخـــارجي الضحاك الخارجي ، أي قام مقامه في الشر . وقال أحيى فلان أيام جده في

1) صفحة ٣٥
2) الديوان ١٣٨
3) انظر مثلاً صفحة ٦٧
4) الديوان صفحة ٩٧

الشرف إذا قام في الشرف مقامه. والضحاك هذا خارجي قتله مروان بن محمد والوليد بن طريف خارجي خرج على هرون الرشيد ، فأخرج إليه يزيد فقتله. وكان يزيد بن مزيد له كنيتـــان . كان يكنى في الحرب أبا الزبير ، وفي غير الحرب أبا خالد ». فهو أجمل في هذه السطور شرح معنى البيت وبعض لفظه ، وعرّف بإيجاز شديد بالأعلام الواردة فيه ، ومناسبة ذكرها في مطلع القصيدة، وربط ذلك بالمعنى العام .

ويتضح لنا من النتف المبعثرة من الإشارات أنه كان على ثقافـة واسعة ، اختصر منها الكثير جهدَه ، وأضرب عن كثير ، مكتفياً بمـا يوضح المعنى ، ولعله أراد ألا يصرف قارئه — أو تلميذه — عن المعنى ، بالدرجـة الأولى . قال صريع من أبيات تعرّض فيها لوصف جارية تضرب بعودها ·

تُضاحكه طوراً وتُبكيه تارة   خَدلـّجة هيفاء ذاتُ شَوى عبل

« يقول . تضحك العود مرة وتبكيه تارة . بإضحاكها له أنها تلح على الزير والمثنى . فكان العود يضحك عند ذلك ، وتلح على المثلث ، والبم ، فكان العود يبكي عند ذلك لأن البم غليظ الصوت ، وهو إذا قرن بالزير كمثل البحـاة مع القلبية ، والخدلجة الحسنة الخلق[1] » .

وإذا عدنا الى الزبيدي في ترجمته وجدنا قوله « وكان يقرّبها(معاني الشعر) ويضرب الأمثال فيها » . وسنكتفي هنا بمثالين ، سنفيد منهما من جانب آخر. فهو يشير إلى إعراب كلمة أو جملة حين يرى ضرورة ذلك لإيضاح المعنى لا تفصلاً أو تزيُّداً » ، قال صريع[2]

أما كفى البين أن أرمى بأسهُمِه   حتى رماني بلحظ الأعين النُّجُل
مما جنى لي وإن كانت مُنى صدقت   صبابة ٌ خُلَسَ التسليم بالمُقَل

يقول « مما جنى لي صبابة ٌ خلس التسليم بالمقل » كأنه قال خلس التسليم

١) الديوان صفحة ٤٠ — ٤١   ٢) الديوان صفحة ٣

فالمقل مما حنى لي صبابة . أي من الأمر الذي حنى لي صبابة . و « حلس » رفع بالابتداء . و « مما حنى لي صبابة » خبر الابتداء ونصب صبابة بجني ، وفي « حنى » ضمير ما مرفوع بفعله . وفعله حنى . ومثله « من الذين حنوا لي صبابة زيد » . وقال قوم إن صبابة معمول لخلس التسليم ، وان خلس التسليم رفع بجنى وإنما دخل عليه في ذلك الغلط من طريق قولك « من الدار جنى لي صبابة زيد » . فقولك من الدار ظرف لا ضمير له في جنى . وجنى فعل فارغ من الضمير ، وزيد فاعله كأنك قلت . جنى لي زيد صبابة من الدار وقوله . « وإن كانت منى صدقت » أي وإن كانت مناي التي كنت أتمنى فيها برؤية أحبتي قد صدقت فرأيتهم كما تمنيت غير أن البين نغّص عليّ رؤيتهم . والخلس جمع خلسة ، وهي استراق اللحظ مخافة الرقباء . هذا الذي أراده » .

وهو يحتج في مواضع مختلفة بالشواهد الشعرية لتأييد شرحه لمعنى كلمة من الكلمات (٤ ، ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٢ .. الخ) واحتج لمعنى من المعاني بشطر من أبي تمام (٧٠ – ٧١) وأشار مرتين الى الأمثال (٣٧ ، ٩٢) وأشار مرة واحدة الى ضرورة من الضرائر الشعرية دون ذكر كلمة الضرورة [1] . قال صريع

سلِ الناس إني سائلُ الله وحدَه وصائنُ عِرضي عن فلان وعن فُلِ

الشرح « أي وأصون عرضي – يعني نفسه – عن فلان وعن فلان وحذف من فلان الثاني الألف والنون استخفافاً وللقافية كما ترى [2] » .

السرقات ويعرض بين الفترة والأخرى الى سرقات صريع الغواني أو السرقات منه . وهو أشار الى نحو خمسة عشر مثلا ويعبر عن السرقة بـ الأخذ حيناً ، وأن « مثله » لفلان ، و « هذا كقول القائل » وعبر بالأخذ صراحة

١) نقل ابن عبد ربه في العقد أن (فل) تستعمل ضرورة بدلاً من فلان ٤ ٥٤

٢) الديوان صفحة ٢٦

أربع مرات فقط ، ذكر بيت صريع :

تالله ما جهل السرور ولا الكرى   أن الفراق من اللقاء أديلا

وقال : أخذه حبيب فقال :

أترى الفراقَ يظن أني غافلٌ   عنه ، وقد لمَست يداه لمَيسا [1]

هذا عن سرقة ابي تمام من صريع وفي موضع آخر [2] ، قال صريع

وإن تبقني الأيام تحسي العصا   وإن تفني فكل حيٍّ لها أكل

... وأخذ هذا المعنى من قول لبيد بن ربيعة حيث يقول .

أليس ورائي إن تراخت منيتي   لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وأشار الى أخذ العباس بن الأحنف أحد معاني صريع [3] . ووصف مواطنه ابن عبد ربه بالأخذ من صريع ، مع انه اعترف بأن ابن عبد ربه نقل المعنى من شيء الى شيء آخر ، قال صريع .

لَطُف المزاج لها فزيّن كأسها   بقلادة جُعلت لها إكليلا

.. وإنما يريد أن الماء أحدث لها (للخمر) عند المزاج زَبداً كالدر أحدق محيطان كأسها وأخذ ابن عبد ربه هذا المعنى وجعله في وصف الدمع .

وكأنما غاص الأسى بجفونها   حتى أتاك بلؤلؤ منثور [4] »

هذا عن تمييزه بالأخذ . وهذه نماذج من رأيه في مماثلة الشعر بعضه لبعض . قال صريع في الخمر

ومائحة شُرّابها الملكَ ، قهوة   مجوسية الأنسابِ ، مُسلمة البعل

« ... ومثله للأخطل

إذا ما نديمي علّني ثم علّني   ثلاثَ زجاجات لهنّ هدير

خرجت أجر الذيل حلمي كأنني   عليك أميرَ المؤمنين أمير [5] »

١) الديوان ٥٤
٢) الديوان ٨٠ — ٨١
٣) الديوان ١٠٣
٤) الديوان ٥٧ .
٥) الديوان ٣٥ .

ولم يعلق بأكثر من ذلك ، ولعله رأى أن مسلماً اختصر معنى البيتين في فقرة واحدة وزاد في بيته معاني أخرى فسكت عن أن يسمي ذلك أحداً أي سرقة مباشرة ، ولكننا نقر بأنه لم يشر مرة واحدة صراحة إلى شيء يشبه هذا الكلام . وقد يكون رأيه في المماثلة لسبب وجيه ، فأبو نواس معاصر لمسلم ابن الوليد ولايملك أن ينسب المعنى الى واحد قبل الآخر . « قال صريع .

تصد بنفس المرء عما يغمّه   وتنطق بالمعروف ألسنة النخل

... كما قال أبو نواس .   « وتنزل درة اللحز الشحيح[1] » .

وإن كانت الصيغة التي أورد بها الشارح حديثه توحي بسبق أبي نواس . وقد يعني بالمماثلة أن الشاعر أخذ بعض المعنى ، دون تمامه « قال صريع

ورُحنَ والعينُ للتوديع واكفة   إنسانُها من مَسيل الدمع في صعد

... ومثله لذي الرمة

وإنسانُ عيني يحسر الدمع تارة   فيبدو ، وتارةً يجم فيغرق[2] »

ولا شك في أن الدراسات النقدية الخاصة بالسرقات في المشرق لم تكن قد اكتملت وانتهت [3] ، ولا ندري أيضاً ماذا كان بين يدي الشارح من كتب عالجت هذا الموضوع على وجه من الوجوه ويظهر من قلة ما تحدث عن السرقات في شرحه دون ذكر كلمة السرقة أنه كان يرى شرحه بذلك ، ولا يعنّي نفسه بتحقيق سرقات صريع ، ولا السرقات منه ، وإلا لكان اتخذ موقفاً أكثر وضوحاً وأدق اصطلاحاً .

البديع ثارت حول طريقة مسلم بن الوليد مناقشات كثيرة في المشرق ، فقد قال فيه الجاحظ عند حديثه عن البديع [4] ومن الخطباء ممن كان يجمع

١) الديوان ٣٦   ٢) الديوان ٨٦
٣) مشكلة السرقات في النقد العربي ـ محمد مصطفى هدارة ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ـ سنة ١٩٥٨
٤) البيان والتبيين للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ ١ ص ٥١

الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحدوده ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما » . وافتتح ابن المعتز كتابه (البديع) بالحديث عن طرائق المحدَثين ومنهم مسلم بن الوليد فقال : « قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المُحدَثون البديع ، ليُعلَم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كَثُر في أشعارهم فعرف في زمانهم[1] » ، ولكن الشارح لم يشر إلى شيء من ذلك ، ولا أثار له حدالاً . وهو مع إشاراته القليلة التي سنتحدث عنها فيما يتعلق ببعض أغراض البديع ، لا ينبه على أي مصدر يدلنا من أين استقى ولا من أين نقل. وهو اكتفى بعرض بعض المعلومات القليلة الساذجة عن التشبيه ، والاستعارة ، ولم يرد على ذلك . وكان كثيراً ما يشرح المعنى المقصود بالتشبيه أو الاستعارة دون الإشارة الى اسميهما، وحين يذكر ذلك فنادراً ما ينبه على طرف من أطراف الاصطلاح الى وقته .

كان الشارح يمير كل تشبيه ويشرح المعنى المقصود بكل وضوح ودقة،ولكنه لم يكن يلتزم القول شبه كذا بكذا ، ولا تبيان أركان التشبيه ، إلا ما جاء من إيضاح بغير كلمات الاصطلاح الذي صار معروفاً فيما بعد وسنقف على بعض تشبيهات صريع ، ونقتبس معالجة الشارح للتشبيه فحسب .

قال صريع

كأن حبابَ الماء حين يَشجُّها لآلىءُ عقد في دماليج أو حجلِ

قال الشارح وشبه الزبد باللؤلؤ[2] »،وخرج إلى شرح المفردات وجملة المعنى. وهنا أورد كلمة (شبه)

١) البديع لابن المعتز ـ نشر عبد المنعم خفاجي ـ مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٦٤-١٩٤٥ ، ص ١٥ - ١٦

٢) الديوان ، ٣٩ .

قال صريـع :

كأن فيقاً نارلاً شـكَّ نحره إذا ما استدرت كالشعاع على النَرل

قال الشارح : « يقول كأن صيبها إذا ثقبت هذه الحابية كصيب دم انبعث من نحر جمل فيق أي أبيض حين نحر والنحر أن يطعن في ثغرتـه ، وهي النقيرة في أصل حلقه ، فتبلغ الحديدة إلى داخل صدره . وجعله فيقاً أي أبيض ليستبين مع ذلك حمرة الدم [1] » فهو هنا شـرح معنى الاستعارة وجاء بالكاف بين طرفي الكلام إشارة إلى مشبه ومشبه به ، ولم يستعمل كلمة (شبه) التي كان استعملها في البيت السابق ، لفكرة لم يُفصِ في شرحها .

وهو يدرك معنى الاستعارة، كما شرحها وبيّن أمثلتها ابن المعتز في (البديع)[2] فيقول إن الشاعر أجرى كلامه عـلى الاستعارة أو عـلى سبيل الاستعـارة أو استعار كذا . ويشرح المعنى بعـد ذلك بما يتلاءم مع فهمه للاستعارة . قال صريـع [3]

«وقمتَ بالدين يوم الرس فاعتدلت منه قوائم قد أوفت على ميل

» . . وجعل للدين دعائم على الاستعارة . يقول ليزيد بن مزيد . نصرت الدين وكاد أهله يغلبون . هذا الذي أراد » . ونجد إشاراته للاستعارة صريحة في مواضع أخرى مختلفة [4] ولكنه لا يلتزم ذلك ، بل قـــد يشير إلى جانب التشبيه من الاستعارة صراحة ، دون التصريـح بالاستعارة نفسها .

قال صريـع عن الخمر .

« أماتت نفوساً من حياة قريبة وفاتت فلم تطلب بتَبل ولا ذَحل

يريد أنها أسكرتهم ، وشبَّه سكرهم بالموت » [5] وإذا كنا لا نطالب الشارح بإيضاح كل ملاحظة بلاغية أو التنبيه عليهـــا ، فان ما ذكره الشارح وأورده لا يتناسب مع مكانة صريـع الغواني من (البديـع) ولا مع ما ملأ به

١) الديوان ٣٩

٢) البديـع ١٩ وما بعدها

٣) الديوان ٢٠

٤) ٨١ ، ١٦٣

٥) الديوان ٣٨

ديوانه من تشبيهات واستعارات وكنايات ، وفنون أخرى بديعية كانت لا شك معروفة زمن الشارح ، شائعة .

ملاحظات ذوقية نقدية . انصب اهتمام الشارح على المعاني وإيضاحها ، وحمل من اهتمامه الدّقيق باللغة واسطة أمينة لذلك . وبهذه الحاسة كان يميز بين الروايات المختلفة ويرجّح . وكان يعضد آراءه بما يلائم من شاهد لغوي أو مأثور شعري أو قول عالم مشرقي مشهور . قال صريع في الخمر

« شققنا لها في الدنّ عيناً فأسبلت كما أسبلت عينُ الخريد بلا كُحل

يقول شققنا لها في الدن عينا أي ثقبا فأسبلت أي ففاضت كما فاضت عين الخريد بدمعها بلا كحل . قال أبو عمرو بن العلاء يقال امرأة خريد وخريدة وهي الحييّة أي المحتشمة . وقد وقع في بعض الروايات : (عين الخريدة بالكحل) واعتلّ له بعض الناس بأن قال . إنما أراد بذكر الكحل الزفت الذي يكون حوله ثقب الخابية محدقاً لها كإحداق الكحل بالمقلة والأول أجود ، لقول الحسن بن هانيء المصري

فصت خواتمها في مثل واصفها عن مثل رقرقة في جفن مرهاء[1] »

وردّ رواية أحد الأبيات لمخالفتها أصلاً في اللغة ، قال صريع

« والناس كلهم لصِنْيٍ واحد ثم اختلاف طبائع في أنفس

. . ووقع في بعض الروايات والناس كلهم لصِنو واحد « وكيف يكون هذا صواباً ، والصنو ليس يكون صنواً حتى يكون له صاحب مثله وأصله النخلتان تنبتان في أصل واحد وجذوعهما مختلفة[2] . » ، فرجح هناك رواية ، وردّ هنا أخرى . ويصل به حسه إلى التشكيك في رواية بيت — لم يشر إلى غيرها — ويكاد ينفي نسبته الى صريع ، وهو

« طالما نشوف الخلد بالخلد لا نرى له ولها في طيب مجلسنا قدرا

وقع في الرواية . «نشوف الخلد بالخلد» وليس هذا الكلام يشبه كلام صريع

١) الديوان ١٣٣ . ٢) الديوان ٣٨ - ٣٩

لأنه معقد في شعره وصف العفاف « لا نرى لها – يعني الخمر – في طيب مجلسنا قدرا . ولو روى « نشوف اللهو بالراح لا نرى له ولها في طيب مجلسنا قدرا لكان حسناً [1] » .

وهو في ذلك كله يصدر عن ثقافة عربية ، وعن تقدير للقيم الشعرية العربية تذكرنا بآراء ابن قتيبة « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين [2] » . فهو يعرض بعض شعر صريع الغواني على تلك القيم ، ويرجّح مذهب المتقدمين . قال صريع .

« وتجشّى الحمراء إن سيوفهم حدث وإن قناتهم لم تضرس

يقول للسحابة أمطري الأنصار « وتحسى الحمراء إن سيوفهم حدث » أي جمع حديث ، وإن قناتهم لم تضرس . ولو قال . (إن قسيهم حدث وان سيوفهم لم تضرس) لكان أجود لأن الشعراء إنما تصف بالفلول السيوف ، وتصف الرماح بالانقصاف . والحمراء قوم بأعيانهم [3] » . وناقش مسألة أخرى بالطريقة نفسها [4] . وعلق على قول صريع .

إذا ما بدا رُفع الأستار عن ملك تُكسى الشهود به نوراً وإطلاما

بقوله « وهذا من بديع الكلام [5] » . وأغلب الظن أنه استحسن المعنى العام للبيت ، لأنه لم يشر قط إلى الطباق في شرحه لوضوح الكلام إليه .

ولا نعدم بعض الإشارات الأندلسية وهي قليلة جداً ، ولا دخل لها بجوهر شرحه الذي قال قال فيه محقق الديوان إنه شرح مشرقي الروح فقد رأينا ملاحظته الفريدة عن سرقة ابن عبد ربه من شعر صريع الغواني . وشرح كلمة المهامه بالفُحوص [6] . وشرح قول صريع[7] .

حتى إذا الفجرُ استضاءَ أجنّتُها لأذوق نوماً أو أُصيبَ مَقيلا

١) الديوان ٥١
٢) الشعر والشعراء لابن قتيبه ١ ، ٦٦
٣) الديوان ١٣٦ .
٤) الديوان ، ٤٥ .
٥) الديوان ٦٦
٦) الديوان ٥٩
٧) الديوان ٥٩

« يقول : مشيت طول الليل حتى إذا السحر استصاء أخذتها لأذوق نوماً أو أصيب مليلا ، أي خبزاً مملولا وهو المطبوخ في الملة . وذكر أبو حاتم أن الملة : الموضع الذي يطبخ فيه الخبز . وأهل الأندلس لا يعرفون الملة إلا التي يطبخ الخبز في قوش منها [1] ، مستعل من الأرض قد صار موسطها بين أرضها وسقفها » . فهو ينبه قارئه إلى خلاف في استعمال الكلمة بين ما ورد في الشعر المشرقي ، وبين ما آل اليه استعمالها في الأندلس .

وفي موضع آخر قال صريع [2]

«أَظلّت بمجدافَين يعتَوِرانها وَقوَّمها كبحُ اللجام من الدبر

يقول (أظلت السفينة بمجدافين يعتورانها أي مقدافين يتداولانها . وقومها كبح اللجام من الدبر) أراد باللجام ههنا الرحل رحل المركب ، وهو الذي يقول له أهل البحر في الأندلس الأشاطة [3] وبه يقوم المركب كما يقوم الفرس باللجام . » وهذه الاشارات على قلتها أثر أندلسي طريف في هذا الشرح المبكر من الشروح الأندلسية . وما ندري فلعل المؤلف ضمَّن أول كتابه وقسمه المفقود معلومات كثيرة وملاحظات هامة .

وخلاصة ما نقول في طريقة شرحه إن الشارح كان يشرح كل بيت بمفرده في أغلب الأحيان ، ويكون شرحه الكلمة العربية بكلمة مرادفة أو جملة ،

١) الديوان ٥٩ وانظر دوزي ٢ . ٤٩٩ ونقل عبارة الطبيخي
٢) الديوان ١٠٩
٣) في كتاب (لحن العامة) لابن هشام اللخمي مقتطفات نشرها الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث ١٩٥٧ ـ فصلة صفحة ١٦ ما نصه يقولون للتي يمسكها الملاح الإساطة ، والصواب الخيزرانة وقيل إن الخيزرانة السكان . قال النابغة

يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد

وقيل الخيزرانة المردى ، وكل خشبة ناعمة لينة فهي عند العرب خيزرانة » وانظر دوزي ١ . ٧٢١ قال في إشاطة وتفسيره بالسريانية عصا الراعي

ويستعين على ذلك حين يرى حاجةً ماسة بالشواهد الشعرية أو الآية من القرآن الكريم . ثم يشرح معنى البيت ، شرحاً مبسوطاً وبخاصــة المعاني الخفية أو الدقيقة ، ويستخرج معـــاني الشاعر المستترة وراء الاستعارات والكنايات والتلميحات . ويستعين كثيراً بألفاظ الشاعر نفسه مضمناً إياها في شرحه . وكان يشير بعض الإشارات القليلة في التــاريخ أو الاعلام ، وتركز اهتمامه على شرح المعاني بالدرجة الأولى مستعيناً بثقافة لغوية جيدة ، وثقافة عربية عميقة تدل على اطلاعه على كثير من التراث المشرقي .

*

شرح ديوان المتنبي

لابن الافليلي *

٣٥٢ – ٤٤١

عدّد ابن حزم فضائل بلده الأندلس وذكر من رجالاتها مَن شهد له بالبروز والنبوغ منذ بدايتها إلى عصره ، وكان ممن نال ثناءه نحوي أديب من قرطبة ، فقال في حديثه عن تآليف الأندلسيين في الشعر « وممّا يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن الافليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً » . وهي شهادة ذات مغزى كبير ، لأنها صدرت عن رجل خبير عالم بالأندلس وأهلها ، وشارك في علوم شتى[1] .

---

*) ترجمته في الذخيرة لابن بسام – القسم الأول – المجلد الاول ٢٤٠ – ٢٤٢ ، وانظر تعريض ابن شهيد بابن الافليلي ٢٣٣–٢٣٥ وذكره في الصلة لابن بشكوال ٩٣١ – ٩٤ وجذوة المقتبس للحميدي ١٤٢ – ١٤٣ ، ونقل ثناء ابن حزم عليــه . وفي بغية الملتمس للضبي صفحة١٩٩ ، الترجمة رقم ٤٨٥ واعتمد في معظمه على الحميدي ، وفي إرشاد الأريب لياقوت ٢ ٤ (طبعة مصر) ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان – طبعة الشيخ محي الدين عبد الحميــد الأولى ١٣٦٧ – ١٩٤٨ ١ ٣٣ – ٣٤ وفي بغية الوعاة للسيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – الطبعة الأولى ١ ٤٢٦ ، ومعظمها من ياقوت وفي إنباه الرواة على أنباه الرواة للقفطي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار الكتب المصريــة ١٣٦٩ – ١٩٥ – الجزء الأول ١٨٣ – ١٨٤ وشذرات الذهب ٣ ٢٦٦ ، ومعجم البلدان ياقوت (ليبزيــغ ١٨٦٦) ١ ٣٣٢ ، ونقل عن ابن بشكوال وله ترجمة في المغرب ١ ٧٢ – ٧٣ ، ونقل ما قاله ابن شهيد ، عن ذخيرة ابن بسام وشذرات الذهب للذهبي – ط القدسي ١٣٥٠ مصر – ج ٣ ص ٢٦٦ .

و Brock G 1 88, s 1 142

١) نفح الطيب ٢ . ١٦٦ .

ترجمته :

ابن الافليلي هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا .. بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري المعروف بابن الافليلي ، وهو من أهل قرطبة . وحدّث أحد الذين رووا عنه وهو أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني قال « أخبرني أن إفليلا [1] قرية من قرى الشام ، كأنّ هذا النسب اليها [2] » . ولد في شوال سنة ٣٥٢ وتوفي في ذي القعدة سنة ٤٤١ ، فهو عُمّر طويلا وأدرك زمناً من الدولة المروانية ، وعاصر الفتنة التي زعزعت هيبة الخلافة ثم أدرك زمناً يسيراً من عصر ملوك الطوائف . ويلقب في بعض المصادر بالوزير ، لأنه كتب لأحد خلفاء بني أمية زمناً يسيراً ، ونقل ابن بسام قصته عن ابن حيان المؤرخ الاندلسي فقال « واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن برد فوقع كلامه خائباً من البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلمين ، فلم يَجْرِ في أساليب الكتاب المطبوعين ، فزُهد فيه » [3] وقد حكم المستكفي الاندلسي في ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربع مئة ، وخُلع في أوائل سنة ست عشرة وأربع مئة ، فكانت دولته سبعة عشر شهراً صماماً نكدات ، سوداً مشوّهات

---

١) قال ابن بشكوال في الصلة ١ ، ٩٣ ان نسبته الى افليلا . وضبطها محقق كتاب إنباه الرواة ١ ١٨٣ بكسر الهمزة ومد الألف بلا همزة (إفليلا) وابن خلكان في وفيات الأعيان ١ ٣٤ ينقل ترجمته – دون أن يعين صراحة – عن ابن بشكوال نقلاً شبه حرفي ، ولما انتهى من ترجمته قال « والإفليلي بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر اللام ، وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام ثانية ، هذه النسبة الى الافليل وهي قرية الشام كان أصله منها » . والعبارة الأخيرة من ابن بشكوال أيضاً وينفرد ابن خلكان ويتابعه الذهبي في شذرات الذهب بتعريف المدينة وضبط لفظها وفي ياقوت (البلدان) ١ ٣٣٢ « أفليلاء » بفتح الهمزة ، ثم نقل ترجمته عن ابن بشكوال فكل المآخذ عن ابن بشكوال ويزيد ياقوت همزة متطرفة في آخر الكلمة ، يمكن أن يكون طابع الصلة الأول سها عنها لاحتمال رسمها مدة فوق الألف الاخيرة (إفليلا) أما ابن خلكان فلا ندري من أين أخذ الا أن يكون اجتهد ، قياساً على حذف ياء النسب ويظل ياقوت أرجح الآراء

٢) الصلة ١ ٩٣ ، ونقله القفطي ١ ١٨٣

٣) الذخيرة ١ – ١ ٢٤١

مشؤومات [١] ، وأنحى ابن حيان على المستكفي وهجّن سلوكه وحطته فوصفه بالعفلة والانقطاع إلى البطالة ، والجهالة ، ووصفه بسوء التدبير وأنه قد « تسمى بالوزارة في أيامه معردة ومشاة أراذلُ الدائرة ، وأخانث النطار فضلا عن رعانف الكتاب والحـدَمة [٢] » وان المستكفي ارتقى بكثير من صعاف الفقهاء وأصاغرهم إلى منزلة الشورى ورِسمة الفتوى . وصب المؤرخ عصبه ، وصور البلاد بأنها كانت في أسوأ حال . وهو عالم نحوي أديب ، تصدر للاقراء فدرس الناس عليه ، وتلقوا اللغة والادب والنحو.وقال فيه معاصره الحُمَيْدي إنه « كان متصدراً في علم الادب ، يُقرأ عليه ويُختلف فيه اليه » [٣].ويظهر أن أيامه القليلة التي قصاها وزيراً لم تؤثر في مجرى حياته ، فسرعان ما عاد إلى عمله الاصلي ، في حلقة العلم والرواية .

ثقافته .

وقد روى عن أبيه [٤] ، وعن أبي عيسى الليثي [٥] ، وأبي أحمد القلعي [٦] وأبي زكريا بن عائذ [٧] وأبي عمر بن أبي الحباب ، [٨] وأبي القاسم أحمد بن أبي أبان بن سعيد [٩] وأبي محمد ثابت بن أبي ثابت [١٠] وأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي [١١] وغيرهم . وأخذ عنه جماعة منهم الأعلم الشنتمري [١٢] وأبو مروان عبد الملك بن سراج [١٣] وأبو مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطبني [١٤]

١) الذخيرة ١ – ١ ٣٧٣ ٢) الذخيرة ١ – ١ ٢٨٣
٣) جذوة المقتبس ١٤٢ . ٤) الصلة ١ ٩٣
٥) فهرسة ابن خير ٣٩٩ . ٦ ٧) الصلة ١ . ٩٣
٨) الصلة ١ ٩٣ ، ابن خير ٣٥٤ ، ٢٦٤
٩) الصلة ١ ٩٣ ، ابن خير وفيه ابن سيد بدلاً من سعيد ٣٩ ، ٣٩١ ، ٣٦٤
١٠) ابن خير ٣٨٣
١١) الصلة ١ ٩٣ وابن خير ٣٤٥ – ٣٤٧ ، ٣٢٣ ، ٣٧ ، ٣٨٧ الجذوة ٤٣ .
١٢) ابن خير ٣٣٤ .
١٣) ابن خير ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٤٥ – ٣٤٧ ، ٤٥ – ٣٤٧ ، ٣٣٩ .
١٤) الصلة ١ ٩٣ ، وابن خير ٣٢٢ .

وغيرهم وقد أكثر الأخذ عن أبي بكر الزبيدي الذي اتصل بأبي علي القالي ، وأخذ تراث القالي عن الكاتب صاحب الشرطة أبي القاسم أحمد بن أبان . وفي مواضع متفرقة من فهرسة ابن خير أسماء لبعض الكتب التي رواها ابن الإفليلي عمن ذكرت آنفاً . فمن كتب الأنحاء واللغات . فعلت وأفعلت للزجاج [1] وكتاب أبنية سيبويه[2] واختيار فصيح الكلام لأبي العباس ثعلب، وفائت الفصيح [3] وكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة [4] والغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام [5] وكتاب الألفاظ لابن السكيت [6] . ومن كتب الأمثال ، كتاب الأمثال لأبي عبيد [7] وروى أيضاً كتاب خلق الانسان لأبي محمد ثابت بن أبي ثابت[8] ، والميسر لابن قتيبة [9] ونوادر ابن الاعرابي [10] . ومن كتب الادب البيان والتبيين للجاحظ[11] أخذه عنه ابن سراج، ولم تكن لابن الافليلي فيه رواية ، وأخذ النوادر وذيل النوادر ، من تصنيف أبي علي البغدادي، عن ابي بكر الزبيدي[12] ، وروى المفضليات[13] وشعر ذي الرمة وأعشى بكر [14] وشعر حبيب بن أوس الطائي[15] وروى عن شيخه الزبيدي كتابيه لحن العامة ، ومختصر لحن العامة — مما يلحق بكتب اللغة[16] وروى ديوان المتنبي كما سنذكر .

وما من شك في أن هذه ليست كل مروياته ، ولكنها تبيّن نموذج ثقافته ، فهي من النحو ، وكتب اللغات المختلفة ، ومن الشعر القديم ، والمحدث أيضاً ، فهو يروي ديوان أبي تمام . وينصّ ابن خير — وينقل القفطي — أن ابن الإفليلي أقرأ كتاب النوادر لأبي علي [17] ، وذكر أيضاً أنه أقرأ شعر حبيب بن أوس

---

١) ابن خير ٢٥٢ ٢) ابن خير ٣٥٢ ٣) ابن خير ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
٤) ابن خير ٣٣٤ ٥) ابن خير ٣٢٧ ، ٣٢٨ . ٦) ابن خير ٣٢٩ .
٧) ابن خير ٣٣٩ ٨) ابن خير ٣٧٤ ٩) ابن خير ٣٧٨
١٠) ابن خير ٣٧٢ ١١) ابن خير ٣٢٦ ١٢) ابن خير ٣٢٣-٢٤-٣٢٥
١٣) ابن خير ٣٩٠ ١٤) ابن خير ٣٩١ . ١٥) ابن خير ٢ ٤
١٦) ابن خير ٣٤٦ — ٣٤٧ ١٧) فهرسة ابن خير ٣٢٣

الطائي [1] وقال في الصلة : إنه « عظيم السلطـان على شعر حبيب الطائي ، وأبي الطيب المتنبي ، كثير العنـاية بهما خاصة ، على عنايتـه الأكيدة بسائر كتبه [2] » وهو أفاد من شيوخه الذين ذكرنا ، ومن غيرهم ، و « لقي جماعـة أهل العلم والأدب ، وجماعة من مشاهير المحدثين . وعاش في فترة ازدهر فيهـا الأدب وتألق المشاهير من الشعراء والكتاب والمؤلفين ، وعرف عنه اهتمامـه بأشعار أهل بلده ، وجمعه مجموعة جيدة منه ، على علم بانتقاء الكلام ومعرفـة رائعة وقد أثنى عليه الحميدي في الجذوة، وأطنب في الثناء عليه ابن بشكوال في الصلة ، وترددت أصداء ذلك في كتب التراجم الأخرى وأكثر الثناء عليه بحفظ اللغة ومعرفة الأشعار والعناية بالنحو ، وحسن الانتقاد .

شخ

ونقل ابن بشكوال عنه صفات شخصية من حسن الخلق وطيب الأحدوثة « وكان صادق اللهجة حسن الغيب ، صافي الضمير ، حسن المحاضرة ، مكرماً لجليسه » . إلا أن ابن حيـان الذي كان ناقماً عـلى مستكتِب ابن الأفليلي — وأعني الخليفة المستكفي — كما تقـدم ، يصور ابن الافليلي من ناحيتين . فهو يثني عليه بالعلم والضبط ومعرفة اللغة ، ويتحرج في اطلاق الثناء بمعرفة معاني الشعر قال « وكان أبو القاسم . قد بذّ أهل زمـــانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغـة في ألفاظ الأشعار الجاهليـة والإسلامية ، والمشاركة في بعض معانيها [3] » ويدخل الى الناحية الأخرى بتمهيـد يوطىء « وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن ، كثير الحسد فيه » ثم يخرج الى نواقص ابن الافليلي كما يرويها هو من أنه « عدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه اليه وإكمال صناعته به ، فلم يكن له شروع فيه »

هذا مؤرخ ينقل الصالح والطالح، ويحكم لابن الافليلي كما يحكم عليه ولكنا

١) ابن خير ٢ ٤ . ٢) الصلة . ١ ٩٣
٣) الذخيرة ١ — ١ ٣٤٠ .

نقف أمام ناقد آخر له لا يورد إلا المثالب، ويهاجمه من طرف خفي وطرف خفي، وسياق كلام ابن شهيد – في مقتطعات ابن بسام من رسالته التوابع والزوابع – يدل على أن الخلاف لما وُصِف من غيرة ابن الافليلي على صناعته، وعجبه بما عنده، ولعله أيضاً انتقد طريقة ابن شهيد في شعر ونثر. وقد حمل ابن شهيد شيطان ابن الإفليلي على صورة نشحة قبيحة، باسم أنف الناقة فلم يكترث لما تفاخر من رواياتـه وحفظه «قال – أنف الناقة – . فطارحني كتاب الخليل قلت هو عندي في زبيل. قال فناظرني كتاب سيبويه قلت خريت الهرة عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه. فقال لي دع عنك! أنا ابو البيان قلت لا ها الله! إنمـا أنت كمنٍّ وسط لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهي. ليس البيان من شعر يهدر، ولا أرض تكسر، هيهـات... حتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه[1]» والخلاف الأساسي هو ما ذكره ابن حيان من لحوء ابن الافليلي في كتاباته الديوانية الى ما سماه «طريقـة المعلمـين المتكلفين» في حين شيوع طريقة الكتاب المطبوعين

أما عن مؤلفاته فقـد اشتهر الخبر بأنه لم يؤلف غير شرحـه على ديوان المتنبي [2] في حين أن كافة المصادر لم تذكر غير مؤلفه هذا ولا يمكن أن نفهم من عبارة ابن بشكوال «وكان عنده قطعة صالحة من أشعار أهل بلده» أكثر من وجود مجموعة أندلسية شعرية في متناول يده ونقل في المغرب عن الحِجاري أن ابن الافليلي «كان بارد النظم والنثر، ولم يندر له من شعره إلا قوله

صحبتُ القطيعَ وتادمتُه	وأصبحتُ في سربه ذا انقطـاع
وأبصرت أُنسي به وحده	كأنس الرضيع بثدي الرضاع[3]»

كما قيل في ابن الأفليلي شعر (هجاء) لمناسبة ذكرها ابن حيـان قال

١) الذخيرة ١ – ١ ٢٣٤ وانظر (٢٣٣ – ٢٣٥)
٢) الذخيرة ١ – ١ ٢٤١، المغرب ١ ٧٣ السيوطي بغية الوعاة ١ ٤٢٦ .
٣) المغرب ١ ٧٣ .

« ولحقته تهمة في دينه أيام هشام المرواني في جملة من تُتُبّعَ من الأطباء في وقته كابن عاصم والسباسي والحمّار وغيرهم . وطُلب ابن الافليلي وسجن بالمطبق ، ثم اطلق . وفيه يقول موسى بن الطائف من قصيدة :

يا مصراً عميت نواظر فهمه   عن كنه عرضي في المديح وطولي
لو كنت تعقلُ ما جهلتَ مَقاومي   من ساق فرسخه بخطوة ميل
ولئن ثلبتُ الشعرَ وهو أباطل   فلقد ثلبتَ حقائق التنزيل..[1] »

ولا نكاد نسمع صدى لهذا الخبر فيما تلا من كتب التراجم ، ولا عند ابن بشكوال الذي أهمل معظم خبر أبي القاسم

أثر هذا الشرح في ترجمة ابن حزم أنه ألّف كتاباً في (التعقيب على ابن الافليلي في شرحه لديوان المتنبي) وهذا يعني ان ابن حزم بالرغم من ثنائه على الكتاب — كما صدّرت أول الحديث — استدرك عليه بعض الأمور وتعقبه في بعض الشروح والآراء ، ولا نعرف عن الكتاب غير اسمه . وانتقل الكتاب إلى المشرق ، وأفاد منه العكبري في شرحه عن المتنبي إفادة كبيرة ، ونبه في مقدمته على أنه اعتمد على ابن الافليلي في جملة مصادره[2] ولم يكن العكبري يشير حين ينقل من ابن الافليلي إلى اسمه ، على حين يذكر ابن جني وابن فورجه وابن وكيع وسواهم . ولاختصار شرح ابن الافليلي — نسبياً — فإن العكبري كان يضم إلى شرحه إضافات أخرى ، فتندرج عبارته ، وكأنها من إنشائه . كما كان يفرق الشرح على منهجه الى قسمين . شرح الغريب ، وشرح المعنى ، والحق ان إفادة العكبري من ابن الافليلي كبيرة جداً على الرغم من اغفاله إسمه إلا في مقدمة الكتاب تقريباً . وألح على النقل منه في المواضع التي أشار فيها ابو القاسم إلى بعض الفنون البلاغية . قال أبو القاسم في شرح مطلع قصيدة لأبي الطيب

١) الذخيرة ١ — ١ ٢٤١ .
٢) شرح التبيان للعكبري — المطبعة الشرقية بمصر ١٣٠٨ هـ — ٢ ٢٤١ — ٢٤٢

أين أرمعت أيهذا الهُمامُ   نحن نبت الربى وأنت الغمام

« المرمع المعتزم ، والرُّبا جمع ربوة وهي الأكمة . يقول : أين أرمعت الرحيل عنا أيها الملك ونحن الذين أظهرتهم نعمتك إظهار الغمام لنبت الربا ، وهو من أنق النبت ، ولذلك ضرب الله تعالى المثل به فقال (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) وهو مع ذلك أقرب النبت موضعاً من الغمام وأشده افتقاراً اليه لأنه لا يقيم فيه ويسرع الانسياب عنه ، ولهذا ما تشبه المتنبي به في حالته » اهـ .
وقال العكبري

« (الغريب) الإرماع العزم على الرحيل والهمام الملك العظيم الهمة . والربات جمع ربوة ، وخص الربا دون غيرها لأن الروضة إذا كانت على يفاع من الأرض كانت أحسن (المعنى) يقول أين ، وهو سؤال عن مكان أي مكان عزمت عليه أيها الملك قال الواحدي ونحن لاعيش لنا إلا بك فإذا فارقتنا لم نعش كنبات الربا لا يبقى إلا بالغمام لأنه لا شرب له إلا من مائه . وغير نبات الربا يمكن أن يجري اليه الماء ، وهو من قول الآخر

نحن زهر الرُّبا وجودك غيثٌ   هل بغير الغيوث يونِق زَهر

هذا كلامه وهو كلام أبي الفتح نقلاً والمعنى [يقول أين أرمعت أيها الملك عنا ونحن الذين أظهرتهم نعمتك إظهار الغمام لنبت الربا وهو من آنق النبت ، ولهذا ضرب الله تعالى به المثل في قوله (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) وهو مع ذلك أقرب النبت موضعاً من الغمام وأشده افتقاراً اليه لأنه لا يقيم فيه ويسرع الانسكاب عنه ولهذا شبه أبو الطيب حاله به] قال ابن وكيع أول هذه القصيدة سوء أدب لسؤاله ملكاً جليلا بأين »

والكلام الذي بين معقوفين هو كلام أبي القاسم بن الافليلي بالحرف الواحد والعجيب أن العكبري انتقد الواحدي لنقله كلام ابن جني دون إشارة ، ثم أخذ كلام غيره حرفاً حرفاً وسكت عن ذلك ، وهذا من غريب ما يكون ! وسأشير في بعض نقولي عن شرح ابن الافليلي الى مواضعها من شرح العكبري

لتكون عادح ، ولو اكتمل شرح أبي القاسم في يدي لكان حديث آخر وذكره ابن خلكان في ترجمة ابن الافليلي فقال . « شَرَحَ ديوان المتنبي شرحاً جيداً وهو مشهور [1] » وأشار في ترجمة المتنبي الى شرح أبي القاسم أيضاً ، وفحواها تدل على اطلاع ابن خلكان المباشر على الكتاب [2] .

نسخ الكتاب : ذكر بروكلمان [3] في تاريخه أن لشرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي خمس مخطوطات منها واحدة في القرويين (رقم١٣٤٣) وأخرى في الرباط (٣٢٤) ، والمتحف البريطاني (الملحق : ١٠٤١) ومنه مقتطفات في الموصل (داود جلبي صفحة ٢٣) وقد حصلت على اثنتين منها نسخة الرباط ، ونسخة المتحف البريطاني [4] والحق أن النسختين مقتطفات من شرح ابن الافليلي فنسخة الرباط تحوي تقريباً معظم سيفيات المتنبي بينما تحوي نسخة المتحف البريطاني على مئة ورقة من السيفيات أيضاً . وستقوم الدراسة على هاتين النسختين ، لعلنا ندرك فيما بعد بقية الكتاب ، ونتم صورة الرأي فيه .

النسختان نسخة المتحف البريطاني نفيسة ، ولو كانت كاملة لكانت قيمتها عظيمة جداً وهي بخط مشرقي نسخي جميل واضح مشكول متقن . نسق فيه في الغالب كل بيتين معاً يتلوهما الشرح وهي مبتورة الأول ، وتبدأ بقوله

« وقال يمدحه وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية .

أين أزمعتَ أيهذا الهُمام نحن نبتُ الربى وأنت الغَمامُ ..»

وتقع هذه القصيدة في الصفحة التاسعة من مخطوطة الرباط ،وهي الثانية من قصائدها وبتخلل النسخة بعض الخروم أما نسخة الرباط فهي ٢٧٢ صفحة ، بخط مغربي ، كتبت في القرن العاشر ، فرغ منها ناسخهـا سنة خمس وسبعين وتسعمئه جعل فيها كل بيت وشرحه على حدة وسقطت من الشرح الورقة

١) وفيات الأعيان ١ ٣٣ ٢) وفيات الأعيان ١ ١٠٦

٣) Brock S 1 142

٤) ذكر الخامسة (وأنها في برلين برقم ٧٥٦٩) في Brock G 1 88

اولأنى فأتمها شخص آخر بنسخ بديل عنهـا بخط مُغاير . والناظر لأول وهلة يظن الكتابين مختلفين . فنسخة المتحف البريطاني حملت كل بيتين معـــاً ، وشرحهما معاً في أغلب الأحيان ، على حين أن نسخـة الرباط نسقت كل بيت وحده مع شرحه . وشيء آخر، هو أن صاحب نسخة الرباط لعب قليلاً بالنص فقد كان المؤلف يبدأ بشرح بعض الـكلمات شرحاً لغوياً مفرداً ثم يثنّي بشرح المعاني مع شيء من الملاحظات الاخرى كما هي . وقد تطابقت لديّ الشروح في كل ما ورد من قصائد النسختين . وهناك دليل قائم على ان ناسخ الرباط اختزأ على النص بحذف شرح الألفاظ ففي الصفحة ١٥١ في شرح بعض أبيات المتنبي اضطر الناسخ إلى الاحتفاظ بشرح الالفاظ للضرورة الملحة وفيها « وأنشد أبو الطيب هذه القصيدة سيف الدولة بحضرة جماعة ، فلما بلغ إلى قوله (أقل أنل . البيت) رأى من حضر يعدّ حروفه ويستكثرها فأنشد

أَقِل أَنِل أَن صُن احمِل ّعَلّ سَلّ أعِد
رِدْ هَشّ تَنَشّ هَب اغفر أَدْنِ سُرّ صِلِ

فرآهم يستكثرون الحروف ويستعظمون سرعة خاطره ، فقال

عِشْ ابقَ اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انه رَهْ فِهْ اسرِ نَل
غِظ ارمِ صِبِ احمِ اغزُ اسبِ رُعْ زَعْ دِهِ لِهِ اثنِ بِلِ[1]

وَرَيتَ الرجل إذا أصبت رئته . وصب بمعنى أصب يقال صاب وأصاب بمعنى وزع بمعنى أخف . يقال راع يروع وزع بمعنى كف، وبل بمعنى أمطر وأن بمعنى ارفق فيما تبدر إليه من فضلك، وظن تكرمك من يقصدك من فضل غيرك ثم يقول لسيف الدولة » وهذا كله مطابق في نسخة المتحف البريطاني لما في الورقة رقم ٤٣

١) ديوان أبى الطيب المتنبي ــ تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام مطبعة لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهره ١٣٦٣ ــ ١٩٤٤ ص ٣٣٢ .

رواية ابن الأفليلي للديوان : ذكر ابن خير في فهرسته أنه يروي شعر أبي الطيب المتنبي عن شيخه أبي عبد الله جعفر بن محمد بن مكي ، عن الوزير أبي مروان ابن سراج ، عن الوزير أبي القاسم بن الافليلي ، وأيضاً عن أبي بكر بن مدلة ، عن الأعلم الشنتمري عن ابن الافليلي ، ومن طريق ثالثة عن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال عن أبي تميم بن بقنة عن ابن الافليلي . أما أبو القاسم هذا فيرويه بسنده ، قال ابن خير . « قال ابو القاسم . قرأته على ابي القاسم الحسين بن الوليد ويعرف بابن العريف عن ابي بكر الطائي وإبراهيم المغربي كلاهما عن ابي الطيب المتنبي [1] » فقد كان ابن الافليلي راوية مشهوراً لشعر المتنبي خاصة كما تبين من سند ابن خير .

منهج الشرح وطريقته اتبع الشارح في ترتيب قصائد الديوان ، الترتيب الذي وصلت إليه روايته . والمقدمات التي يثبتها في أوائل القصائد وذكر مناسباتها قريبة في اللفظ من كثير من المقدمات – كما يتوقع من صنع المتنبي نفسه [2] واتبع ابن الافليلي الترتيب التــاريخي شأن معظم النسخ [3] ويظهر أنه شرح الديوان على النسق الذي وصلته روايته دون تغيير .

وهو يقدم لشرح معاني الأبيات بإيضاح بعض الكلمات وشرحها شرحــاً لغوياً سريعاً ، مثل شرحه

« أعلى الممالك ما يُبنى على الأسَل والطعن عــــند محبيهن كالقبل

ومــا تقر سيوف في ممــالكها حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

الممالك جمع مملكة ، وهي سلطان الملك في رعيته ، والأسل الرمــاح ، والقبل جمع قبلة والتقلقل دوام الحركة ، والقلل الرؤوس واحدتها قلة وقلة

١) فهرسة ابن خير ٣ ٤

٢) ديوان المتنبي – تحقيق عزام – المقدمة – صفحة ل

٣) المصدر نفسه ، صفحة كح

كل شيء أعلاه . فيقول.». (١) ويمرح بين الشرح السريع لبعض الكلمات ، وبين المعنى العام ، مستخلصاً منه دقائق المعاني مستفيداً من ثروته اللغوية الغنية .

وقليلا ما يعقب على معنى من المعاني رأي يستقيه من وحي الكلام أو من ملازمته ومشاهته ، كتعقيبه على شرح البيت التالي .

« إذا ما تأملتَ الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضرب من القَتْل

ثم قال : إذا تأملت الزمان وصروفه وتدبرت الدهر وخطوبه تيقّنت أن ما حتم على الانسان من الموت كالذي يتوقعه من القتل لأن الأمرين متساويان في مكروههما ، متماثلان فيما يشاهد من عدم الحياة بهما ، فما ظنك بشيء يكون آخر مصيره الى أكره ما يكون من أموره ، وهذا يوجب الزهد في الدنيـــا ويدعو الى الإعراض عنها ، وقلة الأسف عليها (٢) » فهـذا التعقيب الأخير من الشارح ، وهذا التوجيه ممكن ، ولكن إيجابه إنما هو من رأي الشارح ، وهو نادراً ما يقع منه في تعليقاته .

ومعالجة الشارح لمعاني المتنبي تتم عن أسلوب سهل،وحسن تأتٍّ ، وبساطة عرض وهو يعلل المعاني ويدلل على مقاصد الشاعر المكنونـة وراء لفظة أو خلف عبارة ، ويأتلف لديه في هذا تبين دلالات العبارات بذاتها مع تبين الغرض البعيد من ورائها ، قال المتنبي في سيف الدولة

« فالعُرب منه مع الكُدْريّ طائرةٌ والروم طائرةٌ منـه مع الحجَل

ثم يقول ان عُصاة الاعراب يـفـَرقهم من سيف الدولة يعتصمون منه بمـا غمض من الرمال وبَعُد من المهامه والقفار — وهناك تستقر القطا وتأمن وتفرخ وتسكن — وكذلك الروم تعتصم منه بالأوعار وقنن الجبال ، وتلك مواضع الحجل ومساكنها فأشار بجمعه بين الروم والحجل الى مستقر الطائفتين ومـا

١) شرح ابن الافليلي (المتحف البريطاني) ورقة ١٢ (الرباط صفحة ٣٢)
٢) نسخة الرباط ٤٦

إليه غاية قرار الصفين ، ودل على أن سيف الدولة لا يتمرس الاعداء لحربه ولا يقاومون شدة بأسه ، وإنما يفرعون الى الاعتصام منه بالعلوات النائية ورؤوس الجبال الشامخة [١] ، وهذا شرح في غاية من السهولة والبساطة والنفاذ .

شواهد . وهو يتوسل إلى إيضاح شروحه اللغوية وشروح المعاني ، على قلة وتقدر ، بالآيات القرآنية أو الشواهد الشعرية . كاحتجاجه بشعر للفرزدق (ص ٥) والحميري (ص ٥٥) وزهير (ص ٩٥) ونادراً ما يشير الى حادثة تاريخية مثل إشارته الى ما صنعه الحجاج من وسم عجم السواد (ص ٥) قال والوسم في الأعناق والأيدي غاية استدلال المالك لمن مَلكه وقد فعل ذلك الحجاج بقوم من عجم السواد [٢] » . أو اشارة جغرافية كشرحه عن مدينة ميافارقين [٣] . وكل هذا نادر معدود ولا يكاد يدخل في حسبان طريقته الأساسية في الشرح .

ملاحظات نحوية . وللشارح وقفات سريعة تتردد بين الغيبة والغيبة عند بعض القضايا النحوية ، وهو يستشهد أحياناً بكتاب سيبويه ، وبأقوال الفراء[٤] ومن وقفاته . ما ذكره عن الضمير المتصل موضع الضمير المنفصل [٥] و ما الاستفهامية بعد إلى الجارة [٦] وذي اسم الإشارة للمؤنث والمذكر [٧] وحذف أن قبل المضارع وتقديرها [٨] وإسقاط حرف الجر مع ورث واثباته في البيه[٩] والاجتزاء عن التثنية بالجمع [١٠] وتثنية أب دون رد الكلمة الى أصلها [١١] . وحذف ياء المنادى حين يضيف المنادي الى نفسه ، وحذف عائد ما التي للتعجب[١٢] ، وناقش النداء في واحر قلباه[١٣] ، « وفي فواعجباه[١٤] » ويظهر

---

١) نسخة الرباط ١٤٧ — ٢) نسخة الرباط ٥١ — ٣) نسخة الرباط ٨١ .
٤) صفحة ١٧ — ٥) صفحة ١٨ . — ٦) صفحة ٢٣
٧) صفحة ٣٢ — ٨) صفحة ٤٧ — ٩) صفحة ٥٥ .
١٠) صفحة ١١١ — ١١) صفحة ١١٧ — ١٢) صفحة ١٢٢
١٣) صفحة ١٣٢ . — ١٤) صفحة ٢٠٢

من استعراض هده الأمثلة أن اس الافليلي مطلع على أمور السحو متمكن منها مسها كما ذكروا في ترجمته ، وهو هنا يتسقط اللغات المختلفة ليحد سبلا تسوّغ « شوارد » المتسي في استعمالاته ، ووجوه عباراته . وكثيراً ما يشير الى أن لغة المتسي أو استعماله النحوي مما استعمله العرب أو وردت فيه لغة أو له شاهد ، أو سُمح به في الشعر .

قال المتنبي .

إلى مَ طماعية العادل ولا رأي في الحب للعاقل

إلى م هي · إلى التي للخفض دخلت على ما التي للاستفهام فسيت معهما سماء كلمة واحدة ، وسقطت الألف من (ما) استخفافاً ، واعتدوا بالى في الكلمة الموصولة بها وكذلك يفعلون بما التي للاستفهام إذا اتصل بها سائر حروف الجر ، ولا يفعلون ذلك بـ (ما) في الخبر وأحرجهم إلى دلك كثرة الاستعمال ، فيقول .. »[1]وفي موضع آخر

« تسل بفكر في أبَيك فإنما بكيتَ فكان الضحك بعد قريب

وقوله في أبيك يريد في أبويك فثنى الأب على لفظه ، ولم يرده إلى أصله . وقد روى الفراء ذلك ، وذكر أن من العرب من يقول إذا ثنى الأب والأخ في الرفع أبان وأخان ، وفي النصب أبين وأخين ، والجمع على ذلك وأنشد سيبويه .

فلما تبيّن أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

وليست تثنية أب على لفظه بأعجب من جمعه جمع سلامة على ذلك . فهو استخدم ما رواه عن الفراء من جواز تثنية أب دون ردها إلى الاصل ، واحتج من وجه آخر بما قاس على جواز الجمع ، فجوّز التثنية ويكتفي بهذا ، بما يدل ويمثّل

١) شرح ابن الافليلي (الرباط) ٢٣

في السرقات . في ثنايا الشرح ملاحظات قليلة عابرة فيما نسميه السرقات ، لأن الشارح لم يكلف نفسه هذا ، وإنما هي ملاحظات نادرة معدودة، وهو يتنبه إلى المعاني المشتركة التي يطرقها الشعراء بحكم ما هو مألوف من معاني العرب ، ولا يكون ذلك أحداً ولا سرقة ، قال المتنبي .

« أيدري الربع أي دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا

الشعراء تذكر أن الحزن إذا أفرط والبكاء إذا اتصل امتزج الدم بالدمع فتلاه في جريه ، وانحدر في أثره ، فيقول . [1] » .

وعلق على قوله :

« فجار له حق على الشمس حكمه وبان له حق على البدر ميسم

فقال بعد شرح البيت « والعرب تفعل ذلك ، تصف الممدوح بالقدرة على ما لا يقدر أحد عليه في الحقيقة لتوجب له بذلك غاية القوة وأبعد نهايات القدرة » [2] وقال انه قول المتنبي .

« له عسكرا خيل وطير إذا رمى بها عسكراً لم تبق إلا جماجمه

.. على نحو قول النابغة

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب [3] »

وفي موضع آخر قال المتنبي .

« هو الشجاع يعد البخل من جبن هو الجواد يعد الجبن من بخل

وأجمل ما فسره أبو تمام بقوله

وإذا رأيت أبا يزيد في وغى وندى ومبدىء غارة ومعيدا
يقري مرجّيه حشاشة ماله وشبا الأسنة ثغرة ووريدا
أيقنت أن من السماح شجاعة تدمي وأن من الشجاعة جودا

١) صفحة ٥٨ . ٢) صفحة ٧٦ ٣) صفحة ٦٠ .

فيش أبو تمام وفسّر ، وجمع أبو الطيب ، واختصر »[1]. وأشار مرةأخرى إلى بيت للمتنبي على نحو بيت للنابغة .[2]

ملاحظات بلاغية . كل الأحكام التي نصدرها قابلة للزيادة والنقصان ، على مخطوط ناقص ، لا نستبين فيه كل معالم شرح الشارح وآرائه ، ولكن ما نحصل عليه يعطي صورة أولية ، ولن نعمم الاحكام أو نقطع بها ، فقد يكون الاحتراس في مثل هذه الدراسات أصدق وأدق من التعميم والقطع أقول هذا في سياق حديثي عن ملاحظات بلاغية تحصّلتها من أثناء ما لديّ من شرح ابن الإفليلي . ونستطيع أن نقول إن ملاحظاته البلاغية هذه ، وشروحه للألفاظ والمعاني ، هي التي تكوّن صلب شرحه ، وتميزه عن سواه من الشروح، لأن ما سوى ذلك ملاحظات عابرة تتخلل أي عمل ولا َتسِمه بميسمها أو تلحقه بها .

في فصل لاحق سأتحدّث عن البلاغة في الأندلس بنظرة عامة.ولكني استبق الحديث لأذكر أن الأندلسيين لم يعنوا بالدراسات البلاغية النظرية عناية أهل المشرق وعلل ابن خلدون فيما بعد بتعليل خاص سنتعرض له . ولكن لم يكونوا معزولين عما يدور من بعيد ، وكانوا يستفيدون من ذلك ، كما سنلحظ من الدراسات التطبيقية .

تحدث الشارح عن بعض المصطلحات البيانية والبديعية والبديعيـة في أثناء شرحه ، وهو لم يلتزم الإشارة الى كل ناحية فيها نوع بلاغي أو بديعي ، بل كان يراوح بين ذلك فنبّه على التشبيه ، والإستعارة ، والكناية . وذكر عشرة من أنواع البديع ، وهي مقتبسة من بديع ابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة ، والصناعتين لأبي هلال العسكري كما سأبين ، وهو لم يذكر أسماء هذه الكتب ، ثبتُ ذلك بالمصطلحات نفسها مقارنة بما في تلك الكتب

١) صفحة ٣٨ ٢) صفحة ٧٩

قال المتنبي :

كأن خلاصَ أبي وائلٍ معاودةُ القمرِ الآفل

ثم شبّه خلاص أبي وائل من إساره بخروج القمر من سراره ، ومعاودته للإنارة ، وما كان عليه من السيادة بمعاودة القمر الآفل لصيائه ومراجعته لبهائه [1] ». وهو يرى أن تشبيه شيئين بشيئين أجود من تشبيه شيء بشيء ، قال المتنبي :

« لأكبتَ حاسداً وأرى عدواً كأنّهما وداعُك والرحيلُ

.. فشبّه شيئين بشيئين أصح تشبيه ، وهذا أرفع وجوه البديع [2] ». وهذا قريب من قول قدامة « وقد يقع في التشبيه تصرف الى وجوه تستحسن، فمنها أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة . [3] » . وهو ما عبر عنه ابن الأفليلي بقول (أصح تشبيه) .

ونبّه كثيراً على الاستعارة ، وفي أبيات يصعب احصاؤها ، وعدّهـا في فنون البديع كما فعل ابن المعتز [4] ، وصاحب الصاعتين [5] على حين أغفلها قدامة [6] من ذلك :

« وأنتَ فيهم ربيعَ السماء فأثْنَتَ بإحسانك الشاملِ

ثم قال . وأنت من أحسادهم ربيع السماء فأحصت في نحومها إحصاب السائمة في ربيعها فأثنت بما عمّها من فضلك وشملها من إحسانك ، وأحرى أكثر

١) شرح الديوان (الرباط) . ٢٥ .
٢) صفحة ١٢ ونقل العكبري الوجه البلاغي ١٨
٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر - طبعة الخانجي ١٩٦٣ - ص ١٢٦ ، والصاعتين لأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ - الطبعة بالآستانة ١٣٢٠ هـ ، ص ١٨٩
٤) البديع ١٩ ٥) الصاعتين ٢٠٥ .
٦) البلاغة تطور وتاريخ - الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر ١٩٦٥ - ص . ٩١ - ٩٢ .

لفظ البيت على الاستعارة[1] ، وقال بعد شرح البيت التالي :

ويوم شرابُ بنيه الردى   بغيض الحضور إلى الواغل

وجرى هذا الكلام على مثل ما تقدم من الاستعارة ، وهي من أبواب البديع » ، وقال في موضع آخر « وجرى في هذا على الاستعارة من بديع الكلام [2] » فلم يكن تقسيم الفنون البلاغية قد تم بعد [3] .

وأشار إلى الكناية [4] في مواطن مختلفة ، وفضّل لفظة الكناية ، على (الإرداف) التي اصطلحها قدامة ، و (المماثلة) التي اصطلحها أبو هلال ، فمن ذلك ، شرحه قول المتنبي ·

« فصرتُ إذا أصابتني سهام   تكسرت النّصال على النصال

قال فهو إذا أصابه الدهر بخطب من خطوبه ، وصرف من صروفه فإن ذلك إنما يوافق مثله ، ويقرع شكله ، وكنى بنصال السهام عن اشتداد الخطوب ، وقال ان بعضها يكسر بعضاً في فؤاده لتزاحمها فيه ، وتكاثرها عليه[5]وقد يلحق كلمة أشار بعد كلمة كنّى لإيضاح المعنى ، ولكنه قد يقتصر بها عن (كنى) ، مثل شرحه

ولم يَحل من أسمائه عود منبر   ولم يخل دينارٌ ولم يَخل درهَم

قال ولم يخل من أسمائه منبر يريد أن بلاد الأرض مضافة إلى ولايته مُحتَسَب على منابرها له بلزوم طاعته ، ولم يخل دينار ولم يخل درهم يريد الآفاق ودراهمها مطبوعة باسمه مُسَكّكة بذكره ،يشير إلى عظم شأنه واتساع أعمال سلطانه [6] » ، وهو يستعملها هنا بمعنى الدلالة اللغوية فحسب لأن

١) شرح الديوان (الرباط) ٣١ العكبري ٢ ٢٧

٢) شرح ابن الافليلي (الرباط) ٦١

٣) البلاغة تطور وتاريخ ١٦

٤) ص ١٦ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٢١٣

٥) نقله العكبري في ٢ ٢١ ، وفيه (اشتداد الخطوب) .

٦) شرح ابن الإفليلي ٧٩ ، والعكبري ٢ ٢٤٨ .

للاشارة معنى آخر عند قدامة وأبي هلال [1] وباقي الفنون البديعية التي أشار اليها هي . ١) التتميم ، في شرحه قول المتنبي .

فلما تَشمس لقين السّياط   بمثل صفا البلد الماحِلِ

يقول : فلما نشف عرق هذه الخيل على ما التبس به من الغبار لقيته سياط الفرسان من جلودها بمثل الحجر الأملس الذي يكون في البلد المُمحل ، وهو البعيد العهد بالمطر ، وذلك أبلغ في يبسه وجفوفه . وهذه الزيادة التي تطلب بها الغاية وقد كان يتم الكلام دونها باب من البديع يعرف بـ التتميم [2] » كما انتبه إلى الصنف الآخر الذي أدخله قدامة في التتميم ثم صار من الاحتراس [3] .

٢) الاستطراد وهو من الفنون التي وردت في الصناعتين، وقد ورد ذكرها في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني أيضاً. ولكن ما ندري أوَصل كتاب الباقلاني إلى ابن الافليلي أم لا ، وعلى كل حال فكلا الكتابين لم يرد في فهرسة ابن خير ولا فيما بين أيدينا من برامج العلماء. ويظل الرأي الغالب أن ابن الأفليلي عرف كتاب ابن المعتز، وكتاب قدامة—وقد أثنى ابن حزم (المتوّفى ٤٥٦) عليه—وعرف كتاب الصناعتين لِما نرى صراحة من تطابق الاصطلاحات وتطبيقاتها بكل دقة . قال في شرح قول المتنبي

« فلا تعجبا أن السيوف كثيرة   ولكن سيف الدولة اليوم واحدُ

قال .. وهذا الخروج باب من البديع يعرف بالاستطراد » [4] .

٣) الطباق . ورد عنده بعبارة (الطباق) و (المطابقة) ، شرح قول المتنبي

١) نقد الشعر ١٧٤ ، الصناعتين ٢٧٣
٢) ص ١٣٠ ، ١٤٠ ، والعكبري . ٢ ٣١ .
٣) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع .
تحقيق د — حنفي محمد شرف ١٢٨٣ — ١٩٦٣ ص ٢٤٥
٤) شرح الديوان (الرباط) ١٠٦ .

« تولّيه أوساطَ البلاد رماحُه وتمنعه أطرافهنّ من العَزل

ثم قال تؤليه قواعدَ البلاد وأوساط الأرض رماحُه بتغلبه عليها ، وتمنعه أطراف تلك الرماح برهبة الأعداء لها من ان يُعزل عنها ، وطابق بين الولاية والعزل ، والأوساط والأطراف ، وذلك من البديع » [1] وعلق بعد شرح بيت المتنبي :

له من كريم الطبع في الحرب مُنْتَضٍ

ومن عادة الإحسان والصفح غامِدُ

قال « .. وأبدع بالمطابقة بين منتض وغامـــد ، والمطابقة أن يقترن الشيء بضده على انتظامٍ من الكلام » [2] .

٤) التجنيس ورد عنده بلفظ التجنيس والمجانسة . قال في بيت المتنبي

« تلقى الوجوهُ بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموتُ في أجواله

... وجانس بقوله يجول الموت في أجواله لأن حروف الأصـل في يجول والأجوال واحدة ، والمراد بالـكلمتين مختلف ، واتفاق هـــذا في الكلام هو التجنيس » [3] وقال في موضع آخر « والمجانسة اتفـــاق اللفظ مع اختلاف المعنى ، وذلك من أبواب البديع ، وقد بيناه فيما تقدم » [4]

٥) الاستثناء وهو من أبواب (الصناعتين) [5]، وورد في إعجاز القرآن للباقلاني [6] وورد عند ابن الافليلي في شاهدين ، قال بعد شرح بيت المتنبي

لم يتركوا أثراً عليه من الوغى إلا دماءهم على سرباله

« وهذا من البديع يعرف بالاستثناء [7]وعلق بالعبارة نفسها على قوله

---

١) شرح الديوان ٤٥ .

٢) صفحة ١٠٧ وهو عند ابن المعتز في ص ٧٤ باسم المطابقة بينما سمـــاه قدامة التكافؤ ص ١٦٣ . وهو في الصناعتين ٢٣٨ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ٧٩ - ٨٨ والباقلاني ٨٠ - ٨٣ ٣) صفحة ٥١

٤) صفحة ١٤٥ وهـــو تحت اسم التجنيس فى ابن المعتز ٥٥ ، والصناعتين ٢٠٩ والمجانسة فى قدامة ١٨٦ -- ١٨٧ وبالجنس فى الباقلانى ٨٣ -- ٨٧ .

٥) صفحة ٢٣٤ ٦) صفحة ١٠٦ -١٠٧ ٧) صفحة ٥٤

ولم يكفها تصويرها الخيل وَحْدها فصوَّرت الأشياء إلا رمانها

٦) الهزل يُراد به الجد : لم يسمه صراحة بأنه من البديع ، ولكن سياق كلامه يدل على ذلك ، شرح بيت المتنبي :

خذوا ما أتاكم به واعذروا فإنّ الغنيمة في العاجل

ثم قال هازئاً بهم : خذوا ما أتاكم من هذه الوقعة متحورين وتصيَّروا لذلك عاذرين فان الغنيمة فيما استعجل ، والمعطة فيما اقتصى ، وهذا على طريق الهزل بهم ، والتوبيخ بالوقيعة التي عجلها سيف الدولة لهم[1] » .

٧) التقسيم . ورد عند قدامة ، وعند أبي هلال باسم (صحة التقسيم) ، وشاهده من شعر المتنبي .

للسبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا
والنهب ما جمعوا ، والنار ما زرعوا

وقال بعد شرحه «ومثل هذا التصنيف باب من البديع يعرف بالتقسيم»[2] .

٨) المَثَل . أورد قدامة هذا الباب باسم التمثيل ، وصاحب الصناعتين باسم المماثلة ، وفرَّعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى [3] ، وهو يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية [4] . ويلحق بهذا الباب ما يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر [5] . وهذا المعنى الاخير هو الذي انتبه إليه ابن الافليلي في القسم الموجود لدي من شرحه . قال المتنبي :

كلٌّ يريد رجاله لحياته يا من يريد حياتَه لرجاله
دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تُختطى إلا على أهواله

---

١) صفحة ٢٨ وهذا الباب عند ابن المعتز صفحة ١١٢

٢) صفحة ٩٣ .وهذا الباب باسم صحة التقسيم في نقد الشعر: ١٤٩ وفي الصناعتين ٢٦٧ .

٣) نقد الشعر لقدامة ، ١٨١

٤) البلاغة تطور وتاريخ ٢١٧ .

٥) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ٢١٧

وعلق على البيت الثاني بعد الشرح « وصرب هدا مثلاً فيا قدمه ، والمثل أرفع وجوه البديع » [١] ، وعلق على قوله .

بدا قصت الأيام ما بين أهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد

فقال « وهدا مثل سائر ، والمثل من البديع قد تقدم تنبيهنا عليه » [٢] .

٩) حسن الخروج . وهدا الباب عند ابن المعتز ١٠٩ ، وفي الصناعتين : الخروج من النسيب الى المدح وغيره ٣٦١ . وليس فيا بين يدي ما ينص صراحة كعادته على أنه باب من أبواب البديع ولكنه قال في شرح المتنبي

... وهبت السلو لمن لامني وبتُّ من الشوق في شاغل
كأنَّ الجفون على مقلتي ثيابٌ شُققن على ثاكل
ولو كنت في أسْرِ غيرِ الهوى ضمنتُ ضمانَ أبي وائل

... ثم خرج إلى وصف أمر أبي وائل أحسن خروج فقال . ولو كنت أسير غير الحب ومغلوباً في غير العشق [لاحتلت] بحيلة أبي وائل ، وضمنت لآسري ضمانه وسلكت في الاحتيال عليه سبيله » [٣] .

١٠) الاشارة والايماء قرن اللقبين معاً في أحد تعليقاته ، وأفرده باسم الإيماء مرة وعرف قدامة الاشارة بقوله « وهي أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها . » [٤] قال المتنبي

قد بلوت الخطوب مراً وحلواً وسلكتُ الايام حَزناً وسهلا
وقتلت الزمان عِلماً فما يغـ ـرب قولاً ولا يجدّد فعلا

قال ابن الافليلي بعد شرح البيت الاول « ثم قال وقد قتلت الزمان علماً بأمره وإحاطة بوجود تصرفه فما يسمعك قولاً تستغربه ، ولا يجدّد لك فعلاً تتهيّبُه ، ولا يطرفك إلا بما قد أتت عليه معرفتك وأحاطت بأمثاله تجربتك وأجرى جملة لفظه في البيتين على سبيل الاستعارة ، والإيماء والاشارة ، وذلك من بديع

١) صفحة ٥٦ ٢) صفحه ١٠٩
٣) ص ٢٤ ، وما بين معقوفتين من العكبرى ٣ ٨
٤) ص ١٧٤ ووردت الاشارة في الباقلاني ٩ — ٩١

الكلام » . وعلق على قول المتنبي :

عليها رياض لم تحكها سحابة   وأغصان دَوح لم تغنّ حمائمه

بقوله .. وهذا من البديع يعرف بالإيماء [1] . »

(١١) المبالغة : لم ينص ابن الإفليلي صراحة على أنها من أبواب البديع ، وسأورد المعرض الذي سوغ لي اعتباره في أنواع البديع عنده . وقال في الصاعتين المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته . وضرب الأمثال على ذلك [2] . وأورد ابن الأفليلي أبيات المتنبي الثلاثة .

إن كان قد ملك القلوب فإنه   ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمس من حساده ، والنصر من   قُرَنائه والسيف من أسمائه

أين الثلاثة من ثلاث خصاله   من حسنه ، وإبائه ، ومضائه

ثم علق بعد الشرح . « وهذه طريقة من المجاز يحسنها للشعراء ما يحاولونه من بلوغ غايات المدح ، وما يتعارف من مثلها في اللغة » .

وبعد فالشارح منقاد في هوى المتنبي معجب به ، لم نجد له نقداً فيه ولا قدحاً في معنى من معانيه أو إشارة لمقالة يقولها هو فيه أو ينقلها . بل كان كما يبدو يلتمس لشوارد المتنبي واستعماله الضعيف من وجوه اللغة والنحو ما يسوّغ ذلك ، ولا يعنى بترجيح الذي تركه المتنبي وهو راجح ، ويصدر عن إعجاب به ، وتمثل لمعانيه ، وحفظ لخبره ، وهو نموذج من نماذج « الشراح التّعليميين » كما قدّمنا لذلك ، ولولا ما التقطناه من بعض الملاحظات عن (البديع) لما كان في الشرح إلا تبيان بعض الألفاظ لغوياً ، وشرح معاني الأبيات .

١) ص ٢٦٦   ٢) ص ٤

شرح الأعلم الشنتمري

على الشعراء الستة

* ٤١٠ – ٤٧٦

من الآثار الأندلسية الهامة التي تختلط أهميتها بعوامل مشرقية وعوامل أندلسية كتاب « شرح الأشعار الستة » للأعلم الشنتمري . وهو « أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري الأندلسي، من شنتمرية الغرب[1] ». ولقب بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا [2] رحل إلى قرطبة وأقام بها زماناً، وبها تلقى عن شيوخ جلة وفي مقدمة تأليفه لشرح الاشعار الستة نرى أنه قدم كتابه هذا إلى المعتمد بن عباد ، كما أن وفاته كانت في إشبيلية فهو تنقّل إن في طلب العلم ، أو في بث العلم ، واستيفاء مطالب الحياة ولد الأعلم سنة عشر وأربع مئة ، وتوفي سنة ست وسبعين وأربع مئة ، فمعظم حياته أوكلها كانت في ظل دول الطوائف ، التي سبق أن ألمعتُ إلى شيء من خصائصها . ولا شك في أن تقريب المعتمد إياه كان لما عرف عن دولة المعتمد من انتعاش الحركة الادبية ، وما وصف به المعتمد نفسه من أنه « يمثل خير مَثَل للشاعر

* ترجمته في الصلة لابن بشكوال ٢ ٦٨١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦ ٧٩ – ٨ وبغية الوعاة للسيوطي ٢ ٣٥٦ ، ونفح الطيب ٥ ٢١٤ وذكره في المطمح (الطبعة الأولى – الآستانة – ١٣٠٢) ص ٦٠ في ترجمة حفيده أبي الفضل جعفر بن محمد بن الأعلم وانظر إرشاد الأريب ٢٠ ٦٠ – ٦١ ، ونكت الهميان ٣١٣ وذكره في الروض المعطار للحميري (مصر ١٩٣٧) ١١٥ في « شنتمرية » و Brock, G, I, 309, S, I, 542

١) حصن من أعمال شنترية (ياقوت معجم البلدان ٣ ٣٢٨) وفي المغرب ١ ٣٩٥ « مدينة مشهورة تعرف بشنتمرية الغرب ، لان هنالك شنتمرية الشرق »

٢) ابن خلكان ٦ ٨

الأندلسي ، ولحماة الأدب المهديين »[1] وهو يقول في تقديم كتابه إليه « ولما صح لي من ذلك ما أمّلته ، وظفرت منه بما رجوته وتمنيته، سميته باسم من شهد أهل العصر بسموه وتقديمه وأجمعت الجماعة على تعظيمه وتكريمه .. الظافر أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله ، أدام الله علاءهما ، وفي درج العز ارتقاءهما [2] » . والنص يدل على أن الأعلم قدم كتابه إلى المعتمد في حياة والده المعتضد . وبالرغم من أنه لم يرد عمره حين وفاته عن ست وستين سنة هجرية ، الا أنه كف بصره في أخريات أيامه [3] .

من شيوخ الأعلم أبو سهل يونس بن أحمد الحراني ، وفي فهرسة ابن خير أن الأعلم روى عنه الألفاظ لابن السكّيت وغيره [4] ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد الإفليلي وروى عنه كتباً عديدة في اللغة والشعر ، وفي ياقوت وابن خلكان أن الأعلم « ساعد شيخه ابن الافليلي المذكور على شرح ديوان المتنبي » [5] ولا ندري معنى هذه المساعدة ولا مقدارها ، إلا أن ابن خير نص على أن الاعلم قرأ على ابن الافليلي ديوان المتنبي ، وعبارة ابن خير في روايته الديوان هي « وحدثني به -يعني ديوان المتنبي- أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن فندلة رحمه الله ، قال . حدثني به أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلم رحمه الله قراءة عليه ، قال حدثني به أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن الإفليلي قراءة مني عليه » ولعل ما بينهما في أمر الديوان مثل ما يكون بين الأستاذ وتلميذه النجيب من مباسطة ومشاورة ، وقد يكون الأعلم دوّن شرح استاذه . ومن شيوخه . أبو بكر مسلم بن أحمد الأديب.[6] وممن أخذ عنه أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر

١) أدب الأندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات) ليفي بروفنسال ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة وعبد الحميد العبادي — القاهرة ١٩٥١ — ص ١٤
٢) ديوان امرىء القيس بشرح الأعلم الشنتمري ، دار المعارف بمصر ، ط الثانية ص ٥
٣) الصلة ٢ ٦٨١ ٤) ابن خير ٣٣٠ ، ٣٩٩
٥) ٦ ٨٩ ٦) الصلة ٢ ٦٨١ ، وفيات الأعيان : ٦ — ٧١ .

ابن مندلة[1] وأبو علي الغساني[2] والوزير أبو الوليد اسماعيل بن عيسى بن حجاج اللخمي ، وأبو بكر محمد بن غالب القرشي العامري[3] ، وغيرهم .

ثقافته .

ومن سرد اسماء الكتب التي تلقاها أو رواها ونقل روايتها عنه مَن بعده حتى وصلت إلى ابن خير ، نرى أن اهتمام الأعلم كان موزعاً بين النحو واللغة والأدب . الشعر منه بخاصة . ومعظم تراجمه تذيّل عادة بعبارة (النحوي) لمكانته من علم النحو ، ومؤلفاته فيه كما سنبين . ولكن شهرته أديباً وشارحاً ، وقيمته في ذلك ، لا تقل عن شأوه نحوياً فذاً متقدماً . فقد قرأ الكامل لأبي العباس المبرد على ابن الإفليلي[4] ، وقرأ عليه أيضاً نوادر أبي علي[5] وذيل النوادر[6]. وقرأ عليه من كتب اللغة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد[7] ، وقرأ كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت على أبي سهل يونس بن أحمد الحراني[8] وقرأ عليه أيضاً اختيار الفصيح لثعلب[9] والأمثال لأبي عبيدة[10] وقرأ على ابن الافليلي شعر أبي تمام[11] وشعر أبي الطيب المتنبي[12] كما ذكر ابن خير في فهرسته رواية الأعلم الشنتمري لكتاب سيبويه عن ابن الافليلي[13] وشعر طفيل الغنوي[14] وشعر الحطيئة[15] وشعر عمرو بن أحمد الباهلي[16] وقرأ لحن العامة ومختصر لحن العامة ، وكتاب أبنية كتاب سيبويه ، وثلاثة الكتب هذه للزبيدي[17] كما ذكر أنه أقرأ أدب الكتاب[18] لابن قتيبة وله رواية وثّقها ابن خير تتصل بأبي علي البغدادي ، بعد سرد الكتب التي نقلها أبو علي إلى الاندلس[19] واذا كان

---

١) فهرسة ابن خير ٣٠٥

٢) كذا أسماه في الصلة ، وهو في وفيات الاعيان أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد السائي تصحيف من الناشر لكلمة الغساني .

٣) فهرسة ابن خير ٣٢١

٤) ابن خير ٣٢١ — ٥) ابن خير ٣٢٣ — ٦) ابن خير ٣٢٥

٧) ابن خير ٣٢٨ — ٨) ابن خير ٣٣٣ — ٩) ابن خير ٣٣٨

١٠) ابن خير ٣٤ — ١١) ابن خير ٤ ٢ — ١٢) ابن خير ٣٤٣ .

١٣) ابن خير ٣ ٥ — ١٤) ابن خير ٣٩٣ — ١٥) ابن خير ٣٩٢ .

١٦) ابن خير ٣٤٦ - ٣٤٨ — ١٧) ابن خير ٣٣٣ .

١٨) ابن خير ٣٩٩ — ١٩) ابن خير . ٣٩٩

هذا ما وصلنا خبره عن ثقافة الرحل ومركزه من الدراسات العربيــة في تلك الحقبة من التاريخ الفكري، فإن ما يمكن أن نتوقعه من تمام ثقافته يؤهله للثناء الذي نجده في الكتب ، وللاحترام الذي جعله موئلاً للفتوى في اللغة والادب والنحو على السواء . وحفظ لنــا المقري في نفح الطيب ، قصة لطيفة وأثراً صغيراً طريفاً من آثار الأعلم . فقد استفتى المعتمد بن عباد [1] الأعلم الشنتمري في ضبط كلمة المسهب ، أهي بفتح الهاء أم كسرها ؟ وطلب إليه تعيين مرجعه الذي به يرجّح . قال المقري إنه طل زماناً يستشكل ضبط هــذه الكلمة إلى أن قال . « ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عباد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف ابن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المشهور بالأعلم ، « سألك ابقــاه الله الوزير الكاتب أبو عمرو بن عطمش سلمــه الله عن المسهب ، وزعم انك تقول بالفتح والكسر . والذي ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب ، والزبيدي في مختصر العين أسهب الرجــل فهو مسهَب إذا أكثر الكلام ، بالفتح خاصة ، فبيّنْ لي أبقاك الله تعالى ما تعتقد فيه ، وإلى أي كتاب تسند القولين، لأقف على صحة من ذلك[2]»ونقل المقري ما قاله الأعلم وهو الرسالة التي وردت في فهرسة ابن خير (صفحة ٣١٥) وأورد ـ بعدُ المسألةَ نظماً ، نظمهــا الأعلم نفسه[3] وفي المقري أيضاً [4] ،مناقشة الأعلم للمسألة الزنبورية التي ذكرها ابن خير (ص ٣١٥) في مؤلفات الأعلم ، وهي جواب الأعلم على سؤال أحد الأدباء عن المسألة ، وعن مسائل تتعلق بسيبويه وسيرتــه ، والرسالة في نفح الطيب كاملة . وهذا يعلل ما تصفه به كتب التراجم ، فقد قال في الصلة . « وكان عالماً باللغات والعربية ، ومعاني الأشعار ، حافظاً لجميعها ، كثير العناية

١) ونقل ابن بسام في الذخيرة في ترجمة ابن وهبون المرسي « وكان الأستاذ أبو الحجاج الأعلم يومئذ زعيم البلد ، وأستاذ ولد المعتمد الذخيرة القسم الثاني المخطوط ـ(نسخة دار الكتب المصرية ـ رقم ٣٦٧٢ أدب) ص ٢٢

٢) نفح الطيب ٥ ٢١٧ ٣) نفح الطيب ٥ . ٢١٨

٤) نفح الطيب ٥ ٢١٩

بها ، حسن الضبط لها ، مشهوراً بمعرفتها وإتقانها [1]»وقال بعدها « اخذ الناس عنه كثيراً ، وكانت الرحلة في وقته إليه [1] »وقال المقري « والأستاذ الأعلم هو إمام نحاة زمانه ، . من رحال الصلة والمسهب والسمط ، وهو شارح الاشعار الستة [2] » .

وفي فهرسة ابن خير أكبر ثبت لما عُرِف عن تواليف الأعلم الشنتمري.وهي كتاب الأشعار الستة، وشرح أشعار الحماسة [3] ، والنكت في كتاب سيبويه [4] وعيون الذهب في شرح أبيات كتاب سيبويه [5] ، والمخترع في النحو [6] ، وفهرسته[7]، وجزء فيه معرفة حروف المعجم[8]،وجزء فيه مختصر الأنواء[2]، أو معرفة الأنواء ، والمسأله الزنبورية [3] والمسألة الرشيدية [9] ، والفرق بين المسهِب والمسهَب [6] ونقل ابن خلكان أن للاعلم شرحاً على الجمل في النحو للزجاجي ، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد [10] . ولا نعرف كثيراً عن علاقاته بأهل عصره ، ولكنا نتوقعها كما تكون علاقات العلماء المشهورين بمعاصريهم من علماء وحكام وطلاب علم ، وعبارة ابن بشكوال من أن « الرحلة كانت في وقته إليه » كثيرة الإيحاءات والدلالات ، ولعله شارك في شيء من هذا الشعر على عادة ما يتملّح به النحاة ، واللغويون ، والفقهاء أيضاً ، ومن ذلك ما خاطب به المعتمد بن عباد، وهي أبيات توضّحُ إلى حد غير قليل مكانة كل واحد من الآخر ، بالإضافة الى ما أشرنا إليه قبل . قال

---

١) الصلة لابن بشكوال ٢ ٦٨١ .
٢) نفح الطيب ٥ ٢١٤ . ٣) فهرسة ابن خير ٣٨٨ ٤) ابن خير ٣١٠
٥) ابن خير ٣١٤ ، والكتاب مطبوع ، واسمه تحصيل عين الذهب
٦) ابن خير ٣١٥ ٧) ابن خير ٤٣٢ ٨) ابن خير ٢ ٤٢٢
٩) ابن خير : ٣١٥ وذكر ابن عبد الغفور الكلاعي هذا النص باسم الرسالة الرشيديه ، وذكر حادثة حول الكتاب (إحكام صنعة الكلام — الكلاعي صفحة ٦٨)
١) ابن خلكان ٦ ٧٩ والموجود من كتب الأعلم ١) شرح الاشعار الستة ٢) تحصيل عين الذهب ٣) شرح الحماسة (ذكره الزركلي في الاعلام ٩ ٨ ٣) وفي دار الكتب المصرية نسخة من حماسة أبي تمام برواية الأعلم ٤ ونقل في نفح الطيب المسألة الزنبوريه والفرق بين المسهب والمسهب (٥ ٢١٥ - ٢٢٦)

يا مَن تملّكني بالقول والعمل ومُلعي في الذي أملته أملي
كيف الثناء وقد أعجزتني نِعَماً مالي بشكري عليها الدهر، من قبل
رفعت للجود أعلاماً مشهرة فبابك الدهر مسهاء عابر السبل[1]»

وأعقب الأعلم الشنتمري وأنجب ، فابنه الوزير أبو بكر محمد ، وحفيده أبو الفضل جعفر ، وكان قاضي شنتمرية في وقته .[2]

شرح الأشعار الستة . سنقتصر في هذا البحث على دراسة كتاب الأعلم الشهير ، الذي شرح فيه دواوين ستة من كبار شعراء الجاهلية ، وهم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، بحسب ترتيب شرحهم في الكتاب . وفي دار الكتب المصرية نسختان من الكتاب ، واحدة في المكتبة الشنقيطية برقم (٨١ أدب ش) وتحت عنوان : « شرح الأشعار الستة » وثانية في المكتبة التيمورية برقم (٤٥٠ شعر تيمور) وعنوانها « شرح الدواوين الستة » . وفي فهرست ابن خير أن اسم الكتاب « الأشعار الستة » وورد في المقري أن الأعلم « شارح الأشعار الست » كذا وقد طبع منه شرح شعر زهير مرات[3] ، وشرح شعر علقمة[4] ، وشرح شعر طرفة[5] ، وطبع ديوان امرىء القيس بشرح الأعلم مرات آخرها طبعة محققة عن دار المعارف بمصر[1] .

وقد يتبادر الى الذهن السؤال عن معنى اختيار الشعراء الستة هؤلاء ، وأجاب بروكلمان عن مثل هذا في تاريخه بقوله « اختار قدامى الأدباء ستة من شعراء الجاهلية جعلوهم في المرتبة الأولى من التفوق والشهرة ، ولعلهم فضلوهم

---

١) نفح الطيب ، ٥ ٢١٤ ٢) نفح الطيب ٥ ٢١٤ ، ٢٢٦

٣) تاريخ الادب العربي بروكلمان (الترجمة) ١ ٩٥ ، ونشر الديوان في دار الكتب المصرية ١٩٩٣ – ١٩٤٤ ، بشرح ثعلب ، وأفاد الناشرون في الحواشي من شرح الأعلم الشنتمري المقدمة ص ٧

٤) المصدر نفسه ٩٦ ٥) المصدر نفسه ٩٢

١) مقدمة طبعة دار المعارف ٧ – ٨ . وهي طبعة حققها الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، اعتمد فيها أساساً على شرح الأعلم وهو صاحب الكتاب ، وأتبع ذلك زيادات النسخ الاخرى – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٦٤

على غيرهم لأنهم هم الذين أمكنهم أن يجمعوا لهم دواوين أطول وأكمل . »[1]
وللأعلم تعليل في مقدمته سنورده بعد قليل . وترجع أهمية شرح الأعلم إلى أنه أثر أندلسي لعالم مشهور وإلى أن روايته للدواوين معروفة السند فهي متصلة السند إلى الأصمعي نفسه وقد ذكر ابن خير الأموي هذه الرواية في فهرسته فقال . « كتاب الأشعار الستة الجاهلية شرح الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلم رحمه الله» . حدثني بها أيضاً قراءة مني عليه لها ولشرحها: الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن فندلة رحمه الله عن الأستاذ أبي الحجاج الأعلم مؤلفه رحمه الله ، يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور عن الوزير أبي سهيل يونس بن أحمد الحراني ، عن شيوخه أبي مروان عبيد الله بن فرج الطوطالقي ، وأبي الحجاج يوسف بن فضالة ، وأبي عمر بن أبي الحباب ، كلهم يرويها عن أبي علي القالي ، عن أبي بكر بن دريد ، عن أبي حاتم ، عن الأصمعي ، رحمه الله[2] ، وكان الأعلم يضيف بعض القصائد زيادة على رواية الأصمعي ناصاً على ذلك في مواضعه من ملحقات رواية الأصمعي في دواوينه التي شرحها[3] ومن هنا ، نقول كما قال الدكتور شوقي ضيف . « ولا نزال بحاجة إلى نشر شرح الشنتمري[4] » وستكون إحالتي في شرح الأعلم على ديوان امرىء القيس المطبوع ، وعلى نسختي دار الكتب من مخطوطة الشرح ، فقد راوحت العودة إليها على فترات ، ولم أقصر القراءة على نسخة واحدة . وبين النسختين فروق طفيفة ، تلاحظ في الديوان المطبوع .

دراسة مقدمة الشارح . قدم الأعلم بين يدي كتابه بمقدمة قصيرة هامة ، بيّن فيها روايته ومنهجه ، وسمّى الشعراء الذين اختارهم ، وبيّن طريقته التي ارتضاها في الشرح ثم ختم بتقديم الكتاب إلى الظافر (المعتمد) بن عباد .

---

١) تاريخ الادب العربي - بروكلمان (الترجمة) ١ ٨٧
٢) فهرسة ابن خير ٣٨٨ - ٣٨٩ ، وانظر في تفصيل رواية الأعلم المتصلة بالاصمعي ، وسوى ذلك مما يتعلق بقيمة الكتاب مصادر الشعر الجاهلي - الدكتور ناصر الدين الاسد دار المعارف بمصر - ١٩٥٦ - ص ٥٥ وما بعدها ٣) المصدر السابق .
٤) العصر الجاهلي - الدكتور شوقي ضيف - الطبعة الثانية ١٩٦٥ - ص ١٨٠ .

بدأ بذكر أن لسان العرب خير الألسنة ، ولغتها أحسن اللغات ، فهي لغة القرآن ، وبيّن أهمية الشعر العربي في ثقافة العرب ، وأن أهل الشعر أقدر على تأليف الكلام . وعلل اختياره بأنه أراد أن يجمع « من أشعار العرب ديواناً يعين على التصرف في حملة المنظوم والمنثور » فهدفه من البداية تعليمي ، يقصد به إلى تربية الناشئة على طريقة تعينهم على الإجادة في التعبير وفهم تراث العرب . ثم علل اقتصاره على ما شرح « وأن أقتصر منها على القليل . إذ كان شعر العرب كله متشابه الاغراض متجانس المعاني والألفاظ » . ولكنه أضاف إلى ذلك أنه مار وانتقى « وأن أوثر بذلك من الشعر ما أجمع الرواة على تفضيله ، وآثر الناس استعماله على غيره ، فجعلت الديوان متضمناً لشعر امرىء القيس . [1] » فهو شرح دواوين شائعة وأشعاراً مشهورة ولكنه رسم لنفسه طريقة يؤدي بها معاني تلك الأشعار ، وملاحظاته عليها ، وأضاف أنه اختار أصح الروايات وهي رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي ، لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها ، وأتبعت ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره [2] » ثم بيّن طريقته في الشرح منتقداً شروحاً اطّلع عليها وعاب عليها تشاغل أصحابها بحلب الروايات دون الاهتمام بشرح المعاني والالفاظ ، وقال إن فائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وهو لا يزال يرسم في ذهنه أحسن ما يقدم للطالب وأنجع ما يفيده ، قال « وشرحت جميع ذلك شرحاً يقتضي تفسير جميع غريبه ، وتبين معانيه وما غمض من إعرابه « ولم أطل في ذلك إطالة تخل بالفائدة ، وتمل الطالب الملتمس للحقيقة ، فإني رأيت أكثر من ألّف في شروح هذه الأشعار قد تشاغلوا عن كشف المعاني وتبيين الأغراض بجلب الروايات ، والتوقيف على الاختلافات ، والتقصي لجميع ما حوته اللفظة العربية من المعاني المختلفة ، حتى إنّ كتبهم خالية من اكثر المعاني المحتاج اليها ، ومشتملة على الألفاظ والرواية المستغنى عنها ، وفائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وإلا فالراوي له كالناطق بما لا يفهم ، والعامل بما لا يعلم ، وهذه صنعة

١) ديوان امرىء القيس . ٣ . ٢) ديوان امرىء القيس . ٤ .

البهائم ولذلك قال أحد الشعراء يذكر قوماً بكثرة الرواية، وقلة التمييز والدراية

روامل للأشعار لا علمَ عندهم بجيّدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقد فسرت جميع ما تضمنه هذا الكتاب تفسيراً لا يسع الطالب جهله، ويتبيّن للناظر المنصف فضله.»[1]. وختم برفع الكتاب وإهدائه والفقرة السابقة المقتبسة من مقدمة الأعلم تبين طريقة الرجل ومنهجه بدقة وعناية.

دراسة الشرح طريقة الأعلم في شرحه على الدواوين الستة واحدة تقريباً. فهو يبدأ القصيدة بموجز لمناسبتها في بعض الأحيان، وبدون مناسبة أحياناً وهو يبدأ الشرح بإيضاح لغوي لعدد من المفردات الغريبة، ويتبعه بشرح المعنى العام. وهو دقيق في شرحه الغريب من الألفاظ، ويتوخى أن يكون ذلك ملائماً لمعنى البيت، بمعنى أنه لا يورد من معاني الكلمة إلا ما يتسق مع الموضوع المطروح. ومن أمثلته قوله في شرح قول امرىء القيس.

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سُليمى بطن قوٍّ فعرعرا

«يقول سما لك الشوق أي ارتفع وذهب بك كل مذهب، لبعد الأحبة عنك بعد ما كان أقصر عنك وكف بقرب من تحب دونه منك وقوّ وعرعر موضعان. يقول حل قومها بهذين الموضعين المتباعدين عن ديارك، واشتد لذلك شوقك وتضاعف حزنك».[2] فهذا مثال لشرح الغريب، وشرح المعاني. فهو يوجز ويؤدي المعنى ويكتفي عن فضول الكلام

ويلاحظ في شرحه أنه يقف عند الكلمة ليحدد دقائق معانيها، فيكون شرحه بالتالي أكثر دقة، وهو بهذا يكثر التعليل، وتطلّب ورود كلمة دون أخرى، ومثله

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

السِّقط والسَّقط، والسُّقط منقطع الرمل واللوى حيث يلتوي ويرق. وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض،

---

[1]) الديوان – ص ٤ [2]) ديوان امرىء القيس ٥٦

ليكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية وأمكن لحفر النؤي ، وإنما تكون الصلابة حيث ينقطع الرمل ، ويلتوي ، ويرق »[1] . وقال بعد أبيات :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

... وإنما خص ناقف الحنظل لأنه لا يملك سيلان دمعه ، كما لا يملكه من اشتدّ شوقه وحزنه[2] » وقال في شرح البيت .

« ويا رب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خطّ تمثال

. . وقوله خط تمثال أي نقش صورة ، والتمثال والمثال : كل ما مثلته بشيء . وإنما شبها بالتمثال لأن الصانع له يتأنق في تحسينه ويمثله على أحسن حال[3] » . وقال في شرح بيت امرىء القيس يصف الناقة :

بعيدة بين المنكبين كأنها ترى عند مجرى الضّفر هِراً مُشجحراً

. وإنما خص الهر لأنهم كانوا لا يتّخذونها في البوادي حيث تكون إلا قليلا ، فكانت إبلهم لا تعرفها فذلك أشد لنفارها وجزعها[4] .»وظاهرة تعليل الشارح لبعض الكلمات أو العبارات ظاهرة مطردة في سائر أنحاء الكتاب على هذا النحو . وهذا يقرب إلى الذهن كثيراً من التعبيرات التي يحار القارىء في تعليل إصرار الشاعر عليها دون سواها . وهو ثمرة من ثمرات ثقافة الشارح اللغوية ، بالإضافة إلى ما بنفسه من ذوق أدبي وتذوق لدقائق المعاني .

وهو كثيراً ما يحيل استعمالات شاعر ما على ما دأب عليه **«استعمال العرب»** من أساليب وطرائق في التعبير عن المعاني ، أو في التصوير . قال في شرح النابغة :

« يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقفت فيها أصيلانا أسائلها عيّت جواباً وما في الربع من أحد

إنما قال يا دار مية توجعاً منه لانه كان معها مقيماً بها في سرور ونعمة زمن مرتعهم ، ثم انقضى ذلك ، فجعل يخاطبها توجعاً منه لِما رأى وتذكراً لما

١) ديوان امرىء القيس ص ٨   ٢) ديوان امرىء القيس ص ٩ .

٣) ديوان امرىء القيس ص ٢٩   ٤) ديوان امرىء القيس ص ٦٣ .

عهده منها . والعلياء ما ارتفع من الأرض . والسند : سند الجبل وهو ارتفاعه حيث يسند فيه أي يصعد ، وإنما جعل الدار بالعلياء والسند لأنهـا إذا كانت في موضع مرتفع لم يضرها السيل ، ولا انهال عليها الرمل . وقوله أقوت أي خلت من الناس وأقفرت ، ولم يقـل أقويت ، لأن من كلامهم أن يخاطبوا الشيء ثم يتركوا خطابه ويكنوا عنه كقوله عز وجل « حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَيْنَ بهم [1] » وقال في موضع آخر من شرح امرىء القيس :

« كأن دمى سقف على ظهر مرمر كسا مزبد الساجوم وشياً مصوّرا

... والعرب ربما شبهت الشيء بالشيء فجعلت في المشبه به بعض صفـات المشبه اتساعاً ومجازاً ، [2]. » . وقـــال في موضع آخر في ديوان امرىء القيس « وإنما يشبهون الرسوم بالكتاب لأنها تدل على مواضع الديار وتبينها كما يدل الكتاب على المعنى المراد،ويعبر عنه مع دقته وحَقْـرة حروفه [3] » ونقع على مثل هذا في مواضع المعاني التي طرقها العرب وتعارفوا على رسوم واضحة مطردة لها . وهو يستخدم النحو في شروحه ، وتسنح منـــه نوادر يُدل فيها بعلمه ، ومعرفته بأطراف النحو ، ومَيْزه لمدارسة بين كوفة وبصرة ، ويفيد من هذه المعلومات في تبين اختلاف المعنى بحسب توجيه الإعراب فمن ذلك شرحه .

« أبى الله إلا عـدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

. . وقوله أبى الله إلا عدله ووفاءه يحتمل أن تكون الهاء في قوله « عدله ووفاءه » عائدة على (الله) عز وجل . أي أبى الله إلا أن يعـدل بين عباده ويفي لهم بما وعدهم به وأوعدهم من الخير والشر ، وهما الثواب والعقاب . ويحتمل أن تكون الهاء عائدة على النعمان أي أبى الله إلا أن يعدل [النعمان]

١) شرح الأشعار الستة – ٨١ أدب ش بدار الكتب – شرح ديوان النابغة ٢٨ / ط
٢) ديوان امرىء القيس ٥٩
٣) ديوان امرىء القيس ٨٩ ، وحقرة الحروف صغرها

ويمي . أي قد حمله كذلك ، وحلفه للعدل والوفاء [١] ويلمح طريقته في طلب التعليل ، في تفسير الامور المتصلة بالنحو ، مثل شرحه ·

« لعمري وما عمري على بهين   لقد نطقت بُطلاً عليّ الأقارع

قال بعضهم . معناه لديني والمعروف أن معناه البقاء وإنما حلف بها لأنها بين كثرت في الاستعمال ، فحلف بها ، ولم يكن قصده أن يقسم ببقائه [٢] » وهو تعليل جيد، ويعود إلى حقائق ما تقصد إليه العرب من بعض استعمالاتها. وقد تكون الملاحظات النحوية عامة أي لا تتصل بالشرح مباشرة ، مثل شرحه ·

« على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت ألمّا أصح والشيب وازع

... ويجوز نصب حين وخفضها ، وكذلك أسماء الزمان إذا أضيفت إلى الأفعال فالنصب على البناء لإضافتها إلى غير متمكن ، والخفض على تقدير إضافتها إلى المصدر ، لأن الفعل دال عليه [٣] » . ويشير إلى لغتي الحجاز وتميم مثل شرحه :

« عصطحبات من لِصاف وثَبْرة   يزرن إلالاً سيرهن التدافع

... ولصاف وثبرة موضعان . ولصاف مبنية على الكسر . وهي معدولة في لغة أهل الحجاز ، ومعربة غير مصروفة في لغة بني تميم » . [٤] كما يشير إلى بعض الخلاف بين الكوفيين والبصريين مثل شرحه

« فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

.. والواو في وانتحى زائدة عند الكوفيين ، وهي عند البصريين للعطف ، وجواب لما محذوف لعلم السامع [٥] » . وإذا كان في شرح الأعلم شيء يزيد على شرح الغريب وشرح المعاني فهو تلك الملاحظات النحوية المبثوثة في أثناء الشرح والتي يقدم لها الأعلم بعبارة لطيفة ، ويقرب بها المادة النحوية ويعللها .

أما ملاحظاته الأخرى فأشياء ثانوية لا تعتبر من معالم شرح الأعلم الشنتمري المباشرة ، وإنما هي أمور تتخلل الحديث بما يسوقه من اتفاقات ، وضرورات تتعلق بإيضاح المعنى أحياناً مثل تنبيهه على ذي المجاز ومواسم العرب تنبيهاً

---

١) شرح الأعلم (تيمور) ٩٤ . ٢) المصدر نفسه ٩٢

٣) شرح الأعلم (تيمور) ٩٢ . ٤) المصدر نفسه ٩١ ٥) المصدر نفسه ٩٣ .

سريعاً »[1] . أو إشارة إلى ضرورة شعرية ارتكبها النابغة في قوله .

« ردّت عليه أقاصيه ولبّده   ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد »

قال وسكّن الياء من أقاصيه ضرورة، وذلك تشبيهاً بالألف لأنها لا تكون إلا ساكنة . والياء أختها في المد واللين فحملت عند الضرورة عليها »[2] . أما استشهاده بالقرآن الكريم والشعر العربي فقليل ، على عادته في ارتياد موضوعه مباشرة وبأقل ما يمكن من الاعتراضات . وقد يقف عند مواضع لم يتفق عليها الرواة أو الشراح قبله ، ويعرض وجوه المسألة ، مثل وقفته عند قول النابغة :

« لكلفتني ذنب امرىء وتركته   كذي العُر يُكوى غيره وهو راتع

قوله لكلفتني جواب لقوله حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . والعر داء يصيب الإبل . وقيل قَرح بمشفر البعير فاذا أرادوا أن يعالجوه كووا بعيراً آخر صحيحاً فيبرأ ذلك البعير . كذا حُكي عن فصحاء العرب ، ممن حمل عنهم الروايات . وكان أبو عبيدة يقول هذا لا يكون ، وإنما هو مَثَل ، أي أخذتني بذنب غيري ، وكذا قال الناس يشرب عجلان ويسكر ميسرة . وكذا قول أبي عبيدة في قوله . (كالثور يضرب لما عافت البقر) قال وإنما هذا مثل ، وهذا لا يكون . وحكى غيره أنه يضرب ليتقدم إلى الماء ، فإذا رأته البقر تقدمت فشربت . وقيل إن الثور ها هنا مصدر ثار الماء يثور ثوراً وإنما يضرب باليد للبقر وغيرها إذا عافت الشرب علاجاً ومداراة لتشرب[3] » فنحن نرى كيف انساق به الحديث من رأي إلى آخر ومن تعليل إلى تعليل ، وهو في ذلك كله يعيّن بالاسماء ، وينقل عن الرواة ، ويبسط المسألة غاية البسط . وقد يورد في البيت رواية أو أكثر ، ويرجح بين الروايات معتمداً على حسه الذوقي أو ما بلغه من طرائق العرب واستعمالاتهم قال في شرح النابغة

« تجلو بقادمتي حمامة أيكة   برداً أسفّ لثاته بالإثمد

1) شرح الأعلم (ش) ٣٢ / ط
2) شرح ديوان النابغة (نسخة ٨١ أدب ش) ٢٩ / و
3) شرح ديوان النابغة (نسخة تيمور شعر ٤٥٠) ٩٣ / ط – ٩٤ / و

... وأراد بالحمامة القُمرية ، وخص القادمتين لأنهما أشد سواداً من سائر الريش وقيل : أراد بالقادمتين إصبعيها يعني أنها تجلو أسنانها بالسواك . وشبهها بالقادمتين لطولهما ولطافتهما . والقول الأول أصح [1] » .

ولا تخطئنا ترجيحاته ومقارناته، وهو كثيراً ما يشير إلى اختلافات الروايات، وينص على أصحابها .

وهو قليلاً ما يقف على مواضيع بلاغية في شرحه. فقد استنفد معجمُه طاقته، وهو تركيزه على إيضاح المعاني في المقام الاول – كما صرح في المقدمة – وما عرضه من فنون البديع مصادفة ، فإنما هو لتعلقه بإيضاح المعاني ، كقوله في التشبيه في شرح قول امرىء القيس .

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

« وشبه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته وتتابعه[2] » . وقد يُفيض شيئاً في بيان التشبيه كما في شرح بيت النابغة .

قامت تراءى بين سِجفي كِلّة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

« .. وشبهها بالشمس لإشراقها وحسنها ، وجعل طلوع الشمس بالأسعد ليكون ذلك أتم للتشبيه وأبلغ في الوصف ومقام الوزن [3] » . وأشار إلى الكناية مرات ، كقوله في شرح بيت النابغة

« من وحش وجرة موشيٍّ أكارعُه طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

وقوله طاوي المصير أي ضامر . والمصير المعي ، وكنى به عن البطن [4] » . وأشار إلى ضرب المثل في قول النابغة .

تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ لا النور نورٌ ولا الإظلام إظلامُ

أو تزجروا مكفهراً لا كفاء له كالليل يخلط إصراماً بإصرام

قوله تبدو كواكبه ضرب هذا مثلاً لشدة الليل وهوله ، كما يقال .

---

[1]) شرح ديوان النابغة (أدب ش) ٤٠ / ظ

[2]) ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٢٨

[3]) شرح ديوان النابغة (أدب ش) ٤ / و .

[4]) من شرح ديوان النابغة (أدب ش) ٢٩ / ظ .

أريته الكواكب نهاراً أي أدخلت عليه من الجهد والغم ما كان النهار به عليه دليلا (١)

وإشاراته إلى السرقات أو ما عمناها قليل أيضاً ، مثل ذلك ما ورد في شرح قول النابغة (٢) .

أتاك بقولٍ هَلهل النسج كاذب ولم يأت بالحقّ الذي هو ناصع
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُبلت في ساعدي الجوامع

وقوله ولو كبلت في ساعدي الجوامع أي لو كنت محبوساً حتى أشد بالحديد ما قلت ما بلغك عني . ومثله قول أوس « وما كنت محبوناً فأفعل ذا كم »

وقال في شرح بيت امرىء القيس (٣)

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مُضهّب

ومثل هذا قول عبدة بن الطبيب يصف لحم الصيد

ورداً وأشقر ما يؤنيه طابخه ما غيّر الغلي منه فهو مأكول
ثُمّت قمنا إلى جُردٍ مسوّمة أعرافهن لأيدينا مناديل

وشرح قوله .

فعض اللوم عاذلتي فإني ستكفيني التجاربُ وانتسابي

وهذا كقول لبيد

فإن أنت لم ينفعك علمُكَ فانتسِب لعلّك تهديكَ القرونُ الأوائلُ

وفي صفحة ١١٧ من الديوان نفسه ومثل هذا قول الآخر.. فالشارح لا يعنيه أكثر من وضع المعاني المتشابهة أمام قارئه دونما عناية بالسابق والسارق والآخذ والمأخوذ عنه ، وكل ما لاحظت من أمثلة كان بلفظه مثل أو ما يشابهها

ونظراً لمعرفته بالروايات الشعرية ، وميّزه بين العالي منها وما دون ذلك ، كان يرجح بين الروايات ، وينتقد الشعر من وراء رواية ليرجح أخرى ، كأن

١) شرح ديوان النابغة (ش) ٢٩ / ظ
٢) شرح ديوان النابغة (٤٥ شعر تيمور ٩٣ / و
٣) ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٥٤

الشارح كان أحياناً يناقش رأي الشاعر نفسه وأسلوبه ، مشيراً إلى الصواب فيما ألفته العرب من المعاني أو الأساليب الراجحة ، أو ملاحظاته بعامة وعلق على قول امرىء القيس .

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبّال

قوله وليس بذي رمح وليس بذي سيف أي ليس بفارس وقوله ليس بنبال أي ليس برام . وكان حق الكلام أن يقول . وليس بنابل لأن النابل صاحب النبل الرامي بها ، والنبال الذي يعملها [1] » . وهذه ملاحظة ترتد إلى أصل لغوي . وعلق على قوله .

وأسحم ريان العسيب كأنه عثاكيل قِنو من سميحة مرطب

« وقوله أسحم يعني ذيلاً أسود . والريان الممتلىء الناعم ، والعسيب عظم الذنب ، ويحمد في الفرس يبس العسيب ، ومن الناقة . امتلاؤه ونعمته ، وقد غلط امرؤ القيس في هذا [2] » وذكر قول امرىء القيس من رائيته

كأن دمى سقف على ظهر مرمر كسا مزبد السّاجوم وشياً مصورا

وقال بعده « لم يفسر الأصمعي هذا البيت . وقال أبو حاتم الدمى الصور . وسقف موضع فيه صور . وأراد أن تلك الصور مزينة بالجوهر ، فشبهها بهو هذا النخل الذي وصف والساجوم واد بعينه ، والمزبد ذو الزّبد والمصور الذي فيه تصاوير . هذا تفسير أبي حاتم ، وهو بعيد لا يتحقق ، والذي عندي فيه أنه متصل بقوله « فشبهتهم في الآل لما تكمشوا » فكأنه قصد به إلى تشبيه الظعائن على الإبـــل ، وما عليهن من الوشي [3] » . وشرح قول امرىء القيس يصف فرساً .

إذا زعته من جانبيه كليهما مشى الهيذبى في دفه ثم فرفرا

. ومعنى فرفر حرك اللجام في فمه . وروى «قرقرا » بالقاف أي صوّت ، وليس بالجيد ، لأن الخيل لا توصف بهذا [4] » فإذا توغل فيما شغل النقاد الأوائل

١) ديوان امرىء القيس (المطبوع ٣٣

٢) شرح ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٤٩

٣) المصدر نفسه ٥٨ — ٥٩ ٤) شرح ديوان امرىء القيس (المطبوع) ٦٧ .

في المشرق من بعض المسائل لم يجدد في ذلك . ونقل قول بعضهم في شيء كثير من التأييد والتقليد ، مثل مناقشته قول امرىء القيس :

* وحسبك من غنىً شبعٌ وريٌّ *

قال « ... وكان الأصمعي يقول : امرؤ القيس ملك ، ولا أراه يقول هذا ، فكأن الأصمعي أنكرها . ويقوي ذلك قولُ امرىء القيس .

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال

فنفى عن نفسه طلب القليل والرضا به ، وزعم أن الذي يرضيه ويكفيه الملك والمجد المؤثل ، فكيف يقول

فتوسع أهلها أقطاً وسمناً ... وحسبُك من غنى شبع وريٌّ

ويحتمل أن يريد امرؤ القيس أن الانسان إذا لم يطلب من الدنيا إلا الحياة والعيش دون الرئاسة وعلو الذكر . فالبُلغة من العيش تكفيه إن لم يجد غنى وكثرة مال ، والمعنى أن الإنسان لا ينبغي أن يقنع بالعيش خاصة دون الرئاسة والمنزلة . ويحتمل أن يكون قال هذه الأبيات في غدر الزمان به[1] ».وكل هذا الدوران لتمحّل معنى ملكي لهذا الشعر (المتصعلك – إن صح القول –) إنما مرده إلى احترام الشارح لعبارة الأصمعي من أنه لا يرى ملكاً يقول هذا الكلام.
وهو كثيراً ما يشير إلى مصادره في نقوله ، وفي تقليبه الروايات وتمحيصها ، ومن تلك المصادر ما نقله عن الأصمعي ، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي زيد الانصاري . وهو لا شك أفاد من ثقافته الواسعة ، ونُقلت إليه مشافهة روايات القالي وشروحه ، واطلع على ما نقله أبو علي أيضاً من المشرق ، كما اتضح جزئياً من عرضنا لما في فهرسة ابن خير . وتبقى – بعد هذا – ميزة خاصة لشرح الأعلم أوجزها هو في مقدمته وحاولنا بسطها ، بما يلائم المقام من شرح ومثال

١) شرح ديوان امرىء القيس المطبوع ١٣٧

شرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البَطَليوسيّ
على الشعـــراء الستة
(٠٠٠ – ٤٩٤) *

من الأدباء اللغويين الذين اهتمّوا بالشعراء الستّة الجاهليين ، ووصل إلينا شرحهم على دواوينهم . الوزير « صاحبُ المطـــالم أبو بكر عاصم بن أيوب البَطَلْيَوسي[1] » . وعلى الرغم من أن الأخبار عنه قليلة ، فإننا نستطيع أن نكوّن صورة قريبة لحياته وشخصيته ، ومكانته في شراح الأدب الأندلسيين ، من التراجم التي كُتبت عنه ، ومن أثناء شرحه على الدواوين وعبارة « الوزير صاحب المظالم » توحي بأنه تولى منصباً إدارياً ، ولكننا لا نعلم أكثر من ذلك ، وهي عبارة وردت في أول الديوان ، وقال فيــه صاحب الصلة « عاصم بن أيوب الأديب من أهل بطليوس ، يكنى أبا بكر[2] » . وقال في صفته وبيان حاله « وكان من أهل المعرفة بالآداب واللغات ، ضابطاً لهما ، مع خير وفضل ، وثقة فيما رواه . أخبرنا عنــه أبو محمد بن السيد – البطليوسي – بجميع مـــا

(*) ترجمته في الصلة لابن بشكوال ٢ ٤١ ٥ ، وبغية الوعاة للسيوطي (بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ٢ ٢٠

وانظر Brock, G I 309 S, 1, 543

وكشف الظنون ٢ ١٠٤١ (طبعة استانبول سنة ١٩٤٢) و مصادر الشعر الجاهلي ٢ ٥ وما بعدها ومقدمة ديوان امرىء القيس ١٤ – ١٥ والعصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ٢٤٣ (الطبعة الثانية)

١) شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرىء القيس – للوزير أبي بكر عاصم ابن أيوب مطبعة هندية – مصر ١٣٤٧ – ١٩٢٨ ص ٢

٢) الصلة ٢ ، ٤٥١

رواه » . وترجم له السيوطي في بغية الوعاة وقال « إمام في اللغة [1] » ، ونص على النقل من (البلغة) . روى عن أبي محمد بن العراب ، وأبي محمد السماقسي ، وأبي محمد مكي بن طالب المقرىء ، وغيرهم ، وروى عنه ابن السّيد البطليوسي[2] ، وأبو محمد عبد الملك بن محمد بن إسحاق اللخمي [3] .

أما مؤلفاته فهي :

١ - كتاب شرح الأشعار الستة الجاهلية ، قال فيه ابن خير [4] « كتاب الأشعار الستة الجاهلية ، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البلوي النحوي لها رحمه الله ، حدثني بها وبشرحها الوزير الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد ابن إسحق اللخمي بن الملح رحمه الله ، عن أبي بكر عاصم . » والكتاب موجود بكامله في مكتبة فيض الله في تركية ، ومنه نسخة مصورة مصغرة (مكروفلم) في الجامعة العربية ، ونسخة مصورة مكبرة في مكتبة جامعة القاهرة . وطبع من هذا الكتاب قسمان . شرح ديوان امرىء القيس، طبع عدة مرات طبعات غير محققة [5] ، وشرح ديوان النابغة ، طُبع مع مجموعة دواوين في المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٣ هـ والكتاب جدير بأن ينشر ، محققاً [6] .

٢ - كتاب «شرح أشعار الحماسة» ذكره ابن خير بالسند السابق إلى المؤلف[7].

٣ - « شرح المعلقات » ذكره السيوطي في البُغية [8] .

٤ - « كتاب الأوائل » ذكره بروكلمان وقال منه نسخة في (الظاهرية) بدمشق وذكر ابن بشكوال في الصلة أن وفاته كانت سنة ٤٩٤ هـ .

أهمية الكتاب . تحدث الدكتور ناصر الدين الأسد عن أبي بكر وكتابه بعامة . ثم قال [9] « إن النسختين نسخة عاصم (بن أيوب البطليوسي) ، ونسخة الأعلم (الشنتمري) قد اتحدتا من رواية الأصمعي لشعر امرىء القيس

١) بغية الوعاة ٢ ٢٤
٢) الصلة ٢ ٤٥١
٣) فهرسة ابن خير ٣٨٨
٤) فهرسة ابن خير ٣١٩
٥) مصادر الشعر الجاهلي ٣ ٤
٦) وقد أعددت الكتاب للطباعة
٧) فهرسة ابن خير ٣٨٨
٨) بغية الوعاة ٢ ٢٤
٩) مصادر الشعر الجاهلي ٣ ٥

أصلاً اعتمدناه ، وقد اتفقت النسختان في هذا القسم من الشعر ، غير أن الأعلم اختار بعد ذلك ست قصائد (في ديوان امرىء القيس) من غير رواية الأصمعي .. » . فهذه ميزة من ميزات الكتاب ، من حيث الصنعة والرواية ، وهو – في التراث الاندلسي – كتاب ذو قيمة لأنه يصور جانباً من الحياة الأدبية في فترات معينة ، ويُعين على تبيُّنِ جديدٍ من معالم تلك الحياة ، وهو إلى ذلك كله شرح من شروح الأشعار المشهورة في المشرق والمغرب على حد سواء.

مقدمة الكتاب .

يبدأ حديثه ، في مقدمة قصيرة ، بأن الشعر لا بد له من طبع ثاقب الفهم بالإضافة إلى معرفة معانيه ليكون فهمه كاملاً صحيحاً ، وعبارته . « اعلم أبقاك الله أن للشعراء أغراضاً تدلُّ عليها العلماء وتعرفها لمحاولة أمثالها الشعراء ، وليس هذا قدحاً في عالم ولا مدحاً لشاعر وناظم ، ولكن أهل الشعر مقصورون على معانيه ، وليس يكفي في الشعر مجرد العلم بالمعاني حتى يُضاف إلى طبع ثاقب الفهم ، فلذلك توعَّر سهلُه وقل أهلُه »[1] . ونقل كلمة الجاحظ التي روى فيها تطلبه (علم الشعر) وتنقلَّه بين اللغويين والنحاة والرواة .. الخ .. ليدل على أن فهم الشعر لا بد له من ثقافة جامعة لكل ذلك مع ذوق وفهم ورفع عاصم كتابه الى أحد معاصريه ، قال . « وقد سُئلت شرحها وتقريبها وتخليصها وتهذيبها للحاجب مجد الدولة أبي بكر محمد بن المتوكل على الله أبي محمد عمر بن محمد ، أدام الله بهجة الدنيا بطول بقائهما[2] . » . وأجملَ بعد ذلك طريقته

---

١) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم بن أيوب البطليوسي ٢

٢) حكم المتوكل على الله عمر بن محمد بن الأفطس بطليوس ، منفرداً بها ما بين (٤٧٣ - ٤٨٧) حيث دخل المرابطون بطليوس واقتيد مع ولديه الفضل وسعد (اسمه سعد في أعمال الأعلام - والعباس في المغرب) الى إشبيلية ، وقتلوا في الطريق وكان له ولد يلقب (بالمنصور) على حصن شانجش ، فلما علم بمصير أهله ، لحق بأذفونش - (أعمال الاعلام لابن الخطيب تحقيق ل بروفنسال . دار المكشوف لبنان - الطبعة الثانية - ١٨٠ - ١٨٤ - ١٨٦) وظاهر أن المؤلف رفع كتابه إلى ابن الأمير في حياة أبيه وانظر في في دولة بني الأفطس المغرب في حلى المغرب ١ ٣٦٣ - ٣٦٦ ، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة . زامبور - ترجمة د زكي محمد حسن وآخرين . القاهرة ، ١٩٥١ ١ ٨٩

في شرحه على الدواوين فقال « وكل ما ذكرته في هذا الشرح من كتب العلما أحدثه ، ومن مَكنون أقوالهم استخرجته [1] ». وسوف نرى أنه لا يعني مجرد النقل من الشراح المتقدمين ، فإنه كان يستنبط ويستخرج ، من وحي ثقافته اللغوية ويُحيل في معظم الاحيان على الأصول التي يستند إليها من لغة ونحو

مصادر الشرح والرواية :

ذكرنا قبلُ أنه اختار رواية الاصمعي باعتبارها رواية أساسية ، وكان أحياناً يضيف إليها ولكنه كان يشير كثيراً إلى روايات أخرى مختلفة مثل روايات المفضل الضبي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة ، والطوسي والرياشي. ونقل نقولاً كثيرة جداً ، وأثبت أسماء نحاة ولغويين وشراح متعددين . وهو يحب أن ينسب كلامه ويحيله على رجل من المتقدمين سواء في شرح المعاني أو الألفاظ أو الاحتجاج النّحوي واللّغوي . وممّن يتردّدُ ذِكرهم الأصمعي ، والمبرد ، والقُتَبي —وهو يكثر من النقل عنه— وابن جني ، وأبو عمرو بن العلاء ، والفرّاء وابن الاعرابي ، وابن سلام ، وأبو عبيدة ، وأبو علي البغدادي ، وابن دريد ، وابن السّيرافي ، وابن الكلبي ، وأبو عثمان المازني ، والخليل ، وسيبويه ، ويونس النحوي ... وتصعب إحالتي على مواضعهم لكثرة ترددهم ، وهو كثيراً ما يحيل المسائل العامة أو الشهيرة على (علماء اللغة) وقد يقول قال أهل النظر من أهل البصرة ، أو ما شابه هذه العبارات . فهو في رده الشروح الى أصول — معظمها كما نرى مشرقي — كالذين يفسرون بالمأثور ، لا يَعْدون فهو إن دل بطريقته هذه على ثقافة واسعة واطلاع متشعب متعدد ، فإنه كشف لنا عن نموذج من نماذج الشرح الأندلسي يلجأ فيه صاحبه إلى (الالتزام بالنصوص) قدر الإمكان ، واحترام السّلَف وهو قد يورد الشواهد من القرآن أو الحديث أو الشعر العربي ، وهو أكثر استشهاداً بالشعر من سلفه الأعلم لأن طريقته في رده كل رأيٍ إلى صاحبه ، والتمثيل لما يقول لتأييد حججه ، تجعله أشد طلباً للشواهد من الأعلم الذي انصب اهتمامه على شرح المعاني

(١) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم بن أيوب البطليوسي ٢

شرحه :

قد جعل الشارح عمله مزجاً بين شرح اللغة ، وإيضاح المعاني ، والملاحظات النحوية واللغوية ، والإشارات الى مصطلحات العرب وعاداتهم وما تواضعوا عليه ، والاستشهاد بالمأثور والمروي ، وهو يمزج ذلك كله دون نظام ، فكلما عنّ له شيء من ذلك ذكره ، وربما حشر قدراً كبيراً من كل ما سلف في شرح بيت واحد ، ولنمثل لذلك . قال في شرح بيت أمرىء القيس .

« ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي وهل يَعِمَنْ مَن كان في العُصُر الخالي

قوله عِمْ صباحاً : كلمة كان يتكلم بهـــا أهل الجاهلية في الغَداة ، وكانوا يقولون في المساء عِم مساء ، وبالليل عم ظلاماً . وتصريف فعله على ضربين ، وَعَم يَعِم وعماً مثل ورن يرن وزناً . وقد قيل وَعِم يَعَم مثل ورم يَرَم . والطلل الشخص من الشيء . يقال حيّى الله طلل فلان أي شخصه . فالطلل ما شخص من آثار الدار . والعصر فيه ثلاث لغات . عَصْر وعُصُر وعِصْر والخالي الماضي . يقال خلا من الشهر كذا وكذا أي مَضى . ومعنى البيت أنه استفتح كلامه بألا ، ثم حيّى الطلل بأن قال عِم صباحاً ومنهم من يرويه ألا انعم وأنعم وعِم بمعنىً واحد . وفي كتاب سيبويه

* وهل يَنْعِمن مَن كان في العُصُر الخالي *

استشـهد به على أنه مكسور العين في المستقبـل وفي الماضي كذلك ، وهو مثل . حَسِب يحسَب وعَبّر عن الطلل بمَن وهي لمن يعقل ، لأنه لمّا ناداه خاطبه . والمخاطبة إنما هي لمن يعقل ، فأخرجه مُخرج من يعقل — قال يونس قوله . وهل ينعمن من كان في العصر الخالي يقول من خُلق في الزمان الأول وهو اليوم إن كان رجلاً وان كان طللاً فهو دارس ، وتحقيقـــه من خلق في الزمان الماضي فأتى عليه طول الزمان وأبلاه ، كيف يكون ناعماً ؟ وإنما يريد بنعمته نعمة أهله فيه ، وأن يكون عامراً . وقد قيل فيه تقدير ثان وهو أنه قد تفرق أهله وذهبوا فكيف ينعم بعدهم [1] » .

١) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم . ٤٥ .

هذا شرح بيت يمثّل كثيراً من جوانب طريقة الشارح في تناوله القضـايا . فهو شرح عبارة (عِم ْصباحاً) وعالج وزن الفعل تنبيهاً لسامعه لقلة دَورانه ، وشرح بعض الكلمات ثم شرح معنى البيت الإجمالي ، وعرّج على بعض النحاة ، ونقل شرح الشطر الأخير من غيره ، ثم أدلى برأيه في الخاتمة .

الأثر النحوي واللغوي

وتنعكس على جوانب كثيرة من شرحه شخصيته النحويّة واللغوية ، فيبسط بعض البسط في قضايا نحوية ولغوية قد يكون الاجتزاء ببعضها كافيـاً . وهو لا يخرج عن منهجه في رَد الكلام إلى مصادر قديمة من نقل أو حفظ . وهـذا مَثَلٌ من أول شرحه على النابغة .

كِلِيني لهم يا أميمـة ناصب وليل أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

« قوله كليني أي دعيني وَكِلِيني . ونصب أميمة لأنه يرى الترخيم ، وأقحم الهاء مثل يا تيمَ تيم ، إنما أراد يا تيم عدي ، فأقحم (تيم) الثانية قال الخليل من عادة العرب أن تنادي المؤنث بالترخيم فتقول يا أميمَ ويا مسلمَ فلما لم يُرَخّم لحاجته إلى الترخيم أجراها على لفظها مرخمـةً بالفتح قال الوزير أبو بكر . والأحسن أن ينشد يا أميمهُ بالرفع[1] » وهو يكثر من الإتيان برأيه بعد عرض بعض المسائل النحوية ، ويتبيّن من ملاحظاته أنه مُلِمٌّ بقضايا النحو ومُطّلع على المذاهب فيه ، وقال بعد شرح بيت النابغة

إلا الأواريُّ لأياً ما أبيّنهـا والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلَدِ

« . قال الأصمعي كان أبو عمرو بن العلاء ينشـد إلا الأواريُّ ، فقلت علامَ ترفعُها ، فقال إنها بعضُ الدار ، ذهب إلى أن المعنى وما بالربـع إلا الأواريُّ ، وذكر (من أحد) فصلة وتوكيد ، وكأنه في التقـدير ما بالدار شيء رحل ولا غيره إلا الأواري . قال أبو بكر ويجوز فيه تقدير ثان على أن يكون الذي يقوم مقام (الأحد) الأواري والنؤي على التمثيل الأول أي كما تقول عتابُك السيف وتحيتُك الضرب فتكون حينئذ بدلاً ، وهـذا مذهب تميم وأكثر الناس ينشدون إلا الأواريَّ بالنصب على الاستثنـاء المنقطع .

---

١) شرح ديوان النابغة لعاصم ٢

والاستثناء المقطع يكون بمعنى لكن في مذهب البصريين ، وعلى مذهب أهل الكوفة بمعنى : سوى . وقيل له منقطع لأنه ليس بعضاً من كل ، لأن حكم الاستثناء أن يكون كذلك . وهـذا قد انقطع من ذلك[1] ». فهو يخرج عن موضوعه الأصلي من الشرح إلى تعريج جانبي نحوي كان يُعنى عنه بعضه . وهو يفعل ذلك كلما اتفق له موضع مُشكل أو يحتمل الإشكال ، ويقدم شيئاً من بضاعته وعلمه .

ولعله يثير المشكلات هو ليحلها ، وينبه قارئه إليها ، قال في شرح بيت امرىء القيس .

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمَحت هَصرتُ بغصنٍ ذي شماريخ مَيّال

« ... قال الوزير أبو بكر : وفي (تنازعنا) شيء غريب يُسأل عنه ، وذلك أن سيبويه قال : وأما تفاعلنا فلا يكون إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً[2] .. » وناقش نصب (أو نموت) من قول امرىء القيس

فقلت له لا تبكِ عَينُك إنّما نحاولُ مُلكاً أو نموتَ فنُعذرا

وحلل الأقوال في نصبها ، ثم قال « وجائز أن يرفع (أو نموت) على العطف على (نحاول) أو على الاستئناف ولا يفسد المعنى[3] » .

إشارات عامة

وهو يشير إلى بعض الأعلام والمواضع والبلدان والأسماء إشارات خفيفة لا تتجاوز التعريف الحرفي مما يستمر معه الشرح متسقاً جارياً ، مثل قوله · « وصيداء أرض بالشام[4] » . وقال في « الحارث الجفني » الذي ورد عند النابغة أيضاً : « هو الحارث بن أبي شمر الجفني الغساني[5] ». ونقل حديث « يوم حليمة » باختصار[6] ، وخبر « لُبَد »[7] نسر لقمان الحكيم . ومثل ذلك قصة نبي الله صالح وقومه ثمود[8] ، ومواعيد عرقوب[9] وخبر بني غسان[10] ،

---

١) شرح ديوان النابغة لعاصم ١٥ - ١٧ .
٢) شرح ديوان امرىء القيس لعاصم ٥٣ ٣) المصدر نفسه ٩١
٤) شرح النابغة : ٣ ٥) شرح النابغة ٦ ٦) المصدر نفسه ١٧
٧) شرح الشعراء الستة – ديوان علقمة ٦٩ / أ ٨) المصدر نفسه . ٦٩ / أ
٩) المصدر السابق : ٧٤ / أ . ١٠) شرح النابغة . ٦٣ .

وخبر الحية (ذات الصفا) التي قال فيها النابغة :

كما لقيَتْ ذاتُ الصفـا من حَليفها

وما انفكت الأمثالُ في الناس سائرهْ (١)

وليس له نظام معين فيما يشرحه وما يوجز فيه وما يدعه . وقد ترك ذلك لما يُقدّره هو من مقتضيات الشرح والمناقشة . وقد يتطرق إلى عادات العرب وبعض أخبارهم في باديتهم وحضرهم وحروبهم وألعابهم ، كشرحه على بيت النابغة ·

إذا استُنزلوا عنهن للطعن أرقلـوا إلى الموت إرقالَ الجمال المصاعبِ

« عن الأصمعي إذا اشتدت الحرب ووقع الالتحام ربما ضاق الموضع على الدابة فينزل صاحبها . قال عنترة

[إن يلحقوا أكْرُر وإن يستلحموا] أشدُد وان يُلفَوا بضَنْكٍ أنزل

وقال غيره إذا ألح عليهم بالطعن نزلوا وأرقلوا بالسيوف ، وذلك أن أول الحرب التَرامي بالسهام ، ثم التطاعن بالرماح ، ثم التضارب بالسيوف ثم الاعتناق إذا تكسرت السيوف ، قال زهير

يطعَنُهم ما ارتَموا حتى إذا اطَّعنوا

ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا (٢) »

وتحدث في موضع آخر عن مذهب الشعراء في التَبدّي والحَضَر وأنهم «على ضربين . منهم من يذم الحضر ويمدح التبدي ، ومنهم من يذم التبـدي ويمدح الحضر ، فممَّن مدح التبدي ذو الرمة . وممن ذم التبدي ومدح الحضر امرؤ القيس لأنه كان ملكاً . (٣) » .

المُلاحظات البلاغية

أما ملاحظات الشارح البلاغية فقليلة ، بالقياس إلى ما يستطرد إليه من لغة ونحو وخبر وهو يذكر بعض تلك الملاحظات عَرضاً ، وهو في هذا مثل الأعلم الشنتمري ، قال في شرح امرىء القيس

١) شرح النابغة ٤٨

٢) شرح ديوان النابغة ٥ ٣) شرح ديوان امرىء القيس ٤٦ – ٤٧ .

وماذا عليه إن ذكرت أوانساً كغزلان رمل في محاريب أقوال

.. فمعنى البيت أنه يقول . ماذا عليه في تشبيهي أوانساً بغزلان رمل هذا [1] . . . » . وعلق على قوله

« كأن قلوب الطير رَطباً ويابساً

لدى وكرها العُنّاب والحَشَف البالي

« . قال الوزير أبو بكر هذا أحسن بيت بإجماع الرواة في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين [2] » وكان يعالج التشبيه في أحيان كثيرة دون العناية بتبيين أقسامه ، اكتفاء بما ظهر من قوله وشرحه .

وقد يتحدث عن الاستعارة على قلة ، وهذا استخراج لاستعارةٍ في بيت لامرىء القيس لم تسلم من نقده ، قال امرؤ القيس

« وهِرٌ تصيدُ قلوبَ الرجال وأفلت منها ابنُ عمرو حجرْ

هر ابنة العامري ، وهي ابنة سلامة بن علبد وكان امرؤ القيس في كلف وطي ، أيام نفاه أبوه . وفاطمة أيضاً من كلف وهاتين يُشَبّب . وقوله . (وأفلت منها) يقول وأفلت أبي من صيدها ، وحذف المضاف ، والمضاف إليه أقامه مقامه ، وصادتني أنا لأنه لم يرها قال الوزير أبو بكر استعارة الصيد مع الهر مضحكة ولو أن حجراً أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف وهذه الاستعارة وإن لم تكن فاسدة فقد تحدّثها المحدَثون طرفاً ولطافة [3] » فقد عالج الاستعارة بفهم ، ونقده في أنه استمد استعارة مبتذلة كان في غنى عنها .

وبعد شرح قول امرىء القيس

إذا ركبوا الخيلَ واستلأموا تحرّقت الأرضُ واليومُ قَرْ

قال « واحترس بقولة (قر) فتمّم ، وهو الذي فتح باب الاحتراس »[4] والاحتراس باب من أبواب البديع لم يذكره ابن المعتز ولا قدامة ،[5] ولكنه

١) ديوان امرىء القيس ٥٦ ٢) المصدر نفسه ص ٦٤
٣) المصدر نفسه ص ٧ ٤) المصدر نفسه ص ٤ — ٥ .
٥) تحرير التحبير ٢٤٥ ، والعمدة ٤١

ورد عند الجاحظ في البيان والتبيين وذكره ابن رشيق في العمـــدة تحت اسم التتميم وسيتضح أيضاً أن أبا بكر الشارح اطلع على عمدة ابن رشيق [1] وأفاد منها . فهو هنا يقول « واحترس بقوله قر ، فتمم» وهي عبارة ابن رشيق إذ جعل الاحتراس من التتميم [2] .

وأشار أيضاً الى « نفي الشيء بايجابه » ، قال في شرح قول امرىء القيس :

على لاحب ٍ لا يهتـــدى بمناره إذا سافه العَود الساطي جَرجرا

(... قال الوزير أبو بكر . وفي هذا البيت أنه نفى الشيء بإيجابه ، وهذا من المبالغة وهو من محاسن الكلام . ومن هـــذا قول الله عز وجل « لايسألون الناسَ إلحافاً » أي ليس يقع منهم سؤال فيكون إلحافاً . وصاحب العمدة أول من استعمل هذه العبارة [3] ، وهو لا شك أخذها من ثَم .

وتحدث عن التكرار في معرض حديثه عن بيت امرىء القيس

ليـاليَ سلمى إذ تريك مُنصّباً وجيداً كجيد الرِّيم ليسَ بمعطال

« . فان قيل إن تكرار سلمى في الأبيات عيب ، فجوابـــه أن للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها . فمما يحسن تكراره مثل تكرار هـــذه الأسماء ، وتكرارها على جهة التشوق والاستعذاب ، لأن الموضع موضع غزل وتشبيب ، ولم يتخلص أحدٌ تخلصه ولا سلم سلامته في هـــذا الباب [4] » . وقد سبق إلى عد (التكرار) من البديع أبو أحمد العسكري، وصرح الباقلاني بأنه من البديع ، وجعله أبو هلال فرعاً من فروع الإطناب لتوكيد الكلام . ثم جاء صاحب العمدة ، فجعله أيضاً من البديع

وعلق على قول زهير بن أبي سلمى

يخرُجن من َشربات ٍ ماؤُها َطِلقٌ

على الجُذوع يخَفْنَ الغمّ والغَرقـــا

« قال أبو بكر هذا البيت مما غلط فيه زهير وقد اعتـُذر لزهير فقيل إنه

١) توفي ابن رشيق سنة ٤٦٣

٢) البلاغة تطور وتاريخ ١٤٩ .

٣) البلاغة تطور وتاريخ ١٥١

٤) ديوان امرىء القيس ٤٧ - ٤٨

لم يرد أنها تخاف الغَرق حقيقة ، ولكنها عادة من الحيوان في الماء ، فكأنه أراد المبالغة ، كما قال الله عز وجل (وإن كان مكرُهم لتزول منه الجبال [1])

وهذه تسمية قدامة بن جعفر الذي استمد في المبالغة والغلو – الذي سيمثل له في شرح عاصم – من كلام أرسطو في الخطابة ، ثم تابعه أبو هلال العسكري في الصناعتين ، واتصل ذلك بصاحب العمدة أيضاً [2] .

وبعد مناقشات لغوية ونحوية في بيت امرىء القيس .

تنوّرتُها من أذْرعاتَ وأهلُها بيثربَ ، أدنى دارِها نظَرٌ عال

قال الوزير أبو بكر قد فوصل بين عُلو امرىء القيس في هذا البيت ،وعلو مُهلهل في قوله .

فلولا الريح أُسمِع مَن بحجر صليلَ البيض تُقرع بالذكور

وبين حجر ، وهي قصبة اليمامة ، وبين مكان الوقعة عشرة أيام . فقيل هو أشد علواً من امرىء القيس في النار ، لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد ادكاراً » [3] .

وعلق تعليقاً سريعاً على بيت زهير

وكل محب أحدث النأيُ عندَه سلوّ فؤادٍ غيرَ حبك ما يسلو

قال « وفي البيت اعتراض » ولم يزد على ذلك و « الاعتراض » من اختراع ابن المعتز ، وذكره في الصناعتين أيضاً [4] وفي شرح بيت زهير

أمين شَطاه لم يُحرّق صفاقه بمَنقبة ، ولم تُقَطّع أباجِلُه

قال « وصف الشطايا بالقوة ، وهو كناية عن قوة الذراع »

ملاحظات

وهو إلى هذا يجمع في كتابه كثيراً من الآراء النقدية العامة، أو ما شاع من استحسانِ بيتٍ في الوصف وآخر في المديح . وقد سبقت الإشارة إلى قوله

١) شرح الأشعار الستة ٤٠ والبيت – برواية ثعلب – ماؤها طحل

٢) البلاغة تطور وتاريخ ٨٨ ، ١٠٨

٣) ديوان امرىء القيس ٥١ ، وانظر تحرير التحبير ٣٢٣

٤) البلاغة ٧٢ ، ١٤٢ والبديع لابن المعتز ٨ ١ والصناعتين . ٣١٢ .

في بيت امرئ القيس – الذي اجتهد بشّار في مصارعته رماساً – وقال في أبيات زهير :

وأبيضَ فياضٍ يداهُ غمامةٌ على مُعتفيه ما تُغبُّ فواضلُه

.. إلى قوله

تراه إذا ما جئتَهُ مُتَهلِّلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائلُه

« قال أبو بكر : قال خَلف الأحمر هذه الأبيات – من قوله وأبيض فياض إلى هـذا البيت – من أحلف ما قيل في المدح ، وأكثره حلفاً » .

وعلق على قول عنترة في وصف الذباب .

هَزِجاً يَحُكُّ ذراعه بذراعه قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجذم

« .. وهذا التشبيه من التشبيهات العُقم . وقيل لم يدع الأول للآخر معنى شريفاً ولا لفظاً بهياً إلا أخذه عنترةُ بهذا »

وفي شرحه على ديوان علقمة قال في موضع منه « وأول من شبّه الإبريق بالظبي عَدي بن زيد[1] » . ونقل ما روي عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبي الطيب المتنبي في موضوع توارد الخواطر قال « وسئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ فقال تلك عقول رجال توافت على ألسنتها وقال أبو الطيب وقد سئل عن ذلك الشعر ميدان والشعراء فرسان ، فربما وقع الحافر على الحافر [2] » .

وأشار إلى المعاني المشتركة بين الشعراء أو ما عبرلتهـا ، في شرح قول امرئ القيس

يضيءُ الفِراشَ وجهُها لضَجيعها كمصباح زيتٍ في قناديـل ذُبّال

قال « وقد تعاورت الشعراء هذا المعنى ورادت فيه ، قال أبو الطيب

أمن ازديارك في الدُّجى الرقباءُ إذ حيثُ كنتِ من الظلام ضياء[3]

ولم يتعقب المعرقات ، وما عده منها قليل عبر عنه بكلمة (مثل) ومنه تعقيبه بعد شرح بيت امرئ القيس

فلا وأبيك ابنةَ العامريّ لا يدّعي القوم أني أفر

---

١) الاشعار الستة ٧٢ ب ٢) ٧٥ أ ٣) ٤٦ أ .

قال « ومثل هــذا قول الطائي :

أحل أيها الربع الذي بان آهلُه [لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله]

ومثله قول ذي الرمة

لا عيرَ أنّا من تَذكرها وطول ما هَيَّحتنا ُ ربّع هيّم[1]

وقال بعد شرح بيت امرىء القيس :

تَنورّتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارِها نَظرٌ عال

. . وهذا مثل قول الحارث بن حِلِزّة :

فتنورت نارَها من بعيدٍ بخزاز هيهاتَ منك الصلاء[2] »

وقال بعد شرح بيتَيْ علقمة .

فإن تسألوني بالنّساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء أو قل مالُه فليس لهُ في وُدّهنّ نصيبُ

.. وهو مثل قول امرىء القيس

أراهنّ لا يُحبِبنَ مَنْ قلّ مالُه ولا من رأينَ الشيب فيه وقوّسا

ثم علق بعد ذلك « قال أبو بكر إلا أن بيت امرىء القيس أحسن لأنه جمع في بيت واحد ما فعل علقمه »[3] وهذا مذهبٌ في السرقات ، يرفع السرق عمن احتصر فأحسن . ونلمح عنده بعض اللمحات القليلة ، ولكنها ذات دلالة ، تبيّن رأيه في بعض الأمور النقدية والبلاغية ، وتنم عن ذوق خاص ، ومناقشة لآراء مخالفة لرأيه . ومنه تعليقه على تشبيه امرىء القيس :

أيقتُلني والمشرفي مُضاجعي ومَسنونةٌ زُرق كأنياب أغوال

... قال الوزير أبو بكر فإن اعترض معترض في هــذا التشبيه فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، وأنياب الأغوال لم يرها فكيف يقع التمثيل ؟ قيل له قد شنع الله صور الجن في قلوب العبـــاد حتى صار ذلك التشنيع أبلغ من المُعاينة[4] » .

وهو لا شك طالَعَ نسخاً من الدواوين ، واهتم بضبطها وإحسان روايتها ، فهو يشير إلى الزيادات على رواية الأصمعي سواء أكان بقصائـــد أو أبيات ، كما

١) ص ٤ أ ٢) ص ٥١ أ ٣) الأشعار : ٦٧ ب . ٤) الديوان ٥٥

أشار إلى أنه قابل نسخته على نسخة مضبوطة مقابلة بنسخة أبي علي القالي [1] وقال في بيت علقمة الذي وجده مكسوراً ووجدته كذلك في نسخ الأعلم الذي نبّه على اختلال الوزن . وهو :

دافعتُ عنه بشعري إذ … كان لقومي في العِداء جَحد

« قال الوزير أبو بكر هذا البيت وقع في كل النّسخ مكسوراً ، وألفيته بعد البحث والتنقيب عنه صحيحاً

دافعتُ عن شَأسٍ بشعري إذ … كان لقَومي في العداء جحد » .

وقد يشير إشارات سريعة إلى بعض مواضع الضرورات الشعرية، كالحيلولة بين المضاف والمضاف اليه بالمجرور في قول النابغة .

قبّ الأياطل تردى في أعنّتها … كالخاصبات من الزُّعر الظنابيب [2]

وقال في بيان الضرورة في البيت .

رَدّت عليه أقاصيه ولبّده … ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثّأد

قال أبو بكر يُروى بضم الراء وفتحها . ومن رواه بفتح الراء على ما سُمي فاعله ففيه ضرورتان تسكين الياء في أقاصيه في موضع النصب ، والثانية إضمار الفاعل ولم يسبق له ذكر ومن رواه بضم الراء على ما لم يُسَم فاعله خرج من الضرورتين [3]

وأشار إلى صرف الممنوع في ضرورة الشعر ، في قولٍ — ومهدر اسم جارية — .

حانَ الرَّحيلُ ولم تودّع مهدرا … والصُّبح والإمساءُ منها موعدي

ويجري الكتاب على هذا النسق وهو نموذج من الشروح التعليمية .



١) الديوان ١٢٣ ٢) ديوان النابغة ١١ ٣) ديوان النابغة ١٧

شرح ابن هشام اللخمي الإشبيلي
على مقصورة ابن دُرَيد

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي ، إشبيلي سكن سبتة . وقد وهم صاحب التكملة فجعله في الغرباء – عن الأندلس – ولعل ما أدخل عليه الوهم أنه سكن سبتة ، وغاب عنه تحقيق ذلك . ونبّه على خطئه هذا ابن عبد الملك في (الذيل والتكملة) قال « وجعله ابن الأبار منها – يعني سبتة – فذكره في الغرباء غلطاً منه »[1] روى عن أبي بكر العربي[2] ، وله إجازة من الحافظ أبي الطاهر السلفي . وروى عنه أبو الحسن بن أحمد الخولاني وأبو عبد الله بن عبد الله الكناني وابن العابد بن عار السبتي وأبو علي حسن بن محمد الجذامي وأبو عمر يوسف بن عبد الله الغافقي . وهذه سلسلة من الأعلام تدل على ما كان عليه ابن هشام من مكانة ضربت حوله هذه الهالة . وقد اشتهر بالنحو واللغة والأدب ووصفه في الصلة بأنه « أديب بالعربية وكان قائماً عليها وعلى اللغات والآداب[3] » وقال فيه ابن دحية الكلبي في المطرب .

(*) انظر ترجمته في التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار طبعة الشيخ عزة العطار – نشر الخانجي ٢ ٦٧٥ – ٦٧٦ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (مخطوط) الورقة ٢٥ – ٢٧ والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي نشر باعتناء ديدرينغ – استانبول مطبوعات وزارة المعارف ١٩٤٩ – ج ٢ ١٣١ وبغية الوعاة للسيوطي ١ ٤٨ – ٤٩ وينقل عن ابن الأبار ، وعن التجيبي في رحلته وفي المطرب من أشعار أهل المغرب ط القاهرة سنة ١٩٥٤ ١٨٣ إشارة إليه وانظر Brock G, 1 308 S, 1, 541

١) الذيل والتكملة ٢٥ ب (مصورة باريس – نسخة صديقنا الأستاذ محمد بن شريفة)

٢) الذيل والتكملة ٢٥ ب و التكملة ٢ ٦٧٥ . ٣) التكملة ٢ ٦٧٥ .

« الفقيه الأستاذ النحوي الكبير ، المتقن الخطير » ، وذكر أنه لقيه ولقي أباه ، وذكر له أبياتاً سنشير إليها فيما بعد . وعرّفه صاحب الذيل والتكملة بأنه « كان نحوياً ، لغوياً ، أديباً ، تاريخياً ، ذاكراً أخبار الناس قديماً وحديثاً ، وأيامهم » ، كما أفادنا شيئاً آخر ، وهو أن ابن هشام درّس بسبتة زماناً ، فقال « درّس ما كان ينتحله من العلوم بسبتة طويلاً » . ووصفه بحسن الخلق ثقافته .

وفي الذيل والتكملة خبر طريف ، عن مناظرة كانت بين ابن هشام وبين أحد معاصريه ظهر فيها ابن هشام على صاحبه وزادت فيها سمعته ، وفيها أنه « كانت بينه وبين الأستاذ أبي بكر بن طاهر الخدَب مناظرة في مسائل من كتاب سيبويه قياسية ونقلية ، ظهر فيها شفوف أبي عبد الله بن هشام على أبي بكر بن طاهر ، واستظهر عليه في كل ما خالفه فيه ، بالنصوص الجلية والآراء المؤيدة بالحجج الواضحة ، فاشتد على ابن طاهر ظهور أبي عبد الله عليه ، وإفحامه إياه ، وانصرف عنه واجماً مُغصاً ولما استقر ابن طاهر بمنزله بعث إليه ابن هشام بضيافة برأ به وقياماً بحقه ، فردها أبو بكر عليه ولم يقبلها ، فعُدّ ذلك من جفاء خلق ابن طاهر . » وهذا الخبر يفيدنا في سعة ابن هشام ومكانته في علم النحو كما يلقي أضواء جانبية على نوع من المناظرات اشتهر في بعض العصور الإسلامية ، وكأنه تقليد من تقاليد العلم والعلماء لا يزال يتجدد . وهذا (الشفوف) الذي أشار إليه ابن عبد الملك المراكشي يفسره ما جاء في ثبت مؤلفات ابن هشام وفيها كتاب « إصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وفي شرحها للأعلم من الوهم والخلل » ، وقد ذكره ابن الأبار في التكملة

وقد توزع اهتمام ابن هشام بين النحو واللغة والأدب ، وبين التدريس والتأليف ومن سرد تصانيفه نتبين تنوع الاتجاهات التي توجه إليها ومن مؤلفاته ١) تقويم اللسان نحا فيه منحى الزبيدي في « لحن العامة » وصدّره بالتعقّب على الزبيدي في أشياء نسب العامة فيها إلى اللحن هم فيها على الصواب . وذكر ابن الأبار أنه له (كتاباً في لحن العامة) وفي البغية (لحن العامة)[1]

١) الذيل والتكملة ٢٥ ب ، التكملة ٢ ٦٧٥ ، بغية الوعاة ١ ٤٩

٢) شرح مقصورة ابن دريد [١] . وعرّفه الصلاح الصفدي بأنه شارحها قال « اللخمي شارح الدريدية . محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم اللخمي السّبتي شارح الدريدية ، وهو من أحسن الشروح ، كتبته بخطّي في زمن الصبا » وهو الكتاب الذي سنتحدث عنه [٢] . ٣) الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل . كذا ذكره في التكملة ، وسماه في الذيل شرح أبيات الجمل ، وقرأها محقق البغية خطأ فجعلها كتابين قال «من مؤلفاته كتاب الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل » ، وهو وَهْم ، ولم ينتبه إلى أن السيوطي ذكر أنه ينقل عن ابن الآبار [٣] ٤) شرح الفصيح لثعلب ٥) شرح قصيدة الحريري في الظاء ٦) شرح قصيدة الهاشمي في ترسيل البيّوين ٧) والكتاب الذي سبقت إليه الإشارة عن التكملة إصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل » .

شعره .

تناقل ابن عبد الملك ، وابن دحية الكلبي ، والسيوطي أربعة أبيات لابن هشام جمع فيها استعمالات كلمة (الحال) ذات المعاني المتعددة ، ونصّ ابن عبد الملك أن أبياته « أقرب للحفظ ، وأكثر شهادة باقتدار منشئها على النظم ، من القصيدة التي ذيّل بها أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي القصيدة التي أنشدها ثعلب ، وما كمّلهـا به أبو اسحاق بن فرقد [٤] . وأبيات ابن هشام هي

أقول لحالي وهو يوماً بذي حال ... تروح وتغدو في بُرودٍ من الحالِ
أما طمرتْ كفّاك في العُصُرِ الحالي ... برَبّة حالٍ لا يَرِنُّ بها الحالي
تمرُّ كمرِّ الحـال يرتَجُّ ردفُهـا ... إلى منزل بالحال حِلوٍ من الحال
أقامت لأهل الحال حالاً فكلُّهم ... يَؤُم إليها من صَحيح ومن حال

قال ابن الآبار في شعره . « مع حظ من النظم ضعيف » وهذه شهادة ناقد

١) المصادر السابقة ٢) الوافي بالوفيات ٢ ١٣١
٣) بغية الوعاة ١ ٤٨ - ٤٩ .
٤) الذيل والتكملة ٢٦ / أ . وانظر أبيات أبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين . ٥

شاعر ، وقال فيه ابن عبد الملك . « وكان لابن هشام تصرف حسن في النظم ، ومنه أبيات ضمنها معاني الخال ... »

وفاته .

لم تقع لابن الأبار وفاته فقال إنه وجد الأخذ عنه والسماع منه سنة ٥٥٧ [١] ونص ابن عبد الملك في الذيل والتكملة على أنـــه تُوفي بإشبيلية سنة سبع وسبعين وخمس مئة .[٢]

مقصورة ابن دُريد هي قصيدة مقصورة ألفها أبو بكر محمد بن دريد الأزدي اللغوي الأديب الشهير[٣] مدح بها « الشاه ابن ميكال وولديه ،ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور [٤] » ونقل ابن خلكان أنـــه عارض ابن دريد في قصيدته هـــذه جماعة من الشعراء ، وممن عارضـــه الشاعر الأندلسي حازم القرطاجني ، وشرَح قصيـــدة حازم أديبٌ مغربي متأخر سكن الأندلس هو الشريف السبتي الغرناطي ، ولهذه القصيدة وشرحها شهرة . وشرَح مقصورة ابن دريد جماعة ، منهم اللغوي الأندلسي ابن هشام الإشبيـلي .

نسخة الشرح في دار الكتب المصرية نسخة جيدة من شرح ابن هشام على المقصورة الدريدية محفوظة بالمكتبة الشنقيطية (برقم ٦٥ أدب ش) وهي نسخة كانت عند المصنف التركي المشهور ابن كمال باشا ، وعليها خطه وتوقيعه ، واقتناها الشنقيطي من استانبول سنة ١٢٩١ هـ. وعلى الغلاف « شرح قصيدة ابن دريد للأديب أبي عبدالله محمد بن أحمد بن هشام السبتي المغربي المعروف بابن هشام اللخمي اللغوي—رحمه الله— وقد سمى الأديب الفقيه ابن هشام هذا الشرح بالفوائد المحصورة في شرح المقصورة» وذكر ابن هشام في مقدمة شرحه سند المقصورة ورواتها المتصلين من وقته إلى أبي بكر بن دُريد » . قال الأستاذ أبو

١) التكملة ٢ ٦٧٦ ٢) الذيل والتكملة ٢٧ ب

٣) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي وهو إمام من أئمة اللغة والأدب ، ولد بالبصرة وتنقل في بـــلاد كثيرة ، وتقلد ديوان فارس لآل ميـكال ، وانتهى مطافه في بغداد وله مؤلفات كثيرة (انظر وفيات الأعيان ٣ ٤٤٨ – ٤٥٤ ، إنباه الرواة للقفطي ٣ ٩٢)

٤) وفيات الاعيان ٣/ ٤٤٨

عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي أخبرنا بهذه القصيدة الفقيه الأجل الشيخ الأفضل أبو بكر بن العربي رحمه الله قال أخبرنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي ، وقال أخبرنا أبو محمد (الحسن بن علي الجوهري) قال أخبرنا ابن الخرّاج ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي رحمه الله قال .. القصيدة » . وهذا أحد الأسانيد التي روى بها ابن خير المقصورة في فهرسته [١] وقد ضمّن الشارح كل الأبيات المنسوبة إلى المقصورة ، لأنه كان يقول في بعض المواضع وهذا البيت ليس من الرواية [٢] ويشرحه مع ذلك وقال بعد شرح البيت الأول .

يا ظبيةً أشبه شيء بالمهَا ترعى الخُزامى بين أشجار النقَا

وهذا البيت لم يثبت في رواية أبي علي ولا في أكثر الروايات ، وإنما وقع في رواية شاذة وهي رواية أبي إسحاق بن مخلد . وأبو علي هو القالي ، وتوجد عنه رواية للمقصورة ، شائعة في الأندلس [٣] وقال بعد شرح البيت .

عوّل على الصّبر الجميل إنه أمنعُ ما لاذ به أولو الحِجى

وهذا البيت ليس في أكثر الروايات ، وكذلك الذي بعده[٤]

مصادره لم يذكر ابن هشام أنه نقل عن أحد ممن سبقه إلى شرح المقصورة . وكان ينقل مباشرة عن أئمة اللغة في المشرق والأندلس في شرح الغريب وإيضاح المعاني ، ومن النحويين والأدباء فمن المشارقة المبرد ، وأبو الفتح بن جني ، وأبو علي البغدادي ، وهو يكثر من النقل عنهم والاحتجاج بهم ، بالإضافة إلى أعلام كثيرين مثل الكسائي ، والخليل ، والفراء ، وأبي بكر ابن قاسم ، والسّيرافي ، وأبي الحسن الرماني وغيرهم . ومن الأندلسيين ينقل عن أبي محمد بن السّيد ، وابن سِيدَه ، صاحب المُحكَم ويحتج بهما في اللغة خاصة ، وأبي عبيد البكري ويحتج به في الروايات والأمثال خاصة وهو يفصل الاحتجاج بأسمائهم دون كتبهم إلا في مرات قليلة

مقدمة الشارح قدم ابن هشام لشرحه بمقدمة موجزة بيّن فيها منهجه

---

١) ابن خير ٤٠٠ ٢) انظر مثلا ١١٥ /و ، ١١٦ /و ـ ط ٢٠ /و .
٣) فهرسة ابن خير ٤٠٠ ٤) شرح المقصورة ١١٥ / ط .

وأسلوبه ، وذيلها بترجمة ابن دريد معتمداً على أبي علي القالي ، أورد فيها بعض أخباره ومصنفاته ، وذكر سند روايته للمقصورة متصلاً بابن دريد . وبدأ مقدمته بذكر ما تمتّعت به مقصورة ابن دريد من اهتمام أدباء زمانه ومنتحلي هذه الصناعة في وقته ، وأنها صارت مَأمّهم في اللغة وإمامهم ، لسهولة ألفاظها ونبل أغراضها ، وثقة مُنشئها ، واستفادة قارئهـــا ، واشتمالها على الثلث من من المقصور ، واحتوائها على جزء من اللغة كبير ، ولما تضمنها من المثل السائر ، والخبر النادر ، والمواعظ الحسنة ، والحكم البالغة البيّنة [١] وقال إن عدداً من من الشعراء عارضوا ابن دريد فلم يبلغوا شأوه ، ولا شقّوا غباره ، وإنه عند أهل الآداب في هذا الباب أشعر العلماء وأعلم الشعراء ووعد بذكر جملة من أخباره . ثم تحدث عن جماعة سبقوه إلى شرح المقصورة لم يُسَمّ أحـــداً منهم ولكنــه قسمهم إلى قسمين . منهم المُسهب المطوّل والمُختصر المقلّل [٢] . وانتهج لنفسه نهجاً وسطاً — كما قال — لأنه أكثر نفعاً « فاعتمدنا حين سُلنـــا شرح غريبها وذكر المهم من معانيها ، وإعرابهـــا ، على المتوسط إذ هو خير الأمور ، واقتصرنا على ما هو أنفع عند الجمهور » ثم مار شرحه بأنــه ذكر عقب شرح الأبيات المصادر التي اعتمدها ابن دريد في بناء قصيدته ، وأصول معانيه ومحتويات قصيدته « على أنا أودعنا هذا الشرح فنّاً من العلم خطيراً ، وباباً من الأدب كبيراً لم يتصل غيرنا من الشارحين فيه قلماً وهو أنا ذكرنا عقب شرح أكثر الأبيات من أين أخذ معناها ، وعلام أسس مبناه من أشعار الجاهلية والمخضرمين ومَنْ بعدهم من المحدثين ممن نسج على منواله واحتذى على مثاله ، وسنقف على ذلك كله في موضعه من هذا الكتاب بحول الله إن شاء الله [٣] » وهو في هذا يشير إلى ما صنعه مما يدخل — بالمعنى الواسع — في باب السرقات. ثم ذكر ترجمة موجزة لابن دريد ، والتفت إلى الشرح

شَرْح ابن هشام على مقصورة ابن دريد لاحق بالشروح التعليمية ، وداخل فيما شرطنا لهذا القسم من هذا الفصل عن الشراح وقد بيّن الشارح نفسه ذلك في مقدمته حين جعل همّه إيضاح معاني القصيدة وغريبهـــا

١) ٣/ظ — ٤/و ٢) ٢/ظ — ٤ و ٣) المصدر نفسه ٢ ظ /و

وملاحظات أخرى محدّ وسط وعا هو أنمع عند الجمهور [٢] ولم يحرج هو عن شرطه إلا من جهة واحدة ، لكنها علت على الشرح كله ، سنتحدث عنها وهو يبدأ الشرح كعادتهم نشرح نعض الغريب ، ويلاحق الكلمة العربية في المعاجم ، وشعر العرب – أهل الحُجّة أولاً – ويمثل لدلك كثيراً . ثم يشرح المعنى ، ويعقب عليه بما يحفظه من معان مشابهة أو قريبة ، ويسترسل في ذلك كما سنمثّل ويحلل دلك بتعريف ، يتناول نعض الأعلام ، يسوقه النحث .

طريقته :

وهو يشـرح الكلمة العربية وما تحتمله من معان ، ويأتي بالشواهد ، وينبه على مداهب العرب وما تواضعت عليه من استعمالات لغوية في الأسماء والأفعال ، وفي الأوصاف والتشبيهات مما ينصرف إلى الاستعمال اللغوي ، أو ينبّه إلى المعاني المشتركة كقوله والعرب تشبه البرق بالنار [١] وقوله في شرح البيت :

إدا بلوتَ السيفَ محموداً فلا   تذُمّه يوماً إن تراه قد نَبا

«والعرب كثيراً ما تحمِل الأفعال بعضها على نعض إدا اشتركت في المعنى ، فيكون التقدير ، إدا علمت السيف محمودا [٢]»

وهدا شرح بيت كامل يوضح لنا طريقته في الشرح ، ومعالجته للناحية التي رأى أنه انفردَ بها بين الشارحين من تِبيان مصادر معاني ابن دريد في قصيدته . قال

يا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمها   ترعَى الخُزامى بين أشجار النقـا

« الظبية الغزالة . قال دو الرمة

فيا ظبية الوعَساء بين حلاحل   وبين النّـقا آ أنت أمْ أمّ سالم

والظبية أيضاً لكل دات حافر بمنزلة الحيا لكل دات ظلف وخُف . وظبي أيضاً اسم رملة قال امرؤ القيس

وتعطو برَخص غير شثن كأنه   أساريعُ ظبيٍ أو مساويك إسحل

والعرب تشبّه عين الرجل والمرأة بعين الظبية في كلامهم المنظوم والمنثور . قال الشاعر

١) ٤/و – ط   ٢) ٨٧/ط   ٣) ١١٥/و.

فعَيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها ولكنَّ عظمَ الساقِ منكِ دقيقُ

ويشبهون أيضاً جيد المرأة بجيد الظبية ، وقد تقدم الاستشهاد عليه . وقال امرؤ القيس في ذلك .

وجيدٍ كجيدِ الرِّئمِ ليس بفاحشٍ إذا هي نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ

وقال الآخر .

فلم تَرَ عيني مثلَ سِربٍ رأيتُه خرجنَ علينا من زقاقِ ابنِ واقفِ
طلعنَ بأعناقِ الظباءِ وأعينِ الـ ـجآذرِ ، وامتدت بهن الروادفُ

والمها جمع مهاة ، وهي الشمس ، قال الشاعر :

ثم يجلو الظلامَ ربٌّ رحيمٌ بمهاةٍ شُعاعُها منشورُ

والعرب تشبه وجه المرأة بالشمس في الإشراق . قال النابغة .

قامت تراءى بين سِجفَي كِلَّةٍ كالشمسِ يومَ طُلوعِها بالأسعدِ

وقال أبو حية

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كفٍّ ومِعصمِ

والمهاة أيضاً الدرّة ، والعرب تشبه المرأة بها في الصفاء . قال الربيع بن ضبع الفزاري

كأنها درةٌ مُعَمَّمَةٌ من نسوةٍ كنَّ قبلها دُررا

وقال النابغة

أو درّةٍ صدفيةٍ غوّاصُها بَهِجٌ متى يرَها يُهِلَّ ويسجدُ

والمهاة أيضاً بقر الوحش . والعرب تشبه المرأة بِحُسن عينيها ومشيتها . قال الشاعر .

لها من مهاةِ الرملِ عينٌ مريضةٌ ومن ورقِ الرَّيحانِ خضرٌ أشاربُ

وقال عمر بن أبي ربيعة

أبصرتُها ليلةً ونسوتَها يمشين بين المقامِ والحجرِ
يرفُلْنَ في الريطِ والمروطِ كما تمشي الهُوَيْنا سواكنُ البقرِ

المهاة أيضاً البلورة . والعرب تشبه المرأة بها في البياض فيحتمل أن يكون أبو بكر رحمه الله شبه هذه المرأة التي شبب بها ، وجعلها ظبية على الاتساع ،

بالشمس في إشراقها أو بالدرة في صفائها وبريقها أو بقرة الوحش في حُسن عينيها ومشيتها أو بالبلورة في بياضها ونصاعتها إذ لا دليل في البيت على واحدة ممـا وصفنا بعينها . إلا أن الأظهر ـ والله أعلم بمراده ! ـ أنه يريد بالمها بقر الوحش، شبه المرأة بها لحُسن عيونها ، وحملها طبية على الإتساع لطول جيدها ، وأخذ هذا من قول زهير .

تنازعها المَها شَبَهاً ودرُّ الـ ـحور وشاكَهَت فيها الظّباء (١)

ونقل بعد البيت شرح الأصمعي عليه فهذا مثال واحد لبيت واحد شرحه وهو إذا استطرد هنا في اللغة وفي شواهـد شعريه لتعضيد معاني اللغة ، فـإنه يستطرد لهذا الغرض ولغيره في مُعظم الاحيان وقدأضاف إلى استطراده الطويل في شرح البيت الاول هذا أن استعمال الطبية تفضيل للمرأة كان (على الاتساع) وأن بعض مَعنى ابن دريد من بيت لزهير .

وهو يبني استطراداته زيادة على تعقُّب اللغة وشرح المعاني على ثلاثه أمور أولها الاستطرادات النحوية . والثاني : إشاراته إلى أخذ الشعراء معاني ابعضهم بعضاً ، والثـالث بعض التعريفات بالأعلام والأماكن والمواضع أما ستطراداته النحوية فتتمثل في إعرابه كلمات وجملاً . اقتضى المقام ذلك أم كان نافلة منه، وفي إشارات مختلفة إلى مذاهب الكوفيين والبصريين في بعض المسائل، وفي وقوفه عند بعض القواعد بالشرح والتفصيل . وقد يعرض لبعض مسائل في الصرف وهذا شرح بيت من أبيات المقصورة كاملاً .

لَيْن إذا لُوِينت سَهل معطفي ألوى إذا خوشنت مرهوبُ الشَّذا

قوله لين أصله ليّن ــ ووزنه فيعل ــ بياءين لانه من لان يلين ، فعين الفعل ياء وقبلها الياء الزائدة فأدغمت الاولى في الثانية فوقع التشديد لذلك ، ثم يخفف فيقال في ليّن لين ، وفي ميّت ميْت . وقـد قرىء بها جميعاً وفي هيّن هيْن . قال الشاعر .

هَينون لينون أيسارٌ إذا يسروا سُوّاس مكْرُمةٍ أبناءُ أيسار

١) ٤ / ط وفي الديوان (طبعه الدار) در النحور ورواية النحور للأعلم

ولين خبر مبتدأ مضمر كأنه قال أنا لين ، وسهل كذلك . ومعطي فاعل سهل . وألوى كذلك ومرهوب كذلك . والشّذا مضاف إليه وهو في موضع رفع لأنه مفعول لم يسم فاعله لمرهوب والتقدير مرهوب شذاي . والعامل في إذا محذوف دل عليه ماتقدم . والتقدير إذا لويت لنت . وكذلك إذا الثانية العامل فيها فعل مضمر دلّ عليه الكلام المتقدم . والتقدير إذا خوشنت اشتدت خصومتي وخيف مني وهذا كما تقول أنا شاكرك او أشكرك إذا أعطيتني ، وأنا زائرك أو أزورك إذا أكرمتني ، أي إذا أعطيتني شكرتك وإذا زرتني أكرمتك [1]» فهو توسّل بالإعراب إلى إيضاح المعنى ولكنه إعراب مسهب ، بل لعل الناظر يظن أن الموضوع في النحو لا في شرح معنى البيت ، كما أن الشارح عَرَّج على لين فقلبها على وجوهها وأتى بغيرها الصرفي ومَثّل لكل ذلك

واهتم بما يعرض من قضايا اختلف فيها البصريون والكوفيون فكرر كثيراً في أمثلة شتى خلافهم حول كتابة الثلاثي المقصور « والدُّحاح دُحية وهو ما ألبسك الليلُ من ظلمته ، وتكتب بالألف على مذهب البصريين لأنه من دحا يدحو وبالياء على مذهب الكوفيين لأن أوله مضموم ولأن واحدة دُحية [2] » ورضا مقصور ويكتب بالياء على مذهب الكوفيين وبالألف على مذهب البصريين » ، وسما ، وعلا ، [3] الخ » وقال في الشاهد

ما للجمال مشيُها وئيدا أجندلاً يحملن أم حديدا

« . وروى الكوفيون مشيها بالرفع والنصب والخفض [4] وذكر خلافهم على المرفوع بعد إذا بالفعلية أم بالاسميّة قال

قد مارست مني الخطوب مرِسا يساورُ الهَول إذا الهول عَلا

« . الهول فاعل بفعل مضمر دل عليه (علا) . والتقدير إذا علا الهول علا هذا مذهب البصريين وأما الكوفيون فيرفعون ما بعد إذا [5] بالابتداء» .

ووقف عند مسائل كثيرة في النحو ، من ذلك أنه شرح استعمالات (الكاف) وقال إنها « تستعمل على أربعة أقسام اسم ، وحرف ، وجواز الاسمية والحرفية ،

١) ٩٣ / ظ ٢) ١ / و ٣) ٣٢ / و ٤) ٣٨ / ظ ٥) ٩٢ / و

وزائدة . . »[1] وبيّن مواضع استعمال النون الثقيلة[2] وعمل (الحـــذ ومعمولاته)[3] والأفعال الداخلة على الابتداء والخبر[4] وعمل اسم الفاعل فيما شرط سيبويه ،[5] وهو يسهب في شرح ذلك كما لو كان يؤلف في كتاب نحـو .

والحق أن ميزة شرح ابن هشام على المقصورة في شيئين . أولهما الإفاضة في أمور النحو والصرف كما وضحت من النواحي الثـلاث مما يزيـــد عن متطلبات شرح عام لقصيدة والثاني الإضافة في متابعة المعنى الواحد عند شعراء مختلفين على تباين العصور مما يلحق بحث السرقات وهو لا يعالج موضوع السرقات. باستعمال الاصطلاحات التي شاعت في تمييز أنواعها وتبيين الفروق بين سرقة وأخذ وغصب وانتحال.. الخ مما فصّله السابقون على ابن هشام ،وذكره – مثلاً – ابن رشيق في العمدة وكان غايـة ما يستهويه هو إثبات عدد من الأبيات تتشابه في الأغراض وتتقارب في المعاني ، وغالباً ماتكون عبارتـه (أخذ) و (مأخوذ) و (هذا ينظر إلى) . وكان أحياناً ينتبه إلى أن الشاعر يعكس معنى غـــيره ويبطنه ، وينبه هو عنه بأن هذا المعنى (ضد) معنى فلان ولا نجد عبارات فنية تتصل بهذا الموضوع سوى ما أسلفت تقريباً وقد يعيّن الأخذ بين اثنين ، ثم يورد أبياتاً أخرى قريبة المعنى أو مشابهة ، دَرْجاً دون أيّ تعليق فهو إما أنه اكتفى باثبات معلوماته وبسط محفوظـــاته ، أو أنه لم يرد أن يدخل في تفصيلات نقدية لا تدخل فيما وضع لنفسه من حدود في شرحه ولنبيّن بالأمثلة معلقين على رأيه ، قال .

«شجيت لابل أخـْرَصتني غُصـّةٌ عنودها أقتلُ لي من الشّجا

وهذا ينظر إلى المثل السائر أتى الوادي فطمّ على القرى »[6] ، وفي وفي مكان آخر .

« وصرم الرأيُ المشِتُّ حذوة ما تأتلي تَسفع أثناءَ الحَشا

. وهذا مأخوذ من قول الحسين بن مطير الأسدي :

لقد كنتُ جلداً قبل أن توقد النوى على كبدي ناراً يطيب خمودها »

١) ٦ / ط ٢) ١١٦ / ط ٣) ١٠ / و .
٤) ١٤ / ط . ٥) ١٧ / ط ٦) ١٢ / ط – ١٣ / و

فهو عار في المثال الأول بأنه (ينظر) وهو يعني أحد المعنى من بعيد ، وعابر ثانية بأنه (مأخوذ) وهو ألصق وأقرب . وعلّق على قوله :

« واتحد التّسهيدُ عيني مألفاً لمّا جفا أجفانَها طيفُ الكرى

. . وهذا البيت ضد قول بشار .

لم يطل ليلي ولكنْ لم أنَم ونفى عنّي الكرى طيفٌ ألَم

فأخبر أن الطيف الذي نزل به نفى الكرى عن عينيه . وابن دريد ذكر أنه لما جفا الطيفُ جفنَه اتحد التسهيد مألفاً عينه لأنه إنما كان ينام من أجله ، كما قال المجنون .

وإنّي لأستغشي وما بيَ نعسة لعل خيالاً منك يلقَى خياليا

وقال الطائي :

طيّ تقنّصْتُه لمّا نصبتُ له في آخر الليل أشراكاً من الحُلُم » [1]

فهو استشف علاقة الضدّية بين بيت ابن دريد وبيت بشار ، وأخرجه بيت بشار إلى بيت المجنون بجامع معنى استدعاء الطّيف والخيال ، وكذلك خروجه إلى بيت الطائي

وينبّه أحياناً إلى الاختلاف الجزئي بين المعنيين كما في شرحه

يرسبن في بَحر الدجا وبالضُّحى يطفون في الآل إذا الآلُ طفا

. . وهذا ينظر الى قول ابن الرومي — وإن كان الموصوفان مختلفين —

كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤه سفلاً وتطفو فوقه جِيَفُه »

وناقش فكرة أنّه لكل شيء أجل محـــدود ، وزمن موقوت ، من قول ابن دريد [2]

« إذا ذوى الغصن الرطيب فاعلَمْنْ أنّ قصاراه نفادٌ وتَوى

وهذا مأخوذ من قول الأسود بن يعفر

فأرى النعيم وكل ما يُلهى به يوماً يصير إلى بلّى ونفادِ

وقال آخر « والناس يبلون كما يبلى الشّجر »

---

١) ١٠/د ٢) ١٢/د

وقالت ليلى الأخيلية

وكلُّ شباب أوجديدٍ إلى بلى　　وكل امرىء يوماً الى الله صائرُ

وهذه كلها راجعة الى معنى واحد ، ثم علق مباشرة على هذه المعاني بيت المتنبي فقال . وما أحسن قول المتنبي :

آلة العيش صحةٌ وشبابٌ　　فإذا ولّيا عن المرء ولّى

ولعله أراد أن يقول إن صلة بعيدة بين المعاني السابقة ومعنى بيت المتنبي ، وعبّر أيضاً عن إعجابه بالمتنبي .

وغاية ما نقوله في هذا الباب عند ابن هشام إنه حاول أن يقدم لقارئه في كل معنى أورده ابن دريد ما سبق به إليه من شعر أو مثل لمتقدم أو محدث وحاول محاولة متئدة في تعيين نوع العلاقة بين معناه وبين المعاني السالفة ، السابقة له . فهو إمّا أن يصرح بالأخذ ، أو يقول إن معناه يشبه معنى فلان أو ينظر إليه وكان يهتم بإيراد المادح والمشبهات أكثر من مناقشتها وتحديد موقفه واضحاً منها ، بعد أن كانت المصطلحات في تعيين أقسام السرقات شاعت وفشت وتدُوولت بل إن الأخذ والنّظر والإلمام والضدّية من جملة المصطلحات النقدية ، وإن كان ابن هشام لم يقحم نفسه في تنويعها وتفصيلها ورد مآخذه الى أصولها من كتب النقد السابقة له ، بل إنه لم يشر إلى كتاب واحد في هذا النص

ملاحظات عامة لم يتعرض الشارح إلى فنون البلاغة ، ولم يشر إلا إلى الاستعارة بشكل عارض في شرحه .

فكان كالليل البهيم صاح في　　أرجائه ضوءُ صباحٍ فانجلى

وإنما الصياح هنا مجاز واستعارة لأن النهار لما كان آخذاً في الإقبال وكان الليل آخذاً في الإدبار شبه النهار بالهازم الذي من شأنه أن يصيح على المهزوم [1] ، وأشار في البيت الاول إلى أن ابن دريد استعمل الطبية من قولة في مطلع المقصورة (يا ظبية أشبه شيء بالمها) على الاتساع . وهو باب أفرده ابن رشيق في العمدة [2] .

١) ٦ / ط .

٢) العمده لابن رشيق (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م) ٢ ٧٥

وكان الشارح يستطرد بين الحين والحين إلى التعريف ببعض الاعلام لمناسبات يرددها الشاعر في مقصورته كتعريفه بإمرىء القيس ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، وجُذيمة الأبرش ، ويزيد بن المهلب ، وبيهس وقـُصير ، وعمرو بن هند وتفصيله في موضوع الحج والعمرة. وهو لا ينصُّ على مصادر نقوله ولا يحيل على مؤلفات بأعيانها . وهو يردد ما في كتب الأدب العامـة كالكامل والشعر والشعراء والأمالي وغيرها . وكان يشير أحياناً الى بعض الأمثال مثل (لكل جواد كبوة) [1] و (إن الشقي وارد البرّاجم [2]) وقولهم (لا لعالك)[3] وينص على الرجوع إلى كتاب أبي عبيد البكري في شرح أمثال ابن سلام . وهي أمثال قليلة استدعاها الشرح لبعض إشارات ابن دريد ، كما انـه ، كان يورد بعض أشعار المحدثين للإستئنـاس أو التلميح دون تسميته ، اكتفاء بقوله . (ولبعض المحدثين) أو ما شابه هذه العبارة .

١) ١١٥/و ٢) ٤٤/ط ٣) ٢٧/ط

الشروح الذوقيّة الجماليّة

شرح مشكل ابيات المتنبي
لابن سيدة

هو أبو الحسن علي بن أحمد (١) بن سِيدَه ، اللغوي النحوي من مشاهير علماء الأندلس، قال فيه الحُميدي في جذوة المقتبس « إمام في اللغة وفي العربية، حافظ لهما ، على أنه كان ضريراً . وقـــد جمع في ذلك جموعاً وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرف (٢) » ولد سنة ٣٩٨ بمُرسية وهي قاعدة كورة تدمير (٣)، ومنها ذاعت شهرته وبَعُدَ صيته بالعلم واللغة والشعر ، وفي هذا يقول ابن سعيد نقلاً عن المسهب « لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تواليف ، تفخر مرسية به أعظم فخر ، طرزت به برد الدهر ، وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم (٤) » تلقى أبو الحسن علومه عن كثيرين، منهم والده

(*) انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي ٢٩٣ – ٢٩٤ . والصلة لابن بشكوال ٤١٧ – ٤١٨ وبغية الملتمس للضبي ٥ ٤ ومطمح الأنفس لابن خاقان ٦٠ وفهرسة ابن خير ٣٥٦ – ٣٥٧ وطبقات الأمم لصاعد الأندلسي ١١٩ – ١٢٠ . والمغرب لابن سعيد ٢ ٢٥٩ ومعجم الأدباء لياقوت (ط مصر) ١٢ ٢٣١ – ٢٣٥ . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ٣ ١٧ – ١٨ وإنباه الرواة للقفطي ٢ ، ٢٢٥ – ٢٢٧ والديباج المذهب ٢٠٤ – ٢٠٥ وبغية الوعاة للسيوطي ٢ ١٤٣ ونفح الطيب ٣ ٣٥١ وسير أعلام النبلاء ١١ ٢ الورقة ١٧٨ (مصورة بدار الكتب رقم ح ١٢١٩٥)

وانظر Brock G 1 308 S 1 542

١) اختلف في اسم أبيه بين أحمد كما في الجذوة واسماعيل كما في الصلة ، وظهر الاختلاف أيضاً في فهرسة ابن خير وطبقات الأمم والمغرب وأثبت الاسم كما في أقدم نص وأقربه للمترجم به ، والحميدي معاصر لابن سيده وأدرك وفاته والأمر محتاجة الى مزيد تدقيق

٢) ص ٢٩٣ ٣) الروض المعطار للحميري ١٨١ ٤) المغرب ٢ ٢٥٩

اسماعيل بن سيده [1] . وفي ترجمته أنه لقِيَ أبا بكر الزبيدي وأخذ عنه مختصر العين ، وأنه كان من النحاة ومن أهل المعرفة والذكاء [2] . ومنهم أبو عمر الطلمنكي ، وصاعد اللغوي البغدادي . وفي فهرسة ابن خير أن [3] « أبا سليمان بن أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أخذ عن ابن سيده كتاب مختصر العين للزبيدي ، وقد كان ضريراً ، وكان أبوه كذلك ، وعُرِف بحافظة شديدة وعلم غزير ، ومعظم الذين ترجموا له ينقلون حكاية غريبة ، قال ابن بشكوال . وذكر الوقشي عن أبي عمر الطلمنكي قال . دخلت مرسية فتشبّث بي أهلُها ليسمعوا عليّ الغريب المصنف فقلت لهم . انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي ، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده فقرأه علي من أوله إلى آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى ابن أعمى [4] .

وقد اشتهر ابن سيده بأنه نحوي لغوي ، وقد ألف كتابين كبيرين في اللغة هما : المُخَصص ، والمُحكم ، وجمع فيهما علماً غزيراً . ولعل حافظته الواعية كانت تغلب عليه ، فيملي صفحات من كتب غيره ضمن كتبه . قال محقق كتاب الخصائص « على أنه أُتيح لابن جني لغوي كبير أغار على فوائده وبحوثه اللغوية ، وذلك هو ابن سيده علي ابن أحمد المتوفى سنة ٤٥٨ ، وهو كثيراً ما يغفل العزو إليه في كتابه المحكم [5]. ويأتي صاحب اللسان فينقل ما عند ابن سيده ، وينسبه إليه وهو لابن جني .. [6] ثم قال وترى في المخصص [7] من آخر صفحة ٣ إلى آخر صفحة ٧ من الجزء الأول بحثاً في اللغة .. وهذا في الخصائص ج ١ صفحة . ٤٠- ٤٧ .. [8]. ولم يكن المؤلفون والمصنفون الأوائل يهتمون كثيراً لعزو نصوصهم وإسناد شواهدهم ، وهذا من الأمثلة على ذلك .

وعُرِف ابن سيده أيضاً بعنايته بالمنطق وفي هذا يقول القاضي صاعد

١) ترجم له في الصلة ١ ٤٠١ وانباه الرواة ١ ١٩٩ تحت اسم اسماعيل .
٢) الصلة ١ ١٠٤ وقال انه توفي بعد الأربع مئه .
٣) فهرسة ابن خير ٣٥٠ ٤) الصلة ٢ ٤١٧ - ٤١٨ ،
٥) فهرسة ابن خير ٣٥٦ ٦) الخصائص لابن جني - ط دار الكتب المصرية ١٠٩٢
٧) فهرسة ابن خير ٣٥٦ . ٨) الخصائص ١ ٣١ .

الأندلسي .. عُني بعلوم المنطق عناية طويلة وألف تأليفاً كبيراً مبسوطاً ذهب فيه إلى مذهب متّى بن يونس ، وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار ...وختم ترجمته بقوله : .. فهؤلاء – ابن سيده وجماعة ذكرهم – مشاهير أهل البُرهان من علماء الاندلس [1] . ونقل ياقوت في معجم الأدباء أن ابن سيده كان مع إتقانه لعلم العربية ، متوفراً على علوم الحكمة ، وألف فيها تأليفات كبرى . ونرى في شرحه على مشكل المتنبي صدى تأثره بعلم المنطق . وشارك أيضاً في الشعر ، وقال الحميدي فيه . وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرف [2] وكثر في ترجمته نقلهم أبياتاً من قصيدة رفعها إلى إقبال الدولة العامري صاحب دانية معتذراً ، مطلعها

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليُمنى سَبيلٌ فإنّ الأمن في ذاك واليُمنا
ضحيت فهل في بُرد بومك نومة لذي كبد حَرّى وذي مقلة وَسْنا
ونِضو هموم طَلّحته طِباتــه فلا غارباً أبقين منه ولا متنا [3] .

ونقل صاحب المغرب من شعره

لا تضجرن بما سواك مؤَمَّلُ ولديك يَحسن للكرام تذللُ
وإذا السحاب أتت بوابل درها فمن الذي في الريّ عنها يَسأل
أنت الذي عوّدتنا طلب المنى لا زلت تَعلم في العلى ما يُجهل

ويبدو أنه ادمق كثيراً من شعره في الأماديح . وشعره – بما نرى من شواهد – لاحق بشعر أنصار مدرسة الشعر القديم الرصين ، وهو يصطنع له الغريب من اللغة ، والمألوف من المعاني العربية الشعرية

والمعروف عنه – فيما لدينا من أخباره – أنه كان في خدمة مجاهد العامري [4] صاحب دانية وقال الحميدي إنه كان منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري [5]. ويفسر لسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام في حديثه

١) طبقات الامم الصاعد ١١٩ – ١٢ ٢) الجذوة ٢٩٣ ٣) المصدر نفسه
٤) أعمال الاعلام لسان الدين بن الخطيب ٢١٧ – ٢٢٠
٥) الجذوة ٢٩٣ وحكم مجاهد العامري دانية من ٨ ٤ – ٤٣٦ وخاض في الفتنة فراد ملكه ونقص

عن دولة مجاهد العامري وعن الحركة الثقافية في ايامه فقال انه جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه وأتت إليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم ، كأبي عمرو المقرىء ، وابن عبد البر وابن معمر اللغوي ، وابن سيده ، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه [1] ... وحدثت بين ابن سيده وبين علي بن مجاهد (إقبال الدولة) نبوة ، بعد أن آل ملك أبيه إليه ، لا ندري سببها ولا زمنهـا ، والأبيات السابقة استعطاف من ابن سيده لإقبال الدولة ، يستعطفه ويستعتبه مما ندر منه ثم عادت الحال إلى سابقها من الصفاء بينهما وتوفي ابن سيده سنة ٤٥٨ [2] بدانية في ظل حكم إقبال الدولة الذي امتد إلى سنة ٤٦٨ حين أخذ ابن هود — جار إقبال الدولة وصهره — ما بيده واحتل دانية [3] .

مؤلفاته : ١) المحكم في اللغة ، ذكره ابن خير وقال . الكتاب المحكم والمحيط الأعظم ، مرتب على حروف المعجم في اللغة [4] طبعت بعض أجزائه ، ولا يزال قسمه الأعظم مخطوطاً . ٢) المخصص ، قال ابن خير الكتاب المخصص في اللغة أيضاً ، مرتب على الأبواب كالغريب المصنف [4] ٣) الأنيق في شرح الحماسة ، ذكره ابن خير [4] وابن بشكوال [5] وغيرهما ٤) شرح أبيات الجمل للزجاجي ، ذكره ابن خير [4] ٥) العويص في شرح إصلاح المنطق ، ذكره ابن خير [4]. وذكرت له كتب أخرى في اللغة والعروض . وغلبت صفة اللغوي النحوي عليه عند معظم الذين ترجموا له . ويبدو أن ابن سيدة كان معجبا بنفسه ومزهوّاً بما عنده ، فقد قال في مقدمة كتابه المحكم عن كتابه هذا « ولو كان لكتابي هذا نفس ناطقة ، ولسان مطلقة ، لأنشد قول أبي الطيب .

عصبُ الحسودِ إذا لقيتَكَ راضياً رزءٌ أخفُّ عليك من أن يوزنا » [6]

وقال في مكان آخر « إني أحد علم اللغة أقل بضائعي ، وأيسر صنائعي إذا إذا أضفته الى ما أنا به من علـم حقيق النحو ، وحـوشيّ العَروض ، وخفي

١) أعمال الاعلام - لسان الدين الخطيب ٢١٨ . ٢) وفيات الاعيان ٣ ١٨
٣) أعمال الاعلام ٢٢٢ ٤) فهرسة ابن خير ٥٦٣ ٥) الصلة ٢ ٤١٧ .
٦) المحكم والمحيط الاعظم لابن سيده - تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار - طبع مصطفى الحلبي ١ ٧

القافية ، وتصوير الأشكال المنطقية ، والنظر في سائر العلوم الجدلية . » [1]
وهذا الإعجاب بنفسه ، وإظهار التمكن من الجدل والمنطق ، والتمثل بقول أبي الطيب ، يفتح لنا باب الحديث .

كتابه . في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من كتاب شرح مشكل أبيات المتنبي لأبي الحسن علي بن سيده . واسم المؤلف كاملاً على كتابه « أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي المعروف بابن سيده » وهو يقع في ١٧٩ ورقة من القطع الصغير . وهو ، كما يبدو من عنوانه ، شرح لأبيات مختارة ، انتقاها الشارح نفسه – على الأغلب ، فليس ما يدل على أن أحداً معيناً سأله شرح تلك الأبيات أو بعضها – وعالجها من وجهة نظره ، وهي الأبيات التي اعتبرها (مشكلة) . وهذا « الإشكال نفسه موضع نظر ، أهو إشكال لدى معاصري الشارح ممن أخفقوا في توجيه معانيها واستكناه مراميها ، أم هو إشكال لدى فئة كانت تلازم اللغوي النحوي المنطيق الضرير ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون استعراضاً شخصياً لأبيات أحب الشارح أن يبين براعته في فهمها على نحو ما يشرح أهل عصره، وعلى نحو جديد استعمل فيه بضاعته من الفلسفة والمنطق واستخدم آلاتها ؟ ومهما يكن من أمر الجواب ، فإن الكتاب جدير بوقفة قصيرة ، نعرض لما فيه ، ونرى صورةً ما من صور ابن سيده ، وقد نقلنا رأيه الذاتي في نفسه باعتباره متفلسفاً منطقياً .

منهج الكتاب في بداية النسخة المعتمدة لدينا من الشرح [2] قال الناسخ ، ولعلها من إضافة أحد ملاك نسخة سابقة ، « وبعد فهذا شرح غريب موجز، وتعليق لطيف محرر ، للشيخ الإمام أبي الحسن . . » [3] وهذه نظرة سريعة صحيحة ، وإن كانت لا تصور كل شيء في هذا الشرح . ويبدو أن ابن سيدة أصاب سهمه الأول حين جعل من المتنبي قضيةً له،بعد أن كان صيته في الأندلس يطبق الآفاق . وهذا أمر سنعرض له فيما بعد ، ونبيّن مكانة المتنبي من الأدب

١) الحكم ١ ١٦
٢) شرح مشكل أبيات المتنبي ـ نسخة دار الكتب المصرية ٢ / ط
٣) في دار الكتب نسخة أخرى مصورة عن تونس رقم (١٨٨٧٧ ر) وثالثة نسخها نساخ حديث برقم (١٣٨٥٣ـ د)

الأندلسي ، والشعر خاصة . ومن ناحية أخرى فإن ابن سيدة طبق شيئاً من معلوماته المنطقية ، وأورد أشياء من آرائه في معاني المتنبي مخالفاً « بعض الشراح » و « بعض النقاد » وبهذه النواحي اصطبغ الشرح ، وتأثر .

لم يكن الأساس الذي اختار الشارح – بناء عليه – أبيات المتنبي المشكلة واحداً . فهو يقف عند أبيات متداخلة المعاني ، أو له عليها ملاحظات لغوية أو رأي بلاغي . ومعظم ما وقف عنده أبيات فيها إشارات فلسفية أو منطقية ، أو أن الشارح وجّه معانيها توجيهات منطقية . احتملت ذلك أم لم تحتمل . واحتوى كتابه على ملاحظات نقدية وبلاغية أخرى مبثوثة في ثنايا الكلام. والشارح يورد الأبيات مفردة ويعالج كل بيت على حدة ، دون مراعاة لترتيب الأبيات على أبواب المشكل الذي بنى عليه كتابه ، فإن وُجدت في القصيدة أبيات ، سردها كنظامها فيها . والكتاب – بهذا – يخرج شيئاً كثيراً عن كتب الشروح التي أسلفنا عرض بعضها، ذلك أنه لم يلتزم شرح الديوان كاملاً، ولا شرح جزء منه وإنما هو وقفات ذوقية شخصية عند أبيات اختارها الشارح . وهو بذلك نموذج فريد في منهجه وإن كان ابن السّيد سيحتذي صنيعه من حيث المبدأ ، دون أن يكون في كتابه هذا الإلحاح الغريب على المنطق ، والتوجيه به . ولنبدأ بمثال ، فنلاحظ طريقته ، ونشرح بعدُ ما يقع منه . قال المتنبي . [1] .

« ياليت لي ضربة أُتيحَ لها كما أُتيحت له محمّدُها

معنى إتاحة الضربة له حلولها به. ومعنى إتاحة محمد لها سوقها عنه ، واحتماله لها وتأثيره فيها برغمه . وكذلك كل حال ، وذي حال كل واحد منها متاح لصاحبه . وأراد أتيح لها محمدها كما أتيحت هي له ، وأتيح : قُدّر . ويجوز أن يكون أراد الضربة دُمت حين وقعت به لأنها لم تكن له بحق ، فكأن ذلك الدم تأثير فيها . وكذلك السيف ضرب غير مستحق فذاك الدم تأثير فيه . وكل ذلك مجاز واتساع . أي قُدر محمد للضربة كما قُدرت له . فكان هو المؤثر فيها . ألا ترى الى قوله بعد

فيها وفي الحَديد وما أثـّر في وَجهه مهنّدُها

1) شرح المشكل . ٤ ط ـ ٥ و .

أثر في الشيء . غادر فيه أثراً . ولا يكون التأثير إلا في الجواهر كقولك أثّـر المطر في الحائط ، والخُف في الأرض . وأثر المرضُ في جسمه . ولا يكون ذلك في العَرَض . وقد اقتسم قوله (أثر فيها وفي الحديد.)جوهراً وعـَرضاً. أما الجوهر فالحديد ، فالتأثير فيه سائغ. وأما الهاء في قوله . فيها، فعـَرَض لأنها كناية عن الضربة التي في قوله . (يا ليت لي ضربة أتيح لها) وإنما لم يصح التأثير في العرض لأن التأثير إبقاء للأثر.والأثر عين. والعَين لا يكون أثره إلا في عين مثله. أعني بالعين الجوهر إذ لا يحمل الجـوهر إلا جوهر . وأما العَرض فليس بعين ، فيكون حاملاً لعين آخر فإذاً قوله : أثر فيها استعارة ومجـاز غريب كأنه توهم الضربة عيناً ، بل هو عندي أبلغ لأنه إذا أمكنه التأثير في العَرض كان له في الجـوهر أمكن ، لكنه مـع ذلـك قـول شعري* أعـــني ليس بحقيقـة . وقوله (ومـا أثر في وجهه مهندهـا) المهنـد : السيف . وهـو عندي من من قوله هَنَّدته النساء أي تَيَّمته والمتيَّم نحيل ، فكذلك السيف . ولم ينف تأثير المهند في وجهه نفياً كلياً،وكيف ذلك وقد أثبت الضربة وهي التأثير؟. وإنما أراد أن المهند لم يؤثر في وجهه أثراً قبيحاً لأن وقوع الضربة على الوجه تزين ولا تشين لدلالتها على الشجاعة والإقدام كما أن التأثير في الظهر دليل على الجـبن والفرار ، كقوله .

فلسنا على الأعقاب تَـدمى كلومـُنا ولكنْ على أعقابنا تقطـُر الدّما

ويروي يقطر الدما جعل الدما اسماً مقصوراً كفتى . . فهذا شيء عرَض، ثم نعـاود الغرض . فكأن المهـنّد لما وقـع على وجهه – فـكان ذلك إشعاراً بالإقدام – لم يؤثر فيه البتة فلذلك نفى التأثير في اللفظ نفياً عاماً ونحوه ما حكاه سيبويه من قولهم تكلمت ولم تكلم أي أنك لما لم تـُجد ولا أصبت كنت بمنزلة من لم يتكلم ، وإن كنت قد تكلمت »

ويرى القارىء سريعاً كيف تقلب الشارح في بيتي المتنبي بـين الشرح اللغوي الخفيف وشرح المعنى ، وملاحظة بعض وجوه البيان ، ومعالجة جزء من المعنى معالجة منطقية ، استخدم فيها العَرض والجَوهر . وخرّج تأثير الجوهر بالعرض على أنه استعارة ، لأنه لا يصح تأثيرُ الجوهر في العرض إلا على المجاز والإتساع

الفلسفة في شعر المتنبي . شغلت حِكم المتنبي الدارسين قديماً وحديثاً . فمنهم من عاد بعدد كبير منها -مثل الحاتمي - إلى فلسفة أرسطو ومنهم من جرّده من التأثر به البتة مثل أحمد أمين [1] ويقول د. محمد مندور بعد عرض طويل لما سلف من آراء النقاد . في الحق إننا بمراجعة حِكَم أرسطو وأبيات المتنبي نرى ردّ بعضها إذ اتضح أن معنى الحكمة ومعنى البيت أو البيتين مختلفان ، حتى لتلوح المقارنة بينهما تعسفية ، وكذلك الأمر في بعض الأبيات الأخرى التي نرى أن معانيها قريبة وصياغتها عربية عادية ، فهي وإن اتفقت مع جملة أرسطو في المعنى إلا أن ذلك قد يكون وليد المصادفة البحت . . وأما ما دون ذلك فإننا لا نستبعد أصلا أن يكون المتني قد تأثر فيه بأرسطو ، وبخاصة عندما تشهد الصياغة بذلك ، ويكون البيت تعبيراً عن فكرة نظرية فلسفية ... » [2] وهو لا يرد ذلك إلى السرقة ، ولكن الى (الاستيحاء) فهو لا يصوغ حكمة ما لأرسطو شعراً ، ولكنه قد يستوحي فكرة ما على وجه من وجوه التأثر .

والشارح لم يتابع كل حكم المتنبي ليعارضها بحكم أرسطو أو غيره من الفلاسفة ولكنه أشار مرات إلى ما سماه (رأي الفلاسفة) ، من ذلك مناقشته بيت أبي الطيب

« أحادٌ أم سُداس في أحادٍ لُيَيْلتنا المنوطة بالتنادي [3]

ليلتنا صغّرها تصغير التعظيم ، ووجه تصغير التعظيم أن الشيء قد يعظم في نفوسهم حتى ينتهي إلى الغاية ، فإذا انتهاها عُكس إلى ضده لعدم الزيادة في تلك الغاية وهذا مشهور من رأي القدماء الفلاسفة الحكماء أن الشيء إذا انتهى انعكس الى ضده — ولذلك جعل سيبويه الفعل الذي لا يتعدي الى مفعولين ، وهي نهاية التعدي ، بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى مفعولين ، قال . لأنه لما انتهى فلم يتعد صار بمنزلة ما لا يتعدى ، وهذا منه ظريف جداً » .

وعالج الشارح بيت المتنبي

ولجُدتَ حتّى كدت تبخل حائلاً للمنتهى ، ومن السرور بكاء !

1) عرض الدكتور محمد مندور لمشكلة المتنبي وما دار حوله من نقد في (النقد المنهجي عند العرب) . نشر مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٤٨ - انظر ١٩٣ - ٢٠٨ .
2) النقد المنهجي . ٢٠٥ .
3) شرح المشكل . ٢٨ / و .

فقال « . . . إن شئت قلت : بلغ حودك الغاية ، ومعروف أن الشيء إذا انتهى انعكس ضداً ، فكذلك حودك لما انتهى فلم يك مريـد كاد أن يستحيل بخلا ... » [١] . وعالج الشطر الثـاني بالأسلوب نفسه . « وهذا معنى فلسفي وما نظن أن المتنبي كان يستطيع أن يصل إليه لو أنه لم يكن مثقفاً تثقيفاً فلسفياً ، فهو يعتمد على قـول الفـلاسفة اذا زاد الشيء من حده انقلب الى ضده . . » [٢] . هذا حـال الشاعر ، والشارح أشد تصريحـاً بتعلقه بالفلسفة والمنطق ، فقد قال انه ينقل عن الفارابي في باب البرهان [٣] . والدكتور مندور يقول في المتنبي . « من الثابت أن الفارابي قد أوى الى كنف أمير حلب سيف الدولة وعاش في بلاطه ، ولاشك أن المتنبي قد تأثر بما نشر المعلم الثاني في تلك البيئة من مبادىء الفلسفة » [٤] .

والشارح يرى أن الإتيان بمثل هذا حسَن في الشّعر ، ويعبر عن الطباق أو المقابلة بعبارة أقرب الى المنطق ، وينتقد معنى المتنبي على هذا الأساس ، قـال في شرح بيت المتنبي .

« وتُحيي له المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما تحي التبَسّمُ والجَدى

« . . ولو قال يميت مكان يقتل لكان أشد مقابلة للحياة لأن القتل ليس بضد الحياة ، إنما هو علة ضد الحياة في بعض الأوقـات ، ونقيض الحياة إنما هو الموت ، ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصنعة » [٥] . فهـو لم يكتف بكلمة يقتل ، لأن « الصناعة » تقتضي أن تكون المضادة تامة وشرح قوله

ولقد علمنا أننا سنطيعه لما علمنا أنّـنا لا نخلُد

« أي علمنا أننـا في طاعة الفراق والانقياد له ليقيننا بالموت الذي هو أشد أنواع الفراق . ومن طريف هذا البيت إيجابه لطاعة الجنس ، وجعله علـة ذلك إطاعة النوع الضروري ، لأن النوع قابل لاسم الجنس وهذا منه تفلسف منطقي بديع [٦] » . و

أسَفي على أسفي الذي دَلّهتني عن علمه فيه عليّ خفاءُ

١) شرح المشكل ٤ / ظ ٢) النقد المنهجي ١٩٨ ٣) شرح المشكل ٣٧ /ظ
٤) النقد المنهجي ٤ ٢ ٥) شرح المشكل ١١٦/و ٦) شرح المشكل ٧٣ / و

« ليس يأسف في الحقيقة على الأسف إنما يأسف على تمييزه الذي كان يعقل به أسفه ، فحقيقة الكلام أسفي على عقلي الذي كنت أحصّل به أسفي فيه عليّ جفاء . أي أنك قد دلهتني حتى ما أشعر بأسفي وقد كان يسعي له أيضاً أن يذهب عليه لو كان مدلهاً أسفه على هذا الأسف الى ما لا نهاية له ! لكن هذا مقطع شعري فلا تتقصيّن بالمنطق فيفسد !! »[1] وبعد أن وضعنا في الحلقة المفرغة أشار علينا بعدم متابعة المنطق واستقصائه لئلا يفسد المعنى الشعري ، ولقد يريد الخشية على المنطق !.

هذه معان وشّاها الشارح بتوجيهات فلسفية منطقية ، استخرج بعضها من معان فلسفية كشرحه قوله « ومن السرور بكاء » ، وطبق منهجه في توجيه المعنى توجيهاً منطقياً ولقد يظن القارىء أن هذا شيء عارض ، فاذا قلبنا صفحات الكتاب لاحظنا أنه (مكتظ) بهذا ، ان عرض معاني المتنبي على ميزان الشارح المنطقي الفلسفي – فيما اختاره من أبيات – هو منهج التزمه كثيراً وصار غالباً على الكتاب . وقد يشرح المعنى شرحاً معنوياً ولغوياً ، أي شرحاً يتأدّى من فهم مدلولات الألفاظ ، ومعطيات المعاني فحسب ، ثم يتبعه بشرح يفسّد فيه منهجه ويُحكم طريقته ، ويفصل بين الشرحين بعبارة « وإن شئت قلت . » أو ما هو قريب من ذلك . وقد يكون الشرحان مما يناسب منهجه ، ويجاري قياسه .

وهذا مثال من النوع الأول . شرح قوله

تُشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شِيَم

« لا شيء أصفى ولا أبسطَ من النُّور . فلذلك توصف الجواهر الصافية به ، وأولى شيء بذلك الأمور النفسانية لأنها أذهبُ في النقاء . والشيمة نفسانية ، والوجه جسماني . والعَرض يمكن أن يكون الجسم ، فلم يخلص الى النفسانية كخلوص الشيمة فشبه أبو الطيب الأعراض والأوجه بالشيم في الشروق والصفاء ، وتناهي النقاء . وإن شئت قلت وضع هذا الكلام على أنه قد علم أن شِيمَه مشرقة عِلماً عاماً وقدم ذلك لمرتبة الشيمة – وهي الطبيعة – على الوجه

١) شرح المشكل ٣٧ / ط .

والعرض . فحمل الوحه والعرض بعد ذلك عليها بسببها . والأوحه ما قدمناه من أن الشيمة بعسانية ، فهي أملك بالصفاء والوحه والعرض جسمانيان فحملها عليها » [١] . فهو يفصل الشرح الذي اصطبغ مصطلحات المنطق والفلسفة على شرحه الآخر الذي اقتصد فيه من تلك المصطلحات، واكتفى فيه بعرض المعنى كما يتأدى من لفظه وإيحائه . وهذا شرح آخر لقوله .

ونقايا وقاره عافت النا س فصارت ركانة في الجمال [٢]

« كأنه استبد بالوقار أجمع إلا أنه بقيت منه بقية ، فتلك البقية عافت نوع الانسان لِما رأته به من قلة الاحتمال لهـــا ، والعجز عن الاستقلال بها لضعف نفسه ووهي قوته . فعدلت إلى أجسم الجواهر الأرضية وهي الجبال إذ لم تجد جوهراً يستقل بها إلا إياها . وإن شئت قلت : ان لوقاره هيولى خلق منها ما فَصل من تلك الهيولي يكون ركانة في الجبال [٣] » .

وتحدث عن بُعد الحبيب باعتباره « مسافة نفسانية » [٤] وأن الحد معدود في الفضائل النفسية ، والتواني يعد في الشقاوة لكونه في الرذائل التي يبعث عليها العجز . ». وأكثر من تحكيم لفظَي الجَوهر والعَرَض ، ولعـــل ابن سيده توسم ألاّ يتقبـل مُعاصِره كلامه بقبول حسن ، أو أن يكون بعيداً عما ألفوا فقال بعد شرح إحدى مسائله « ولو وثقنا بفهم بـــي الزمان لعَنينا عن إطــالة البيان » [٥] ، وهذه دعوى عريضة إلا أن يكون أضمر ما بطنه من تَـوقّـع استغرابهم

مآخذ على المتنبي : لابن سيده جملة ملاحظات على أبيات كثيرة ، يرتـد بعضها الى استعمالات لغويــة ، ويرتد بعضها الآخر الى المعنى نفسه ، أو أشياء أخرى . من ذلك ملاحظته على استعمال لو وإذا ، قال المتنبي :

١) شرح المشكل ٩٢ / و .
٢) البيت من قصيدة في مدح عبد الرحمن بن المبارك الانطاكي وقبله(ص ١١٣ ط عزام)

« رحل طينه من العنبر الورد وطين العبـــاد من صلصال
فبقيات طينـه لاقت الماء فصارت عذوبة في الزلال »

٣) شرح المشكل ٣٧/و ٤) شرح المشكل ٤٤/ ظ ٥) شرح المشكل ١٨ /ظ

« نظمت مواهبُه عليه تمائماً فاعتادها فإذا سقطن تفزّعا

. . . ولو قال (فلو سقطن تفزعا) لكان أشبه بالمعنى لأن قوله (فإذا) يشعر بسقوطهن في بعض الأوقات ، لكن سقوطها إنما يكون لعدم مال أو انقطاع سؤال . فهذا توجيه قوله : فإذا سقطن » [1] . واعترض عليه لعطف النكرة على المعرفة في قوله :

أذا الغصن أم ذا الدِّعْصُ أم أنت فتنة وذيّا الذي قبّلته البرق أم ثغر

وقال « . كان أصنع أن يقول . برق ، لمكان ثغر ، لأنهما نكرتان » [2] .

واعترض على المتنبي لغلوه الشديد في قوله .

ولو برز الزمان إليَّ شخصاً لأدمى شعرَ مفرقه حُسامي

فقال « . فتمناه هو شخصاً ليوقع به ، علواً منه وعلواً ، وعليه دائرة السوء » [3] . وزاد اعتراضه على بيته في مدح بدر .

طلبنا رضاه بترك الرّضا رضينا له فتركنا السُّجودا

فقال « قبحاً لكلامه ، وسَهْراً في هذا الموضع وأشباهه لنظامه [4] » ، وهذه صورة دينية واضحة .

وعلق على (غربة اليد) في قوله [5] .

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

« . وأما غربة اليد فقيل إنه عنى بها الخط ، ولا يعجبني ، إنما عنى بها الجود ، والجود للعرب » . وانتقد المتنبي لمماطلته وسوء تأليفه الكلام في قوله :

أبى يكون أبا البريّة آدمٌ وأبوك والثقلان أنتَ محمدُ

هذا تخلّل من القول وسفه . . وهذا من قبيح الضعف وطريف السخف [6] . وانتقده لأنه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية في قوله « وأبوك — والثقلان أنت — محمد » . وانتقده لمبالغته الشديدة في قوله .

يقولون تأثيرُ الكواكب في الورى فما باله تأثيرُه في الكواكب

.. ويذهب إلى تكذيب المنجمين ، فيقع فيما هو أوحش وأفحش من

١) شرح المشكل ٣٣ / و . ٢) الورقة ٢٢ / ظ . ٣) الورقة ٢١ / و
٤) الورقة ٤٣ / و . ٥) الورقة ١٨٢ / و ٦) الورقة ٢٠ / ظ .

قولهم ، وهو قوله . إن هذا الممدوح أثر في النجوم بفصله عليها ... [1] وهو لا يحبّذ المبالغة الشديدة التي تجاوز حدّ الاعتدال ، وخاصة ما يمس العقيدة من وجه ، كما سبق ، ومن ذلك شرح بيته :

يريك من خلقه غرائبه في مجده كيف تُخلق النسم

فانه دفع أن تكون (خلق) ههنا بمعنى الابتداع – الخلق من عدم – وقال « وإنما الخلق هنا كناية عن الصنع ، وكنّى عنه بلفظ الخلق ذهاباً إلى ابتداع هذه الغرائب . وهذا أمر شديد المبالغة [2] » .

مناقشات : ولا نعدم إشارات إلى شراح للمتنبي يذكر بعضهم كابن جني ، ويُغفل آخرين ، وهو يناقشهم في بعض شرحهم ويخرج تخريجات خاصة تتفق ومنهجه أو تغاير في فهم المعنى . وشرح قوله .

تشقكم بفتاها كل سَلْهَبَة والضرب يأخذ منكم فوق ما يَدَع

« بفتاها أي بفارسها . ذهب في لفظ الفتى الرفع من شأن الفارس كقولهم ، أنت الفتى كل الفتى ، لا يذهب الى فتاء السن ولكنه كقوله أنت الرجل ا تمدحه بالصبر والثبات والنجدة ، لا تعني به الرجولة التي هي الذكورية . و (الضرب يأخذ منكم فوق ما يدع) ذهب قوم الى أنه عنى أن القتلى أكثر من الناجين ، وهو لعمري قُوَيل ، والذي عندي أنه لم يَعْنِ بذلك الكَمّ . وانما عنى أن الضرب يأخذ النفوس ويدع الأبدان والنفس فوق الجسم في لطف الجوهر وشرف العنصر . فهذا معنى قوله . فوق ما يدع ، لا الكمية التي ذهب إليها أولاً [1] » ا والمعنى الذي رجّحه بل ارتضاه الشارح معنى طارىء وسياق الأبيات (من قصيدة يمدح بها سيف الدولة) لا يؤدي إلى ترجيح ما ذهب اليه

وفي قول المتنبي .

فقد غيب الشهاد عن كل موطن ورد الى أوطانه كل غائب

قال بعض النقاد ، وهذا كقول أبي نواس

واذا المَطيُّ بنا بلغنَ محمداً فظهورهنّ على الرحال حرامُ

١) الورقة ٧ / و . ٢) الورقة ٣٢ / و ٣) شرح المشكل ٨٤ و - ط

وليس عندي مثله ، لأن المتنبي قال أعمى هذا الممدوح قُصّادَه وردهم إلى أوطانهم كمكام السمر . وأبو نواس قال : إذا بلغت المطي بنا هذا الأمير حرمت ظهورها على الرحال أي لم تركبها أبداً ولا امتهناها جزاء على تبليغها إيانا أملنا من لقائه . ولم يذكر عطاء ولا كفاية سفر ..(٢)» . ورد تشبيه النقاد قول أبي الطيب .

تمشّه في دوي الأسنةِ لا عيـ ـنها وأطرافُها له كالنّطاق

بقول أبي تمام

إن الأسود أسودَ الغاب هِمّتُها يوم الكريهة في المسلوب لا السّلبِ

وليس مثله .(١)» وذكر الفروق بين البيتين . وهو يعقـد أحياناً مقارنات سريعة بين بيت للمتنبي وآخر لشاعر آخر . قال المتنبي في صفة أيّل ·

★ يحول بين الطرف والتأمل ★

كقول البحتري يصف فرساً :

جارى الجياد فطار عن أوهامها سَبْقاً ، وكاد يطيرُ عن أوهامه

وهذا أبلغ من قول المتنبي لأن سَبْق الوهم أول على السرعة من سبق الطرف مع لفظ الطيران ، والطيران أبلغ في السرعة ، ولذلك شبهت العرب خيلهـا بالطير (٢) . . » وهو في موضع آخر يُشعر بتفضيله بيتاً للمتنبي لأنه أغرب(٣) وهو أحياناً يشير الى ما يشبه السرقات ، وجعل قول المتنبي .

إذا امتلأت عيونُ الخَيل مني فويلٌ للتّيقظ والمنـام

كقوله

ترى في النوم رمحك في كلاه ويخشى أن يراهُ في الظلام

ثم قال مادة كل ذلك قول الشاعر

وعلى عدوك يا ابن عم محمـد رَصَدان ضَوء الشمس والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا هدى سلّت عليه سيوفك الأحلامُ(٤)

وعلق على قول المتنبي يصف بحيرة

١) الورقة ٧١ / و ٢) الورقة ٧٥ / و . ٣) الورقة ٤٠ / ظ .
٤) الورقه ٧٠ / ظ . ٥) الورقة ٢١ / و

ناعمة الجسم لا عظامَ لهـا لها بناتٌ وما لهـا رَحِمُ

وقد ألم المتنبي في هذا بقول ابن الرومي يستهدي سمكاً :

ونبات دِجلة في فنائلكم مأسورةٌ في كل معترك

إلا أن المتنبي زاد بقوله « وما لها رحم »[1] . وهو يفصل أن يحتوي البيت الواحد أكثر من معنى وأكثر من صورة ، كما سبق . ومثل آخر ، فقد علق على قول المتنبي :

«فكثير من الشجاع التوقّي وكثير من البليـغ الكلام

. . وهذا في أسلوب قول الشاعر .

يُغضي حَياءً ويُغضَى من مهابته فما يُكلَّم إلا حين يبتسمُ

ولأبي الطيب فضل ذكر الشجاعة والبلاغة في بيت واحد ، وإفراد كل واحد من الفضيلتين بمصراع[2]» .

إشارات بلاغية . في الكتاب ذكر عـــدد قليل من مصطلحات البلاغة . وأكثر ما تكون اشارته إلى (الاستعارة) وقد مر مثال منها في أول النقول ، وأشار إلى الكتابة ، والغلو وهو يقرنه مع الافراط كتعليقه على بيت المتنبي .

أحيا ، وأيسرُ ما لاقيت ما قتلا والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلا

إذ شرح المعنى واحتمالاته، ثم قال : وقد يكون أحيا اسماً يدل على المواصلة أي أثبت ما قاسيته بحياتي ما قتل . وهذا غُلو وافراط ، لأنه اذا كان ما قتله أثبت شيء لحياته لم يبق له ما يوجب الموت[3] . وذكر المبالغة[4] ، وأكثر من الحديث عن التضـاد دون ذكر الطباق بالاسم.

مصادره ذكر المؤلف عدداً من الاسماء بأعيانها وأحال على مجهولين كثيرين. من الاعلام . سيبويه ، والفارسي والفارابي ، وابن جني- في شرحه على المتنبي-

١) الورقة ٣٣ / ظ ٢) الورقة ٨٩ / ظ ٣) الورقة ٧ / و

٤) انظر مثلاً ٢ / ظ ، ٥ / ظ ، ٣١ / و .

وأبو زيد الانصاري . وأورد رأي (بعض الفلاسفة) فيما يراه النائم ، وناقض « بعض النقاد » ، و « بعض مصري » شعر المتنبي . ولا شك في أن تحقيق الكتاب تحقيقاً متأنياً يكشف عن خبايا مصادر أخرى اعتمد عليها الشارح أو ناحَرها المعارضة والعِداء .

هـــذا كتاب فريد في بابه في كتب الشروح الاندلسية . فقد ملأه بالملاحظات النقدية والموازنات والمقارنات وحكّم منهجه المنطقي في توجيه أبيات كثيرة ، واستخدم بعض معطيات الفلسفة . ولو أنه شرح ديوان المتنبي كله على هـــذا الطرحنا منهج كامل ، وبِدع جديد . والكتاب على حاله شيء جديد طريف يسهم في إيضاح الحركة الادبية والنقدية في الاندلس .



شرح ابن السيد البطليوسي

على سقط الزند للمعري

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السّيد ، أصله من مدينة شِلب ، ولد ونشأ في بطَلْيوس ، وبها نبغ واشتهر ، وعرف لذلك بابن السّيد البطليوسي . وهو من كبار علماء الأندلس ومشهوري أعلامها توزعت اهتماماتُه بين علوم العربية وآدابها ، وبين الفقه والعلوم الإسلامية ، إلى اهتمامات أُخرى بالفلسفة وعلم الكلام .

ولد ابن السيد في بطليوس سنة ٤٤٤ وتلقى فيها علومه وثقافته ، ولازمها مدة إلى أن نبغ وظهر ولا نستطيع تحديد هذه الفترة بالضبط ، ولكنها فترة طويلة نسبياً ، ولا بد أن يكون الرجل استوى فيها على قدم راسخة . وقد عرف له معاصروه من أصحاب الدويلات المتناثرة — دول الطوائف — مكانته وعلموا بصاعته . وفي هذا يقول معاصره ابن خاقان : «والحدم الرياسات ، وعلم

(*) ترجمته في قلائد العقيان (مصر ١٢٨٤ هـ) ١٩٢ — ٢٠٠ ، والصلة لابن بشكوال ١ ٢٩٢ — ٢٩٣ والمطرب لابن دحية (مصر ١٩٥٤) ٢٢٥ — ٢٢٦ وبغية الملتمس للضبي ٣٢٤ (الترجمة رقم ٨٩٢)، والمغرب لابن سعيد ٢ ٣٨٥— ٣٨٦ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (مصر ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م.) ٢ ٢٨٢ — ٢٨٤ ، وبغية الوعاة للسيوطي (مصر ١٩٦٥) ، ٥٥ — ٥٦ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ ١٩٨ (وينقل عن ابن خلكان) ، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض المقري ٣ ١٠١ — ١٥١ ، تاريخ الفكر الأندلسي - بالنثيا - ترجمة د حسين مونس ، ٣٣٤ — ٣٣٥ ونفح الطيب ٢ ١٦٧ — ١٧٣ وهو ينقل عن ابن خاقان ، والذخيرة

وانظر Brock , 1 , 547 S 1, 758

طرق السياسات ، ويفتق وكسد ، ووقف وتوسد (1)». وقد خدم في دولة عبد الملك بن رزين صاحب السهلة الذي امتد حكمه ما بين ٤٣٦ و ٤٩٦ (2). وقال ابن خاقان في هذا : وكان له في دولة ابن رزين مجال ممتد ومكان معتمد . وفسر هذا الكلام بالنثيا في تاريخه بأنه كان كاتباً لعبد الملك بن رزين صاحب السهلة(3). «وكان عند وصوله الى ابن رزين قد رفعه أرفع محل ، وأنزله منزلة أهل العقد والحل ، وأطلعه في سمائه وأقطعه ما شاء من نعمائه وأورده أصفى مناهل مائه ، واحضره مع خواص ندمائه ، وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان .. لولا سطواته الباطشة ونكاته البارية لسهام الرزء الرائشة (4)». ومدح ابن السيد عبد الملك بن رزين بقصائد أثبت بعضها ابن خاقان في كتابه عنه . ولكن ابن السيد غادر ابن رزين « فرار السرور من نفس الحزين (5) » ، وما ندري أذلك لطباع ابن رزين الصعبة أم لخلاف آخر ، وقد وصف ابن الأبار عبد الملك هذا بأنه كان مع شرفه وأدبه متعسفاً على الشعراء ومتعسراً بعطاياهم من ميسور العطاء (6) . ولا نعلم بالتحديد زمن مغادرته ابن رزين . ولكنه توجه إلى المستعين أحمد بن هود صاحب سرقسطة « فلم يخف على المستعين احتلاله ، ولم تخف لديه خلاله ، فذكره مُعلِماً به ومعرّفاً ، وأحضره منوهاً له ومشرفاً (7) ». وقال ابن السيد في ذلك شعراً مدح به المستعين وعرّض بابن رزين ، ومن قصيدة له في هذا المعنى :

أباحت بنا في أرض شنتبرية هواجسُ ظنٍّ خَوْنُ والظنّ خوّانُ (8)
وشمنا بروقاً للمواعيد أتبعت بواطرنا دهراً ، ولم يهم هتّانُ
فسرنا وما نلوي على متعذّر إذا وطنٌ أقصاك آوتك أوطانُ
... الى مستعين بالإله مؤيدٍ له النصر حرب والمقادير أعوانُ (9)

١) أزهار الرياض ٣ ١٠٦ ٢) معجم الأنساب (زامباور) ١٠٠ ، ٨٨ ، المغرب ٢ ٤٢٨
٣) تاريخ الفكر الأندلسي - بالنثيا ، ٣٣٤ . ٤) أزهار الرياض ٣ ١٢٣ .
٥) أزهار الرياض ٣ ١٢١ ٦) الحلة السيراء لابن الأبار - تحقيق د. حسين مؤنس ٢ ١١٠
٧) أزهار الرياض ٣ ١٢١ .
٨) شنتمرية الشرق حاضرة سهلة بني رزين (الحلة السيراء ٢ ١٠٨ - ١٠٩ ، وانظر الهامش) ٩) أزهار الرياض ٣ ١٢٢ .

وقال ابن خاقان إنه نال عند ابن رزين الحظوة والجاه ، وها هو ذا ابن السيد يجونه طنه ويعرض بانه غادر ابن رزين لأنه لم يلق ما أمّل .

رحلنا سوام الحمدِ عنها لغيرها
فلا ماؤها صَدّا ولا النبتُ سَعدانُ [1]

ولعله حمد المقام عند بني هود في سرقسطة ونال عندهم ما سرّه. وقد تنقل في أرجاء الاندلس ، وطوّف وفي ترجمة ابن خاقان له انه اتصل ببني ذي النون أصحاب طليطلة ، وله مدائح في القادر [2] ، ومن ذلك قصيدة أنشدها القادر بمجلس الناعورة في طليطلة [3] . ومدح الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله ابن ذي النون أيضاً ، ولعله من أمرائهم البارزين في الدولة ، وفيه يقول

فقلت عبيد الله أو نجلُه سَرى فذكرني دارين أوبتهُ بالسَّحَرْ [4]

وفي الباقي من شعره وترسله ما يدل على سعة اتصالاته وكثرة اصدقائه وأصحابه من الوزراء والكتاب والأمراء ومن هؤلاء سوى من ذكرنا قبل . ذو الوزارتين ابو عيسى بن لبون [5] وذو الوزارتين ابو عبد الله بن ابي الخصال [6] وذو الوزارتين ابو محمد بن الفرج [7] والوزير أبو محمد بن سفيان [8] والوزير أبو عبد الملك بن عبد العزيز [9] والكاتب أبو الحسن راشد بن عريب [10] وقد مدح بعضهم ، وكاتبه بعض آخر ، ومدحه بشعر أيضاً بعضٌ منهم .

ولم يستمر على حاله دائماً من العيش على رفد أهل المُلك ومواهب الممدوحين ، فقد جلس لإقراء علوم النحو ، وقَصده الناس للتلقي عنه ، وقال فيه صاحب الصلة « وكان حَسن التعليم جيد التلقين » [11]. واستقر ابن السّيد آخر الأمر في مدينة بَلَنْسية ، وفيها كانت وفاته سنة ٥٢١ وكان هناك قد طبقت شهرته الأندلس واتجه اليه الناس ونقل ابن خلكان أنه سكن مدينة

١) ازهار الرياض للمقرى ٣ ١٢٢
٢) في معجم الأنساب أنه حكم ما بين (٤٦٧ - ٤٧٨)
٣) أزهار الرياض ٣ . ١٠٧ . ٤) أزهار الرياض ٣ ١١٧
٥) أزهار ٣ ١٢٠ . ٦) أزهار ٣ ١٣٣ ٧) أزهار ٣ ١٤٥
٨) أزهار ٣ ١٤٢ . ٩) أزهار ٣ ١٢٥ ١٠) أزهار ٣ ١١٩ ، ١٣٢
١١) الصلة ١ ١٩٢

بلنسية ، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه ويقتبسون منه، وكان حسن التعليم جيد التفهيم ، ثقةً ضابطاً » [1]. كما نقل صاحب المطرب في ترجمة أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف الحمري أنه « رحل شرق الأندلس للقاء الأستاذ العالم . . . أبي محمد بن السيد . . . » [2] .

ثقافته أخذ ابن السيد علومه عن جماعة منهم أخوه علي بن محمد ، [3] وأبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، [4] وأبو سعيد الوراق، [4] وأبو علي الغساني الجياني ، [4] وأبو الفضل البغدادي . [4] وأخذ عنه جماعة منهم عبد الملك بن محمد بن هشام القيسي ، [4] وأبي محمد عبدالله بن أحمد بن سعيد العبدري ، [5] وغيرهم . [6] وله روايات في فهرسة ابن خير مثل المبرّز في اللغة لمحمد بن يونس البخاري الكميت ، [7] ومقاتل الفرسان لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، [9] والنقائض بين جرير والفرزدق ، [8] وسقط الزند وضوئه [9] وألف كتباً كثيرة شهيرة منها ١) شرح سقط الزند للمعري ، وهو موضوع دراستنا ٢) الفرق بين الحروف الخمسة وهي السين والصاد والضاد والطاء والدال « جمع فيه كل غريب » كما قال ابن خلكان [10] . ٣) المثلّث (في اللغة) في مجلدين أتى فيه بالعجائب ودل على اطّلاع عظيم ، [11]. ٤) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ، وهو مطبوع ٥) إصلاح الخلل الواقع في أبيات الجمل ٦) الحُلَل في شرح أبيات الجمل (للزجاجي) ومن الكتابين نسخة في دار الكتب المصرية في مجلد واحد. ٧) التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة [12] ٨) الحدائق . ٩) شرح الموطأ ، ذكره في الصلة وفي وفيات الأعيان . وسماه ابن

١) وفيات الأعيان ٢ ٢٨٢ . ٢) المطرب ٢٢٥ .
٣) الصلة ٢ ٢٩٢ وانظر فهرسة ابن خير في أسانيد كتب ابن السيد التي رواها المؤلف وذكره في نفح الطيب ٥ ٢١٢ ، وأورد له أبياتاً من الشعر قريبة من نمط شعر أبي محمد أخيه .
٤) فهرسة ابن خير ٣٥٧ ، ٤١٢ .
٥) ابن خير ٤١٢ . ٦) ابن خير . ٣٥٧ ٧) ابن خير ٣٨٣
٨) ابن خير ٣٨٣ . ٩) ابن خير . ٤١١ - ٤١٢ .
١٠) فهرسة ابن خير ٤١١ - ٤١٢ ١١) وفيات الأعيان . ٢ . ٢٨٢
١٢) أزهار الرياض ٣ : ١٠٧

خاقان « المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[1] ١٠) جزء فيه علل الحديث. كذا في فهرسة ابن خير[2]. ١١) كتاب فيه مسائل في العربية ذكره ابن خير[3] ١٢) فهرسة ابن السيد رواها ابن خير[4] ١٣) قصيدة في رثاء ديك. رواها ابن خير[5] ١٤) الانتصار ممن عدل عن الاستبصار، وقال فيه ابن خير « جزء فيه رد أبي محمد .. بن السيد على القاضي أبي بكر بن العربي فيما رده عليه في شرحه لشعر المعري » . وقد طبع الكتاب، وسندرسه في موضعه . ١٥) رسالة كتب بها الى ابن حلصة، وأخرى بعث بها الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم[6]. وفي الكتاب الذي أفرده ابن خاقان لترجمة ابن السيد ـــ ونقله المقري في الأزهار ـــ شعرٌ ورسائل له

ويبدو أن ابن السيد تعرض للحاملين عليه كما قرت عينه بالحاملين عنه، فهذا أبو بكر بن العربي يخطّئه وإن كان رد ابن السيد شديد الإفحام، وسنفصل فيه في فصل لاحق؛ وفي التكملة (١ . ٤٢٦ ط عزة العطار) أن محمد بن عبد الرحمن بن حلصة النحوي رد عليه، قال « ورسالته التي رد فيها على ابن السيد من أجود الرسائل وقد حملت عنه » . وهو من صحابة ابن العربي .

بقي لنا من شعر ابن السيد قدر ضئيل معظمه في كتاب ابن خاقان عنه الذي احتواه كتاب أزهار الرياض، وهو شعر يرتفع عن شعر طبقة العلماء والفقهاء وله قصائد لاحقةٌ بشعر المقلدين لمذهب الأوائل وأنصار الشعر القديم كوصفه للفرس[7]، وكمعظم مدائحه؛ وقال من مطلع قصيدة في المدح .

همُ سلبوني حُسن صبري إذ بانوا بأقمار أطواق مطالعُها بَانُ
لئن غادروني باللوى إن مهجتي مسايرةٌ أظعانَهم حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخَيف عهد غمائم ينازعها مزنٌ من الدمع هَتّانُ[8]

وله قصائد أخرى لم يقصّر فيها عن أنصار الشعر المحدث كقوله من قصيدة بعث بها إلى أبي عيسى بن لبون

١) أزهار الرياض ٣ ١٠٧
٢) فهرسة ابن خير ص ٢٠٤ .
٣) فهرسة ابن خير ص ٣١٦
٤) فهرسة ابن خير ص . ٤٣٣
٥) فهرسة ابن خير ص ؛ ٤١٣
٦) فهرسة ابن خير ص ٤٢٠
٧) أزهار الرياض ٣ . ١٠٨
٨) أزهار الرياض ٣ ١٢١

فثم نصطبح من قهوة بكر حتى نرى صرعى من السكر
أنف تناساها الورى حتى لم تجر في بال ولا ذكر
فاترى الدنان وما حوت منها كجوانح طويت على فكر
نفحت فقلت المسك أو ماقد أحيى أبو عيسى من الذكر[1]

ونقل المقري قول ابن السيد :

نفسي الفداء لجؤذر ، حلو اللمى مستحسن بصدوده ، أصباني
في فيه سمطا لؤلؤ يروي الظما لو علّني بوروده أحياني

ثم قال « ويخرج من هذه القطعة عدة قطع » .[2] ويبدو أن ابن السيد على ما فيه من صفات العالم المتحرج كان يشارك في طرف الشعر ، والدعابة بالغزل بالغلمان ، وقد نقل من أخباره أنه « كان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة : رحمون وعزون وحسون ، فأولع بهم – كذا – وقال فيهم :

أخفيت سقمي حتى كاد يخفيني وهمت في حب عزون فعزوني
ثم ارحموني برحمون فإن ظمئت نفسي إلى ريق حسون فحسوني

ثم خاف على نفسه ، فخرج من قرطبة » [3] وما نظن ابن السيد قال هذا إلا للجناس الذي يغري القصاة !

وبعد . هذا شرح على كتاب المعري سقط الزند وهو ديوان جمع المعري فيه « أول شعره وما سمح به خاطره » [4] وكان شرحه بكتاب آخر سماه (ضوء السقط) « غير أنه وقع فيه تقصير من جهة المستملي ، وذلك أنه استملى معنى بعض أبيات منه ، وأهمل أكثر المشكلات . . . فجاء التفسير كأنه لمع شتى ، لم يشف العليل . . »[5] وقد شرح سقط الزند كثيرون منهم : أبو زكريا التبريزي تلميذ المعري ، وابن السيد ، وأبو يعقوب الخوئي – ألف شرحه سنة ٥٤١ – ، والفخر الرازي ، والخوارزمي (ت ٦١٧) ، وغيرهم . ويصح أن ابن السيد

---

١) أزهار الرياض ٣ . ١٢٠ ٢) نفح الطيب ٥ . ١٠٨ .
٣) بغية الوعاة ٥٥ – ٥٦ ، ونقلها في أزهار الرياض ٣ . ١٢٠ .
٤) شروح سقط الزند – مقدمة التبريزي ١ . ٣ ٥) المصدر نفسه ١ : ٣ – ٤ .

من أوائل شُرّاح سقط الزند . أما المعري فولد سنة ٣٦٣ وتوفي سنة ٤٤٩ ، وامتدت حياة التبريزي بين ٤٢١ و ٥٠٢ وابن السيد بين ٤٤٤ — ٥٢١ .

وشَرْح ابن السِّيد على سقط الزند مطبوع مع شرحين آخرين في نسق واحد ، يسبقه شرح أبي زكريا التبريزي ، ويتلوه شرح صدر الأفاضل قاسم ابن الحسين بن محمد الخوارزمي . وجُعل الكتاب وفهارسه في خمسة أجزاء ، وطبع ما بين ١٣٦٤ — ١٣٦٨ هـ و ١٩٤٥ — ١٩٤٩ م ، في دار الكتب المصرية بعناية جماعة من الادباء ، ثم أعيد طبع الكتاب بالأفست ، عن الدار القومية ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م كما هو . وقد أشار بعض الأدباء إلى أهمية شرح ابن السيد على سقط الزند ، ومكانته بين كتب المؤلف نفسه ، وبين كتب شرح السقط بعامة ، وفي هذا يقول ابن خلكان « وَشَرَحَ سقط الزند لأبي العلاء المعري شرحاً استوفى فيه المقاصد ، وهو أجود من شرح لأبي العلاء صاحب الديوان الذي سمّاه ضوء السقط »[1] وذكره ابن سعيد في استدراكه على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس فقال : « وأما شرح سقط الزند له فهو الغاية ، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وتناؤهم عليه »[2] وقد أخذ الناس شرح سقط الزند لابن السيد عنه وتناقلوه وذكر ابن خير في فهرسته سنده فيه قال « كتاب شرح سقط الزند لأبي محمد بن السيد رحمه الله ، حدثني به الشيخان أبو الحسن عبد الملك بن محمد بن هشام القيسي ، وأبو محمد عبدالله بن أحمد بن سعيد العبدري ، عن مؤلفه أبي محمد . »[3] وهو شرح يمثل ذروة نُضج الفكر الأندلسي وتمثله الثقافة العربية ، ويمثل ابن السِّيد فيه شخصية الأديب العالم المحقق الذي ألمّ بفنون الأدب ، وفنون أخرى من علوم اللغة والنحو ، والفلسفة وعلم الكلام، والفقه والتفسير وكافة علوم الشريعة إلمامةَ المشارك حيناً ، المختص حيناً آخر. وسرى فيه رقة الأديب في حُسن فهمه للمعاني، وحُسن أدائه الفكرة والعبارة ، وخوضه في المسائل العويصة — مثل الحديث عن عقيدة المعرّي — بجُرأة ودقة وحرص ، كالسائق الماهر يجتاز التلعات والوهاد متمكناً مطمئناً .

١) وفيات الأعيان . ٢ ٢٨٢

٢) نفح الطيب ٤ ١٧٥

٣) فهرسة ابن خير . ٤١٢ .

وقد استطاع الشارح الأندلسي أن يعيد من ثقافته التي أجملنا بعضها في ترجمته فقد كان لغوياً نحوياً ، أديباً ، شاعراً ، وكان فقيهاً ذا إلمام بأمور الشريعة وكتب التفسير والحديث والمذاهب ، وتحدّث في الفلسفة بما يدل على حسن اطّلاعه على أمورها، كما أنه أشار في شرحه إلى بعض آراء أفلاطون، وأرسطو، ونقل عن الفارابي ، وناقش بعض المسائل الفلسفية أثناء شرحه إشارات للمعري متنوّعة . واستخدم معظم ما عنده من تراث ثقافي من علوم الفلك والجغرافية والعروض ، ومعلومات في البلدان، ودلّل على اطلاع واسع على عادات العرب وأخبارهم وأيامهم ومواسمهم . وسنعود على ذلك كله بالعرض والمناقشة . ولا بد قبل البسط والعرض من القول إن ابن السيد البطليوسي بحاجة إلى دراسة متخصصة تكشف عن جوانب شخصيته المتعدّدة ، فإنه ليس مجرد نحوي شرَح الجُمَل وانتقد سيبويه؛ وهو عند التّحقيق صورة أندلسية حية، وأثر نادر من آثار العرب هناك . ولن أستطيع في هذه الفقرة مهما وَسّعت الحديث ، أو حاولت الإلمام أن أتم ما يبغي من واجب الدّرس وغاية التقصي وسأحاول جهدي أن أحسن النقل والتصوير والمناقشة .

مقدمة الشارح . وضع ابن السّيد كتابه هذا إجابة لطلب شخصية لم يصرّح بذكر اسمها ولكن يبدو أن الطالب ذو مكانة مرموقة ولعله من ذوي السلطة ومصرّفي الأمور، وفي المقدمة ما يدل على أن طالب الشرح توسّم في ابن السّيد أن يجد لديه ما لم يظفر به من شرح المعري نفسه ، قال : « سألتني — واصل الله لديك نوامي النعم ، وبلغك أقاصي الهمم — أن أشرح لك سقط الزند من شعر أبي العلاء المعروف بالمعرّي ، وذكرتَ أنك قرأتَ ضوء سقط الزند الموضوع فية فلم تجده مستوفياً لجميع معانيه ، ورجوت أن تجدَ عندي ما يوافق مُرادك ويطابق اعتقادك »[1] ثم وصف الشارح بإيجاز صفات شعر المعري وخصائصه، وكأنه يشير بذلك إلى ما سيقف عنده في شرحه وما سيعالجه من آرائه : « ولعمري إنه لشعر قويُّ المباني ، خفيّ المعاني ، لأن قائله سلك به غير مسلك

١) شروح سقط الزند (مقدمة ابن السيد) ١ . ١٥

الشعراء ، وصممه سكتاً من التحـل والآراء . وأراد أن يُري معرفته بالأخبار والأنساب وتصرفه في جميع أنواع الآداب ، فأكثر فيه من الغريب والبديـع ، ومزج المطبوع بالمصنوع ، فتعقّدت ألفاظه ، وتَبعُدت أغراضه » [1] وقد أعاد الشارح ترتيب قصائد الديوان بحسب حروف المعجم واحتج لذلك بحجة ، قال : « ورأيت أن ترتيبه على نظم الحروف المعجمة أتم في الوضع وأجمل للتصنيف فاحتجت لذلك أن أزيد فيه ما يفي بالغرض [2]...وفي هذا يقول محققو الديوان في مقدمة الكتاب المطبوع «وليس هذا الشرح خاصاً بسقط الزند ، بل ضم إليه طائفة أخرى من شعر أبي العلاء ، بعضها من لزوم ما لا يلزم ، وبعضها الآخر من سائر دواوين أبي العلاء [2] » .

شرح المعاني . استخدم الشارح كما قلت أنماطاً مختلفة من الاساليب والوسائل للنفاذ إلى خبيء معاني المعري ،ولتبيان مقاصده وإشاراته وأغراضه ، واستطاع أن يتغلغل وراء كل معنى مستتر ويبينه . وليست له طريقة واحدة في تناول شرح كل بيت من أبياته ، ولكن الغالب أن يبدأ بشرح لغوي لبعض الكلمات الغريبة ، أو محتملة الوجوه ، أو التوجيه إلى معنى واحد هو ما قصد اليه الشاعر ثم يبسط المعنى ويبينه . وفي مجال المعنى نفسه كان الشارح يبيّن قيمة معنى المعري بالقياس الى مَنْ سبقه اليه ، أو الى بعضه وعُني ببيان تجديد المعري على المعاني الشائعة أو السابقة له ودرجة تجديده ، وكأنه يُخلص ما ابتكره مما اتكأ عليه ونبّه على معانيه المبتكرة التي لا يحفظ لغيره فيها شيئاً ، وهي شيء كثير . وعُني أيضاً بعمل مقاربة مستمرة تقريباً بين معاني المتنبي وأبي تمام من جهة ، ومعاني المعري من جهة أخرى ، مما اشتركوا فيه أو كان المعري يتوكأ فيها على أحدهما أو يعارضه أو يعكس معناه والمقاربة بين المتنبي والمعري — في هذا — أشد وضوحاً وأكثر وجوداً ، ولعل هذا ما يؤكد ما نقله ابن خلكان من أن ابن السيد شرح ديوان المتنبي ، وعلى كل حال ، فإن ابن السيد دل على اطلاع كامل على معاني المتنبي ودقائق شعره وقبل أن نذكر

١) شروح سقط الزند (مقدمة ابن السيد) ١ ١٥

٢) شروح سقط الزند (مقدمة الناشرين) صفحة د — هـ

تتمة خصائص الشرح ومميزاته ، سنضرب مثلاً على ما تقدم من سرد . قال في شرح مطلع القصيدة الأولى [1]

أعن وَخد القِلاص كشفتِ حالا ومن عند الظلام طلبتِ مالا

الوَخْد . السير السريع ، وهو الوَخدان أيضاً ، والقلاص جمع قلوص وهي الفتية من الإبل ، وهي في الإبل بمنزلة الجارية من النساء . وصف تعذُّر مآربه وأوطاره، وعَنّف نفسه على كثرة حركاته وأسفاره فقال يوبّخها على مافعلت، وينكر عليها ما أوهمتها ظنونُها الكاذبة وسَوّلت : أحاولت أن تكشفي عن حال وَخْد الإبل حتى تقفي عليه ، وتوهّمتِ أنّ السُّرى يُنيل المال ويوصل إليه ؟ فكيف رأيت إخفاق أملك ، وقلة إنجاح سعيك الذّميم وعملك وكأنه أراد أن يناقض بهذا قول أبي الشناش :

فلم أرَ مثل الهمّ ضاجَعه الفتى ولا كسواد الليل أخفَق طالبُه

وقول جابر بن ثعلب .

فإن الفتى ذا الحَزم رام بنفسه حواشيَ هذا كي الليل يَتموّلا

ويحرص الشارح على إيضاح الأمور الدقيقة في معاني الشاعر ، واستكناه المقصود من المعاني الظاهرة ، فالمعري يقول في فرس .

ولولا غَيرة من أعوجيٍ لبات يرى الغزالة والغَزالا

يحس اذا الخيال سَرى إلينا فيمنع من تَعهدنا الخَيالا

... يقول لولا أن هذا الفرس الأعوجي أحس بمجيء الخيال فأدركته غيرة لذلك ، ولم بحثيثه وصهل حتى أيقظ الركب لبات هذا العاشق يرى من محبوبه غزالةً وغزالا . وفي هذا وصف للفرس بجودة الحس وصدق السمع ، كما وصفه بذلك في موضع آخر فقال

يحسُّ وطء الرّزايا وهي نائمةٌ فيهب الحريَ نفس الحادثِ المكر [2]

فحديث المعري في المقام الأول عن الطيف، ولكن الشارح التقط هذا المعنى العميق ، وخشي من القارىء أن يصفه بالتزيّد ، فجاء بدليل من شعر المعري نفسه . ومن طريقته أنه يُحيل في معاني الشاعر على معانيه نفسها من قصائد

---

1) شرح سقط الزند ١ . ٣٧ 2) الشروح ١ . ٧٥ - ٧٧ .

أخرى أو أبيات أخرى [١] . وهذا التدقيق يبدو في صورة أخرى ، فهو يحاول تعليل معاني المعري ، أو بيان سبب تفضيله عبارة على عبارة اخرى وهو يرى أن في ذلك بلاغة ذات معنى ، وأن كل تعبير أو تشبيه مقصود لذاته ، ولما يحمل وراءه من إيحاءات ، من ذلك شرحه قول المعري :

فأقسم ما طيورُ الجو سُحْماً كَبَهْنّ ، ولا نعامُ الدَوِّ روحا

... شبه أبو العلا الإبل بالطيور والنعام في السرعة . وإنما خص السحم من الطير دون غيرها لمعنيين : أحدهما أن يكون وصف إبلاً سوداً والثاني أن يكون أراد أن الإبل اسودّت من العرق لأن عرق الإبل اسود ، قال رؤبة .. والنعام توصف بسواد الألوان ، ولذلك ذكرها مع الطير السُّحم ، قال العجاج يصف ظليماً .. [٢] ، وهذا مثال آخر اشد دقة في استنباط المعنى ، وفيما وراء المعنى ، قال المعري

وأبصرتِ الذوابلُ منه عدلاً فأصبحَ في عواملها اعتدالا

يقول . علمت الرماح أنه يحب العدل فاعتدلت ، فلذلك يرى لرماحــه من الاعتدال ما لا يرى لغيرها . وعوامل الرماح صدورها وخصّها بالذكر ، لأن معوّل الرمح إنما هو على عامله وقال (فأصبح) ولم يقل فأمسى لأن الصباح إقبال والمساء إدبار [٣] . وهذه الملاحظة الأخيرة دقة متناهية في الانتباه لدقائق المعاني . ومدح المعري رجلاً بالفروسية فقال

دع اليراع لقوم يفخرون به وبالطوال الرديبيات فافتخر
فهنّ أقلامك اللاتي إذا كتبت مجداً أتت بمداد من دمٍ هدِرِ

فشرح ابن السيد الأبيات وعلق بعدها وإنما فضل في هذا الشعر السيف على القلم ، لأنه مدح رجلاً كان من الفرسان ، ولم يكن له حظ من الكتابة وفي هذا ربط بين مناسبات الشعر ومحتوياته ، وفيه التفاتة جيدة وكان يشير إلى المعاني المحتملة في بعض الأبيات وفي ذلك يقول التبريزي تلميذ المعري وربما

١) وانظر ١ ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ . الخ
٢) الشروح ١ ٢٦٥ – ٢٦٦ ، وانظر ٣٤٤ ، ٥٧٤ ، ١٢١٧ ، .
٣) الشروح ٧١ – ٧٢

احتمل البيت الواحد معنيين وأكثر ، وقد مرّ مثله في هذا الكتاب فيما أحذته عنه – يعني المعري – وحصّلته منه وقت القراءة عليه ، غير أن حمل المعاني على ما هو أدخل في كلام العرب ، وأليق بمعاني الشعر هو الوجه [1]. وهو يقلب تلك الأمور المُحتملة الوجوه ، ثم يرجّح ما يظنه أليق بالمـَقام ، وألصق بالمَعنى وله في ذلك منهج يتابعه ويجري على نسقه . قال المعري في قصيدة مديح :

وإن بَخلتَ على الأحيـــاء كلهم   فاسق المواطر حيّاً من بني مَطر

وقال الشارح : الأحياء . القبائل واحدها حي . ويحتمل أن يريد بالموَاطر السّحاب ، ويحتمل أن يريد الأمطار بعينهـا ، وهو أجود [2] وقال في شرح البيت .

مرّت بيَ فيه ناجيات" مياهُنا   تَجُم إذا ماء الركائب غارا

الناجيات الابل السريعة ، والركائب : الابل التي تركب للسفر واحدها ركوبة . ويقال : جم الماء يجم . اذا كثر وهذا يحتمل معنيين : أحدهمـــا أن يكون ضرب جموم الماء وغؤوره مثلين لكثرة السير وقلته – وليس هناك ماء في الحقيقة ، وإنما أراد أن سيرها يكثر ككثرة الماء إذا جم ، فيكون كقول امرىء القيس :

يجم على الساقين بعـــد كلاله   جموم عيون الحسي بعد المَخيض

وكما قال النمر بن تولب :

جموم الشّد شـــائلة الذّنابى   تخالُ بياضَ غُرتها سِراجا

والثاني أن يريد بالماء العرق، لأن قلة العرق مما يكره، فيكون كقول امرىء القيس وأخلف ماء بعد ماء فضيض . والمعنى الأول عندي أجود [3] .

ويتبين لنا من خلال شرح ابن السيد أنه مطلع على أشعـار العرب ومدرك لمعانيهم التي يرددونها . وهنالك صور شعرية ومواقف معيّنة تناولهـا الشعراء وكَثـُرت في قصائدهم ، أشار اليها الشارح وبيّن موقف المعري منها ، فهو تارة يُعيد المعنى نفسه وتارة أخرى يضيف اليه شيئاً جديداً وقد يعكسه أو يأتي

١) الشروح ٥ ٢٠٣٤   ٢) الشروح ١ ١١٦ .
٣) الشروح ٢ ٦٢٢ – ٦٢٣ ، ٧٣ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ .

بجديد لم يُسبق اليه . ونحن هنا قريبون من (المعاني المشتركة التي يتداولها الشعراء) ونريد على ذلك ما عرف عن العرب من عبارات أو مواقف أو اصطلاحات قد لا تكون بالضرورة من عمل الشعراء أو وقفاً عليهم ، كقولهم فلان ابن الليل وأخو الليل إذا كان كثير السفر فيه [1] ، وأن العرب تسمي كل شيء تطاول أمده ، وبقي بعد ذهاب غيره مخلداً [2] وأن كل أمة عند العرب قَينة [3] ، واستعمال العرب الظن بمعنى التشبيه والظن [4] إلى غير ذلك مما هو داخل في المأثور عن العرب من مثل أو استعمال لغوي ، أو عادة ، أو طراز حياة ، أو أسلوب خطاب . ولعل ذلك آت من ثقافة ابن السيد اللغوية الغزيرة واطلاعه على عادات العرب وأحوالهم من تراث ثقافي ملأ الأندلس طول أيامها . قال المعري :

ومن أم النجوم عليه دِرْعٌ يحاذِرُ أن يمزّقها الطعانُ

.. والعرب تسمي المجرة أم النجوم لكثرة النجوم المجتمعة فيها ، وأم كل شيء أصله الذي [5]

وعلق على قوله

لعمت بسحرنا والشعر سحرٌ فننا منه توبتنا النّصُوحا

... والعرب تسمي كل ما استمال النفوس من كلام وغيره سِحراً ، ومنه قوله ﷺ حين سمع كلام عمرو بن الأهتم إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة [6] . وعلّق على قوله .

بنات الخيل تعرفها دلوك وصارخة وآلسٌ واللقان

هذه كلها مواضع من بلاد الروم وقد ذكرها أبو الطيب وأراد بنات الخيل العِتاق فحذف الصفة حين علم ما أراد . والعرب تحذف الصفات اذا كان في فحوى الكلام ما يدل عليها . فيقولون إن فلاناً لرجل ! وإنه لإنسان ! ، إنما يريدون رجل كامل أو رجل مستحق لأنه يسمى رجلاً ، ولولا ذلك لم يكن في الكلام فائدة يستفيدها المخاطب [7] ومثل هذا كثير لا يصب معينه لدى

١) الشروح ٥٤٦ ٢) الشروح ٦٧١ ٣) الشروح ١٢٤٠
٤) الشروح ١٤٢٩ ٥) الشروح ١ ٢١٢ ٦) الشروح ١ . ٢٧٦
٧) الشروح ٢٠٢ - ٢٠٣

أن السيد ، وهو من مميزات شرحه البارزة [1] وقال المعري .

فليتك في حمي مواريّ براهة بتلك السحايا عن حشاي وعن صبي

وقال الشارح بعد كلام . وإنما نزه أباه عن أن يكون في حشاه ، لأن الحشا موضع الأقدار ، وكأنه أراد أن يناقض مَن تقدم من الشعراء ، لأن من شأنهم أن يصفوا أن أحبتهم في أحشائهم ، كما قال أبو الطيب :

فإن تكُ في قبر فإنك في الحشا

وإن تكُ طفلا فالأسى ليس بالطفل [2]

وخرج إلى مبتكرات المعري في إطار معاني العرب ، كمثل قوله :

كلم كنظم العقد يَحسن تحته معناه حسنَ الماء تحتَ حبابه

فقال . أما تشبيه الكلام بالدر فكثير قد تحادثه الناس قديماً وحديثاً . وأما تشبيه المعنى تحت اللفظ بالماء تحت الحباب فلا أعرف له نظيراً في شيء من شعر المتقدمين ولا المتأخرين وقد أشار الشعراء إليه وان كانوا لم يَنُصّوا عليه ،لأن الكلام والحباب يُشبَّهـــان جميعاً بالدر . فولّد أبو العلاء من ذلك أنْ شبّه الكلام بالحباب ، لأن الشيء إذا أشبه الشيء ، فقد أشبه ما يشبهه والشاعر إذا كان ذا ذكاء كفاه أقل تنبيه وأيسر إيماء [3] . فهو قد خلّص معنى المعري من المعاني المتداولة وبيّن مقدار ابتكاره ، وقدّر توليده بعبارة دقيقة واضحة .

اختراعات المعري . الحكم على معنى بأنه مسبوق اليه ، أو بأنه جديد مبتكر عمل شاق، يحتاج الى مراس طويل، ومطالعات واسعة واستيعاب لمعظم معاني العرب القديمة خاصة ، وإلمام بالشعر الحديث ، وهو كثير ، والإحاطة به من الصعوبة بمكان، ولا تتأتّى هذه المقدرة إلا بعد زمان من الدراسة والممارسة. وقد كان الشارح يُلقي حكمه على بعض معاني المعري بالجـــدة والابتكار ، والطرافة والتوليد ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأمثلة التي ميز فيها الشارح خيوط المعري من خيوط أسلافه ، من نسج شعر واحد . وكان في معرض

1) وانظر ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٦٤ ، ٤٢٦ ، ٥٤٦ ، ٦٧١ ، ٧١٢ ، الخ .

2) الشروح ٢ ٩٣٧

3) الشروح ٧١٨ – ٧١٩ .

هذا يشير – أحياناً – الى أولئل من عُرف بإثارة معـان ٍ معينة ، ثم تابعهم الشعراء بعدها [١] . وهو يورد رأيه بعبارات مثل .ولا أحفظ هـذا المعنى لغيره ، أو لا أعرف له نظيراً ، وقال في شرح بيت المعري في وصف السيف :

سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السّلالا

فجعله كما ترى سليلاً للنار التي طُبّع بهـــا . وذكر أنه ورث السلال والسقم عنها . ولا أحفظ هذا المعنى لغيره [٢] وشرح بيت المعري :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها ، وأولها دُخان

. . يقول لست أعتد بأول عمري وهو عصر الصبا ، ولا بآخره وهو عصر الهرم ، وإنما أعتد بأوسطه وهو عصر الشباب كما أن النار لا يُستمتع بأولهـا لأنه دخان ، ولا بآخرها لأنه رماد . وإنما المتَمتَع به منها ما بين الطرفين ، وهذا معنى لا أحفظه لغيره [٣] ، وهو مع ذلك يحتاط احتياط العالم الحذر ، المعتذ عما عنده في غير قطع ولا جزم ، فيقيد معرفة الابتكار والتجديـد في الصور والمعاني المعرية بنطاق (ما يحفظ) و (وما يعرف) ولكن عمله هذا في تمييز مبتكرات المعري شيء جديد ، وهام بالقياس إلى ما رأينا من شروح أندلسية، وبالقياس إلى الشرحين المطبوعين مع شرح ابن السيد . والنماذج كثيرة ولماتهـا أكثر من أن تحصى ، وسنعود الى طرف من هـــذا الموضوع في الحديث عن السرقات .

اللغة في الكتاب . شارح المعري لا بد له من ثقافة تصارع ثقافته لتحيط بما ينثره من غريب في اللغة وجديد في المعاني ، وغير ذلك مما اصطنع .. وكان الشارح على مقدار من الثقافة اللغوية أمكنه من فهم المعري ، وتفهيمه أيضاً فقد كان يشير الى المعاني المحتمَلة في الكلمـــة – ما دام ذلك ممكناً في معنى الشاعر – وربما غلبت عليه الصنعة فشرح الكلمة تفصيلاً، كسرده معاني الراح [٤] والورد [٥] ، والغابية [٦] ، ووجوه استعمال وزن فعيل في اللغـة [٧] . وهو يحرص على أن يوضّح معنى الكلمة حيث هي من موقعها في بيت المعري ونحن

١) ١١٧ ، ١٢٨ ٢) الشروح ٩٧ ٣) الشروح ١٧٨ .
٤) ص . ١١٥٠ . ٥) ص ١٤٩ . ٦) ص ١٢٧ ٧) ص ١١٤٢ .

نجد له رأياً ايضاً في وجوه معاني الكلام المفرد الغريب ، قال · « فرّق بعض اللغويين بين خطىء وأخطأ فقال . يقال خطىء يخطأ إذا تعمد الذنب ؛ وأخطأ يخطىء اذا لم يتعمد . وقال غيره . يجوز أن يقال . خطىء ، بمعنى أخطأ ، وهذا هو الصحيح ، ويدل عليه قول العرب (مع الخواطىء سَهم صائب) يُضرب مثلاً لمن يصيب في بعض الاوقات والغالب عليه الخطأ .. [1] ».وهو في أثناء شرحه يشير الى بعض الملاحظات اللغوية مما يدل على اطّلاع وتمكن ، فمن ذلك إشارات الى بعض الجموع النادرة ، والتغليب في اللغة[2] ، ووزن فعل واستعمالاته [3] ، وبعض الأضداد [4] ، وكان يرد احياناً على (بعض اللغويين) — الذين يورد لهم اشياء في اللغة — مما هو جار في القياس [5] ، ويورد مذهب القياس [6] ، ويورد مذهب القِياس ومذهب السّماع في موضوعات اخرى [7] ولننظر شرح قوله

كأنما الضرب يَفري من كلومهمُ
أكبادَ ضِرب رَهينِ السّور في الكُتُسُ

يفري يقطع وزعم بعض اللغويين أنه يقـــال فريت الشيء إذا قطعته للاصلاح وأفريته اذا قطعته للإفساد . وهذا ليس بصحيح ، لأنا قـــد وجدناهم استعملوا « فريت » في الإفساد . قال الشاعر .

فرى مائنات الدهر بيني وبينهـــا
وصرف الليالي مثل ما يُفري البردُ [8]

وهو قد يعرّج على أصول مدلولات الأسماء أو المواضع بغير إطالة «والحمى موضع ، وأصل الحمى الموضع الذي يُحمى فلا يقربه أحد [9]» وهذا كثير ، وقد يكتفى بالإشارة إلى المعنى الواحد المقصود .«والطّيف هنا الخيال الذي يُرى في النوم [10]» وهو يحتج بأعــلام كالمبرّد ، وثعلب ، وابن السكّيت ،

١) ص ٢١٧ ، ٢١٨   ٢) ص ٣٩٩   ٣) ص ٢٩٣ .
٤) ص ٦٣٦   ٥) ص ٦٤٢   ٦) ص ٣٦٢   ٧) ص ٢٦٣
٨) ص ٧ ، وانظر مثلاً ص ٩٣ و ١٠٣ وغيرها
٩) ص ٧٣٤   ١) ص ٧٥

والأصمعي ، والرازي صاحب الزينة ، وسواهم .

ملاحظات نحوية . استخدم الشارح النحو، وطبق أحياناً شيئاً من الإعراب، لضرورة إيضاح المعنى أو تبيين بعض الوجوه من بعض وكان في أثناء ذلك يحتج بسيبويه ، والأخفش ، والمبرّد ، وأبي علي الفارسي ، ويشير إلى مسائل من الخلاف بين الكوفيين والبَصريين بما يدل على سعة واطلاع وتمييز وهذا مثال من إعراب بعض بيت المعري يصف فيه الرمح

توّهم كل سابغة غديراً فرنّق يطلبُ الحَلَقَ الدّخالا

. فأما إعراب بيت أبي العلاء ، فان كان أراد مداخلة الحلق بعضها في بعض فالدخال صفة للحلق على وجهين أحدهما أن يكون التقدير الحلق ذا الدخال ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه والثاني ، أن تجعل المصدر في تأويل اسم مفعول ، كأنه قال الحلق المداخل ، فيكون بمنزلة رجل رضا . وإن كان أراد بالدخال الدخال الذي يكون في الورد — وهو أشبه بمراده ، لذكره الغدير والشرب — فيجب أن يكون الدخال صفة لمصدر محذوف كأنه قال الشرب الدخال فيكون من ذاب قولهم رجع القهقرى أي الرجعة القهقرى [1] فهو قد بَيّن الوجهين ، وأدلى برأيه فيما يرى ويُرجّح

وناقش مسألة العبارة بالماضي، والعبارة بالمضارع والفرق بينها ، وأن التعبير بالمُضي له خصائص تنطلي على المعنى لا توجد في المضارع ، في قول المعري

ويا أسيرة حجليها أرى سفهاً حمل الحليّ بمن أعيى عن النظر

فان قيل فهلا قال بمن يُعيي عن النظر فيجعله فعل حال دائماً غير منقطع فيكون أبلغ من أن يكون ماضياً ؟ فالجواب عن هذا من وجهين أحدهما أن الماضي قد يذكر ولا يراد أن الخبر عنه في الحال والاستقبال وعلى هذا يتأول قوله تعالى (وكان الله عليماً حكيماً) انما المراد أن ما علم الآن من حكمته وعلمه لم يزل موصوفاً به . فهذا وجه والوجه الثاني أن ذكر الفعل الماضي ها هنا اليق بما ذكره من السّفه ، ويريد أن أهلها ألبسوها الخلاخيل مع ما قد سلف من علمهم بأنها لا تقدر على حمل نظر العيون ، فكان ذلك أبلغ في وصفهم

1) ص ١٠٨

بالسقه [1] . وناقش مسائل كثيرة على طريقته من ربط المسألة بما هو فيه من مجال معاني المعري ، باختصار ، ومن ذلك ذكر الأقوال الكوفية والبصرية في (ثَلَثه) [2] وبعض أحوال الحـال [3] وجانب آخر من الموضوع نفسه [4] ، وإجازة صلة الألف واللام الداخلتين على الاسماء الجامدة [5] ولم يشتط في ذكر أمور النحو والصرف ، ليخرج عما هو فيه ، بل جعله وسيلة لكشف ما غمض من المعنى أو احتمل الوجوه .

السرقات . سبق الحديث عن معاني المعري المحدثة أو المبتكرة ، وهـذا الكلام لاحق به وإن كان لكلٍ مجال . فقد ألحقت تلك الفكرة بالحديث عن شرح المعاني ، وها أبدا أمرّ على موضوع الأخذ أو السرقـة . والحق أنّ ابن السيد لم يستعمل كلمة السرقة كما استقرأت من شرحه المطبوع ، ولكنه كان يُعنى بتبيان أصول معاني المعري في الشعر العربي قديمه ومحدثـه ، وفي القرآن والحديث والأمثال وأقوال العرب . ولم يدخل في تفاصيل اصطلاحية ، ولكنه أغنى ذلك بدقة استخدامه ما استظهر وروى من تراث العرب . وقـد ميّز الشارح في هذه الناحية عدة أمور :

١) انتبه إلى أن هنالك تراثاً مشتركاً يستقي منه مَن شاء من الشعراء ، وهو ما شاع من تشبيهات العرب وصورهم وانطباعاتهم في مناحي الحيـاة مِن حولهم ، لا يُعد الأخذ منه عيباً ، ولا سرقة . بل ان التزام الشاعر — في بعض الأحيان — بطرائق العرب المألوفة أمر ضروري عند الشارح ، ويحاسب عليه الشاعر ان خالفه ولم يكن له وجه بلاغي يرضى هو عنه ، ولنجتزىء بمثال هنا للتدليل — وإن كان موضع الكلام عليه في مناقشة نقد الشارح للمعري — قال المعري .

قلدت كل مَهـاة عقـد غانية وفُـزت بالشكر في الآرام والعُفْر

قال الشارح « ... ولو اتفق له أن يذكر في هـذا البيت البقر مع الآرام لكان أكمل للمعنى لأنه أفرد الظباء بالشكر ، فكان إخلالاً بالصنعـة [6] . . » ففي هذا القسم من الأفكار والمعاني لا سرق ولا أخذ ، وهو كثير التنبيه على

١) ص ١١٧ . ٢) ص ١٢٧١ . ٣) ص ٢٩٤ .
٤) ص ١٧٤ ٥) ص ٢٠٣ ٦) ص ١٢٧ — ١٢٨

مثله بعبارات مختلفة . وشبّه المعري ما على السيف من وشي بآثار النّمل ، فقال الشارح « والعرب تشبه فرند السيف وما عليه من الوشي بآثار النمل والذّرّ[1] » قال المعري :

وليلٍ خاف قولَ الناس لمّا تولى سار منهزماً فعادا

فقال بعد شرح البيت « والعرب تشبه الصّباح بالهارم والليل بالمهزوم[2] » وضرب الأمثال من الشعر ، قديمه وحديثه ، ومثلُ ذلك عبارة المعري عن البرق بـ (ضاحك المزن) فإن العرب تشبه البرق بالضحك والمطر بالبكاء[3] . وتعقيبات ابن السيد على هذه المعاني بمجرد ذكر أصل المعنى ، يدل على أنه يعده في المعاني العامة المباحة لكل شاعر .

٢) ونبه في مواضع كثيرة أيضاً على معان طرقها المعري ، وهي من معاني شعراء العرب قديماً وحديثاً ، وعلى قلةٍ كان يبيّن أول من استعمل ذلك المعنى ممّن وصل إلينا تراثهم من شعراء العرب ، كقوله « أول من أثار هذا المعنى طرفة ، أو أوس بن حجر .. » وكان فيما سوى ذلك ينبه على أن هذا المعنى « كثيرٌ في الشعر[4] » ، أو كثير متردد في الشعر ، أو كثير في الشعر القديم والمحدث[5] وقال مثلاً « والشعراء يصفون أن الذئاب تُلم بهم في الفلوات[6] و « الشعراء يشبهون عيون الأجنة بالسيوف » . وأولع المعري بتصوير انطباع صورة السماء على صفحة الماء ، فقد نبه ابن السيد على ذلك ، وعقب عليه بقوله وقد أكثر المحدثون في هذا المعنى كقول القائل (البحتري)

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركّبَتْ فيها

وقول الآخر الخ ، ولم يكن يشير في هذا القسم إلى ما يَعني النقل أو الأخذ .

٣) وهناك معان اخترعها شعراء بأعيانهم كان أخذها أو البناء عليها مما يلفت النظر ويدعو إلى التنبيه ، وفيها يكون (الأخذ) و (اللمح) و (النظر) و (المقاربة) وما شابه ذلك من درجات . وهو في مصطلحاته دقيق ، لا يلقي

١) ص ١٠٤ ٢) ص ٧٩٢ ٣) ص ٩٠٧
٤) ص ٥٢٣ ٥) ص ١٦٣ ٦) ص ٥٠٧ .

الكلام إلا بعد ميزان . فهو يميز أنواعاً مختلفة من أخذ المعـــاني . فمن ذلك : المشابهة التامة وعبارته في ذلك (مثل) و (كما قال ..) وربما أكد هــذا النوع بكلمة أشد دلالة وهي قوله (أخذ أو (مأخوذ) . مثله قول المعري .

ومتحن لقاءكَ وهو موتٌ ... وهل يُنبي عن الموت امتحان

... وهذا مأخوذ عن قول أبي الطيب .

سَل عن شجاعته وزُره مسالماً ... وحذارِ ثم حذار منه محارباً

فالموت تعرفُ بالصفات طباعه ... لم تلق خلقا ذاق موتاً آيبا [1]

ومن ذلك أخذ المعنى والزيادة عليه [2] ، ومنه عكس المعنى [3] ، والمماثلة في المعنى دون اللفظ ، وأخذ المعنى ، ومخالفته في بعضــه [4] ومنه (النظر) ، و (الإشارة) [5] ومن ذلك توليد معنى من معنى سابق ومثله قول المعري :

يبيتُ مسهداً والليل يدعو ... بضوء الصبح خالقه ابتهالا

فقال الشارح . .. وهذا معنى طريف ولـّده من قول أبي الطيب

أعرمي طال هذا الليل فانظر ... أمنك الصبح يفرق أن يؤوبا

وأبو الطيب أول من أثار هذا المعنى، فأخذه أبو العلاء ، وخالف به مادهب اليه أبو الطيب .. [6] ومن ذلك أن يكون معنى المعري نحواً من معنى شاعر آخر [7] أو يكون موجوداً في بيت [8] شاعر آخر ولو عمدت إلى الأمثلة لطال الحديث في غير وقته ودون طائله، وسأكتفي بالإحالات على الارقام مع ملاحظة أن أرقام الأجزاء الخمسة متسلسلة ، فيغني الرقم عن الجزء .

٤) ومار الشارح كما أسلفت معاني المعري التي ولـّدها أو اخترعها [9] ، فأتم بذلك نظرته العامة على معانيه القديمة ، وذات الخيوط المشتركة من قــديم وحديث ، ومستدعاته . وجدير بالملاحظة والتأمل أن الشارح في النوع الثــالث الذي تحدثت عنه في معاني المعري المأخوذة من غيره – على أي وجه – ركز

---

١) ص ١٨٦ – ١٨٧ . ٢) ص ١٦٠ . ٣) ص ٢٣٤
٤) ص ٧٢٥ . ٥) ص ٤٥ ٦) ص ٦٨ – ٦٩
٧) ص ١٥٧ ، وانظر ١٥٨ ، ١٤٥ ٨) ص ٤٤ ، ٧٧ .
٩) مثــل صفحات . ٩٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٣١٥ ، ٤١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٥٣ ، ٦٩٥ .

على شارعرين اثنين نشكل حاص ، وهما أبو تمام [١] ، وأبو الطّيّب [٢] وكان ولعه بالمقارنة بين معاني المتنبي والمعري أكثر ، وهو في دلك يَلمح – بلا شك – ما كان عليه المعري من إعجاب بالمتنبي وشعره . وكانت نظرة الشارح عامة وموصوعية فهو حيناً يحكم للمعري بالتفوق وحيناً يحمل البلاغة في جانب أبي تمام والمتنبي من وجهة نظره ومقاييسه ، مثل دلك معالجته قول المعري في صفة الفرس .

يُحس وطء الررايا وهي نائمة فيبهب الحَري نفسَ الحادث المكر

قال . وهذا أبلغ في معناه من قول أبي الطيب

وتنصب للحري الخفي مسامعاً يخلْنَ مناجاة الضّمير تناديا [٣]

ملاحظات بلاغية لم يُعن الشارح دائماً بتبيان وجوه البيان والبديع في شعر المعري ، مكتفياً بما يسبغه على شرحه من وجوه الإيضاح واستخدام مصادر ثقافية غزيرة ولكنه مع هذا ألمح مرات كثيرة إلى الاستعارة في شعره ، وإلى التشبيه ، وسمّى التشبيه المقلوب عكساً ، حين خالف الشاعر ما اعتاد عليه الشعراء من التشبيهات [٤] وذكر من أنواع البديع الجناس [٥] ، وسماه أيضاً . التجنيس [٥] ، والمبالغه [٦] ، والتتميم [٧] ، والإيماء والإشارة [٨] ، والغلو [٩] ، كما ذكر الكناية [١٠] وهو يمرّ بالتسمية مراً سريعاً دون وقوفٍ ، أو طويل معالجة ، كمثل قوله في بيت المعري

«وباتت تُراعي البدرَ وهو كأنه من الخَوف لاقى بالكمال سِرارا

وهذه مبالغة في وصف الليل بالطويل» ونستطيع ان نقول إن اشارات الشارح البلاغية ، كانت قليلة ، وسريعة

ملاحظات عامة في الشرح ملاحظات كثيرة مبثوثة تتناول موضوعات

١) انظر مثلا صفحات ٥٨ ، ٧٤ ، ٨ ١٠٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ١٢ ١٠١ ، ٥٣ ١٠٤١ ، ١٠٥٥
٢) هذا كثير ، ومنه ٠٠ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١٠٣
٣) ص ٧٧ ٤) ص ٦ ٢ ٥) ص ١١٢٨ ، ١٢٩
٦) ص ٣٤٧ ، ٦٢٤ ٧) ص ٦٢ ٨) ص ٥٣٩ ، ١٢٨
٩) ص ٤ ١) ص ٢٢٣ .

شق . وسنستغني عن الافاضة في ذلك بذكر رؤوس الموضوعات والملاحظات. فمن ذلك معالجته بعض مشاكل الضرائر الشعرية مثل صرف ما لا ينصرف، ومنع المصروف وموقف النحويين منه (١)، وإجراء المنصوب مجرى المرفوع والمخفوض، وتحريك الساكن من بنية الكلمة، وإضافة الكاف الى الضمير مباشرة، ومسائل أخرى (٢). وناقش أموراً كثيرة أخرى كمعالجته تخليط النسابين (٣) واختلافهم في نسب قضاعة (٤)، وتفصيله أجناس الاغاني التي يدور عليها الغناء والإيقاع وأنها ثمانية (٥) وبسطه لعدد من أساطير العرب وحكاياتهم كحديث الغول والسعلاة (٦)، ولُبد (٧)، وما قيل في مَنشم (٨). وله ملاحظات تتعلق بالديانات كحديث «السامري» (٩) واختلافهم في الذبيح. اسماعيل أو إسحاق (١٠)، وقصة يوشع بن نون (١١) ورده على بعض المفسّرين لخطئه (١٢)، وذكره بعض نسب الخيل العربية (١٣) وإشارات كثيرة إلى الأمثال العربية والأحاديث النبوية وإشارات الى البلدان والأعلام إشارات سريعة لا تعدو التعريف المجزىء. ونقل أن المسيح بالسريانية (١٤) مشيحا، والسَّرَق بالفارسية. سره (١٥)، ولم يذكر مصدره فيها، ومثل هذا قليل. وذكر في عدة مواضع مصطلحات عروضية وشيئاً يتعلق بالقافية وعيوبها مما يدل على اطلاع وممارسة (١٦).

ويلحق بالمعلومات العامة ما نثره الشارح من ملاحظات جغرافية وفلكية. كحديثه عن الرياح وأسمائها عند العرب وأسماء النجوم ومواقعها كالسّماكين والشعرى اليمانية وبنات نعش... وأسلوب معالجته هذه الناحية يُرجّح اطلاعه على كتب متخصصة في الفلك ومعرفته بمذاهبهم واعتقاداتهم في ذلك. ومنه

١) ص. ٧٨٣، ١٢٥، ١٣١، ٢٦٦. انظر ٩٨٢، ٩٠٢، ٩٠٤.
٢) ص ١٠٧١. ٣) ص ١٠٨٧ ٤) ص. ١١٨٩.
٥) ص ١١٦٨ ٦) ص ١٤٢٩ ٧) ص. ٨٥٦
٨) ص. ١١٩٠. ٩) ص ٢٨٧. ١٠) ص ٤ ٢٧٨.
١١) ص ٩٩٣. ١٢) ص ٩١ ١٣)
١٤) ص ٢٤٧. ١٥) ص. ٧٦٥.
١٦) صفحات. ٣٩٩، ٥٨٢، ٥٧٣، ٥٨٤، ١١٤٦، ١١٥٩، ١٢٨٢، ١٢٨٣.

شرح بيت المعري :

إذا البرجيس والمرّيخ راما سوى ما رمْت حابها الكيْوانُ

البرجيس : المشتري وهو سعد . والمريخ . الأحمر ، وهو نحس . يقول . البرجيس يُسد من يواليك ، والمريخ يَنحس من يعاديك وإن أرادا غير ذلك تعذر عليهما كون ما أرادا ، ولم تطاوعهما الاقدار على إنفاد ما راماه ، تعالى الله عن أن يكون له منازع في أمره ، أو مشارك له في قضـــائه وقدره [1] ... واستدراك الشارح في دحض مزاعم المنجّمين يعني اطلاعه على أقاويلهم ، ويعني موقفاً فكرياً دينياً أيضاً .

مسائل من المنطق والفلسفة وعلم الكلام . لان السّيد ماع في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، يدل على ذلك بعض ما وصلنـا من تراثه مثل كتاب (الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة) [2] وفي مناقشاته لأبي بكر ابن العربي في (الانتصار) ما يدل على اطلاع ونفوذ . وفي شرحه على سقط الزند أبدى عدة ملاحظات واستطرادات مفيدة في تبيّن مذهبه ، ومدى تمكنه . وليس المجال واسعاً لعرض كل ما جاء به ، والإسهـاب في هذا أجدر بمتخصص ، ولكنها الإشارة العابرة ، الدالة . قال في بيت المعرّي

« يقوم النصل في طَرفي نَقيض يكون تبـاينٌ منه اشتِكالا

النقيض والضد سواء في المشهور من اللغة ، فأما أهل المنطق فإنهم يجعلون النقيض في صناعتهم غير الضد ، ويرون أن النقيض أشد في الخلاف من الضد ، فيجعلون النقيضين من القضايا الشيئين اللذين يقتسمان الصدق والكذب أبداً ولا يجتمعان على صدق ولا على كذب . ويجعلون الضدين الشيئين اللذين يقتسمان الصدق والكذب في الأمور الممكنة[3] ..» وشرح بيت المعري بناء على ذلك . وناقش الشطر الثاني من قول المعري .

---

١) صفحة ١٩٧ ، وغيرها كثير مثل ٢١، ٥ ، ٩٩٥ ، ٤٥ ، ٥٧١ ، ٦٥٩ ، ٧٨٩

٢) نشره في مصر - بعناية المغفور له الشيخ زاهد الكوثري - السيد عزة العطار (١٣٦٥ - ١٩٤٦) بمقدمة قصيرة . وفي تاريخ الفكر الأندلسي ٢٣٤ - ٢٣٥ أن آسين بلاثيوس نشره مع ترجمة له سنة ١٩٤ وقـــال فيه « ان كتاب الحدائق يعتبر أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الاسلامية والفكر اليوناني » وهذا كلام تحته نظر

٣) ص

قل للذي عُرِفت حقيقتُه به إذ لا يقام على الدليل دَليلُ

« وقوله اذ لا يقوم على الدليل دليل يريد أن البرهان لا يحتاج في صحته إلى برهان ولو لزم أن يكون للبرهان برهان للزم أن يكون لبرهانه برهان ، ويستمر ذلك الى ما لانهاية ، وهذا يوجب ألا يكون شيء معلوماً . غير أن في هذا الموضع شيئاً يجب أن يبين ، وذلك أن المقدمات التي يتوصل بها الى معرفة الأشياء المجهولة أول وثوان . فالمقدمات الأول هي المعقولات والمحسوسات والمقبولات والمشهورات . » وأسهب ثم قال « وانما ذكرنا الأدلة والمقدمات على ما تقتضيه المقاييس المنطقية التي تتصرف في جميع العلوم ، وأما الأدلة الشرعية التي يستعملها المتكلمون من أهل ملتنا فانهم يقسمونها ثلاثة أقسام . أصل ، ومعقول أصل ، واستصحاب حال . وهي راجعة الى ما تقدم غير خارجة عنه . . ، ولأجل ما ذكرناه من اختلاف أحوال الأدلة ينبغي أن يكون في بيت أبي العلاء محذوف تقديره إذ لا يقام على الدليل الأول دليل . ونحو ذلك ، فحذف الصفة ، كما قال تعالى (ولا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) اي وزناً نافعاً .[1] »

وناقش — على طريقة علماء الكلام — عدم محبة الأنبياء للموت[2] ، وفرق اصطلاحيًا بين الزمن والدهر[3] — وناقش ذلك في رسالته الانتصار — ونقل آراء الفلاسفة اليونان في الحياة بعد الممات ، ونصّ على النقل من الفارابي ، ثم ذكر رأي الشّرائع التي اتفقت كلها « على بقاء النفوس كلها خيرها وشريرها ، وهو الصحيح الذي تدل عليه البراهين ، وما عدا ذلك باطل عند التحصيل » .[4]

وبيَّن موقفه ثانية — وهو الانحياز الى رأي أهل الشريعة دون أهل الفلسفة — حين ناقش قول المعري

والذي حارت البريّةُ فيه حَيوانٌ مستحدث من جَماد

« وقد اختلف الناس في علة ارتباط النفس الناطقة بالجسم مدّة من الزمان ، وفي علة حصول النفس الناطقة به في هذا العالم ، ومفارقتها عالمها الخاص بها فأصحاب الشرائع كلهم مُجمِعون على أن السبب في ذلك ما قصه الله تعالى علينا من حديث آدم صلى الله عليه وسلم وعصيانه الذي أوجب إهباطه الى

١) صفحة ٨٧٤ ٨٧٥ . ٢) ص ٩٢٢ ٣) ٩٧٦ ٤) صفحة ٩٧٩

الأرض . وللفلاسفة في ذلك آراء مختلفة لم ير َوجهاً لذكرها ، لأن ما ذكره الله تعالى هو الحق ، وما عداه يجب ألا ّ يُلتفت اليه ، والله الموفق (١) » وله كلام يدل على اطلاعــه على مذاهب الفرق الإسلامية (٢) وله موقف صُلب من غلو المعري في مديحه لأحد الشيعة فقد علق بقوله « تحت هذا الكلام معنى نكره التصريح به والإفصاح عنه . وقد علا في مدح هذا الشيعي علواً تجاوز فيــه الحدود (٣) » . ولا شك في ان دراسة هذه الملاحظات – وغيرها – مع كتب ابن السيد الأخرى ستوضح منهجاً كاملا له في الفلسفة وعلم الكلام ، وقد اضفى على شرحه بهذه الملاحظات أهمية ذات بال

موقفه من المعري . اختلفت مواقف أعلام الإسلام في دين المعري وتقويم سلوكه بين البراءة التامة والاتهام الذي لا مثنوية فيه والموقف من ذلك – اذا عُلـّل – دل على مذهب ورأي وطريقــة في استخلاص النتائج . وموقف ابن السيد من بعض ما عرض له المعري في السقط من إشارات لها مساس بالديانة موقف إيجابي معلل وهو يبرىء المعري – ضمناً – مما رُنّ به ، وأنكر عليه أموراً تعرِضُ لكل أحد من عامة المسلمين وخاصتهم وقال فيــه في مناسبة بيت له . « وكان المعري متديناً كثير الصيام والصدقة ، تُسمع له بالليل هينمة لا تُفهَم .. وكان لا يرى أكل اللحم ولا شرب المسكر ولا النكاح ، وكان ذا عفة ونزاهة نفس ، إلا أنه كان مخالفاً لما عليـــه أهل السنة (٤) » وهذا غايةُ ما قال فيه ، وهو إلى البراءة أقرب منه إلى أدنى اتهام .

وشرح قول المعري

إذا عَيـّبَ المرءُ استَسَرّ حديثـُه ولم تُحارِ الأفكارُ عنه بما يُغني

فشرح ثم قال « ولم يُرِدْ أنه غير متيقـّن عمـا يقضي الله به من هلكة أو سلامة ، وهذا أمر قد تحير فيـــه الصالحون وإن كانوا لا يشكـون في أنهم مبعوثون (٥) » وبعده

تَضلُّ العقول الهِبْرِزيّاتُ رشدَها ولا يَسلم الرأي القويّ من الأفْنِ

١) صفحة ١٠٠٥ ٢) ص ٤٤ ، ٤٥ – ٤٦ ٣) ص ٤٤٨
٤) صفحة ١١٩٦ ٥) ص ٩١٦ – ٩١٧

شحا رَكْبًا وأعراساً وإبلاً وزاد فكاد أن يشحو الرّحالا

وقال بعده وقد قال — المعري — ما هو أبلغ من هذا في موضع آخر ، وهو ·

اذا أطّرب سمعُ قلت والبوم كاربي أحدكم لم تفهموا طرب النّسع [1]

وهو يناقش معاني المعري أيضاً مناقشة خبير ، غير مترمّت لرأيه ، ويقلب الرأى على ما يحتمل ، قال المعري

ويسلك رمحه في كل باع كما سلك المضيقَ الأفعوانُ

وقال الشارح « . شبّه دخول الرُّمح في المطعون بدخول الأفعوان في المكان الضيق ، ولو اتفق له ذكر الحية أو الأرقم أو الأسود أو نحو ذلك لكان أكمل للتّشبيه لأن الأفعوان قصير والرمح طويل ، ولكن الذى حسّن ذلك أنه لم يقصد إلى الطول والقصر وإنما إلى تمثيل السلوك بالسلوك » . وهذا نقد جيد ، واستدراك جيد أيضاً بالتماس قصد المعري الأول من الصُّورة والشارح ينبّه الى مواضع كان يتمنّى لو أن الشاعر استدركها وأتمها في بعض معانيه ، كما فعل في بيت المعرى :

قلدتَ كل مهاةٍ عقدَ غانية وفزت بالشكر في الآرام والعُفر

فقال « . . ولو اتفق له أن يذكر في هذا البيت البقر مع الآرام لكان أكمل للمعنى ، لأنه أفردَ الظباء بالشكر ، فكان إخلالاً بالصّنعة » [2] . ومثله تعليقه على بيت المعري الثاني من قوله

وباتَت تُراعي البدر وهو كأنه من الخوف لاقى بالكمال سِرارا

تأخّر عن جيش الصّباح لضعفه فأوثَقَهُ جيشُ الظلام إسَارا

« . ولو ذكر المعري الكواكب في هذا البيت مع البدر لكان أكمل للغرض الذي رمَى إليه ، وحام بفكره عليه » [3] .

وهو في مثل هذه الملاحظات يستمدّ من مخزون ثقافته العربية ، وما اعتاده الشعراء العرب من صور ، أو يستلهم ذهنَه في تتميم صُوَر المعرّي بمعان

١) صفحة ٧٩ ، وانظر ٦٨ ، ١٩٠ ه ٢) صفحة ١٢٧ — ١٢٨
٣) صفحة ١٧٩ — ١٨

لا تخرج عن الذوق العربي ، ولو كانت صوراً ذاتية من اختراعه

ومنه نقد متصل باللغة بسبب متين ، ومن ذلك انتقاده المعري في قوله متيماً وصف الإبل ، وذاكراً أحد الممدوحين

فنحرتها على الحسنى ، وأهلٌ لما طَمَت حلائقك الحِسان

فشرحه ، وقال « وهذا من الشعر المعيب عند نُقّاد الكلام ، لأنه أضمر اسم الممدوح ولم يصرح به فصار الشعر مُبهَماً لا يُعلم فيمن قيل ، ومثل هذا الشعر لا يَستحسنه من مُدِح به ولا يَهشُّ إليه « وخيرُ الشعر ما كان مَوْسوماً باسم مَنْ قيل فيه ، حتى لا تكون فيه شركة لغيره . مدحاً كان أو هجواً .. »[1] . وهو يعود إلى اللغة حكماً في مواضع مختلفة ، وقد ناقش معنى بيت للمعري ثم أسقط من حسابه معنى مُعَيناً ، ولعله في ذلك يَرُدُّ على الشخص الأندلسي المعاصر الذي سبق أن انتقده ، قال المعري

وما نَهنهت في طلب ولكن هي الأيام لا تُعطي قِيادا

فقال « ومعنى نهنهت ارتَدعت وقصرت وأصله نأنأت فأبدل من الهمزة هاء وأما قولهم نهنهت الرحل عن الشيء إذا كففته عنه وزجرته فإن الهاء فيه أصل غير بدل من همزة . ولا يستقيم أن يحمل بيت المعري على هذا ، لأنه لا يقال نهنه الرحل ، إنما يقال تَنهنه الرحل عن الشيء »[2] . ولكن احتكامه إلى اللغة لا يحجب عنه مرونة لازمة ، لتوجيه المعنى بما يقتضيه الحال والمقام لقد شاع في الشعر العربي تشبيه المرأة بالشمس والرجل بالقمر ، ومن ذلك بيت المتنبي المشهور . ولكنه غَيّر المألوف ، لِمتابَعَةِ غرض المعري نفسه إضافةً لما يقتضيه المقام . قال المعري

. . يا لها نعمةً وليس ببِدع أن تحور الشُموس رِقّ البُدور

فقال . « لا يجوز أن يعني بالشموس ههنا النساء وبالبدور الرجال لأن السادة ذوي الهمم لا يستحسنون أن يوصفوا بأن نساءَهم تستملكهم وتستعبدهم ، بل هو بطريق الهجو أشبه منه بطريق المدح . ألا ترى إلى قول أبي تمام .. وقول أبي فراس

١) صفحة ١٧٩ – ١٨٠ ٢) صفحة ٥٥٤

ابن بدرون
وشرحه على قصيدة ابن عبدون
(٠٠٠ – بعد ٦٠٨)

لابن عبدون – وهو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون اليابري[1] قصيدة شهيرة تسمّى البسّامة ، وهي قصيدة رثى بها بني الأفطس أصحاب بَطَلْيوس . وقد كان ابن عبدون وزيراً لدى بني الأفطس ، إلى انتهاء دولتهم سنة ٤٨٥ . ثم انتقل بعدهم الى خدمة المرابطين . وكان كاتباً مترسلاً عالماً بالتاريخ والحديث والآداب . قال صاحب المطرب . « وقد رثى ملوك بني المظفر الوزير العالم المستبحر في جميع الفنون أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون بقصيدته الفريدة المتضمنة للتواريخ والأنساب والحكم والآداب ، وهي مما يَعتني بها أولو الألباب – وأولها –

الدهرُ يفجع بعد العَين بالأثر ... فما البكاءُ على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً ... عن نومة بين ناب الليث والظُّفر[2]

وهي قصيدة شاعت في الأندلس وغيرها ، وكانت لها رنّتها الحزينة لما عدّد فيها من مآسي التاريخ وحدثانه .

وقد قام بشرح هذه القصيدة الأديب الأندلسي عبد الملك بن عبد الله ابن بدرون الشِّلْبي . ترجم له ابن الأبار في التكملة ترجمة مختزلة ، وقال إنّه

---

* ترجمته في التكملة لابن الأبار – طبعة مجريط – ١٨٨٧ ، ج ٢ ص ٦٢٠ ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك . وجدت ترجمته بخط العلامة الشنقيطي منقولة عن الذيل والتكملة في نسخته المطبوعة من شرح ابن بدرون المحفوظة بدار الكتب وانظر نفح الطيب ١ ١٧٣ ، ٢ ٦٩ ، وكشف الظنون ٢ ١٣٢٩ وهدية العارفين ١ ٦٢٧
و Brock G I 340, S I 579

١) انظر ترجمته في المغرب ١ ٣٧٤ . وقلائد العقيان ١٤٥ ، والمطرب ٢٧ – ٣٣ ، ١٨٠ وحاشية المغرب ١ : ٣٧٤ و Brock G I 320, S I 480

٢) المطرب لابن دحية ٣٧ والقصيدة فيه ما بين ٢٧ – ٣٣ .

تلقى عن مشيخة بلده ، وأنه عني بالآداب ، وذكر كتابه « كِمامة الزهر وصدفة الدُّرر [1] » ورأى ابن الأبار إجازة من ابن بدرون مؤرخة في سنة ٦٠٨ ، مما يقطع بأنه كان حياً الى هذه السنة على أقل تقدير ، فهو على هذا من أعلام القرن السادس ، وإن كان له ذكر في أول السابع .

وترجم له ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة وقال فيه « وكان أديباً كاتباً بليغاً ، حسن الخط جيد الضبط ، من أهل العناية التامة بالآداب ، تاريخياً ، ذاكراً نبيلاً ، وشرحه قصيدة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون في رثاء المتوكل على الله أبي بكر عمر بن محمد بن مسلمة التُّجيبي بن الأفطس المسمى « كِمامة الزّهر وصدفة الدُّرر » شاهدٌ بنبله ومعرفته بأيام الناس وإشرافه على حوادث الزمان . وكان حياً سنة ثمان وستمئة ، وتوفي بشِلب » . وذكر أنه روى عنه أبو عبد الله بن الصفّار الضرير ، وحدث عنه بالإجازة أبو الخطّاب ابن خليل

وذكره المقري في وصف مدينة شِلب [2] فقال : ومنها القائد أبو مروان [3] عبد الملك بن بدران ، وربما قيل : بن بدرون الأديب المشهور . شارح قصيدة ابن عبدون التي أولها

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاءُ على الأشباح والصورَ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد الشرقية ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله

العشق لذته التعنيقُ والقُبَل ... كما منغِّصه التّثريبُ والعذلُ

يا ليت شعريَ هل يقضي وصالكمُ ... لولا المنى لم يكن ذا العمر يتصل [4]

وأخبار ابن بدرون بعد ذلك قليلة [5] .

موضوع القصيدة رأى ابن عبدون ما حلَّ بأرباب نعمته ، وأولي أمر

---

١) مطبوعة باسم كمامة الزهر وفريدة الدرر .
٢) نفح الطيب ٢ ١٧٢ – ١٧٣
٣) في التكملة ، والذيل أن كنيته أبو القاسم .
٤) نفح الطيب ١ ١٧٣ .
٥) الكتاب مطبوع طبعة محققة سنة ١٨٤٦ بتحقيق رينهارت دوزي . وطبع بمصر سنة ١٣٤٠ بمطبعة السعادة واعتمادنا على طبعة دوزي .

بطليوس من بني الأفطس ، بعد سقوط دولتهم وانتهاب قصورهم وأيلولة ملوكهم وأمرائهم إلى حال الأسر أو القتل أو التشريد ، فأنشأ هذه القصيدة التي يعدّد فيها فجائع الدهر على امتداده . واستشهد بعدد من الحوادث القديمة والحديثة كأنها أمثال تضرب أو عظات تُتلى . وضمّنها أخباراً كثيرة وأسماء مختلفة وسرد ما حدث من سقوط دول وعلية ملوك ، فعرّج على الفُرس والروم والتُّرك والخَزَر ، وجاء بأخبار العرب البائدة ، وعرب الجنوب مما كان قبل الإسلام وذكر وقائع اسلامية كثيرة في مطلع الإسلام ، وفي عهد بني أميّة وبني العباس . وعرّج على الأندلس أيضاً ، ورثى بني الأفطس رثاء مؤثراً :

مَن للبراعة أو مَن للبراعة أو ... من السّماحة أو للنفع والضّرر
أو دفع كارثة ، أو رَدْع رادفة ... أو قمع حادثة ، تُعيي على القدر
ويح السماح ، وويح البأس لو سلما ... واحسرة الدين والدنيا على عُمَر[1]

عمل ابن بدرون . كتاب ابن بدرون نوع خاصّ من الشروح ، إذ قصرَه على شرح الحوادث والوقائع التاريخية في القصيدة ، وأحالَ في الأسماء المذكورة على وقائع كانت لهم . قال في مقدمة كتابه . « جمَعني يوماً من الأيام مع جماعة من فرسان النثار والنظام ندِيُّ أدبٍ ومجلس دعا إلى الإفاضة في هذا الشأن ونَدب . فأفضنا قداح المذاكرة في الأدب وجماله ، وأفضنا أقداح راحِ الحديث في الشعر ورجاله ، الذي هو ديوان العرب . وذكرنا مَن درج من الأمم ، وفرع في الشعر أبواباً لم يفرعها غيره ممن كان له قدم القدم ، وما أبدع فيه من أنواع البديع كالتكافؤ والتفريع ، والحشو والتّذييع ، والتّسميط والتوشيع والالتفات ، والإشارة والمقابلة والإستعارة والتصريح والتّلويح والتصدير والتوشيح ، والتجنيس والتضادّ والترديد والاستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالة والتّتميم[2] ثم جلنا في ميدان ذكر ذكر الإحالات ورفضنا ما سواها ، وذكرنا من اطّلع فيها ومن رمد حين شواها فأنشد أحد الحاضرين قصيدة الوزير الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون .. فإنه ذكر فيها كثيراً من الملوك

١) المطرب لابن دحية ٣٣ . ٢) هذه كلها مصطلحات في البيان والبديع

ممّن دنّت الأيام إليه أيّ دبيب ، وألحقت شمسهم عند الظهيرة بالمغيب ، ومشت إليهم الضراء .. فأكثرهم لم يعرف كُنهَ حالات تلك الإحالات ، حتى كان فيهم من قال . ما هذه القصيدة إلا كالمُعَمّى ، فكان في القوم من أشار نحوي ، وقال لو شاء فلان لافتتح رتاجهـا المبهم ، وأخذ في قصّ أخبارها وأنبائهم .. » (١) .

فهو كان – إذن – مشهوراً بين رفاقه في أندية الأدب بمعرفة الأخبار والتواريخ ، حتى اختاروه من بينهم لفكّ معميات قصيدة ابن عبدون . وهذه المقدمة تشمل عدداً من أسماء مصطلحات في البيان والبديع تغري القارىء بما قد يُتحفه الشارح به ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، واشتغل من أول كتابه إلى آخره بشرح (إحالات) ابن عبدون على الحوادث التاريخية المختلفة ، واستنفد ذلك كل طاقته ، ولو طبق ما عنده من آراء نظرية – كما نقول – في هذه القصيدة لجاءنا بجديد في الدراسات الأندلسية النقدية ، والبلاغية

منهجه . بَيّن مقصوده في تتمة مقدمته ،قال « فعوّلت أن أوري قدحها وأطلع صبحها وأقصّ شرحها وأجمع أخبارها وأقتص آثارها فإنه يحتاج من يُعنى بمعرفة قصصها أن يطالع عدة كتب ، وعندها يتعلق من معرفتها بسبب . فذكرت إثرَ كل بيت ساق فيه شرحه مفسراً ، وقدمت من الابيات من تقدم خبره وسبق به ورِدُه أو صَدَرُه ، فإني ألفيته قد عَوّل على هذا الشأن في صدور الأبيات ولم يحفل بأعجازها مع قربها من إطنابها وإيجارها وأول هذه القصيدة

الدّهرُ يفجعُ بعدَ العَيْنِ بالأثَرِ وما البُكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ

وقد اختُلِف في الفرس وأنسابها .. » (٢) .

مصادره . لا يذكر الشارح – على عاداتهم – إلا عدداً قليلاً من المصادر ، ومن ذلك المَجسطي لبطليموس ، وتاريخ الخوارزمي ، ومختصر تاريخ الطبري لابن رَيب ، المعارف لابن قتيبة ، مختصر الاوراق للصولي ، كتاب ثعلة وعفرة وهو كتاب على نحو كليلة ودمنة .

١) صفحة ٢ – ٤ ٢) صفحة ٤ – ٧

اهمية الكتاب . هو كتاب إلى التاريخ أقرب منه الى الأدب وبتعبير أدق هو كتاب في القصص التاريخي لأنه خرج عن السرد المباشر المتسلسل الى المنتقى والمنقول والاخبار ، وهو يدل على اهتمام الأندلسيين بالثقافة عموماً وبأخبار الأولين وسير من تاريخ المشرق مختلفة .

مثال منه .

شرح قول ابن عبدون مُلِمّاً بقصة محاولة قتل عمرو بن العاص ·

ولَيتها إذ فدت عَمراً بخارجةٍ فَدَت علياً بِمَن شاءت من البَشر

« هذا الذي ذكر هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن عمرو . وخارجة . رجل من سهم بن عمرو بن هصيص رهط عمرو بن العاص . وكان من خبره أنه لما اجتمعت الخوارج على قتل علي رضي الله عنه ومعاوية وعمرو كما قدمنا ذكره ، مشى زادويه مولى بني العنبر إلى عمرو على وعده مع صاحبيه في تلك الليلة وأرصد لعمرو ، وشكا عمرو تلك الليلة من بطنه فلم يخرج للصلاة فخرج خارجة ليصلي بالناس عوض عمرو ، فظنه زادويه عمْراً فضربه وقتله وأخذ ، وأُدخل به على عمرو فسمعهم يخاطبونه بالإمرة فقال أوما قتلتُ عمراً قيل له لا ! إنما قتلت خارجة ، فقال أردت عمراً والله أراد خارجة . فذلك قوله . ولَيتها والهاء عائدة على الليالي .

ويحكى عنه من حسن فطنته وتهديه للأمور والغوامض بذكائه أنه لما نزل على عزة فحاصرها بعث عِلجُها أن ابعث إليّ رجلاً من أصحابك . .الخ القصة » .

وتتوالى شروحه على هذا النمط ، وقد تستدعي القصة أخرى . وقد خرج في شرحه عن أسلوب السجع الذي بدأ به كتابه .

الشروح الادبية الجامعة

الشريشي شارح المقامات

(٥٥٧ – ٦١٩)

المقامات في الأندلس : كان الأندلسيون يتلقّفون ما يصل إليهم من تراث المشرق الحفظ والمُدارسة ، ولا يلبث –من ثَمّ– أن يؤول إلى مادة للمعارضة ، ومن ذلك من المقامات . فقد دخلت مقامات بديع الزمان الأندلس مع أواخر القرن الرابع « وكان من أول المتذوّقين لها الناسجين على منوالها ابن شُهيد»[١]. وعارَضها أيضاً ابن َشرف القَيرواني نزيل الأندلس ، فقد أورد ابن بسام في الدخيرة طرفاً من أخباره وآثاره وقال . « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه ، وصبّ فيها على قالبه »[٢] . وممّن عارض البديع أيضاً أبو المغُيرة بن َحزم ، قال في الذخيرة « وَعرَضْت على أبي المغيرة رسالة بديع الزمان في الكلام الذي خطب إليه وده بعد أن غدر ، ونقل وجهه وأزهر ، فعارضها برقعة يقول فيها »[٣]. وهناك محاولات أخرى ومعارضات[٤] ، ولكن مقامات بديع الزمان لم تتمكّن من الأندلسيين مثل تمكن مقامات الحَريري الذي خلف بديع الزمان، فانصرفوا إليها بالمدارسة والرواية ،والشرح والمعارضة ، وفشا فيهم ذكرها حتى قال ابن سعيد عنها «إنها َشرّقت وغربت حتى صار ابتذالهُا عيبًها »[٥] . وَحصّل عدد من الأندلسيين رواية المقامات عن الحريري ببغداد ، فانتشرت في الأندلس وذاعت ، وحُفظت طرق روايتها ومنها رواية ابن خير صاحب الفهرسة قال « كتاب الخمسين مقامة من إنشاء الشيخ الإمام أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري ، حدثني بها الشيخ

١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) د احسان عباس ٣ ٣

٢) الذخيرة ٤ – ١ ١٥٤   ٣) الذخيرة ١ – ١ ١١٧

٤) الذخيرة ١ – ٢ ١٨٤ ، ١ – ٢ ٢٤١

٥) عنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد ١

الحاج المحدث أبو الحجاج يوسف بن علي بن محمد القضاعي ثم الأندي رحمه الله ، قراءة مني عليه بلفظه بدكانه بحاضرة المَرِيّة حرسها الله ، في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٤ ، قال حدثني بها الشيخ الإمام الأجل الرئيس الأوحد أبو محمد الحريري قدس الله روحه ، قراءة مني عليه وسماعاً غير مرة بمنزله ببغداد حرسها الله في شوال سنة ٥٠٤ » [١]. ومنهم الحسن بن علي البطليوسي الذي « رحل فسمع الحديث ، وسمع مقامات الحريري ببغداد » [٢].وأبو جعفر أحمد بن محمد الكناني المرسي : « له رحلة ، سمع المقامات بدمشق عن أبي الطاهر الخشوعي سنة ٥٨٠ [٣] ولقي الحريريّ أيضاً . عيسى بن ابراهيم بن جمهور القيسي ، وأخذ عنه مقاماته [٤] . وشرحها كثيرون منهم أحمد بن داود بن يوسف الجُذامي [٥] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الزهري الأندلسي الإشبيلي [٦] ، ومحمد بن عبد الله القرطبي ، [٧] وغيرهم .

والمقامات التي عارض بها أصحابها البديع ، والحريري كثيرة ، وبعضها مجموع في كتاب مثل (المقامات اللزومية) للسرقسطي الإشْتَرْكُوني ، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد . وقد استمرت المعارضات الى حوالي القرن التاسع ومنها مقامات لسان الدين بن الخطيب والقاضي الشّاهي وأبي عمر الرّحال [٨] في أواخر القرن الثامن ولن نخوض في تطور فن المقامة في الاندلس أو نتعرض لدراستها تاريخياً ، وفنياً ، فلهذا مجال آخر .

الشارح . ذكر أبو الحسن الرُعيني في برنامجه أن الشّريشي [٩] في جملة

١) بغية الملتمس ٤٧٧ وفي ابن خير ٣٧٨ ٢) التكملة لابن الآبار ٢٦ .
٣) النفح ٣ ٣٦ . ٤) الصلة ٢ . ٤٤ ٥) التكملة ٩٢ ٦) معجم ٢ ٤١٢
٧) المعرب ١٠ ١١٢ ٨) عصر الطوائف والمرابطين ٣٠٣ — فما بعد
٩) شريش من كورشذونة بالأندلس (الروض المعطار ١ ٢) وترجمة أبي العباس الشريشي في التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار ١ ١١١ — ١١٢ ، وبرنامج شيوخ الرعيني الإشبيلي ٩٠ — ٩١ — ، وبغية الوعاة ١ . ٣٣١ وهو ينقل عن ابن عبد الملك المراكشي وذكره في نفح الطيب ٤ ٤٠٨ — ٤٠٩ وترجم له في ٢ . ٣١٦ — ٣١٧ ، وينقل عن ابن الآبار وغيره دون بيان وانظر Brock G I 277

شيوخه ، وصدّره بصفة « الشيخ الأستاذ المقرىء الأديب النحوي » . وقال في اسمه كاملاً « أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي » . ثم عقب بقوله « هكذا كتب لي اسمه بخطه » [1] وذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة فقال إنه « كان مبرّزاً في المعرفة بالنحو ، حافظاً للغات ، ذاكراً للآداب كاتباً بليغاً فصيحاً ثقة عني بالرحلة في طلب العلم » [2] وكان يتعاطى الإقراء والتعليم فقد « تصدر لإقراء اللغة والأدب والعربية والعروض » . ومن الكتب التي كان يُقرِئها مقامات الحريري وشرحه عليها ، وقد كان ابن الأبار ممّن أخذوا عنه ، قال في التكملة . « لقيته [3] بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجّهي إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمئة ، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ... ثم لقيته ثانية مَقدَمَهُ مرسية » . وفي هذا الخبر ما يشعر برحلته للتعليم مثل رحلاته السابقة لطلب العلم .

شيوخه : أخذ الشريشي قراءة وسماعاً عن أهل بلده : [4] فمن شيوخه القاضيان أبو بكر بن أزهر الحجري ، وقد ذكره الشارح في كتابه ١ . ٨٨ قال في شرح كلمة « هكذا كان يفسّرها شيخنا أبو بكر بن أزهر عن ابن جهور » ، وأبو الحسن بن لبال الزاهد وهو من شعراء المطرب [5] وقال في التكملة [6] إن له شرحاً على المقامات ومنهم أبو بكر بن مالك [4] وأبو بكر ابن عبيد السكسكي [4] . وأخذ عن جماعة من أهل إشبيلية منهم أبو عبد الله بن زرقون ، وقد ذكره في كتابه [7] فقال «وحدثني الفقيه أبو عبد الله بن زرقون في بستانه بطُريانه أيام قراءتي عليه النوادر والكامل ، وكان رحمه الله ذاكراً

١) برنامج شيوخ الرعيني ـ ابراهيم شبوح ـ (وزارة الثقافة ١٣٨١ ـ ١٩٦٢) ٩
٢) نقله في البغية ١ ٣٣١ . ٣) التكملة لابن الأبار ١١١ ٤) الرعيني . ٩٠
٥) المطرب لابن دحية (مصر) . ٩٧ وقال فيه وهو عين ذلك المصر ، وفارسه في الفقه والنظم والنثر . » ٦) التكملة ١١١ ، وترجم له في المغرب ١ ٣٠٣
٧) شرح مقامات الحريري للشريشي (مصر ١٣٠٨) ٢ . ١٠٤

بالطريقة الأدبية مع تميزه بالطريقة الفقهية » . ومنهم ابن السالف . أبو الحسين، وبخمة ابن مقدام [1] وجماعة من أهل مالقة منهم ابن الفخار ، وغيرهم من أهل سبتة وأهل فاس . وذكر الرعيني أن الكركنتي من أهل المشرق أجازه [2] .
وأكثر في شرحه من ذكر ابن جبير الرحالة باعتباره من شيوخه ، ونقل عنه كثيراً . وأخذ عنه جماعة منهم ابن الأبار صاحب التكملة وهو مشهور ، وقال بعد ذكر شرح المقامات للشريشي « فسمعت عليه بعضه ، وأجاز لي في سائره مع رواياته ، وتواليفه [3] » وأبو الحسن الرُعيني ، قال . « لقيتـه بشريش عام خمسة عشر وست مئة ، وحضرت مجلسه وأخذت عنـــه ، وأجاز لي جميع ما رواه وألفه [1] »

آثاره . تنوّعت مؤلفاته بين اللغة والأدب والنحو والعروص ، وقد عرفنا من كتبه ١) شرح الإيضاح للفارسي [4] ٢) شرح الجمل للزجاجي [4] .
٣) شرح عروض الشعر ، كذا سمـــاه في البغية ، وقال ابن الأبار « وله في العروض تآليف » . ٤) مختصر نوادر القالي [5] ٥) وله مجموع شعري وقال ابن الأبار « وجمع مشاهير قصائد العرب » ٦) برنامج شيوخه قال الرعيني « وأخبرني رحمه الله أن له برنامجاً اشتمل على ذكر شيوخه ورواياته عنهم [2] »
٧) شرح مقامات الحريري • وفي التكملة « شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ كبراها الأدبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة » ، ونقل في بغية الوعاة « وله ثلاثـــة شروح على المقامات » . وقال الرُعيني « وكتابه الكبير أيضاً في شرح المقامات ، وكتابه الصغير في شرح لغاتها مجرداً » . وظاهر قول الرعيني أنهما شرحان كبير أدبي ، وصغير لغوي أما الشريشي فقال في مقدمته بعد وصف منهجه وعمله في شرحه الأدبي الكبير في صفحتي ٤–٥ ، « ثم رأيت الشارحين لها – يعني المقامات – من أولي العصر كالمحديهي وابن ظفر [6] قد تجرّدوا مختصرات وجيزة اقتصروا فيها على إيراد اللغـــات فحذوت حذوهم

١) الرعيني ٩ ٢) الرعيني ٩١ ٣) التكملة . ١١١
٤) البغية للسيوطي ١ ٣٣١ التكملة ١١١
٥) البغية ، والتكملة ، وبرنامج الرعيني ٦) شرح المقامات . ٥ .

في مختصر أوردتها فيه على الكمال ، ووفيتهـــا حقـّها من رفع الغلط وكشف الإشكال ، ولم أخل تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال، فجاء غاية في هذا الباب مُغنياً في اللغات العربية عن كل كتاب ، فإن فاتــه هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات ، فلذلك الفرع ´شفوف الاستيعاب في اللغات..[1] والرُّعيني لقي الشريشي سنة خمس عشرة وست مئة ، وابن الأبار لقيه سنة ست عشرة ، وهو توفي سنة تسع عشرة ؛ أفأدرك شرحاً وسيطاً ، بين المختصر والبسيط في ثلاث سنوات أخيرة من حياته ، فلم يسجل ذلك في شرحه الكبير الذي كان داع ، أم أن الوهم بدأ من ابن الابار فاستشرى ؟ [2]

شعره . نقل المقري — ولم يذكر مصدره — بعض شعر الشريشي ، وقال في نقل الابيات إنه كان معجباً بالشام ، وما ندري علة ذلك ، إلا ما قاله في مطلع الأبيات . ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام .

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ ... فإن قلبي بنار الشوق يَستعرُ
بعدت عنكم فلا والله — بعدكم — ... ما لذّ للعين لا نومٌ ولا سَهَرُ
إذا تذكرت أوقاتاً بأت ومضت ... بقربكم، كادت الأحشاء تنفطر..[3]

حياته . لا تمدنا ترجمات الشريشي عادة كافية لنعرف أسرته وحياته ، ودقائق رحلاته فهو على شهرته قديماً وحديثاً برز الأخبار أما أولاده وعقبه فلا خبر عنهم ، ولا ذكر لهم . وقد ولد الشارح وتوفي بشريش

الكتاب . طبع الكتاب مرات عديدة ، وبين أيدينا الطبعة الثانية للمطبعة الاميرية سنة ١٣٠٠ هـ. وقد عُرفت الطبعات الميرية القديمة بالممكن من الضبط والإتقان والتصحيح وتحت العنوان في الحراين عبارة « وهو الشرح الكبير من شروح ثلاثة له » وقد ناقشنا هذه المسألة ، والكتاب في حراين ضخمين من القطع الكبير لم يذكر الشارح سنة تأليفه شرحه ، ولكنه في المقدمة يشير الى طول

١) شرح مقامات الحريري للشريشي ص ٥ .
٢) وينقل المقري مقالة ابن الأبار في النفح ، ٢ ٣١٧ ٣) النفح ٢ ٣١٨

معاناته شرحه ، ومطالعاته شروح من سبقه ، وحث بعض أساتذته إياه للمضي في عمله .

الكتاب : يبدأ بالتحميد ، وثنى بالدعاء للأمير الموحدي ، ثم ذكر مكانة الأدب وأهميته ، وتوصل الى الثناء على أبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات . وبيّن الشارح في مقدمته طرق روايته للمقامات ومنهجه في كتابه وسنعرض لذلك سريعاً ، لأنه أحسن بيانه والعبارة عنه تحدث عن الحريري وعن مكانه مقاماته من النفوس وما فيها من الطرف والملح والحكايات فانه برز فيها سابقاً ، وبز العلماء فائقاً وأتى بالمعنى الدقيق للفظ الرقيق مطابقـــاً ، وحلدها تاحاً [١] . » ، وعلل اهتمامه بها بذيوعها واشتهارها ومنزلتها . فبدأت بروايتها عن الشيوخ الثقات ، وتقييد ألفاظها عن أعلام هـذه الجهات حتى لا أنقل لفظاً إلا عن تحقيق ، ولا أثبت ضبطاً إلا من طريق ... [١] » وذكر أنه أخذها عن طريق شيوخ عدة ، ومن طرق مختلفة . فمنهم بلده شيخه أبو بكر ابن أزهر الحجري ، وأبو بكر بن مالك الفهري . وأجازه بها الشيخ الفقيه المحدث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبدالله الحجري . وحدثه بها الكاتب الزاهد أبوالحسين بن جُبير ،والشيخ الفقيه أبو ذَر مصعب بن محمد بن مسعود الخُشَني وهـذا الأخير اطلع على شرح الشريشي وأمره بتكميله . وذكر أن شيوخاً آخرين أفادوه في الضبط والشروح والحالات .

هذا عن تحقيق المتن وتحري ضبطه ، واتقان لفظـه ومعرفة معانيه أما الشرح فقال فيه « ثم لم أدَع كتاباً في شرح ألفاظها ، وايضاح أغراضها وتبيين الانصاف بين انفصالها واعتراضها إلا أوعبته نظراً ، وتحققته معتبَراً ومختبَراً .. وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً . ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتُها ، ولا فريدة إلا استدرجتها [٢] » وذكر أنه لم يكتف بما في التصانيف والتآليف فلقي صدور الأمصار وعلماء تلك الامصار وباحثهم وناقشهم ، ملتمساً المزيد ، مشتغلاً بالتقييد ثم ذكر أنه لمـا وجد شرح المَنْحَديي (وهو أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد السعودي من قرية فنحديه من

١) ص ٣ ٢) ص ٤ .

عمل خُراسان) استوعبه أيضاً ومار ما عنده ، على هديه . وبعد أن اجتمع لديه من الاصول والدراية ما اجتمع ، عزم على تأليف كتابه هذا بحيث يجمع أحاسن ما التقط ، ويُغني عن سواه في بابه .

ميزات كتابه . وعدد ميزات كتابه فيما تحققه هو ، فمن ذلك ١) أنه أودعه من اللغات اصحها وأولاها بالصواب ، وجمع بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء ، وانه سلك المعنى سلكاً يدل على الإلقاء والإصغاء[1] ٢) زاد في تأليفه — عما في سواه — التعريف بالأمصار (البُلدان) المذكورة في المقامات « على أوفى ما يكشف من ذكر مواضعها وأقدارها واختطاطها ومن عقد صلحها أو تولّى فتحها[1] » . ٣) وتحدث عن الأمثال . « ثم استوعبت شرح الأمثال ونسبتها جمعاً بين القائلين والأقوال ، ولم أغفل منها الكثير الدّور ولا القليل الاستعمال . وبيّن قصور الشراح الذين سبقوه في هذا . ٤) وترجم للأعلام الذين أورد الحريري ذكرهم من رجال ونساء . وعرف المشتهرين من الآباء والأبناء ، وبيّن أنسابهم وأخبارهم وحِرفهم ... وقال في هذا الموضع . وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حق إيراده . . وهو مهم في الإفادة[2] . ثم ذكر أنه أضاف فَصلين في الكتاب لم يهتم مَن قبله بهما إلا ما كان من تلميح الفنجديهي والماعه وهما . ٥) تبيين مآخذ الحريري في الكلام ، وإخراج الإحالات فيه من حَيِّز الإبهام ، وهو بذلك يشير الى تحقيق إشارات الحريري الى الآيات أو الأحاديث أو الحكم أو الأشعار والأشطار ، والحريري في ذلك موغل مُعرق . ٦) والتنبيه على صناعة البديع وتوفية أسمائه كالتجنيس والتتميم والترصيع . . . والإكثار من الشعر في مواضعه ، ومتابعة الحريري في مقاصده وأغراضه ، والإفاضة بالجد في مظان الجد ، والهزل في مواضع الهزل متابعة له ، ومجاراة لصنيعه . ٧) واعتذر الشارح عما في كتابه من دعابة وهزل ووصف نور وخمر ، بأن الحريري بدأ وهو أتم ، وأن صناعة الأدب تقتضي كثرة الملح ، والمراوحة بين الهزل والجد ٨) ثم تحدث عن المختصر اللغوي الذي جرده من شرحه الكبير وأنه جارى في ذلك أولي النصر من الشراح ،

[1]) ص ٤ . [2]) ص ٥

وذكر منهم المحديبي وابن طعر الصقلي . ٩) وقدم كتابه الى الأمير الموحدي، قال: وكل ذلك بلطف الله تعالى وبسعد مَنْ شرفت كتابي بخدمته سيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله بن إمام الأئمة الراشدين وولي عهده ، سيدنا أبو يعقوب أيد الله سلطانهم [1] . » والظاهر أنه قدمه الى أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب وقد كان ابوه أمر ببيعته في سنة ٥٨٦ ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفاً بها الى أن مات أبوه واستقل بالأمر في التاريخ المذكور [2] ، وهو سنة ٥٩٥ كما ذكر في المعجب أيضاً. وهذا وحده يُسوّغ ما ذكره الشريشي من تلقيب الابن والأب بإمارة المسلمين . وكان أبو يعقوب يوسف قد توفي سنة ٥٨٠ . فحكم ابو يوسف يعقوب من ٥٨٠ الى ٥٩٥ ثم حكم ابو عبد الله محمد — الذي كان ولياً للعهد من سنة ٥٨٦—٥٩٥ وقت تأليف شرح المقامات—واستمر حكمه من٥٩٥ الى ٦١٠ [3] . وتكون عبـــارة الشريشي مقبولة باضطراب وصحتهـا « سيدنا أبي يوسف يعقوب[4]» وعلى هذا فان تاريخ تأليف شرح المقامات بين ٥٨٦—٥٩٥ وكانت سِنّه بين ٣٥ — ٤٠ سنة تقريباً .

عمله في الشروح بعيداً عن إضافات الشارح، واسهاماته فيالتراجموالأعلام والبلدان ، فانه عكف على شرح المقامات شرحاً لغوياً ، وشرحَ معانٍ لتبيين مقاصد المؤلف ومراميكلامه ، وهو في شرحه اللغوي يحيل احياناً على مآخذه، ويكتفي في احيان أخرى بشرح الكلمة ، وبيان مؤداها . وقد يكون شرحه الكلمة بكلمة ، أو بجملة ، أو بعبـــارة ، أو يطول ذلك الى استطراد لغوي ، ويقوده إيحاء كلمة ما الى استطراد آخر لا يدخل في معنى الشرح الدقيق للغة أو المعاني . ولم يلتزم النص بكامله ، فقد يترك العبارات العادية ، أو مما لا يوحي إليه بشيء يستدعي تعليقاً او ملاحظة استطراداً. ويلحق بهذاملاحظاتجانبية في الصرف والنحو ، وان لم تكثر استطراداته فيهما

وهذا مثال قصير من شرحه ، ولا يمكن ان نورد مثالاً كاملاً لطوله ، وَلِما

١) مقامات الشريشي ص ٥
٢) المعجب للمراكشي — مصر — المجلس الاسلامي الأعلى — سعيد العريان ٣٨٦
٣) المعجب ٣٣٢ — ٣٨٦
٤) انظر ص ٥ من شرح المقامات .

في ما رَسم لنفسه من استطراد وتنقّل قال الحريري في المقامة الأولى — وهي الصنعانية — حدث الحارث بن همام قال لما اقتعدتُ غاربَ الاغتراب، وأنأتني المَتربة عن الأتراب، طوّحت بي طوائحُ الزمن الى صنعاء اليمن. فدخلتها خاوي الوفاض، بادي الإنفاض لا املكُ بُلغة، ولا أجد في جرابي مُضغة . . ! قال الشارح. إن قيل لأي معنى اختار الحريري حارثاً وهمّاماً وأبا زيد دون غيرهم من الأسماء، فالجواب انه انما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء. قال رسول الله ﷺ في الحديث المرفوع تسَمّوا بأسماء الأنبياء. وأحب الأسماء الى الله عبدالله وعبد الرحمن، واصدقها الحارث وهمام، وأقبحها حرب ومُرة[1]. وصدقها انه ليس أحد الا وهو يحرث أي يحاول الكسب او يهم بحاجته. واما أبو زيد فان صدق انه انسان بعينه كما تقدم في الصّدر[2] وقع الاكتفاء به، وان لم يصدق فقد حكى اهل اللغة أنه كنية الكِبَر. وأنشد ابن قتيبة

أعار ابو زيد يميني سلاحه وحدُّ سلاح الدهر للمرء كالِمُ
وكنت إذا ما الكلب أنكر أهله أغدى، وحين الكلب خذلان نائم

سلاحه. العصا. وإنكار الكلب اهله اذا لبسوا السلاح، وخذلان نائم في الجدب اذا ماتت المواشي فيشبع من لحومها وينام. وقال ابن الأعرابي. يقال للشيخ الكبير ابو زيد وابو سعيد. والسروجي في الغالب انما يصفه بالكبر والهرم. فوقعت التسمية لغوية وانما عنى بالحارث بن همام نفسه لأنه من يحرث ويهم. ولذلك نسبه الى البصرة، وهي بلدة الحريري وانما وضع ابا زيد كنية الدهر، لأنه يصفه بأشياء لا تليق الا بالدهر مثل قوله

وكل سرح فيه ذئبي عائثُ حتى كأني للأنام وارثُ
سامهم وحامهم ويافثُ

ومثل قوله : ووترت أرباب الأرا ئك، والدّرانك والسّجُوفِ

وهي كثيرة. وفي الخمسين له كلام لا يليق إلا بالدهر، فجعل أحد الحارث بن أبي زيد كناية عن علم الحريري بما جرّب من صروف الدهر. (قوله اقتعدت) أي ركبت، وأصله اتخذت قعدة أو قعوداً، وهما اسمان للبعير يقعد

١) ص ٢٠ ٢) ص ١١ — ١٢

عليه راكبه . (والغارب) مقدم سنام البعير (والاغتراب) والغربة التَّحوُل في البلدان والبعد عن الاوطان . وسيأتي ما أصلها وأراد لما انحدت ظهر الدابة قعوداً (أنأتني) أبعدتني (المترية) الفقر (الأتراب) الأصحاب على سن واحدة، (طوحت) رمت و (طوائح) نوائب . تقول طَوَّحتُ بالرحل إذا رميتَ به إلى الهلاك . وقياس الطوائح المطاوح لأنك تقول طوحت فهي مطوحة ، والجمع مطوحات ومطاوح . قال أبو عبيد . جاءت الطوائح على حذف الزيادة ، ورد الفعل إلى أصله فانه من طاحت فهي طائحة والجمع طوائح . قال أبو عمرو الشيباني جاءت على النسب مثل لابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر وذات تطويح..
(صنعاء) بلد باليمن . . الخ » [1]

وتخريج معاني أسماء أبطـــال مقامات الحريري طريف وفيه دقة وحسن معالجة ، ولا ندري أهو منه ومما ابتدعه أم اقتبسه فيما اقتبس . وقد لاحظنا اهتمامه بالشرح اللغوي ومقدرته على معالجة المعاني . وفي هذا المقطع القصير الذي لم يشرح أكثر من سطر وبعض سطر من الأصل ذكر عدداً من اللغويين ، وعرض لعدد من المسائل . وما من شك في أن شرح النثر يختلف عن شرح الشعر لما في الشعر من فسحة لدى الشارح لاستقصاء المعاني الخفية والإيحاءات الشعرية .

والشارح يستعين بكل ما في مخزون ثقـــافته لشرح اللغة وإيضاح المعنى ، والتعليق على الإشارات وإحالات الحريري الـكثيرة المتلاحقة وهو يطـّرر شرحه بنماذج شعرية لمشارقة في الأغلب ، ولأندلسيين أيضاً ، يستدعيها طرف من طروف الشرح، أو أنه يوردها لمجرد تداعي الأفكار وتذكير الشيء بنظيره، ويحتج بالقرآن والحديث والمأثور للاستعانة به، أو تعليقاً على عبارة للحريري ضَمّنها معنى آية أو حديث .

قال الحريري متماً ما سبق من المقامة الصنعانية « فطفقت أجوب طرقاتها — يعني صنعاء — مثل الهائم ، وأجـول في حوماتها جَولان الحائم ، وأورد في مسارح لمحاتي ومسايح غدواتي وروحاتي ، كريماً أُخلق له ديباجتي ، وأبوء إليه بحاجتي . » [2] قال الشارح (أُخلق) أهين (ديباجتي) جلدة وجهي يريد

١) ص ٢ — ٢١ ٢) ١ ص ٢١

أنه يُحلق وجهه بالمسألة كما يحلق الثوب . وهـذا من قول النبي ﷺ : المسألة كدوح وخدوش في وجه صاحبها ، وقوله ﷺ . لا تزال المسألة بالرّجل حتى يَلقى الله عز وجل وما على وجهه مزعة لحم أي قطعة » [1]

والكتاب بعد هذا موسوعة عامة وجمهرة كبيرة ذلك أن الحريري أكثر من الإشارات ومن ذكر البلدان والأعلام والحوادث ، والشارح تابَع المؤلف في إشاراته ولاحَقَهُ بالشرح والإيضاح والبَسط . فمن البلدان . المدن والقرى والمواضع وما يلحق بذلك . فقد ذكر مصر ، واستطرد إلى المقيـاس وأساس صناعته ، ثم إلى الأهرام وما فيها من عجب الخ وتراوحَ الحديث عنها بين التعريف الموجز ، والشرح المسهب حسب ما تحصّل لديه من معلومات وكتب وروايات. ومن الأعلام الملوك والوزراء ، والملـكات والأميرات، والشعراء والشواعر ، والكتاب والأدباء ، بعضهم ممن عَبَر في الجاهلية وبعضهم ممن تأخر. أما الأمثال فكان يوردها بتمامها وقد يذكر بعض خبرها مما روته كتب الأمثال أو حفلت به كتب الأدب العامة .

ويضاف إلى ذلك أمور نصّ هو على أنها استطرادات وإفاضات . ذلك أن بعض الإشارات كانت تخرجه إلى إيراد بحث ما في موضوع مغاير يبسط فيه القول ويضرب الأمثال ويورد ما شاء من خبر وشعر ونثر ليعود إلى موضوعه من جديد كما عهدنا في كتب الأدب المتقدمة للجاحظ والمبرد وكتب الأمالي . مثل ذلك « ذكر الحقد ومدحه وذمه »[2] و « ذم الكبر »[3] و « الدواة والحبر »[4] و « قِداح المَيْسر » [5] ، و « ما قيل في الغلمان » [6] ، و « ذكر الالتجـاء والاعتذار »[7]، « وذكر من ظفر من محبوبه بالوصال فعَفّ »[8] ، و « حديث ورع الحسن الحسين » [9] و « ذكر بني الفرات »[10] ، و « مراتب الحيـل في الحلبة » [11] ، و « ما جاء في ذم البطنة » [12] ، و « أخبار الطفيليين » . الخ. وهذا كثير وطريقته في الخروج إلى الاستطراد سهلة فمن ذلك تعليقه عـلى بيتين لعدي بن الرقاع في الحَمام ، ثم قوله « وأما بيت عدي في الحَمام ، فالحمام

1) ١ ٢٢ 2) ١ ١٨ 3) ١ ٢٣ 4) ١ ٩٤
5) ١ ٩٠ 6) ١ ١٤٦ 7) ١ ١٦٧ – ١٦٨
8) ١ ١٦٩ – ١٧ 9) ١ ١٧٢ 10) ١ ٣٣٥
11) ١ ٣٨٠ 12) ١ . ٢٤١

قد كثر ذكر العرب لها في أشعارها . ولم هنا نفصل منها . . » [1] . وهو فيها ناقل جمّاع . وقليلاً ما يتدخل برأيه أو ما يشبه الرأي . من ذلك حديثه عن الخمريات وأن بعض الجاهليين تعفف عن شربها صيانة لنفسه ، في حين شربها وأثنى عليها بعض الإسلاميين على اختلافهم مثل الرّمادي ، ويتدخل ليثني عليه وعلى أمثاله ذلك، ويقارن بين الجاهلي المتعفف ، والإسلاميّ المتفسق على ما في الإسلام من آمر ناهٍ » [2] .

وقد أضاف فصلاً عدد فيه بعض أنواع البديع بمفهوم البديع العام لأنه أدخل فيه الاستعارة والتشبيه وقد جاء بألفاظ البلاغي وبمثالٍ عليه أو أمثلة . وذكر مباشرة تسعة عشر نوعاً هي . التجنيس والتشبيه والاستعارة والإشارة والإيماء ، والتلويح والتعريض والتفخيم والتسهيم والتتميم والترديد ، والتجريد والتتبيع والتبليغ والتصدير والاستثناء والالتفات والاعتراض والاستطراد» [3] . وذكر عدداً من الفنون الأخرى دون أن يفردها بعنوان مباشرة مثل حسن الابتداء – حسن القطع – حسن التقسيم – لطف التخلص من التغزل الى المدح – والغلو – والإجتلاب – والتضمين .

السرقات شرح أبو العباس الشريشي إشارة الحريري الى السلخ والمسخ والنسخ ، وهي من أنواع السرقات كما سنبين فقال . « (سلخ) أخذ المعنى (مسخ) قلب الكلام وغيّره (نسخ) قلبه بعينه والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه وهي النسخ والمسخ والرّسخ والفسخ. فالنسخ عندهم أن يحول الأدنى إلى الأعلى والمسخ ، أن يحول الأعلى من الحيوان الى الأدنى، والرسخ رد الحيوان جماداً . والفسخ أن يتلاشى فلا يكون شيئاً ، وقال شاعرهم . . . [1] ثم قال «وتقسيم الحريري السرقة فيقوله سلخ ومسخ ونسخ يدخل تحت أقسام السرقات التي عدّها أبو محمد الحسين بن علي بن وكيع رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بالمنصف في الدلالات على سرقات المتنبي،فانه جعلها عشرين وجهاً عشرة أوجه يُغفر في سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته . .» [4] . وعد الأنواع العشرة

١) ١ ١٦ ٢) ٢ ٢١ ٣) ١ ٣٦٩ – ٣٨٠ ٤) ١ : ٣٥٢

المحمودة في السرقات والأنواع العشرة المذمومة نقلاً عن ابن وكيع مباشرة [1] .
ولم يكن الشارح ها هنا أكثر من ناقل .

ولا نعدم إشارات سريعة للشارح عن سرقة بعض الشعراء من بعض ، وهي قليلة ، خفيّة الدلالة . ومن ذلك تفضيله بيت أبي نواس على بيت ديك الجن لاختصاره المعنى في بيت واحد ، ونصه على سرقة ديك الجن في قوله :

فتنفست في البيت إذ مزجت بالماء واستلت سَنا الذهب
كتنفس الريحان خالطه من ورد جور قاطر السُّحب

فذِكر الماء مع المزج حشو لا فائدة فيه ، وأخذه من قول أبي نواس :

سلبوا قناع الطين عن رَمَق حي الحياة مشارف الحَتْفِ
فتنفست في البيت إذ مزجت كتنفس الريحان في الأنف . . [2] »

وأشار الى أن المعري نقل معنى من بيتٍ للحريري [3] ، والمهلبي أخذ من لفظ حبيب (أبي تمام) [4] ، وأن ابن وهبون أخذ معنى من معاني الصابي [5] . وبضاعته عملياً مادة السرقات قليلة فقد استعار المادة النظرية كلها من ابن وكيع ولم يطلق في ما كان يمكن أن يكشف عن شخصيته خاصة .

إشارات أندلسية . قد نلمح بين الفينة والأخرى علماً أندلسياً أو خبراً أندلسياً ، ولكنها بالقياس إلى الكتاب شيء عارض ومادة قليلة ذلك أن موضوع الكتاب يفرض أن يكون صورة مشرقية لما التزم به الشارح من إيضاح مُعَميات قول الحريري وإشاراته وكلها مشرقية أو على الاقل ليست بأندلسية . ويقع القارىء على شعر لابن عبد ربه وابن صارة وابن خفاجة وابن بقي والفقيه ابن حزم وفيه قصص قليلة عن المعتمد أو نقول من العقد لابن عبد ربه وهي على قلتها مفيدة بلا شك ، وخصوصاً تلك النتف القليلة التي ألقت ضوءاً على دراسة الشارح وشيوخه وكتبه

مصادره لا يمكن أن نحصي الكتب التي رجع إليها لأنه ذكر بعضها وأغفل بعضها الآخر ولا بد — لحصرها على وجه الدقة — من مقارنات طويلة

١) ١ . ١٦٠ — ١٧٢ ٢) ١ ٣٧٨ — ٣٧٩
٣) ج ١ ص ١٨٤ ٤) ج ١ ١٠٤ ٥) ١ . ٢٢٦

ولكنه قال من بداية شرحه إنه اعتمد على كتب مشرقية ـ واندلسية ـ كثيرة جداً وشروح مختلفة . ومن أهم ما اعتمد عليه كتب اللغة مثل تهذيب اللغـــة للأزهري ونوادر الشيباني ، وأبي زيد ، وكتب ابن قتيبة وابن الـ ت ، والزجاج ، وقطرب ، وجمهرة ابن دريد ، ودرة الغواص للحريري ، وكتب ابن سيدة ومن كتب الأدب العـــامة . كتب الجاحظ وبخاصة البيان والتبيين والحيوان ، وكتاب الكامل للمبرد وأمالي ابي علي ونوادره ، وكتاب الأغاني لابي الفرج واليتيمة للثعـالبي وتتمة اليتيمة ، وحمـــاسة أبي تمام ولروميات المعري ، ودواوين كثير من الشعراء، وكتب التواريخ مثل الطبري والمسعودي واليعقوبي، وكتب الرحلات مثل رحلة ابن جبير شيخه ونقل عن الذخـــيرة لابن بسام وشرح ابن جني على المتنبي ، ونقل عن شرح الفَنجديهي على المقامات وشَرح ابن ظفر أيضاً . وأورد من مقصورة ابن دريد وكُتب أبي القـــاسم الزجاجي كالجُمَل ، ونقل عن ابن الكلبي ، وخلق كثير .

ولا شك في أن كتابه جمهرة كبيرة حشد فيها معلومات ضخمة من التاريـخ والبلدان والأعلام والأيام ، وذكر الأمم والدول الحاضرة والغابرة . فصار كتاباً جامعاً بالإضافة إلى كونه كتاباً أدبياً يُعنى ـ مباشرة ـ بشرح المقامات شرحاً لغوياً أدبياً .

ويكون شرحه على المقامات نوعاً خاصاً من أنواع الشروح ظفرنا فيـــه بالكثير،وإن لم نظفر من قلم الشريشي نفسه في نقد المقامات، وإبداء الملاحظات الشخصية بالشيء الكثير .

الباب الثاني

اوليات النقد الادبي في الأندلس

اتجاهات النقد الأدبي في المشرق

صدى المذاهب الفنية المشرقية في الأندلس

أوليات النقد الأدبي

اللغويون والنحويون والمؤدبون

ابن عبد ربه

ابن حبيب الحميري

ابن شهيد

ابن حزم

تمهيد. في هذا الفصل وما يتلو بعده سنستعرضُ الحركة النقدية في الأنـدلس المبكرة – في حساب الأنـــدلس والأندلسيين – إلى أن انتهت في تقدير آخر ما لدينا من آثار أدبية تنتمي إلى عصر غرناطة. وقد رأيتُ أن أقسم هذا الفصل ثلاثة أقسام.

الأول. أوّليات النقد الأدبي في الأندلس. وفيه أتحدّثُ عن المحـاولات النقدية الأولى على أيْـــدي اللغويّين، وفي حلقات المؤدبين ومجالس الأمراء والأدباء، إلى أن انتهت ذات سِماتٍ مميّزة على يد ابن شُهَيد وابن حَزْم. وينتهي القسم الأول مع بداية عصر الطوائف.

والثاني ازدهار الحركة النّقدية الأدبية في الأندلس منذ نشأتها وتجتمع في هذا الفصل مُعظم سِمات النقد في الأندلس، ومعظم مشاهير النقاد الأندلسيين. وسأستعرض في هذا الفصل كلّ من ترك أثراً نقدياً: كان ذلك مجموعـاً في سِفر خاص مُعْـلَم بأنه كتاب نقد، أو كان مقدمةً لكتـاب، أو آراء منثوثة في مؤلف ضخم، أو في ثنايا رسالةٍ أو مقامة. وسأقف وقفة طويـلة عند ثلاثـة ـ ممن وصلتنا آثارهم ـ . أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكَلاعي صاحب إحكام صَنعة الكلام، وأبو البَقاء بن شريف الرُّندي صاحب الوافي في نَظم القوافي، وأبو الحَسن حازم بن محمد القرطاجـّني الأندلسي صاحب منهـاج البلغاء. وسأترجم لمشاهير النقاد في هذا الفصل، وأعرض كتبهم مع مقارنـة قيمها النقدية والبَلاغيّة بما كان – إلى عصر كل واحد – في المشرق لتبيُّن أثر التقليد والتجديد، ومدى النقل والأخذ.

والثالث . عصر غرناطة وفيه أُلِمُّ بما انتهى إلينا من ملاحظات سريعة، تركها هذا العصر الحزين من عصور دول الإسلام في الأندلس وستكون هذه الأقسام الثلاثة مجالاً لدراسة أهم القضايا التي وقف عليها الأندلسيون وأعاروهـا اهتماماتهم.

النقد الأدبي في المشرق

اتجاهات النقد الأدبي في المشرق

لا بد من وقفة قصيرة في مقدمة حديثنا عن أوليات النقد في الأندلس ، تكون كالمدخل إلى مبحثنا الأصلي ، ذلك أنا في الفصلين السابقين بينا ما كان بين الأندلس والمشرق من تأثر وتأثير ، وكيف أن الأندلس كانت تتلقف بتلهّف الكتبَ المشرقية من دواوين ودراسات ومؤلفات . وإذ كان الأندلسيون لم يَقبلوا كل ما وصلهم على ما فيه ، فانهم بَنوا استحسانهم واستهجانهم على كتب مشرقية بأعيانها ، بل وربما انقسموا في الموضوع الواحد شِيعاً ، لها ما يناظرها في المشرق قياساً بقياس .

اوائل النّقد والنّقاد يهمنا في هذه العجالة أن نتبين اتجاهات النقد الأدبي منذ اتخذ وجهة متميزة ، وصارت له تيارات واضحة ولكننا نلم أيضاً بما سبق ذلك فقد نما النقد في العصر الإسلامي – الممتد من عصر الخلافة إلى الدولة الأموية - ولكنه كان في جملته « نقداً غيرَ معلل »[1] ، وكثرت الملاحظات البيانية في العصر الأموي فقد « رقيت حياتهم العقلية ، وأخذوا يتجادلون في شؤونهم السياسية والعقيدية .. ونما العقل العربي نمواً واسعاً ، فكان طبيعياً أن يسمو النظر في بلاغة الكلام ، وأن تكثُرَ الملاحظات المتّصلة بحُسن البيان لا في الخطابة والخطباء فحسب بل أيضاً في مجال الشعر والشعراء، بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه »[2]. وقد ساعد على ذلك تشجيع الخلفاء والأمراء ، والأسواق التي كانت تجمع الشعراء

١) النقد – للدكتور شوقي ضيف (سلسلة فنون الأدب العربي) دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٦٤ صفحة ٣٠

٢) البلاغة ـ تطور وتاريخ ـ للدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٥ صفحة ١٥ – ١٦

والأدباء وتفتح لهم باب المناقشات

وفي هذا – العصر الاموي – نما النقد وازدهر في ثلاث بيئات: « في الحجاز والعراق والشام . أما ما عداها كفارس ومصر والمغرب فلم يزدهر فيها في هذا العصر أدب ولا نقد .. وكان لكل أدب ونقد في هذه البيئات لون خاص متأثر بالحالة الاجتماعية والبيئة الطبيعية »[1]. وتميّز الحجاز في هذه الفترة بعدة ظواهر. فقد كان مركزاً دينيّاً كبيراً عظُمَت فيه مكانة الفقهاء والمُحدّثين وبرز منه أعلام كبار ، وفد إليهم الناسُ من الأقطار المختلفة متزوّدين متعلّمين ، وكثُر في الحجاز – وعلى الخصوص مكة والمدينة – المُغَنّون والمغنّيات ، وانتشرت دور القيان وأماكن الغناء واللهو وكان ظرف أهل الحجاز قادراً على جمع تينك الظاهرتين ، و « من مظاهر هذا الظرف المأثور تسامح علماء الدين وسعة نظرهم ولطف نظرهم الى الحياة خصوصاً إذا قوربوا برجال الدين في العراق إذ ذاك » [2] ومن ذلك ظاهرة الترف : « فالشعراء الذين تتمثل هذه الحياة الأدبية أكثر ما تتمثل بهم هم من سراة الحجاز ... والمجالس التي كان يجتمع فيها الشعراء والمتأدبون كانت مجالس مترفة » [3] . وقد استتبع الأدبُ في هذه الفترة وهذه البيئة « رقياً في النقد يدل على رُقي في الذّوق » [4] وظهر من الشعراء أنفسهم من ينقد شعر زملائه . أما النقاد أنفسهم فخير من يمثلهم في الحجاز . عبدالله بن أبي عتيق ، والسّيدة سُكينة بنت الحُسَين [5] ورُوى عن ابن أبي عتيق انتقادات لطيفة، وكان يفضّل شعر عمر بن أبي ربيعة ويقول ما عُصي الله عز وجل بشعر أكثر مما عُصي بشعر ابن أبي ربيعة ! وكانت

١) النقد الأدبي لأحمد أمين الجزء الثاني في تاريخ النقد عند الأفرنج والعرب ٤١٩ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الثالثة ١٩٦٣ نشر مكتبة النهضة المصرية ٢) النقد الأدبي لأحمد أمين ٤٢٠

٣) في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية – الدكتور طه الحاجري – مطبعة رويال بالاسكندرية ١٤٧٢ هـ – ١٩٥٣ م صفحة ٧٤ ٤) النقد الأدبي لأحمد أمين ٤٢١

٥) النقد الأدبي لأحمد أمين ٤٢٢ ، والبلاغة تطور وتاريخ د شوقي ضيف ١٨ ، وتاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر – ١٩٦٤ ، صفحة ٧٩

هنالك مجالس تنعقد في المساجد مثل المسجد الحرام بمكة أو الحرم النبوي بالمدينة تقوم فيها الشعر والمناقشات حوله سوق . وبرز فيها علماء كابن عباس ، وقصصه مع نافع بن الأزرق مشهورة .

أما العراق فزخر – في أكثر حالاته – بما يشبه الحياة الأدبية في العصر الجاهلي من حياة للعصبية القبليّة واشتداد روح المُفاخرة واتصال الأهاجي والنقائض بين نفر من الشعراء ملؤوا على العراق حياته وأخباره . وجدّد المِرْبَد – قرب البصرة – ما كان من عُكاظ فقد كان « مجتمع العرب يتناشدون فيه بأشعارهم، ويبيعون ويشترون »[1]. وعادت إلى الحياة في ظل الإسلام المفاخرات بالأنساب إلى جانب التباهي بالشجاعة والكرم ، واستعيدت ذكريات أيّام العرب ووقائعهم وعداواتهم وحلق المِربد والحركة الشعرية من ورائه مجموعة من النقائض والأراجيز وإلى جانب هذا النّوع من الشعر نشأ شعر الخوارج . وهو شعر ملتزم ينطبع فيه ما دعت إليه هذه الفرقة من آراء سياسية وما تبع ذلك من آثار عقيدية وفكرية . ومنهم قَطَرِيّ بن الفُجاءة وعِمران بن حِطّان .

وتتبع النقدُ مجريات الحركة الأدبية ، فاتجه أكثره ١) إلى التفصيل بين الشعراء ، وشغل التمييز بين الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل حيّزاً كبيراً من تفكير النقاد ومن محاوراتهم ٢) وكانت لهم أحكامٌ نقدية في ميزة الشاعر ووجوه ضعفه ووجوه قوته وأحكامٌ في الموازنة بين الشعراء[2] أما الخوارج فقد انطلق سلى آرائهم في النّقد ما انطلق عليها في الشعر وغيره ، وكانوا يهزؤون بالشعراء الذين يمدحون الملوك والأمراء ويضطرون إلى وصفهم أحياناً بما لا يعتقدونه أو بما ليس فيهم ، وكانوا يرون « أن الشاعر الحق من صدق في قوله واتقى الله »[3]

وظهر في الشام شعرُ المديح على غيره من الفنون لمكانةِ دمشق من الخلافة ، وتشجيع بني أمية الشعراء ونفاق سوق شعر المديح، وفي هذا يقول أحمد أمين « والأدب الذي يناسب القصور هو أدب المديح ، لهذا لوّن الأدب الشامي بلون

١) النقد الأدبي ، أحمد أمين ٤٢٤ ٢) المصدر نفسه ٤٢٦
٣) المصدر نفسه ٣٨ – ٤٢٩

المديح ولوّن النقد بلون الأدب [١]، وصارت البيئة مُهيّأة لنقد هـذا الشعر العربي الذي يُلقى على عتبات بني أمية وقصورهم. وفي (الأغاني) وسواه روايات كثيرة عن خلفاء بني أمية اشتهروا بنقد الشعر مثل عبد الملك بن مروان الذي انتقد ذا الرمة والأخطل وجريراً وله نظرات عميقة مثل انتقاده شعر ابن قيس الرقيات فيه لمّا مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه وفضّلَ الأعاجم على حين جعل مصعبَ بن الزبير شهاباً من الله وكانت هناك مجالس تعقد في القصور ويجتمع فيها الشعراء والأدباء في محضر من الخليفة أو الأمراء، تُتذاكر فيها الأشعار ويكون للنقد فيها نصيب، وإن كان الغالب هو استحسان ما يقرب من أذواق أولي السلطان [٢].

ويتلخص من كل ما سبق عن النقد في العصر الإسلامي، وبخاصة الأموي أنه لم تظهر — بعد — مدارس نقدية واضحة المعالم وأن النقد ظل قريباً مما كان في الجاهلية قائماً على الذوق، جزئياً، غير مُعلّل في كثير من الأحيان ويلخص الدكتور شوقي ضيف نقد هذا العصر بأنه «يعتمد على الذوق والشعور، وهو لا يزال بسيطاً غير مُعقّد، ولا يزال الناقد يستوحي وجدانه الخاص، ولا يرجع إلى مقاييس دقيقة» [٣].

النقد في العصر العباسي تطور النقد العربي

اختلف العصر العباسي عما سبقه من العصور العربية بأن الدولة تم لهـا الاستتباب، وأن حضارات الأمم المجاور دخلت إلى حياة المسلمين، من فارسية وهندية ويونانية، وانتقلت مجموعة معارف العصور السابقة من حالها الأولى إلى حال علميّة أخذت في الدقة والمنهجية شيئاً فشيئاً. وصار الجو مُعَدّاً لأن يتطور النقد من صفة الذوقية إلى صفة العلمية، وانضافت مقومات ثقافية كثيرة الى الذوق والطبيعة والفطرة في الحكم على الشعر والنثر من تحسين وتقبيح وانطباع وأثر وزاد من بواعث تحرك النقد أن الشعر والنثر كليهما تطورا وازدادت أغراضهما تشعّباً بتأثير الحياة الجديدة ومكوّنات الفكر الدخيلة والهجينة، بين

١) النقد الأدبي — أحمد أمين — لجنة التأليف والترجمة والنشر ٤٣٠.
٢) وانظر في تاريخ النقد — طه الحاجري ١٣٦ — ١٤٥ ٣) النقد ٣٢

عربية وأجنبية ويمكن أن نلاحظ عدة اتجاهات تتوزع النقد الأدبي في المشرق؛ نشأت واكتملت هناك وتميّز لكل اتجاه عددٌ من النقاد والأدباء والشعراء.
وأهم هذه الاتجاهات النقد اللغوي، والنقد الفلسفي، والنقد المقارن، والنقد المتجه أصلاً إلى موضوع إعجاز القرآن.

نلاحظ مع ظاهرة تطور الأدب من شعر ونثر، تطوراً في النظرة إليهما أي في الأحكام النقدية. ويمكن أن نميز ثلاث طوائف من المهتمين بنمو الدراسات والآثار الأدبية تناقش، وتبسط آراءها، وتضع المؤلفات النقدية، وتساهم في تطوير النقد مثلما تساهم في تطوير الفن نفسه [١]. الطائفة الأولى هي طائفة الأدباء من شعراء وكتاب، والثانية اللغويون، وقد عنوا باللغة وتسجيل شواهدها واستنباط أحكامها كما اهتموا برواية الشعر ونقده، والثالثة طائفة المتكلمين، الذين شُغِلوا بتثقيف الشباب على الخَطابة والحِجَاج والمناقشة، وأسهموا بنصيبٍ كبير في تطوير أمور النقد والبلاغة.

١) الشعراء والكتاب تجْمَعُ الطائفة الأولى عدداً من الشعراء والكتاب كان لهم أثر عملي في تطوير فن الشعر وفن النثر، وكان لهم أثر هام أيضاً في تطوير النقد وتقدمه، وبنائه لأول مرة على أسس علمية مدونة. فمن الشعراء. بشار بن برد، وقد جمع صفات وخصائص شخصية وفنية وثقافية ممتازة إذ كان تربّى في البادية وأتقن لسان العرب، وخالط حلقات المتكلمين — والمعتزلة منهم خاصة — وألمّ بشيء من أقاويل الفرس ومعتقداتهم، إلى حسٍّ نقدي دقيق، ومن ذلك اعتراضه على قول كثير

ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ إذا غمزوها بالأكُفِّ تلينُ

قال والله لو زعم أنها عصا مُخ أو عصا زبد لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا، ألا قال كما قلت

ودَعجاء المحاجر من مَعدّ كأن حديثها ثمرُ الجنان
إذا قامت لمشيتها تثنّتْ كأنّ عظامها من خيزُران

وملاحظاته على شعر زملائه وسابقيه كثيرة تدل على أثر ملكته النقدية

١) النقد — د شوقي ضيف ١٣٤

وثقافته الفارسية ، وذوق أملته حياة الحضارة الجديدة . وتتساوق مع الاتجاه الجديد الذي ميّز معالمــــه في الشعر : من صياغة بارعة ، وأفكار وصور مستحدثة . وفي الشعراء أبو نواس الذي أعلن الخروج على نظام القصيدة العربية وألغى — في عدد كبير من قصائده — المقدمة المألوفة ، بل إنه تهكم على العرب في صيغهم

صفةُ الطّلول بلاغــةُ القِدْمِ فاجعَل صفاتِك لابنةِ الكرْمِ

وكان لأبي نواس ملكات كثيرة وثقافة واسعــة وهو « يعد من أعاجيب عصره في الشعر إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة . وهي ملكات صقلها الدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربيــة الاصيلة ، حتى قال الجاحظ ما رأيتُ أحداً أعلم باللغة من أبي نواس[1] » . واتّضحت في شعره معالم اتجاهين مُحافظ يأخذ بمقوّمات القديم ، وحديث يجدد فيه تجديداً واسعاً في المعاني والألفاظ .

ولما طلع نجم أبي تمام اتّضحت معالم مذهب جديد في الشعر بصورة واضحة ، وصارت اتجاهات البديع التي سبقت عند مسلم بن الوليد علامة بارزة مُعْرِقة في شعر أبي تمام الذي زاد العناية بالمُحَسّنات اللفظية البديعية إلى جانب العِناية بالغوص على المعاني ، وإعمال الفكر في استنباط الصور . وشغل أبو تمام — ومدرسته التي تقابل مدرسة القديم ووريثها البحتري — النقاد زماناً طويلاً وبخاصــة في القرنين الثالث والرابــع . وكان أبرز علامــة من علامات نقد الادباء الشاعر الخليفة عبد الله بن المعتز الذي بهر الشعراء والنقاد بحُسن تشبيهاته ، وخلّف لنا أول كتاب نقدي عربي هو (البديع) وقــد أراد ابن المعتز من وراء كتابه « أن يدافع عن الأدب العربي القديم ، والرد على الشعوبية الذين يزعمون أن البديع مخلوقٌ في الادب العربي خلقَهُ الشعراء العبــاسيون من الموالي أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد — وكلهم من الفرس — ومثل أبي تمام الذي قيل إنه من أصل غير عربي[2] . » وفضل هذا الكتاب أنه قمة ما أبدى الشعراء والأدباء من ملاحظات نقدية وأنه وثيقة مدوّنة لمجموعة من القوا

١) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) الدكتور شوقي ضيف ٣٢٧ .
٢) عن (النقد) سلسلة فنون الأدب العربي د شوقي ضيف ٣٧

صاغها ابن المعتز في مصطلحات فنية، وجعل أهمها خمسة مصطلحات: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي [1]. وشارك الكتّاب والشعراء في ملاحظاتهم النقدية، فقد كانت صلة الكتّاب بالخلفاء والأمراء، وصنعتهم في الدواوين، تقتضي منهم أن يكونوا على نمط من الإجادة والثقافة، ومن هنا جاءت ملاحظات ابن قتيبة في أدب الكاتب، مثلاً.

٢) النقد اللغوي — اتجه عدد كبير من علماء الكوفة والبصرة منذ أواخر العصر الأموي إلى العناية باللغة وجمعها وتدوينها وزاد في أسباب هذا الاهتمام ما اعتوَر اللغة وشابها من جرّاء دخول الأعاجم في الإسلام، فأسرع الإسلام إلى قلوبهم وأبطأت اللغة لمكان اللسان، فشاع اللّحن وفشا الخطأ وتكوّنت اتجاهات مختلفة لسبل جمع اللغة وتنقيحها، واستعملوا طرائق كثيرة حفظتها كتب اللغة وثنايا المعاجم وقد تعاقبت في العصر العباسي ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر [2] من الجيل الاول من البصرة: أبو عمرو ابن العلاء (ت ١٥٤ ؟) وهو أحد القراء السبعة، ومن الجيل الثاني خلف الأحمر (ت ١٨٠) والاصمعي (ت ٢١٣) وهو صاحب الاصمعيات دائمة الصيت، وشأنه في رواية الشعر عظيم. ومن الجيل الثالث. محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

ومن الجيل الاول في الكوفة. حماد الراوية (١٥٦ ؟) وعرف بنحل الشعر، والمفضل الضّبّي صاحب المفضليات، ومن جيلهم الثاني. أبو عمرو الشيباني (ت ٢١٣)، وابن الاعرابي (ت ٢٣١)، ومن الجيل الثالث أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب الغريب المُصنّف وغيره.

وكان دور هؤلاء اللغويين هاماً في جمع الشعر وروايته، وجمع اللغة ووضع النحو والعروض فكانوا يعتبرون أنفسهم حفَظة اللغة، والقوّمة على الشعر وروايته. ولم يَعتدّوا بالشعر إلا إذا جرى على مقاييس اللغة، ووقفوا أمام المحاولات الجديدة بالمعارضة والثّلب ولم يدرج ابن سلام في طبقاته أي شاعر

١) البديع لابن المعتز طبعة محمد عبد المنعم خفاجة — مصطفى حلبي. صفحة ١٧.
٢) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. صفحة ١١٩.

عباسي . وتتبعوا شعراء عصرهم بالنقد والحساب ، وكان بعض الشعراء يعرض شعره عليهم طلباً للرأي ودفعـــاً للهجوم . وكان مقياسهم دائماً الاحتكام إلى الشواهد القديمة والقياس عليها ، وبهذا الاعتبار كان الشعر القديم أرجح عندهم وأقوم . وانفصل من هذا فرع آخر، ذلك أنهم صاروا يحكمون للشاعر وعليه بالبيت الواحد . بما في ذلك من تعسّف غير موضوعي ، وبما آل الأمر من وراء ذلك إلى اعتبار البيت الواحد وحدة النقد ، واتخاذ المعنى المحدد مقياساً وتبع ذلك أيضاً المقايسة بين أقوال الشعراء ومدى نسبة قول كل واحد إلى غيره ممن سلف أو سبق إلى فكرةٍ ّما ، وهذا كان بدايـــة مركّزة لموضوع دخل الدراسات النقدية من باب واسع هو موضوع السرقات الأدبية .

ويعتبر كتاب **الطبقات** لابن سلام الجُمَحي نموذجاً جيداً لنضج آراء اللغويين وممثـــلاً لطريقتهم ، وكتاب الطبقات من أقدم الدراسات التي ألفت في النقد ، وسارت على منهج واضح [١] . وقد قدّم لكتابه بمقدمة عن صناعـة الشعر ، وقيمة المـُدارسة للشعر في الإعانة على إتقانه ، وتطرق الى الحديث عن الانتحال وعمل اللغويين في كشف الزّيف . وقسم الشعراء في كتابه طبقـات وفصل بين الجـاهليين والإسلاميين (زماناً) وبين شعراء المناطق (مكاناً) ، وخص بعض الفنون بباب (موضوعات) فكانت قسمته هـذه براعة وإبداعاً مبكرين . ويلاحظ أنه لم يورد للعباسيين شعراً ، ولم ينظم في كتابه كل من سبق من الشعراء وكان كتابه أهم ما صدر عن اللغويين من كتب نقدية ذات قيمة من هذا الباب [٢] . ومن كتبهم ُفحولة الشعراء ، للأصمعي ، وهو متقدم. وكتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) للمرزباني (٧٨٤) ، وهو يعني علماء اللغة ، وفيه شيء من النقد لغويّ نحويّ ، ولا يرقى إلى مرتبة كتاب ابن سلام

٣) **تطور النقد على أيدي المتكلمين** ازدهر فيالعصر العباسي علم الكلام، وصار من علاماته الفكرية البارزة . والمقصود بعلم الكلام الجـدل الديني في

١) تاريخ النقد العربي الى القرن الهجري الرابع — الدكتور محمد زغلول سلام ٩٨ .
٢) النقد — د شوقي ضيف ٤٤

شؤون العقيدة عند المسلمين ، وقد يمتد إلى غير المسلمين وكان سلاح (المتكلم) دائماً ذا شعبتين . النصر بما يحاجج به من أمور الدين بما يمكّنه من الوقوف مع الأقران ، والنصر بأمور الفلسفة بقدر لا ينقص من حرارته الدينية [1] فكان منهم المُرجئة والحشَّرة والأشاعرة والروافض ، إلى أهل الديانات والملل الأخرى . وكان أبرز هذه الفئات فرقة المعتزلة الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية دفاعاً عقيدياً كلامياً ، وحلّقوا حولهم حلقات الشباب ، وبَثّوا في الناس كتبهم في أصول مذهبهم وأسس آرائهم وامتازوا بحسن الجدال والعلة في المحاججة ، واللجوء إلى السُّبُل العقلية في المناقشات واتصل نشاطهم بفئات كبيرة من الجمهور والمفكرين والقادة ، حتى لقد علوا على السلطة حين التزم المأمون بدعوتهم ، وعلا فأرغم الناس على أفكار الاعتزال بقوة السيف ، في حين أن الدعوة الاعتزالية دعوة فكرية لم يُخطّط لها لتكون حزباً سياسياً أيضاً ، ومن هنا كانت أهمية المعتزلة فكرية بالدرجة الاولى ، بل إن خوضهم السياسي أساء اليهم دعوة وفكرة ، وساعد على ذلك موقف الحنابلة من قضية خلق القرآن [2] .

ويلاحظ من البداية أن فئة المتكلمين كانوا ينوّعون ثقافاتهم ويدرسون إلى جانب العربية ثقافات أخرى وفدت إليهم وكانوا يتقبلون الشعر الحديث تقبلهم للشعر القديم ، ويتزودون بعلوم أخرى من الحَديث والدراسات القرآنية ، مما فتح أمامهم مجالاً البحوث في بلاغة القرآن ، وطَلبِ أسباب إعجازه . ومع المتكلمين ظهرت أول مرة عبارة البلاغة بمعناها الدقيق [3] ، وتناول كتاب البيان والتبيين للجاحظ نقولاً كثيرة عن محاورات مع عدد من رجال بعض الأمم الأخرى عن البلاغة ومعانيها ، وأسئلة لبعض المتكلمين المسلمين في معناها مثل قوله « قيل للفارسي ما البلاغة ؟ . وقيل للهندي ما البلاغة ؟ . » وبعد ترجمات ابن المقفع لشيءٍ من أدب الفرس ، واحتكاك المسلمين بالفرس مباشرة ،

١) تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف (العصر العباسي الأول) ١٣٣
٢) هناك كتاب كامل عن (خلق القرآن) من وجهة نظر المعتزلة ألفه القاضي عبد الجبار الهمداني ، ونشر عن وزارة الثقافة بالقاهرة ٣) النقد د شوقي ضيف ٤٦

ومجادلات المتكلمين مع أصحاب الديانات الأخرى كنصارى السريان ، يتأكد احتكاكهم بآراء مضافة إلى التراث العربي جديدة عليه ؛ وإن كان الراجح أن اطلاع العرب على كتاب الخطابة وكتاب الشعر لأرسطو كان بعد الجاحظ [1] .

والجاحظ (ت ٢٥٥) هو علامة كبيرة في تاريخ النقد والبلاغة عند العرب ، وهو يمثل مدرسة المتكلمين تمثيلاً جيداً ، فقد كان معتزليـــاً ، وكانت له آراء جعلت منه رأس فئة منهم هي الجاحظية .

نظرات الجاحظ . أفرغ الجاحظ معظم آرائه البيانيّة في كتابه (البيان والتبيين) ونقل فيه نقولاً كثيرة . ومنها صحيفة بِشر من المعتمر المعتزلي التي وضعها لنصيحة الكُتّاب والأدباء[2]. ويلاحظ في كتابه ملاحظات كثيرة تندرج فيما نحن فيه من حديث البلاغة والنقد فقد أكّد الجاحظ فكرة بشر بن المعتمر في مخاطبة كل فئة من الناس بما يلائمها ومطابقة المقال لمقتضى الحال [3] ، فكما أنه يقبح إيراد ألفاظ المتكلمين في الخُطَب أمام العامة ، فإنّ ذلك يَحسُن عند أهل الكلام . وتحدث عن الاقتضاب والإيجاز ممثّلاً بما في القرآن الكريم ، وما في الحديث الشريف. وبَيّن أن الإيجاز المقصود ليس هو القِلّة في الألفاظ والقِصَر في الجمل ، وإنما هو تفصيلها على قَدر المعاني . وحسّن للكاتب أن يختار أسلوباً وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصّة ، وشغلته هذه المسألة كثيراً ، فذكرها في مواضع عدة مؤكداً على المتكلم أن يميّز بين طوائف الذين يخاطبهم ، وينتحه إليهم بالكلام .

ونقل في كتابه البيان والتبيين وفي الحيوان أيضاً شعراً للمُحْدَثين ، وانتقد اللغويين لطَرْحِهم شعرَهم ، واكتفائهم بما امتلأ بالغريب والتعويص . وأثنى

١) البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ٣٩ . ومسألة بدء تأثير كتب أرسطو الخطابة والشعر في الكتب العربية مثار اجتهادات انظر مثلاً بلاغةأرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامـــة ٨٩ وكتاب أرسطو طاليس في الشعر د. شكري عياد . طبع دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م صفحة ٢٣١ - ٢٣٣ المتن والهامش

٢) البيان والتبيين ١ ١٣٥ والبلاغة تطور وتاريخ ٤١

٣) النقد د. شوقي ضيف ٤٨

أصحاب البديع مثل بشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وأثنى على أبي نواس . وأبدى رأيه في بعض الشعراء الجاهليين مثل زهير ومدرسته ، ورأى أثر الصنعة في شعرهم وتبيَّنَ اختلاف مواهب الشعراء وطبائعهم ، مما يؤدي إلى اختلاف براعة ما يصدر عنهم في موضوعات دون أخرى . وعلى العموم يعتبر الجاحظ ممثلاً جيداً للمتكلمين وتعتبر كتبه وبخاصة البيان والتبيين نواة طيبة ومنهلاً خصباً نهل منه الذين خلفوه ، وأفادوا من تعريفاته وملاحظاته البلاغية والنقدية وأهمهم ابن المعتز . وإلى المتكلمين يعود الفضل في « وضع كثير من المصطلحات البلاغية التي دارت في كتب البلاغة والنقد من بعدهم من مثل التشبيه والحقيقة والمجاز والإستعارة ، والكناية والالتفات والاعتراض وحسن الخروج وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد ، والإيجاز والإطناب والاقتباس والفَصاحة ، وتنافر الحروف والكلمات مما نراه مُفرّقاً في كتابات الجاحظ . . » (٣) .

لقد كان دور المتكلمين هاماً في تاريخ النقد العربي ، وفي تاريخ البلاغة أيضاً. فقد بدؤوا بوضع مصطلحات هذين الفنين ، وتابعو الإسهام في هذه الموضوعات من وجوه كثيرة . وما من شك في أنهم أفادوا من الاحتكاك بالثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية . ولئن كان القطع بالتأثير المباشر على الفكر العربي من حيث علم الكلام عامة في هذه المرحلة ، يحتاج إلى أدلة ودراسات طويلة ، فإنّه مما لا شك فيه أن الاحتكاك بالشعوب الأخرى وثقافاتها بَعث في المفكرين المسلمين الهمّة ، وفتح أمام أذهانهم سبل الاختراع والابداع

٤ ــ **نقد على أسس فلسفية** نَشطت حركة الترجمة منذ أوائل العصر العباسي ، واطّردت مع استقرار الحياة اطّراداً واسعاً ، ونقل التراجمة كثيراً من كتب الأوائل في الرياضيات والطبيعيّات والنبات وما يتصل بالصناعات والملل والنحل والحكايات والخرافات ، وكان من جملة ذلك كتب الفلسفة اليونانية إذ نقلوا عدداً منها ، وترجموا أيضاً كتاب الخطابة لأرسطاليس في النصف الثاني من القرن الثالث ، وتُرجم بعده كتاب الشّعر ، ترجمه مَتّى بن

---

١) النقد د شوقي ضيف ٥٠

نوس (ت ٣٢٨) [١] وقد اهتم المسلمون بكتاب الشعر لأرسطو، فعكف أربعة من فلاسفة الإسلام على تلخيصه على فترات متباعدة وهم الكندي (القرن الثاني - القرن الثالث) والفارابي (ت ٣٣٩) وابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وابن رشد فيلسوف الأندلس (٥٢٠ - ٥٩٥). وكان لا بد لهذه الحركة العلمية الواسعة، وما كان من الترجمات والتلخيصات لكتب اليونان في الفلسفة والأدب، من أن تؤتي ثمراتها، وكان قدامة بن جعفر من أوائل الثمرات، وكتابه نقد الشعر أول أثر في النقد العربي يتضح فيه أثر (شعر أرسطو)، وتتكامل فيه نظرية نقدية عربية مستندة إلى أصول يونانية.

وقد قسم بعض الباحثين المعاصرين[٢] تيارات النقد العربي حول (نقد الشعر) في نشأته إلى تيارين

«١) تيار عربي خالص نشأ من رواية الشعر والتنافس بين الشعراء.

٢) وتيار فلسفي يوناني تأثر بكتابي الشعر والخطابة كما تأثر بمصادر فلسفية أخرى [٢]».

وعلى حين ترى جماعة أن أن أثر (الخطابة) ظهر على ابن المعتز في البديع [٣]، فإن جماعة أخرى ترى أن ابن المعتز كان خالص العربية في كتابه [٤]، وقال الدكتور شوقي ضيف «وظن طه حسين قبل نشر كراتشكوفسكي للكتاب - يعني البديع - واطلاعه عليه، أن به أثراً بيناً للفصل الثالث من كتاب الخطابة لأرسطو أو بعبارة أدق للقسم الأول من الفصل الثالث، وهو الذي يبحث في العبارة، والكتاب لا يؤيد هذا الظن إذ كل ما فيه عربي خالص، وقد ألفه ابن المعتز مقاومة لمن يلتمسون قواعد البلاغة في المصنفات اليونانية» [٥] وظاهر من كتاب ابن المعتز أنه عربي، وأنه كما

١) النقد د. شوقي ضيف ٥٢
٢) كتاب أرسطاطاليس في الشعر للدكتور شكري عياد ٢٢٧
٣) انظر الدكتور شكري عياد ٢٣٢ - ٢٣٣، وهو يتابع في هذا الدكتور طه حسين
٤) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان - الدكتور ابراهيم سلامة - الطبعة الثانية - الأنجلو المصرية - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ص ١٤٧، والبلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ٧٠، ورد هناك على رأي د. طه حسين ٥) البلاغة تطور وتاريخ ٧٠.

سلف يمثل دوقَ الأدباء في نظراتهم واستنباطاتهم النقدية. وقال الدكتور مندور نشيء من التأثير اليوناني (الأرسطي) في كتاب البديع لابن المعتز وإن شابَ دلك شيءٍ من التشكيك ، قال . « .. ابن المعتز يبدأ تفكيره من الوقائع والنظر فيها ، وهو عربي صميم سليم الذوق يعرف الشعر العربي ويتذوقه وإذا كان للفلسفة تأثير عليه ، فإنها لم تستعمده . . . » [1] . ويظل القول بأصالة ابن المعتز وبُعده عن الفلسفة أقوى وأرجح

ومع قدامة بن جعفر : (ت ٣٣٧) يظهر أثر الثّقافة اليونانية بوضوح ، وذلك في كتابه نقد الشعر « فقد كان قدامة نفسه شارحاً لكتب الفلاسفة، فهو متشبّع بالتأثير اليوناني » [2] وقرأ كتاب الخطابة أو ما تُرجم من كتاب الخطابة ، وأدرك كتاب الشعر في أوائل ظهور ترجمته فاستأثر به وأحماه في كُمّه وأخذ يتطلع إليه من وقت لآخر ليضع قواعد جديدة للشعر العربي [3] . وأفاد من اطلاعه هذا أن عرف حدودَ ما بين الشعر والنثر ، ووُفّق إلى ذلك . وجُملة القول إن قدامة حاول أن يُخضع الشعر العربي للعقل الفلسفي اليوناني ، ويشتق له قواعد وأصولاً مضبوطة وقد أشار الدكتور ابراهيم سلامة الى نقاط الالتقاء بين قدامة وبين أرسطو في المقاييس التي اعتبرها في كتابه،من ذلك. ١) التناقض[4] فليس بلازم في نظر قدامة أن يكون الشاعر منطقياً ، ولا يجوز لنا أن نطالبه بهذا المنطق ، فله أن يتناقض حتى مع نفسه... متى كان التصوير حَسناً في الحالَين ، أي متى أدركت الصِّنعةُ غايتها ، ومثله في في ذلك أبيات امرىء القيس المشهورة [5] ، كما عَدّ الإستحالة والتناقض من المعاني [6] . وكلا الموقفين مستمد من أرسطو [7] . ٢) مذهب الغلو . تحدث قدامة في . نعوت المعاني الدال عليها الشعر عن أن الناس على مذهبين من مذاهب الشعر هما « الغلو في المعنى إذا شُرع فيه ، والإقتصار على الحد

١) النقد المنهجي عند العرب – الدكتور محمد مندور . ٦٣
٢) كتاب أرسطاطاليس د شكري عياد ٢٣٣
٣) بلاغة أرسطو د ابراهيم سلامة ١٤٨ ٤) المصدر نفسه . ١٥٠ – ١٥٧
٥) نقد الشعر لقدامة ١٩ – ٢١ ٦) بلاغة أرسطو ، ١٥١
٧) نقد الشعر ٢٣٢ وما بعدها .

الأوسط فيما يقال منه »[1] . ثم قال بعد حديث طويل وشواهد : « إن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً ، وقد بلغني أنه قال . أحسن الشعراء أكذبه ، وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم »[2] ، ومذهب الغلو معروف عند أرسطو

٣) وهناك شيء من التطابق والتقارب بين آراء قدامة في مسائل تتعلق بالأخلاق والعاطفة وبين آراء المعلم الأول ، كما في حديثه عند المديح والهجاء . مثل اعتباره للفضائل النفسية . العقل والشجاعة والعدل والعفة في المديح[4] ، وأخذه في الهجاء بأضداد معاني المديح ، وكلما أوغل الشاعر في ذلك كان أهجى وأشد تأثيراً[5] . ويبدو أن قدامة لم يفهم نظرية أرسطو في المحاكاة[6] ، وإن كان الإتفاق على اطلاعه على خطابة أرسطو وشعره قائماً وأن قدامة أخذ منها على قدر ما استوعب ، وما استطاع « فقد أخضع قدامة الشعر العربي للفلسفة اليونانية التي ثقفها . تارة منها مباشرة من كتاب الشعر ، أو من كتاب الخطابة لأرسطاطاليس ، أو من كتبه الأخرى في الأخلاق أو من كتب جالينوس ، وتارة أخرى لا ينقل ولكنه يسرف في تطبيق المنطق وحدوده ورسومه »[7] وكان تأثير كتاب قدامة في النقد والأدب محدوداً ، وعلل الدكتور مندور ذلك بقوله . « محاولة قدامة ظلت شكلية عقيمة ، وهي لم تدخل يوماً في تيار النقد العربي ولئن كان النقاد لم يجهلوه بدليل ورود اسمه غير مرة في كتبهم فإنهم لم يكادوا يتأثرون به ، وإنما تأثروا بكتاب البديع لابن المعتز[8] »

وكتاب آخر ظهر فيه الأثر الفلسفي هو كتاب البرهان في وجوه البيان ،

١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر – مكتبة الخانجي ١٩٦٣ – صفحة ٦
٢) نقد الشعر ٦٥
٣) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – الدكتور ابراهيم سلامة ١٥٨
٤) نقد الشعر ٦٩ ، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٦٥
٥) نقد الشعر ١ ١
٦) نقد الشعر ٥٤ ، وكتاب أرسطاطاليس في الشعر للدكتور شكري عياد ٣٣٣
٧) نقد الشعر ٥٧ ٨) النقد المنهجي ٦٧

لاسحاق بن ابراهيم بن وهب وقد طبع جزء منه عثر عليه في الاسكوريال بالأندلس باسم نقد النثر ونُسب خطأ الى قدامه . والكتاب ليس قصراً على نقد النثر بل إن فيه شيئاً متعلقاً بالشعر أيضاً ، وتظهر في هذا الكتاب « نفس الغاية التي رأيناها في نقد الشعر من اخضاع البيان العربي للفلسفة»[1]. ومؤلف الكتاب معاصر لقدامة [2] ، وليس هو كما استنتج الدكتور عبد الحميد العبادي في مقدمة الكتاب المطبوع بعنوان نقدالنثر والذي نُسب إلى قدامة بن جعفر[3] . ومنهج الكتاب يخالف مخالفة واضحة منهج قدامة في كتابه نقد الشعر [4] . فقد عدد أنواع البيان بتقسيمات اقترحها ، ولم يعتمد في تعريف الشعر بأنه الموزون المقفى فعل قدامة ، مجارياً أرسطو في ذلك ، ورد فنون الشعر الى المديح والهجاء والحكمة واللهو في حين اقتصر قدامة على المديح والهجاء . وأخذ من أرسطو من (الخطابة) و (الشعر) ومن كتاباته في المنطق والجدل أيضاً .

بدأ المؤلفُ بانتقاص كتاب البيان والتبيين للجاحظ واعتباره « أخباراً منتحَلة وخطباً منتخبة [5] » ، وأنه لم يأتِ فيه بوصف البيان . وقسم البيان إلى وجوه أربعة بيان الأشياء بذواتها[6] ، والبيان الذي يحصَل في القلب عند إعمال الفِكرة واللب [7] ، والبيان الذي هو نطق باللسان [8] ، والبيان بالكتاب(الكتابة) ثم تحدث عن صيَغ من الاشتقاق وأبنية الأسماء والأفعال، ثم عن التشبيه [9] ولحن القول (التعريض) [10] ، والرّمز [11] واحتج فيه بأفلاطون ، ومال فيه إلى ما عند جماعةٍ من قول في رموز القرآن الكريم التي يدّعي بعضهم علم أسرارها ، مما يدل —وهو كثير— على تشيّع المؤلف وتحدث

١) النقد للدكتور شوقي ضيف ٥٨ ٢) البلاغة تطور ٩٥ .
٣) مقدمة كتاب نقد النثر ٣٣ — ٤٩ (كتاب نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي حققه وعلق عليه الدكتور طه حسين بك وعبد الحميد العبادي - القاهرة مطبعة مركة مصر ١٩٣٩ ٤) البلاغة تطور وتاريخ ٩٤
٥) نقد النثر ١ ٦) نقد النثر ٩ . ٧) نقد النثر ٣٧ ٨) نقد النثر ٤٣ .
٩) نقد النثر ٥٨ — ٥٩ ١٠) نقد النثر ٥٩ — ٦١ .
١١) المصدر نفسه ٦١

عن الاستعارة ، والأمثال ، والألغاز ، والحذف [١] . ونقل عن ابن المعتز الالتفات وسماه الصّرف[٢] . وتحدث عن المبالغة فاحتجّ بشعر العرب وبالقرآن الكريم وقال : « وأما المُبالغة فمن شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذم كما من شأنها أن تختصر وتوجز [٣] » . وفتح أبواباً في القَطع والعطف والتقديم والتأخير ، والاختراع ، ونقل فيها من خطابة أرسطو ، واستمدّ .

وفي باب التأليف العبارة قسم الكلام إلى منثور ومنظوم وقسم المنظوم إلى أربعة أقسام . قصيد ورجز ومسمط ومزدوج ، وتحدث سريعاً عن بعض الضرورات ، وقسم الشعر إلى فنون أربعة ، وقدم بين يدي الشعراء ملاحظات كثيرة مستمداً من الجاحظ في تطابق اللفظ والمعنى ، ومستفيداً من أرسطو ، كتفضيله الغلو ، قال « وقد ذكر أرسطاطاليس الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز في الصناعة الشعرية [٤] » . وقسم النثر إلى خطابة وترسّل واحتجاج وحديث[٥] وفصّل في ذلك معتمداً على الجاحظ[٦] وأفرد في أثناء ذلك باباً في أدب الجدل [٧] أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو ، بأمثلة شعرية ونثرية ، عارضاً لما صار اليه فن الجدل عند المتكلمين [٨] مؤكداً مقالة بشر بن المعتمر والجاحظ من مطابقة الكلام لمُقتضى الحال . فتحدث عن كلام الرّعاع والعوام وكلام البلغاء [٩] .

وقد أفرد كتاب بلاغة أرسطو بين العرب واليونان باباً كبيراً لدرس كتاب نقد النثر وتأثّره باليونان ، وأرسطو خاصة [١] وخلاصة القول فيه أنه تأثر

١) نقد النثر انظر ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩
٢) البلاغة تطور وتاريخ ٩٩ ٣) نقد النثر ٧٠ ٤) نقد النثر ٩
٥) نقد النثر ٩٣ ٦) البلاغة تطور وتاريخ ١ ١
٧) نقد النثر ١٢٨ ٨) نقد النثر ١٣٤
٩) صدر الكتاب أخيراً (البرهان في وجوه البيان) وفيه زيادات طفيفة في الباب الثالث لا تغير شيئاً أما الباب الرابع الجديد فلا دخل له في موضوع النقد والبلاغة وهو لاحق بكتب (أدب الكتاب) من الوجهة الإدارية
١) راجع في ذلك بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – الدكتور ابراهيم سلامه ١٧٢ – وما بعدها ، وانظر النقد – الدكتور شوقي ضيف ٦٢ – ٦٣

مثل نقد الشعر بالتراث اليوناني ، وأن المؤلف أضاف ثقافة شيعية مركّزة إلى كتابه ، مع ما حواه من الثقافات العربية المختلفة في علم الكلام ، والفقه ، والحديث ، وزاد على قدامة أن أسلوبه عربي ناصع ، دون قدامة في ذلك ، وأنه أضاف ثقافة شيعية، وعربية أوسع مما كان لدى قدامة ، وحاول أن يُثبت المعايير اليونانية في أثناء كتابه بشواهد من القرآن الكريم إلا أن مؤلف نقد النثر بالغ في تطبيق القواعد اليونانية وتحكيم الجدل والمنطق مما جعل اقتفاءه وَعْراً صعباً .

ه) **نقد منهجي مقارن** اختلفت اتجاهات الشعر العربي مع قُدوم العصر العباسي ، وبدأت تتضح معالم نوع جديد من الشعر أو من الصفات والملامح تلوّن الشعر وتلفت النظر إليه . فقد لاحظ ابن المعتز في (البديع) أن بشاراً ومسلم بن الوليد وأبا نواس ومن جرى مجراهم « أكثروا مما سمّاه المحدثون البديع [1] » ، وقرر أنّ تلك الفنون موجودة في الأدب العربي قبلهم ولكن باعتدال وما لبث أن ظهر أبو تمام بطريقته التي قامت على اتّجاهين بارزين . الاسراف في اتباع مذهب البديع وتطبيق أنواعه المختلفة واصطناعها في أسلوبه ، متخطياً درجة مسلم بن الوليد ، والتعمّق في علم الكلام والفلسفة والمنطق ، وإشاعة ذلك في شعره [2] . وبرز في الجانب الآخر تلميذ أبي تمام . أبو عبادة البحتري ، وقد جرى في شعره على الاساليب العربية القديمة في الصياغة والمعاني غيرَ مُسرف في البديع وفنونه ، وغير داخل في أبواب التعميق الفلسفي الكلاميّ ، بل انه اعلن استنكافه من نزول المنطق منزلةً ما في ثنايا الشعر [3] .

وانقسم الشعراء والنقاد تبعاً لهذا أقساماً . فريق لزم طريقة البحتري، ورأى فيها استمراراً للقديم وروحه ، ومحافظة على عمود الشعر ، وخصائص الشعر العربي القديم ، وفريق رأى في أبي تمام صورة جديدة ، ومَثَلاً حياً للفكر

١) البديع لابن المعتز (ط محمد عبد المنعم خفاجه – مصر) ١ – ٢
٢) وانظر تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) للدكتور شوقي ضيف ١٥٧ ، والنقد ٦٤ ٣) النقد د شوقي ضيف . ٦٤

الحديد ، والثقافة التي عرت العقول والأفكار ، واستمراراً للمُحْدَثين من مُسلم وغيره من أهل البديع . وكان فريقٌ متردد بين الجانبين [1] . وألف ابن المعتز رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه ، مال فيها إلى الأحد عليه ، وكتب بشر بن تميم يمال من البحتري في مقابل ذلك

ووضع أبو بكر الصّولي (ت ٣٣٥) كتابه (أخبار أبي تمام) ، وفيه أخبار الشاعر التي هي له والتي عليه ، بمعنى ما ذُكر في الثناء على شعره وما نُقل من معايبه . والكتاب بشكل عام دفاع حار عن أبي تمام ، وهجوم على خصومه وقد حمل الدكتور مندور على الصّولي حملة شديدة ، قال . « وأما الصولي فهو في الحق المتعصب المغرض وأنه وإن يكن في كتابه ما يدل على اختياره للشعر الحديث عن ذوق في خاص ، فإن الذي يبدو هو ان مناصرته لأبي تمام كانت أقرب الى اللجاجة والإسراف منها إلى النقد الموضوعي الدقيق ، ويزيد الحكم عليه قسوة إفراطه في الغرور والتبجح ثم فساد ذوقه وصدوره عن نظرة شكلية يغرها البهرج وتطربُ للغريب» وهذا الحكم قاس على الصولي، بأكثر مما فعل الصولي في خصوم صاحبه

وَفسّر الصولي سبب خصومتهم لأبي تمام بأسباب منها ١) اتّهامه من بعضهم بالكفر [2] وهي تهمة لم يكترث لها النّقاد من بعد ٢) صعوبة شعر أبي تمام عند نفر مِمّن عابوا عليه معانيه [3] ٣) بعض عائبي أبي تمام كانوا يلتمسون الشهرة من مطاولته والنيل منه . ٤) والسبب الهام في إثارة الجدَل حول أبي تمام في مذهبه تجديده وتزعمه مدرسة المحدَثين التي طرأت بقيم جديدة وصدمت أصحاب الذوق القديم وجابهت بما يُلزم عداءهم .

الموازنة للآمدي

ولم يلبث ان ظهر أبو الحسن الآمدي (ت ٣٧١) وقدّم في هذه المعركة الأدبية كتابه الموازنة وكانت حِدة المعركة قد هدأت نسبياً ، وصار الجو مهيّئاً

---

١) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٥ - ١٧٦ . وانظر النقد المنهجي عند العرب د محمد مندور ٧٥ ٢) أخبار أبي تمام للصولي ١٤ ، وانظر النقد المنهجي ٨٨

٣) وللصولي في الموضوع كتابان أخبار أبي تمام ، وأخبار البحتري ، وهما مطبوعان

لظهور تَحكّم عدل يعرض المسألة من كافة وجوهها ، ويبين حُجَج كل فريق من انصار القديم اللائذين بالبحتري ، وانصار الحديث المتعصّبين لأبي تمام وقد صرح الآمدي في مطلع كتابه بأنه سيكون عادلاً في كتابه ولن يميل بهواه الى أحد الجانبين . وخطّط لكتابه أن يسير على منهج يكفل عرض الموضوع وبيانه ، فقدم له بأسباب المعركة بين الفريقين ، وأورد حجج كل فريق مع ردود الفريق الآخر في تفضيل صاحبهم ، ثم ذكر محاسن كل واحد ومساوئه ، مع إيراد السرقات التي ركبوها ، وختم بالموازنة التفصيلية بين ما قاله كل منها في كل معنى من معاني الشعر

ذكر الآمدي الخلاف الذي امتدّ إلى معاصريه حَول الشاعرين أيهما أشعر ، وأن رواة الشّعر المتأخرين فاضلوا بينهما ولم يتفقوا على أيهما أشعر ، وأن هذا التوقف ليس ببدع ، فقد اختلف الأوائل في أشعر اهل زمانهم . ثم بيّن أسباب الخلاف فقال « ... وذلك كمن فضّل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس وحُسن التخلص ، ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة وقرب المأتي وانكشاف المعاني ، وهم الكُتّاب والأعراب والشعراء المطبوعين وأهل البلاغة . ومثل من فضّل أبا تمام ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج ، وهؤلاء أهلُ المعاني ، والشعراء أصحاب الصنعة ، ومن يميل الى التدقيق وفلسفيّ الكلام ، وإن كان كثيرٌ من الناس قد جعلهما طبَقة وذهب قوم الى مساواتهما » . وهذا العرض يشفُ عن انحياز الآمدي الى طريقة البحتري ، وسيكون هذا دأبه الخفي في ثنايا الكتاب كله ، وان كان الدكتور مندور دافع عن الآمدي دفاعاً حاراً ، ولم ينتقص من منهجيته ذرة واحدة ، ولعله كان متأثراً بعداوته للصولي حين جعل الآمدي صافيَ السريرة بادي الانصاف [1] .

عدد الآمدي احتجاجات الفريقين مقتبساً مُعظم آراء أصحاب أبي تمام من الصولي – ولم يذكره – ونائباً هو عن أصحاب البحتري من ذلك احتجاج أصحاب أبي تمام بأستاذيته للبحتري ، وأن البحتري اعترف بأن جيّد أبي تمام

١) النقد المنهجي ٩٣ – ١٥٦ .

خير من جيّده ، وأن أبا تمام صاحب مذهب جديد ، وأن أعداء أبي تمام لم يفهموه ، وأنه عالم ، والبحتري ليس بعالم ورد الآمدي على هـذه الحُجج وأضاف أن أبا تمام أسرف في استعمال الغريب ، وأن البحتري أحسن ولم يسيء في حين أحسن أبو تمام وأساء ثم عَرض لمحاسن الشاعرين ومساوئهما ، وعرض لسرقاتهما فميّز بين المعاني المشتركة والمعاني الخاصة ، وتحدث عن إحالات أبي تمام في المعاني ، وإغراقه في البديع وعاب عليه ذلك ، واقتصر في سرقات البحتري وعيوبه على القليل « لشدةّ تحرره وجودة طبعه » . وختم بالموازنـة بين معاني الشاعرين باعتبار الموضوعات الشعرية .

الوساطة للجرجاني [١] أثار المتنبي خصومات عنيفة عاصره بعضهـا ، وامتدّ بعضها الآخر الى ما بعده فقد كان المتنبي فيعصره شاعر الدنيا ، تطلبه الأمراء ، وتحمل به الشعراء مما أثار حفيظتهم ، وتهيّأت له في بيئاته المختلفـة أسبابُ الخصومة ودواعي الإعجاب به والحفيظة عليه . فمِن بلاط سيف الدولة ومن فيه من الشعراء كأبي فراس واللغويين كابن خالويه ، الى حاضرة الفُسطاط وفيها ابن وكيع التنيسي ، الى مدينة بغداد — وهي دار العلم وعاصمة الدنيا — حيث لقي طوائف من الشعراء والنقـّاد كابن لنكـّك والحاتمي [٢] وكان ابن جنّي واحداً من المعجبين به . شرح شعره وأخذ عنه ، وجرّح كل مآخذ الناس عليه[٣] « وعمل الصاحب بن عباد في المتنبي رسالة الكشف عنمساويء المتنبي وأصل الخلاف حول أبي تمام أنه كان صاحب مذهب جديد اختلفت الآراء حوله ، أما المتنبي فالخصومة حوله لم تكن خصومة حول مذهب شعريّ وإنما كانت حول شاعر أصيل. ويرى الدكتور مندور أن قضية المتنبي ليست استمرارا لقضية أبي تمام[٤] . وبالاضافة الى ما سلف من دواعي الخصومة للمتنبي فانه يلاَحظ في شعره صِيغ وعبارات استمدها من الفلسفة والتشيع والتصوف،

١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني — طبعة عيسى البابي الحلبي — الثالثة — محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي
٢) (الخصومة حول المتنبي) الفصل الخامس من كتاب الدكتور محمد مندور النقد المنهجي.
٣) النقد المنهجي ٢٣٣ . ٤) النقد المنهجي ١٥٨

واستعمالات نحوية ولغوية غريبة او شاذة ، ساعده على اصطناعها ثقافته اللغوية الواسعة وكان المتنبي يعرف ذلك من طبيعته ، ويطالب الإعراب ويفرط في ذلك مستعيناً بثقافة واسعة [1] .

الجرجاني .

وظهر القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني (ت٣٩٢) [2] ليحكم بين المتخاصمين في المتنبي . وألف كتابه (الوساطة) وبيّن أن أهل وقته فئتان : فئة تنصُر المتنبي على كل حال ، وفئة تنتقصه حتى تنال من حسناته [3] . وحاول أن يكون عادلاً ، بل ان آراء الدارسين المحدثين تكاد تتفق على عدله أو صدقه في توخي ذلك . تحدث الجرجاني عن أغاليط الشعراء القدماء ليسوّغ ما يؤخذ على المتنبي من أغلاط وما يلحق به من عيوب . ولولا ان أهل الجاهلية جدّوا بالتقدم واعتقدالناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة [4] ومَثّل لذلك بأمثلة مستفيضة ، وتحدث عن عوامل الابداع في الشعر ، واختلافه بالبيئة والطبائع [5] ، ومذهب العرب في تفضيل المحافظة على عمود الشعر [6] ، ثم تفشي البديع لدى المحدَثين ، وعرض إلى بعض صنوفه ثم تحدث في صميم الموضوع ، فجعل خصوم المتنبي فئتين فئة تخاصمه لأنها ترفض شعر المحدَثين جملة ولاتعتدُّ إلا بالقديم ، وفئة – يراها جديرة بالمناقشة – تُعجَب بالمحدَثين مثل أبي تمام ومسلم وبشار وأبي نواس ، ثم تزري بالمتنبي [7] . وناقشهم في ذلك وقال عن شعر صاحبه « إما أن تدعي له الصنعة فتلحقه بأبي‌تمام وتجعله من حزبه ، أو تدّعي له فيه شركاً وفي الطبع حظاً . فإن مِلت به نحو الصنعة فضل مَيلٍ صيّرته في جنبة مُسلم ، وإن‌وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلاً نحو البحتري [8] . وتحدث عن رديء شعر

١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي - الدكتور شوقي ضيف ٢٢٢ – ٢٦٥ مكتبة الاندلس – لبنان – الطبعة الثالثة

٢) توفي سنة ٣٩٢ كما في وفيات الاعيان ١٤ ١٥ . (ط مصر) . وانظر البلاغة تطور تطور وتاريخ ١٣٢ .

٣) الوساطة ٣ ٤) الوساطه ٤ ٥) الوساطة ١٥ ، ١٨ ٦) الوساطة ٣٤

٧) الوساطه ٤٩ ٨) الوساطة ٥٠ .

المتنبي وما قيل في سرقاته ، وما عِيب من الفاظه ومعانيه ، ومتابعته ابا تمام في الإفراط في الاستعارة ، وناقش ذلك كله ومنهجُه كما قال الدكتور مندور أن يقيس الأشباه بالنظائر ، وعلى هذا الأساس بنى معظم وساطته بين المتنبي وخصومه »[1] . وكان كتاباً الآمِدي والجُرجاني ذروة مـا وُضع في النقـد المنهجي المقارن ولم ينشط هذا النوع من التأليف بعد القرن الرابع « وقـد يكون من أهم الأسباب في ذلك جُمود الحياة الأدبية عند العرب وعدم ظهور شعراء لهم مذاهب أو أساليب جديدة فحفّت حدّةُ هذا النقد »[2] وقد وقفتُ على اسم كتاب أندلسي وازن فيه صاحبه بين المتنبي وبـين غـيره من الشعراء هو الانتصار لأبي الطيب ، ومنه نقول قليلة لا تدل إلا على الاعجاب بالمتنبي وتفضيله على غيره »[3] .

٦) النّقد المتصل بموضوع إعجاز القرآن .

شغل القرآن الكريم العربَ منـذ أنْ أوحى به الله سبحانه إلى رسوله الكريم ، فبهرَهم بيانه ، وأعجزَتهُم بلاغته . وأدرك العرب منذ البداية أنهم أمام كلام لا يشبه ما كان عليه شعرُهم ولا خطابتهُم ولا أمثالـهُم ، ولا سجع كـهّانهم واكتفى العربيُّ الفصيحُ البليغ باللمحة الدالّة ، وأدرك بإحساسه مواضعَ الإعجاز فطرةً ، حتى إن كثيراً منهم دخلوا في الإسلام بعد سماع آيات قليلة . ثم تغيّر الزمان ، وتغيّرت السليقة ، وأخضع البحث العلمي كل شيءٍ للدرس والتحليل ونشط المتكلمون في مجادلة أهل المِلل الأخرى وفي مجال الخلاف بين بعضهم بعضاً وكان الحديث عن إعجاز القرآن ومواضع ذلك فيه أمراً شغل عدداً منهم ، واستمر زماناً طويلاً حـاداً نشيطاً ، فساعد كل ذلك على نمو الدراسات النقدية والبلاغية ، بشكل مباشر حين تناول ذلك بلاغةَ القرآن ومواضع إعجازه ، وبشكل غير مباشر بمـا اغنت هـذه البحوثُ الدراسات الخاصة في البلاغة والنقد .

وقد كان المتكلمون الذين تناولوا مسألة الاعجاز فريقين المعتزلةُ وفيهم

١) النقد المنهجي ٢٠١ ٢) النقد د شوقي ضيف ٨٢

٣) إحكام صنعة الكلام للكلاعي ٢٥٠

الجدل والنظر على مقاييس التزموها ؛ وكانوا فرقاً كثيرة تلتقي عند الأصول وتختلف في أشياء قد تكون جوهرية أيضاً ، وكان لبحوثهم في إعجاز القرآن أهمية كبرى لأنهم شغلوا بالقرآن أيضاً من وجه آخر يتعلق بـ (خلق القرآن). والفريق الثاني . الأشاعرة ، وهم أعداء المعتزلة من حيث الموضوعات الكلامية، والخلاف بينهم شديد وذو شعب . ولكنّ كلا الفريقين أسهم في معالجة فكرة الإعجاز ، وأغنى المكتبة النقدية بالدراسات الجانبية ، في حين أن ازدهار الدراسات البلاغية يعتمد في معظم جوانبه على جهود المتكلّمين ، الأشاعرة والمعتزلة على حد سواء .

قال بعض المعتزلة كالنظّام إن الله صرَف عباده عن معارضة كتابه ، بمعنى أن الإعجاز هو بالصّرفة ، وهي عبارة تتردد كثيراً في هذا الموضوع وقد رد أحمد بن محمد الخطابي البُستي (ت ٣٨٨) على هذه الفكرة في رسالته التي وضعها في بيان إعجاز القرآن [1] وأنكر أن يكون الإعجاز في الإخبار عن الأمور التي ستقع في المُستقبل ، وأرجعه إلى بلاغته ، فقال « وزَعَمَت طائفة إن إعجازه إنما هو فيما تضمّنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزّمان ولا يُشَكُّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوعٌ من أنواع إعجازه ولكنّه ليس بالأمر العام الموجود في كل سُورة ، وقد جَعل سبحانه في صفة كل أن تكون معجزةً بنفسها لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يأتيَ بمثلها ... فدل على أن المعنى في غير ما ذهبوا إليه » . إلى أن قال . « فتفهّم الآن وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نُظوم التأليف مضمّناً أصح المعاني .. » [2] .

الرُّماني

ووضع الرُّماني (علي بن عيسى ت ٣٨٦) ، كتابه النُّكَت في إعجاز القرآن [3] وهو نحويٌّ متكلم من المعتزلة . والكتاب جواب لسؤالِ سائلٍ

١) بيان إعجاز القرآن لابي سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط دار المعارف) . ص ٢١ ٢) بيان إعجاز القرآن ٢٤

٣) النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن طبع دار المعارف)

عن وجوه النكت الجامعة لوجوه الإعجاز ، فجعلها سبعة هي . ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأخبار المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياس القرآن بكل معجزة . وجره الحديث إلى ذكر البلاغة ، فجعلها في ثلاث طبقات . عليا هي بلاغة القرآن الكريم ، ووسطى ودنيا لبلاغة البلغاء ، فجعلها حسب تفاوتهم في درجات البلاغة . وجعل البلاغة في عشرة أقسام [1] الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . وناقش كل قسم معرفاً وممثلاً بآيات القرآن الكريم . والرماني من علماء المعتزلة ومشهوريهم فقد كان لغوياً أديباً مفسراً ، وله تفسير (منه قطعة مصورة بالجامعة العربية) نهج فيه منهج المعتزلة ، في غاية الجودة

إعجاز القرآن للباقلاني

ووضع أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣) كتابه إعجاز القرآن [2] ، لأن الحاجة إلى ذلك أمس من اشتغال العلماء بأمور كلامية أخرى [3] . وبين أن معجزة نبينا هي القرآن [4] ، وهاجم فكرة الصرفة بشدة [5] . ثم فصل وجوه إعجاز القرآن وجعلها ثلاثة الإخبار عن الغيوب [6] ، وورود قصص الأنبياء والأولين – والرسول ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب – ولا يتأتى إيراد ذلك إلا عن تعلم [7] ، وأنه « بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه [8] » وهو يعني بلاغة القرآن .

وفي فكرة (النظم) هذه ارتداد إلى قولة الجاحظ بذلك أيضاً [9] . وهو متكلم معتزلي كما هو معروف ، وقوله متناه في البلاغة ، قريب من قول الرماني إنه في أعلى طبقات البلاغة [10] ثم بين وجوه بديع نظم

---

١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧

٢) إعجاز القرآن للباقلاني – تحقيق السيد أحمد صقر ط . دار المعارف

٣) ص ٥ ٤) ص ١ ٥) ص ٢٩ ٦) ص ٣٣ ٧) ص ٣٤

٨) ص ٣٥ ٩) البيان والتبيين للجاحظ ١ ٣٨٣

١٠) البلاغة تطور وتاريخ ١٠٩

القرآن المتضمن للإعجاز ، ولخصها في عشرة أوجه . وفصل وجوه الإعجاز التي ذكرها ، ونفى الشعر والسجع من القرآن ، وعقد باباً لبعض وجوه البديع[1] . وبيّن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن [2] . وناقش المعتزلة في قَدْر المُعجِز منه ، وتحدث عن أمور أخرى يدخل بعضها في علم الكلام ويخرج بعضها الآخر إلى حيز الدراسة البلاغية والملاحظات الأدبية . وهو يحتج بشعر العرب وخطبهم ويعمد إلى المقايسة والمعارضة ، ويرد على الرماني (٢٦٢ — ٢٨٣) في وجوه البلاغة العشرة التي كان أوردها .

إعجاز القرآن للهمذاني .

وللقاضي أبي الحسن عبد الجبار الهمذاني المعتزلي كتاب إعجاز القرآن . وهو أحد أجزاء المغني الذي وضعه في عشرين جزءاً لبيان آراء المعتزلة — وبخاصة مدرسة الجُبّائيّين أبي علي وأبي هاشم بالإضافة إليه — وهو الجزء السادس عشر ، وطبع في وزارة الثقافة بالقاهرة — [3]

وقد بسط القاضي عبد الجبار رأي شيخه أبي هاشم في مسألة الإعجاز ، وبسط رأيه أيضاً . وسأعرض لهما ولغيرهما في فقرة أعقدها لإعجاز القرآن عند بعض أهل الأندلس وأسبق هنا إلى القول إن القاضي تقدّم خطوة كبيرة في دراسة الإعجاز في رفضه الصّرفة ومحاولته فهم النّظم وتبيين أسسه ، ممامهد — كما قال الدكتور شوقي ضيف — إلى ظهور عبد القاهر الجرجاني وإيضاحه نظريته [4] في علم المعاني .

ومن الكتب التي عُنيت بالنقد والبلاغة إتماماً لوجوه فهم إعجاز القرآن كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري قال في المقدمة « . . اعلم . . أن أحقّ العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف **إعجاز كتاب الله تعالى** . وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمُه بإعجاز

١) إعجاز القرآن للباقلاني ٦٦ - ١١٢ ٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١١٣ - ١٥٤ ،
٣) المغني في أبواب العدل والتوحيد - الجزء السادس عشر - إعجاز القرآن - تحقيق أمين الخولي (١٣٨٠ - ١٩٦٠) ٤) البلاغة تطور وتاريخ ١١٨ والنقد ٨٤ .

القرآن . »[1] وأثنى على البيان والتبين للجاحظ وقال إنه مقاصده مبثوثة في الكتاب يصلها طالبها ، ولهذا وضع كتابه[2] .

ومنها كتاب « سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٤٦) «وقد عُني فيه بتفسير الفصاحة ومايطوى فيها من الصور البيانية والبديعية[3]». وواضح أنه يتصل في عرضه بالمعتزلة ويعتمد في نقوله على كتبهم وكتب المتكلمين عامة ، ذلك أن الفصاحة قضية طويلة عرض لها أبو هاشم الجبّائي فيما نقل عبد الجبار ، كما أن ابن سنان قال بالصرفة ووجّه الإعجاز اليها .

ولما وصل الأمر إلى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) استطاع أن يضع نظريتين في علم المعاني وعلم البيان بتأليفه كتابَي ْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وقد أفاد من فكرة الجاحظ في النظم ، ومن بحوث الباقلاني ، وتعميقات عبد الجبار ، ومن بحوث اللغة والنحو وعلاقتها بالبلاغة ، وأقوالهم في جمال الألفاظ وحُسن المعاني ، ووجد سِرّ نظريته في معاني النحو « وليس النحو الظاهر أي الاعراب ورفع الكلمات ونصبها أو خفضها ، وانما النحو الذي يُقيم الروابط والصلات بين الكلمات في العبارات فإذا هي تأخذ نسقاً معيّناً ، وليس هذا النسق إلا النظم من جهة ، والنحو من جهة ، بل ليس النظم إلا هذا النحو ، إلا قواعده وقوانينه[4] » .

وقد أثْرَت الدراسات المتعلقة ببحوث الإعجاز ُكلاً ّ من علم الكلام والنقد والبلاغة ، وكانت ذات نتائج هامة في تنشيط الفكر الإسلامي ووقوفه أمام تيارات الثقافات الاجنبية الطامية .

٧) دراسات في موضوعات نقدية خاصة

من الموضوعات النقدية التي شغلت النقاد العرب منذ كان نقداً ذوقياً جزئياً إلى أن استوى على سوقه ، مشكلة **السرقات الأدبية** . وفي كتب الأدب المتقدمة أخبار تدل على سرقة بعض الجاهليين من بعض ، ومعرفة ذلك في عصرهم . واستمر الامر كذلك في العصر الإسلامي ، وزاد في العصر الأموي مع ظهور

١) الصناعتين (ط الخانجي) ٢ ٢) الصناعتين ٥
٣) البلاغة تطور وتاريخ ١٥٢ ٤) النقد ٨٥

العصبية القبلية وتلاحي القبائل في شعرائها وخصائصها . واشتهر كثيّر عزة بكثرة السرقات حتى سمي بالدجّال [1] . وألف فيه الزبير بن بكار (ت ٢٥٦) كتاباً سماه كتاب إغارة كثيّر على الشعراء . أما السرقات في العصر الاموي فاستفحل أمرهـــا وأصبحت ظاهرة متعارفاً عليها بين الشعراء والرواة والنقاد [2]

ومع ازدهار الحياة العامة في العصر العباسي وانتقال الدولة الإسلاميـة الى عصر التـدوين واتّضاح معالم حدود العلوم المختلفة وتبيّن المذاهب الادبيـة والفكرية والسياسية ، كان للنقد الأدبي مجاله الواسع . واتّسع النظر تبعاً لهذا في موضوع السرقات ، باعتباره من قضايا النقد الرئيسية . ولم تعد السرقة أخذَ شاعر لمعنى شاعر آخر فحسب ، بل تعدّى الامر الى اعتبار سرقـة الامثال وأقوال الفلاسفة والحكماء والعبارات المعتادة .. والأخذ عن القرآن الكريم والأحاديث [3] ..

وقامت حركةحول أبي نواسلتمييز شعره، وما يقال عن سرقاته، ووُضعت الكتب في أخباره وسرقــاته ، منها . أخبار أبي نواس لابن منظور في جزأين وكتب لا تُعرف إلا أسمـــاؤها مثل كتب ابن عمار الثقفي ، وابن عمار ، وكتاب مثالب أبي نواس لأحمد بن عبيد الله الثقفي . وهناك كتاب وصلنا هو سرقات أبي نواس ألفه مهلهل بن يموت بن المزرع ، حققه ونشره الدكتور محمد مصطفى هداره .

حول أبي تمام والبحتري

لقد أثار القديم والحديث في الشعر معارك حـامية ، وتميّز كل من أصحاب أبي تمام وأصحاب البحتري بالعصبية في كثير من الأحيان . ووضعت الكتب في أخبارهماوتناول الشاعرين بشكل مباشر أوعرضاًعدد كبيرمنالنقاد فيمؤلّفاتهم، وكان موضوع السرقات من النواحي الهـامة التي بسط فيها القول وكان بعض معاصري الشاعرين أبي تمام والبحتري من الشعراء يقذفونهم بالسرقة فقد كان

١) المنصف لابن وكيع (نقلا عن كتاب مشكلة السرقات في النقد العربي) لمحمد مصطفى هدّارة ـ الانجلو ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢٢ ٢) مشكلة السرقات ٢٦
٣) مشكلة السرقات ٣٣

دِعبل يعلن أنّ أبي تمام يسرق شعره ، وكان ابن الرومي يتهم البحتري بمثل ذلك ، وإن كان الشاعران صحّا من سرقات غيرهم لشعرهم . ومن الكتب التي ألفت في هذا . أخبار أبي تمام وأخبار البحتري للصولي ، — وفيها حديث عن السرقات — والموازنة للآمدي . ووجد مؤلفون لم يُجعوا عصبيتهم لأصحابهم مثل أبي الضياء بشر بن تميم الكاتب ، الذي قال فيه الآمدي إنه استقصى سرقات البحتري حتى تجاوز إلى ما ليس بمسروق ، وعالى أبو علي محمد بن العلاء السجستاني الذي لم يجد لأبي تمام من المعاني المخترعة غير ثلاثة معان . وألف ابن أبي طاهر كتابين أحدهما في سرقات أبي تمام ، والثاني في سرقات البحتري من أبي تمام الى كتاب آخر في « سرقات الشعراء » عامة .

حول المتنبي

ولم يلبث أبو الطيب المتنبي أن أثار معركة نقدية أخرى كما ذكرت في فقرة سابقة ، وكان لنهجه الشعري وأسلوبه ، ولمزاجه الحاد الصعب المراس أثر هام في هذه المعركة وقامت في عصره فئات تكتب عن أخطائه وسرقاته ، وشغل المتنبي الناس في عصره ، وفيما بعده أيضاً وكانت حلب — والمتنبي فيها في كنف سيف الدولة — مرتاداً للشعراء ومثابة للعلماء من نحاة ولغويين وفلاسفة وغيرهم وكان توقّع اصطدام المتنبي ببعضهم لازماً لِما في طبعه من أنفة ، وفي نفسه من غُرور . ولم يَسلم من طعن أبي فراس الحمداني ولا من انتقادات ابن خالويه . وفي مصر لقيه كثيرون بالمساوآت ، وكذلك كانت حاله في العراق وفارس ومما ألف فيه الكشف عن مساوىء المتنبي[1] للصاحب بن عباد وقد اتهمه بسرقة القديم والحديث ، والرسالة « الموضحة في ذكر سرقات المتنبي والساقط من شعره »[2] لأبي علي الحاتمي (ت ٣٨٨) ، و المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي لأبي محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي المصري (ت٣٩٣) وفيه دراسة عامة عن السرقات ، ثم حديث عن المتنبي والإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد ابن أحمد العَميدي[4] (ت ٤٣٣) ، وفيه مقدّمة عن السرقات والمآخذ الكندية من المعاني الطائية لأبي محمد سعيد بن المبارك علي الدهان (ت ٥٦٩)وهو مفقود

١) طبع بعناية حسام الدين القدسي ، وطبع ثانية بدار المعارف مع الإبانة ، وثالثة ببغداد
٢) حققها الدكتور محمد يوسف نجم ٣) السرقات الادبية ١٦١ . ٤) وهو مطبوع

ولابن الأثير: «الاستدراك في الأخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائية» في الردّ عليه والتعقّب له . وقد طبع في مطبعة الأنجلو .

وبالاضافة الى الدراسات المتعلقة بالسرقات، وهي التي ثارت حول شخصيات مشهورة بَعينّها ، كانت هناك مؤلفات كثيرة في سرقات شعراء آخرين لم يكن لها مثل دويّ تلك ولا اشتهارها ،(١) كما أن كتب الأدب والنقد كانت تتحدث عن السرقات وحدودها وانواعها والمقبول منها والمردود . الخ، وما من شك في أن هـــذه الدراسات كلها أغنت المكتبة النقدية ، وأثّرت في مجرى الفكر النقدي العربي ، وفي بعض القيم الأدبية أيضاً

صدى المذاهب الفنية المشرقية في الاندلس

حياة العرب في الأندلس بدأت جديدة مستأنَفة على غير عهد بأهلها، ودون سابق معاملات من سياحة أو تجارة أو معرفة ، وكان فتحها بعد نحو قرن من الهجرة . وسكنها الفاتحون والوافدون وهم يحملون صوراً مماثلة لِما كانوا عليه في مَواطنهم من عصبية وثقافة وعوامل فرقة وائتلاف وانتقلت القيم الاجتماعية والفكرية كما هي وإذا اعتبرنا فترة مابين الفتح الأندلسي واستقرار الدولة تحت كنف عبد الرحمن بن معاوية المرواني فترة إقرار وتلاؤم ، كان الوجه الواضح للأندلس يبدأ من أول الدولة الأموية ويبرّر هذا قلة ما لدينا من أخبار عصر الولاة ، ممّا نحن فيه من ثقافة وأدب .

العصور الأولى

في كتب التاريخ والأدب أخبار قليلة عن الشعر والنثر في العصور الأولى فى الأندلس ولكن الأندلسيين بعامة ميّزوا حين درسوا الشعر عندهم – إلى قرب عصر الطوائف بشكل خـاص – بين مذهبين في الشعر سادا الأندلس مذهب العَرب ومذهب المُحـدَثين

والمقصود بعبـارة مذهب العرب مـا عرّفـه الأندلسيون أنفسُهم من بناء الشعر على نهج العرب من فخـامة اللفظ وجزالته والتزام صُور العرب ومسلكهم في التعبير والمادح التي وُصفت بأنها على ذلك المَنهج ناطقة[*] بذلك . ونعلب على المقصود من مذهب المحـدَثين النهج على

٤) السرقات الادبية ١٧٥ - ١٧٦

طريقة أبي تمام وابن المعتز وأضرابهما والأخذ بالتّجديد والابتكار في الصور البيانية والبديعية والإكثار من ذلك بحيث يخرج عن المألوف في مذهب العرب إلى المحدَث في شعر صريع وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم . وقد أثر الشُّرّاح واللغويين بعرضهم النماذج العربية الفصيحة وشرح معانيها وتقريبها للمثقفين في تطور مدرسة مذهب العرب. وقد رأى الدكتور إحسان عباس أن الأندلسيين ـ بتقليدهم المتنبي والمعري – كانوا أيضاً يميلون إلى مذهب العرب مطوّراً عما أدخلاه من تجربة عميقة وآراء فلسفية [١] ، وهذا يصدق في دراستنا للشّعر الأندلسي وتبيّن مدارسه وهم لم يطلقوا « مذهب العرب » إلا على الشعر الذي استمر متمسّكاً بمقاييس النحويين واللغويين ناهجاً مسلك الأوائل من العَرب ، وما كانوا يرون غير ذلك من مذهب العرب ، وسيرد ما قاله الزّعيني في ابن برحان (ت ٦٢٧) وشعره . « وهو فيه على طريقة العرب ، وكان يَستضعف الشعر المحدَث وكتابة المتأخرين ولا يرى ذلك شيئاً ».

وكان الميل إلى مذهب المحدثين أكثر ، بينما انحاز بعض اللغويين ونفر من تلامذة أبي علي البغدادي إلى الاعجاب بالشعر الذي على مذهب العرب، وظل هذا الاعجاب محصوراً في فئة قليلة وفي طبقات الزبيدي وجذوة المقتبس للحُميدي وغيرهما إشارات كثيرة الى هذين المذهبين خلال التراجم وفي رسالة ابن حزم عن فضل الأندلس أمثلة من هذا كقوله عن أبي الأجرب . هو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين » [٢] . ونقل الحميدي عبارة ابن حزم « فهو جارٍ على أوائل مذاهب العرب لا على طريق المحدثين » والمعنى واحد وفي ترجمة عباس بن ناصح الجزيري عن ابنه عبد الوهاب [٣] « قال كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمّن نجم في الشعر بعد ابن هرمة ، حتى أتاه رجل فأعلمه بظهور حسن بن هانىء.. وأتاه من شعره بقصيدتين إحداهما قوله

١) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ١٠٩ – ١١٠ .
٢) نفح الطيب(المكتبه التجارية) ٤ ١٦٩ ٣) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٨٤

حريت مع الصّبا طلقَ الجموح   وهان علىَّ مأثورُ القَبيح

والثانية

أما ترى الشّمس َحلّت الحَمَلا   وقام وحهُ الزّمان واعتَدلا

فقال أبي هدا أشعر الحن والإنس ، والله لا حسبي عنه حابس ، فتجهّر إلى المشرق وللقصة بقية طريفة دكرها الزبيدي في طبقاته ، ومعرى الخبر طريف ، دلك أن عباس بن ناصح كان شاعراً « ومدهبه في شعره مدهب العرب الأول في أشعارهم » ، وإنّ تقصّيه عن شعراء المشرق يوضح صورة من الاهتمام بكل ما هو مشرقي، وقد حفزت قصيدتان شاعر بلده آنداك على الهجرة إلى شاعر آخر َنجم في المشرق .

ووُجدِ شعراء قالوا الأراجيز التي كانت شائعة في العصر الأموي بخاصة ، وعظم شأنها مع رؤبة والعجاج ، ومنهم ابن عثمان الأصم ، وكان لغوياً فصيح اللسان شاعراً مجوداً وأكثر أشعاره على مذاهب العرب [1] (ت ٣٣٥) . ومن شعراء الدولة العامرية أبو المطرّف عبد الرحمن بن أبي الفهد كان من أشعر من أنشته الأندلس بعد أبي المحشى اولا ، وأحمد بن دراج آخراً ... لم يكد يُبقي شعراً جاهلياً ولا اسلامياً الا عارضه وناقضه وفي كل دلك تراه مثل الجواد ادا استولى على الأمد لا يني ولا يقصر ، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني ابي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام ، فاعجب » [2]

بين المنهجين .

وممّن َنهج على طريقة العرب الأوائل في شعرهم أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبْني (ت ٤٥٠) ومما أنشدَ له الحُميدي في جذوة المقتبس [3] .

وَضاعف ما في القَلب يومَ رحيلهم   على ما ِبه منهم حنينُ الأباعر

أَجرع آثار الخليطِ لبينِهم   وتسفحُ من دمع سريع البَوادِر

وأصبر عن أحباب قلب ٍ ترحّلوا   ألا إنّ قلبي صابرٌ غيرُ صابر

١) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٨٤

٢) جذوة المقتبس (ط عزة العطار) ٢٥٨ – ٢٥٩ والعبارة عن ابن شهيد .

٣) جذوة المقتبس . ٢٦٥ .

ومنهم أبو الحكم عبد الرحمن بن برحان ، وهو من شيوخ الرُعيني ، وذكره في برنامجه فقال [1] . « أنشدني شيئاً من شعره ، وهو فيه على طريقة العرب ، وكان يستضعف الشعر المحدَث وكتابة المتأخرين ، ولا يرى ذلك شيئاً » . وكان ابن برحان كما وصفه . « بحراً في حفظ اللغة لا تكدّره الدلاء » ، ويحفظ بعض كتب اللغة جملة ويحفظ من بعضها الآخر . هكذا نرى أن مذهب العرب جمع إليه المُعجَبين بالشعر القديم وأهل اللغة والنحو ، ومَنْ نشأ تحت يد ابي علي البغدادي وتلامذته لأنه بثّ ذوقه فيهم ، وأشاع مقاييسه النقدية القائمة على الإعجاب بالتّراث القديم والاحتكام إلى اللغة والغريب .

أما الامر الشائع فهو الالتفات الى مذاهب المحدثين ، والنسج على منوالهم . وكان هذا دأب معظم الشعراء وموقف الحكام وعامة الناس ، وقد مر أن مرتبة أبي المُطَرّف بن أبي الفهد دون مرتبة عُبادة عند ابن أبي عامر . وفي طبقات الزبيدي خبر يدل على إعراض العامّة عن الشعر الذي ينتهج مذهب الأوائل ، وفي ترجمة محمد بن يحيى الرباحي قال « وله قصيدة رثى بها احمد بن موسى بن حُدير بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدَثين ، فلم يرضَها العامة [2] » . قال . « وكان أبو علي اسماعيل بن القاسم شديد الإعجاب بها ، كثير الثناء عليها » . وعلى الرغم من وجود انصار مذهب العرب بشكل واضح في الفترة الاولى التي يمكن أن تمتدْ الى اول عصر الطوائف ، وبشكل أقل وضوحاً فيما بعد ، فإن انصار المحدَثين هم الفئة الغالبة ووُجد مد نحوم أبي نواس وابي تمام مَنْ التفت إليهما ونوّه بهما .

ولتعليل التفات الاندلسيين الى هؤلاء وأضرابهم لا بد من افتراضات متعددة ، منها أثر الوافدين من المشرق ، وأثر الرّحالة والمسافرين من الاندلس الى المشرق من طلاب العلم وشُداة الرواية وقُصّاد الحج وسواهم ، فإنهم كانوا يعودون – فيما يعودون به – بدواوين الشعراء الناجمين واشعارهم ، فهي بضاعة جديدة تستدعي التفات النظر . ومن ذلك ان الشعر الاندلسي . « بدأ يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهدُ تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق

١) برنامج شيوخ الرعيني : ٩٨ . ٢) طبقات اللغويين والنحويين ٣٣٩ .

الطرق بين مذهبي أبي تمام والبحتري . ولما كان سكان الاندلس حينئذ يلتفتون في كل شيء الى المشرق فقد اتخذوا من شعر المشارقة المحدثين مثالاً يقلدونه ونوراً يهتدون به أي أنهم جعلوا الشعر المحدَث – لا شعر العرب الاوائل – موروثاً لهم ينسجون على منواله ويستوحون ما فيه [1] » . وهذا الحكم صحيح إلى حد كبير في تفسير ظاهرة التفات جمهرة الاندلسيين عن شعر الاوائل نموذجاً يُحتذى، مع ولعهم حملة بتدارسه وروايته وشرحه . وانتقل الى الاندلس شعر صَريع الغواني وشرحَه الطبيحي الأندلسي ، وانتقل أيضاً شعر أبي تمام ، وكان له من الشهرة عندهم والاهتمام مقام عظيم ، ونقله الى الاندلس اثنان منهم : عثمان بن المثنّى النحوي [2] ، ومؤمن بن سعيد [3] وشرحه الطبيحي أيضاً ، وقد أمر عبد الرحمن الناصر بانتساخ شعر أبي تمام واحضر جماعة من أدباء الاندلس لتحقيق ذلك ، ويبدو من الخبر انهم رتّبوا ديوانه في نسخته المصنوعة له على نسَق دوقي ، وقدّموا ما استحسنوا من شعره على غيره من القصائد ، وكان مقياسهم تقديم الشعر « لغرابته وحسن معناه [4] » .

أبو تمام والبحتري .

ونتوقع ان يكون صدى الخلاف بين الطائيين في مذهبيهما قد انتقل الى الاندلس ، وان لم يأخذ طابع الحدة الذي ثار في المشرق ، ولم يأخذ شاعر نفسه بالتزام طريقة واحدة ومذهب واحد ، وان كانوا في اغلبيتهم الى مذهب المحدَثين – على اختلافهم – أميل . وبَهرهم ما يرد عليهم من أقصى الارض ، وشغلهم جمعاً كاتبه وشرحه ، الى شيء آخر هام سيظل ظاهراً في ابواب الرسالة وفصولها ، وهو عدم ظهور الحركة النقدية الادبية في الاندلس بمثل الاتجاهات الواضحة في المشرق ولا بمثل غزارتها ؛ لمكانة الاندلس بالإضافة الى المشرق من جهة ، ولقلّة نشاط النقاد الاندلسيين من جهة أخرى . وفي ترجمة ابي حفص عمر بن يوسف الحيطي (ت ٣٣٨) [5] أنه « كان من اهل العلم بمعاني الشعر ، حسن التكلم

١) عصر سيادة قرطبة ٣٤
٢) طبقات الزبيدي ٢٨٨
٣) المغرب لابن سعيد ١ . ١٣٢
٤) طبقات الزبيدي ٣٠٧
٥) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٣٣٠ .

فيه وكان ، يتعصب للبحتري ، وكان له حظ من علم العربية ، وكان شاعراً مطبوعاً ومجوّداً ». ويلاحظ من هذه الكلمات القليلة انه يضاف الى أهل اللغة في مكوناتهم الثقافية ، وأهل الطبع من الشعراء ، فلم يكن غريباً – بعد – أن يتعصب للبُحتري ، وان نستدل على الفئة التي تعصبت له من الاندلسيين، ولعلها تكون قريبة الموارد من جماعة شعر العرب

المتنبي :

ولما ظهر المتنبي طار ذكره وشعره إلى الاندلس ، ووُجد من يتعصب له وينتصر من النقاد ، ووُجد من يُدعى بالمتنبي من شعرائهم ، وحاكوه في معانيه وأغراضه ووُضعت في المتنبي الكتب ولديوانه الشروح . ومن ذلك كتاب الانتصار لأبي الطيب صنفه أبوالقاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، وهو كتاب مفقود منه مقتطفات في كتابه الآخر إحكام صَنعة الكلام ، وهذه المقتطفات تدل على أن المؤلف أورد اخبار المتنبي وآثاره ، واحتج لشعره ، ولعله ايضاً قارن بعض معانيه بمعاني شعراء آخرين كأبي تمام [١] . وشَرح الأعلم الشنتمري ديوانه ، وشرَح ابن سيدة مُشكل شعره وكان ابن دراج يُسمى متنبي العرب، وتأثّر بالمتنبي وطريقته (واليه انتهت الطريقــة التي اختارها الاندلسيون وارتضوها بعد الحكَم الغَزال، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقُّدها والتوائها ، لانه جمع بين أبي تمام والمتنبي .[٢]) . ومن أظهر من تأثر بالمتنبي من شعراء الاندلس . ابن عبدون ، وابن وهبون .

المعري .

ولم يلبث أن ظهر المعري ، وانتقل كثير من شعره وكتبه إلى الاندلس ، وبان أثره على الشعراء والكتّاب وان كان تأثيره في الكتّاب أظهر كما سنبين في الحديث عن كتاب ابن عبد الغفور وكان أثر المتنبي والمعري واضحاً من وجهتين . الاولى ما كان في شعرهما من جزالة وفخامة ، والثانية ما ظهر فيه من آثار التفلسف . واذا كان الأثر الأول واضحاً لدى كل مقلديهما ومن

١) إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ١٦٦ ، ١٨٦ وغيرها
٢) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة . ٦ ٢ – ٧ ٢ .

اقتصّ أثرهما ، فإن الجانب الآخر كان وقفاً على فئة ، مثل ابن وهبون المُرسي ، وأبي عامر الشستريني وغيرهما (٤) . ونحن لا نجد مَن التزم مذهب المتنبي أو مذهب المعري في الشعر بجملته ، ولكن أثرهما واضح .

والتفت بعضُ الاندلسيين إلى المحسّنات البديعية يزينون بها قصائدهم، ونظم متأخروهم من زمن الموحدين الى آخر عصر غرناطة على طريقة السُنّي في التجنيس والتورية ولابن خاتمة الانصاري مجموعة شعرية صغيرة سمّاها « رائق التحلية في فائق التورية » من شعره . ونقل الرُّعيني في برنامجه شعراً لأبي العباس أحمد ابن ابراهيم بن مُطرّف التميمي من كتاب له اسمه المرافق الموافق ، في كل أبياته (التّوشيع) مثل قوله (٢)

أمسي وأصبح من تذكارهم قلقاً   يَرثي له المشفقان : الأهلُ والولدُ

قد خدّد الدمع خدي من تذكّرهم

واعتادني المُضعفان . الشّوقُ والكَمدُ

وغاب عن مقلتي نومي ونافرَها

وخانني المُسعِدان . الصبر والجلَدُ ..

وفي الأبيات كما نرى فنوناً من البديع غير التوشيع واختار الرعيني قصيدة أخرى ، التزم فيها الشاعر تقريباً فن (الترصيع) من البديع كقوله

أترى سألوا لمّا رحلوا   ماذا فعلوا أم من قتلوا

وعَدوا فطمعتُ غداة سمعتُ   مُنى ، وقنعت بما بذلوا

أحليف النوم أقل اللّومْ   فعندي اليومَ بهم شُغلُ (٣) .

وكان عصر غرناطة استمرارا لما قبله ، وظهر فيه عدد من الشعراء كابن الخطيب وابن زمرك والامير النصري ابن الاحمر نظموا ما بين القصيد والموّشح والزجل ، وقلدوا وعارضوا وأبدعوا، ولم تستهوهم مدرسة فنية واحدة .

وجملة ما نقوله في تقرير أثر المدارس الفنية المشرقية في الاندلس هو أن هذه المدارس والمذاهب انتقلت إلى الاندلس وعُرفت في حينها، وتأثر بها الشعراء والأدباء

١) تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين ٢٧ - ٢٨
٢) برنامج شيوخ الرعيني ١٥٥   ٣) برنامج شيوخ الرعيني ١٥٦ .

وانقسموا بين أنصار مذهب العرب ومذهب المحدثين وانقسم هؤلاء ما بين أنصار لأبي تمام وأنصار للبحتري، وأثّرت طريقة المتنبي والمعري في الشكل والموضوع، وأثّروا بشيوع المحسنات اللفظية والإغراقات البديعية ولكنا نقف عند ملاحظتين

الأولى أن هــــذا التأثر لم يكن بالضرورة ليظهر ليظهر مع ظهوره في المشرق ويخمد بخموده، بل ان الاندلسيين تفاعلوا بهذه العوارض حسب ظروفهم الخاصة . ولم يتخذ التحرك طريق دون آخر صورة ما حدث في المشرق ، في حين نلاحظ في المشرق اتضاح المذاهب الفنية وتسلسلها التاريخي الواضح المبررات البيّن الأسباب

والملاحظة الثانيــة هي ان الشاعر الاندلسي لم يكن ليلتزم مذهباً واحداً فيما هو يقــلد أبا نواس وينهج نهجه إذا هو يعارض المتنبي أو المعري ويصطنع أدواته ، أو يبدع على طريقته بما لا يتسع مدرسة واحدة معينة . وإذا كانت هذه الملاحظة لا تنفي الاولى فانها لحقيقة يجب تسجيلها لأنها ستلقي ضوءاً على موقف النقاد الاندلسيين ، وتساعد على إدراك تطور في الشعر والنثر على اختلاف شعبها .



اللغويّون والنحويّون والمؤدّبون

إذا التمسنا أوائل الآراء النقدية والبلاغية في الأندلس وجدنا أخباراً قليلة مثبوتة في بعض كتب التراجم ، ولم تسعفنا المصادر بصورة واضحة ولا بأخبار كافية . وفي كتاب طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي أخبـــار عن رجال ترجَم لهم في طبقاتٍ متتاليةٍ يمكن أن نَعتمد عليها . ذلك أنه نشأت في الأندلس ، كما حدث في كافة البلاد الاسلامية ، طبقةٌ من المعلمين والمؤدبين نيطت بهم مهمة تعليم التلامذة وتثقيفهم بلسان العرب وأدبهم ، وكان منهم فريق يجمع بين علوم الدين وعلوم اللسان ممّا جعل سلطانهم واسعاً وعملهم أشد عمقاً وأثراً وكانت اهتماماتهم العربية ذات وجهين الأول ضبط اللغة وروايتها ونقل كتبها المعتمدة من المشرق مع دراسات نحوية وصرفية اطّردت سعة وتشعباً مع الأيام ، والثاني رواية الشعر وجلب دواوينه من المشرق والعكوف عليهـــا تدريساً وشرحاً وتوثيقا .

وكان دَور المؤدبين – ومن نزل منزلتهم – هاماً من حيث أنهم اجتهدوا في الرحلة إلى المشرق وجَلب شعر المحدثين من شعرائه ومخالطة العلماء والأدباء والشعراء هناك والأخذ عنهم ونقل ذلك كله إلى بني وطنهم فأبو موسى الهواري « أول مَن جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس ، ورحَل فلقيَ مـــالكاً ونظراءه من الأئمة ، ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظراءهمـــا ، وداخل الأعرابَ في محـــالّها » [1] . ومحمد بن عبدالله القاري رحـــل إلى المشرق فلقي أصحاب الحديث وعاد بزاد وفير في علوم كثيرة « من الشعر والغريب والعربية

(1) طبقات اللغويين والنحويين ٢٧٥ .

والأخبار ، وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلها »[1]. ولقيَ عثمان بن المثنّى أبا تمام وكان أول من أدخل شعره الى الأندلس ، وقد روى أن أبا تمام أنشده شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ مَنْ مشى   فتعثّرت في كنهه الأوهامُ

وكان هذا البيت مُبتدأ الشعر فقال له ابن المثنى . شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له ، فوقفت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله .

دِمَنٌ ألمّ بها فقال سَلامُ   كم حلّ عقدةَ صبره الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعرَ بهذا الابتداء إلى تمامه فقال له ابن المثنّى : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب. ثم لقيه في انصرافه وحبيب قد عظم قدرهُ وجلّ خطره فكان يؤثره ويعرف له فضله[2] . وفي هذا الخبر دلالة على شيء من (النقد الذوقي) وان كان رفيقاً جزئياً .

النقد الذوقي .

وكان النقد في أوليّاته جُزئياً ذوقياً يلتفت في الأغلب إلى النّحو والصّرف واللّغة وطرق استعمال الكلمات ولدينا أمثلة قليلة ولكنها ذات دلالة على ما نقصد إليه . ففي ترجمة جُودي النحوي[3] شيء من هذا ، وكان نحوياً أندلسياً تزوّد من المشرق وصنف في النّحو، وكانت له حلقة مشهودة يشتغله فيها ، وتتدارس الاخبار والاشعار . وفي حلقته أنكر على عباس بن ناصح قوله

يشهدُ بالإخلاص بُوتِيُّها   لله فيها وهو نصراني

فلُحن حين لم يشدّد ياء النسب ، وكان بالحضرة رجل من أصحاب عباس بن ناصح ، فساءه ذلك فقصد إلى عباس — وكان مسكنه الجزيرة — فلما طلع على عباس قال له ما أقدمك أعزك الله في هذا الاوان ؟ . قال أقدمني لحنُك! قال عباس وكيف ذلك ؟ فأعلمه بما جرى مِن القول في البيت ، قال فهلاّ أنشدتهم بيت عِمران بن حِطان

١) طبقات اللغويين والنحويين ٢٨٩
٢) التكملة لكتاب الصلة (ط عزة العطار) ١ ١٠ — ١١ .
٣) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٧٨ — ٢٧٩

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ وإن لقيت معدّياً فعَدْناني

قال . فلما سمع البيت كرّ راجعاً فقال له عباس لو نزلتَ فأقمت عنـــدنا ، قال ما بي إلى ذلك من حـــاجة ، ثم قدم قرطبة فاجتمع بجُودي وأصحابه فأعلمهم »[1] فقد تجشّم الرحل المشقة والمسافة ليعلم بخبر لحن صاحبه ، وكما ساءه ما قيل فيه فقد كان سروره بما أفسد نقدهم أعظم ، وعاد من فوره ليدلي بحجته . وهذا الخبر يدل على تتبع المؤدّبين ومجالسهم لشعراء الأندلس في شعرهم ونقدهم ، ويدل أيضاً على نوعية ذلك النقد ، فهو يتجه إلى اللحن ، والخطـــأ اللغوي ، فيما يتجه إليه ، بالدرجة الأولى . وصار لديهم مِن ملكة المحاججة في اللغة والخوض فيها ما يقف بعضهم أمام سليقة الأعراب .

وفي هذا خبر آخر لطيف يبيّن ما وصلوا إليه من عناية باللغة وقدرة على الحِجاج . فقد انتقد أبو الكوثر الخولاني قول أبي محمد الأعرابي العامري لابراهيم ابن حجاج صاحب إشبيلية . « تالله ما سيّدتك العربُ إلا بحقك » وقال له يا أبا محمد العلماء عندنا بالعربية يقولون . سوّدتك ، واحتلفا ، فكتب أبو الكوثر إلى بريد بن طلحة —وكان أستاذاً في علم العربية واللغة— فأجابه المعروف سوّدتك بالواو ولعل ماذكر أبو محمد لغة لبني عامر،وأثار الجواب إشكالا أكبر ،فاستدعى ابراهيم بن حجاج بريد بن طلحة،فلماحضر خرج عليه فقال له: أتتسَوّر على الرحل في كلامه ؟ فقال ابن طلحة إن العـــلم ليس من جهة المُغالبة ولكن من جهة الإنصاف والحقيقة ، فليجبني أبو محمد عمّا أسأله عنه . فقـــال له سل فقال بريد: كيف تقول العرب ساد يسود أو ساد يسيد ؟ قال الأعرابي. ساد يسودقال بريد. هذه الواو معنا في الفعل ، فكيف تقول العرب السودد أو السيدد؟ فقال: السودد فقال بريد . هذه الواو ثابتة في الاسم . ثم قال أي منزلة عنـــدكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة ؟ فقال الأعرابي : فوق كل منزلة . قال بريد. فقد ثبت عندنا أنه قال · (تفقّهوا قبل أن تسودوا) وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة كما طعنوا في سائر الأحاديث التي وقع فيها الغلط فلجّ الاعرابي

١) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٧٩ .

وقال : يا أهل الأمصار : ماذا صنعتم بالكلام ! »[1] . وكانت مجالس الأمراء والوزراء والولاة عامرة بالنشاط الأدبي ، وكان من جملة ذلك النشاط يعرض من ملاحظات عن الشعر والشعراء من استحسان واستهجان ، كان من المألوف أن يستعان بالعلماء واللغويين والنحويين حين اشتداد الخصومة ولجج المختصين .

الحكم الغزال .

ومن هذا النحو انتقاد يحيى بن الحكم الغَزال شاعر عبد الرحمن الأوسط لشعر عباس بن ناصح الجزيري السابق ذكره ، فقد وفد عباس مرة على قرطبة في مدة الحكم الربضي ، فجاءه أدباؤها للأخذ عنه ، فمرت عليهم قصيدة

لعَمرك ما البَلوى بعارٍ ولا العَدم ... إذا المرءُ لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارىء الى قوله :

تجافَ عن الدنيا فما لمُعَجّزٍ ... ولا حازمٍ إلا الذي خطّ بالقلم

فقال له يحيى الغزال — وهو حَدث — أيها الشيخ وما الذي يَصنع مُفعّل مع فاعل ؟ فقال فكيف تقول أنت ! قال : (تجاف عن الدنيا فليس لعاجز) فقال عباس والله لقد طلبها عمك ليالي فما وجدها ! »[2] . ونجد في أثناء التراجم وصفاً لبعضهم بالبصر بالشعر ، جاء في ترجمة بكر بن عبدالله الكلاعي « كان من ذوي العلم والأدب والمعرفة بالشعر »[3] وفي ترجمة محمد بن أصبغ الجذر أنه كان ذا بصر بمعاني الشعر »[4] . وفي ترجمة أبي العباس بحوم « كان ذكياً في معاني الشعر حسن التقريب لها »[5] . ومَنْ تميّز منهم بهذا فإنما يتميز بحسن الفهم ، والمقدرة على بيان ما في الشعر من معان . ومما يوصف به بعضهم أيضاً أنه على حظٍّ من البلاغة ، وإذا لم تُسعفنا الأخبار بشيء مفصل عن ذلك الحظ ولا بمادح مما كانوا يُصيبون ، فلنا أن نتوقع أنهم كانوا على معرفة بعلوم العصر البلاغية — والتي سبق أن تحدثنا عنها حين عرضنا للشُراح ، ولا يدخل في هذا المجال معنى أن يكون الرجل بليغاً فصيحاً ، لأن العبارة ترد بهذا المعنى أيضاً أحياناً . وفي ترجمة محمد بن سليمان الرُعيني المعروف بابن الحَنّاط أنه « كان

1) طبقات اللغويين والنحويين ٢٩٥ — ٢٩٦
2) المغرب ١ ٣٢٤ — ٣٢٥
3) طبقات اللغوين والنحويين ٢٨٨
4) طبقات اللغويين والنحويين ٣١٣ .
5) طبقات اللغويين والنحويين ٣١٤

متقدماً في الآداب والبلاغة والشّعر »[١] . وفي ترجمة محمد بن سعيد التاكُرُنّي: « كان من أهل الادب والبلاغة والشعر »[٢] . ووُصف أبو بكر يحيى بن هشام المرواني بأنه . « مِن أهل العلم بالبلاغة والشعر »[٣] . وقــد وُضعت مؤلفات كثيرة عن الشعراء والكتّاب في الأندلس وهي غالباً من كتب (الطبقـــات) محاكاة لما شاع في المشرق من كتب طبقات الشعراء وممّا يؤسف له أن كل هذه مفقود ، غير نقول قليلة نزرة في كتب التراجم لا تُغني ، وإن دلت على أن هذه الكتب عُنيت بشيء من الرأي في الشعر وفي الشاعر. ونتوقع أن تكون مكانتها من كتب النقد في الأندلس كمنزلة كتب الطبقات في المشرق من الحركة النقدية أيضاً .

ملاحظات عامة الأحكام العامة غير المحددة في تذوق الشعر ، وقبوله أو رفضه وتعيين مكانة الشاعر أو الكاتب شيءٌ شائعٌ في كل العصور والأزمان، ولا يقلّل منها أو ينفيها وجود حركة نقدية منهجية ولكنها تكون ظاهرةً من الظواهر حين تكون صادرة عن ناقد مشهور أو جماعة يؤخــذ عنهم الرأي ويكون حكمهم نافذاً مسموعــاً . وتأخذ لهــا اعتباراً حين تتناقلها كتبهم ويُتسامع بها بينهم . ونقل الحميدي في ترجمة الشاعر المشهور يوسف بن هارون الرمادي الكندي[٤] أنه كان مشهوراً بسلوكه في فنون من المنظوم ثم قال . (ونفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون فُتح الشعر بكندة وخُتم بكندة . يعنون امرأ القيس ، والمتنبي ويوسف بن هارون وكانا متعاصرين . واستدللت على ذلك بمدحه أبا علي اسماعيل بن القاسم عند دخوله الأندلس بالقصيدة التي أنشدناها عند الحاكم أبي بكر مصعب بن عبدالله الأزدي وأولها .

مَن حاكمٌ بيني وبينَ عذولي الشّجو شَجوي والعَويل عويلي

وكان وصول أبي علي القالي إلى الأنـــدلس سنة ثلاثين وثـلاث مئة »[٥] . وكأن الحميدي خشي أن يشك القارىء في أن المقصود بالكندي أيضاً يوسف بن

١) جذوة المقتبس ٥٣ ٢) جذوة المقتبس ٥٦ ٣) جذوة المقتبس ٣٧٦
٤) جذوة المقتبس ٣٤٦ ٥) جذوة المقتبس ٣٤٦ - ٣٤٧

هارون ، فأورد ما يثبت تعاصره مع المتنبي . ودلالة الخبر تؤكد ما كان يشعر به الأندلسيون — بعد انقضاء الفترة الاولى — من إعجاب بمواطنيهم ، ورغبتهم في أن يكون لهم تراث كما للمشارقة ، وتبين نوعاً من الأحكام العامة .

السرقات . كان للسرقات وقعها منذ أوائل ما عرفنا من مجالس المناظرة والمذاكرة والأدب ، وكان الاتهام بالسرقة يغضّ من قدر الأديب ويزيل بمكانته. وكان اتهام أبي العلاء صاعد البغدادي — وقد سبقت الإشارة إليه — بأنه سرق أبياتاً كان أنشدها المنصور ابن أبي عامر ، من جملة ما دبّره الأندلسيون لتحطيم الصورة التي كان يتظاهر بها من حسن الفَهم وجـــودة الشعر والبَراعة في علوم اللسان والخبر طريف لا بأس في ذكر طرف منه وفيه « أن المنصور جيء إليه بوردة في مجلس من مجالس أنسه أولَ ظهور الورد، فقال في الوقت أبوالعلاء صاعد بن الحسن اللغوي ، وكان حاضراً ، يخاطب فيها :

أتتكَ أبا عامرٍ وَردةٌ ... يحاكي لك المِسكُ أنفاسَها
كعذراء أبصرَها مبصرٌ ... فغطّت بأكمامهـا راسَها

فاستحسن المنصور ما جــاء به وتابعه الحـاضرون ، فحسده أبو القاسم بن العريف — وهو إمام في العربية وأستاذ في الآداب في وقته — وكان ممّن حضر المجلس فقال : هي لعباس بن الأحنف فناكرهُ صاعد فقام ابن العريف إلى منزله ووضع أبياتاً وأثبتها في دفتر وأتى بها قبل افتراق المجلس ، وفيها :

عَشوتُ إلى قصر عبّاسةٍ ... وقد جدّل النوم حُرّاسَها
فألفيتُها وهي في خِدرها ... وقد صرع السكرُ أُناسَها

فخجل صاعد وحلف ، ، فلم يُقبَل ، وافترق المجلس على أنه سرقها »[1] . وقد عرف ابن العريف كيف يعمد إلى مطعن لا مرد له ، وتورع عن الطعن في الأبيات لاستحسان الجميع إياها. وكانت السرقة إذا ثبتت على شاعر تهمةً تؤدي إلى حذف اسمه من ديوان العطاء ، هذا في خبرٍ عن فترة حكم المنصور بن أبي عامر . ويمكن أن نقرر أن السرقة كانت عيباً كبيراً يلحق بالشاعر ، وأنها من الإسس الأولية التي يبني عليها المنتقدون أحكامهم . وفي ترجمة الشاعر الكاتب .

١) جذوة المقتبس ١٨٢ — ١٨٣ .

أحمد بن محمد بن درّاج – المعروف بالقسطلي – أن أول شعر مَدح به المنصور قصيدة عارض فيها قصيدة أخرى لصاعد البغدادي ، مطلعها :

أصاء لها فجر النّهى فنهاها عن الدّنف المضني بحرّ هَواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجى وقد كان يهديها اليّ دُجاها

وهي طويلة مستحسنة ، فساء الظن بجودة ما أتى به من الشعر واتهم فيه . وكان للشعراء في أيام المنصور بن أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ، ولا يُخلون بالخدمة بالشعر في مظانها ، فسُعي به الى المنصور وأنه منتحل سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء ، فاستحضره المنصور ... واقـترحَ عليه ، فبرز وسبق وزالت التهمة عنه ، فوصله بمئة دينار ، وأجرى عليه الرزق،وأثبته في جملة الشعراء .. » [1] . ولا تسعفنا المراجع بتفاصيل أوفى عن المقصودبتهمة السرقـة ، ولا الأسباب الـتي حوّلت لهم إلصاق تلك التهمة بحيث عَرّضت صاحبها للامتحان

وقد يقع على نقد مُنصبٍّ على المعنى ، أو جزئية من جزئيـات المعنى في بيت من الأبيات . ومن ذلك أن مؤمن بن سعيد وهو من شعراء عصر الإمارة في الدولة المروانية بالاندلس كان هجّاء، وكانت بينه وبين نفر من شعراء عصره خصومات ، ومنهم عباس بن فرناس ، واتفق أن أنشد هذا الأمير محمـــد أبياتاً فيها .

رأيتُ أمير المؤمنين محمداً وفي وجهه بدر المحبة يُثمر

فقال له مؤمن بن سعيد قبحاً لما ارتكبته ، جعلت وجه الخليفـة كَجرثاً يُثمر فيه البدر ، فجحل وسبه [2] . وللبيت تخريجات كثيرة ولكن توجيه مؤمن البيت للمعنى المكشوف أوقع الشاعر في حرج ، وأخرجه عن وقاره .

ونكتفي بهذا القدر من النقد العام الذي يستحسن الشاعر كلاً وجملة أو

١) جذوة المقتبس ١٠٣ ٢) نفح الطيب ٤ ٣٤٦

يرده ويرد شعره ، ومن النقد الجزئي الذي يتناول بيتاً واحـــداً أو فكرة في بيت ، ومما يتردد في المجالس أو يُروى عن الشيوخ والأدباء . وقبل أن نصل إلى الفترة التي سميناها : (ازدهار الحركة النقدية) والتي بدأناها – اصطلاحاً ومن واقع ما تبقّى لدينا من آثار – مع عصر الطوائف والمرابطين ، لا بد من وقفات ثلاث عند أعلام ثلاثة كان لهم أثر فيما نحن بسبيله ، ابن عبد ربه ، وابن شهيد ، وأبو محمد بن حزم .

❋



ابن عبد ربه

القرطبي

٢٤٦ – ٣٢٨

اشتهر ابن عبد ربه في الأندلس وفي المشرق بكتابه العقد ، وكانت له مكانة عندهم ، ولا يزال إلى اليوم من المصادر الأساسية في الشعر والادب والأخبار . ووجه نظرنا فيه أنه ضم آراء متفرقة عن الادب شعره ونثره ، واهتم قليلاً بأمور أندلسية وإن كان المشهور فيه أنه بضاعة مشرقية . وذكره الحميدى ووصفه بأنه «من أهل العلم والادب والشعر [1] » وقال « وله الكتاب الكبير المسمى كتاب العقد في الاخبار » . وشهرته بهذا الكتاب لم تحجب ميزة أخرى له وهو أنه كان شاعراً مجيداً ، ورأى الحميدي من شعره بيتاً وعشرين جزءاً من جملة ما جُمع للحكم المستنصر ، وبعضُ شعره كان بخط الحكَم . ومدح ابن عبد ربه الامير محمد ، والمنذر ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الناصر ، « وكان لأبي عمر بالعلم جلالة ، وبالادب رياسة وشهرة ، مع ديانته وصيانته ، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نَفاق ، فساد بعد خُمول وأثرى بعد فقر ، وأشير بالتفضيل إليه الا أنه غلب الشعر عليه [1] » وديوانه مفقود ، وفي العقد وبعض كتب الادب مختارات مبثوثة من شعره ، ولكنه كان كما تدل الاخبار على شيء من البراعة ، وعلى طريقة جعلت شعره سائراً متناقلاً . وفي المطمح أن الخطيب أبا الوليد بن عباد [2] حجّ فلما انصرف تطلع الى لقاء المتنبي ... فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال له ألا أنشدني لمليح

● جذوة المقتبس ٩٤ ، بغية الملتمس رقم ٣٢٨ ص ١٧٧ – ١٤ ، مطمح الأنفس ٥١ – ٥٣ ، المطرب لابن دحية ١٥١ – ١٥٦ . رايات المبرزين ٢٤٧ وفيات الأعيان ١ ٩٢ – ٩٤ تاريخ العلمــاء والرواة ١ ٤٩ (ط العطار) ، معجم الأدباء لياقوت ٤ ٢١١ (ط دار المأمون) و Brock G I 145, S I 250

١) جذوة المقتبس ٩٤ . ٢) في ياقوت ابن عسال

الاندلس يعني ابن عبد ربه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ورداً يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهكَ في سماه غريقا
يا من تقطّع خصره من ردفه ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل انشاده استعادها منه ، ثم صفق بيديه وقال يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العِراقُ حبواً . وهذا خبر له[1] مغزاه لمكانة المتنبي من الشعر في زمانه ، ومكانته عند نفسه إذا ذُكر الشعراء . وما نرتاب في أن المتنبي أعجب بشعر ابن عبد ربه واطلع على مدائح كثيرة — لم تصلنا — ولا يصعب تفسير عدم تحقق نبوءة المتنبي من ارتفاع مكانة ابن عبد ربه في المشرق، لأن التراث الاندلسي لم يكن يذيع في المشرق كما كان تراث المشرق ينتشر في الاندلس ، ولأننا لا نعرف لابن عبد ربه رحلة ، وطالما شكا الاندلسيون من اهمال بني وطنهم لتراثهم ، لله من بعُد ، وشطّ مزاره .

وكانت لابن عبد ربه صفات مميزة من خلق وعلم ودين وتَصاوُن غلبت عليه ، ومكّنته من شهرة واسعة . وغلب عليه الشعر فعُرف به ، وكان في شبابه قد أكثر من الشعر ، وفيه غزل وما رآه هو مجوناً ، فلما كبر وعاين من شعره ما لا يُرضي عنه عالم متشدد عارض تلك القصائد بما سمّاه المُمَحّصات كأنه يعتذر عما سلف . وتوفي سنة ٣٢٨ .

كتابه العقد الكتاب بجملته لاحق بكتب المختارات والمحاضرات على شاكلة ما كان شائعاً في المشرق مثل بعض كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرّد وغيرهم. وأكثر ما في الكتاب مختارات من الأدب المشرقي والحكايات والاخبار والاشعار منقولة عنهم أو متصلة بهم بسبب، ولا نعدم آثاراً قليلة اندلسية ولكنها لاتقوى على صبغ الكتاب بصبغة أندلسية . وفي العقد ملاحظات متناثرة للمؤلف بث فيها شيئاً من رأيه في الشعر والنثر من استحسان واستهجان ، وعقب على بعض الآراء وبعض الأعلام ، مما يلحق بالذوق ، والنقد الادبي . وسأقف عند هذه

١) مطمح الأنفس ٥٢ ، ومعجم الأدباء ٤ . ٢٢٢

الملاحظات ، مع استعراض مواضعها ، ودلالة ذلك وقيمته في تطور النقد . ويستطيع الناظر أن يستشف دلالة كتاب العقد ، فانه يدلُّ على نوع الثقافة التي كانت شائعة لعصره ، ويدل على ترسم الاندلسيين للمشارقة في حفظ نوادرهم والتطلع لذوقهم في الحَسن والقبيح والمطروح ، وفيه دلالة خاصة على ذوق ابن عبد ربه وآرائه الخاصة .

البلاغة والبيان : تحدّث المؤلف في موضعين عن البيان ، وعن البلاغة . فعرّف البيان بأنه كل شيء كشف لك عن قناع المعنى الخفيّ ، حتى يتأدّى إلى الفَهم ، ويتقبله العقل ، فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه ومنّ به على عباده ، فقال تعالى « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان [1] ». ونقل أحاديث وأقوالاً في فضل البيان ومعناه ، والمقصود منه ووصف الكلام البيّن بأنه[2] الذي يمازج الروح لطافة ويجري مع النفس رقة ، والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإنّ منه لما يستعطف المُستشيط غيظاً والمدمل حقداً ، حتى يطفىء جمرة غيظه ويسلّ دفائن حقده ، وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ويأخذ بسَمع الكريم وبصره . وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلةً نافعة وشافعاً مقبولاً . قال تبارك وتعالى « فتلقى آدمُ مِنْ ربّهِ كلماتٍ فتابَ عليه إنهُ هُوَ التّوابُ الرّحيم » . ورأيه كما هو واضح كلام عام في تفضيل الكلام الحَسن والعبارة الجيّدة ، ومكانة ذلك الكلام من النفوس وأثره عند سامعه ، وأهمية ذلك في فائدة مَنْ تحلّى به ، وتمكن منه .

وفي مكان آخر تحدث عن البلاغة وصفتها [3] ، وبدأ بقول عما قال الأولون في البلاغة مثل عمرو بن عبيد ، وخالد بن صفوان ، وسواهم ، ونقل في ذلك حِكَماً وأمثالاً وكلاماً عاماً . ثم فصل في وجوه البلاغة[4] وأنها على أربعة أوجه فهي تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة . ولكل واحدة من هذه طريقة في البلاغة والبيان ، وموضع خاص به . وتعــدّى الخط والاشارة لوضوحها، وَمثّل لما قصده من الدلالة ، فان كل شيء دلك على شيء فقد أخبرك به ، وقال نصيب بن رباح .

١) العقد (طبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر) ٢ ١٢٣ ٢) العقد ٢ ١٢٢
٣) العقد ٢ . ٢٦ ٤) العقد ٢ . ٢٦٤

فماحُوا وأثـنَوا بالذي أنت أهلـُه ولو سكتوا أثنـَت عليك الحقائِبُ

يريد . لو سكتوا لأثنت عليك حقائب الإبل التي يحتقبهـا الركب من هباتك . وهذا الثناء إنما هو بالدلالة لا باللفظ[١] . وتحدث عن اللفظ ، ومال إلى تفصيل الموجز منه ، فأورد عدداً من كلامهم الموجز وجملهم السائرة، وألحق بها بعض الأسجاع ، ونقل فقرات من أقوال بعض العلماء في آفات البلاغة دون أن يعلق هو بشيء . وانتقى المؤلف مجموعة من أقوال الأعراب في مواضيع مختلفة ، وقدم لذلك بعبارة تدل على إعجابه بكلامهم ، وخصـه بالتمييز والتفصيل إذ كان – كلام الأعراب – أشرف الكلام حُسناً وأكثره رونقاً وأحسنه ديباجة وأقله كلفة وأوضحه طريقة ، وإذ كان مدار الكلام كلية عليه عليه ، ومنتسبه اليه[٢] وفصل أقوالهم على عناوين مختلفة .

وشغل ابن عبد ربه ما شغل غيره ممن سبقه ، من العناية بالجواب الدقيق السريع ، وهذا يتسع ما كان يستهوي العرب في المشرق والمغرب على السواء ، من البديهة والارتجال والجواب الجيد ، في موضعه ومطابقته لمقتضى الحال قال « ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام كله مركباً وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكاً ، لأن صاحبه يعجل مباداة الفكرة واستعمال القريحة ، يروم في بديهة نقض ما أبرم في روية ، فهو كمن أخذت عليه الفجاج وسُدت عليه المخارج ، قد تعرض للأسنة واستهدف للمرامي . فلا شيء أعضلَ من الجواب الحاضر[٣]» واستحضر أمثلة مما حَسُن من الأجوبة وصدر على البديهة .

الخطبة وبعد الحديث عن الأجوبة التي تحسن على البديهة وتمتاز بها ، تحدّث عن الخطبة التي تفاخر العرب بها ، وشهرت بهـا مواسمهم وأعيادهم وعباراته في فرش كتاب الخطب توحي بتفضيله التأني والاختيار في الخطبة . وجعلها في قسمين طوال وقصار وقال إن لكل منها موضعاً يليق به ، ومكاناً يحسن فيه . وانتقى من خطبة رسول الله ﷺ والصحابة وبلغاء الخلفاء وغيرهم،

١) العقد ٢ ٢٦٥ ٢) العقد ٨ ٤١٨ ٣) العقد ٤ ٣ – ٤

وأورد خطبة بشر بن المعتمر دون أن يعلّق عليها بشيء [1]

الكتابة والكتاب . عقّد المؤلف فصلاً عن التوقيعات والفصول والصدور وأدوات الكتابة وأخبار الكتاب وفصل الايجاز [2] ، وعاد إلى ما كان ألمح إليه من قبل ، وفصّل الإيجاز معلّلا ذلك « إذ كان أشرف الكلام كله حسناً وأرفعه قدراً وأعظمه في القلوب موقعاً وأقله على اللسان عملاً ما دل بعضُه على كله ، وكفى قليلهُ عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقلّ حروفه وتكاثر معانيه » ونقل [3] بعض ما قيل في تفصيل الإيجاز ، وصرّح بأن مذهبه في تفصيل الإيجاز هو ما عُرف عن العرب جميعاً من تفصيل الإيجاز ، وأنه لم يجد لأحد عليه مطعناً أو مذمة ، وتحدث عن الاختصار والإطناب ، وأن لكل واحد منها موضعه الخاص وان كان «الاختصار عندهم أحمدَ في الجملة[4]» وأسهب في هذا الفصل فيما كان معروفاً من اهتمام الكتاب بتلقين قاصدي فن الكتابة مبادىء وأصولاً لا غنى لهم عنها ، وينزلُ كلامه منزل التقرير والنصيحة ليَعلم كلام الكاتب وعباراته من الخطأ والخلل ، وهو في ذلك ينقل عبارات كاملة ليستغني بها عن أن يشرح بنفسه ومن جملة نصائحه « فتخيّر من الألفاظ أرجَحها لفظاً وأجزلها معنى ، واشرفها جوهراً واكرمها حسباً ، وأليقها في مكانها [5] . . »

في الشعر والشعراء . أجمَل المؤلف مجموعة من النّقول والآراء الشخصية في الشعر والشعراء ، وجمعها تحت فصل جعله « في فضائل الشعر ومخارجه » وهو فصل طويل سنعرض له ، ونقف عند ما يهمنا منه هنا . فقد بدأ بتبيين مكانة الشعرعند العرب واشار إلىما علّقوه منه علىأستار الكعبة بماءالذهب[6] . ونقل أقوال شعراء الجاهلية وبعض العلماء في الإسلام عن أشعر العرب ، وعن قيمة شعر بعض الشعراء، ونقل ما أُثِر عنهم من أمدح بيت وأغزل بيت الخ ، ثم أورد جملة مما قاله الأدباء والعلماء في فضل الشعر ، ورغبة نفر عظيم منهم في

---

1) العقد ٤ ٥٥ — ٥٦ 2) العقد ٤ ١٥٥ 3) العقد ٤ ١٥٥
4) العقد ٤ ١٥٦ 5) العقد ١٨٦ 6) العقد ٥ ٢٧٠

رواية الشعر وإنشاده وحفظه ، واحتج لكل ذلك بما رُوي عن النبي ﷺ من سماع الشعر وإجازته ، والإثابة عليه ، وبما رُوي عن الصحابة والتابعين والفقهاء وغيرهم من الشعر في الأغراض المختلفة . واختار اخباراً واشعاراً تحت عنوانَي قول الشعراء في المديح ، وقولهم في الهجاء . وقليلاً ما كان يعلق عليها ، ولا يكاد يزيد قوله على استحسان من استحسن او استهجان من استهجن . وعقد أبواباً جزئية في مداراة الشعراء وتقيّتِهم ، ورواة الشعر ، ومَن استُعدي عليه من الشعراء ، وأحسن ما يُجتلب به الشعر ، ومن رَفعه المدح ووضعه الهجاء ، وما يُعاب من الشعر وليس بعيب .

وتحت « ما يعاب من الشعر وليس بعيب » أوردَ جملة أشعار متفرقـــات أورد عليها المتقدمون عيوباً من وجه أو وجـــوه . وكان في رواياتها نفسها — أحياناً — ما يردُّ ذلك العيب المزعوم ، كما أن المؤلف رد بعض تلك العيوب عن الشعر ، ووجّه المعنى إلى ما قصد إليه الشاعر أو ما ألفه العرب في لسانهم من ذلك قوله « ومما عابوه وليس بعيب قول زهير .

قِف بالديار التي لم يَعفها القِدَمُ بلى وغيّرها الأرياحُ والدّيَمُ

فنفى ثم حقّق في معنى واحد ، فنقض في عجز هذا البيت ما قال في صدره لأنه زعم أن الديار لم يعفها القدم ثم أنه انتبه من مرقده فقال. بلى عفاها وغيرها أيضاً الأرياح والديم . وليس هذا معناه الذي ذهب اليه ، وإنّما معناه أن الديار لم تعفُ في عينه ، من طريق محبّته لها وشغفه بمن كان فيها » [١] . وهو يردّ أحياناً على أعلام بأعيانهم ، ردّ على ابن قتيبة في معنى بيت، قال « وممّـــا عابه ابن قتيبه وليس بعيب قول المرقّش الأصغر :

صَحا قلبه عنها على أنّ ذكرها إذا ذُكرت دارت به الأرض قائما

فقال له كيف يصحو من كانت هذه صفته ؟ والمعنى صحيح ، وإنما ذهب إلى أن حاله هذه ، على ما تقدم من سوء حاله ، حال صحو عنده ، ومثل هذا

---

١) العقد ٥ . ٣٣١ .

في الشعر كثير لأن بعض الشر أهون من بعض » .

وتحدث عن « تقديح الحَسن وتَحسين القَبيح » حديث الراضي به ؛ فكأنّه يرى أن الإبداع الفني لا يتصل بالصّدق أو الكذب ، ولم يعلق على ذلك بوضوح فكل ما جاء به أخبار [1] .

السرقات . وعبر عمّا اصطُلح عليه باسم السرقة ، بالاستعارة[2]. فعَرض عادح وقدم لها بعبارة من عنده . وقال إن الإستعارة قديمة في الشعر والنثر ، وهو يرى أن معظم المعاني مأخوذ بعضها من بعض « وقلما يأتي لهم معنى لم يَسبق إليه أحد إمّا في منظوم وإما في منثور . لأن الكلام بعض من بعض ، ولذلك قالوا في الأمثال ما ترك الأول للآخر شيئاً ، ألا ترى إلى كعب بن زهير وهو في الرّعيل الأول والصدر المقتدم قد قال .

ما أرانا نَقولُ إلا مُعَارا أو مُعاداً من شعرنا مَكرُورا »

وهو يَرى أنّ أخذ الشعر من النثر والعكس ، من الاستعارة الخفية التي لا يؤبه بها . كما أن أخذ المعنى والزيادة عليه يجعل حق المعنى للذي زاد فيه . « وذلك كقول الأعشى :

وكأس شَربتُ على لَذّةٍ وأخرى تَداويتُ منها بها

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هانيء فحسّنه وقربه إذ قال

دَع عنك لومي فإنّ اللوْمَ إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الدّاء

وقال بإمكان توارد الخواطر ، ونقل عن الأصمعي شيئاً بهذا المعنى .

الضرائر : وعقد فقرة في . ما يجوز في الشعر ممّا لا يجوز في الكلام . وهو ما صار معروفاً باسم الضرائر الشعرية . ولم ينفرد في ذلك برأيٍ خاص بل نقل عن أبي حاتم والأصمعي وأبي عبيدة وسيبويه . واقتصر في الضرورات على ما صدّر به كلامه ، قال « قال أبو حاتم : أبيح للشاعر ما لم يبح للمتكلم ، من قصر الممدود ومدّ المقصور ، وتحريك الساكن وتسكين المتحرك وصرف

١) العقد ٥ . ٣٣٥ – ٣٣٨ . ٢) العقد ٥ ٣٣٨ .

ما لا ينصرف ، وحذف الكلمة ما لم تلتبس بأخرى كقولهم . قُل من فلان ، وحم من حمام .. »[1] وكان يعلق تعليقات خفيفة ، كقوله · وأما قصرهم الممدود فجائز في أشعارهم ، ومدّ المقْصور عندهم قبيح[2] . ومثل . وأما صرف ما لا ينصرف عندهم فكثير ، والقبيح عندهم ألا يُصرف المنصرف ، وقد يُستجاد في الشعر على قبحه ، قال عباس بن مرداس :

وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في مجمع »[3] .

وعقد فقرة تحت عنوان باب ما أُدرك على الشعراء ، في تتبع أخطاء الشعراء في معانيهم أو تناقضهم فيها ، أو مبالغاتهم ، أو أخطائهم اللغوية والنحوية. وهو في معظم ذلك ناقل ، غيرَ أنه يشارك أحياناً ويعطي بعض الرأي . فنقل ما أدركه ابن قتيبة على بعض أبيات امرىء القيس في المعلقة ، ثم أردف. وأقبح من هذا عندي قوله

فظلّ العذارى يَرتمين بلحمها وشحمٍ كهُدّاب الدّمقس المفَتّل »[4]

ونقل ما أُخذ على المتلمّس في قوله

أحارث إنا لو تُساط دماؤنا تزَايلن حتى لا يمَسّ دم دما

ثم قال « وهذا من الكذب المحال »[5] فكأنه لم يقبل بهذه المبالغة ولم يقنع بتأولات النحويين لقول الفرزدق

وعض زمان يابن مروان لم يَدع من المال إلا مسحتاً أو مجلّف

قال « وقد أكثر النّحويون الاحتيال لهذا البيت ولم يأتوا فيه بشيء يُرضي »[6] ولعل له موقفاً واضحاً في هذه المسألة ، فإنه يقبل الخطأ النحوي إذا كشف الشعر عن معنى جيد أو تشبيه رائق ، وهذا مفهوم من تعليقه على الخبر التالي « دخل العتابي على الرشيد فأنشده في وصف الفرس .

كأن أذنيه إذا تَشوّفا قادمةٌ أو قلماً مُحرفا

فعلم الناس أنه لحن ، ولم يهتد أحدٌ منهم إلى إصلاح البيت غير الرشيد ، فإنه

١) العقد ٥ ٣٥٤ ٢) العقد ٥ ٣٥٦ ٣) العقد ٥ ٣٥٨
٤) العقد ٥ ٣٥٧ ٥) العقد ٥ ٣٥٩ ٦) العقد ٥ ٣٦٢

قال « تحال أدبيه إذا تشوها » والراجر وإن كان لحَن فإنه أصاب التشبيه [1] »
ثم عقّب المؤلف على ما يدركه العُلماء على الشعراء وأشار الى التحـّي الذي قد يلحقهم ، ومثّل لذلك بشواهد تُنصف الشعراء . « ولـــكن أصحاب اللغة لا ينصفونهم وربما غلّطوا عليهم وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها » [2]
وختم المؤلف الفصل بملاحظات عامة عن رأيه في الشعر فـــكرّر رأي ابن قتيبة — ولم يذكره — في أن « لكل ذي فصل فصله ، ولا ينفع المتقدم تقدمه ، ولا يضر المتــأخر تأخره فأمّا مَنْ أساء النظم ولم يُحسن التـــأليف فكثير... » [3] . وقرن الإجادة في الشعر والنثر بما ينبغي توفّره من مناسبة الطبيعة أو ما نسمّيه بالاستعداد الذهني . وإن التماس ذلك غير مُجْدٍ . « ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك » [4] . وبيّن أن التمرس بشعر الفصحاء وكلامهم يساعد على تقوية البيان وشحذ الطبع وحدّة الذهن ، بشرط الاستعداد السّابق ، الذي أشار إليه ومن هنا لا ينفع الشاعر أو الـــكاتب اغتصابه كلام غيره إذا لم تكن له أداة من ذهن ثاقب ومراس شديد .

اللفظ والمعنى وعالج على قضية اللّفظ والمعنى فقرر « أن العلماء شبهت المعاني بالأرواح ، والألفاظ بالأجساد واللباب، ولا بدّ من المعنى الجَزل واللفظ الحَسن ليتم للكلام رونقه وبهاؤه . وهو ينصح بأن يوضع المعنى مع شقائقه وقُربائه . وهو يميل إلى ما كان وليدَ الطبع دون التكلف ، وماصدَر عن السهولة دون التعقيد . وجاء بمختارات شعرية في أغراض مختلفة ، كرقّـــة التشبيب ، والتوديع ، والشّجول ، لتكون أمثلته تطبيقاً لِما ارتضى من رأي في الشعر . وقدّم لأول قصيدة اختارها بقوله « ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقـــة ، ويؤدي عن الضمير إبانـــة ، مثل قول العباس الأحنف .. » [5] واختار لنفسه أبياتاً عارض بها صريع الغواني ، ثم قـارن بين شعره وشعر صريـــع ولم يجد له إلا فضل التقدم .

وعقد فصلاً كاملاً لدراسة العَروض، ليس فيه شيء ذو بال يدخل في نطاق البحث .

١) العقد ٥ ٣٦٨ ٢) العقد ٥ ٣٩٠ ٣) العقد ٥ ٣٩٢
٤) العقد ٥ . ٣٩٤ ٥) العقد ٥ ٣٩٦

البديع في فصل الربيع

من الكتب الطريفة التي لم تصل بها الأيام ، كتاب **البديع في وصف الربيع** لابن حبيب الحميري ،وهو كتاب* وضعه مؤلفه ليجمع فيه شيئاً من شعر معاصريه — وفيه بعض النثر — مما يتعلق بوصف الزهور والرياحين ، وتفضيل بعض على بعض ، ووسع دائرة ما اختار فاحتوى كتابه كثيراً من أوصاف زمان الربيع وما فيه ، ومن هنا جاء عنوان الكتاب . وقصر المؤلف مختاراته على ما وجده لمعاصريه من الأندلسيين ، والكتاب بهذا يعتبر صورة من صور اهتمام الأندلسيين بتراثهم ويهمنا في هذه الدراسة أن نعرض لمقدمة الكتاب ، ففيها لمحات* نقدية حقيقة بجدر ألا* نغفلها .

والمؤلف هو اسماعيل بن محمـــد بن عامر ، يكنى أبا الوليد ، ويلقب أبوه حبيب ، من أهل إشبيلية ، وكان « آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويـــد الشعر على حداثة سنه » . ونقل الحميدي أنه « الوزير الكاتب بإشبيلية ، له ولأبيه قدَم* في الأدب والرياسة ، وله شعر كثير يقوله بفضل أدبه » . فهو من أسرة مشهورة ذات أدب ورياسة وعلم وفضـــل . وأتيح له من لقـــاء الشعراء والأدباء والوزراء ومَن في طبقتهم ما جعله يملأ كتابه بأخبارهم وصور مكاتباتهم في مناسبات الربيـــع ومهرجاناته ، وتوفي مُعْتَبطاً في أول شبابه قريباً من سنة ٤٤٠ ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وذكر ابن بسام أنه رأى قبره . وفي كتابه مختارات* من شعره ، وأثنى ابن بسام في مواضع مختلفة من ترجمـــة الحميري على شعره ونثره وأعلى منزلته .

مقدمة الكتاب

أعلن في مقدمة كتابه أنه يصف في فصل الربيع لأنه بديع الحـــال ،

(*) جذوة المقتبس للحميدي ١٥٢ والتكملة لابن الأبار ١ ٤٧٤ ، بغية الملتمس رقم ٥٣٤ ص ٢١٣ — ٢١٤ ومقدمة الكتاب حيث نقل ترجمته من ابن بسام

رائق الحُسن عا لا حـاجة معه إلى إقامة الدليل ، وأنه يؤلف كتابه على غير مثال سبق في هذا الفن « وهـو مع هذه الصفات الرائقة والسمات الشائقـة والآلات الفائقة لم يُعْنَ بتأليفه أحـد ، ولا انفرد لتصنيفه منفرد » [1] . ولم يذكر أمير أهل الأندلس وعلّل ذلك من وجهة نظر مختلفة ذات طرفـين : فـأوصافهم — أولاً — لم تتكرر على الأسماع ولم يبتذلها التكرار ولا كثرة الدّوران ، فإذا دَوّنها نزلت من الطبـاع منزلة حسنة ، واستقبلتها بتَوق وَشوق . والمؤلف — ثانياً — بتدوينه ما قال الأندلسيون في الربيـع يسجل ما يمكن أن يضيـع بإغفاله ، وكم تحسروا على ما لم يدونوا بعد فوات الأوان . والتفت إلى شعر المشارقة فقال إن النفوس لا تميل إليها لـكثرة تردادهـا والوقوف عليها . وحصّ العلق النفيس منها بالإعراض ، واستغنى عنه بمـا لدى أهل بلده من رائع جميل . وهذه خطوة لا نعرفها لأحد ، إلا أن كلام ابن حزم قريب من هذا وإن لم يكن مثله في الحـدة ، قال الحميري « وأما أشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر إليها حتى ما تميل نحـوها النفوس ولا يروقها منها العلق النفيس مع أني استغني عنها ولا أحوج اليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخـترع ، وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تغب نوادرهم عن ذِكري » [2] .

وألح على هذه الفـكرة من طرف آخر ، فعلّل عدم ذكره سوى شعر معاصريه بضياع معظم آثارهم ،والتفت إلى المَشرق فقال إنهم سبقوا الأندلسيين في فصل التصنيف والتأليف ، ولكنهم جمعوا كل شيء الحَسن من أخبـارهم وآثارهم والقَبيح ، ثم إنهم كاثروا بما كان لهم من مـيزة التاريخ العريق البعيد الأمد ، مِمّا يسمح بكثرة التصنيف . ويرى أن المشارقـة على الرغم من كل تلك المـيزات لا يصلون إلى ما وصل إليـه الأندلسيون « لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم وتثقيفهم لأخبارهم مذ تكلمت العرب بكلامها وشغلت بنثرهـا ونظامها إلى هـلم جرا لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هـذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدي على كثرة ما سقط منها من يدي بالغفلة التي

١) البديع في وصف الربيع ص ١ ٢) البديع ص ٢ .

ذكرتها عنها وقلة التهمّم بها ، وعلى قرب عهد الأندلس بمتحلي الإسلام فكيف بمتحلي الكلام »[1] . ثم يتمّم فكرته ، ويعتذر للأندلسيين لو كانوا قصروا : « فكيف يرى فضلهم وقد سبقوا في أحسن المعاني مُحتَلى وأطيبها مُجتَنَى ، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحُسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه .. »[2] .
وهذا كلام له شأن . فهو يميّز شعر الأندلسيين ــ وبخاصة فيما كان يصف الربيع الربيع والأزاهير وما يتعلق بها ــ ويرفعه عن منزلة شعر المشارقة ، ويرميه كلاماً عاماً ليبطلي على عموم الأندلسي وعموم المشرقي .

وقدّم كتابَهُ إلى القاضي ابن عباد صاحب إشبيليه ، واستغل ذلك التقديم بأن نسب إلى القاضي وابنه ما يقدّمه الشعراء في رمسها من إحسان إليهما ، فالتها تفتح اللّها : « وبقدر ذلك أعملوا الفكر وأنعموا النظر فنظموا في جودهمـا درراً من الكلام لا تسلك على مسلكها عِبَرُ الأيام .. » . وهذه نظرة معروفة عن أثر الحافز المادي إن صح هذا التعبير .
هذا مُجمل ما جاء في مقدمة الكتاب ، وقد لا يكون فيها كبير غناء بالقياس إلى ما نتطلع ، ولكنها جُرأة أندلسي فيه من دفعة الشباب شيءٌ كثير . وهو من علماء قلائل أطلقوا الحكم عاماً بتفضيل ما هو أندلسي جُملة على ما هو مشرقي جملة ، ولو كان ذلك في حيّز من نواحي الحياة الفكرية . وهو في كتابه يصدر عن ذوق خاص ، ذلك أنه يمكن استخلاص نظرته إلى مقياسه الذي يحكم به على الشعر ، ويستحق به التفضيل والتقديم . وهو يهتم بناحيتين غرابة المعنى وجِدّته ، وسلامة اللفظ وصُدوره عن (الطبع) ، مع إعجاب عام بالبَديهة وللبديهة عند الأندلسيين مكانة مميزة ، وكما أشرنا عند ابن عبد ربه إلى اعتداده بالبديهة وتأثره بالمشارقة في الإعجاب بحُسن الجواب ووقوعه موقعه .

ملاحظات .

قدم المؤلف لأبيات صنعها ابن الفرج الجياني بقوله . ومن غريب الوصف في

١) البديع ص ٢ . ٢) البديع ص ٣ .

عجيب الوصف قول. »(١) ووصف قطعة اخرى بأنها غريبة التشبيه ، للشاعر نفسه . وهو ينقل المعاني المخترعة في أبيات القصائد التي ينتخبهـــا ويقارن بين مقطوعة وأخرى بما يدل على ذوق تام دقيق ، ولو اتّسع كلامه فشمل معظم الأبيات لجاء بدراسة بدع ، وهذا نموذج من بعض تعقيباته قال «وللحاجب أبي الحسن جعفر بن عثمان المُصحفي رحمه الله في هـذا المعنى (وصف نواوير مختلفة) أبيات بارعة فيها تشبيهات رائعة وهي :

انظُر إلى الروض الأريض تخالُه كالوَشْي نُمّق أحسنَ التّنميقِ
وكأنما السّوسان صبٌّ مُدنفٌ لبَست يداهُ بجيبه المشقوقِ
يوم الوداعَ ومُزّقت أثوابُـه جزعاً عليه أيّما تمزيقِ
والنّرجس الغضُّ الذكي محاجرٌ نَعِست من التّسهيد والتّأريقِ
يحكي لنا لونَ المُحِب دلوبه وإذا تبسّم نكْهة المَعشوقِ
وكأن دائرةَ الحديقة عنـدما حادَ الغمامُ لها برَشْفِ الرّيقِ
فلكٌ من الياقوت يَسطع نُورُه فيه كواكبُ جوهرٍ وعقيقِ

شبه اوراق السوسن في افتراقها بجيب مشقوق وهو معنى دقيق أنيق ، وقد تداوله جماعة وأظنه من اختراعه . وتشبيه الأخير في الحديقة من التشبيهات العقم على الحقيقة» (٣).واهتم المؤلف برصد التشبيهات والتنبيه على مواضع الجمال فيها ، والمخترع منها والمكروه ، وابدى اعجابه بقلب التشبيه المألوف ، ونقل شعراً للكاتب أبي الأصبغ بن عبد العزيز فيه .

والورد ماءٌ ونارٌ سـالا على وجـه تَصَّهْ
ضِدان في صَحن خدٍ قد ألّفا بعدَ بُغضه ..

فعلق على البيت الأول . « وهذا البيت غاية ، ووصف الورد نهاية ، وإن كان معروفاً في وصف الخدود ، فقلبه إلى وصف الورد مما أحسن فيه وأغرب به (٤) » . والالحاح على التشبيه وما يتصل به يعكس اهتمام الأندلسيين بالصورة

١) البديع في وصف الربيع ص ٦ ٢) البديع في وصف الربيع ص ٧
٣) البديع في وصف الربيع ص ٣٢ — ٣٣ .
٤) البديع ص ٤٦ — ٤٧ .

الشعرية مل استمرار دلك الاهتمام ، فقد سبق الحميري أديب آخر جمع شعراً كثيراً ودوّنه وصنفه على الموضوعات وضمه في كتابه التشبيهات من أشعار أهل الاندلس وهو ابو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب [1] وكتاب البديع يكمل مقصد ذلك الكتاب على وجه من الوجوه .



١) حققه الدكتور إحسان عباس مع مقدمة وافية . (بيروت – ١٩٦٦)

أبو عامر عبد الملك بن شُهيد

لو كانت رسالة التوابع والزوابع وصلت إلينا كاملة، بالإضافة إلى كتب أخرى ضاعت من كتب ابن شهيد، لكان الحديث عنه أغزر وأوفر، ولاتّضحت مكانته الحقيقية في تاريخ النقد الأندلسي. وكل ما لدينا هو بقايا تلك الرسالة، وأخبار متفرقة عنه تفصح عن آراء متفرقة، وتبين مكانة مرموقة لشعره وكلامه.

حياته. هو أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الأَشجعي، الشاعر والأديب الناقد. ولد في أسرة أدب ورياسة، فقد كان أبوه عبد الملك أبو مروان عاملاً للمنصور بن أبي عامر ومقرباً لديه واستمر عاملاً على الجهة الشرقية تسعة أعوام بتدمير وبلنسية، فلما ملّ العمل طلب الإدالة من المنصور فورد قرطبة بمال وفير أبقاه المنصور له، وزاد له في الأُعطيات [1]. وعُرف عن أبيه الاهتمام بالأدب فألف التاريخ الكبير في الأخبار ورتبه على السنين [2] وله أشعار صدر في بعضها على البديهة في مجالس المنصور تدل على تقدمه في الصناعة وتمكنه من الفن [3]. في هذه البيئة نشأ أبو عامر وأدرك من بر العامريين على والده وأسرته وعليه أيضاً ما بهر نظره وملأ نفسه بحب دولتهم والإعجاب بهم على الجملة. فلما اضطرب أمر الأندلس بنشوب الفتنة وتغير حال قرطبة تنكرت الأيام لأبي عامر، وصارت صورة قرطبة في عينيه عجوزاً قبيحة « والذي أشكو

(*) انظر الذخيرة ١ / ١ ١٦١ – وما بعدها، جذوة المقتبس ١٢٣ – ١٢٧، بغية الملتمس الترجمة رقم ٤٣٧، المغرب ١ ٧٨ – ٨٥، مطمح الأنفس ٦١–٢٢ المطرب (ط. مصر) ١٥٨ – ١٦٤، شذرات الذهب ٣ . ٢٣، معجم الأدباء ٣ ٢٢٠ – وجمع شارل بلا ديوانه وطبعه في بيروت ١٩٦٣ وانظر تاريخ الأدب الأندلسي . ١ ٢١٥ – ٢٤٤

١) الذخيرة ١ / ١ ١٦٧

٢) الصلة ١ ٣٣٨

٣) الذخيرة ٤ / ١ ١٧ – ١٩ .

منه أعرب الغرائب وأعجب العجائب : بث شاعل ، وترح قاتل وصبر نعيص ، ودمع يفيض لعجوز حمراء سهكة درداء تدعى قرطبة .

عجوز لعَمرُ الصبا فانية لها في الحشا صورة الغانيَه

تردّيت من حزن عيشي بها غراماً فيا طولَ أحزانيَه[1]

وقد أدرك الفتنة شاباً لم يكد يجاوز العشرين ، ووجد نفسه مضطراً للعمل لكسب لقمة العيش . فلحق بمجاهد العامري صديقه فلم يجد عنده ما يُرضي نفسه الطموح المفعمة بالكبرياء ، ومدح بني حمود بعد غلبتهم على قرطبة . ودخل السجن في أيامهم [2] فلقي منه ما يزعجه — وهو الشديد الحساسية — فاستعطف المعتلي بن حمود حتى أطلق سراحه . وتقلب في أطراف من السياسة ، فوزر للمستظهر الأموي (عبد الرحمن بن عبد الجبار) مع ابن حزم ولكنّ هذا لم يلبث خليفة أكثر من ٤٧ يوماً وكان مقرباً من هشام بن محمد آخر الأمويين ، والذي تلقّب بالمعتد [3] .

ونقل ابن سعيد في ترجمة الشاعر ابن الحناط — وكان لاذع اللسان — وقيل له . كيف كان هشام المعتد فقال . يكفي من الدلالة على اختياره أنه استكتبني واتخذ ابن شهيد جليساً ! وكان ابن الحنّاط أعمى وابن شهيد أصم [4] . وفي رسائله وشعره ما يدل على صلته بالمؤتمن (عبد العزيز بن أبي عامر) وأبي عامر بن المظفر ، وقد ظل يذكر العامريين ويستوحي ماضيهم إلى أن مات (سنة ٤٢٦) .

عاش ابن شهيد حياة حافلة ، فعرف الأمراء والوزراء واتصل له من ذلك سبب وإن لم تمكنه الأيام من مكانة كمكانة أبيه في السلطان ونال من حياة العبث واللهو نصيباً عرّضه للسجن ، و « غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة فحط في هواه شديداً حتى أسقط شرفه ، ووهم نفسه راضياً في ذلك بما يلذه ، فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحه[5] » وكان إلى هذا سريع

---

١) الذخيرة ١ / ١ / ١٧٥
٢) مطمح الأنفس لابن خاقان ٢٠
٣) المغرب لابن سعيد ١ / ٨٥ .
٤) المغرب لابن سعيد ١ / ١٢٣ .
٥) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ / ١٦٢

النحوة مسرفاً في العطاء ، وفي المطرب حادثة تلحق بالقصص ، عن كرم ابن شهيد [1] . أما عن نظرته إلى نفسه فإنه كان معجباً بشعره ونثره ، مُغلياً من مكانته بما يراه لنفسه من الذكاء والمقدرة ، وبما تسمح به يده من بذل وعطاء ، ونسبه العريق وعلى الرغم من خلاله هذه فإن أصدقاءه كثيرون ، وإن له بينهم مكانة وفي قلوبهم إعجاباً . فمنهم أبو محمد بن حزم ، وابن عمه ابو المغيرة ابن حزم ، وأبو جعفر بن اللمائي أحد الكتاب المشهورين ، وأبو بكر بن حزم الذي أرسل اليه التوابع والزوابع . وفي ديوانه عدد من المراثي يدل على صلته بكبار القوم . ومن جهة أخرى فإنه كانت بينه وبين بعضهم منافرات وخصومات كالذي كان بينه وبين الشاعر ابن الحنّاط واللغوي ابن الإفليلي ، وأبي بكر الكاتب المعروف بأشكمياط .

شعره ونثره .

في نقاش بين ابن شهيد وتابع ابن الإفليلي في التوابع والزوابع واسمه أنف الناقة ، نقرأ « فقالا لي هذا صاحب أبي القاسم (ابن الإفليلي) ما قولك فيه يا أنف الناقة ؟ قال فتى لم أعرف على من قرأ .. فقلت وأنا أيضاً لا أعرف على مَن قرأت . قال ألمثلي يقال هذا ؟ فقلت . فكان ماذا قال فطارحني كتاب الخليل قلت هو عندي في زنبيل ، قال فناظرني على كتاب سيبويه ، قلت . الخرة عندي عليه [2] . » وابن شهيد لم يحصّل الوفير الواسع من علوم عصره ولكنه عني بمطالعاته الكثيرة ومحفوظه من شعر المشارقة ، وتَشهد له معارضاته لعدد كبير منهم ، ومناقشاته في رسالته .

وهو في نثره كما وصفه ابن حزم بقوله « ولنا في البلغاء أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل [3] » أما شعره فيمتاز بالقوة والجزالة ، وطرق البديع في غير إسراف ، وقد ساعدته معرفته بالأساليب النثرية والشعرية إلى وقته على انتهاج خطة خاصة به ، وخاصة بعد استفحال مذهب البديع مع أبي

١) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ ١٥٨ — ١٥٩
٢) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ ٢٣٤ ٣) الجذوة للحميدي . ١٢٤

تام ، وسنعود إلى رأيه في دراسة آرائه النقدية .

آراؤه النقدية :

عُرف عن ابن شهيد أنه ألف رسالة التوابع والزوابع ولكنها لم تصلنا كاملة ، ومنها مختارات في الذخيرة لابن بسام . كما ان صاحب الذخيرة نقل من رسائله الأخرى مقتطفات تفيد فيما نحن بسبيله. وفي ترجماته المتقدمة ، وأخباره المثبوتة ملاحظات قيمة يمكن أن نفيد منها كالذي في الجذوة . وله أيضاً كتاب (حانوت عطار) ترجم فيه لعدد من معاصريه ، ونفذ في تلك التراجم إلى تطبيق آرائه ونظرياته النقدية ، ومار أساليبهم وخصائصهم ، وهو كتاب ضائع ، منه مقتطفات في بعض كتب التراجم .

لم يكد يظهر بين ابن عبد ربه وبين ابن شُهيد ناقد أندلسي له أثر بدرسه ، وعادالنقد الى حلقات المؤدبين والمعلمين يوجهونه على طُرر مستوحاة من معارفهم ومُثلهم التي يُملونها ، والى ندوات الأدباء وبرهاتهم ومجالس الأمراء والوزراء بأحكام سريعة وآراء تذوقية . وساعد تغير الحالة السياسية والاجتماعية على بروز شخصيات هامة مثل ابن شهيد وابن حَزم ، وأطلق ألسنتهم . يضاف إلى ذلك أنهما كانا شاعرين وكاتبين ، مما يُضفي على ما يصدر عنهما من آراء صفة مميزة ، ذلك أن عندهما مُثلاً يُلغون بها حين ينتقدون ، وطرقاً ينتهجونها عمليّاً حين يتنكّبون عن جادة المألوف . ولهذا فان آراء ابن شهيد النقدية – معظمها إن لم نقل كلها – صادرة عن وعي ورأي تجريبي لا رأي نظري . ودارت ملاحظاته حول مشاكل كان له فيها ضِلع ، وناقش أموراً أخذها على غيره . أوعدّها خصومهُ من معايب كلامه ونظامه . وسنجد في شتَات آرائه ما يكوّن نظرة شاملة متكاملة ، وأحكاماً على مدارس واتجاهات في الشعر والنثر ، وعلى نفر من الشعراء والكتاب من معاصريه وأهل بلده ، ومن المشارقة قديمهم والحديد .

مسألة البيان .

تعرض ابن شهيد لموضوع البيان كيف يتأتى للانسان ، وما هي أدواته وآلاته ، ما مقدار العنصر الخلقي فيه وما مدى تأثير الصناعة والكد ، وكيف يتعلم الصبيان البيان ، وهل البيان واحد في كل العُصور أم تتغير مقاييسه بتغير

الزمان ... ولم يطرق ذلك مرة واحدة بل بثّ ذلك في فصول نقلها أو نقل منها ابن بسام وفي التوابع والزوابع أيضاً . وهو يرى ان البيـان يتاح شيئين متلازمين : الطبع ، ويعني به ما فُطر عليه المرء من موهبة ومقدرة ، والآلة مما يستطيع التعلم أن يوجه به ، ويصقل وينمّي . ولا تستطيع الآ لة وحدها أن تنفع في شيء ، قال : وإصابة البيان لا يقوم بهـا حفظ كثيرِ الغريب ، واستيفاءُ مسائل النحو ، بل بالطبع مع وزنه مع هذين[1] . ويتغلغل في الطبع فيجده مركباً من شيئين أيضاً . النفس أو الروح ، والجسم . وعنـده أن الروحانية إذا غلبت على الجسمانية طلعت صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها وأروق لبساتها ، وإذا غلبت الجسمانية كان ما يطلع من تلك الصور ناقصاً من الدرجة الأولى في الكمال والتمام ويعطي هذه الروحانية قوة تستطيع أن تسبغ على الكلام أبهى رونق ، وأن تأتي بالغريب ، وَعرّف الغريب بأن يتركب الحسَن من غير حسن ، ومثّل لذلك بقول امرىء القيس .

★ ألا عِم صباحاً أيّها الطلل البالي ★

وقوله :

تنـوّرتُها من أذرعات وأهلُها بيثربَ ، أدنى دارها نظرٌ عالي

وعلق على هذا وأشباهه بأن ألفاظه عادية ، ولكنه يعلق بالنفس ويستولي على القلب . وكأنه يتوجه إلى حُسن النظم الذي نظر بـه بعضُهم كابن حزم وفريق من المعتزلة إلى إعجاز القرآن ، وأدار عليـه عبد القاهر الجرجاني الإعجاز والبلاغة .

ويبحث في تعليم البيان ، فبدأ بمقالة الجاحظ إن تعليم البيان أصعب من تعليم النحو والغريب وانتقده لأنه َحجب عن الناس كيف يكون ذلك،َضناً وبُخلاً ولو كشف عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج لأرى كيف وضع الكلام وتزيين البيان ، وكيف التوصل الى حُسن الإبتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع فإنها معادن الصنعـة ومواضع ومفاتح الطريقة ولكنه استمسك بفائدته ، وضن بما عنده غيرة على العلم وشحاً بثمرة الفهم[2] .. ورأى ان تعليم الصبيان طرق البيان ممكن وهو مرهون عندى

---

١) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ ١٩٧ . ٢) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ ، ١٩٨ .

لحابة التلميد ، ومشاركته على التعليم ، لأن البطالة على الفتيان عالـة كما يقول ، وضرب مثلاً بفئة من الناس تريد أن تأخد (السر) الدي يجعل الناس : حاصة وعامة تتقبل على شعر أمثاله ويدر حلبها . فيقول انه البيان [1] ! وليس من السّهل تعلمه، ثم انه لا بد بعد تعلمه من معرفة مواضعه ، فإن لكل مقام مقالا. ولكل صرب من الناس صربٌ من الكلام ، ووحه من البيـان فتحريك النقّالين والقصابين ، عير تحريك العجلاء من الكبراء الى البدل وَسبُ السوقة وهجاؤهم عير سب الأشراف فإنه عويص عسير .

وانتقل من اعتبار المقصود بالخطاب من رفيع ووصيع وعالم وحاهل إلى أمرآخر مُتّصل به ، فكما أن لكل مقام مقالاً فكذلك لكل عصر بيان ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابـة وصرب من البلاغة [2] . وهو يلاحظ بدقة ودراية كيف تطوّر أمر الشعر والنثر من عصوره الأولى وهلم حراً إلى عصر ابن شهيد .

ففي النثر قال إن الكتابة الأولى تحولت الى طريقة عبد الحميـد الكاتب وابن المقفع وسهل بن هارون . فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد دراعاً وأنور شعاعاً لرجحان تلك العقول ، واتساع تلك القرائح في العلوم [3] . وبعد هذه الطريقة جاءت أخرى قام بها ابراهيم بن العباس الصّولي ، ومحمـد بن الزيات وابنا وهب ، فرقت الطباع ، وخف ثقـل الكلام [4] . ثم دخل التّعقيد ، واعترى الكتابة شيء من التـكلف ، فكانت إحالة أخرى الى طريقة بديع الزمان الهمداني ، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير وأصحابها .

ولاحظ في الشعر شيئاً قريباً مما لاحظه في النثر ، فقد كان الشعر على حال من الصنعة انتقلت وتحولت بانتقال الزمان ، وذكر ما كان من صنيـع صريع الغواني وبشار بن برد وأبي نواس في البديع والخروج به عن العـادة التي كانت قبلهم من استعمال أفانينه والزيادة في تفريع متونه . ولم يلبث ان خرج أبو تمام بمذهبه المُسرف في التجنيس ، والإعراب فخرج عن العادة ، ولكنه تمكن من استعماله فأعجب به الناس ، ووترسم أثره الكثير حتى كاد يغلب . فكل

---

١) الدخيرة لابن بسام ١ / ١ . ٢٠١ .   ٢) الدخيرة لابن بسام ١ / ١ ، ٢٠٢ .
٣) الدخيرة لابن بسام ١ / ١ ٢٠٢   ٤) الدخيرة لابن بسام ١ / ١ . ٢٠٣ .

شعر لا يكون اليوم تجبيساً أو ما يشبهه تمحه الآذان[1] . ولكن ابن شهيد يخرج على هذا الذي بهر الناس ، ويرى ان الاعتدال في الأمر أحسن وأقوم ، وكأنه ينظر إلى طريقته حين أثنى على أسلوب صريع الغواني فقال « ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام لأنه لبس ديباجة المحدَثين على ألأمة العَرب ، فتركّب له من الحسن بينهما ما تركب » [2] .

صنوف الأدباء .

وهو يضع الأدباء في صنوف ثلاثة ، من كان في أحدها فهو أديبٌ يستحق الذكر ومن عداها فليس بذلك .

فمنهم من يخترع المعاني ويقع على الألفاظ الجميلة الجيدة ويجيد الوصف والاستنباط ، ولكنه يعجز عن تأليف الكلام تأليفاً جيداً ، فيفقد كلامه الرونق ويعدم « بهاء البهجة وشرف المنزلة » .

ومنهم من يمتاز بقدرة خارقة على اجتلاء المعاني والغوص على اللطيف المتنكر ، إذا ازدحمت عليه في الكلام المطالب أعمل لحظه البارق ، وفكره القادح فجاء بهاء العرض ، في ثوبٍ حسن الماء جميل الرواء ، لا يقف أمام بيانه شيء !

ومنهم من لا يجود دائماً وفي كل حال ، ولكنه إذا حُوبِه وحُرِك استطاع أن يعمل الحيلة ، ويشارك في الصنعة ، ويعمد إلى التلفيق والحيلة وبذلك يصاحب الأيام ، ويجاري أبناء الزمان ، « ولا يخرج أصحاب البيان عن هذه الأصناف ، ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام » [3] .

والتفت إلى المعلمين ليطبق نظريته في البيان على ما يصنعون وهو لا يكف عن الإزراء والحَمل على ما يأتون به ، فينتقد أسلوبهم في التعليم وطرائقهم في الكتابة ، وما يصدر عنهم من نقد الشعر ونقد النثر ويرى أنهم حملةٌ لا يصلحون للكتابة ولا للنقد وأنهم مقصرون عن الإبانة ، فهم — لهذا — ينطوون على حسدٍ للمجيد ، وحقدٍ على المبدع وهم لجهلهم ينتقدون طريقة ابن شهيد

وأشاهه في الكتابة. ونقل ابن حيان في ترجمة أحد المعلمين — وهو ابن الإفليلي — أن كتابته كانت على طريقة المعلمين المتكلفين ولم يجر في أسلوب الكتاب المطبوعين (١) . ووقع ابن شهيد في ابن الإفليلي ونال منه نيلاً عظيماً ، ولعله كان شديداً عليه مشتطاً في نقده والأخذ عليه ، ونقل ابن شهيد أن ابن الإفليلي كان ينظر إليه وإلى طبقته من الأندلسيين بمنظار واحد : « وهو مع هذا كله يسميها المسَمح الهامح ويسمى البديع والصابىء وشمس المعالي العصاريط » (٢) .

وهو ينظر إلى المعلمين على أنهم مقصرون لا يستطيعون الإحسان فإن استعدادهم الطبيعي نازل عن سواهم « يحنون على أكباد غليظة وقلوب كقلوب الثعران ، ويرجعون إلى فطن كَحِئة وأذهان صدئة ، لا مفد لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في أنوار البيان » . ويعود ليؤكد نظريته في الطبع المتركب من الرّوح والجِسم ويرى أن تقصير المعلمين إنما هو من طريق العلل الداخلة في فساد الآلة القابلة للروحانية والخادمة لآلات الفهم وأضاف أمراً طريفاً وهو تشوّه الخِلقة وأثره في التفكير ، فإن فساد الآلة الظاهرة عنده يؤول إلى فساد الآلة القابلة للروحانية . « فمرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القَمحْدُوة ، والتواء الشّدق ، وحَزَر العين ، وعِلَط الأنف وانزواء الأرنبة » .. وهو كثيراً ما يعيب ابن الإفليلي بورم أنفه (٣) .

بين الجاحظ وسهل بن هارون .

نفذ ابن شهيد إلى الحديث عن الجاحظ وسهل بعد مناقشة رأي ابن الإفليلي فيهما . فقد نقل عنه أنه شبّهما بمثالٍ لم يُعجبه لأنه « ضرب فيهما مثل العامة : بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرس » . ورأى أن هذا من الإجحاف العظيم على سهل وعنده أن كلا منهما مُحسن على طريقته فسَهْل كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين (كتب) وانتقد الجاحظ لنكوصه عن الكتابة الديوانية فهي شرف الصنعة المؤدي إلى شرف المنزلة ، وعلل ذلك بعدم قُدرته على الكتابة وجمع أدواتها ، أو بسقوط الهمة ، أو بإفراط جحوظ عينيه ، ومال إلى هذا

١) الذخيرة ١ / ١ ، ٢٠٧ .　٢) الذخيرة ١ / ١ ، ٢٠٥
٣) الذخيرة ١ / ١ ، ٢٠٨ .

الرأي وضرب المثل بنفسه فقد كان أصم ، وناس الإفليلي لورم أنفه [1] . ولكنه فرّق بين العالم والكاتب ، فسهل بن هارون سياسي كاتب يُحسن تدبير الملك وخدمة السلطان ، والجاحظ عالم مؤلف يتطاول حديثه إلى القول في النعال والكلام في الجردان !

من التوابع والزوابع :

وضع ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع التي سماها شجرة الفكاهة وقدمها إلى صديقه أبي بكر يحيى بن حزم ، فإليه توجه الخطاب بها [2] ، تخيل فيها نفسه مع شيطانه – ولكل أديب تابعة أو شيطان – يرقى إلى حيث توابع الشعراء ، والكتاب ، فطارحهم شعره ونثره ، وأجرى بينه وبينهم أحاديث أدبية مختلفة ، واستغل هذا التخيل ليدلي بآرائه . وقد شغلته عدة قضايا جعل رسالته عرضاً لها وتبياناً لموقفه منها :

١) ما منزلته من شعراء قومه وكتابهم ، وما منزلة شعره ونثره في الأدب العربي بعامة .

٢) وما هي حدود الاخذ ومتى يسوغ ؟

٣) ما هو الموقف من طغيان السجع على كتابة الكتاب ؟.. وعرج في مواضع مختلفة لينال من خصومه من المعلمين والأدباء ورجال الدولة بلسان لاذع ، يتراوح بين التصريح والتلويح .

صار ابن شهيد مع تابعه زهير بن نمير إلى أرض الجن ، وبدأ معه بالمرور على شياطين الشعراء ، فاستنشدهم من شعره ، وكأنه يختار ما يعجبه من قصائدهم ليعارضها ، وكان يطلب (الإجازة) من كل شاعر يلقاه ، ويحظى بعد إظهار براعته بعبارة أجزتك أو ما يشبهها بين إعجاب المعجب وغبطة الحاسد !.

ولقي شياطين امرىء القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ، وأبي تمام الذي قال له ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك [3] ، ووصف البحتري بأنه من أساتيذه ثم أجازه شيطانه أبو الطبع كارهاً . « صاح به زهير بن نمير أأجزته ؟ قال أجزته ، لا بورك فيه من زائر [4] ».وكأنه يرى تفوق نفسه على البُحتري ، ثم ختم بالمتنبي

١) الذخيرة ١ / ١ ٢٠٨ ٢) جذوة المقتبس ٣٥١ والذخيرة ١ / ١ ٢١٠

٣) الذخيرة ١ / ١ . ٢١٩ . ٤) الذخيرة ١ / ١ : ٢٢١ .

وخرج من حومة الشعراء إلى جماعة الكتاب والمصنّفين ، واتفق له اجتماعهم في مكان – لأجل الحكم على كلامين اختلف فيه فتيان الحي – وعلى رأسهم صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد ، فشهد له الجاحظ بالتقدم في الصناعتين إلا أنه أنكر عليه تفشّي السجع في كتابته « إنك لخطيب وحائك للكلام مُجيد لولا أنك مغرى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر »[1] . فاعتذر إليه بذوق العصر وأنه يجاريهم ويخاطبهم بما يشهدون له فيه بالتقدم ، وأنه على علم بأصول الكتابة ولكنه دُهي (بمعاوة أهل الزمان) فحَرّكتهم بالإزدواج قال ـ شيطان الجاحظ – فكيف كلامهم بينهم قلت. ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة ، إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المَجوس والنبط ، فصاح إنا لله ارمهم يا هذا بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ويُطير لك ذكراً فيهم[2] وتخلص بهذا من مشكلة السجع التي كانت تشغل باله ، والتي سالت إلى الأندلس من المشرق وتمكّنت بعد شيوع أسلوب بديع الزمان وقابوس بن وشمكير وطبقتهما . وأثبت قدرته على الكتابة العاطلة من السّجع المائلة إلى الطبع بافتعال جدال مع شيطان عبد الحميد الكاتب وقرعه بما يشبه أسلوبه[3] .

الابداع الفني

ذكر ابن شهيد ثلاثة من خصومه بكنائهم أبو محمد، وأبو بكر ولعله الأديب الملقب بأشكمياط ، وأبو القاسم بن الإفليلي . وناقش شيطان ابن الإفليلي أنف الناقة فجاء ثانية على موضوع ثقافة الأديب ، ورجح منزلة الموهبة من شروط الإبداع الفني ، ورد على (أنف الناقة) قوله إنه أبو البيان ، وإنه تلقى ذلك عن المؤدبين « قال لقد علميه المؤدبون ، قلت ليس هو من شأنهم إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال (الرَّحمَنُ عَلَّمَ القرآنَ خَلقَ الإنسانَ علَّمَهُ البَيان) ، ليس من شعر يفسر ولا أرض تُكسر[4] ... » واستبعد ما يسمّيه بالصدق من اعتبار الجودة والحسن أو القُبح في الأثر الفني ، فالمهم هو جمال الأثر الفني ، وقدرة الأديب على حُسن الصياغة والتعبير عن الفكرة المقصودة ، ومقياس

١) الذخيرة ١ / ١ ٢٢٨ – ٢٢٩ ٢) الذخيرة ١ / ١ ٢٢٩
٣) الذخيرة ١ / ١ ٢٣ ٤) الذخيرة ١ / ١ ٢٣٤

الجودة أن « تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه [1] » .

السرقات الادبية

سبق في الحديث عن ابن عبد ربه أنه كان يرى الأخذ سائغاً إذا أحسن المرء ذلك، ورأيُ ابن شهيد لا يبتعد عن ذلك ، فالأخذ عنده درجات ، فمن الشعراء من يأخذ ويزيد فهو محسن ، ومنهم من يقصر فهو مسيء . وروى طرفاً من حديث جرى بينه وبين الجن مما تعاورته الشعراء من المعاني ، ومن أحسن ومن قصر ، ووضع أُسساً للأخذ ، وأجرى ذلك على لسان شيخ من الجن يعلم ابنه صناعة الشعر «إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسِن تركيبه ، وأرِقّ حاشيته فاضرب عنه جملة . وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم اليها ذلك المُحسن لتنشّط طبيعتك وتقوى منتك [2] » . وساق مثالاً تطبيقياً ، فقد روى أن أحد الجن استملح بيت امرىء القيس .

سَموتُ اليها بعد ما نام أهلُها سُمو حَباب الماء حالاً على حال

واستصعب محاكاته ، فشاركه ابن شهيد الإعجاب ، وَمثّل ببيت عمر بن أبي ربيعة على الإخفاق في المحاكاة ، وهو قوله

ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ حباب وركني خيفة القوم أزور

وجعل محاكاته هو لمعنى بيت امرىء القيس مقياساً جديداً لحُسن الأخذ والإبداع فوقه وهي أبياته .

وَلما تمَـلّأ مِنْ سُكْـرِهِ وَنامَ ونامَت عيونُ العَسسْ
دنوتُ إليـه على بُعده دُنوَّ رفيق دَرى ما التمَس
أدبُّ اليه دبيب الكرى وأسمو اليـه سُموّ النَّفس
وبت به ليلتي ناعِساً إلى أن تبسّمَ ثَغرُ الغَلس
أُقبّلُ منه بياضَ الطُّلى وأرشفُ منه سَوادَ اللَّعَس [3]

وابن شهيد يدافع عن جزء هام من طريقته ، فهو مولع بمُساماة الفحول والجَري على حلبتهم . و (الأخذ) عنده – على المقاييس التي ارتضاها – أمر

١) الذخيرة لابن بسام ١ / ١ ٣٣٤ .
٢) الذخيرة . ١/١ . ٢٤٤ ٣) الذخيرة ١ / ١ ، ٢٤٤ – ٢٤٥

مسلّم به ، مندوب له ؛ قال أبو عامر : قال لي فاتك بن الصقعب : فهل جاذبت أنت أحداً من الفحول ؟ قلت نعم قول أبي الطيب :

أأخلعُ المجد عن كتفي وأطلبُه ... وأتركُ الغيثَ في غِمدي وأنتجعُ

قال لي فماذا ؟ قلت بقولي .

ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسِق ... وفي الكفّ عسّالة الخط أسمرُ

هما صاحبايَ من لدنْ كنتُ يافعاً ... مُقيلان من جَدّ الفتى حين يعثر

فذا جدول في الغمد تسقى به المنى ... وذا غُصنٌ في الكف يجنى فيثمر

فقال . والله لئن كان الغيث أبلغ فلقد زدت زيادة مليحة ظريفة واخترعت معاني لطيفة ، هل غير هذا ؟ فقلت وقوله[1]... » وسرد نماذج من قصائده في محاكاة المتنبي في أسلوبه لإثبات المقدرة ، وفي ذلك من دلالات الإعجاب به الكثير المفصح ولكن أبا عامر لم يحافظ دائماً على (نظريته) في حُسن الأخذ ، فله من قصيدة :

وخيل تمشّى للوغى نطوبها ... إذا حَملت بالمرتقى الصعب ترلق

قال ابن بسام وهذا البيت مما لم يُحسن ابو عامر سرقته ولا بلغ به طبقته ، وهو من قول ابي الطيب .

إذا زلقت مشّيتَها بطونها ... كما تتمشى في الصّعيد الأراقِم[2]

اللفظ والمعنى

أدلى ابن شهيد برأيه في موضوع اللفظ والمعنى من خلال نصائح وجهها الى الأديب الذي يريد أن يأتي بما يذيع اسمه وينشر ذكره . وهو ينصح بالبحث عن اللفظ الرائق والمعنى الرفيع بحيث يحصل من اجتماعهما البيان الذي طالما أشار اليه ويحذر من ترويق اللفظ وبهرجته بما يذهب بأصالته ونصاعته فكم من شيء فضي" البشرة رصاصي" المكسر . فإذا اجتمع للأديب المعنى الكريم في اللفظ الكريم ، إلى شيء من البديع ، مع توشية نادرة او حكمة فقد حاز ما يريد وإنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان ، وتعمد كرائم المعاني والكلام وان ينطق بالفصل ، ويركب أثباج الجد ، ويطلب النادرة والسائرة ،

١) الذخيرة ١/١ ٢٤٦ . ٢) الذخيرة ١ / ١ . ٢٧٤

ويطم من الحكمة ما يبقى بعد موته .. وصرب مثلا بأبيات له .

البديهة :

وهو على تطلبه حسن اللفظ وجمال المعنى عما يطلق المفصل ، يُعجب بالبديهة ويعتبرها ميزة ، ويرتاد ساحتها ، ولعله لا يزال فيما يحصر من البديهة من شرائط الإجادة عن رأيه في المروى . ونقل الحميدي في ترجمة عبد الرحمن بن أبي الفهد الأشجعي بإسناده قال أخبرني ابو عامر احمد بن عبد الملك الشهيدي أنه عمل بحضرته اربعين بيتاً على البديهة الى عُبادة ليس فيها حرف يعجم أولها .

* حلمك ما حد حده أحد [1] *

وأثنى ابن شهيد على الخليفة المستظهر قال : وكان يُتشبّه في أشعاره ورسائله حتى كتب أمان يعلى بن أبي زيد حين وفد عليه ، ارتجالاً ، فعجب أهل التمييز منه [2]

ودُعي مرة خصيصاً لإجازة شطر قاله الوزير ابن عباس بحضر من علية الشعراء والأدباء في وقته [3] ، مما يرجح اشتهاره بهذا الفن ، مقدرةً عليه وإعجاباً به . ونقل المقّري في النفح « أن عبدالله بن ما كان الشاعر تناول برجسةً فركبها في وردة ثم قال ، لصاعد البغدادي ولابي عامر بن شهيد صِفاها فأُفحما ولم يتجه لهما القول فبينما هم على ذلك إذا دخل الرهيري صاحب أبي العلاء وتلميذه وكان شاعراً أديباً أمياً لا يقرأ ، فلما استقر به المجلس أخبر بما هم فيه فجعل يضحك . . [4]

وبعد :

فهذا هو ابن شهيد الناقد الذي ساعدتـــه سجيته وشاعريته وحدة ذكائه

---

١) جذوة المقتبس ٢٥٩ ٢) جذوة المقتبس ٢٥

٣) الذخيرة ١ / ١ ٢٦١ - ٢٦٢ ٤) نفح الطيب ، ٤ / ٨٦

وذوقه . و ضع بعض المصطلحات والملاحظـات النقدية ، وأدرك تطور الشعر العربي والكتابة الفنية في مدارسها المشرقية وأصدائها الأندلسية إلى عهده. ووسّع الأخذ بحدودٍ رسمها وضرب لها الأمثال . وأبدى إعجابه بممارسة المتقدمين ورأى في ذلك قدرة وبراعة ، وأعجب بالبديهة وفضلها على التروي والتزوير ، ومارس ذلك عملياً . وحـاول أن يفهم البيان ويضع للمُنشئ صفات وقواعـد ورسم له وجهات ونماذج .

أبو محمد بن حزم

٣٨٤ – ٤٥٦ *

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، فقيه الأندلس وعالمها وصاحب التصانيف في الأدب والجدل والفقه ، والأحكام ، ومجدد مذهب داود الظاهري ومقعّد أصوله ومبين أحكامه ، الشاعر الناقد ، الوزير .

ولد أبو محمد ليلة الفطر سنة أربع وثمانين وثلاثمئة بقرطبة من أسرة عريقة في الإسلام ، تنتمي إلى أصل فارسي ، [1] ولاؤها في بني أمية ، وكان أبوه أحمد بن سعيد وزيراً في الدولة العامرية للمنصور بن أبي عامر ، ولابنه المظفر . فأمضى طفولة ناعمة في ظلال القصور وفي رعاية الجواري ، يشهد مجالس الأمراء والوزراء مع أبيه : يسمع الأخبار والأشعار ويلتقط من ذلك ما يوسع مداركه وينمّي ذوقه . ثم دهمت قرطبة الفتنة واضطرب أمرها ، وزالت منها دولة العامريين ، وتحركت في نفوس بني حزم الميول إلى بني أمية ، فلقوا من جرّاء ذلك بعض البلاء ، ومات الأب (أحمد) سنة ٤٠٢ وصار العبء على كاهل الفتى عليّ . وتقلبت به أحوال السياسة زماناً فخرج عن قرطبة وجال في مدن الأندلس الى أن عاد الى قرطبة سنة ٤١٤ وزيراً للمستظهر الأموي ، ولكن فترة وزارته لم تطل ، ونفض يده من الأعمال السلطانية ، وتوجه إلى العلم الذي صار همه وشغله ، وكان تحولاً رضي عنه وأقام عليه إلى أن توفي سنة ٤٥٦ وترك آثاراً ضخمة جعلته علماً كبيراً من أعلام الأندلس .

(*) جذوة المقتبس للحميدي (تلميذ ابن حزم) ٢٩٠ – ٢٩٤ بغية الملتمس رقم ١٢٠٤ ص ٤٠٣ – ٤٠٥ (ونقل عن الجذوة) الصلة (ط العطار) ٣٩٥ . طبقات الأمم لصاعد الأندلسي (ط السعادة بمصر) ١١٧ – ١١٩ المغرب ١ ٣٥٤ – ٣٥٧ ونقل عن الذخيرة المعجب للمراكشي ٩٣ – ٩٧ مطمح الأنفس ٥٥ – ٥٦ . نفح الطيب ٥ ٩٦ ونقل عن الذخيرة والمطمح الذخيرة ١ – ١ ، ١٤٠ – ١٤٧ وسير أعلام النبلاء للذهبي ١١ / ٢ ١٨٨ ١٩٥ وقد نشر الأستاذ سعيد الأفغاني ترجمة ابن حزم من كتاب سير أعلام النبلاء في جزء خاص و Brock. G I 400, SI 692

(1) جذوة المقتبس ٢٩٠ وشك ابن حيان في نسبته بغير حجة (الذخيرة ١ / ١ ، ١٤٢ – ١٧٤)

ثقافته .

نهل ابن حزم من معين الثقافة مبكراً فأبوه متصل بالأخبار والآداب ، وهو « من أهل العلم والأدب والخير ، وكان له في البلاغة يد قوية » [1]. وتلقى علومه الأولى على أيدي الجواري فقرأ القرآن ، وروى الشعر ، وسمع الأخبار – فأُشرب مع العلم حبّ الجمال ، وإرهاف الحس ، فلما أضاف إلى ذلك النزعة الدينية ، لم يُستغرب منه طوق الحمامة ولا نظرته إلى الحب ، وشعره الغزلي . وتلقى بعضَ علومه في قرطبة قُبيل الفتنة وإبّانها ، وأفاد من تجواله في البلاد حيث اختلط العمل السياسي بنشاطات مختلفة منها طلب العلم . فلما عزف عن السياسة جملة أكب على العلوم فحصل منها في زمان يسير شيئا كثيراً ، وتمذهب للشافعي ثم تحول إلى مذهب داود الظاهري ، فثبت عليه . ومن شيوخه أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، سمع منه سنة ٤٠٠ [2] – وروى عنه تاريخ الطبري – وأبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت [3] ،وكان يقول بالظاهر وأبو عبدة حسان بن مالك الوزير ، وهو من الأئمة في اللغة والآداب [4] ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري [5] ، وأبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الوارث المعروف بابن أخي الزاهد وقال فيه ابن حزم هو « مؤدبي في النحو ». إلى غير هؤلاء . . ممن أخذ عنهم .

وكانت حياته سلسلة متصلة من النشاط السياسي ثم آلت إلى حركة علمية ، يؤلف في الفنون المختلفة ويناضل عن مذهب مئات من الفقهاء والعلماء ، فقد أثار تمذهبه الظاهري فقهاء الأندلس الذين أَلِفوا – على الأغلب – مذهب مالك وكانت لهم معه مناظرات ومناقشات،واستعدَوا السلطان عليه حتى أحرق ابن عباد كتبه علانية . وانصب أبو محمد على أصحاب الديانات الأخرى فأكثر فيهم الجدال – معتمداً على قراءاته في كتبهم – مستنداً إلى حجج عقلية وعلمية وموضوعية ، منتهياً من ذلك إلى فطرة الإسلام وترك كتاباً من أهم كتب

١) جذوة المقتبس ١١٧ – ١١٨ .
٢) الجذوة للحميدي ٢٩٠ ، ١٠
٣) الجذوة للحميدي ، ٣٢٨ .
٤) الجذوة للحميدي ١٨٣ .
٥) طوق الحمامة لابن حزم ٦٨

الفرق في الإسلام وهو الفصل في الملل والاهواء والنحل .

ويهمنا من ابن حزم في دراستنا نظرات متفرقة في موضوع النقد والبلاغة ، فقد تعرض لذلك في مواضع من كتبه ورسائله . والحق أن ابن حزم لم يَشغل نفسه بوضع نظرية نقدية شاملة ولاعني بجزئية أو ناحية من نواحي الأدب فبحثها بالتفصيل ، ولكنها نظرات مختلفة تتناول الشعر والنثر ، وتفصح عن رأيٍ شخصي يستحق أن يبحث فيه .

وأحكامه العامة نتيجة دراسات مستفيضة ، فحكمه مبني على أسس ، وفيه وجهة نظر . وقد أورد في رسالته التي ألفها في فضل الأندلس عدة ملاحظات جيدة ، وإن كان الغالب عليه في هذه الرسالة لهجة الدفاع عن الأندلس وبيان فضلها ومكانتها بين دول الإسلام ، فوازن بين أبي الأجرب وبين جرير والفرزدق وألحقه بمذهبه في الشعر « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب بن جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نُباهِ به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما . ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين » [٢] وأثار مشكلة أمام أهل اللغة والنحو . فما يمنع من الاحتجاج بكلامه وقد استوفى شروطهم ؟ وقرن ابن دَرّاج القسطلي بطبقته — كما يراها — في المشرق « ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دَرّاج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب (المصحفي) وأحمد بن عبد الملك ابن مروان ..[٣] » . وأعطى ابن شهيد منزلته في الكتابة وقرنها للسائل فقال فيه « وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لسانَيْ عمرو وسهل » [٤] . يعني الجاحظ وسهل بن هرون .

ولابن حزم كتاب في الشعراء ينقل عنه الحميدي كثيراً ، ويبدو أنه ترجم لعدد منهم وجاء لهم بمختارات من شعرهم ، ولا يخلو المنقول عنه من ملاحظات

---

١) التكملة لابن الأبار ٧٩ . ٢) نفح الطيب للمقري ٤ ١٦٩ .
٣) نفح الطيب للمقري ٤ ١٧٠ ، والجذوة ١٠٥ — ٦ ١ .
٤) نفح الطيب للمقري ٤ ١٧٠ .

فيها نظر أو استحسان . ونقل الحميدي عن ابن حزم في ترجمة ابن دراج : « سمعت أبا محمد علي بن أحمد – وكان عالماً بنقد الشعر يقول . لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر منه لم أبعد » [1] . والكتاب غير موجود ولكن هذا يدل على باعه في فهم الشعر وتذوقه ، واشتهاره بالنقد أيضاً .

وذكر الذهبي في ترجمة ابن حزم في القسم المخطوط من سير أعلام النبلاء [2] كتبه ومؤلفاته فمنها . الفصاحة والبلاغة ، و · تسمية الشعراء الوافدين على ابن ابي عامر ، ولعلّ الذين نقلوا عن ابن حزم في تراجم الشعراء كالحميدي نقلوا عنه ، وكتاب في العروض ، ومؤلف في الضاد والظاد ، والتعقب على ابن الافليلي في شرحه لديوان المتنبي وبالرغم من أن هذه الكتب مفقودة فإننا نستطيع أن نستكمل صورة ابن حزم اللغوي الأديب ، فقد شارك فيها بأكثر مما كان معروفاً

ابن حزم والنقد .

وضع ابن حزم رسالة سماها رسالة مراتب العلوم وهي مطبوعة في جملة رسائل له [3] – عرض في مقدمتها إلى أن هدف الانسان أن يعيش في هذه الدنيا ليثمّر للدار الآخرة ، ومن هنا كان كل شيء يقع تحت نظره وتصرفه ينبغي أن يخضع لتمحيص وتدقيق . أهو متسق مع ما خلق الإنسان له ؟ وما مقدار ما ينبغي الأخذ منه ؟ وما هو العلم النافع وما هو المضيعة للوقت المؤدي إلى ضياع الدنيا وخسران الآخرة ؟ . . « فأفضل العلوم ما أدى إلى الخلاص في دار الخلود ووصل إلى الفوز في دار البقاء ، فطالب هذه العلوم لهذه النية هو المستغيض بتعب يسير راحة الأبد . » [4] . وعيّن الحد المطلوب في كل فن والحد الأقصى الذي يكون تجاوزه عبثاً أو ما هو في حكمه . ورأى أن غير المختص تكفيه كتب – عيّنها بأسمائها – لتحصيل المقصود ·

---

١) جذوة المقتبس للحميدي . ١٠٥ .

٢) سير أعلام النبلاء – مصورة بدار الكتب المصرية ج ١١ قسم ٢ ص ١٨٨ – ١٩٥ .

٣) رسائل ابن حزم الأندلسي – حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور إحسان عباس نشر مكتبة الخانجي بمصر – دون تاريخ .

٤) رسائل ابن حزم ٦٣ .

من الكتابة والقراءة ، والنحو اللغة فمي النحو مثلاً الواضح للزبيدي والموجز لابن السراج ، وفي اللغة مختصر العين للزبيدي والغريب المصنف لأبي عبيد ، ثم خرج إلى الشعر .

وموقف ابن حزم من الشعر موقف متشدد فهو يحبذ الشعر الذي فيه الحِكم والخَير مما ينبه النفس وينشطها ويدعو المرء إلى صالح القول أو صالح العمل ، ويحذر من أربعة أضرب من الشعر . شعر الغزل وما ينزل منزلته ، وأشعار التصعلك ، وأشعار التغرب ، والهجاء . وسنعرض لما قال فإنه جدير بالعرض على حاله لغرابته قال « وإن كان مع ما ذكرنا — من أوليات لا بد منها في العلوم المختلفة — رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحِكَمُ والخَير كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك ، فإنها نعم العون على تنبيه النفس ، وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

أحدها : الأغزال والرقيق فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة ، وتحض على الفتوة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق ، وتنهي عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العِرض واذهاب المروءة وتضييع الواجبات. وإن سماع شعر رقيق لينقص بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لا سيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهّل الفسوق ويهون المعاصي ويُردي جملة » .

والضرب الثاني . الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق ، وربما أدته إلى هلاك في غير حق وإلى خسار الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره الى الظلم وسفك الدماء

والضرب الثالث . أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد المهامه فإنها تسهل التحول والتغرب ، وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون في حالةِ أهل السَّفَه من كناسي الحُشُوش ، والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات وفي هذا حلول للدمار في الدنيا والآخرة .

ثم صنفان من الشعر لا يُنهى عنهما نهياً تاماً ، ولا يُحض عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه ، وهما . المدح والرثاء ، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح ، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال وأما كراهتنا لهما فان أكثر ما في هذين النوعين الكذب ،ولا خير في الكذب»[1].

ويخرج من تقسيماته إلى الاعتراض على الإكثار من رواية الشعر — ولو كان ذلك مما يطابق منهجــــه ، فهو يطلق الكلام عاماً — لأن ذلك لا يؤدي الى الحق والفضيلة بل انه يُردي في الباطل ويدخل في المذموم ، ويدفع شبهة قــــد تقوم بعدم معرفته الأشعار وقلةروايته لها .« وأيضاً فان الإكثار من رواية الشعر هو كسب غير محمود لأنه من طريق الباطل والفضول لا من طريق الحق والفضائل. ولا يظن ظان أن هذا علم قد جهلناه فذممناه ، فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف توسعنا في رواية الأشعار [2] » ...

والناظر إلى هذه القيود التي فرضها ابن حزم على الشاعر والراوي على حد سواء يجدها قيودا شديدة قاسية . فالغزل والشعر الرقيق الذي يستميل القلوب يدعو الى الصبابة والصبابة تدعو الى الفتنة ، وهــــذه تعرّض سلوك المرء الى ما يخالف الشّريعة ، وتفسد عليه عافيته وتضيع وقته وماله وشعر التصعلك والحروب يخرج النفس عن حد الاعتدال إلى حد التّهور ، فيرتكب المرء ما لا يصح فعله ، وأشعار التغرب ووصف المهامه واختيارها والبوادي ولياليها تقنع بسهولة ورود موارد التلف والهلاك ، أما الهجاء فمذمة قبيحة ، يفســــد ما بين الرجل وقومه ، ويتدنى بصاحبه إلى طبقة أوشاب النــاس ، ويجعله يستسهل الولوع في أعراضهم وهو ينظر حين فرض هذه القيود الى اعتبارين :

١) رسائل ابن حزم ص ٦٥ — ٦٧ رسائل ابن حزم ص . ٦٧ .

الأول هو ما تجره هذه الضروب من الشعر على صاحبها وقارئها من فساد في الجسد والخلق والسلوك ، وما تفسد به ما بين الآخذ بها وبين أهله وذويه ومعاشريه ، فهذا الاعتبار يؤول الى مصلحة ذاتية .

والثاني هو ما تجره تلك الأشعار من فساد في الدين وغضب من الله . فكما أن المرء ينظر الى مصلحته في هذه الدنيا (الاعتبار الذاتي) فعليه ايضاً أن يتمثل ما يؤول الى مصلحته في الآخرة (الاعتبار الديني) ، والإنسان ليس هملاً يُهلكه الدهر ، بل إن كل شيء يكسبه في الحياة الدنيا سيكون له حساب من ثواب أو عقاب في الآخرة ، والعاقل من عمل ليومه وغده .

وليس ابن حزم مبتدع في آرائه كلها ، فقد اختلف الناس في أمر الشعر من قبله ، على تفصيلاته لا على جملته بمعنى أنهم اختلفوا في المكروه منه . وفي كتب الأدب والنقد وفي كتب الحديث النبوي ايضاً فصول عن اهتمام النبي ﷺ بالشعر وسماعه إياه . ولكن أحداً من الفقهاء لم يضع (أوصافاً) للشعر المباح والشعر المندوب والشعر المكروه والشعر المحرَّم كما فعل ابن حزم . وفي العقد : قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم يا بن أخي . إنك شهرت بالشعر فإياك والتّشبيب بالنّساء فإنك تعر الكريمة في َقوْمها ، والعفيفة في نفسها . والهجاء : فإنك لا تعدو أن تعادي كريماً أو تستثير به لئيماً . ولكن افخر بمآثر قومك وقُل من الأمثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك [١] .

فهذه نصائح صادرة عن معنى أخلاقي ولا تصرح بغرض ديني ، ولكنها تلتقي شيئاً ّما مع آراء ابن حزم . وفي ديوان عروة – الذي منع ابن حزم من تعليم الفتيان شعره – . أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبة قال وأخبرنا ابراهيم بن المنذر قال حدثنا معن بن عيسى قال سمعت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال لمعلم ولده . لا تروهم قصيدة عروة التي يقول فيها .

دعيني للغِنى أسعَى فإ ّني   رأيتُ الناسَ َشرهم الفقيرُ

ويقول . هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم [٢] . ولكن ضم ّ كل تلك

١) العقد لابن عبد ربه (ط لجنة التأليف) : ٥ ٢٨١ .
٢) ديوان عروة بن الورد . ٨٠ (مطبوع ضمن مجموعة متتابعة الصفحات فيها خمسة دواوين من أشعار العرب – المطبعة الوهبية ١٢٩٣ هـ) .

الآراء – أو لنقل القيود – بعضها الى بعض في نسق ، وجعلها رأياً واحداً معللاً ، يستند الى قيم معينة هو الذي يميز ابن حزم ويلفت اليه النظر . وأظن أنه أراد أن يصنع ما يشبه المنهج الإسلامي يلتزمه الشعراء جميعاً ، ولكنه أجمل آراءه على صيغة قوانين تفتقر إلى الاسهاب والإيضاح ، ولو دخل في التفصيلات لكانت آراؤه اكثر وضوحاً وبلورة وهو بالرغم من صدوره عن قيم دينية إسلامية فقد تشدّد في تلك القيم وتحجّر واسعاً . فقد سمع رسول الله ﷺ الشعر وفيه الغَزل ، واستمع اليه وفيه الهِجاء ، ولكن لذلك مقاييس وحدوداً لاتفي بها العُجالة التي اتكأنا عليها ابو محمد

الدين والنقد :

وليس ابن حزم وحده في الأندلس هو حامل راية تحكيم الدين في تذوق الشعر والحكم عليه والصدور عنه . فسيلحق به ابن بسام ، وابن عبد الغفور الكلاعي وابن الأحمر وسأعرض لهم بالتفصيل – وآخرون غيرهم . ومن جملة النظرة الدينية اعتبار الدراسات الادبيـة بعامة آلة من آلات فهم القرآن الكريم والإعانة على التبصر بالدين واتقان أدواته . قال ابو بكر محمد بن عبد الملك بن السَرّاج الشنتريني في مقدمة كتابه . (المعيار في اوزان الأشعار) « فإن الشعر لما كان ديوان العرب المتقـّف لأخبارها والمقيد لأوزان كلامهـا ، والمبيّن لمعاني ألفاظها ، والمنبّه على آدابها ومكارم أخلاقها ، وكان حجة يرجع إليها في تفسير ما أشكل من كتاب الله تعالى ، ومَفرعاً يلجأ اليـه في بيان ما استبهم من كلام رسول الله ﷺ رأيت ان العناية بمعرفة اوزانـه مهمة في الدين متعينة على كافة من يقوم بها من كافة المسلمين ، لأن الجهل بالوزن يؤدي الى تغيير اللفظ بتحريك ساكن او اسكان متحرك او تخفيف مشدد او تشديد مخفف وذلك يبطل الثقة بكلماته ويمنع الاستشهاد بلغاته لتعرضها للاحتمال عند مَن يجهل الوزن . وما كانت هذه سبيله فلا يجوز الاستدلال به إذ ليس أحـد محتملاته بأولى به من الآخر فلما رأيت ذلك مهماً في الدين استخرت الله تعالى

في إنشاء كتاب يُرجع اليه في هذا الشأن [1] ..» فهذا نموذج للربط بين الشعر وآلاته ومتعلقاته وبين الدين ، والأمر للمستقصي واسع عزيز .

وما من شك في أن النزعة الدينية أثرت في مجرى النقد الأدبي الأندلسي ، فإن طبيعة الدراسات القديمة كانت تمد الأديب بثقافة شرعية واسعة ، بالاضافة إلى أن عدداً ممن تصدروا للنقد، وشرح الشعر كانوا من طبقة الفقهاء أو بمنزلتهم. وهذا البلوي صاحب ألف باء يقول . « والكلام القبيح حرام من أي نوع كان مثل مدح الخمر والكلام بالخنا والهجر . ولقد أذكرني هذا حبراً كنت أنسيته . كلّفــني بعضُ الأصحاب نسخ جزء فانتسختهُ حتى انتهيت فيــه إلى أبواب تتضمن مدح الخمر وأوصافها وشاربها،فتركت مواضعها من الكتاب بياضاً[2] ». وما أظنهم يمنعون قراءة شعرِ الخمر والتصعلك والهجاء . . . على كل أحد ، ولكن لما كانت الخشية منصبّة على الفتيان والشباب – وهم أهل طلب العـلم ، والتأثر إليهم أسرع – جعلوا قواعدهم صارمة قاسية وفي ترجمة الحسن بن علي ابن خلف الأموي المعروف بالخطيب ، وهو فقيه أديب ، انه ألف كتاباً سماه تهافت الشعراء [3] وهو متوفى سنة ٦٠٢ . وليس عندنا من خبر الكتاب شيء ولكن عنوانه مائل الى ما نحن بسبيله من حديث .

آراء أخرى ·

عاد ابن حزم مرة أخرى ليعالج موضوع الشعر والبلاغة . فقد ألف كتابه **التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية** وضمنــه = في آخره – فصلين صغيرين عن البلاغة والشعر فبدأ بالقول إن الشعر صناعة يزينها الكذب ، ولهذا منع الله نبيه ﷺ من الشعر فقال تعالى (وَمَا عَلَّمناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لهُ) وأخبر تعالى أنهم يقولون ما لا يفعلون ونهى النبي ﷺ عن الإكثار منه ، وإنما ذلك لأنه كذب إلا ما خرج عن حد الشعر فجاء مجيء

١) المعيــار في أوزان الأشعار للشيخ الفقيه الأديب أبي بكر محمد بن عبد الملك السراج الشنتريني النحوي تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية – دار الأنوار – بيروت – ١٩٦٨ م – ص ١١

٢) ألف باء للبلوي ١ ٥٤ – ٥٥ ٣) التكملة لكتاب الصلة ١ . ٢٦٤ .

الحكم والمواعظ [١] ومدح النبي ﷺ . وتابع آراءه السابقة نفسها بهذا القول ، وضرب مثلاً للشعر الذي يتحرى صناعة الصدق – فيما عدا ما ذكر – بقول القـائل :

اللّيل ليلٌ والنهـار نهارٌ والبغل بغل والحمار حمار
والديك ديك والحمامة مثله وكلاهما طير له منقار

وقال إن هذا داخل فيما يُسخر منه ومعدود في المضاحك . فان قال مثلاً .

ألف السقمُ جسمَـهُ والأنينُ وبراه الهوى فمـا يستبينُ
لا تراه الظنون إلا ظنونا وهوأخفى من أن تراه الظنونُ
قد سمعنا أنينَهُ من قريبٍ فاطلبوا الشخص حيث كان الأنينُ
لم يعش أنه جليـد ولكن ذاب سقماً فلم تجده السنونُ !

حمق وملح . واعتذر ابن حزم عن أبيات صنعها باقتراح عليه ، منها :

خلّ هذا وبادر الدّهر وارحَلْ في رياض الرُّبا مطي العُقـارِ
واحدهـا بالبديع من نغمات الـ ـعود كيما تحثّ بالمزمارِ
إن خيراً من الوقوف على الدّا رِ وقوفُ البنـان بالأوتارِ . .

قال . « ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعـاً ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمه لنا صفة . ولكن حسبنا قول الله تعـالى ومن أصـدق من الله قِيلاً في الشعراء (أَلَمْ تَرَ أَنَّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون وأنهمْ يَقُولون ما لا يَفْعَلون) فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ [٢] . . » فهذا موقف ابن حزم النظري والعملي من الشعر وضروبه .

وتحدث عن علم الشعر وصناعته فقال إن علم الشعر ينقسم الى روايتـه ومعانيه ومحاسنه ومعايبه وأقسامه ووزنه ونظمه [٣] وعرّف الشعر في مكان

١) التقريب لحد المنطق والمدخــل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية تأليف الامام ابن حزم الأندلسي . تحقيق الدكتور إحسان عباس – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٥٩ م. صفحة ٢٠٦

٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف – ابن حزم – نشر مكتبة عرفة بدمشق ١٣٤٩ هـ صفحة ١١٣ .

٣) رسائل ابن حزم . ٨٠ .

آحر فقال". الشعر ينقسم ثلاثة أقسام صاعة وطبع وىراعة .

فالصاعة هي التأليف الحامع للاستعارة والتحليق على المعاني والكتابة عىها . ورب" هدا الباب من المتقد"مين رهير ىن أبي سلمى ، ومن المحدثين حبيب ان أوس . والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف ، وكان لفطه عامياً لا فصل فيه عن معناه حتى ولو أردت التعبير عن دلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهل منه ولا أوحز من دلك اللفط . ورب" هدا الباب من المتقدمين حرير ومن المحدثين الحسن [1].

وهو في حديثه عن الصاعة – أو التكلف – والطبع إنما يثير مسألة من حملة المسائل الكبار التي شغلت الأندلسيين ، والمشارقة أيضاً . فالشعر مصنوع متكلف أو منقاد مطبوع وتغلب إحدى هاتين الصفتين على شاعر فيلحق باحدى الفئتين . وانتقى أبو محمد نمادح من القدماء والمتأحرين حعلهم مثالاً لما يعرض من رأي . وهو ينطر حين قرن أبا تمام برهير ، وأبا نواس بحرير إلى هده الراوية من شعرهم ، راوية الصدور عن الرواية والتأنّي وسهر الليالي .

حُدْها ابنةَ الفِكر المهذَّب في الدُجى
والليلُ أسودُ رُقعة الجلباب

أو الصدور عن الطبع السلس المنقاد دون تعمـل او تصنع . وفرّق بين الحَوْلي المُحَكَّك وبين الشعر (بالألفاط العامية) الدي يكاد يكون شعبياً

وتحدث ابن حرم عن القسم الثالث تحت عنوان البراعة قال « هي التصرف في دقيق المعاني وبعيدها والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه ، وإصابة التشبيه ، وتحسين المعنى اللطيف . ورب هدا الباب من المتقدمين امرؤ القيس ومن المتأحرين علي بن عباس الرومي » .

والبراعة ليست قسماً ثالثاً للصاعة والطبع ولكنها صفة للشعر ، فهو يوصف به حين يحكمه صاحبه ويوفي به الشروط السابقة وهدا معنى قوله بعد دلك « وأشعار الناس راجعة الى الأقسام التي دكرنا ومركبة منها [3] » . وأحال من يريد التوسع في فن الشعر ، ومعرفة أقسامه ومختاره ، وأفانين التصرف في

١) التقريب لحد المنطق ص ٢٠٦ . ٢) التقريب لحد المنطق ص ٢٠٧ .
٣) رسائل ابن حزم ص ٨٠ .

محاسنه ، على كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، وكتب أبي علي الحاتمي ثم قال: ففيها كفاية الكفاية والإيعاب لهذا المعنى [1] .

ابن حزم والبلاغة .

في رسالة مراتب العلوم أشار ابن حزم إلى علم البلاغة وقال انه هو وعلم التعبير (تفسير المنامات) يكونان نتيجة لمجموعة العلوم — وكان ذكرهما بالترتيب — أو يكونان نتيجة اجتماع علمين فأكثر ونبّه ، على منهجه ، إلى الغاية من علم البلاغة وان المرء يستطيع أن يسلك به سبيلين : فإن صرفه صاحبه إلى الله عز وجل ، والى تبيين الحقائق وتعليم الجهال فهي فضيلة . واما ان صرفه في ضد ذلك خسرت صفقته اذ أتعب نفسه وأفنى عمره فيما هو وبال عليه ، ونعوذ بالله من البلاء [2] .

ودل في التقريب على أنه اطلع على كتاب أرسطو، وانه حاول تأليف كتاب في البلاغة (والنقد) ولكنه ترك ذلك حين علم بأن صاحبه ابن شهيد وضع في ذلك كتباً لأنه من المتمكنين من علم البلاغة الأقوياء فيه ، جداً [3] والبلاغة ليست كلمة جامعة تنطبق على كل لغة وهي « تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة » [3] . وعَرّف البلاغة فقال « البلاغة ما فهمه العامّي كفهم الخاصّي ، وكان بلفظ يتنبه له العامّي لأنه لاعهد له بمثل نظمه ومعناه ، واستوعب المراد كله ولم فيه ما ليس منه ولا حذف مما يحتاج من ذلك المطلوب شيئاً . وقرب على المخاطب به فهمه ، لوضوحه وتقريبه ما بعد وكثر من المعاني وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه وملاكُ ذلك . لاالاختصارُ لمن يفهم، والشرح لمن لا يفهم وترك التكرار لمن قيل له ولم يعمل ، وإدمان التكرار لمن لم يقبل أو غفل » [4] . فهو يقرر أن وضوح الكلام من أهم ما تتطلبه البلاغة ، وأضاف إلى ذلك حسن النّظم أي تأليف الكلام بعضه إلى بعض ، بحيث يصل إلى السهل الممتنع الذي يغري القارىء بمحاكاته ويوهمه ببساطته ، وهو يرى أن

١) التقريب لحد المنطق ص ٢٠٧ ٢) رسائل ابن حزم ص ٨٠ .

٣) التقريب لحد المنطق ص . ٢٠٤ . ٤) التقريب لحد المنطق ص ٢٠٤ .

البلغ يستطيع مراعاة مقتضى الحال فيوحر لبعض الناس ويسهب لبعضهم الآخر ، فلا بد من معرفة حال المخاطب قبل التوجه إليه بالعبارة .

الأساليب :

وقسم الأساليب الى قسمين كبيرين يتولد منها ثالث . « وهذا الذي ذكرنا ينقسم قسمين . أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون . ثم يحدث بينهما قسم ثالث آخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة كليلة ودمنة : ابن المقفع كان أو غيره . ثم بلاغة الناس تحت هذه الطرائق كما ذكرنا . . وقد كان أحدث ابن دَرّاج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل . وأما المتأخرون فإنا نقول لهم إنهم مبعدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتزيد ، حاشا الحاتمي وبديع الزمان ، فهما مائلان إلى طريقة سهل بن هارون » .

فهذه قسمة واضحة تشمل ما عرف إلى عهد ابن حزم من أساليب نثرية . وقد خص ابن دراج بطريقة خاصة في الكتابة ميز أسلوبها عما كان يعهد عند المشارقة والأندلسيين ، ووصم المتأخرين من الكتاب بالتزيد والصلف وهما يؤديان إلى إرهاق الأسلوب بما يظهر البراعة ويوهم بالبلاغة . ثم نصح أبو محمد من أراد التمكن من البلاغة أن يسهم في جميع العلوم ويأخذ منها بنصيب وأهم ذلك القرآن والحديث والأخبار وكتب الجاحظ . ومال إلى فكرة ابن شهيد . إن التوسع في العلوم (التعلم وكثرة المدارسة) لا ينفع اذا لم يعزز ذلك بطبع يساعد على أن يكون المرء بليغاً . وعرض أبو محمد في أثناء حديثه الى نظم القرآن وسأفرد رأيه في موضوع الإعجاز بفقرة تنتظم آراء الأندلسيين في ذلك .

الموارَدة

وأنكر ابن حزم ما يسميه النقاد (المُوارَدَة) فأحاديثها مفتعلة لا تصح أصلاً « والذي شاهدناه اتفاق شاعرين في نصف بيت ، شاهدنا ذلك مرتين من عمرنا فقط . وأخبرني من لا أثق به أن خاطره وافق خاطر شاعر آخر في بيت

كامل واحد ولست أعلم دلك صحيحاً[1] » . وأوّل أبو محمد ذلك على الإعارة والسرقة .

وهو يرى أن كثرة التشبيهات في البيت الواحد من دواعي حماله، ومن دلائل البراعة وحسن النظم . فلما أورد قوله :

أرعى النجوم كأنني كُلّفتُ أن أرعى جميع ثبوتها والخُنَّسِ
فكأنها والليلُ نيران الجوى
قد أضرمت في فكرتي من حندسِ...

قال . وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد ، وهو البيت الذي أوله فكأنها والليل ، وهذا مستغرب في الشعر ولي ما هو أكمل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد ، وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد

.. كأن النّوى والعَتْب والهَجر والرضى
قِرانٌ وأندادٌ ونَحس وأسعُدُ
... كأن الحيا والروض والمزن عاطراً
دموعٌ وأجفان وخد مُورّدُ

ثم قال ولي أيضاً أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد من هذه القطعة .

كأنّي وهيْ والكأس والخمر والدجى
ثرىً وحَيا والدر والتبر والسَّبج

فهذا أمر لا مزيد عليه ، ولا يقدر أحد على أكثر منه إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك[2] .

لقد حاول ابن حزم ان يضع قانوناً للشعر يلتزمه الشاعر ويعمل به القارىء، وأراد أن ينتهج منهجاً إسلامياً في نظرته الى الشعر موضوعياً وتطبيقياً ، ولكنه تجاوز حد الممكن بتشدده وتحجره ، وكانت الصورة أشد قتامة لأنه لم يفصل

١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي ١٠ ١٨٩ .
٢) طوق الحمامة ١٤ — ١٥

قوانينه ولم يمثل لها ، واحتج بشيء من القرآن والحديث دون أن يستقصي ، ولو فعل لجاء بمنهج أكثر سعة وقدرة على الاستيعاب

ابن حزم وموضوع إعجاز القرآن شغل موضوع إعجاز القرآن الكريم علماء الكلام منذ ان كان علمهم محاضرات في حلقات إلى ان وضعوا فيه الكتب وخصّوه بالمؤلفات وكان الهدف الأول هو تثبيت دلائل نبوة الرسول الكريم، وان القرآن من عنـــد الله . وكما أن لكل نبي معجزة فإن دلالة نبوة محمد ﷺ الكبرى هو القرآن. ولما كانت نبوته قد ختمت النبوات، وشريعته لازمة لكل الناس ، فيجب أن تكون الحجة بالقرآن قائمة على كل أحد ومن هنـــا شغلوا أنفسهم ببيان المعجز في القرآن . واختلفت التآليف بين ردود على المطاعن ودرء للشبهات، وبحوث مستقلة دار بعضها على أصول كلامية خالصة ، وبحوث مزجت بين علم الكلام وبين تطبيقات نقدية وبلاغية . وقد وجد العلماء ان الإعجاز يتجه وجهات كثيرة فمنه ما يتضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب ، ومنه ما ورد فيه من قصص الأولين مما لا يتسنى لأحد معرفته لولا اخبار الله تعـــالى ، ومنه ما في آياته من إعجاز بلاغي يقف دونه سائر البشر، على محاولاتهم ، الى وجوه أخرى وتفريعات كثيرة من هذه الوجوه .

ويهمنا أن نقف وقفات سريعة عند بعض الأمور المتعلقة المتعلقة بالإعجاز من الناحية البيانية فهي المخصوصة بالحديث . فقد قال القاضي أبو بكر الباقلاني في (إعجاز القرآن) [1] إنّ من وجوه إعجازه أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق منـــه . وفرع من ذلك فروعاً .

١) فهو خارج عن المعهود من نظام كلامهم كله .

٢) لم يطرد للعرب كلام فصيح كهذا بمثل طوله وقدره .

٣) عجيب نظمه لا يتفاوت ولا يتباين .

٤) نظم القرآن وقع موقعاً يخرج عن عادة كلام الجن وكلام الانس .

(١) إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني - تحقيق سيد صقر - نشر دار المعارف بمصر .

٥) أسلوبه خاص ، وقريب الى الفهم ، بعيد عن الوحشي والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة ، الى غير ذلك ، فهذه أسباب ترتبط كلها بالإعجاز من الوجهة البيانية [١] . وهي صدرت عن رأس من رؤوس الأشعرية يحاول أن يلتمس شرحاً لمعنى الإعجاز البياني .

وقال القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه (إعجاز القرآن) : واختلف العلماء في وجه دلالة القرآن فمنهم من جعله معجزاً لاختصاصه برتبة في الفصاحة خارجة عن العادة .. ومنهم من قال لاختصاصه بنظم باين المعهود عندهم صار معجزاً . ومنهم من جعله معجزاً من حيث صُرفت هِمَمُهم عن المعارضة وإن كانوا قادرين متمكنين . ومنهم من جعله معجزاً لصحة معانيه واستمرارها على النظر وموافقتها لطريقة العقل [٢] . والكتاب كله مناقشات كلامية وبيانية تتناول مسألة الإعجاز من وجوهها .

وقد رد على فكرة « النظم المخصوص » فقال إنها مردودة ، لأنه كان يجب لو أتى بعضهم بطريقة من النظم ركيكة ، لم يُستَق إليها أن يكون معجزاً . . فلا بد من أن يعتبر مع الطريقة الرتبة في الفصاحة[٣] وناقش فكرة الصرفة ، فقال ان كان المقصود أنهم انصرفوا عن معارضته لتعذر ذلك عليهم وعجزهم عن مجاراته مع توفّر الدواعي فذلك مقبول . وأما إن كان المراد أنه تعالى صرف هممهم عن ذلك — وبعض من يقول بهذا يفرع أنهم كانوا يقدرون على مثله لو لم يُصرفوا — فقولهم غير مقبول ، لأن القاضي كان قدّم أنه لا يصح الصرف بهذا المعنى مع وقوع التحدي ، إلى أسباب أخرى وأجمَلَ — بعد تفصيلٍ طويل — الفقرة الأولى من عبارته المتقدمة وكرر أنهم لم يعارضوه لتعذّر ذلك عليهم ، وسبب ذلك اختصاص القرآن الكريم « بمزية خارجة عن العادة ، ليُعلم بذلك أن القدر الذي جَرت العادة من العلوم التي معها يمكن إيقاع الكلام الفصيح ، لا يمكن معه إيجاد القرآن في رتبة الفصاحة [٤] » .

١) إعجاز القرآن للباقلاني ٣٤ – ٤٦ .
٢) إعجاز القرآن للهمداني ، ٣١٨
٣) إعجاز القرآن للهمداني ٣٢١ .
٤) إعجاز القرآن للهمدانى ٣١١ .

وفي الأندلس نجد أبحاثاً في موضوع إعجاز القرآن وإن لم تصطبغ بمثل ما كان في المشرق من حدة وتشعب. ذلك أن المشرق زخر بالأديان المختلفة، فإنه بالإضافة إلى أهل الكتاب كان الصابئة والمجوس، وزخر بالفرق المتباينة بين معتزلة -وهم شعب- وأشعرية، وما تريدية وغيرهم. وكانت المناقشات تتجه إلى الرد على المطاعن من غير المسلمين من جهة، ومداولة الرأي -على اختلاف طبقات المداولة- فيما بين الفرق الإسلامية نفسها -وكان وقوف مفكري الأندلسيين أمام غير المسلمين أشد وضوحاً، فقد كانت طبيعة الحياة في الأندلس مختلفة. وكان العداء مع النصارى -بخاصة- مسرحاً سافراً، لا يكاد يسمح بالمناقشات العقلية الهادئة، وإن كان ذلك فلسان حادٌّ يجمع بين الدحض بالحجّة والتسفيه الهازىء، من ذلك كتاب مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان [1]. ومنه مناقشات أبي محمد ابن حزم الطويلة في الفصل.

ومنها كتاب تنزيه القرآن عما لا يليق به من البيان لابن مضاء، ذكره الرعيني [2]، ونقل ابن الأبار اسمه [3] وقال إن ابن خروف رد عليه -وهو نحوي مشهور- وهذا الكتاب كما يبدو من الكتب المفقودة والأرجح أنه داخل في موضوعنا، ونتوقع أن يكون متعلقاً بإعجاز القرآن وتفسير ذلك، والحديث عن بيانه، وكونُ الذي رد نحوياً لغوياً يقوي ذلك الترجيح.

موقف ابن حزم: تعرض ابن حزم للأساليب النثرية العربية في التقريب لحد المنطق -كما تحدثت في ترجمته- ولما وصل إلى القرآن الكريم قال «وأما نظم القرآن فإن الله تعالى مَنَع من القدرة على مثله، وحال بين البلغاء وبين المجيء بما يشبهه». وهذا كلامٌ لا بد من عرضه على حيث فَصَّل في الموضوع ذاته في كتابه الفِصَل وقد تحدث عن الإعجاز هناك في موضعين أحدهما في الجزء الأول والآخر في الجزء الثالث. وكان في الجزء الأول يتحدث عن نبوة محمد ﷺ ويحاجج اليهود والنصارى. ثم انتقل إلى الحديث عن الإعجاز-باعتبار

١) الكتاب لمؤلف أندلسي أفاد من ابن حزم (مخطوطه). ٢) برنامج شيوخ الرعيني ٥٢
٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد بن حزم (ط مصر) ١ ٨٩ .

ذلك تعريفاً من الموضوع – فتحدث عن تحدّي القرآن للعرب ، وعن عجزهم عن مجاراته رغم محاولتهم ، ووقوفهم حيرى بعد أن أفحمهم ، ولو كانت معارضة القرآن ممكنة لهم لظهروا بحجتهم ووفروا على أنفسهم الحرب والقتال والتعرض للموت والأسر والسبي .

١ – قال إن العرب حاولوا معارضة القرآن . وجاؤوا بكلام وقع من التهافت والسخف بحيث يجعل صاحبه أضحوكة ، وإن المحاولات لم تقتصر على عصر النبوة فحسب . ومثّل لذلك بمسيلمة الحنفي الكذاب ، وعقّب بحادثة وقعت بينه وبين أديب يمت إليه بصلة صداقة أو معرفة ، قال « وقد تعاطى بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه ، فقلت له اتق الله على نفسك ، فإن الله تعالى قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبنك الله هذه النعمة ، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك . فقال لي . صدقت الله ، وأظهر الندم والإقرار بقبحه » [1] .

وفي هذا الكلام وجه لطيف ، ذلك أن ابن حزم أدرك أن معارضة هذا الرجل ستكون ساقطة لا محالة ، ولكنها لن تسيء إلى الكلام المعارض به فحسب بل ان الإزراء سيطلي على كتاباته عموماً ، فيكون ذلك سبباً في سقوطها عند الناس جملةً أيضاً وهذا الرأي واضح في أن العرب حاولوا معارضة القرآن الكريم ، وجاؤوا بكلام يتناسب مع درجة بلاغتهم هم ويبلغ أقصى مراتب قدرتهم ، فإذا قيس بالقرآن أو وضع إزاءه ظهر سقوطه وعادت بلاغته (النسبية) أضحوكة وسخرية . وهذه الفقرة تفسر قوله قبل « ان الله تعالى منع من القدرة على مثله » .

٢ – وناقش فكرة أخرى ، فإن جماعة يرون أن الاعجاز جاء من حيث أن القرآن في أعلى طبقات البلاغة ، وردّ هذا الوجه بنصف « وقوله . في أعلى طبقات البلاغة ، داع الى اللبس » وقد شرح هذه العبارة ومثّل لها ليبين المقصود والفكرة التي يناقشها هي الفكرة نفسها التي أوردها للقاضي الهمداني

---

١) الفصل ٣ : ١٦ ٠

رواية عن شيوخه وردها بردودهم ، وهي قول بعض الناس إن الاعجاز جاء من حيث أن القرآن له « نظم مخصوص » أي أن عدم محاراته آتٍ من وجه أن العرب لم يعرفوا نوعه فعجزوا عنه . وقال ابن حزم في رده على هذا « إن هذه صفة كل ناسق في طبقته ، والشيء الذي هو كذلك وان كان قد سبق في وقت ما فلا يؤمن أن يأتي في غد ما يقاربه بل ما يفوقه » ولكن ابن حزم أتبع ذلك بقوله في تتمة الفكرة « وقد بيّنا في غير هذا المكان أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس لأن فيه الأقسام التي في أوائل السور والحروف المقطعة التي لا يعرف أحد معناها ... » . وينبغي أن نوجه كلام ابن حزم ، وغرضه العام . ذلك أنه يشوء مصطلحاته بنفسه ... فقوله إن القرآن في « أعلى طبقات البلاغة » شيء آخر غير قوله « ليس من نوع بلاغة الناس » ، وقد رد الأولى لأنها تعني — كما يرى — انه اذا كان القرآن في أعلى طبقات البلاغة فقد يستطيع أحد يوماً أن يصل اليها . ولكنه ليس من نوع بلاغتهم أصلاً ، فكأن ابن حزم يقول هنا بفكرة « النظم المخصوص » التي ردّها عند الجبار ومدرسته بأن هذا غير واقع ، لأن القرآن لو كان من غير بلاغة العرب لم يعد معنى للتحدي ، ولكنه على قدر من الفصاحة لا يمكن أن يصل إليه بشر .

٣ — وفي كتاب ابن حزم جُمَل تدل على انه يقول بالصّرفة قولاً صريحاً ، منه أن الاعجاز إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ، ورفع عنهم القوة في ذلك جملة (١) وقد أكد هذه الفكرة مرة أخرى في الجزء الثالث وأصرّ عليها لأنه توهم أنه لو قال بالاعجاز البلاغي فحسب سيتفرّعُ من كلامه أن الإنسان البليغ جداً قد يصل الى مثله لو لم يمنعه الله ، فهذا المنع هو المعجزة (٢) .

٤ — وعاد ابن حزم الى « الكلام في اعجاز القرآن (٣) » ثانية ، وبنى على ما كان ذكره في الجزء الأول ، وذكره وجوه الاعجاز عند المسلمين الى عصره — أو الشائع عنده منها — وناقش ما روي عن الأشعري من ان المعجز

١) الفصل ١ ١٦ — ١٠٧ ٢) الفصل ٣ ١٨ — ١٩
٣) الفصل ٣ ١٥ .

المتحدّى به ، هو الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يزله الينا ، قال أبو محمد ، وهذا كلام في غاية النقصان والبطلان ، اذ من المحال أن يكلّف أحد أن يجيء بمثل لما لم يعرفه قط ولا سمعه [1] ... وقد رد عبد الجبار هذا الوجه وأبطله .

٥ – وناقش فكرة أخرى : الإعجاز متماد مستمر مع الزمان أم ارتفع بعد ظهور الحجـة على العرب في حياة الرسول ﷺ ؟ وروى الوجهين ثم قرر مع جمهور أهل الاسلام أن الاعجاز باق الى يوم القيامة والآية بذلك باقية أبداً [1].

٦ – ونقل اختلاف بعض أهل الكلام . ما المعجز من القرآن : نظمه أم نصه من الإنذار بالغيوب وما أدري لماذا قرن الفكرتين معاً وحمـل المفاضلة بينهما مع انه يمكن مناقشة كل فكرة وحدها ، ولكنه كما يبدو مهتم بالرد على الشائع لعصره . وقال ان بعضهم لا يرى الإعجاز الا بالنص على الغيوب وأن سائر أهل الإسلام على أن كلا الأمرين معجز : نظمه وما فيه من الإخبـــار بالغيوب ، وهذا هو الحق الذي من خالفه فهو في ضلال [1] .

٧ – وعاد ابن حزم الى مناقشة مسألة وجـــه الإعجاز : كونه في أعلى مراتب البلاغة أم المنع من القدرة على مثله ؟ وأورد حجة القائلين بالوجـه الأول بأن الإعجـــاز لو كان بالمنع فقط لكان يجب أن يكون القرآن أغث ما يكون وتكون حجة المنع أبلغ . وناقش حجتهم بعنفه المعهود .

١) لو كان في أعلى درج البلاغة – فحسب – لأمكن لكل سابق أن يبلغ درجته .

٢) ان الله أعجز الناس بهذا القرآن وهو لا يُسأَل عما يفعل .

٣) حجتهم تلك يلزمهم فيها أن يبحثوا أمر الاعجاز أهو للعرب فقط أم يعمهم العرب والعجم ؟

٤) وناقش وقوفهم عند الاحتجاج بمثل آية (وَلَكُم في القِصاصِ حَياةٌ) دلالة على الاعجاز ، وطالبهم بالوجه الذي رأوه في الآيات الأخرى من الكتاب

---

١) الفصل ٣ . ١٦ .

كله، وعمهم لأن هذا يؤدي إلى أن بعض آيه معجز وبعضه الآخر ممكن اللحاق به . وأتسع الحديث بوجه آخر يتفرع منه وهو : ما مقدار المعجز من القرآن الكريم ؟ فقالت الأشعرية ومن وافقهم ان المعجز انما هو مقدار أقل سورة منه وهو . (إنّا أعطيناكَ الكَوثَرْ .)فصاعداً . وذهب سائر أهل الاسلام الى أن القرآن كله قليله وكثيره معجز ، وهذا هو الحق الذي لا يجوز خلافه ، ولا حجة لهم في قوله تعالى : (فأْتوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) لأنه تعالى لم يقل ان مادون السورة ليس معجزاً[1]. ووجدي القول بالصرفة متنفساً في هذا الموضوع. اذا كان الاعجاز مقدار سورة الكوثر أينبغي اذن ما هو أقل عدد آيات أو كلمات أو حروف ؟ . وقارن بين الآية الكريمة (وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ) وبين الثانية (وأوحينا إلى ابراهيمَ واسماعيلَ واسْحاقَ ويعقُوبَ والأسباطِ وعيسى أيوبَ ويُونُسَ وهَارُونَ وَسُلَيْمان .) وقاسها على مقياسهم من عدد الكلمات والحروف . فهذه الآية أكثر من سورة الكوثر حروفاً ، وآية القصاص أقل منها ، فهل الآية الثانية أبلغ في الإعجاز من الأولى ؟ وخرج من مقايساته وقد أطال فيها – الى أن معجزة القرآن لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك .وعاد ثانية الى القول بالصرفة .

ابن عطية الغارني[2] ومقدمة تفسيره . وضع أبو محمد بن عطية كتاباً في التفسير سماه المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز[3] ، وبدأه بمقدمة في شيء من علوم القرآن ، ومن جملة المقدمة فقرة عنوانها نبذة مما قاله العلماء في إعجاز القرآن ، وهي صغيرة . وبرغم عنوانها فانه شارك في الرأي وناقش بعض الاقوال ، فأورد ما قيل في الوجه الذي وقع به الإعجاز . فمنهم من قال إن التحدّي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يُطاق وفيه وقع عجزها . ومنهم من جعله بما في القرآن من الأنباء

١) الفصل في الملل والاهواء والنحل ٣ ١٩
٢) طبعت مقدمة تفسيره في القاهرة (نشرها آرثر جفري في « مقدمتان في علوم القرآن » . وهي مليئة بالتصحيفات .
٣) وجدت إلى نسخة منه في دار الكتب برقم . ٢٥٠٣١ ب .

سادقة والعيوب . وعقب على هذين الوجهين بأنهما يتوجهان الى من أقر بنبوّة
مد ﷺ دون سواه .

وميّز بين ما يثبت إيمان المؤمن ويوضح قناعته بالأدلة ، وبين ما يفحم الكافر
عجزه ويكون حجة عليه ؛ فكفار العَرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن
سف القرآن أو نظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد ﷺ . فاذا تُحُدّيت بمثل
لك وعجزت فيه علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر
إتيان به ، إلا أنْ يخص الله تعالى من يشاء من عباده [1] وقال ان هـذا هو
أي الجمهور، ومذهب الحُذّاق، وأنه الصحيح وأوضح موقعه وحدد الكلام،
ب التحدي انما وقع بنظمه ، وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه . ووجه
عجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً فاذا
رتبت اللفظة من القرآن ، علم باحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين
لمعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره . وخرج من إثبات كون
لقرآن معجزاً بنظمه، وفصاحته التي لا يمكن أن تجارى إلى نقض القول بالصرفة
ستناداً الى ما قدم .

« ... فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر
بطل قول من قال . ان العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء
محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه . والصحيح ان الاتيان بمثل هـذا
القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ... ». وضرب الأمثال فقال انه لو
نزعت آية من سورة أو كلمة من آية لم يستطع أحد مهما بلغت فصاحته أن يجد
غير تلك الكلمة بديلاً . واحتجّ بموقف عرب الجاهلية مثل الوليد بن المغيرة
حيث قال إن القرآن ليس بالشعر ، وكانوا قد لهجوا بذلك وجعل منزلة الحجة
بالقرآن بمنزلة معجزة عيسى بالأطباء وموسى بالسحرة . وقامت الحجة على العالم
بالعرب اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة

1) المحرر الوجيز ٨ / و .

الباب الثالث

مقالات وآراء نقد

تسهيل السبيل

للحميدي

رسالتان نقديتان

الانتصار

لابن السيد

المقامات اللزوم

رقسطى

أبو اسحاق بن خفاجة في مقدمة ديوانه

الذخيرة

لابن بسام

عنوان المرقصات والمطربات

لابن سعيد

في المقصد الثاني قسمان .

الأول : مقالات وآراء نقدية .

والثاني . كتب نقدية .

وسأعرض فيهما لمجموعة من الآراء النقدية ، والكتب المستقلة في النقد الأدبي في الأندلس . وإنما عرضت هذين القسمين في ازدهار الحركة النقدية لأنـي اعتبرت أن النقد بعد ابن شهيد وابن حزم دخل في مرحلة جديدة ، فقد فتحا الباب واسعاً للرأي مبنيّاً على أسس شخصية ذوقية حريئة كالذي بدأ به ابن شهيد ، أو قائماً على أسس موضوعية ، بغضّ النظر عن قيمـة تلك الأسس وفاعليتها

وقد جمعت في القسم الاول عدداً من الموضوعات سميت بعضه مقالات لانه لا يعدو أن يكون في شكله رسالة صغيرة ، أو مقامة ، أو رداً من الردود ، أو مقدمة لكتاب ، أو مجموعة أفكار مشوثة في كتاب غير مخصص للنقد ، فهذه الموضوعات لا تعدو أن تكون مقالات أو آراء لا بدّ من العرض لها لنلمّ بصورة متكاملة بما آل اليه أمر النقد في هذه المرحلة . وقد جمعت هـذه الموضوعات في نسق واحد ، وسأعرضها تباعاً

تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل

للحميدي (*)

هو أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيدي من أهل جزيرة ميورقة بالاندلس . عالم محدث أديب أخذ عن جماعة في الاندلس منهم أبو محمد ابن حزم فقد اختص به الحميدي ولازمه مدة طويلة ، وقرأ عليه مصنفاته ، وأكثر من الأخذ عنه ، وشهر بصحبته [١] وغادر الاندلس سنة ٤٤٨ ونقل الذهبي في سير أعلام النبلاء عن القاضي عياض أنه كان يميل الى قول ابن حزم الظاهري ، ولما شُدِّد على ابن حزم خرج الحميدي الى المشرق[٢] فسمع بافريقية ومصر ، وحجّ فسمع بمكة المكرمة ثم بالشام والعراق ، واستوطن بغداد . واستمر هناك الى أن توفي سنة ٤٨٨ ، وكان مولده قبل ٤٢٠ . ووصفه الذين ترجموا له بالورع والزهد وحسن الخلق والانكباب على العلم ، وله .

لقاءُ الناس ليس يُفيد شيئاً   سوى الهَذيان من قيل وقالِ
فأقلل من لقاء الناس إلاّ   لأخذ العلم أو إصلاح حالِ [٣]

وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته واتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته [٤] . وألف كتباً ضاع بعضُها وسلم بعضها مثل الجمع بين الصحيحين ، وتفسير غريبها ، وكتاب في تاريخ الاسلام ، وجذوة

(*) انظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال (ط العطار) ٢ . ٥٣٠ — ٥٣١ . بغية الملتمس للضبي ص ١١٣ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣ ٤١٠ — ٤١٢ ، نفح الطيب للمقري ٢ ٣١٤ — ٣١٦ ومعجم الادباء لياقوت ١٨ ٢٨٢ والمغرب ٢ ٤٦٧ وانظر مقدمة جذوة المقتبس وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢ / ١ الورقة ٢٧ — ٢٩ و Brock G I 368, S I 578

١) النفح ٢ ٣١٤   ٢) سير أعلام النبلاء الورقة ٢٨
٣) الصلة ٢ . ٥٣٠ — ٥٣١ .   ٤) النفح ٢ . ٣١٤

المقتبس [1] . ومنها كتاب اسمه (تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل) . وسماه في نفح الطيب (تسهيل السبيل الى علم الترسيل) . وسماه الذهبي (كتاب الترسل) ، ولا يسوغ التشكيك الذي ألقاه محقق كتاب جذوة المقتبس حول هذا الكتاب [2] . ومنه نسخة خطية في ٥٤١ صفحة من القطع الصغير بدار الكتب ، مصورة بالفوتوستات (برقم ٢٣٥٠ أدب) عن نسخة أصلية بتركيا (طوبقبو سراي) .

كتابه .

وضع الحميدي كتابه ليضع بين أيدي المتعلمين أمثلة يحتذونها إن أرادوا إحكام فن الخطابة أو الكتابة ، فنوّع في أمثلته لتشمل الأغراض الإخوانية والسلطانية ، وجعله في مقدمة وثمانية أبواب ، الأول في مثالات أدعية الأوقات (ستة عشر فصلاً . وأمثلتها خمسة خمسة وهكذا هي في سائر فصول الكتاب). الثاني في أمثلة اللقاء وتصنيف أهله في الدعاء الثالث في شذور التهنئة بأحوال السرور . الرابع فيما يجري مجرى تسلية المحزون الخامس فيما يقال عند ارادة الأفعال . السادس في أسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد السابع في أمثلة أصناف التعزية . الثامن في مفردات نوادر المخاطبات وتختلف فصول الكتاب طولاً وقصراً . وقصد من هذه الفصول إلى تكون « قوانين لمن أراد تحسين لفظه وتقويم لسانه ومداراة أهل زمانه بحسن التلقي لهم وجميل التحفّي بهم ، فيقوى بذلك لسانه إن خاطب ويتسع فكره إن كاتب .. » [3] . أما المقدمة فلخص المقصود منها بثلاثة أمور . الاول الكلام في حد البلاغة والبيان والفصاحة والكتابة والظرف والأدب والثاني في ذكر آلات الامتثال ، وما تحتاج إليه صناعة البيان بتلويح يثير طبائع المريد ويذكي خواطر المستفيد ، فيطلب مظانّ الازدياد ويجول في ميادين الارتياد . والثالث في الوصية بالمداد والقلم والورق ، وقال إنّ في هذا كمال الباب وجمال الكتاب .

١) مقدمة الجذوة ٩ . ٢) مقدمة الجذوة ٩ ٣) تسهيل السبيل ص ٢ .

باب التعريفات . بدأ بتعريف البلاغة فقال إن الناس تكلموا في كثيراً ومعانيهم في ذلك متقاربة ، ثم اختار تعريفاً لبعض شيوخه وعلل اختياره بكمال لفظه واستيعاب حدّه والحق أن هذا الشيخ هو استاذه ابو محمد بن حزم . فقد نقل الحميدي عبارة أبي محمد عن البلاغة [1] من التقريب لحدّ المنطق من صفحتي ٢٠٤ و ٢٠٥ ونقل فقرة النص نفسه في موضع آخر [2]، فأكمل نقل كتاب البلاغة من التقريب . ولا نستغرب إغفال الحُميدي ذكر اسم استاذه ، فلربما أعمله في زمان — او مكان — اشتد فيه الإنكار على ابن حزم وقد سلق بعضَ رؤساء المذاهب والفِرَق — وفيهم الأشعرية والمعتزلة — بألسنةٍ حداد ونقل المقري ، وهو مؤدّى ما في سير أعلام النبلاء ، انه تتلمذ على ابن حزم وصار على مذهبه إلا أنه لم يكن يتظاهر به [3] . وسنرى ان الحُميدي ذكر أبا عامر بن شهيد في المقدمة نفسها ، مما يؤكد أن الناقل هو الحُميدي نفسه تلميذ ابن حزم .

ونقل تعريفات أخرى ، وأشار الى أن البيان قد يكون بياناً بلفظ وبخط ، وبإشارة ، على نحو ما ذكر ابن عبد ربه في العقد ثم قسم البلاغة ثلاثة أقسام . بلاغة خطبية ، وتأليفية ، ورسائلية . وقسمها بين جد وهزل فالخطبية جد محض ، والتأليفية تقرب من الخطبية وهي جد وهزل ، والرسائلية ، سلطانية ، وهي جد ، وإخوانية وهي جدّ وهزل ، ورقيق وهي رسائل المتغزلين ، وهي هزل محض. ومعروف تقسيمهم النثر الى خطب ورسائل [4] ، فقد تابع ابن حزم ذلك ثم قال ان ابن دراج أحدث نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل [5] .
ثم عرّف الحميدي كل نوع من هذه الأنواع فالخطابة هي القوة على إيراد الكلام في الدعاء الى الأغراض ، ونصر ما قصد المتكلم نصره في محافل الجماعات . . بذهن حاضر وجنان ثبت ولسان جريء وبديهة سريعة والبلاغة التأليفية هي القوة على شرح المستغلق وتقريب البعيد وتصوير المقاصد وإيضاح الحجج . .

---

١) نفح الطيب ٢ / ٣١٤ . ٢) تسهيل السبيل ٩ . ٣) نفح الطيب ٢ ٣١٤ .
٤) الصناعتين للعسكري ١٢٠ . ٥) التقريب لحد المنطق ٢٠٥

وتقسيم المعاني وبيان أوصاف الأشيـــاء الموجودة . والبلاغة الرسائلية هي حُسن التوّصل إلى استمالة المخاطب وتسهيل ما صعب على المراسل [1] .

وتحدث عن الفصاحة ، وميّز بينها وبين البلاغة ، فحدُّ الفصاحة هو تخير الألفاظ المتمكنة من دقائق تصاريف المعاني التي لا تعرفها العامة ولا يخفى عليهم مع ذلك فهمها ، مع التوسع في اللغة وعدم اللحن ومعرفة الأسماء المترادفـة في اللغة [٤] . وفضل أن تكون الألفاظ ممّا لا تستعمله العامة ولا أكثر الخاصـة دون أن يبعد عن أفهامهم ، وألا تستعمل الالفاظ المعهودة المتبذلة إلا حيث لابد منها . وتشترك الفصاحة والبلاغة في القوة على إيراد المعاني الغامضة التي تصعب العبارة عنها على أكثر الناس .. وتنفرد الفصاحة عن البلاغة بالتصرف في اللغة والاشراف عليها ، وتنفرد البلاغة بالقوة على استيفاء جميـع شُعَب المعنى حتى لا يشذّ شيء من أقسامه ووجوهه . والبليـغ محتاج إلى جميع العلوم . والفصيح قد يكون في الأغلب بدوياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا طالع قط شيئاً من العلوم [٢] . وقد حاول الحُميدي أن يفرق بين الفصاحة والبلاغه اصطلاحاً ، وقال ان الفصاحة ممكنة في المتعلم والأمي ، فهي القدرة على التّعبير الجيد عن المعاني التي يتلكأ في التعبير عنها العامة وبعض من الخاصة . وميز الفصيح بالتصرف في اللغة. وأراد ان يضع حداً فاصلاً واضحاً بين الفصاحة والبلاغة الى خطبية وتأليفية ورسائلية — وهي هنا بمعنى النثر البليغ — ونقل في تعريف البلاغة قول بعضهم إنها إيصال المعنى الى القلب في حسن صورة من اللفظ ، ثم عقب . وهذا هو حد البيان نفسه [٣]. واشترط في البليـغ ما اشترطه ابن حزم من الإفادة من كل العلوم لتتم للمرء أطراف البلاغة . وقد أكثر النقاد والبلاغيون من تعريف الفصاحة والبلاغة ، ونقلوا في ذلك وجوهاً كثيرة [٤] . ونقل ما قاله ابن حزم في اختلاف البلاغة بحسب اختلاف اللغات والأزمان [٥]، ثم نصح بمخاطبة الناس على أقدارهم، وباعتبار مراتبهم ومدى أفهامهم ، وهي فكرة قديمة .

١) تسهيل السبيل ٧ .   ٢) تسهيل السبيل ٨ .
٣) تسهيل السبيل ٨ – ٩   ٤) تسهيل السبيل ٤ – ٥ .   ٥) الصاعتين ٣٩

الكتابة :

وعرف الكتابة بأنها التصرف في معاني الخطاب ومقابلة كل طبقة بما يؤثر في أنفسها ويستميل خواطرها مع جودة الخط . فإذا انضاف الى ذلك سرعة الخاطر وقوة البديهة كان أتم لما تقتضيه الصناعة وتوجبه الرتبة [1] . وطالب الكاتب بثقافة واسعة وقال إنه لا بد له من أدوات العالم وإلا ظهر نقصه. ثم قال ان الظرف ضروري لأنه يجمع الملح ويوردها في أوقاتها ، وهذا له اتصال لا غنى عنه بالعربية . وكأنه يشير الى ما كانوا يملؤون به كتبهم الجامعة من طرائف وملح تنشط القارىء كما قال الجاحظ وأنهى الباب بذكر العِلم وعرفه بأنه الانبساط في رواية ذلك العلم الذي يختص به العالم ، وهو يعني التخصص العلمي في فرع من فروع المعرفة

باب ذكر آلات الامتثال . ويعني بهذا الباب الأمور التي ينبغي للكاتب أن يتقنها ليكون كلامه على شيء من البلاغة وقدر من الفصاحة ، فإنه لا بد له من معرفة النحو بحيث يمتنع عن الوقوع في اللحن ، والاشراف على لغة العرب بحيث يحسن التصرف ويبتعد عن التكلف ولا بد له من الوقوف على قدر كاف من نوادر البلغاء وكلام الفصحاء ليفيد من استعمالاتهم في المعاني والالفاظ ، فمن أتقن ذلك وتمكّن منه استطاع أن يمتثل المنثور فيجعله منظوماً ، ويمتثل المنظوم ويجعله منثوراً ، فيخفى على العامة وأكثر الخاصة من أين أخذ [3] ! وهو في نصائحه هذه اتفق مع النقاد والأدباء في وجوب إتقان الآلة قبل التصدّر للكتابة أو الشعر . وهو في فكرة الأخذ متابع ما رأيناه عند ابن عبد ربه وعند ابن شهيد من تسويغ الأخذ، وبخاصة اذا انتقل الآخذ بالمعنى من موضوع الى آخر، أو غيّر القافية . وتابع الحميدي فكرته فقال وربما أجادوا الأخذ وأحسنوا الامتثال بحكمة السبك وجودة الصوغ، وإبداع التصوير وحسن الزيادة وتوشيح المعنى بما يتصل به وينضاف إليه، واستيفائه لجميع ما تشتمل أذيال ذلك الغرض

١) تسهيل السبيل ٩ ٢) تسهيل السبيل ١١ – ١٢ .
٣) تسهيل السبيل ١٥ .

عليه حتى يكونوا أحق بذلك المعنى من السابق اليه[1] . وهذه فكرة سيؤيدها ابن بسام أيضاً كما سنبحث بعد .

والباب الثالث في مقـــدمة الُحميدي هو باب ذكر الوصاة بالمداد والقلم والورق [2] . ونقل عن أبي عامر الشهيدي وقال انه وضع في الوصـــاة بالمداد والورق وتحسين اللفظ (الخط ؟) مثالاً . ونقل شيئاً منه وقد دأب الذين كتبوا في موضوع أدب الكاتب على إضافة هذا الباب الى كتبهم ليكملوا به ثقافة الكاتب وآلته ، فقد كانت للكاتب آداب ومراسم يستحسنون أن يترسمها ويفصلون مَن أجادها على من أهملها من تسوية البطاقة وانتقاء المداد والورق والقلم وكيفية الكتابة به ، وأنواع الخطوط وطرائق مخاطبة كل ذي منصب بمقداره الخ . وسنعرض لهذا عند دراسة كتاب احكام صنعة الكلام ففيه فصل عن ذلك .

وهذه المقدمة القصيرة التي صَدّر بها الحميدي لكتابه قد لا تقسم جديداً من رأي نقدي أو ملاحظة دوقية خاصة فكل ما فيه او معظمه من المتقدمين عليه مشارقة أو أندلسيين. ولكنا نتبين منه بوضوح تأثير ابن شهيد وابن حزم في آرائهما النقدية وملاحظاتهما عن النثر وأساليبه ، والبلاغة وأقسامها . فقد اتكأ الحميدي بوضوح على ابن حزم وابن شهيد — ولم يذكر اسم ابن حزم للعلة التي رجّحناها . وإذا كان تأليف الكتاب في المشرق ، وهذا هو الراجح عندي [3] ، فإن المعنى الذي أردته أشد وضوحاً ذلك أنه في دخوله الى المشرق سيجد كتب النقاد المشارقة مطروحة في أيديهم ، فاذا ألف لهم كان احتجاجه بالمشارقة أقرب الى غرضه التعليمي الذي أشار اليه ، ولكن أخذه بآراء الأندلسيين يدل على تمكنها منه ، حتى بعد رحلته واستقراره هناك وهو يدل على اتصال آراء الاندلسيين بعضها ببعض .

١) تسهيل السبيل ١٥ . ٢) تسهيل السبيل ٢٥ — ٢٦ .
٣) ذكر مناسبة فيضان النيل في إحدى فقرة .

أبو محمد بن القاسم وأبو عبد الله بن أبي الخصال

ذكرت في فصل سبق ما كان جرى عليه الأندلسيون من الاهتمام بالادب المشرقي وتلقفه وتقليده والنقل عنه . فكان مبدع الأندلسيين يبدع ويخترع ، ومقلدهم يتلقى ويحاكي . لم ينقطع هذان التياران إلى أن قضى الله على تلك البلاد بالمحنة ، وتغير وجه الارض فيها . وكانت متابعة الادباء وأساليبهم النثرية لا تقل عن متابعة الشعراء ومحاكاتهم ، فهم واكبوا الحركة الادبية كلها . شعراً ونثراً وتأليفاً ونقداً . ومن ذلك أنه لما نشأ في المشرق بديع الزمان الهمذاني انتقلت مقاماته بسرعة ، وشاعت بينهم ولم يخفف من أثرها إلا ظهور الحريري بعده ، فعطف — فيما بعد — عليه وأخذ مكانه عندهم ، وقد سبقت الإشارة الى هذا في الحديث عن الشريشي .

وبين يدي رسالتان نقديتان، كتب إحداهما أبو محمد بن القاسم [1]، والثانية أبو عبدالله بن أبي الخصال [2] . والرسالة الثانية رد على الرسالة الاولى ومناقشة لها ، ومناقضة ، ومن هنا قرنّا الاثنتين في حديث واحد .

وابن القاسم هو الامير أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبدالله بن القاسم الفهري ، كان على حصن البونت من أعمال بلنسية إلى أن أخذه منه المرابطون سنة ٤٨٥ ، أسوة بما آلت اليه إمارات الطوائف آنذاك . كان على حظ من الشعر والنثر ، وكانت بينه وبين بعض معاصريه مكاتبات ومطارحات . وترجم له الفتح في

---

(١) ترجم له الفتح بن خاقان في القلائد ١٢٧ — ١٣٢ وابن سعيد في المغرب ٢ ٣٩٦ — ٣٩٨ ونقل عن المسهب أيضاً وانظر المراجع عن بني القاسم في المغرب في ترجمة حصن البونت.

(٢) ترجمته في قلائد العقيان ١٧٤ — ١٨١ وبغية الملتمس صفحة ١٢١ والمطرب ص ١٨٧ — ١٨٨ وبغية الوعاة للسيوطي ١ . ٣٤٣ — ٢٤٤ ومعجم شيوخ الصدفي لابن الأبار ١٤٤ والصلة ٢ ٠ ٥٥٧ .

و Brock G I 454 , S 1 629

القلائد [1] ولقبه بالوزير الكاتب ، وعنون له ابن سعيد بالأمير [2] . ومما قال الفتح « رجل زهت به الرياسة والتدبير ، وحمل دونه يلملم وثبير . ووقار لا يستفز ولو دارت عليه العقار . إذا كتب باهت البدر رقعته وقرطست أفئدة المعاني برعته . وصحبته الدولة في مغربها واطلعت شمسه في مشرقها فأظهر جمالها وعطر صباها وشمالها . « ثم عرض لمحنته وزوال ملكه ، وذكر أن السلطان أزعجه فاختار سلا في المغرب ، ولكن بعض أصحابه القدامى انقضوا عنه مخافة السلطان . وأثنى ابن خاقان على نثره وكتابته، وأورد له نماذج من رسائل بعث بها إليه وإلى أبي الفضل بن عياض وإلى الوزير أبي بكر بن عبد العزيز .

وابن ابي الخصال هو أبو عبدالله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي من أهل شقورة ، سكن قرطبة . وصفه ابن بشكوال بأنه كان كاتباً بليغاً عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار . وله تواليف حسان ظهر فيها نبله واستبان بها فهمه « قال وكان حسن البيان حلو الكلام » [3].وشهد له ابن الزبير بالتقدم في الشعر والنثر فقال : « واما الكتابة والنظم فهو إمامها المتفق عليه والمتحاكم فيها إليه » [4] وممن أخذ عنه ابن بشكوال صاحب الصلة وابن مضاء القرطبي وغيرهم . ولد سنة ٤٦٥ وتوفي مقتولاً سنة ٥٤٠ .

رسالة ابي محمد بن القاسم لا تزيد هذه الرسالة عن صفحة واحدة ضمها كتاب صغير الحجم فيه مجموعة من الرسائل والمقامات الأندلسية [5] اوردها جامع الرسائل ثم ثنّى برسالة ابن ابي الخصال في الرد عليها . وفي مقدمة الرسالة ما يدل على أنّ مؤلفها وضعها بطلب من أحد الأدباء لم يذكر اسمه ، للترجيح بين

١) القلائد ١٢٧ ٢) المغرب ٢ : ٣٩٦

٣) الصلة ٢ ٥٥٧ ٤) بغية الوعاة ٤٣ نقلا عن صلة الصلة .

٥) الرسالتان في مجموعة صغيرة بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية (٤٦٥٠ أدب) من ٣٩ / و إلى ٤٢ / ظ . وقابلت رسالة ابن أبي الخصال على نسخة أخرى منها في مخطوطة تضم ترسل الكاتب الفقيه ابن أبي الخصال مصورة بجامعة الدول العربية .

الصابي [1] وبديع الزمان [2]. قال: «البديع والصابي – أعزك الله – فيما يتجاذبانه من أهداب البيان فرسا رهان، جريا منه الى مدى فأدركاه، وتناولاه من عمو فملكاه. هذا يبلغ شأوه عفواً، وذاك يجهد اليه عدواً. وكلاهما يغرف من بحر ويقذف في بحر فالبديع اذا رفع [3] أبدع، والصابي اذا صاب اصاب. بيد ان البديع اذا وصف رصف، والصابي اذا رام مرامه دلف إليه ورسف وشتان بين الكلام المطبوع والمُنَمَّق المصنوع. وانَّ أحقهما عندي بالتقديم وأحذقهما بِقَرْيِ الأديم من سلمت مباني كلامه عن التكلف، وكرمت معاني نظامه عن التصحرف. والأعدل في الحكم عن الاقرار بالفضل لأبي الفضل في سجاحة [4] الطبع ورجاحة الوضع. ولأبي اسحاق في قوة أسر الكلام وشدة النزع وإنهما ليرميان معاً الى عرض الاحسان وكلاهما في اصابة المرمى البعيد منه سِيَّان. غير أن البديع أعرق نزعاً وأفصح. والصابي اوسع باعاً في ميدان الاسهاب وافسح. لا جرم أنهما فارسا الحلبة بالاحتجاج، وإماما القوم في حُسن الاختراع. فإليهما مُنتهى الحدّ، وعليهما ثُنَى الخناصرُ في العَدّ، إن شاء الله. والآن قد أقصى بنا القول في المفاصلة بين البديع والصابي إلى ما أنتهاه، ووفّينا كلاً حقه من الوصف فلم نُبره منه شيئاً ولا ألتناه، ولم أستدل فيما ذكرته بهوادة، ولا تزيدت عليه بمُزَوَّر شهادة، والسلام».

١ – قصد ابن القاسم إلى الموازنة بين الأديبين بديع الزمان والصابي، فوصف ادب كل منهما وما يمتاز به أحدهما عن الآخر، ثم رجّح أسلوب بديع الزمان للأسباب التي ساقها فكلاهما فاضل بليغ يصدران عن سعة صدر وقوة قريحة. وأعطى صورة معتدلة في أول كلامه فهما فرسا رهان، والفرق

١) أبو إسحاق ابراهيم بن هلال الصابي (٣١٣ – ٣٨٤) من كبار كتاب الدولة العباسية انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢ ٢٣ ووفيات الأعيان ١ ٣٤ – ٣٧

٢) أبو الفضل أحمد بن الحسين، بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ – ٣٩٨) أحد أئمة الكتاب وصاحب المقامات المشهور انظر يتيمة الدهر ٤ ١٦٧ ووفيات الأعيان ١ ، ١٠٩ – ١١١ .

٣) كذا في الأصل، ولعلها وقع .

٤) في الأصل شجاحة وهي تعكس المعنى وسجح . لان وسهل .

بين المُصلّي والمحلّي قليل ، ولكنه لم يلبث أن قال ان البديع يبلغ ما يريد بسهولة ويُسر وعفو خاطر على حين يرهق الصابي نفسه ويكد ذهنه ، هذا يبلغ شأوه عفواً ، وذاك يجهد إليه عدواً . ثم أكد هذه الفكرة في جملة أخرى « بيد أن البديع اذا وصف رصف ، والصابي اذا رام مرامه دَلَف في خطوة اليه ورسف » ومير بينهما بأن كلام البديع مطبوع ومحكم التأليف فيه تدفق ويسر ، وكلام الصابي فيه قوة ويصدر عن تدقيق وأصل الفرق عنده أن بديع الزمان يميل الى أن يكون مطبوعاً يصدر عن عفو خاطر ، وهو أفصح ، على حين أن الصابي يصدر عن تعميق وتكلف وإن كان أقـــدر على الإطالة والإسهاب والحكم عند ابن القاسم أنه بونٌ بين الكلام المطبوع والمعمق المصنوع . وختم رأيه بمثل ما بدأ به من أن الرجلين يقتسمان الفضل ويشاركان في السبق ، وان كان البديع الى القصة أقرب ! وهـــذا عنده هو الحكم العادل

٢ – رأى أبو عبد الله بن أبي الخصال رسالة ابن القاسم وفيها تفضيل البديع على الصابي فثارت حفيظته وأنكر عليه هذا الحكم فنقضه برسالة أطول ، احتج فيها للصابي وفضّله على البديع ، ولم يعدم أدلة يقدمها بين يدي محاورته . بدأ أبو عبد الله رسالته بحديث عن الحكومة وصعوبتهـــا ، وأن مسلكها وعر لا يستطيـــع كل واحد ارتيادها ، ولا يرضى الحكماء والحلماء إتيانها « فالحكومة - أعزك الله – صعبٌ مرتقاها بعيد ملتقاها وقديماً تحسها الحزماء وحاد عنها الحكماء [1] » وقال ان العرب في الجاهلية كانوا يتحسون التّصدر للحكم وقد كانوا يتصرفون بغير شريعة ، وإنما الأمر لمقتضى النظر وعمل العقول والأفكار ، فلما جاء الإسلام اشتدت عند ذلك الصناعة واشتدت على ذات نفسها الصيانة[1]. وأطنب في ذلك بما يخِدّ السامع وينبه ذهنه، ويهيؤه للوقوف معه عند حجاجٍ وقضية . وختم هذه المقدمة بتعريض واضح ليدخل بعده في موضوعه وقصـــده فقال : ولا يخلو امراء الكلام من أتباع يمشون على مَدرجهم ويقومون بحججهم، ويحمون حماهم ويرمون مَن رماه [1]

---

١) رسائل اخوانية أندلسية (أدب طلعت ٤٦٥٠) ١٤٠ / ب

٣ – أثنى على أسلوب رسالة ابن القاسم وقال انها نفثات سحر وكلام حر ، وعتب عليه أن حمل على الصابي فصرّعه صاما ، وأثار على نفسه حفيظة شيع الصابي ومن يتقلدون مذهبه وينتهجون طريقته ويحتمون بها ، وصور وقع رسالته عليهم ، فهم بين دموع ممصمصة ودموع مرفضة ، وبواطر كليلة وخواطر فليلة ، يسطرون من طرف خفي ويتطلعون منك من ترّ خمي وعدّ تفضيل ابن القاسم للبديع من باب التسرع وقلة التروي في الحكم ، وابتدأ في نقاشه من نقطة النهاية وخطّأه لأنه قاس الصابي بالبديع ، فالموازنة كالمبارزة إنما تكون بالوفاء ومقارعة الأكفاء بالأكفاء .. وأبو الفضل وإن كان كما سُمّي بديعاً ولأحلاف البلاغة رضيعاً ، لا يقاس بأبي إسحاق رأساً [1] . فهو من البداية يناصر الصابي ، ويرفعه عن درجة البديع قبل أن يدلي بالحجج ويأتي بالشواهد .

٤ – ما هي الأسباب والمبررات التي دفعته إلى تفضيل الصابي ؟ لقد اجاب عن ذلك في معرض مناقشته وعد منها بضعة أمور . ١) منها انقياد الكلام له وطواعية المعاني لقلمه « أبو اسحق معين القول ، مُقدِم على الهول ، يصول صول القرم في الشّول . إن عصب حسبت الناس عصابا ، ورأيت السهول وعوراً وهضابا أو رضي عاد المَشيب شاباً . كتُبه تغني عن الكتائب وتقيم الحرم مقام العائذ التائب » .. ٢) ومنها ان الصابي كتب للخلافة الهاشمية فدافع عنها وخدم سياستها ورعى أمورها ... ٣) ومنها تصرّفه في فنون القول المختلفة على تعدد الأعراض والانواع ، وهذه ميزة هامة « إن عزّى سلى أو عاتب مرّى وحلّى ، وأمرّ وأحلى ، أو مدح توّج وحلّى ، أو قدح أحلق وأبلى ، أو عزّ سول وأملى ، لا جرم أن له القلم الأعلى والذروة الباسقة لا تطير ولا تُعلى . ٤) ومنها ارتفاع طبقة نثره لحسن معانيه وسبك أسلوبه . ٥) ومنها أن الصابي في أسلوبه يجري على طرائق العرب في لغتهم وكتاباتهم ، وشبّه أسلوبه بنثر عبد الحميد الكاتب ، قال وهو بعد على مَهْيَع العرب وأسلوبها الأبعد الأقرب ، لا يجرم

١) رسائل اخوانية أندلسية (أدب طلعت ٤٦٥٠) ١٤٠ / و

توفيقها ولا يحرم على حال طريقها [١] .. ووقف أبو عبد الله عند هـذه الفقرة ولاحظ أن البديع تحامى الصابي لهذه الميزة ، ثم التفت الى ابن القاسم ، قال . فما لك – أعزك الله – تقربه بالصعب ، وتحارب به وقد أتى السلم طمراً عالي الكعب ، وتعارض حاشية الشيخ العراقي بالقـعب [٢] » ٦) ومنها أن الصابي كاتب ديوان وعبد السلطان ولو أن ابا الفضل عشيته مهابة السلطان ، وأسر في تلك المحافل أسر القد والحـلق ، ورمتـه المـلوك ذوو التيجـان بالحـدق ، وُفجيء على غرة باحدى الكـُبَر ، ورمي بأمر الملك – وانما هي واحدة كلمـح البصر – أسلمته خواطره الى الحصر وذهل عن تلك الملح واللعب » [٣] وخرج ِمن هذه الفكرة الى تقويم أسلوب البديع و كتابتـه عمومـاً ، وازاله منزلتـه بالقياس الى الصابي ، فهو منه في المرتبة الثانية « رجل لطيف الحيلة ، مشخص للأوهام المستحيلة إن أصاب فرصة قتل،وإن أخطأ ختل،ومسح بالدرة والغارب وفتل.ضيق من الكلام ما توسع ، ورقع الكوى بالمحار ورصع، وشعب وفرع ، واخترع من تلك الأحاليق ما اخترع . فأحسن وتمم وأدرك من تلك الغاية ما يَمّم » . وأعطى أبا اسحاق كلّ ما يَحسُن من الصفات والميزات ثم عقب » وأنا لا أعدل الهزل بالفصل، ولا الخيزرانة بالنّصل ولا أرغب عن الهُدى،ولا أضع السيف موضع الندى [٤] » وفي هذا هجوم على طريقـة البديـــع وتلاعبه بالألفاظ وموضوعاته التي طرقها مما سماه ابو عبدالله **تشخيص الاوهام المستحيلة والاحاليق**

٥ – وبعد ان انتهى من مناقشته باسلوبه وحججه مال الى الاستشهاد بأقوال العلماء والادباء. وعاد الى موضوع المقايسة الخاطئة بين البديع والصابي، واحتج بالثعالبي الذي قرن الصابي بالصاحب بن عباد ، وارتضى هذه المقارنة « فهنالك رُمي طودٌ بطود،ورُجم عود بعود،وُصك صلدبصلد،ووضع َجلد بازاء جلد وقوم بنفيس بنفيس،وقووم رئيس برئيس لأن كلاهما يجري في البحر والبر وانتظم حاشيتي النفع والضر وقام بالنهي والامر. »ومثّل بموازنة الآمدي الذي عرد

١) رسائل إخوانية ٤٠ / ظ — ٢) رسائل إخوانية ٤١ / و
٣) رسائل اخوانية . ٤١ / و — ٤) رسائل اخوانية ٤١ / ظ

طريقه ، ووارن بين عظيمين وبين حكمة بدراسة ما اشتركا فيه « وهذه موازنة الآمدي بين حبيب والبحتري انما استنبطها من أثناء ما اشتركا فيه من يأس ورجاء ومدح ورثاء وتشبيه وتشبيب وترغيب وترهيب ولولا ذلك ما اعتدلت الأوزان ولا وضع الميزان ولا سميت الخفة ولا الرجحان [1] ».وهو يشير الى أن الصاحب والصابي تشابها في ظروف الحياة ، وفيما صدر عنهما من أدب ومن ملابسات الصدور عن ذلك الأدب . في حين ان الأمر يختلف ما بين الصابي والبديع . وفي هذا خطأ لزم ابن القاسم .

٦ – وانتقل الى نقطة هامة في تاريخ الأدب الأندلسي وهي تتعلق بتقليد المشارقة وترسم خطاهم ، ذلك أن أبا عبدالله نفى عن الصابي تهمة التكلف ورمى بها ثانية الى البديع «وكيف يتعسف أو يتكلف من يدعو الحِكم فلا تتخلف، وتنقاد له البلاغة طوعاً وتتألف .. وهل نفس التكلف الا ما دفع البديع اليه وتنمّاه معشر الضعفاء عليه حين عدلنا عن المنهج ودخلنا تحت الحَرَج ، ولو شاء الله لنا يُسر ألوضع عنا من هذه المشقة إصرا . فالصابي ينسّق أعلاقاً ونحن نلفّق أخلاقاً..وعمدة إحساننا حين نعرم انما هي لزوم ما لا يلزم ، ومقابلات يُبدأ بها الكلام ويُختم. يعثر فيها القلم، ولا يكاد يقيمها اللسان والفم . فكأننا نصارع الدر بصريع ، ونحاسن بالهشيم خضرة الربيع » وكان ابن شهيد قبل نحو قرن من الزمان ضاق بالسجع والتكلف في الأسلوب غير أنه اضطر لمجاراتهم لكي ينال ثناء معاصريه وهذا رجل كاتب مشهود له في عصره وجد في خلافه مع معاصره ابن القاسم ليثور على الأسلوب المتكلف في نثرهم ، المقيد بالسجع . ومن ذلك أن معاصراً لابن أبي الخصال وضع كتاباً في صنعة النثر ، أظهر فيه إعجابه بالسجع وبالقيود التي زادها مَن تَخلف بديع الزمان في الصياغة والأسلوب ، وسنعرض لهذا بعد وزاد ابو عبدالله من نصاعة رأيه ووضوحه وأفرغ ما في نفسه من كراهية لما آلت اليه الكتابة والرسائل والصناعة بعامة « أجل ! لو وُقّتَ للبلغاء يوم لا يعدونه ، ونصب لهم حوض على قدر الإحسان يردونه، لورد أبو اسحاق أول وارد وأحدثنا مع البديع عصي الذائد .

١) رسائل اخوانيه اندلسيه . ٤١ / ظ

وضرب صاحب الحوض بيننا وبينه سوراً وقال ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . ليس بكلامكم من البلاغة طرق ولا نص لكم في الاعراب عرق . هذه جعاجع رعيان وقعاقع شنان . وهذا ابن حكيم وآفة ميتكم وحيكم . غير العربية السهلة وحمل عليكم بهذه الجهلة . وبدل دينه فاقتلوه وخذوه ، فاعتلوه ، وألحقوا به من استبصر فيما شرع وتجاوروا عمن أقصر ورع [1] . وهذا نص يندر أن نقع على مثله ، لأنه يقف في وجه التيار ويخالف ما كان الأندلسيون يتسابقون في الوصول اليه . ولا نكاد نسمع مثل هذا الهجوم على السجع قبل ابن خلدون في زمان متأخر . وموقف ابن ابي الخصال من السجع وتقليد بديع الزمان موقف هام من الناحية النظرية ، ولكنا نرى الرجل منقاداً في أسلوب عصره ، غارقاً فيا يهاجمه ، ولكنه نص هام يمكن استغلاله في درس النثر الأندلسي .

٧ — وعاب على ابن القاسم مديح أبي الفضل بلقبه (بديع الزمان) وقال أنه لقب لا يسوغه الشرع — معنى هذه العبارة في أصل اللغة واسع المدلول — وفهم من عبارة ابن القاسم « فالبديع اذا رفع ابدع والصابي إذا صاب اصاب» أن فيها ثناء على البديع مستخدماً مدلول لقبه ، وانحاء على الصابي باستخدام مدلول اسمه ايضاً ، وذكره بالنهي عن التنابز بالألقاب ، ووجد ثمرة اخرى فاحتج بكلام الثعالبي « ان الله هداه الى محاسن الكلام ولم يهده الى الإسلام » . ثم ختم بعبارة نقلها من الثعالبي ايضاً ، اثنى فيها على الصاحب والصابي ، وجعل من مسوغات مدحه أنهما نثرا شعر أبي الطيب في رسائلهما ، ثم وضع البديع في مرتبة تالية لمرتبة الصابي (لأنه إلا يكن صاحب رضوان فهو تابع باحسان [2])

هذه صورة من صور المناقشات التي كانت تدور في محافل الاندلسيين ، وجدنا فيها ما يرفد تاريخ الأدب ، وما يوضح مجرى آرائهم في النثر والكتابة ، ونبين موقفاً معيناً ازاء كاتبين من المشارقة وطريقتها وأسلوبهما .

١) رسائل اخوانية أندلسية ٢٠ ، ٤/ط

الانتصار ممن عدل عن الاستبصار

لابن السيّد البطليوسي

في التراث الأندلسي عدة كتب في عرض لطيف هو تعقّب بعض المؤلفين والمصنفين في آرائهم ونقولهم ورواياتهم بقصد التنبيه والتصحيح ومداولة الرأي، كان بعضها على هيئة كتب مصنفة مخصوصة، وكان بعضها الآخر طُرراً وملاحظات جمعها آخرون فعادت كتباً أيضاً. فمنها التنبيه على أبي علي في أماليه، والتنبيه على المبرد في كتاب الكامل وكلاهما للوزير أبي عبيد البكري الأونبي، والكتاب الأول مطبوع والآخر مخطوط مصور[1]. ومنها طُرر ابن السيد البطليوسي على الكامل، وطرر الوقشي عليه، وهما مصوران أيضاً[2]. ومنها كتاب التنبيه على المغالطة والتمويه لأبي حاتم[3]، وهو مخطوط. ومنها طرر أثبتها أبو بكر بن العربي على شرح ابن السيد لسقط الزند، وهي مفقودة غير أن عندنا رد ابن السيد على تلك الطرر، وهي موضوع بحثنا.

وابن العربي هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي[4]. ولد سنة ٤٦٨ ورحل مع أبيه الى المشرق سنة ٤٨٥ فدخل الشام ولقي فيها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ودخل بغداد وسمع بها من مشايخها، وحج سنة ٤٨٩ ثم عاد الى بغداد وصحب أبا بكر الشاشي وابا حامد الغزالي. ولقي بالقاهرة والاسكندرية عدداً من العلماء، ودخل الاندلس ٤٩٣ قال ابن بشكوال. وقدم الى اشبيلية بعلم كثير لم يدخل أحد قبله بمثله ممن كانت له رحلة إلى المشرق. فنال حظوة عندهم، وولي القضاء مدة ثم انصرف الى العلم ونشره،

---

١) مصور في جامعة الدول العربية (أدب ٣٥٣)

٢) طرر ابن السيد رقم (أدب ٣٢٦، ٣٥٢) و طرر الوقشي رقم (أدب ٣٥٤)

٣) مخطوط في الاسكوريال ٢٩٦ ٤) ترجمته في الصلة ٥٣٢، رايات المبرزين ١٥ وفيات الأعيان ٣ ٤٢٣ - ٤٢٤، مطمح الانفس ٦٢ المغرب ١ ٢٤٩ - ٢٥ الديباج المذهب ٢٨١، شذرات الذهب ٤ ١٤١، النجوم الزاهرة ٥ ٣٠٢، و Brock G I 525, S I 633

وتوفي سنة ٥٤٣ . له مصنفات منها . قانون التأويل وهو تفسير للقرآن الكريم منه أقسام في دار الكتب ، وغيرها . وأحكام القرآن مطبوع ، وعارضة الأحوذي مطبوع ، وهو في شرح سنن الترمذي ، وغير ذلك من الكتب . ومن حملة الدين لقيهم ابن العربي في المشرق الخطيب التبريزي تلميذ المعري ، وأخذ عنه شعره . ولهذا كانت اعتراضاته على ابن السيد . رواية وشرحاً وتعليقاً ، تعليقات قاسية ، ويصورها ابن السيد على أنها تعليقات متحاملة تصدر عن غِر متعالم ضعيف الحصول في فنون الأدب وضروب المعرفة كما سنبين . ودواعي رد ابن السيد أنه رأى مصادفة بعض الطرر التي علق بها ابن العربي على إحدى النُسخ من شرحه على سقط الزند .

الرسالة . الانتصار رسالة صغيرة الحجم نشرت أخيراً في القاهرة [1] . وفي بعض النسخ من مخطوطة الكتاب ما يشهد بأن ابن السيد أقرأها بعض طلاب الأدب [2] ، وذكرها ابن خير في فهرسته قال : جزء فيه رد أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي على القاضي أبي بكر بن العربي فيما رده عليه في شرحه لشعر المعري ، حدثني بذلك الفقيه الحافظ الامام أبو محمد عبدالله ابن أحمد بن سعيد العبدري قراءة مني عليه ، عن مؤلفاته رحمه الله قراءة عليه وسماعاً [3] وطريقة ابن السيد في رده أن يعرض الفكرة التي اعترض بها ابن العربي أو الملاحظة ثم يرد عليها بحججه مكتفياً بالرد حيناً وبالرد مشفوعاً بالشواهد حيناً آخر وضمّن رده ملاحظات عامة تتعلق بالمعري ومعاني العرب في أشعارها وثقافة الشارح للنصوص الادبية وغير ذلك . وبالرغم مما اصطبغت به ردوده من صبغة علمية — اذ تحرى الدقة ليرد على الاتهامات بالعلم قبل كل شيء — فإنه صوّر ابن العربي من خلال مناقشاته وردوده بصورة الجاهل الذي لا يدقق في الامور الصغيرة ، المتعالي المتعالم ، الضعيف في أمور اللغة والنحو ومعاني الشعر وما إلى ذلك .

١ — بدأ بالتحميد وفيه إرهاصات الحديث التالي ، ثم ذكر أنه اطلع على

١) المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥٥ — الدكتور حامد عبد المجيد

٢) ص أ الهامش رقم ١ ٣) فهرسة ابن خير ٤١٩

اعتراضات ابن العربي عليه في شرح شعر المعري . وقال إن المعارضات والمناقضات من سنن العلماء وطرائقهم ، وكان ينبغي أن يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن الذي أثار حفيظته ودفعه الى الكتابة هو أن ابا بكر لم ينصف في عمله ، وتعسف القول وانه حمل عليه أموراً لا تتعلق به وكان ينبغي ألا تحمل عليه . فمن ذلك أبيات أفسدها ناسخ الديوان بالزيادة والنقصان مما أدى الى كسر الوزن وتغير وجه الكلام ، وكلمات أدخل عليها التصحيف واللحن. وكان ابن العربي قد صحح الأوزان ورد الكلمات المصحفة والملحونة الى قوامها في جملة ما صنعه على صفحات الكتاب ، واعتبر أبو محمد هذا طعناً في معرفته بالعروض ومواضع الإعراب . « ولولا أن يظن بنا هذا الرجل — وفقه الله ! — عجزاً عن الانتصاف والانتصار كما توهم علينا الجهل بالإعراب وكسر الأشعار لصمتنا عن مراجعته صمت الرجم ، ولم نتشاغل بتصريف لسان في محاورته ولا قلم . ولكن سوء معاملته أحوج الى الكلام ولو تُرك القطا ليلاً لنام[1] .. »

٢ — من القضايا التي اعترض بها أبو بكر رواية أبي محمد واختلافها في مواضع عن روايته التي حملها عن الخطيب التبريزي . وذكر ابن السيد أنه روى شعر المعري عن أبي الفضل البغدادي وقرأ عليه [2] ، وعن أبي القاسم عبد الدائم القيرواني [3] ، ونبه ابن السيد ابا بكر الى ان المعري غيّر بعض اشعاره مع تقدم سنه واختلاف زمانه ، فتغيرت الرواية كذلك ، من ذلك قوله « ورأيناك لما وصلت بالقراءة والتصفح الى قوله .

فان لقيت وليداً والنوى كثب يوم القيامة لم اعدمه تبكيتا

ذكرت ان رواية شيخك (قذف) وهذا من الألفاظ التي ذكرنا ان المعري غيّرها في آخر عمره لما فيها من فسح التأويل والقال والقيل ، لأن الكثب : القرب ، وهو الشيء القريب ايضاً . والقذف ضده — فإذا قال والنوى كثب كان فيه تقريب الأمد وانه هامة اليوم او الغد واذا قال قذف ففيه استبعاد ليوم القيامة » [1]

وقد يردّ الرواية إذا خالفت المعنى الراجح ، وينسبها إلى التصحيف أو الضعف . ومنه « وحدثناك — أعزك الله — لما انتهيت إلى قول المعري .

---

١) الانتصار : ٢٠ ٢) الانتصار ٢١ ٣) الانتصار ٢٣

أراني في الثلاثة من شُحوني فلا تسأل عن الخبر السّيئ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

كنتَ في الطرة منكراً لروايتنا ، متوهماً التصحيف علينا « الذي قرأناه : شحوني بالشين المعجمة . فأيّ مدخل ههنا للشحون ابقاك الله ؟ وهل هذا الا من التصحيف الطريف ؟ انما وصف المعري انه مسجون في ثلاثة سجون ، ثم فسر السجون فجعل جسمه سجناً لنفسه وبيته سجناً لشخصه ، وعماه سجناً لبصره . . . »[1] . واحتج بشعر للمعري يؤيد تفسيره ومناقشاته فيما يتعلق بالرواية كثيرة .

٣ – وناقش ابن السيد ابا بكر في بعض الامور اللغوية والنحوية ، فمنه « ووجدناك لما وصلت بالمطالعة الى قول المعري :

ثلاثةُ أيام هي الدّهر كُله وما هن غيرُ اليَوم والأمس والغد

وجدت غير في البيت مرفوعاً فأثبته في الطرة منصوباً ، ونصبت النصب نصباً محكماً ، فما الذي حاولته بما فعلت ؟ احسبت ان الرفع لا يجوز ام اردت ان تعرفنا ان ما يجوز نصب خبرها ورفعه ؟ ان هذا لمن اعجب الأعاجيب .ولقد احسن القائل اذ يقول

وُهلك الفتى الاّ يراح الى النّدى والا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا »[2]

وناقشه في مسألة لغوية واظهر فيها نظراً ونفوذاً ، قال « رأيناك ، اعزك الله ، لما انتهى بك النظر الى قوله .

فذكرني بدر السماوة بادنا شفاً لاح من بدر السماوة بال

أنكرت السماوة الثانية وكتبت السماءة بالهمزة فلم أنكرتها علينا ؟ أحسبت أنها لا تقال أم حسبت أنها أليق بالبيت ؟ وكلا الأمرين لنا فيه الظهور عليك لأن أهل اللغة حكوا أنه يقال سماء وسماءة بالهمز وسماوة وسماة على وزن قطاة . فمن قال سماءة فهمز بناها على سماء فهمز كما همزت السماء ومن قال سماوة بالواو بناها على الفعل الذي هو سما يسمو وأما من طريق الترجيح بين اللفظتين فان السماوة احسن الوجهين أحدهما أنه أفصح اللغتين لأنها أكثر استعمالا

١) الانتصار ٤ – ٥ ٢) الانتصار ١١

وأوسع مجالاً، ويدل على ذلك أنهم قالوا في الجمع سماوات وبذلك قرأ القراء ولا يكادون يقولون سماءات . والوجه الثاني أنها التي بالبيت لما تقدم في صدره من ذكر السماوة الأخرى ، فأفسدت على الرجل التجنيس الذي جرى إليه وحام فكره عليه. فما هذا الخلاف والعناد وأين النظر الحسن والانتقاد»[1]. ويبدو ان السيد متمكناً من اللغة مدركاً لشواهدها ودقائقها وقد سبق في ترجمته أنه ألف كتباً في اللغة منها . الفرق بين الحروف الخمسة ، وآخر عن المثلث في اللغة ، وغيرها . وفي هذا النص نكتة لطيفة . وهي احتجاجه بأسلوب المعري لنصرة الرواية التي اعتمدها ، فهو بالرغم من اعتدادة بشيوخه الذين روى عنهم شعر المعري يسلك مسالك أخرى في تثبيت رأيه من اسلوب المعري . التجنيس . والإبقاء على السماوة في الشطرين يجري مع نسق أسلوب الشاعر ، وهذه التفاتة جيدة .

٤ – ودخل في نقاش آخر يتعلق بالروح، والفرق بين الروح والنفس، ومنزلة الروح من الجسد ، وأثبت معلومات تبين تمكنه وعلمه وازرى بأبي بكر من طرف خفي ، قال . « ورأيناك وفقنا الله واياك ، لما وصلت الى قول المعري :

فبعداً لهذا الجسم يا روحُ مسلكاً ونُعداً لهذا الروح يا جسمُ سالكا

تواصلتُما فاستحدث الوصل منكما عجائبَ كانت للرجال مهالِكا

قد أنكرت علينا قولنا في بعض كلامنا فيه . « إن الروح طاهر شريف والجسم دونه موات لا يقع عليه تكليف » فكتبت في الطرة « صوابه موجود شريف وكيف حدثت باقترانها خطيئة ، وهو قول بِتقدّم الأعراض او يجار لا يعدم انتقاص » وهذا كلام اول ما ينقد فيه فساد الاعراب بترك نصب الانتقاص ووجهه الانتصاب ، وبعد ذلك يقول : كيف أنكرت قولنا إن الروح طاهر شريف وقد طهره الله تعالى وكرمه وشرفه على النفس وقدمه ، في القرآن المنزل علينا ، وفي كتبه المتقدمة لنا . »[2] وأطال الحديث ثم خرج الى تبرئة المعري من القول بقدم الأعراض ، وقال ان هذا توهم فاسد[3]

ثم ناقشه في التفريق بين الزمان والدهر وانكر ابن العربي على ابن السيد

١) الانتصار ٢٥ ٢) الانتصار ٤١ – ٤٢ ٣) الانتصار . ٤٣

ذكره في شرحه بعض الفلاسفة المتقدمين من الطبيعيين . فقال ابن السيد انه اضطر إلى هذا والى ذكر كثير من اخبار الفرق وكلام الفلاسفة والحكماء لأن معرفة ذلك كله وما يحتاج اليه ضرورة لمن يتصدّى لشرح النصوص الأدبية ، وكيف يفهم شعر المعري بغير ذلك ؟ قال . « وكذلك رأيناك قد عبتنا بذكرنا في هذا الشرح لبعض الفلاسفة المتقدمين من الطبيعيين والالٓهيين ، وذلك أمر اضطررنا اليه اذ كان شعر هذا الرجل يبعث عليه لأنه سلك بشعره غير مسلك الشعراء ، وضمنه نكتاً من المذاهب والآراء ، وأراد ان يُري الناس معرفته بالأخبار والأنساب ، وتصرفه في جميع انواع الآداب . ولم يقتصر على ذكر مذهب المتشرعين حتى خلطها بمذاهب المتفلسفين » ..

وقال ابن السيد بضرورة معرفة مذاهب المنجمين ، ومذاهب الطبيعيين ، واختلاف الفلاسفة في الخلاء والملاء ، واثبات الهُوية ونفيها ، واختلاف الناس في المكان والدهر والزمان ، واختلاف الفلاسفة في نور الكواكب والرجم .. وهذه نظرة جيدة في فهم ثقافة الشارح ، لأن من تصدى للنصوص ، وخاصة المشكلة منها سيكون بحاجة الى ذلك حاجة ملحة .

واحتج ابن السيد بالقرآن الكريم والشعر العربي ، واحتج لمعاني المعري بشعره نفسه ، وثأر من ابن العربي في ردوده. ولئن كان ما انتقده ابن العربي كما نقل ابن السيد عنه ، اذن لما تَزيّدَ ولا تجنى .

المقامات اللزومية

للسرقسطي

من الذين عارضوا الحريري في مقاماته أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي المازني السرقسطي (... – ٥٣٨) . هو من أهل سرقسطة ، وأصله من اشتركوي وهو حصن من أعمال تطيلة ، وكان رحالة في طلب العلم ثم ، سكن قرطبة وقال في الصلة إنه كان مقدّماً في اللغة العربية وكان شاعراً محسناً وله مقامات من تأليفه أحدث عنه واستحسنت . وقال ابن الزبير انه اعتمد عليه في تفسير الكامل للمبرد لرسوخه في اللغة العربية . وله كتاب المسلسل في اللغة وهو مطبوع وقال ابن الأبار توفي في قرطبة من رمانة طاولته نحواً من ثلاثة أعوام الى ان قصت عليت في جمادى الأولى سنة ٥٣٨ . ومقاماته موجودة.

والذي ادخل السرقسطي ومقاماته في البحث أن المقامتين الثلاثين والخمسين تتعرضان للشعراء ، وللنظم والنثر ، ولا بد من وقفة عندهما. ومقاماتة كمقامات الحريري في العدد خمسون ، وهو التزم فيها مالا يلزم متأثراً بأسلوب أبي العلاء المعري والشخصيتان الرئيسيتان فيها . السائب بن تمام والشيخ ابو حبيب ، وهو رجل سدوسي محتال اصله من عُمان وقد يبرز في بعض المقامات راوية اسمه « المنذر بن حمام » ولا دخــل له في أحداث المقامة ، وانما يتلقى أحداث المقامة عن السائب . وقد يشترك في المقامة فتيان هما ابنا الشيخ ابي حبيب حبيب وغريب وقـــد سمّى السرقسطي بعض مقاماته وأغفل الأخرى . وهي مسجوعة الأسلوب ، التزم فيهـا أكثر من حرف ، كما انه اتبع في كل واحدة من مقاماته طريقة خاصة في السجع ، فسمى خمساً منهـا على الحروف الهمزية والبائية والجيمية والدالية والنونية . وسمى اثنتين على

١) ترجمته في الصلة (ط – العطـار) ٢ ٥٥٦ . المعجم لابن الأبار ١٤٠ (ط . مدريد) بغية الوعاة ١ ٢٧٩ ، ونقل عن ابن الزبير صاحب صلة الصلة .

نسق حروف ألف باء ، واثنتين أخريين على ترتيب الحروف الأبجدية . وجعل أبو الطاهر مقاماته معرضاً لإظهار براعته اللغوية ومقدرته الأسلوبية ، وعرض لبعض العيوب الاجتماعية ، وناقش في مقامتين بعض الأمور الأدبية ، وان كانت لا تخلو في بعض حواشيها أيضاً من ملاحظات عن المغرب والأندلس . والتفصيل في هذا يلحق ببحث آخر [1]

المقامة الموفية ثلاثين هي مقامة الشعراء [2] ، والمقامة الخمسون في النظم والنثر [3] . وعرض في الأولى لبعض الشعراء العرب منذ جاهليتهم الى عصر المؤلف وعلق على تاريخهم أو شعرهم بملاحظات سريعة ، ووازن في الثانية بين الشعر والنثر وحاول أن يمسك بالعصا من منتصفها ، ويلحق بكل فن مميزه .

مقامة الشعراء . قال السائب بن تمام ، وهو بطل المقامة عنده ، ان صاحبه الشيخ أبا حبيب شديد الأذى له كثير نصب الحبائل للإيقاع به ، غير انه يحبه على ذلك ، ويشتاق الى لقائه ودوام بقائه ثم ذكر انه كان مرة في رحلة مع صحب مسافرين فاذا برجل يقدم عليهم وينزل بينهم فيسأله السائب عن حاله فيرد ببيان فصيح ولسان طليق وينشده شعراً . وهنا أدرك السائب انه الشيخ أبو حبيب السدوسي ! فرحّب به ومنحه المال والجِمال واصطحبه معه . قال فما رأيت امتع منه إخباراً ولا احسن أخباراً ، ولا أرهف بِساناً ولا أطوع عناناً ، حتى وقفنا في وادي القريض ، فجاريت منه ذا لسان طويل وباع عريض وكنت أرى ان الشعر ثمرة المعارف وعارفة العوارف [4] . وخرج السائب الى محاورة بينه وبين الشيخ ابي حبيب تستنفد المقامة كلها ، وتخرج بها عن الحركة او العقدة التي تكون عادة في المقامات . وأول ملاحظة نسجلها هي أن الناقد الأديب الاندلسي لم يُجرِ للأندلسيين في مقامته ذكراً ، وهذا مألوف في معظم الاندلسيين حين يكتبون ، وفي كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي

١) انظر دراسة عن المقامات اللزومية وأسلوبها في (تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين) ٣١٧ – ٣٢٥

٢) المقامات اللزومية للسرقسطي مخطوطة بجامعة الدول العربيه عن الأصل المحفوظ بتركية (لا له لى ١٩٣٣) والمقامة الثلاثون من ٧ ب – ٧٧ أ

٣) المقامة الخمسون من ١١٩ ب – ١٢٥ أ .

فصل عن المقامة استشهد ببعض مقامات بديع الزمان ، وقال انه ينزه كتابه عن ايراد مقامات الذين عارضوه وقلدوه [١] ، ولم يسم مشارقة ولا أندلسيين . والملاحظة الاخرى أن الاحكام النقدية في المقامتين قليلة ، والمحصول الجديد الذي نتوقعه من السرقسطي نفسه أقل ، ذلك ان بعض الاحكام التي نجدها في المقامة قديمة متداولة معروفة ، ليس فيها جديد غير الصياغة ، وقد لا تكون .

بدأ الحديث بأمرىء القيس « فقلت ما رأيك في الملك الضليل ؟ قال . ذو التاج والإكليل ربيل المعلّى له القدح المعلى . حسبك من حامل لواء وقائد أقيال وأذواء ، وقائل غير مجتاح وفاتح رتق من القول ورتاح . وقد قيل بدىء الشعر بكندة وختم بكندة ، وكلّ يقول ما عنده [٢] . ومعروف تلقيب امرىء القيس بالملك الضليل ، وقوله حسبك من حامل لواء إشارة إلى الحديث المنسوب الى النبي ﷺ عن امرىء القيس بأنه « قائد الشعراء الى النار » او « معه لواء الشعراء الى النار [٣] » . وقوله « فاتح رتق من القول ورتاح » مسبوق الى معناه كثيراً ، قال ابن قتيبة : وقد سبق امرؤ القيس الى اشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ [٤] . وقد نقل الحميدي قولهم ان الشعر بدىء بكندة وختم بكندة [٥] . فكأن أبا الطاهر لم يأت بجديد. وتذاكرا أمر طرفة و زهير (٧١/أ) والنابغة. قلت فالذبياني زياد قال جواد جرى في حلبة جياد فجروا الى امد ، وما وردوا على وشل ولا ثمد. واما إذا ارهبه نعمانه وطارده امانه فما شئت من احسان، ورقة قلب ولسان [٦] . اما العبارة الاولى فمن قول النابغة .

إلا لمثلك او مَنْ انت سابقه سبق الجواد اذا استولى على الأمد

والعبارة الاخرى مشهورة من ان النابغة اشعرهم اذا رهب . وقال ان خير بضاعة عنترة الغزل والفخر ، وعرض في ذكر علقمة بأخيه شأس وروح امرىء القيس أم جندب ، وقال عن الهذليين . عذيق او جذيل . صعلوك فاتك او

١) المقامات ٧١ / أ ٢) إحكام صنعة الكلام ٢٠٨ ٣) المقامات ٧١ / أ
٤) الشعر والشعراء ١ ١٢٦ وقال الشيخ احمد شاكر إن الحديث مشهور عند أهل الأدب ، وضعفه أهل الحديث جملة ، وهم أهل الفن .
٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر – الطبعة الثانية ج ١ ص ١١٠ .
٦) جذوة المقتبس ٣٤٦ – ٣٤٧ .

خارب هاتك . أرباب فصاحة وبيان وفتيان شراسة وليان » [1] وهذا كلام عام يميل إلى ان يكون وصف حالهم لا وصف شعرهم . وقال في الاعشى إنه ختم به الشعر في الجاهلية ، وأنه وصاف خمر . وتذاكرا في حسان بن ثابت ، ولبيد والحطيئة فلم يصف حديداً ، ومما قاله في الحطيئة « .. بالغ في الهجاء وأسرف وأتى على ذروة من الشر وأسرف . وعلى كل حال فحظه من الإحسان رغيب ، ومثل موضعه لا يعيب » [2] فكل ما جاء به أبو الطاهر هو هذه الجملة التي لا تفيد جديداً ويمكن أن تلحق بكل أحدٍ من الشعراء . ومرّا على ذكر الراعي ، ثم قرن الاثنين : الفرزدق وجرير ، ووازن بينهما فقال « قلت فالفرزدق وجرير قلت . كرسف وحرير وحطام وحرير . فرسا رهان . كلاهما غير مدال ولا مهان أما همّام فسيد هُمام مستهل غمام وعارض جمام. بحر لا يُخاض غماره . وجواد لا يتعاطى مساره ينحت من صخر وينطق عن فخر . وأما جرير فسابق دريز . أحرز صاحبه فأسهل . وأعجل فأسهل . وصعب فذلل وأكثر فقلل . وأغوص فبيّن وشدد فليّن . يغرف من بحر . وينطق عن سحر . يباري برقة النسيم ويبادر من قوله الرائق والوسيم » [3] . فالفرزدق مكثر مطيل ، في أسلوبه شدة ووعورة فهو ينحت من صخر وفاز دون جرير – والأخطل أيضاً ضمنا – بالفخر ، وجرير لين الكلام سهل العبارة ذهب بالغزل دون صاحبيه . وأخر السرقسطي الأخطل عنهما في الترتيب . فذكر صاحب ميّ وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل بن معمر صاحب بثينة ، وكثير عزة إلى أن بلغ الأخطل ورأى أن عمر قصر به اقتصار شعره على الغزل دون غيره من الأغراض ، وهذا أساس نقدي قديم احتكم إليه ابن سلام فيما احتكم حين نظم طبقاته قال « قلت فالمخزومي أبو الخطاب ، فقال أهلاً بك في الطاب الطاب . عمر ما عمر حديث سمر ووصاف جحشات وخمر . تشاغل بسهل وثرياه ورباته وزيابه فقصر عن مدى الفحول ونام عن الأوتار والذحول . فهو على خياله يعثر في أذياله ويتعلل بطيفه وخياله ويتمتع بطلحه وسياله . استند به الغزل ولم يكن لقوله ربع ولا نزل سوى غمزة طرف وهزة طرف واختلاس

١) المقامات ٧١/ب ٢) المقامات ٧٢/أ ٣) المقامات . ٧٢/أ – ٧٣/ب

عيون واقتصاء ديون واستنجار ميعاد واستدعاء إسعاد . فالإحسان يأخذه ويدعه . والهوى يجمع به تارة ويردعه . ود أنه قد ولدته عذرة حتى يقيم على صبابته عذره ويوفي عليها يمينه ونذره »[1]. وقال من الأخطل – بأسلوب يقرب من الدعابة – من طول لسانه ورأيه[2]،.ثم تحدث عن نصيب والخنساء وليلى الأخيلية.وأثار السائب بن تمام حفيظة الشيخ أبي حبيب حين سأله عن النابغة الجعدي[3] «أف للكمس معيدي معدي حديثك شجون وحدك نحون . تذهب علواً وسفلاً ولا تترك ناهيا ولا عملاً». وقال انه أحسن وصف الديار والطلول ونعت الفرس . وأشار إلى دعاء النبي له « ولله دعوة متعته بأسنانه » وكان مدح رسول الله ﷺ فقال ﷺ لا يفضض الله فاك . فبقي عمره لم تنقص له سن[4] ومثل هذه العبارات لا تكاد تضيف جديداً إلى الأحكام والآراء ، ولكنها تثبت براعة المؤلف ، وتجعله عند سامعه يشهد له بالمعرفة والمقدرة والاطلاع . وتحدث عن قيس بن الملوح وقيس بن ذريح (٧٣ ب ، ٧٤ أ) ، ثم انتقل الى بشار فثار الشيخ السدوسي ثانية « قلت فالمرعث أبو معاذ قال ما أحوجك إلى معاذ أتخلط النبع بالغرب ، وتذكر العجم مع العرب دعني من المنحول ولا تسألني إلا عن الفحول . قلت لا بد إلا أن تسامح في ذكر المولد[5] . وهذا كلام يدل على النظرة المختلفة الى المولدين ، وقد دخلنا في القرن السادس ، وهي ليست نظرة مسيطرة في الأندلس ، فأثر الشعراء المحدثين عظيم فيهم كما قدمنا في فصل سابق . وقال في صريع. « أول من حبّر ونمق وعلا ذروة الإبداع وتسنّم[6]» وقال في أبي نواس إنه آثر المجون والأقداح ، فقصر الأوصاف والأمداح . خلع على الخمر إحسانه ووقف عليه لسانه والاَّ فشأنه الشرير وكلامه الإبريز[7] ». وهذه الفكرة لاحقة بما كان قاله عن عمر بن أبي ربيعة من اعتماده على بعض الأغراض الشعرية وإهماله بعضها الآخر . وأحرى ذكر ابي تمام والبحتري

١) المقامات ٧٢ / أ ٢) المقامات ٧٣ / أ ٣) المقامات ٧٣ / ب
٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ ٢٨٩ . ٥) المقامات ٧٤ / أ
٦) المقامات ٧٤ / أ ٧) المقامات ٧٥ / أ

باسم الطائيين . الأكبر والأصغر فأثنى على معاني أبي تمام وعاب عليه صياغته وأسلوبه « نعم ما صنع وحبّر وبئس ماأفصح عن المعاني وعبّر ». وشهد له بأن الناس أبوا الا تقديمه على الرغم من مآخذهم عليه ، وأثنى على عبارة البحتري فهومُنح البهجة والإشراق وعُدي النعمة والإبراق [١]. وكأن أبا تمام كان أكثر تأثيراً في الأندلس ، فقال عن البحتري . غفل عن احسانه غافل وزهد في أثوابه زاهل ، وخصّه بحسن وصف الربيع . وطالت أحاديثه عن الشعراء أكثر من ذي قبل فشهد لابن الرومي بكثرة الأغراض وإصابة الوصف وقال فيه انه يعلو علوّ النجم ويحط انحطاط الرجم . ونبه على ما اشتهر من أمر ابن المعتز وشعره «حسيب نبيه أطاعه التشبيه» وقد أعجبتهم تشبيهات ابن المعتز كما سنرى عند ابن بسام في الذخيرة . أما المتنبي فلم يذكره الا بالثناء . فهو ذو طبع صيب وكلم طيب . سارت أشعاره واشتهرت أمثاله» وحمل الشعراء في زمانه ومن بعده ما لا يطيقون لأنهم سيتكلفون مجاراته . وقع على تفضيله الإصفاق . أغص القائلين وأشرق وأضاء كوكبه فأشرق[٢] . وتذاكرا في أمر ابي فراس الحمداني والشريف الرضي والشريف المُرتضى والوزير المغربي فأثنى ثناء عاماً ، ثم وصل الى المعري ، فمدح شعره ، وهاجمه في نثره وعابه « قلت فالتنوخي ابو العلاء ؟ قال . سهم علو وعلاء . ولابس وَشْي وملاء حصحص له النظم وحصّع ، وأبى عليه النثر وامتنع فبات دونه أسفاً ولم يزل لمجاهله معتسِفاً عالم جاهل وطلسم آهل ، علا وهبط ، وبعض ورق الغواية وخبط [٣]» . ولم يرد على هذا في أبي العلاء ، وموقفه من نثره غريب — وقد كان مفهوماً أن ينتقد الاندلسيون وغيرهم دين المعرّي أحياناً غير أن هذا شيء لم يكن يؤثر على النظرة الفنية . وكان شائعاً في عصر السرقسطي أن ينشىء الأدباء والكتاب رسائل ومقالات وكتباً في معارضة المعرّي في نثره بخاصة . ويظل موقف ابي الطاهر من نثر المعري غريباً ، لأنه قـلّده في لزوم ما لا يلزم ، وأغرق أسلوبه بتعقيدات كثيرة فهو الى هذا اللزوم ، بنى بعض مقاماته على طرائق أكثر تعقيداً . فبنى

١) المقامات ٧٦ / أ ٢) المقامات ٧٩ / ب ٣) المقامات ٨٢ / ب

حمساً على الحروف . الثانية والثلاثون : همرية ومبها ، قال. كنت رمن الشباب والسّماء قد ولعت مالنصال والرماء ، أتطلب السبع والسراء [1] » . ، والثالثة والثلاثون مائية قال. أقمت في حلب ، بين درّ من العَيش وحلب أحوص في حد ولعب [2] ... والرابعة والثلاثون حيمية ، والخامسة والثلاثون داليـــة ، والسادسة والثلاثون نوبية . ثم سمى مقامتين على نسق الحروف (ألف باء) وأخريين على نسق أبجد وسمى السادسة عشرة المثلثة لأنه بناهـــا على ثلاث سجعات [3] ، والسابعة عشرة المرصّعة [4] ، والثامنة عشرة المدبجة [5] ، وكل هذا تعقيد وتكلف ظاهر .

ملاحظات .

والحق ان الجديد في الأحكام النقدية في هذه المقامة نزر يسير فمعظم ماجاء به أبو الطاهر مما ثبت في كتب الأدب العامة واحتوته كتب التراجم والمختارات وتنوقل في اخبار الشعراء وشروح دواوينهم . ولعل اهم الملاحظات الجديرة بالاهتمام وقفته عند بشار باعتباره اوّل المحدثين ، وعند ابي تمام. ونقلته الجديدة في الأسلوب والغوص على المعاني ، وعند نثر ابي العلاء المعري بخاصة. وكان جلّ اعتماد المؤلف في الحديث عن الشاعر على ما هو معروف من اخبار حياته واقوال النقاد السابقين في شعره كقوله عن الفرزدق انّه ينحت من صخر وعن جرير يغرف من بحر،وعن شاعرية الأعشى اذا طرب والنابغة اذا رهب، وتمييز الشاعر بما اشتهر به من فن كشهرة الحطيئة بالهجاء ، وعمر بالغزل والتشبيب في مواسم الحج . وأيّد فكرةً سابقة تجعل الشاعر الذي يميل الى فن معيّن اكثر من غيره – حتى يطغى على ما سواه – اقل في الرتبة من الشاعر الذي يشارك في الفنون ، كما في حديثه عن عمر بن ابي ربيعة ، وعن ابي نُواس .

المقامات الادبية والنقدية قبله . والسّرقسطي مسبوق إلى المقامة النقدية فقد وضع أبو عبدالله محمد بن شرف القيرواني (. . . – ٤٦٠) عشرين مقامـــة سمـــاها هو عشرين حديثاً ، وأورد خبر تأليف بديـــع الزمان لمقاماته وقـــال إن الخبر اتّصل في زمانة بأن البديـــع أنشأ عشرين مقامـــة ، وأنه لم يطلع على

٤) المقامات ٢٩ أ ـ ب ٥) المقامات . ٤١ / ب ٦) المقامات ٤٤ / ب

هدا العدد [1] . والموحود الآن من أحاديثه العشرين ثلاثة طبعت في القاهرة بعنوان أعلام الكلام [2] ، والأولى منها المقامة النقدية في الدخيرة لابن بسام [3]. وإذا قسنا حديث ابن شرف بما قاله السرقسطي بعد نحو قرن وجدنا ابن شرف أكثر استقصاء وأدق تعبيراً وأكثر جرأة في إصدار الأحكام وهو يصدر عن منهج خاص واضح وابن شرف قيرواني أمضى معظم حياته خارج الأندلس ثم دخلها واتصل ببني عباد وتوفي سنة ٤٦٠. وقد أورد ابن بسام ترجمته وطرفاً من ترسله وشعره ، مما يدل على اطلاع الأندلسيين على آثاره .

مقامة ابن الشهيد وفي الدخيرة مختارات من مقامات عرض فيها أصحابها لشيء من النقد ، أو الرأي الأدبي ، أو ما يتعلق بالأدب جملة من ذلك أجزاء من مقامة للوزير الكاتب أبي حفص [4] عمر بن الشهيد (١ / ٢ : ١٨٤) قال : وله من مقـامة حذفتُ بعض فصولها لطولها قال في صدرها . « إن صنعة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن والسعيد من خدمت دولة إقباله والشقي من كانت رأس ماله . والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه لم يدخله في مناقبه .لا سيما وقد تناولها يد كثير من السُّوَق وباعوها بيع الخلَق، فسلبوها تاج بهائها ورداء كبريائها، وصيّروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظه ولايفرع في قالبها لفظه . » [5] وهو هنا يتحدث عن الكتابة الديوانية وحال صاحبها وكيف أن تقلب الأيام جعل كثيراً من السوقة والضعاف يتبوؤن هذا المنصب فزال عن الصنعة رونقها الذي كان عليها . وعرض في فقرة أخرى إلى ما تتطلبه الصناعة إذا أريد إحكامها « والبليغ كالجوهري واحد التعب ، في نظم الدُّر أو المُخَشْلَب وكالصائغ واحد العناء في سبك الشَّمر أو الفضة البيضاء . وكالعقاب واحد الاهواء على الصقر أو المُكّاء . والعاقل من برز يوم السرور

١) اعلام الكلام ١٦ ٢) من مجموعة الرسائل النادرة ـ اعلام الكلام محمد بن شرف القيرواني ـ مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٦ م

٣) الدخيرة لابن بسام ٤ / ١ ١٥٤ ـ ١٦٥ وفي الدخيرة أيضاً ١٦٥ ـ ١٦٧ مقامة رابعة لم تذكر في اعلام الكلام .

٤) في هامش الدخيرة ٤ / ١ ١٩٩ أن الحميدي رأى أبا حفص عمر بن الشهيد في حدود سنة ٤٤٠ . ٥) الدخيرة ٤ / ١ ، ١٨٤

في ري الأعياد ، ويوم الحزن في ثياب الحـــداد . وسيّان في الفصاحة والبرد من حدّ عبد الهزل أو هزل عبد الجد . » [1]. وهو يصف ما يعانيه الـكاتب البليـغ من الجهد في إخراج عمل فني جيد وقايس بين ذلك وبين عمل الجوهري والصائغ وهما من أدق الصناع ، وعملهم يتطلب المهارة والأناقة والذوق . وصور إصابة المعنى بطريقة انقضاض العقاب على فريسته ، دقةً وقوةَ إحكام. ثم خرج أبو حفص إلى غرضه الأصلي من المقامة ماراً بذكر رجل اسمه ابن الحـــديد رفع مقامته إليه على ما يظهر .

مقامـــة لابن فتوح . في الذخيرة ١ / ٢ . ٢٨٦ — ٢٨٨ فصل نقـله ابن بسام في ترجمة الأديب أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح ، وهو من طبقة ابن برد الأصغر ، وروى فيه ابن فتوح حـــادثة أرّخ لها بسنة ٤٣٠ قال إنها كانت بينه وبين فتىً لقيه بالمسجد الجـامع بالمَرِيَّة في ليـــلة من ليالي رمضـان . فقد سمعه الفتى يردّد بيتاً من الشعر فاستعاده ثم قال له إنه أحـــد معناه من أبيات للعبّـــاس بن الأحنف ، واصطحبا ثم عادا إلى اللقاء وتذاكرا في بعض أدباء الأندلس . « فقال لي كيف ذكرك لرجـال مصرك ؟ ووقوفـك على شعراء عصرك ؟ قلت : خـير ذكر . فقال مَنْ أعذبهم لفظاً وأرجحهم وزناً ؟ قلت الـرّقيق حاشية الطرف الأنيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد قال فمن أقوامهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت البحر العَجاج والسّراج الوهّاج أبو عامر ابن شهيد. قال فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبـار ؟ قلت الحلو الظّـريف البـارع اللطيف أبو الوليد بن زيدون . قال فمن أكْلَفُهم بالبديـع وأشغَفُهم بالتقسيم والتتبيـع ؟ قلت الرائع في روضة الحَسَب ، المستطيل بفرعه الأدب أبو بكر يَحيى بن ابراهيم الطُّـشي فأنشد .

وخاطبَ قساً في عكاظ مُحاوراً على البُعد سحبانٌ فأفحمه قُسُّ [2] »

فهذا مجلس تعرض فيه كاتبه لشيء من نقد معاصريه من مواطنيه الأندلسيين، وقد حـاول أن يُميّز كل أديب بصفة غالبة عليه ، بآراء عامة . والأوصاف التي أطلقها على كل واحد تتعلق بأسلوبهم . وقد عرض ابن بسام هذا الفصل على

١) الذخيرة ٤ / ١ ١٨٥ ٢) الذخيرة ٤/١ . ٢٨٧ — ٢٨٨

أنّه من أخبار ابن فتوح على أنه أقرب إلى أن يكون حادثة صانعها هو بلسانه وأسلوبه وطريقته .

قال ابن بسام . « وحدّث ابن فتوح أيضاً عن نفسه قال كنت ليلةً في رمضان أطوف بالمسجد الجامع بالمريّة سنة ثلاثين . . . » .

وحديث ابن فتوح قد يكون مقامة في مضمونها وطبيعتها»[1] وإن شذّت في عدم استتار المؤلف وراء شخصية وهميّة ، وحدّدت الزمان والمكان ، مما هو ألصق بالواقع .

وصارت المقامة مركباً سهلاً لجؤوا إليها في محاكاة المقامات المشرقية أو تضمين أوصاف البُلدان أو الحوادث ، أو استغلالها في النّقد الأدبي أو ما نسميه النقد الشخصي كالذي كان من المقامة القرطبية التي نُسبت إلى ابن أبي الخصال فتنصّل منها ، ورد عليها بعضهم برسالة الانتصار وأدت إلى ضجّة في وقتها لِما فيها من نَقد مجموعةٍ من رجال الدولة والفكر، وفيهم ابن السّيد البطليوسي ، وهذا يَخرج بنا عن موضوعنا ، ومكانه حيّزٌ آخر[2] .

مقامة السرقسطي المحسون في النّظم والنثر. موضوع هذه المقامة بسيط قديم، وما نتوقعه من رأي شخصي للمؤلف يضيفه الى النقد ليس بالعزيز ذلك أنه شغل نفسه بمناقشة أطالها في غير طائل عن الشعر والنثر . أيّهما أسبق وأيّهما أفضل ولأيهما العلبة إذا احتكما . . . وروى المقامة على لسان السائب بن تمام وقال إنه نزل بحواره رجل ذو منظر جاف وفتيان ، ومن الحوار بينهما عرف السائب أنهما حبيب وغريب ابنا ذلك الرجل . ثم دخل الفتيان في نقاش وجدال . قال حبيب لغريب « هذا النّظم والنثر كيف القَوْلُ فيهما والكُثْر وأي المتّصل أو الأثر وأيهما أعقب صاحبه أثراً وأحرز دونه أثرا . وأيهما في النفوس أوقع وأشفى لغُلّة الصادي وأنقع . وأحظى عند السُّوقة والملوك وأمضى بالسفارة والألوك »[3] وتناولا الحديث عن النثر والشعر ، فقال حبيب

[1] عصر الطوائف والمرابطين ٣١٢ - ٣١٣

[2] في مجموعة « رسائل إخوانية أندلسية » بدار الكتب عدة مقامات منها المقامة القرطبية والانتصار وغيرها

[3] المقامات اللزومية . ١١٩ ب

إن الشعر أصعب مُرتقى من النّثر وأقرب إلى الحفظ وبه يظهر جمال الكلام من لفظ ومعنى . « الشعر أصعب مرتقى وأعذب منتقى ، وأبدع لفظاً وأسرع حفظاً ، وأوسع مجاراً وأنصع إيجاراً . . وأقصر معاني وأجد مباني ، وأروى زنداً وأذكى زَنداً ، وأجرى على اللسان وأحرى بالاحسان ، وأبعث للطرب وأذهب للكرب وهل سمعتم بنثر تُخلع عليه الخلع » [1] وجعل من دواعي فَضل الشعر وجوده في العرب والعجم ، ثم جعل العرب أحق به لجمال اللفظ العربي وعنايتهم بالشعر عناية كبيرة ، وهذه صلة تمُتّ بصلة إلى رأي من آراء الجاحظ ثم قال إن النثر في متناول كل أحد إلا الشعر فهو ذو شروط ولوازم لا بد من توفرها . ثم انتقل إلى النثر ليصفه باليُسر والسهولة ، وبأنه يخدم الأمراء ويدير السياسة ، ويصرف أمور الناس إذ به تُكتب الرسائل السلطانية فيسجن ويطلق، ويقدم ويؤخر وعدّ أبو الطاهر مجالات النثر المختلفة ومهماته الكثيرة ثم قال : إن معجزة النبي ﷺ لم تكن بالشعر ، وسُمي بديع الزمان باسمه وهو كاتب لا شاعر واحتدم الجدال بينهما حتى استيقظ ابوهما وعلم خبرهما ، فطلب إليهما ان يكونا عادلين في الحكم ويتحرّيا الحقيقة، ثم قال موازناً بين الشعر والنثر تاركاً لكل مجاله « كُلٌ على حِياله محمول على الحسن معدود من اللسن والشعر فحل عقيم وسفر مقيم . ومفض مودود ومعذر محدود . وإن شاوه كذباً وَمَيْناً فقد اغضوا عليه عينا وانما حمده أوفر من ذمه وشَهْدُه أكثر سمه . » [2] وخرج إلى النثر « وأما النثر فأنثى ولود وزند لا كاب ولا صلود . عين ثرة وأم برة له موضع ومكانة . وعزة واستكانة يَحْلَولي ويمر ويَحُل ويَمُر. يلج في كل باد. ويقدح بكل زناد نادٍ حاضر ودانٍ ناصر .. وقد فضلته الأكابر والأعاظم . فلا تفضلا قائلاً على قائل إلا بفضل فاضل وطول طائل . والإحسان ضروب والشمس طلوع وغروب . وخُذا في كل الأحوال بالأعدلِ الأقسط وميلا الى الأسهل والأبسط ولا تعدلا عن السواء الاوسط» [3]. وعرف منه أيضاً هذه النصيحة في اختيار الأسهل الأبسط

١) المقامات اللزومية . ١٢١/ب
٢) المقامات اللزومية ١٢٢ / أ

وقد ملأ مقاماته تعقيداً عَلِمه هو و قصد إليه وحمل مقاماته لرومية ! .

وانهى مقاماته نهاية فنية اذ اشتكى الشيخ الناصح على الملأ من الفاقة التي تلازم اهل الأدب فقال، والخطاب لا بنيه: تشاغلنا بالآداب والمعارف وعملنا عن الأحداث والصوارف . وانا دونكما أرامي وأناصل ، وأراحم الأيام وأعاصل . وهذا العلم قد اضاعته الصوائع . ودعرت منه الروائع .. « فحاد له الحاضرون » وأدرك من حديثه ما اراد .

ولئن لم يأت أبو الطاهر بكثير من الآراء الجديـدة في النقد الأدبي ، فانه أطلعنا على رأيه في عدد من الشعراء المشارقة ورأيه في الشعر والنثر. ولكنه لو نظر إلى الأندلسيين ـــ كما فعل غيره على قلة ـــ لأغنى بحثنا بجديد طريف .

صنع ابن خفاجة ديوانه بنفسه ورتبه نزولاً عند رغبة طائفة من أصدقائه الأعيان والأدباء، فقدم له وهذه المقدمة هي موضوع اهتمامنا. وابن خفاجة هو أبو إسحاق ابراهيم بن أبي الفتح، عبدالله بن خفاجه [2]. ولد ونشأ في جزيرة شُقر وهي مدينة قريبة من شاطبة وتبعد عن بلنسية ١٨ ميلاً، ويحدق الماء بمدينة شقر من كل جانب ولهذا سموها جزيرة. وكان أبو اسحاق على غِنى ويسار فلم يتكسّب بشعره وإن مدح فلاعتبارات أخرى غير ماديّة. ووجد في البيئة الجميلة التي تقوم فيها المدينة من مياه وأشجار ومتنزهات مما فتق إعجابه بالطبيعة وساعد شعره على اكتساب تلك الصور حتى دعي جَنّان الأندلس[3]. وإلى جانب المؤثرات الخارجية من جمال الطبيعه ويُسر المعيشة كان أبو اسحاق شديد الحساسية مرهفاً بالغ التأثر، ومن مظاهر ذلك رغبته في الانتقاء والتخير. فقد نقل الضبي أنه كان يأتي إلى الذي يبيع الفاكهة « فيساومه فإذا سمّى له عدداً أو وزناً نقص من ذلك العدد أو الوزن على شرط أن يختار ما أحب بيده[4] » وهذا الاختيار الدقيق يفسر لنا جوانب من أسلوبه في الشعر والنثر. وكان ابن خفاجة يخشى الموت ويخاف منه. ولعل طول أجله (٨٢ سنة) ووفاة أصحابه عنه واحداً بعد واحد زاد من هذا الشعور، فكان يخرج إلى الجبال القريبة « فإذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا ابراهيم تموت — يعني نفسه — فيجيبه الصّوت، ولا يزال كذلك حتى يخر مغشياً عليه »[5] وكانت حياته في

---

١) ترجمته في (القلائد) الفتح بن خاقان ٢٤٠ – ٢٤١ المطرب لابن دحية ١١١ – ١١٧ . التكملة لابن الأبار ١٤٣ رايات المبرزين لابن سعيد ٨٧ المغرب ٢ ٣٦٧ معجم شيوخ الصدفي ٥٩ وفيات الأعيان ١ ٣٩ – ٤ وهو من رجال الذخيرة (القسم الثالث) نقل عنه ابن خلكان وغيره وذكره في النفح انظر ٥ ٩، ٣٥

٢) يختلف اسم أبيه في المصادر بين الفتح وأبي الفتح

٣) نفح الطيب ٥ ٣٥

٤) بغية الملتمس ٢٠٣

٥) بغية الملتمس ٢ ٢ – ٢٠٣

فترتين متميزتين . فقد قضى شطراً من حياته يعيش حياة ترف ولهو ومجون — وهو لم يتزوج قط ثم انصرف الى الزهد والتوبة، وغادر ملذات الدنيا وأعرض عن الشعر لولا مجيء الأمير المرابطي ابراهيم بن يوسف ، فمدحه إعجاباً به ، وكان جمعه ديوانه في هذه المرحلة الثانية . وقد تغرّب أبو اسحاق عن وطنه زمناً — إذ سقطت بلنسية في يد الإسبان مدة—ثم عاد بعودتها، وفيها توفي سنة ٥٣٣ عن اثنتين وثمانين سنة .

شعره ونثره

وقد ولع الأندلسيين بشعره منذ برع في النظم فتناقلوه وشاع ذكره وبعطه في الاجادة. وذكر ابن سعيد [١] أن أبا زكريا يحيى بن محمد الاركشي كان راوية ابن خفاجة ، وأخذ جماعة غفيرة عنه ديوانه في حياته [٢] . وقال ابن الأبار في ذلك « وديوان شعره متنافس فيه مرويّ عنه » [٣]. واحتذى نفر من شعرائهم طريقته ، وصار من المألوف أن يوصف بعضهم بأنه خفاجي النزعة

وهو في نثره مائل « الى الطريقة التي وصل اليها النثر المشرقي على يد أبي العلاء المعري وطبقته وقد انتقلت هذه الطريقة الى الأندلس»،وكان ابنُ خفاجة عا له من براعة قادراً على اصطناع ذلك الأسلوب دون أن يجور على المعنى،ودون أن ينقلب نثره الى صور شكلية زخرفية لامعنى وراءها.وسمّى الكلاعي الإشبيلي أسلوب المعري هذا من النثر المُوَشّع وألحق به اسلوبَ ابن خفاجة، واستشهد بنماذج من ترسله . [٤]

مقدمة الديوان . ١ — بدأ بحديث عن الشعر ومكانته في النفوس ومنزلته في الناس « فالشعر من حلال الحلة وحلية النبلاء العلية » وقال ان نفسه مالت الى الشعر وإلى ارتياده فاطاع زعتها ونظم الشعر مولياً إياه العناية والرعاية باذلاً من جهده كل الطاقة ليكون عنده منه أحسن بضاعة وأجمل صناعة . وقال انه فتح عينيه في صباه على أشعار الشريف الرّضي ومهيار الدّيلمي وعبد المُحسن الصوري فراقه شعرهم واستهوته طرائقهم ، ونزع الى تقليدهم جميعاً دليل الإعجاب

١) المغرب ١ : ٣١٦ ٢) مقدمة الديوان ٨ — ٩
٣) التكملة ١٤٣ ٤) إحكام صنعة الكلام ١٣٣

بهم ورغبة اللحاق بهم ومجاراتهم . ولم يجدد أبو اسحاق رسماً وقف عنده تقليده لغيره و ولكن الخروج من التقليد الى المذهب الشخصي أمر" دقيق يدركه الناقد قبل أن يعلمه الشاعر نفسه . ثم أتم ابو اسحاق حديثه عن قصته مع الشعر فقال إنه لما انقضى عصر الشبيبة وآنس هو من نفسه تحوّلاً الى المشيب أعرض عن الشعر جملة . وهذا الوقت يواكب كما اسلفت فترة نُسكه وزهده وابتعاده عما كان فيه من خلاعة الشباب ، قال « ولمّا انصدع ليل الشباب عن فجره وزعب المشيب بناعب هجره ، نزلت عنه مركباً وتبدلت به مذهباً . فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة اضراب راغب عنه زاهد فيه ، حتى كأني ما سامرته جليساً يشافهني انيسا . ولا سايرته اليفا يفاوهني لطيفا » [1] . وعاد الى الشعر ثانية لمناسبة طارئة لم يملك تحسّبها . فان الأمير أبا اسحاق ابراهيم بن يوسف ابن تاشفين دخل الأندلس ، وجاءته وفود المستقبلين المهنئين وكان منهم ابن خفاجة وقد صوّر عودته الى الشعر بعد دخول الأمير بأنه « تعيّن ان أفد عليه مهنّئاً بالولاية مسلماً وأغشى بساطه الرفيع موفياً حق الطاعة معظماً فما لبث ان رفع واسى واصطنع فادنى .. فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني ، ونظمتها عند ذلك حللاً على معاطف سلطاني ، مصطنعاً لا منتجعا ومستميلا لا مستنيلا اكتفاء بما في يدي من عطايا منّان وعوارف جواد وهّاب . » [2]. وكان مديح، ولكنه بغير استجداء . وكان عودٌ الى الشعر ولكن بغير غزل ولا هزل ولا مجون .

٢ — عرف الناس قيمة شعر أبي إسحـــاق وكان له معجبون به، متناقلون قصائده . ولما آنسوا منه انشغالا عن الشعر ، الذي طالما اجاد فيه ، وتقدماً في السن ، رغبوا إليه في جمع ديوانه ليأخذوه عنه فنزل عند رغبتهم واجتهد في جمعه من رقاع مختلفة مشتتة تطاولت عليها الأيام، فلما اجتمع عنده أعمل فيه نظره الفاحص الناقد ولم يتركه كما هو ، ولعله لو كان جمعه في إبّان شبابه لغيّر مقياسه، فحذف شيئاً وأضاف شيئاً وعدل في بعض الأبيات والكلمات . وعلل صنيعه بطلب الاجادة الفنية : « واقتضى النظر فيما حاولته أن أتعهّده ثانياً تعهد مؤلف

١) الديوان . ٧ ٢) الديوان ٠ ٧ — ٨

وأتفقده تفقد متأمل منعم فمنه ما تعهدته فقيدته ومنه ما لحظته فلفظته ومنه ما تصفحته فأصلحته . إما لاستفادة معنى وإما لاستجادة مبنى » [1] .
وقال إن عمله هذا سيجعل ما بأيدي الناس من رقاع كانت دعت مختلفاً شيئاً ما عن الصيغة الأخيرة التي ارتضاها لديوانه . وهذا نموذج آخر من رغبة ابن خفاجة في حسن الاختيار وأن يكون مطابقاً لما يريده ويرضاه واطرح أشياء لأنه لم يرتض موضوعها جملة. أو معناها، وعدّل في أشياء لأنه لم يرق له مساقها، فكانت نظرة شاملة للفكرة والصياغة .
٣ – وخرج إلى حديث عن الشعر والنثر فقال إنه كان قد صدر بعض قصائده بشيء من النثر فأحب حين جمع الديوان أن يبقيه كما كان في صدور تلك القصائد، فإن في ذلك نشاطاً للقارىء وانتقالاً من فن إلى فن فلعل ذلك . « أبسط للنفس وأنشط ، وأذهب مع الأنس وأهذب». وقال إن جيد الشعر لا يمكن أن يثبت عند حالة واحدة ولا بد له من الاختلاف بين طرفين عال ودان، ووسط. فإن الشعر مؤلف من معنى ولفظ وعروض وحرف روي ولا يمكن أن تكون الإجادة في جميعها واحدة دائماً لأن الانسان ليس مستمراً على حال لا تتغير فالأذهان تنشط وتخبو والألفاظ تطيع وتستعصي وعلل ابقاء بعض شعره الذي في الهزل والغزل وما شابه بأنه خلي من هجر الكلام داخل في الدعابة والفكاهة مما يجد فيه طرفة كل من الشباب والكهول ومن هذه الملاحظة خرج أبو إسحاق الى الحديث عن فئة دأبت على نقده وتنقّص شعره . وحملوا ما حكاه في قصائده ومقطعاته حكماً على تصرفاته وسلوكه، في حين يقول إن قول الشاعر فعلت كذا وصنعت كذا لا يعني إقدامة على ما قال ولا ارتكابه ما عرض به . وقد استجاروا للشاعر أن يقول فعلت وصنعت دون ان يكون وراء ذلك حقيقة فتلك طريقة من الطرق الشعرية ارتضاها الشعراء وعرفوها وليس فيها على الشاعر مأخذ وتشدد أبو اسحق في الأخذ عليهم « ولم أحتمل نقد أقوام في مساليخ أنعام ، يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلاً . » وأوضح لهم طرفاً من العمل الشعري « فإن الشعر مأخذ وطريقة ، وإذ كان القصد فيه

١) الديوان ٩ .

التخييل فليس القصد فيه الصدق ولا يعاب فيه الكذب . ولكل مقام مقال ». وقال انه لا يصح لكل أحد أن يخوض في مثل هذا ، فلكل موضوع أهله ومن شأنه عقده وحله

٤ – وكان لا بد له من أن يوضح بعد أن عرض. فبدأ بمقدمة مسلمة . فكل الشعر المرتجل البديهي منه والمنقح الحولي لشاعر متقدم أو الآخر متأخر، عرضة للنقد سواء أكان النقد علمياً يقصد به تقويمه وتبيين خصائصه، أو كان معرضاً يجنح فيه صاحبه الى التجريح والتقبيح وقال انه بلغه عن احدهم – ولم يسم – « انه لا يرى لأحد من حاكة الشعر في حال من احواله. وقول من اقواله الا ان ينتحل مدح أو تغزل ، وجد أو هزل . وينتهج في باب الغزل تلك الطريقة الأنيقة ويستبرد تلك الألفاظ المزهفة الرقيقة »[1] وكان لا بد له من أمثلة فجاء بمثال خاطب به ذلك المنتقد وطلب اليه ان يقارنه بشعر عبد المُحسن الصوري وطريقته[2] . ثم شفع المثال بأمثلة أخرى حاكى فيها الشريف الرضي ومهيار الديلمي في الغزل ووصف الديار[3] . وانتقل من طرائق هؤلاء الى طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة[4] ومثّل لذلك بمقطوعات منها

يغشى رماحَ الخط أولَ مُقبل ويكر يوم الحَرب آخر مُدبِرِ
فتراه بين جراحتين : للحطةِ مكسورةٍ ، ولعامل مُتكسّر

وختم مختاراته بقوله إن لكل واحد من هؤلاء طريقته الخاصة ، وكلها يستهوي النفوس على وجه خاص ولم يكتف أبو اسحاق بما ناقش ذلك المنتقد في غير معرفة ، وأحرجه بطريقة أخرى ، فقال له لقد حكمت على شعري بأنه من الأسلوب السخيف واللفظ الضعيف أفلا جئتني بمقطوعتين أو ثلاث من مثل ذلك لنقيس ما جئت به على ما عبته وإلا فأنت كمن يعيب أمراً يشتهيه ولا يطوله وامتدح في هذا المعرض الوزير أبا بكر بن المُرجي لأنه آنس منه كلاماً جيداً منصفاً في موضع نقد شعره ، وقال إن الكلام السيء لا يصدر إلا عن رجل سيء ، وإن الغض والتنقص لا يمكن أن يكونا من صفات الناقد المتبصر

١) الديوان ١١ – ١٢ ٢) الديوان ١٢ ٣) الديوان ١٤
٤) الديوان ١٦ ٥) الديوان ١٧

المصف . « فهو يلقط ما لا يسقط بين سوء طوية واعتقاد ، وتأخر في باب الانتقاد ، رجاء تساوي الأقدام في المراتب » .

٦ — أوضح ابن خفاجة مذهبه في الشعر والنثر معاً في هذه المقدمة ، وهي تدل على اطلاع أبي إسحاق على مذاهب الشعر في المشرق وشعرائه ويتدخل ذوقه ومنهجه في اختيار نماذج من الشعراء المشارقة يحتذيهم ويبني على قوالبهم . وناقش الذين تعسفوا في نقده مناقشة موضوعية بأن قدم بين يدي شهادته الأمثلة والنماذج . واحتكم في شعره إلى شعر الذين حاكاهم حاراهم في ذلك أم قصر دونهم ، متنقلاً بين الصوري ، والرضي، ومهيار ، وأبي الطيب، ولكلٍ طريقته وأسلوبه وقال إن الشاعرية تختلف عند الشاعر الواحد بحسب ظروفه في الزمان والمكان والأحوال ، وأنه لا يستمر شعر شاعر على حال واحدة، فهو في طرفين . جيد ورديء ، ثم وسط. ولما عرّف الشعر أخذ معنى قدامة في تعريفه الشعر « انه قول موزون مقفّى يدل على معنى » [1] وقال « والشعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحرف روي » [2] وعلل اختلاف الشعر باختلاف هذه الأجزاء مفردة أو مركبة أما النثر فقد أكثره أبو إسحاق وأدخله في ديوان شعره من ذلك مقدمات القصائد ومناسباتها ،ومن ذلك مكاتبات كان فيها شعر ونثر فابقى عليها إعجاباً بها ، وترويحاً للقارىء كما قال ، وربما كانت رسائل نثرية خالصة تركها على حالها .

وذكر ابن خفاجة قصة طريفة تبين مذهبه في الشعر ، وتمثل تطبيقياً لمنهجه النقدي قال ذهبت يوماً أريد باب السمارين بشاطبة ابتغاء الفرجة على جرية ذلك الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ثمانين وأربع مئة ، وإذا الفقيه أبو عمران بن أبي تليد رحمه الله قد سبقني إلى ذلك فألفيته جالساً على مصطبة كانت هناك مبنية لهذا الشان ، فسلمت عليه وجلست اليه متأنساً به وبتلك الحال ، فانشد في اثناء ما تناشدناه قول ابن رشيق رحمه الله [3]

يا من يَمُر ولا تَمـُرّ ... به القلوب من الحُـرَقْ
بعمامة من خـــدّه ... أو خدّه منها استَرَقْ

١) الديوان ١٥ ٢) الديوان ٩
٣) ديوان ابن رشيق (١٢٨ — ١٢٩) والقطعة فيه بخلاف يسير

فكأنه وكأنها قمرٌ تعمّم بالشفق
فإذا بدا وإذا مشى وإذا رنى وإذا نطق
شغل الخواطرَ والجوا رح والخواطر والحدق

فقال وقد أعجب بها جداً وأثنى عليها كثيراً : أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد . فقلت له هي حسنة ولكنها دون موقعها منك وإلا ألست تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله فيترل بإزاء كل واحد منها ما يلائمها وهل يحسن أن يترل بإزاء قوله . وإذا نطق قوله شغل الحدق ؟ . وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد فقلت أنسج على ذلك المنوال

ومُهفهفٍ طاوي الحشا خنِث المعاطف والنظرْ
ملأ العيونَ بصورة تليت محاسنها سُوَر
فإذا رنا وإذا شدا وإذا سعى وإذا سفَر
فضح المدامة والحما مة والغمامة والقمر

فاستحسنها ابن أبي تليد (١) . ومراد ابن خفاجة أن ابن رشيق لم يحسن ترتيب البيت الأخير بمثل ما يقابله جزءاً جزءاً من البيت الذي قبله ، ومن هنا كان قول شغل الحدق في مناظرة . وإذا نطق ، غير سليمة وجعل بيتيه نموذجاً لما ارتضى من حسن سياقة الأعداد كما سماه . وعلّق ابن دحية الكلبي في المطرب بعد القصة «قلت هذا تعسف ، ولم يرد ابن رشيق مقابلة الأعداد بعضها ببعض وإنما أراد أن جملة محاسن هذا البدر الزاهر شغلت جملة هذا المتأمل الناظر (٢) » ولكن هذا الانتقاد يمثل شيئاً من مذهب ابن خفاجة الشعري ومقياسه في التذوق .

١) الديوان ٣٥٧ - ٣٥٩

٢) المطرب ، ١٣

هو أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني(*) واحد من علماء الأدب – كما وصفه ابن سعيد(1) – عاصر القرن الخامس في أواخره وفترة طويلة من القرن السادس، (ت ٥٤٢) . ونقل في المُغرب « العَجَبُ أنه لم يكن في حساب الآداب الأندلسية أنه سيُبعث من شنترين قاصية الغرب ومحل الطعن والضرب من ينظم قلائدها في جيد الدهر، ويُطلعها ضرائر للأنجم الزُّهر ولم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة إشبيلية ولا غيرهما من الحواضر العظام من يمتعض امتعاضه لأعلام عصره، ويجهد في جمع حسناته نظمه ونثره(2) » . وإذا ذكر ابن بسّام فإنما هو الذخيرة، وإليه الحديث

لم تُعن كتب التراجم بابن بسام كثيراً، فكأن كتابه، أغناهم عن أخباره(**) . وقد كان صديقاً لأبي بكر بن العربي، وذكر هو في الذخيرة ١/١ . ١٤٤ – ١٤٥ أنه يروي خبراً عن ابن العربي عن الحُميدي عن ابن حزم . ونقل الكلاعي في كتابه عدة أخبار عن معاصره ابن بسام، بعضها متصل بابن العربي أيضاً . وفي نفح الطيب شعر له، وصفه الحِجاري بالبرود – كما نقل ابن سعيد – في حين وصف نثره بأنه عالي الطبقة . وابن بسام منسوب إلى شنترين من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس(3) . وقد تنقل ابن بسام في البلاد واستوطن إشبيلية، ويظهر أنه لازمها طويلاً حتى شك ابن سعيد في الروايات

---

* ترجمته في نفح الطيب ٥ ٩ والحديث عن الذخيرة في ٢ ٢٥٦ . والذخيرة من مصادر المقري الأولى ومعجم الأدباء لياقوت ١٢ ٢٧٥ ، رايات المبرزين ١٦ ، والمغرب لابن سعيد ١ ٤١٧ وانظر مراجع التحقيق وفي إحكام صنعة الكلام ملاحظات ونقول عنه

1) رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد ١٦

2) المغرب ١ ٤١٧ – ٤١٨

3) المغرب ١ ٤١٧ ، ونفح الطيب ٥ ٩

** انظر Brock G I 339, S I 570

فقال « كان مستوطنا إشبيلية وأظنه منها[1] » .

مؤلفاته .

لا نعرف لابن بسام فيما هو موجود من كتب غير الذخيرة ، ولكنه ذكر في كتابه أربعة كتب أخرى جارية على نمط الذخيرة كما يبدو ، فكلها لاحقة بكتب التراجم والمختارات، وقد نص عند ذكر أحدها أنه أفرده بتأليف خاص حين ضاق (الذخيرة) عن استيعابه . وهذه الكتب هي ١) **الاعتماد على ما صح من شعر المعتمد بن عباد** (الذخيرة ٢ ٢٦ ط مخطوطة دار الكتب) . ٢) **الاكليل المشتمل على شعر عبد الجليل** . ٣) **سلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن طاهر** ٤) **الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار** (الذخيرة ٢ ١٣٠ / و) .

كتاب الذخيرة سمى ابن بسام كتابه **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** وضمنه محاسن أدباء الأندلس من بُعيدالدولة المروانية إلى عصره فهو صلة لكتب سلفت في الدولتين المروانية والعامرية . لأن ابن فرج الجَيّاني كتب في أولئك كتاب الحدائق فأغنى عن الاعادة [2] . وسبق أن أشرت إلى أن ابن بسام يمثل وجهاً أندلسياً بارزاً ممن انتصروا للاندلسية ، وجعل كتابه بالدرجة الأولى معرضاً لهذه الفكرة ، وقد رددها في مقدمة كتابه وفي مواضع متفرقة منه . قال « وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة،وتصبح بحاره ثماداً مضمحلةً ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه . ويا رُب محسن مات إحسانه قبله.وليت شعري من قَصر العلم على بعض الزمان وخص المشرق بالإحسان؟» . وناقش المسألة من جانب آخر فقال إن الإبداع الفني ليس مقصوراً على قوم بأعيانهم ولا زمان موقوت ، وينبغي عدم الاقتصار على دار مية وأطلال خولة وما شابه ذلك ، وهو يَعني الوقوف عند التراث المشرقي عموماً

وجعل كتابه في أربعة أقسام

١) الزاهرات ١٦ وجزء انتقاله من شنترين في الذخيرة ١ / ١ ٨

٢) الذخيرة ١/١ صفحة ٢

الأول. لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس. والثاني. لأهل الجانب الغربي من الأندلس وذكر أهـل حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيـط الرومي . والقسم الثالث ذكر فيـــه أهل الجانب الشرقي من الأندلس ومن نجم هناك من كواكب العصر أفق ذلك الثغر الأعلى إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك وأفرد القسم الرابع لمن طرأ على الجزيرة الأندلسية في المدة التي تولاها ابن بسام بالنظر ، من شاعر أو كاتب ، ووصل بهم طائفة من مشهوري تلك الفترة ممن كان بإفريقية والشام والعراق وصرح بأن الفصل الأخير – الطارىء – على كتـــابه إنما استدعاه تقليد الثعالبي في كتابه اليتيمة حين خصص باباً للمغاربة والأندلسيين [١] . وذكر ياقوت أن الذخيرة في سبعة أسفار [٢] ، وهذا يعود إلى الاختلاف الشكلي في عدد الكراريس المعتبرة في السفر لا إلى اختلاف في حقيقة الكتاب طبـع من الكتاب قسم ونصف من أربعة أقسام،القسم الأول في مجلدين ، ونصف القسم الرابـع تقريباً في مجلد ، والباقي لا يزال مخطوطاً. وقد عدت إلى القسم الثاني في دار الكتب المصرية فمنه هناك نسخة ، واعتاض علي أن أظفر بالجزء الثالث ، وعدت إلى تتمة القســـم الرابـع مصوراً في جامعة القاهرة عن أصله في الجزائر وعلى قدر أهمية الكتاب في تاريخ الأدب الأندلسي كان سوء حظه

منهجه . بسط ابن بسام منهجه الذي اعتمده في مقدمة الذخـيرة ، فهو اعتنى بالشعر والنثر على حد سواء ، ولم يقطع الرسالة أو القصيدة عن جملتها ، وانتقل – على طريقتهم منذ الجاحظ – من الجـد إلى الهزل لنشيط القارىء وبعث همته ، وبيّن من البداية أن كتابه لتحرير [illegible] لتسييره ، [illegible] حـكم عليه . وقال إنه سيترك الأحكام على ما يورده [illegible] الخيرة وحقيقة ابن ابن بسام [illegible] كتابه في حيز الدراسات النقدية،والبلاغية من [illegible] الأول [illegible] النقاد والأدباء من أحكام وآراء وما صدر عنـــه شخصي [illegible] وإشارات متطاولة الى السرقات الأدبية ، [illegible] بعض [illegible]

١) مقدمة الذخيرة للمؤلف ، وصفحة ٢ منها و ١/٤ ٣
٢) معجم الأدباء ١٢ ٢٧٥ وترجمته فيه قصيرة جداً

سواء بتقرير بعض الملاحظات أو بتطبيقات على ما بين يديه من أثر أدبي.
وقد أعلى من شأن البديع وجعله مدار محاسن الشعر، قال « .. لكن ربما ألمحت ببعض القول بين ذكر أجريه ووجه عذراء أريه، لا سيما أنواع البديع الذي هو قيّم الاشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها. فلا بد أن نشير إليه وننبه عليه، ونكل الأمر في كل ما نثبته ونرد الحكم في كل ما نورده إلى نقد السَقدة المهرة، وتمييز الكتبة الشعرة، الذين هم رؤساء الكلام، وصيارفة النثار والنظام [1]. » ووعد بعد قليل بإيراد لمع من ذكر البديع وجانب من أسمائه وشرح جمل من أسمائه وألقابه [2].

الموقف الديني. ونتذكر – عند البحث عن ابن بسام ناقداً – أبا محمد بن حزم من وجهين الأول دفاعه عن التراث الفكري الاندلسي دفاعاً مجيداً. والثاني: الموقف الديني من الشعر. وقد حاول ابن حزم أن يضع منهاجاً للشعر العربي من خلال نظرته الفقهية متصوراً أنه منهج إسلامي، غير أن ابن بسام اكتفى بأن بيّن لنا رأيه في الشعر عامة، فإنه لم يتخذه وسيلة كسب ولا ارتضاه طريقة تعبير، وهو إما تمويه وتخييل وإما تدليه وتضليل.. «إن الشعر لم أرضه مركباً ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا منقلباً إنما زرته لِماماً ولمحته تهمّماً لا اهتماماً، رغبة بعرّ نفسي عن ذله، وترفيعاً لموطىء أخمصي عن محله، فإذا شعشعت راحه لم أذقه إلا شميماً ولا كنت الا على الحديث نديماً وما لي وله وإنما أكثره خدعة محتال وخلعة مختال، جده تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم أولى بنا من اباطيل المنثور والمنظوم.» وهو يضيف الى ما نستشفه من المعنى الديني الاخلاقي أساساً شخصية، فإنه مترفع عن ان يذل نفسه بسؤال او طلب عطاء. ومن ذلك هجومه على شعر المعري الذي فهم هو منه الخروج على الشريعة، وعلى شعر السُميسر الذي لهج بشيء من المنطق، والحديث فيما توقف فيه المسلمون مثل قوله

لقد نشدنا في الحياة التي ... تورِدُنا في ظلمة القبرِ
يا ليتنا لم نكُ من آدمٍ ... أورطنا في شبه الأسرِ

1) الذخيرة ١ / ١ ٦

2) المصدر نفسه ص ٧ – ٨.

إن كان قد أحرَجه دسُّـه فما لنا نُشركُ في الأمر ؟ [1]

وعلق على الشعر فقال « والسميسر في هذا الكلام مِمَّن أخذ العلو بالتقليد ونادى الحكمة (الفلسفة والمنطق) من مكان بعيد صرَّح عن عمى بصيرته ، ونشر مطويّ سريرته ، في غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء وهيه ساواه في قِصر باعه وضيق ذراعه ، أين هو من حُسن إبداعه ولطف اختراعه [2] ؟ » والطريف أن ابن بسام على تشدّده يغتفر ما في الشعر إن َلطُف معناه وَحسُن لفظه ، وهذا استدراك يلطّف من غلواء نظرته وأنحى باللائمة أيضاً على الحصري الكفيف لاتباعه المعري « وله على ذلك سجع يمجّ أكثره الطبع ، لم يسمح نقدي أن اكتبه ولا راقني أن أرويه وما أراه يسلك إلا سبيل المعري فيما انتحاه [3] » .

وناقش بعض المعاني الفلسفية في قصيدة لابن عبدون رثى فيها ابا الحجاج الأعلم الشنتمري ثم قال . وذهب هنا من صفة النفس إلى مذهبٍ كلاميّ ٍ كقول بعض أهل بلدنا وهو أبو عامر بن موار الشنتريني من جملة ابيات

يا لقومي دَفنوني ومضَوا ونسوا في الطين فوقي ما بَنَوْا

ليت شِعري إذ رأوني ميِّتاً وبكوني أي جزأيّ بكَوْا

أبعوا جسمي ؟ فقد صار إلى مركز التعيين أم نفسي َنعوا؟

كيف َيبعون ُنفوساً لم َتزل قائمــاتٍ بخصيص وَلجوا

ما أراهم َنــدبوا مني سوى ُفرقة التأليف إن كانوا دَرَوا

وعلق ابن بسام بعد هذا بقوله « وهذا معنى فلسفي قلما عرَّج عليه عربي ، وإنما فرع اليه المحدَثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب وعدموا رونق كلام الاعراب ، فاستراحوا الى هذا الهذيان استراحة الجبان الى تنقُّص أقرانه واستجادة سيفه وسنانه وقد قال بعض أهل النقد إنه عجيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلام الاطباء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء » وترك

١) الذخيرة ١ / ٢ ٢٧٦

٢) الذخيرة ١ /٢ ٢٧٨

٣) الذخيرة ٤ /١ ١٩٢

معاصرَه وابن بلده إلى المتنبي والمعري: «وإني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه وذكاء قبسه، فإنه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الأسباب. وكذلك المعري كثر به التراعه وطال إليه إيضاعه حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه:

وحسبك من شرّ سماعه» وترك أمره لله تعالى يحاسبه يوم القيامة «وإلى الله مآله وعليه سؤاله»[1]. ولم يلبث أن زادت حدة كلامه ووضوح موقفه فقد أورد أبياتاً للمتنبي وأبي غسان المتَطبّب في بقاء النفس بعد الموت وفنائها، ووجد في صيغة التشكيك فرصة فقال «وهذا كلام من الإلحاد على غاية الاضمحلال والفساد، فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم النشار»[2] ثم أورد قطعة للمعري سلكها مع الكلام السابق.

موقفه من شعر الهجاء يلحق بهذا الموقف الديني الأخلاقي رأيه في شعر الهجاء، فهو يحمل على الهجاء حملة عنيفة لأنه يشين صاحبه ويلحقه بالسفهاء وساقه الحديث في ترجمته ابن شهيد إلى ذكر مقطوعة له في الوزير ابن عباس قال ابن شهيد إنه عرّض به فيها.

أولها:

* وذو عَرَقٍ ليسَ ماء الحَياء *

قال ابن بسام «وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر إذا سمّي هذا تعريضاً؟ ولولا أن الحديث شجون والتتابع فيه جنون والكلام إذا لان قياده سهل اطّراده، وإذا قرب بعضه من بعض لم يفرق بين سماء وأرض، لما استجزت أن أبين كتابي بهذا الكلام البارد معرضه، البعيد من السداد غرضه، وقد يطغى القلم فيجمح الكلم»[3] واعتاض عن الهجاء بالتعريض وقال إنه أوقع أثراً وأشد إيلاماً وأبقى على كرامة قائله، لأن الشتم والهجاء عنده يزريان بدرجة المرء وجعل الهجاء في قسمين الأول ما يسمونه هجو الأشراف «وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ولا هُجراً مستبشعاً، وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وثلّ عرش القبائل، إنما هو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير»[4] فضرب مثلاً بشعر النجاشي والحطيئة والراعي. والقسم الثاني

1) الذخيرة مخطوطة دار الكتب (٢٧٦٢ ادب) القسم الثاني ١٥٨ ظ – ١٥٩ و
2) الذخيرة ٢ ١٥٩ و – ظ 3) الذخيرة ١ / ١ ٢٦٢
4) الذخيرة ١ / ٢ . ٦١

هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته . وميزانه قول جرير إذا هجوتهم فأضحكوا . وهذا القسم هو الذي رأى ابن بسام أن يتحشّه ويمنع عنه كتابه إلا ما أفلت من القلم كما قال [١] . وموقف أبي الحسن في الذخيرة من الزاوية الدينية الأخلاقية يعتبر استمراراً لحلقات متتابعة قريبة المعرى ، ولا زلنا قريبي عهد بأبي محمد بن حزم وآرائه .

البديهة والارتجال . أشرت في أكثر من موضع من هذا البحث إلى إعجاب جمهرة الأندلسيين بالبديهة والارتجال وكان الأمراء في مجالسهم والأدباء في ندواتهم يتقارضون الشعر بديهة ويرتجلونه باقتراح مقترح أو بإثارة واحد يطرح شطراً ويطلب إجازته . وقد تعرض ابن بسام لموضوع البديهة والارتجال في مواضع عدة ، وأطال الوقوف في أحدها ونقل شيئاً من صنيع الأندلسيين والمشارقة في ذلك . وبدأ بقوله : « وقد فرق حُذّاق النظر بين البديهة والارتجال فجعلوا الارتجال ما كان في طريق الانهمار والتدفق الذي لا توقّفَ فيه كالذي وقع للفرزدق إذ أمره سليمان بن عبد الملك بضرب عنق أسير رومي ...[٢] » .

وهذا المطلع شبيه بمطلع باب عقده ابن رشيق في العمدة في البديهة والارتجال [٣] فهو قال « البديهة عند كثير من الموسومين بعلم هذه الصناعة في بلدنا، أو من أهل عصرنا هي الارتجال وليست به لأن البديهة فيها "فكرة وانتاً د ، والارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله كالذي صنع الفرزدق [٣] » ويتأكد أن ابن بسام نقل مادته من ابن رشيق حين نرى أنه نقل معظم هذا الباب بتسلسله من العمدة [٤] . ثم ترك ما روى عن بديهة المشارقة وارتجالهم، والتفت إلى الأندلسيين فأورد نماذج من أخبار ابن شهيد، ومؤمن ابن سعيد، وابن عمار، وفصّل ما روى من أخبار المشارقة هذه على أحد أهل بلده ، واستدر عن

---

١) وذكر ابن بسام في ترجمة ابن شهيد فصلا عرض فيه للفرق بين هذين النوعين من الهجاء ، فمن هناك أخذ (الذخيرة ١ / ١ ١ ٢ - ٢ ٢)

٢) الذخيرة ١ / ١ ٢٣

٣) العمدة في صناعة الشعر لابن رشيق القيرواني بتصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي - نشر الخانجي ١ ١٢٦

٤) العمدة ١ ١٢٦ - ١٣

ِادها بأن شرط كتابه يقتصي منه سرد أحبارهم على علاتها (١) . ولاحط
ن بسام أن البديهة والارتحال لا يُسعفان الا على راحة بال وهدوء خاطر ،
لهذا ما استعرب صبيحَ ابن عمار حين أنشأ عدة قصائد بعد اعتقاله ، وانقلاب
اله،وصيروته الى أسوإ مآل، قال « فصدرت هذه الأشعار يومئذ عن ابن عمار
هو في قيود الحديد ، وقالها على البديهة والارتحال في تلك الحال وبال يباحيه
بالشمال . قد تيقّنَ أنه لا يفلت ، ولا ينظر إلا إلى عدو يشمت » (٢) .

البديع . كان ابن بسام أشار في مقدمته الى أن « البديع ذا المحاسن هو
يتم الاشعار وقوامها وبه يعرف تفاضلها وتباينها » . وقد انتقل الإعجاب
الصنعة البديعية من المشرق الى الأندلس منذ زمان وتطور قدماً مع تطوره
ساك ، وان لم تكن المطابقة بين الإقليمين كاملة مضبوطاً أو مواكبة زمناً ، وان
يلتزم الشعراء والكتاب الأندلسيون بخصائص مذهب دون سواه كما كنت
كرت. ويجيء إعجاب ابن بسام في مطلع القرن السادس حيث كملت المذاهب
لنثرية والشعرية المشرقية ، وسادت طريقة المتنبي والمعري وغلبتا تقريباً على
سواهما . وكان يشير في الذخيرة الى بعض المصطلحات البديعية مستعيناً بكتب
المشارقة في ذلك ، وكتاب العمدة لابن رشيق أيضاً . وسأنبه فيما يلي الى بعض
ما ذكره لأن الكتاب لم يكمل بين يدي ، والموجود منه يكفي لإعطاء فكرة
سريعة

١) المذهب الكلامي ذكرت في فقرة سابقة موقف ابن بسام من الفلسفة
والمنطق ، وكان قد علق على أبيات لابن وهبون في المساق نفسه ، منها .

ما النفسُ إلا شعلةٌ سَقطت إلى حيث استقلَّ بها الثّرى والمَاءُ
حتى اذا َخلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقةٌ وعنَاءُ

قال ابن بسام لمل عبد الجليل اكتسب في هذا البيت والذي قبله من العمل

١) الذخيرة ٤ / ١ ٣٠
٣) الذخيرة ٢ ١٤١ / ط وفي بدائع البداية لابن ظافر (المطبعة الاميرية ١٢٧٨ هـ)
٥ — ٦ فصلان في البديهة والارتحال نحا فيهما منحى ابن رشيق ، واختار في كتابه
نماذج كثيرة من أشعار الأندلسيين في الموضوع

بحقيقة النفس ما جهله في وصفه لها قبل من أنها آل يذوب ... وذهب هنا من صفة النفس الى مذهب كلامي » [1] . (ذكر ابن المعتز المذهب الكلامي ص ١٠١ ، وقال ان أول من سماه كذلك الجاحظ ، وقد نقله ابن رشيق كما هو في العمدة ٢ . ٦٣ وأبو هلال في الصناعتين . ٣٢٥. وكلهم على اعتباره تكلفاً مجاراة لابن المعتز ، وذكره في تحرير التحبير . ١١٩ ونقل آراء أخرى) .

٢) التقسيم . في ذكر بيت ابن زيدون .

تِهْ احتَمل ، واستَطِل أصبِرْ ، وعِزّ أهن
ووَلّ أقبل ، وقُل أسمع ، ومُرْ أطِعَ

قال إنه احتذى في هذا أبياتاً لأبي العُمَيثَل ، وشابه ديك الجن ، وأبا الطيب ، ثم قال وهذا الباب صنّعه المولدون وعدوه تقسيماً وتقطيعاً وتبعهم المتنبي فقال . . » [2] . وهذا كله عدا بيت ابن زيدون في العمدة ٢ . ٢٤ وفي باب التقسيم . وهو في تحرير التحبير تحت باب التفويف . ٢٦٠ [3] .

٣) الاستطراد و ٤) الخروج و ٥)والادماج : فرق ابن رشيق بين الاستطراد والخروج فقال : إن الاستطراد هو أن يُري الشاعر أنه في وصف شيء ،وهو إنما يريد غيره فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد وإن تمادى فذلك خروج [4] . ونقل ابن بسام العبارة بأسلوبه وهو ألطف ، ونقل الأمثلة وزاد فيها تطبيقات على شعر أندلسي [5] . وسمى ابن رشيق ما كان سماه أبو هلال بالمضاعفة (الصناعتين ٣٣٧) الإدماج [6] ، ونقل ذلك ابن بسام (الذخيرة ١ / ٢ . ٣٩٠) .

٦) الكناية وعرض لها كثيراً من ذلك تعليقه على قول أحدهم

فما زلت أجمع قطعاً وضَرباً على زَيدها وعلى عَمرها

---

١) الذخيرة ٢ ١٥٨ / ط ٢) الذخيرة ١ / ١ : ٣٢٠
٣) كان ابن رشيق يورد بعض المصطلحات دون عناوين بارزه فتخفى على الناقل أحياناً
٤) العمدة لابن رشيق ١ ٣٢
٥) الذخيرة ١ / ٢ ٣٨٨ ٣٨٩ ، وانظر تحرير التحبير ١٣٠
٦) العمدة ٢ . ٣٣ وتحرير التحبير ٤٤٩ .

.. وقوله « على ريدها وعلى عمرها » من الكنايات المختارة [1] ».

٧) المماثلة و ٨) السجع : قال في ترجمة الكاتب أبي الحسن صالح بن صالح الشنتريني إن كلامه في المماثلة والسجع جار على الطبع ذاهب بين الجزالة والحلاوة. وأغلب الظن أنه يريد بها نوعين من البديع . والمماثلة عند ابن رشيق ضرب من التجنيس (العمدة ١ . ٢٢٠ . وهو بمعنى آخر في الصناعتين : ٢٩٧)

٩) الالتفات و ١٠) الاعتراض و ١١) الاستدراك استطرد ابن بسام في ترجمة أبي بكر بن زهر وعرض لموضوع الالتفات ثم قال « ومنه قول كثير .

لو انّ الباخلين وأنت منهمُ رأوكِ تعلّموا منك المِطالا

وقوله وأنت منهم التفات ، وقد سماه ابن المعتز اعتراضاً وجعله باباً على حدته بعد الالتفات ، وغيرُه جمع بينهما ، وقال النابغة .

ألا زَعمت بنو عَبسٍ بأني ألا كذبوا كبيرُ السِنّ فاني

فقوله ألا كذبوا اعتراض .. وأحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات حيث قال هو انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة وعن المخاطبة الى الإخبار — ثم قال — وأنشد غيره لأبي العطاء السندي يرثي عمر بن هبيرة .

وإنك لم تَبعد على متعمّد بلى كلُّ من تحت التراب بَعيدُ

وهو عندهم استدراك ..» [2] وكل ما نقلته عن ابن بسام إنما هو عبارة ابن رشيق ملخصة (العمدة ١ . ٣٦ — ٣٩)

١٢) التتميم . وذكره في معرض حديثه عن الالتفات وهو في العمدة ٢ ٤٢) وفي تحرير التحبير (٢٢٧) تحت باب التمام .

١٣ المعاقدة ذكر ابن بسام بيت عبد الجليل بن وهبون

بناه كما بنى العَلياءَ بانٍ يشيدُ مآثراً ويُبيدُ مالا

وقال « سماه بعض أهل النقد معاقدة ، وهو أن يشترطُ الشاعر شروطاً في معان يريد التوفيق بينها فيعقد لكل صنف منها ما يشاكله ويماثله ومن عجيب ذلك قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب

---

١) الذخيرة ٢ ٤٧ / ظ . ٢) الذخيرة ٢ ٧٢ / و

فأقسمتُ يا عمرو لو نبّهاك إذاً نبّها منكَ داءً عُضالا
إذاً نبّها ليثَ عِرّيسةٍ مُعيناً مُعيداً نُفوساً ومالا

فعقدت بين معيناً ومعيداً »[1] والباب في العمدة ٢ ٦ ، تحت باب التسهيم وكذا في تحرير التحبير ٢٦٣ وللباب أكثر من اسم . ولم أقف على أحدٍ سمّى باباً من البديع بالمعاقدة

١٤) التشبيه و ١٥) الاستعارة وهما فنّان مبثوثان في الكتاب . وهو لا شك وقع في كتابه على فنون كثيرة من البديع، وعرض لذلك على طريقتيه: التقرير والتطبيق وأورد ذكر ابن المعتز والجاحظ في البيان والتبيين (٢ ٢٨ / ظ) والآمدي (٢ ٢٢٠ / و) وأفاد من غيرهم كثيراً مثل ابن رشيق صاحب العمدة.واطّلع على تراث الأندلسيين والوافدين اليه كابن شرف القيرواني وابن عبد ربه وابن شـــهيد وغيرهم . وكان أخذه عن ابن رشيق كثيراً والغريب أنه لم ينوّه بذكره .

السرقات عرض ابن بسام في مقدمة كتابه منهجَه الذي سيطبقه على تراجمه وأخباره وما اختار من الأشعار فكان مما قال « واذا طرفتُ معنى حسناً أو وقفت على لفظ مستحسن ذكرت من سبق اليه، وأشرت إلى من نقص عنه أو زاد عليه، ولست أقول.أخذ هذا من هذا قولاً مطلقاً فقد تتوارد الخواطر ويقع الحافر حيث الحافر، إذ الشعر ميدان والشعراء فرسان»[2] وأقول من البداية إننا لن نجد لابن بسام نظرية خاصة في موضوع السرقات، ووجه ما عنده أمران الأول أنه استخدم المصطلحات التي وصلت الى زمانه وافاد منها في عرض المعاني، والثاني أنه عرض المعاني الأندلسيّة — التي دخل شعر أصحابها في برنامجه — على المعاني المشرقية وأراد ان يخص الأندلسيين بالمخترع المبتدع فجاء قليلاً بالإضافة الى المعاني التي ردّها إلى أصول مشرقية على وجه من وجوه الأخذ . وكان هذا الباب مجالاً واسعاً لأبي الحسن ليعرض على قارئه محفوظه من الشعر ، ومعرفته بالمعاني والأخبار ، واعمل قلمه الذلق ليدبج عبارات رائعة شائقة وخاصة في ديباجة التعريف بالأعلام .

١) الذخيرة ٢ ١٧٠ و — ظ ٢) الذخيرة ١ / ١ ٨

وقد نقل ابن بسام من موازنة الآمدي (مثلا ٢٢٠ / و ـ ح ٢) واطلع بلا شك على العمدة واعتمده ، وقد بينت في الحديث عن الشراح الأندلسيين ان كتب النقد الأدبي المشرقية كانت بين أيديهم ، وانهم افادوا منها واستخدموها كالبديع لابن المعتز، والصناعتين للعسكري، ونقد الشعر لقدامة، وكتب أبي علي الحاتمي ، وابن وكيع ، وكان ابن حزم قد نصح بكتب قدامة والحاتمي مَن أراد التصرف في أفانين الشعر. ونجد ابن بسام يستخدم المصطلحات المختصة بالسرقات ببراعة وبأسلوب يحيل للقارىء أنه يبتدع الكلام ويخترع ما يطلق من الأحكام.

وقد لخص ابن رشيق في عمدته ما وصل إلى عصره من مصطلحات النقاد في موضوع السرقات، وقال إنه اطلع على كتب الحاتمي، وكتاب الوساطة للجرجاني وكتاب الممتع لعبد الكريم النهشلي، ودلل على اطلاعه على الكتب المتقدمة مثل طبقات ابن سلام ونقل عن المنصف لابن وكيع ، وبيَّن الفروق الدقيقة بين تلك المصطلحات ومثَّل لكل ذلك ، فكان أساساً جيداً يستند إليه أبو الحسن في دراسته . وسنلم بطريقة ابن بسام في معالجة موضوع السـرقات واسـتعماله للمصطلحات بما يفي بالعرض في إطار البحث .

١) ميز أبو الحسن بين المخترع من المعاني مما يلحق بصاحبه ويكون أول من استنبطه ، والمتداول منها بحيث شاع ولم يعد الهجوم عليه يُعد في السرقات ، والمعنى المسبوق إليه بحيث يكون قائله داخـلاً في باب من أبواب السـرقة على اتساعها وأجهد نفسه في تتبع معاني الأندلسيين ليجد لهـا أصلاً ما في شعر أو نثر مشرقي ، أو أندلسي سابق ، وكاد يستعصي عليه أن يجد لأهل بلده اختراعاً أو إبداعاً لولا فلتات قليلة ، وحطم بذلك أول أساس أقام عليه كتابه ودعم به نظرية الأندلسية التي دافع عنهـا واستبسل لها . ذلك أن ابن بسام أضـاف الى المصطلحات ـ التي وصلت إلى عصره مقررة المدلول وطريقة الاستعمال ـ إضافات ذوقية خاصة لا تعد في الاصطلاحات المضافة ، ولا تبرأ من أن تكون مساعدة لما بين يديه من وسائل «كشف» السرقات ووجد سـبيله ممهدة في عبارات لا تمد من التشكيك والتقريب والظن والتخيل وأدوات لا تنتهي من كأن وربما

وكاد ، وأضاف إلى قولهم « نظر » و «لاحظ» مثل « نظر من طرف مريب ولاحظ من بعيد » ، وما شابه ذلك مما يوسّع مدلول السرقة ويرفع عنه تهمة الجور ، ويفسح له المجال واسعاً لبسط محفوظه ومرويه من شعر ونثر وإظهار معارفه وثقافته .

وفي ترجمة الوزير الكاتب أبي الوليد حسّان بن المصّيصي أورد أبياتاً منها

وكم له سنة تعطي الزمـان بها ضوءاً بلا لهبٍ كالشّمس في الطّفَلِ
تعطي الهواء ومتن الأرض عرقة نَورا ونُوراً عطـاء الشمس في الحَمَلِ

وقال ابن بسام «وهذا البيت لحسان من حسنات شعره وأبين ذكره، له فيه توليد شهد أنه شاعر مجيد

تنهاه عفته عن أمـر بطشـته فالمشتري عنده قاصٍ على زُحَلِ

وهذا البيت أيضاً من ملح المطبوع وله اختصاص حسن بأحكام النجوم

جر الذيول ولكن من تَحجافِله على القَتاد ولكن من شَبا الأسل

وهذا البيت أيضاً ممارر في لفظه ومعناه، وأراده كثير من الشعراء فأعياه»[1].

وأورد في ترجمة ابي بكر عبادة بن ماء السماء مقطوعات، منهـا واحدة في وصف كأس خمر ، فيها

أغرق فيها الهَمّ لكن طفا حَبابها من فوقها مُزبِدا
كأنما شَيّبها شـاربٌ أمسكها في كفّه سَرمَدا

ثم قال وهذا البيت أراه اخترع معناه[2] ولم يعقب ابن بسام على معنى الاختراع والتوليد وإن كان يبدو أنه يميل إلى ما قرره ابن رشيق في التفريق بين المخترع والمولد[3] ، فقال إن الاختراع هو المعنى الجديـد الذي لم يُسبق إليه والتوليد للمعنى الجديد المستخرج من معنى آخر . ثم قرر أن الاختراع صار مع الزمن للمعنى ، والإبداع للفظ . وقد يطلق على المعنى المحدد لفظ الإغراب[4].

٢) وفي ثنايا الكتاب وقفات كثيرة عند المعاني المتداولة التي طرقهـا الشعراء ، ولا يكاد يمر معنى كهـذا حتى يقف المؤلف ليسرد نماذج من أقوال الشعراء ، ولا نعدم ملاحظات له في ذلك مثل إنزال بيت المترجم به في مكانه ،

١) الذخيرة ٢ ١٤٥ و ٢) الذخيرة ١ / ٥ ٣) العمدة ١ ١٧٥ – ١٧٧
٤) الذخيرة ٢ ٢٣١ / ط ،

والموازنة بين الأبيات الواردة في ذلك المعنى . وفي ترجمة ابن زيدون قصيدته التي على النون ، وعلق ابن بسام على قوله « وان كان يرويها فيظميها » من البيت .

أما هواك فلم نعدل بمنهله شرباً ، وان كان يرويها فيُظميها

قول ابن زيدون وان كان يرويها فيظميها ، معنى متداول ومن أشهره قول ابن الرومي

ريق إذا ما ازددتُ من شربه رِيّاً ثناني الريُّ ظمآنا
كالخمر أروى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا

وقال ابن الرومي أيضاً فيما يناسبه من بعض الوجوه

يا رب ريق باتَ بدرُ الدجى يعلّه بين ثناياكا
يروي ولا ينهاك عن شُربه والماءُ يرويك ويَنهاكا

وأشبه به ما أنشده الثعالبي

كرُضاب الحبيب يشفي عليلا ثم يُنشي إلى المريد َعليلا [1]

وعلق على قول ابن دراج القسطلي من قصيدة

خُوص نفحن بنا البُرى حتى انثنت اشلاؤهن كمثل أنصاف البرا

وقوله : خوص نفحن بنا البُرى ، معنى مشهور وهو في الشعر كثير ومنه قول بعض اهل العصر وهو أبو جعفر بن هريرة التطيلي يصف إبلاً (*)

كأنصاف البُرى وتدق عنها سُواها دِقة تَسَعُ الحلالا [2]

والمعاني المشتركة هذه أو المعاني المشهورة لا تدخل في نطاق السّرقات واعتمد ابن رشيق رأي عبد الكريم النهشلي «قال» « والسّرق أيضاً إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده ان يقال إنه أخذ عن غيره» [3] وتكرار ابن بسام الوقوف عند المعاني المشتركة لا يعني قوله فيها بالسرقة ولكنه أخذ نفسه به في الكتاب

١) الذخيرة ١/١ ٣١٢ - ٣١٣ ٢) الذخيرة ١/ ٥٩
٣) العمدة لابن رشيق ٢ ١١٦
*) في الذخيرة الحلال والحلال (بالجيم والحاء) وانظر ديوان الاعمى التطيلي صفحة ٢٤٤ ، وتعليقات المحقق .

٣) اعتمد ابن بسام رأي من سبق من الأندلسيين ، وبخاصة ابن شهيد في السماح بالسرقـــة على أن يُحسن الآخذ[1] ، قال أبو الحسن . وقد تقدم القول من تحيل حذاق الصنعة في أخذ المعاني أن تترك القافية والوزن ، وكذلك يجب أن يقصد إلى التطويل إذا قصر المتقدم ، ألا ترى إلى قـول أبي عامر حين سمع الرمادي يقول .

ولم أر أحلى من تَنَسُّمُ أعيُنٍ عداةَ النوى عن لؤلؤ كان كامنا

فقال أبو عامر في قصيدة .

ولما فشا بالدمع من سر وجدنا إلى كاشحينا ما القلوبُ كواتمُ
أمرنا بإمساك الدُّموع جفونَنا ليشجى بما تطوي عَذولٌ ولائمُ
فظلّت دموع العين حَيرى كأنها خلال مآقينا لآلٍ توائمُ
أبى دمعُنا يجري مخافة شامتٍ فنظّمه بين المحاجر ناظمُ
وراق الهوى منا عيون كريمة تبسمنَ حتى ما تروقُ المباسمُ

فقام بهذا التركيب ما نُسبت له حيلة التطويل[2]. وفرق بين السرقة المليحة الحسنة والسرقة غير الحسنة ، فقد عرض بيت امرىء القيس (الديوان . ١١١)

فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وشجت بماء غير طرْقٍ ولا كدر

وروى عن بعضهم ولم يسم أن أبا نواس أخــذ منه قوله في تصاوير الـكأس :

قرارتُها كسرى وفي جنَباتها مَهاً تدّريها بالقِسيّ الفوارسُ
فللراح ما دارت عليه جُيوبها وللماء ما دارت عليه القَلانِسُ

يريد أن حد الخمر بلغ إلى نحور هذه الصور ، وزيد الماء فيها فانتهى الشراب إلى فوق رؤوسها . قال ابن بسام فتسلق الحَسن عليه وأخفــاه بما شغل به الكلام من ذكره للصورة المنقوشة في الكأس إلا أنها سرقة مليحة »[3] .

وعلق على بيت ابن شهيد

وخيل تمشّى للوَغى بطونها إذا جَعلت بالمرتقى الصعب تَزلقُ

فقال « وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامر سرقتــه ولا بلغ به طبقته ، وهو من قول أبي الطيب

١) الذخيرة ١ / ١ . ٢٠٠ ٢) الذخيرة ١ / ١ . ٢٧٦ ٣) الذخيرة ٢/ ٢٣٢ و

إذا رلقت مَشيتها بطونها كما تتمشى في الصّعيد الأراقمُ »[١]

ولم يرد على ذلك ولـــكنه اكتفى بما وصح من أخذ ان شهيد لمعى المتني ولفظه دون براعة وفي عير إبداع . وهو يعدّ الزيادة في المعى السائق من التصرف الجيد، فقد قال عمارة بن عقيل :

وما النفسُ إلا نطفة بقرارة إذا لم تُكَدَّر كان صفواً عديرُها

قال « وأخذه المعري وزاد فيه حتى كاد يحميه فقال .

والخِل كالماء تبدو لي ضمائِرهُ مع الصفاء ويُخفيها مع الكَدر » [٢]

وليس في منهاج ابن بسام وتطبيقاته ما يزيد على ما وصل إلى عصره من من البحث في السرقـــات ، وفي معنى ما سبق عرضه من رأيه . قال ابن رشيق « وقال بعض الحُـذّاق من المتأخرين . من أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقاً وإن غيّر بعض اللفظ كان سالخاً ، وإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان دليل حذقه » [٣] .

ويمكن أن نرى أن وقـوف ابن بسام كان عند الأمرين اللذين وعد بالوقوف عندهما . البديـــع وموضوع السّرقات وهو في كتابه لم يخترع جديداً في المصطلح بل اعتبر البديع مما يزين الشعر والنثر، وقال إن السرقة المليحة مسموح بها والعبرة في قدرة الآخذ على الأخذ وإخفاء صنيعه

ملاحظـــات أخرى وهو إلى جانب هذين الأمرين يعرض لبعض القضايا الجانبيـة مما يتصل بموضوعنا . فمن ذلك أنه في ترجمـة المستعين بالله سليمان بن الحـــكم قـارن بين أبيات الرشيد في الثلاث الآنسات وبين أبيـات لسليمان في موضوع مشابه. ولـكنه لم يقم دراسة تحليلية للنصين ، بل اكتفى بمقدمة عامة، قال« ولم أظفر له إلا بقطعة عارضَ بها هارون الرشيد فتشعشعت بها الكؤوس وتهادتها الأنفـــاس والنفوس . وقد أثبتّ القطعتين معاً ليُرى الفرق ويُعرف الحق » [٤] . ومنهجه في الانتصار للأندلس في الغالب يقوم على الثناء العام كما في ترجمة ابن زيدون مثلاً [٥] .

١) الذخيرة ١/١ ، ١٧٤ ٢) الذخيرة ١/١ : ٦٣
٣) الذخيرة ٢/ ٢١٦ و ٤) الذخيرة ١/١ ، ٣٣ ٥) الذخيرة ١/١ ، ٣٢٠

ابن زيدون :

وفي مكان آخر من ترجمة ابن زيدون عاب عليه أنه كثير الاهتدام وهو من نوع السرقـــات ، وعابه أيضاً بأنه يكرر معانيه كثيراً ، وأورد له قصيدة في رثاء ابن جهور مطلعها .

ألم تر أن الشمس قد ضمّها القبرُ   وأن كان قد كفانا فقدَها القمرُ البدرُ

وقال في آخرها « ووجــدت له قصيدة أخرى على رويها ووزنها رثى بها أم أبي الوليد ابن جهور وكرر أكثر أبياتها أولها .

هو الدهرُ فاصبر للذي أحدثَ الدّهر   فمن شيم الأحرار في مثلها الصّبـرُ

إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر فيها بالتقديم والتـأخير والتأنيث والتذكير ، ثم رثى بها آخراً عباداً المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :

* هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر *

البيت المتقدم ، ثم أتبعه بقوله . فتلاعب أبو الوليد كما ترى في هذه القصيدة تلاعب الحطيئة بنسبه ، وتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنّث وذكر وقدم وأخر . قال أبو العلاء .

رب لحد قد صار لحداً مراراً   ضاحكٍ من تزاحمِ الأضداد » (١)

وهذه ملاحظـة دقيقة وموقف جيد يدل على متـابعة أبي الحسن شعر ابن زيدون ولم يمنعه إعجابه به من قول رأيه فيه بصراحة

ابن عبدون :

ووقــف عند قصيدة لابن عبدون رثى فيهــا الوزير الفقيه أبا مروان بن سراج ونبه إلى الطريقة التي جرى عليها في مراثيه فقال « وهذه القصيدة طويلة سلك فيها أبو محمـد طريقته في الرثاء إلى الإشارة والإيماء عن أبناء الحدثان من ملوك الزمان ، وقد سبق ذكرهم على توالي أزمانهم في قصيدة اندرج له كثير من البديـع فيها » . يعني قصيدته في رثاء بني الأفطس

* الدهر يفجع بعد العين بالأثر * (٢)

وكان ابن رشيق قـد فـرّق بين مِثل طريقته هذه التي تتصل بطرائق الفحول القدماء من ضربهم الأمثال في الرثاء بالملوك الأعزة والوعول الممتنعة في

١) الذخيرة ١ / ١ ٣٦٧ وما بعدها   ٢) الذخيرة ١ / ٢ ٣١٥

الحال ، والأسود في أجماتها والنسور . . وبين طرائق استقل بها المحدثون [1] .

شعر الفقهاء وأورد أبياتاً للفقيه أبي الحسين بن سراج وأثنى عليها كثيراً ثم عرج على موضوع متصل بما هو فيــه فقال إنــه وإن أحسن فقد عرف عن العلمــاء منذ القديم عدم إجــادتهم الشعر إلا النزر القليل ، وممن استثني خلف الأحمر والخليـــل واليزيدي والقتبي.وعرض مجموعة من أسماء العلمــاء الشعراء بالمشرق بين البصرة والكوفــة وغيرهما ولخص فيهم رأيه باعتبارهم شعراء . [2] وكلامه فيهم يدل على اطلاع وحُسن نظر .

الاستعارة البعيدة . ومن دوقه مهاجمة الاستعارة البعيدة وهي ما سمـــاه قدامة بالمعاظلة [3]. فقد علق على بيت ابن شماخ

فلولا عُلاه عشت دهريَ كله   وكيس كلامي لا أحُلّ له عَقدا

قال ابن بسام واستعارته كيساً للـــكلام من مضحكات الأنام ، وقرأت في أخبار الصاحب ابن عباد قال كنا نتعجب من قول أبي تمام لا تسقني ماء الملام ونستبشع استعارته حتى عددت عددنا بحَــلواء البين في قول أبي الطيب

وقد ذقْتُ حلواء البين على الصّبا   فلا تحسبي قلتُ ماقلتُ عن جهل

كيف لو سمع الصاحب استعارات أهل وقتنا كقول المهدوي بن الطلاء

* بقراط حسنك لا يرثي على عللي *

وقول ابن الطراوة

أنا حسن ُفتّ الملوكَ مهانةً   فكلهمُ فأسَ المهانة عالِكُ

وقول حسان بن المصيصي

إذا كانت ِحمائك من لُحَيين   فلا شك العمى فيها ثَريدُ

وقد قدح أهل النقد في المتنبي بخروجه في الاستعارة إلى حيّز البُعد بقوله:

مسرة في قلوب الطّيب مفرقها   وحسرة في قلوب البيض واليَلبِ .. [4]

شروح الشعر وربما وقف ابن بسام عند بيت من الأبيات فشرحه لإعجابه

١) العمدة لابن رشيق ٢ ١٢٨ - ١٢١ وعبارة ابن بسام مطابقة تقريباً لعبارة ابن رشيق
٢) الذخيرة ١ / ٢ . ٣١١ - ٣١٢
٣) الذخيرة ١ / ٢ ٣٣٥ ٤) الذخيرة ١ / ٢ : ١

وبه أ ليحدم سياق الحديث من إشارة إلى ماحية بديعية أو ملاحظة نقديـــة ٠ فعلق على عبارة « موشيا أكارعه » من قول ابن دراج في البيت

حتى بدا الصبحُ مشمطّاً دوائبُه يطارد الليل موشياً أكارِعُــهُ

قال . « جعل ذوائب الصُّبح مشمطة من ممارحة الليل له ، وجعل أكارع الليل موشية من ممارحة الصبح لها ، وجعل آخر الليل من مواخره وهي المتصلة بأول الصبح ، وآخر الصبح من مقادمــه وهي المتصلة بآخر الليل ، وأصاب في الإشارة إلى التشبيه لأنــه أومأ إلى أن الصبح كالثور الوحشي وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض وأكارعها موشية خاصة . وإنما ألم القسطلي في هذا بقول أعرابي يصف ليــلة حرجنا في ليـــلة حندس قد ألقت على الأرض أكارعها فمحت صور الأبدان فما كدنا نتعارف إلا بالآذان » فهو شرح المعنى وبين وجود الجمال فيه ، وأشار إلى المعنى السابق الذي منه أخذ .

موقفه من الموشح أثنى ابن بسام على اختراع الأندلسيين للموشح واعتبره من مآثرهم الخاصة، ومفاخرهم فقد «نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها». ونسب وضعها إلى محمد بن حمود القبري ثم قال إن صاحب العقد أول من سبق إلى صنعة الموشح فيما قيل ثم أتى على ذكر بعض الوشاحين إلى أن وصل إلى عبادة بن ماء السماء الذي أرسى دعائم الموشح وما أريــد أن أقوله هنا هو أن ابن بسام على الرغم من ثنائه على الموشح فإنه أخرجـــه من عرض كتابه ، واكتفى في ترجماته لمشاهير الوشاحين بذكر شعرهم التقليدي وقال في مقدمة ترجمة عبـــادة « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب وقد أثبتّ من شعر عبادة في هذا الفصل ومن سائر كلامه ما يدل على تقدمه وإقدامه » [1] وإذا كان ابن عبد ربه قال الموشحات فإنه يكون بدأ بهذه الفكرة التي حجبت تدوين الموشحات ورفع تلك الأشعار من العقد ولكن ابن عبد ربه كان معجباً بشعره يدسه في كل فرصة ، ويحق لنا أن نتساءل لماذا أعمل الحديث عن الموشحات هذا الإعمال المطلق ؟

وكرر ابن بسام الموقف في ترجمة محمد بن عبادة المشهور بابن القزاز فقال « وأما

١) الذخيرة ١ / ٢ / ٢

ألفاظه في التوشيح مشاهدة له بالتبريز والشفوف وتلك الأعاريض خارجة عن هذا التصنيف »[1] . ولكن ابن بسّـام لم يدرج الموشـحات في كتابه ، وكأن الموشح إلى ذلك الوقت لم يبلغ مرحلة التدوين .

وبعد : فإن ابن بسام من أهم من ألف في تراجم الأدباء الأندلسيين، وكتابه الذخيرة أهم مصدر من مصادرنا عنهم ولا نبالغ إذا قلنا إنه أهم كتاب أندلسي في تاريخ الأدب على الإطلاق .

١) الذخيرة ١ / ٢ . ٠ . ٣

ابن سعيد وكتابه

سوابق المرقصات والمطربات

اشتهر اسم ابن سعيد باعتباره* من أصحاب المؤلفات التي تعرضت لتاريخ الأندلس وبلادها ورجالها ، ومن أشهر كتبه في تراجم الأندلسيين وذكر بلادهم ذلك الكتاب الذي كان هو خاتمة مؤلفيه ، وكثر النقل عنه ، وهو المغرب في حلى المغرب *. وابن سعيد هو أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي المدلجي من أهل قلعة يحصب . ولد بغرناطة سنة عشر وستمئة لأسرة من ذوي اليسار وأهل العلم والادب والرياسة ، فنشأ نشأة علمية وكتب لبعض الامراء . ثم قصد إلى المشرق فتنقّل بين مصر والشام والعراق ، وحج البيت في أثناء ذلك . وانتهى به المطاف إلى تونس فمكث هناك في بر ورعاية حتى توفي سنة ٧٨٥ كما نقل لسان الدين بن الخطيب .

كان موسى والد علي يعمل مع الموحدين فلما ثار المتوكل بن هود (٨٢١ — ٧٣٥) انضم إليه فولاه أعمال الجزيرة الخضراء . ثم قصد موسى وابنه علي إلى المشرق فتوقفا في تونس ثم في الاسكندرية ، وتوفي الأب هناك سنة ٧٤٠ ، ودخل ابن سعيد القاهرة فخالط العلماء والادباء والشعراء كالجزار والبهاء زهير وموسى بن يغمور نائب السلطنة . ولما زار كمال الدين بن العديم القاهرة وافداً من الملك الناصر إلى السلطان الصالح أيوب اتصل به ابن سعيد فاصطفاه ،

* ترجمته في الديباج المذهب لابن فرحون ٢٠٨ . وفوات الوفيات لابن شاكر ٢ ١١٢ — ١١٤ المطبعة الاميرية و الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب . ونفح الطيب ٣ ٢٩ — ٥٩ والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي (تاريخ ١١١٣) ج ١ ورقة ٤٥٣ وذكره في ترجمته البهاء زهير ٣ ١ — ١٠٥ . وترجم لنفسه في المغرب ٢ ١٧٢ والرايات ٦٥ — ٧١ وانظر . Brock G I 313, S L 579

وانتقل معه إلى الشام فزار دمشق وحلب ومن هناك شرّق إلى العراق وغيرها ثم حج وعاد إلى تونس سنة ٦٥٢ وخدم المستنصر الحفصي (٦٤٧ — ٦٧٥) ورحل ثانية بعد مقامه في تونس إلى المشرق سنة ٦٦٦ وعاد ثانية ليستقر هناك حتى وافته منيته سنة ٦٨٥ [١]

مؤلفاته . كان ابن سعيد شاعراً كاتباً مصنفاً ومن كتبه المطبوعة المغرب في حلى المغرب . والغصون اليانعة في محاسن (شعراء) المئة السابعة،والقدح المعلى في التاريخ المحلى (طُبع مختصر له) ، وعنوان المرقصات والمطربات ، ورايات المبرزين وغايات المميزين وله كتب أخرى مخطوطة ، وأخرى مفقودة أما شعره فمنه مختارات في نفح الطيب متفرقة ، ومختارات انتقاها بنفسه في ترجمته الذاتية في المغرب وطبقة شعره لا تسمو إلى الجيد وإن كان له في بعضها سبحات رفيعة، كقصيدته التي يحن فيها إلى الاندلس[٢] وذكر المقري أنه ينقل عن ديوان شعره ، وأنه في كراريس كثيرة .

ووقفتنا في هذا الفصل عند ابن سعيد في نظرته إلى الاجـادة الفنية في الشعر والنثر . فمن كتبه . عنوان المرقصات والمطربات [٣] وهو صورة مصغرة لمؤلف آخر في الموضوع ذاته كان سماه جامع المرقصات والمطربات غير أن الطلب تكرر على إصدار الكتاب فاضطر إلى إخراج « عنوان » المرقصات هذا ليكون كالمدخل إلى « الجامع » [٤]. ومنهاج المؤلف في كتابه يقوم على أنه ١) اختار مجموعة من الشعر والنثر لادباء وشعراء مشارقة ومغاربة ، ولم يتعد في النظم ألف بيت،فكأنه جعلها نماذج يسهل الحفظ منها والاخذ عنها. ٢) ورتب المختارات على العصور كل مئة سنة مجموعة ٣) وفَصل بين المشارقة والمغاربة وبين الشعر والنثر . ٤) وقال إنه لن يتعرض للحكم على الشعراء ولا الموازنة بينهم في شعرهم ونثرهم ، بل اكتفى بتصنيف الشعر على طريقته التي سنعرض لها [٤]

١) وفاته هكذا في الديباج والاحاطة ، وانظر مقدمة المغرب ٨
٢) نفح الطيب ٣ ٤٨ — ٥٢
٣) طبع الكتاب في مطبعة جمعية المعارف بمصر ١٢٨٦ هـ ، وفي الجزائر أيضـاً ، وبين أيدينا الطبعة الأولى
٤) عنوان المرقصات والمطربات ٣

طبقات الكلام . جعل ابن سعيد الكلام . شعره ونثره في خمس طبقات . المرقص والمطرب والمقبول والمسموع والمتروك وشرح المقصود من هذه المصطلحات فقال « المرقص ما كان مخترعاً أو مولداً يكاد يلحق بطبقة الاختراع ، لما يوجد فيه من السر الذي يمكّن أزمة القلوب من يديه ، ويلقي منها محبّة عليه ، وذلك راجع إلى الذوق والحس ، معين بالإشارة عن العبارة كقول امرىء القيس في القدماء .

سَموتُ اليها بعدما نام أهلُها   سمو حَباب الماءِ حالاً على حال [1] »

والمطرب ما نقص فيه الغَوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابداع كقول زهير في المتقدمين

تراه إذا ما جئتَــهُ متهلــلاً   كأنك تُعطيه الذي أنتَ سائله [1] »

والمقبول « ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل وما أشبه ذلك» كقول طرفة في المتقدمين

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيكَ بالأخبار مَن لم تُزود [1]»

والمسموع . « ما عليه أكثر الشعراء مما به القافيــة والوزن دون أن يمجه الطبع ويستثقله السمع كقول امرىء القيس

وقوفاً بهــا صحبي علــيَّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمل [1] »

والمتروك « ما كان كلاّ على السمع والطبع كقول المتنبي

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشــا   قلاقــلَ عيــسٍ كلهن قلاقِــلُ »

فهو جعل الشعر في طبقــات خمس أعلاهــا المرقص ويليه المطرب . وقصر كتابه — كما قال — على هذين النوعين ، أو ما يكون بمثابة التوطئة لهما . وقال إنه سيكثر من الشعر في كتابه ويقل من النثر« لكونه أعلق في الأفكار وأجول في الأقطار ، وهو معين على نفســه في تــذكاره وحفظه . وعلــل اقتصاره على الطبقتين فحسب بأن كليهما دائر على غوص الفكرة وإثارة المعــاني ، واستشهد بقول والده .

إذا أنت لم تشعرَ بمعنىً تُثيره   فقل أنا وزّانٌ وما أنا شاعر [1] »

---

١) عنوان ٤

وخرج من البحث النظري الذي ثبت قواعده إلى التطبيق العلمي بإيراد نماذج للشعراء متدرجاً على العصور، فبدأ بامرىء القيس وأكثره ثم بالنابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وأعشى بكر وأعشى باهلة وقيس بن الحطيم . فهؤلاء من الجاهليين ومعظم ما اختاره مما اشتهر في كتب الأدب والنقد والبلاغة والمختارات وكان من الشواهد السائرة فاختار لامرىء القيس مثلا .

* كأن قلوب الطير رطباً ويابساً *

* كأن عيون الوحش حول خبائنا *

* سموت إليها بعدما نام أهلها *

* وقد أغتدي والطير في وكناتها *

وكأنه أدرك ذلك فقال «وهذه المعاني ولَّدمنها شعراء المشرق والمغرب وتطارحوا في الأخذ منها» (١).ووجد أنه يمكن أن يجتمع المرقص والمطرب في َقرَنٍ قال

ومن المرقص المطرب قول النابغة

* وإذا طعنت طعنت في مستهدف *

الأبيات (٢) ، وقد يعبر عن المطرب أو المخترع بعبارة أخرى ، قال. ومن التشبيهات العقم عندهم قول النابغة في طيور الحرب .

تراهُنّ خلفَ القوم ُخزراً عيونها   جلوسَ الشيوخ في ثِياب المرانب (٣)»

وتتضح فكرته في مثل قوله عن عنترة « إن كانوا قد جعلوه في ترتيب الكتاب المصنف في أشعار الجاهلية آخراً (٣)، فإنه متقدم بالنظر إلى معاني الغوص » وكان يلقي بآرائه المتفرقة عن الشعراء َعرضاً فقال عن علقمة «معاني الغَوص في شعره معدومة » (٤) وقال في عمر بن أبي ربيعة . « أكثر شعره من طبقة المقبول » (٥) . والمرقص والمطرب متصل كثيراً بحسن التشبيه (أعشى بكر . ١٧ ، مجنون ليلى ٢٣ ، عبد الله بن المعتز إمام المشبهين في الدولة العباسية) ووقف عند ذي الرمة فقال . «فارس أهل ذلك العصر في معاني الغوص لتولعه بالتشبيه والتمثيل وحسن التخييل.وهو رئيس المشبهين الإسلاميين

١) عنوان ١٦ — ١٧   ٢) عنوان ١٥   ٣) عنوان ١٦
٤) عنوان . ٢٣   ٥) عنوان ٢٣

وحكى الحجاري في الحديقة أنه كان يقول إذا قلت كأنّ ولم أجد منها مخلصاً فقطع الله لساني ، ومن عجائب تشبيهاته قوله .

كأن أنوفَ الطير في عَرصاتها حراطيمُ أقلامٍ تخط وتعجم [1] »

وكأنه تحيل كل نوع من الأنواع الخمسة التي حكى عنها في طبقاته أيضاً ، فقال في بيت أرطاة بن سُهيّة .

فقلتُ لها يا أم بيضاء إنّهُ هُريق شبابي واستَشنّ أديمي

« وهذا من أرفع المرقصات طبقة » [2] . وقليلاً ما يرتفع عدد الأبيات المختارة إلى القطعة أو بعض القصيدة كما في شعر المحسون ص٢٤ .

وأكثر اهتمام ابن سعيد في حديثه عن المرقص والمطرب كان يتوجه إلى المخترع من المعاني والمولد المبتدع ، فوصف أبا تمام (٣٣) بالاختراع وابن الرومي (٣٧) بالاختراع والابتداع ، والتهامي (٤٥) بالتوليد والابتداع ، ووصف المعري (٤٦) بالغوص وكثرة التخييل . ووصف الأرّجاني بأنه إمام هذا الشأن (٤٨) . وفي الأندلسيين أسقط الثلاثة القرون الأولى لأنها عاطلة مما هو من شرط الكتاب [3] واختار لهم بين مرقص ومطرب ولا نجد له تعليقات جانبية هناك .

طريقته . بدأ ابن سعيد كتابه بالمختارات النثرية وهي أقل حجماً من المختارات الشعرية ، وقدم لها بمقدمة غريبة قال « والنثر في كلامهم يطلق على ما هو مقيد بالسجع وما هو غير مقيد ، وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وما تحتها . وفي « الجامع » المتقدم الذكر ترتيب ذلك على الأعصار ، مستوفى منه ما يختار استيفاء مختار الأشعار ولا نورد هنا إلا ما كان مقيداً بالسجع السهل للحفظ ، مما هو داخل في طبقتي المرقص والمطرب . » [4] . أما أن النثر المقيد بالسجع أسهل للحفظ فهذه مسألة يمكن قبولها على وجه من الوجوه، وأما أن نثر القدماء داخل في تصنيفه في الطبقة الثالثة وما دونها، فهذ هو الأمر الغريب ولا ندري كيف نوجه فصاحة الحديث ، وخطب الصحابة والولاة

١) عنوان ٢٢ ٢) عنوان ، ٢٣ ٣) عنوان ٥٦ ٤) عنوان ٥ – ٦

وكتاب الطبقة الأولى ومَنْ تلاهم . ولكن زمان ابن سعيد كان مغرىً بالسجع وكان أحسن النثر واقعاً تحت تأثير الحريري وهذه الطبقة

وبدأ في النثر بعبد الحميد ثم أبي العباس الصولي ولم يذكر لهما نوع طبقـــة من طبقاته . وقال في ابن المعتز : « كان ينحو في نثره من التشبيهات والتخييلات وسائر ما يلوح عليه غوص فكره منحى طريقه في النظم فصـــدر عنه ما يليق بهذا الكتاب [1] » وجعل ترسُّل ابن العميد من طبقة المقبول (٧) وعلل إدخال الصابي في المقبول بقوله « ومعظم ترسله من طبقة المقبول وكثيراً ما كان يُهمل السجع [2] » . أما العتبي فأرفع الجميع طبقة فيما يليق بهـــذا الكتاب (٥٨) وبديع الزمان من سابقي هذه الحلبة (٩) وللميكالي في طبقات الكتاب محاسن عنوانها (١٠) وفي الأندلسيين أبو عبد الله بن أبي الخصال إمام كتاب الأندلس في طرفي المئة الخامسة والسادسة (١١) ولم يجد لأحد قبله منهم فصلاً كما يبدو !

أساس رأيه .

وقد صدر ابن سعيـــد في النظرة الى الشعر عن ذوق عصره من تطلُّب شيئين أحدهما. البديع، والثاني الغرابة ، وهو ما قسمه إلى مرقص ومطرب . فقد وصف حال ابن خليفة القرطبي في المغرب ثم قال (١٠٩٢١) ووقفت له على شعر أكثره عاطل من حلية البديـــع» . وأشار إلى غرابة المعنى المطلوبة عنده في الرايات « ٣٠ ، ٣٨ » . وقال في صفحة ٦١ « وحسبك أن بعض أعلام الشعراء لم أجد لهم من المعاني الغريبة ما يشفع لهم في إثبات أسمائهم في هـــذا المجموع ... » وخير ما يملأ إعجابـــه من فنون البديع والبلاغـــة التشبيه . واصطلاح المخترع والمولد من المعاني سابقٌ على ابن سعيد بزمان كما مر في الحديث عن ابن بسام ، وذلك مقرر في العمدة وشائع قبله، وليس لابن سعيد إلا هـــذا التقسيم الطريف .

وهو في الذوق العام لاحقٌ بما آل اليه الأمر عند الأندلسيين مضافاً إليـــه ما وجده عند المشارقة . فقد شارك في الارتحال يوم كان بالأندلس ــ وهو فتى ــ

١) عنوان ٤ ٢) عنوان ٤ (انظر رسالتان نقديتان من هذا الكتاب)

وله في ذلك قصة طريفة مع ابراهيم بن سهل الإشبيلي[١] ولم يجد في أخذ الشاعر عن غيره غضاضة إذا لم يتعدَّ حدود السرقة الحسنة، كما اصطلحوا، فأنشد للخليفة المستظهر شعراً وقال انه مأخوذ من الوأواء الدمشقي، وانما له حُسن السبك وقِصر العروض[٢]. وأنشد للمُصحفي فقال «وان كان البحتري قد سبقه لكن في هذا حلاوة وقصر عروض[٣]». وأورد أبياتاً لنفسه وقال «وفيها كثير مما تقدم اليه فزاد فيه، أو حسنه، أو أبرزه بَعد غموضه واستحقه، وعند الامتحان يظهر النقص والرجحان[٤]» وهذا يفسر مذهبه كاملاً في موضوع السرقات، وهو لاحق بمذهب ابن شهيد وابن بسام لا يحيد.

ملاحظة

لأبي منصور الثعالبي كتاب سماه من غاب عنه المطرب[٥]، يتصل موضوع ابن سعيد بموضوعه من بعض الوجوه. ذلك أنه ألف كتابه ليجعله سميراً لمن غاب عنه المطرب، قسم كتابه على سبعة أبواب في فنون مختلفة كالخط والبلاغة، والربيع وآثاره، وأوصاف الليالي والايام، والخمريات، والاخوانيات والمدح. وقال في المقدمة هذا كتاب يشتمل على محاسن الالفاظ الدَّعِجة وبدائع المعاني الأَرِجة. ولطائف الاوصاف التي تحكي أنوار الاشجار وتطرب من غير اطراب .. من نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد[٦].

والخلاف بين الكتابين واضح ١) فقد فصل ابن سعيد الشعر عن النثر ٢) ورتبه على الزمان ٣) وقسمه الى مرقص ومطرب ٤) والتزم تسلسل العصور الى زمانه. وتأليف ابن سعيد يفترق عن كتاب الثعالبي أيضاً من حيث أنه جعله ميزاناً للشعر والنثر عن ذوق نقدي شخصي، في حين أن اختيار الثعالبي كان للاعجاب والتذوق والاستحسان ليس غير.

١) اختصار القدح المعلى لابن سعيد ١٤٠ - ١٤١، ونقلها المحقق في ديوانه
٢) رايات المبرزين ٣٧ ٣) رايات المبرزين ٣٩
٤) رايات المبرزين ٦٨
٥) كتاب من غاب عنه المطرب لابي منصور الثعالبي - طبع المطبعة الادبية - بيروت ١٣٠٩ هـ ٦) صفحة ٦ - ٧

الباب الرابع

كتب أندلسية في النقد الأدبي

إحكام صنعة الكلام

لأبي القاسم الكلاعي

الوافي في نظم القوافي

لابن شريف الرندي

منهاج البلغاء وسراج الأدباء

لحازم القرطاجني

إحكام صنعة الكلام

لأبي القاسم الكلاعي (*)

في كتب النقد التي وصلتنا على عوادي الزمان والأيام كتاب إحكام الكلام لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي . والمؤلف من أسرة عريقة كانت ذات مركز مكين في الرياسة ، وذات باع مديد في الفضل والأدب والعلم . فجده أبو القاسم محمد بن عبد الغفور صاحب المعتمد بن عباد الإشبيلي وكانا كالأخوين قبل الإمارة وبعدها ، وتوفي الجد في حياة المعتمد ، وكانت بينهما مطارحات وأشعار ، بعضها منقول محفوظ (1) . وأبو محمد عبد الغفور كان شاعراً أديباً كاتباً ، خدم في دولة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المرابطين ، وكان على مرتبته سنة ٥٣١ كما نقل العماد في الخريدة (2) .

حيــاته

ليس لدينا معلومات وافية عن حيــاة أبي القاسم محمد مؤلف الكتاب ، والثالث في سلسلة نسب هذه الأسرة ، وإن كنا نستطيع أن نقع على أخبار قليلة في كتب التراجم وإشارات أخرى من الكتاب نفسه وهو من أهل إشبيلية وكذلك ترجم له ابن سعيد في المغرب بعد أبيه وجده . ولا نعرف تاريخ ولادته ووفاته إلا بالتقريب ، فمولده في أوائل القرن السادس أو أواخر القرن الخامس ، ووفاته في منتصف السادس أو نحو ذلك . فقد نقل في المغرب عن سمط الجمان أن أبا القاسم اغتبط شاباً ، وذكر هو نفسه أنه كان صديقاً لابن بسام (ت٥٤٢)

(*) ترجمة أبي القاسم في مطمح الأنفس لابن خاقان ٢٩ – ٣ والمغرب لابن سعيد ١ ٢٣٧ – ٢٣٨ والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ٢ ٤٦٨ (ط العطار) ونفح الطيب (المكتبة التجارية بمصر) ٥ ٩٣ – ٩٤ ونقل عن المطمح طرفاً من شعره وترجمته في الذيل والتكملة (مخطوط باريس – نسخة صديقنا الأستاذ محمد بنشريفة) الورقة ١٥٨ وهي مطابقة تقريباً لما في التكملة

١) إحكام صنعة الكلام ١٩٧ – ١٩٨ ٢) رايات المبرزين ١٢ وخريدة القصر ١٢ ، ٢٤٠

وذكر خبراً يدل على أنه أدرك وفاته[1] . وفي الكتاب صورة كتاب عهد أنشأه أبو القاسم عن السلطان لتولية ابنه ولاية العهد [2] تدل على أنه اتصل بالأمير المرابطي وخدم عنده . ووصفه ابن الأبار في التكملة بأنه كان من جلة الكتاب [3] ولعل والده سهّل له سبيل الخدمة الرسمية وأعانه على الاتصال بالأمراء وكتب لهم ، وكان بارعاً عارفاً بدقائق الكتابة السلطانية كما يشير ابن الأبار وكما سنلحظ في ثنايا كتابه .

ثقافته

تلقى أبو القاسم علومه الدينية واللغوية والأدبية على نفر من علماء الوقت ، ولدينا أسماء بعضهم ، وأولهم أبوه كما في التكملة . فقد أخذ عنه الآداب ، وتلقى علوم العربية على أبي عبد الله بن أبي العافية [4] ، وتفقه بأبي القاسم الريحاني وغيرهم واشتغل أبو القاسم في شعبتين من شعب الفكر الشريعة والأدب . وقال ابن الأبار فيه « صحب ابن بسام وطبقته من الأدباء ، وحدّث في بعض تواليفه عن أبي بكر بن العربي بواسطة ، وقد جرت بينهما مخاطبات »[5] وقال أبو القاسم في آخر إحكام صنعة الكلام « هذه أعزك الله بضاعة ٌ استخرجتها يد النصيحة من صَدف الفكر ، وفتقتها بين الأنبعة من كمام الذّكر ، وكتبها قلمُ الاستعجال في صحيفة الارتجال ، إذ الخاطر متقسّم ٌبين تفقـّه ٍ في أدب وتفقه في شرع ، محافظة على فرع . » [6] .

ونقل في المطمح شعراً له ، فيه

رويدك يا بدرَ التّمام فإنني ... أرى العيس حسرى والكواكب ُطلـّعا
كأن أديمَ الصّبح قد قدّ أنجماً ... وغُودر درعُ الليل فيها مُرقّعا
فإني وإن كان الشباب ُمحبّباً ... إلي وفي قلبي أحلّ وأوقعا
لآنفُ من حسن بشعريَ مفترى ... وآنف من حسن بشعري مُقـَنـّعا[7] »

---

1) إحكام صنعة الكلام ١٩٧ – ١٩٨ 2) إحكام صنعة الكلام ٢٢٦ – ٢٢٨
3) التكملة لابن الابار ٤٦٨ .
4) مما روى ابن خير الاشبيلي (جزء فيه مسائل من العربية) لأبي عبد الله بن أبي العافية النحوي (فهرسة ابن خير ٣١٦) 5) التكملة لابن الابار ٤٦٨
6) إحكام صنعة الكلام ٢٦١ 7) مطمح الأنفس لابن خاقان . ٣٠ .

تآليفه ·

وصلتنا أسماء ستة كتب من مؤلفاته ، بينما تحقق وصول واحد منهـــا فحسب ثلاثة منها في معارضة أبي العلاء المعري ، وآخر في المتنبي ، وكتاب خامس وكتابنا الذي ندرسه ، وهي

١) الساجعة والغربيب ألفه معارضه لأبي العلاء المعري في كتابه الصاهل والشاحج [(١)] ، ذكره في إحكام صنعة الكلام ، وفي التكملة ، وفي المغرب ، ونفح الطيب

٢) السجع السلطاني [(٢)] ولأبي العلاء كتاب أيضاً بهـــذا العنوان ، ذكره المؤلف في الإحكام

٣) خطبة الاصلاح عارض بها خطبة الفصيـــح للمعري أيضاً . وذكره في الإحكام أيضاً [(٣)] .

٤) الانتصار لأبي الطيب . ذكره المؤلف عدة مرات في كتابه ونقل عنه بعض فقراته ، وذكره ابن الأبار .

وقصد أبو القاسم من كتابه هذا إلى تقديم أبي الطيب المتنبي والدفاع عنه ، وتفضيله على غيره من الشعراء . والكتب الأربعة مفقودة عدا نقول بسيطة من بعضها لا تكاد تعطي عنها فكرة واضحة .

٥) ثمرة الأدب ونقل منه في الإحكام (ص ٣٦) فصلاً في الترجيح بين المنظوم والمنثور .

٦) إحكام صنعة الكلام [(٤)]

بين أيدينا من كتب النقد الأدبي في الأندلس ثلاثة وصلت إلينا كاملة أو شبه كاملة بحيث يمكن النظر إليها على هـــذا الاعتبار واعتمادها للدرس والبحث .

١) إحكام صنعة الكلام ٢٦

٢) إحكام صنعة الكلام ٢٢٦ ٣) إحكام صنعة الكلام ٢٨

٤) من الكتاب نسخة وحيدة في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب عالم تونس ـ رحمه الله ـ ومنه نسخة مصورة عنها في دار الكتب،وهي شديدة التصحيف والتحريف والاشكال ، ورأيت أن دراسة موضوع النقد الأدبي في الأندلس لا تتم دون تحقيق هذا النص لإمكان الاستفادة منه وقد نشر الكتاب في سلسلة المكتبة الأندلسية بيروت دار الثقافة رقم ١٧

وأولها كتاب احكام صنعة الكلام . وقد قصره المؤلف على فن النثر (الكلام ، الذي يقابل النظام) وعلل ذلك كما سنفصل ، والكتاب في مقدمة وبابين . أما المقدمة فتحدث فيها عن البيان ومعناه ومدلوله ، ووجه بعض الأحاديث النبوية في ذلك ، ورجّح بين المنظوم والمنثور ، واتخذ من الشعر موقفاً خاصاً . وجعل الباب الأول لأدب الكاتب من إجادة الخط والورق ، وكيفية العنونة والكتابة وصدور الرسائل وخواتيمها ، وطرق مخاطبة أصناف الناس على مراتبهم ، إلى غير ذلك مما تنطبق عليه عبارة (أدب الكاتب) . ويُعتبر كتاب الصولي نموذجاً لهذا الفصل من الكتاب . والباب الثاني خُصّ بضروب الكلام وأنواع الأساليب وأقسام السجع مما يدخل في النقد والبلاغة مباشرة ، وعند هذا الباب سنطيل الوقوف .

المقدمة . لم يُسَمّ المؤلف هذه الفقرات مقدمة ولم يَفْصِل بين أقسام كتابه الثلاثة إلا مرة واحدة حين عيّن مطلع الباب الثالث فقال (باب : صفحة ٩٥) وسمّى باقي موضوعات كتابه فصولاً ، ولكن التقسيم الذي اعتمده ظاهر في موضوعات الكتاب وفصوله .

بدأ أبو القاسم كتابه بتوجيه الحديث إلى شخصية مجهولة — وخطابه موجّه بالتوقير والتكريم — يخبره فيه أن رجلاً يعرفانه كلاهما ، ولهذا أغفل اسمه كما قال ، عاب عليه أدبه وكتابته أكثر من مرة في مجالس مختلفة وبأسباب مختلفة أيضاً وروى لتلك الشخصية أطرافاً مما جرى له مع ذلك الرجل ، فقد اتهمه بأربعة أمور .

الأول أنه مال إلى الغريب دون المستعمل حتى إنه لا يقدِر عليه .

والثاني أنه يكتب الإخوانيات ولا يمد في السلطانيات .

والثالث أنه لا يقابل كل طبقة بما يشاكلها من اللفظ ويطابقها ، ولا يخاطب كل فرقة بما يشاكلها من المعنى ويطابقها .

والرابع أنه لا يستطيع أن يجاري المعرّي لأنه لا يجارى ولا يبارى .

وجعلَ المؤلف كتابه هذا — وكتباً أخرى ورسائل أنشأها — بمثابة رد على دعاوى الرجل واتهاماته ، كما أنه أجاب عن التهم إجابات مباشرة سريعة

قصيرة ، فقال في الغريب والمستعمل . « إن القادر أعزك الله على الغريب يقدر المستعمل ، وهذا (يعضده) القياس وأمر يقيم أوده البرهان . ألا ترى كل من بنى حائطاً في غاية النقش والتحسين يقدر على بنيانه مختصراً دون تزيين... »[1].

ورأيه هو أن الأسلوب المرسل أسهل على الكاتب من الأسلوب المُسَمَّق على درجات التسميق التي سيتحدث عنها فيما بعد ، ولم يتنبه إلى أن الأسلوب المرسل لا يتأتى بهجر التعقيدات البديعية والبُعد عن الإشارات والايماءات فحسب ، بل لا بد له من حذق في الأسلوب ونَصاعة بيان

وأجاب عن موضوع الكتابة الإخوانية والسلطانية بأن قَبِل تحدّي صاحبه وأنشأ ما اقترح عليه من موضوع [2] . ثم قال إن هذا حفزه إلى تأليف كتاب على مثال السجع السلطاني للمعري[3] — وقدم نموذجاً منه — ولم يلبث أن تواضع أمام شخصية المعري التي بهرتهم طويلاً في الأندلس « وهيهات ! ما ماهضتُه في سقط الزند إلا بما لفقت به رأسي حياء من الجد وما أنا في مصاهاته في رسالة الصاهل والشاحج إلا كمن صاهى بالدُّمنة غاب البحر المائج. وما أنا في معارضته في خُطبة الفصيح إلا كمن عارض بالنَّفَس هبوب الريح . »[4] .

وأما موضوع مشاكلة اللفظ والمعنى بما يشابهها فقال إنه ألف هذه الرسالة ليصنع علمه ومنهجه حكماً أيتفق ذلك أم لا وعلل سبب اقتصاره في الكتاب على صنعة النثر دون صنعة الشعر فقال إنهم أكثروا على الشعر فحصروه بالكتب والمؤلفات والمصنفات ، وميزوا صفاته وقوافيه وأعلامه ، ووحدوا في أوزانه وقوافيه وما يتصل بذلك سداً لتقفيه وتسويه أما النثر فلم يحمرهم على التصنيف فيه حافز ، لأن كل واحد قادر عليه ولا يُخشى فساده بتغيير الوزن أو إهمال القافية [5]

البيان عقد المؤلف فصلاً في فصل البيان ولم يُعرِّف بالكلمة ولم ينقل تعريف أحد ممن سبق لها ولكنه اكتفى بعرض الأخبار المتعلقة بالبيان من السُّنَّة وكتب الأدب المتقدمة وبدأ بالآية الكريمة (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ

١) إحكام صنعة الكلام ٢٢ ٢) إحكام ٢٤ ٣) إحكام ٢٥
٤) إحكام ٣١ . ٥) إحكام ٣١ - ٣٢

خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ البَيَان) . ثم وقف طويلا عند الحديث الشريف « إن من البيان لسحرا » وناقش أقوالهم فيه بين منكر للبيان وبين مؤول للحديث على وجه يستقيم مع الغرض الأصلي . وأنكر على الإمام مالك رضي الله عنه إدخال الحديث في معنى ما يُذكره من الكلام : « وكيف يكون ذلك وبالبيان تستخرج الحقائق ويُتوصل إلى معرفة الخلائق ، وقد عدده الله علينا من آلائه وجعله من آيات أنبيائه ، وخص منهم نبينا عليه السلام بالحظّ الأوفى والقسم الأفضل الأعلى. فكان ﷺ أفصح العرب بياناً ، وأطلقهم بالخير لساناً ، وأولاهم بحجة ، وأنطقهم بحكمة وأنطمهم بخطبة . ووصفه عز وجل بالبيان فقال لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) وقد مدحت العرب بالبيان وذمّت ... جهله »[1] وذكر تأويل بعضهم للحديث بأن المقصود من الحديث هنا معنى التمويه والتدليس فحسب ، ثم قال إن الحديث لا يعني كراهة البيان بل هو خارج مخرج المثل . واستشهد بقصة الزبرقان بن بدر ووفد بني تميم ، وأن مساق الحديث كان الثناء على خطيبهم لا الذم .

ويتضح من خلال حديثه أن مقصوده هو الفصاحة والإبانة وأوّلَ الحديث الآخر « ما أعطي عبدٌ شراً من طلاقة اللسان » على الثرثرة والإفاضة في القول بغير طائل ، وقال إن المقصود هو طلب الإيجاز فمن جمع بين الإيجاز والبيان فقد حاز قصب السبق والإحسان وأفاد المؤلف من بابَيْ البلاغة والبيان في العمدة [2] .

بين الشعر والنثر

وازن المؤلف في هذه الفقرة بين الشعر والنثر ونقل عن كتابه ثمرة الأدب فذكر اختلاف الناس بين تفضيل الشعر وتفضيل النّثر واعترف بأن الشعر لتزيّنه بالوزن والقافيه أكثر جمالاً وسيرورة ، وزينة لصاحبه ولكن النثر أسلم جانباً وأكرم ـ املا وطالباً ووقف أبو القاسم أيضاً موقفاً دينياً من مسألة الشعر وفصّل في الأسباب التي تدعوه إلى تفضيل النثر على الشعر ، والأسباب التي تجعل موقفه متشدداً

١) إحكام ٣٣ ٢) العمدة لابن رشيق ١ ١٦١ – ١٦٦ ، ١٦٩ – ١٧١

١) أورد الحديث « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » (١) ولم يوجه الحديث كما وجه حديث البيان وأوله ، واحتج بأن الحديث ذم الشعر ولم يذكر الكتابة ولا الخطابة ، والشعر داع لسوء الأدب الذي يجعل العواقب وخيمة . وقد يحمل الشعر صاحبه على الغلو في الدين أو فساد العقيدة ، وقد يحمله على الكذب ، وكل هذا يبعده عن صفات المؤمنين . ونقل ما قاله الأصمعي من أن الشعر إذا دخل في الخير ضعف ، وكأنه فهم أنه لا بد من الكذب والشر والتنكب عن طريق المؤمنين ليكون الشعر جيداً بديعاً.

٢) ومن معايب الشعر أنه قلما يجيده إلا متكسب به (٢) وأن الشهى تفتح اللهى. ونقل عن المعري قوله « الشعر إذا جُعل مكسباً لم يترك للشاعر حسناً، وإذا كان لغير مكسب حَسُن في الصفات والنسب ، ما لم تُنسب مخصصة » وقد حذر المعري في كلامه من ان يقول الناس (والشُّعَرَاءُ يَتبعُهُم الغاوُون) بقطع الآية عن تمامها ، وأن الشعر يذكر الناسي ، ويخفف نعصاء الحاقد ، ويلين شدة الجبار ويشجع الجبان . وأثنى أبو القاسم على فقرة المعري ثم قال « صدق أبو العلاء وأنصف . ما كذب في قوله ولا فرط ، لكن مَن لنا بما شرط » (٣) وبالرغم من أن ذم المعري المكتسب بالشعر لم يكن كل شيء في العبارة إلا أن أبا القاسم لم يلتفت بنظره غيره ، وخرج من بقية الكلام بأنه صحيح ولكنه غير موجود في أيامه !

٣) « ومن معايب الشعر أنه يحمل الشاعر على خطاب الممدوح بالكاف ، ودعائه باسمه ، ونسبه إلى أمه ، وهذا كله من سوء الأدب أو داع إليه » وهذه نظرة أخلاقية تنزع إلى أمور اجتماعية وقد عاب ابن شرف القيرواني على المتنبي خطابه كافور الإخشيدي بالكاف (٤) في إحدى رسائله .

٤) وعد من معايب الشعر ما فيه من الوزن فالشعر فيه الوزن ، والوزن داع للترنم والطرب ، والترنم من باب الغناء ووقف عند الغناء لأنه معتمد على الرأي الشائع عند أكثر الفقهاء من تحريمه أو كراهته

١) إحكام صنعة الكلام ٣٦ – ٣٧
٢) إحكام صنعة الكلام ٣٧ .
٣) إحكام صنعة الكلام ٣٨
٤) أعلام الكلام لابن شرف ٤

الكتابة وأدب الكاتب :

أما الكتابة فسليمة من المحاذير التي رآها في الشعر ، ونقل ما تواضعوا عليه من عدم ابتداء الشعر أو عنونته بالبسملة في حين تتحلى الخطب والرسائل بذلك واستقرأ من مطالعاته أو من مشاهداته أن أخبار الكتاب أكثر من أخبار الشعراء ، وفي هذا عنده فصل ، كما أن الشعر الجيد والكتابة البارعة لا يجتمعان في رجل واحد وهذا من فضائل الكتابة واستدرك بعد كل هذه الآراء الموجهة من فكرة سابقة فقال إنه لا ينكر فضائل الشعر ، ومكانته من رسول الله ﷺ والصحابة . « ولكن القوم غير هؤلاء القوم واليوم غير هذا اليوم[1] . وخرج من إشكال فأوقع نفسه فيما هو أشد منه وغاية القول في رأيه الذي مار به الشعر من النثر أنه يصدر عن فكرة متدين لا عن نظرية دينية لأنه يبني على مسلمات لا تسلم ، ويؤول حيث يشاء ويمنع حيث يشاء . ومن ناحيــة أخرى فإنــه يحكّم بعض التقاليد الاجتماعية في العيب على الشاعر وإن كان تؤول في آخر الأمر بتلك الأحكام إلى مقاييس أخلاقية .

أدب الكاتب

مارس أبوالقاسم نوعيْ الكتابة الإخوانية والسلطانية ، وقد تعرض للنقد والعيب من جهة أنه كاتب رسائل لا يجيد صنعته وبهذا الحافز وضع كتابــه ليؤكد اطّلاعه ومقدرته وإحكامه الصنعة وعقد هذا الفصل إظهاراً لمعرفته ، وتعليماً لمن يطالع كتابه ليكون مرشداً بين يدي طلبته فنبّه على مكانــة الكاتب والكتابة ، ووضع نصائح للكاتب ليتبعها

أولها خلقي يتعلق بسلوكه وشخصيته ، متابعاً في ذلك منهجه الديني الخلقي فالواجب على من آتاه الله فضيلة الكتابة « أن يطهرها من دنس القبائح فيخزن لسانه عن الغيبة ، ويخلع نعل الدناءة ، ويمتطي صهوة العافية ، ويكون بعيــد الهمة ، نزيه النفس ، حسن الهيئة[2] »

١) إحكام ٣٩ ٢) إحكام ٤

والأمر الثاني أن يختار الكاتب قلمه ودواته وحبره فيحسن اختيار النوع ويهتم بأدوات صناعته واستطرد إلى شعر وعبارات تتعلق بالمحبرة والأقلام وما الى ذلك وخصص فصلاً للخط وتسوية الطاقة وختمها وغير ذلك مما يحسن الخط ويجمل الورقة المكتوبة ووجه نصائح من تجربته الخاصة تتعلق بنوع الورق وطول الطاقة وحجمها (١) .

ووقف عند العنوان في فصل آخر فذكر اللغات في الكلمة ، ونقل استعمالها إلى عنوان الرسالة أو الكتابة وبيّن اختلاف أنواع العناوين بتغير الأزمان والعادات ، وقرر مذهبه في صيغ العنوانات وأشكال اختلافها بتنوع الرجال والأحوال المكتوب إليهم أو عنهم وعرض لاستفتاحات الرسائل منذ العصر الجاهلي إلى عصره باختصار (٢) وخص كيفية إنزال الصلاة على النبي ﷺ في موضعها بفصل .

وتحدث في فصل آخر (٢) عما يكتبون في صدور الرسائل واستفتاحاتها ، فقد يستفتحون بالشعر وقد يبتدؤون بالنثر ، وأورد عبارات مختلفة في ذلك وبيّن أن الاستفتاحات بحسب المرفوع إليه الخطاب. وقدم فصلاً سماه **الاشارة في الصدور الى الغرض المذكور** (٣) ونقل عن ابن حي قوله إذا كان المرسل حاذقاً أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله ثم استشهد أبوالقاسم بن لابن عَبْدَ كان نثري ، وقال إن أبا الطيب كان ينحو في قصائده هذا المنحى ، وأحال على كتابه **الانتصار لابي الطيب** ونقل أيضاً في الغرض نفسه لأبي الحجاج الأعلم الشنتمري وآخر لنفسه .

وأتبع الحديث بفصل آخر في التخلص من الصدور الى الغرض المذكور ، ويعني بذلك الوصلة فيما بين الاستفتاح وعرض الكتاب المقصود إنشاؤه أو الرد به وفرق بين قولهم كتبتَ وَكتبْنا ، وجعل من هذا الباب الجمل المعترضة وهي غالباً دعائية يتكىء عليها الكاتب ليمهد لنفسه سبيل الانتقال والدخول إلى المقصود

وتحدث عن الدعاء وقال إن الاكثار منه في الرسائل من أدلة الضعف وقلة

---

١) إحكام ٤٧ - ٤٩ ٢) إحكام ٥٨ ٣) إحكام ٦٦

المقدرة . ونبه على أهمية مطابقة المقال لمقتضى الحال « ومما يجب على الكاتب أن يتحرى في الدعاء الألفاظ الرائعة والمعاني اللائقة . ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال ويشاكل المعنى ويوافق المخاطب »[1] . وطلب إلى الكاتب أن يتوخّى في الجمل الدعائية إذا استطاع الإشارة إلى موضوع الكلام وناقش مسألة الدعاء بطول البقاء ومصاحبة النعماء وأورد موقف بعض العلماء في إنكار ذلك ، وأول ذلك على بعض الوجوه ، ولعله سوّغ ذلك – وهو المتشدّد – لمكانة وطبيعته الكتابية[2] . ولكنه خرج من ذلك بعد قليل فروى رأي شيخه أبي القاسم بن اسماعيل الذي يمنع الدعاء بطول البقاء «ورأيه أولى أن يتبع وقوله أحق أن يوقف عنده ويسمع[3] »

وخص السلام بفصل تحدث فيه عن أصوله وآدابه وختم هذا الباب بفصل في مكاتبة الملل الأخرى فقد كان على الكاتب أن يُلم بأصول الكتابة إلى الدول المجاورة للمسلمين ، وبخاصة في الأندلس حيث أحدقت بهم الأمم

أقسام الخطاب قبل أن يبدأ الباب الثاني الذي خصه بتفصيل ضروب الكلام والأسجاع قدم بفصل قصير عن أقسام الخطاب الايجاز والاسهاب والمساواة . وفي الصناعتين فصل عن الإيجاز وآخر عن الإطناب ، كما أن في العمدة باباً للإيجاز مَرّ فيه على المساواة ونقل عن أبي الحسن الرماني في كتابه النكت في اعجاز القرآن . ولم يذكر أبو القاسم الكلاعي في كتابه في الفصل المتعلق بأقسام الخطاب غير الرماني والجاحظ ، وهو لا شك اطلع على العمدة – مثل ابن بسام – وأفاد منه وإن لم يذكره

بدأ بتعريف الإيجاز والاسهاب والمساواة ومَثّل لها بالثوب ، فهو على مقدار الجسم ، أو رافل واسع ، أو مقتصدٌ فيه لا يزيد ولا ينقص وبيّن أن لكل واحد منها موضعه اللائق به « فموطن الاسهاب ما يكتب به إلى عامة ، وتقرع به آذان جماعة كالصلح بين العشائر ، والتحضيض على الحرب ، والتحذير من المعصية ، والترغيب في الطاعة[4] »

١) إحكام ٧٣ — ٢) إحكام ٧٦

٣) إحكام ٧٧ — ٤) إحكام ٩

وأتسع حديثه بالايجاز فقال إنه يخاطب به أهل الرتب العالية والهمم السامية ، والأصل فيه كما يرى التخفيف من الأمراء والوزراء لأن المهم عدم معرفة الخير والواجب التخفيف عنهم من الإطالة ، وهو هنا يلاحظ ما يكتب كتابه من أجله وهو اعداد الكاتب البارع العالم بأصول الكتابة الفنية والحقيقة أن الكلاعي نقل جل مادته في هذا الفصل من كتاب ابن رشيق وذلك يتضح من تقسيماته وشواهده ، وسأنبه على ذلك في كل فقرة

١) قال إن الإيجاز عند البلغاء على ضروب وأنحاء ، فمنه ما يأتي مع البيان -- وهو أشرف الكلام -- مثل قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَد لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أحد .) فبيّن عز وجل أنه واحد لا ثاني له وأنه صمد لا جوف له . واستطرد إلى شرح الآية ومناسبتها . جاء بشاهد آخر وهو الحديث الشريف « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمرء كثير بأخيه » . وعلق عليه فقال وهذا كلام في غاية من البيان والإيجاز[1] وهذه الفقرة بكاملها مع شيء من التعديل في العُمدة باب البيان[2] ، وبدأه بقوله ومن البيان الموجز ، وأصل البحث في كتاب الرماني النكت في اعجاز القرآن ، باب الإيجاز ، إذ قسم الايجاز إلى إيجاز قصد ، وهو هذا الذي مر ، ثم إيجاز حذف[3]

٢) قال الكلاعي . ومن الإيجاز ما يأتي بالحذف كقوله عز وجل (فأمّا الذينَ اسْوَدّتْ وُجوهُهم أكفَرْتم بعدَ إيمانِكُمْ) اي فيقال لهم (أكفَرتُم بعدَ إيمانِكُم) وكقوله تعالى (واسأل القرية) وكقول النبي فإن ذلك في جواب الأنصار عن مسألة ذكرها المؤلف وهذه الفقرة بتمامها من العمدة[4] من باب ايجاز .

٣) قال ومن الإيجاز ما يأتي بالاشارة والإيماء كقوله عز وجل (فغَشيَهُمْ مِنَ اليَمّ ما غَشِيَهُمْ) وكقوله تعالى (القارِعَةُ ما القارِعَة)[5] وذكر

---

١) إحكام صنعة الكلام ٩١ – ٩٤ ٢) العمدة لابن رشيق ١ – ١٧
٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام) دار المعارف مصر النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني ٧١
٤) إحكام صنعة الكلام ٩٣ ، والعمدة ١ ١٩٨ ٥) إحكام صنعة الكلام ٩٣

ابن رشيق هذين المثالين في باب الاشارة [1] وجعل الآية الأولى الايماء والثانية من التفخيم وكلاهما عنده من الاشارة .

وتحدث عن المساواة فقال إنها داخلة عند الرماني في باب الايجاز ومثاله هو «واسأل القرية» ، وقال إن قدامة وغيره يرى أن المساواه قسم آخر مستقل [1] والعبارة في الأصل ضاعها ابن رشيق فإن الرماني جعل الايجاز كما أسلفت في قسمين وفهم ابن رشيق من قوله إيجـار قِصَر ما اعتبره من المساواة كما اصطلحوا ، قال في العمدة وفأما الضرب الأول مما ذكر أبو الحسن فهم يسمونه المساواة » وجعل مثاله سل أهل القرية ، أما (واسأل القرية) فمن إيجاز الحَذف . والأرجح عندي أنه لم يطلع على كتاب الرماني واكتفى بالنقل عنه بواسطه ، وأغفل ذكر العمدة

ضروب الكلام وترك المؤلف المقدمة والفصل الاول – وهو فيها متكىء على آراء مشهورة ، معول على الاختيار من كتب يميزها وعن أعلام يسميهم ، وابتداعه في ذلك قليل حاشـا ملاحظات متناثرة تبدي فيهـا رأيه بصراحة ووضوح – وقال إن منهاج كتابه كان يقتضي بحث بعض موضوعات البديـع ولكنه ترك ذلك لكثرة الموجود منهـا « وجعلتُ أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها الترسيل ، ومنها التوقيـع ، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلةوالامثال المرسلة، ومنها الموري والمعمى ، ومنها المقامات والحكايات ، ومنها التوثيق ، ومنها التأليف وتأملت الاسجاع فوجدتها على ضروب وأنواع فمنها ما يجب أن يسمى المُنْقاد ومنها ما يجب أن يسمى المصارع ومنها ما يجب أن يسمى المُشْكِل [2] » وسنقف في الفصول التاليـة على أمور دقيقه شخصية هي التي ستعطي كتاب أبي القـاسم أهمية خاصة ، وتميزه بشيء جديد يُضاف إلى تاريخ النقد الأندلسي

الترسيل أدرك الكلاعي ابتداعه الأسماء والألقاب فنبه على ذلك في مطلع الفصل وأجمل مصطلحاته التي مار بها أنواع الكتابة وأقسامهـا متدرجاً مع

١) العمدة لابن رشيق ١ ٢٠٧ ٢) نقد الشعر – قدامة بن جعفر ١٧١

تطورها التاريخي مسهباً على مشاهير كل مدرسة من مدارس الكتابة الفنية ، مقدماً بين يدي كل مصطلح نماذج متعددة ، فهي تعطي فائدة تعليمية من جهة ، وتبيّن مقصده من التبويب والترتيب من جهة أخرى فوحد الكتابة – ملاحظاً التطور الأسلوبي – تنقسم إلى النوع العاطل ، والحالي ، والمصنوع ، والمرصّع وفرّع من ذلك – ملاحظاً الناحية الشكلية – المفصّل ، والمفصّل والمبتدع وسنعرض لهذه الفصول بالدراسة والتحليل .

تطور النثر الفني

١) العاطل قال : وإنما سميبا هذا النوع العاطل لقلة تحليته بالاسجاع والفواصل ، وهذا النوع هو الأصل والتحمّل بكثرة السجع فرع طارىء عليه . وقلما يستعمل هذا النوع إلا المتقدمون كابن عبدكان ومن قبله من أهل الفصاحة والبيـــان . فكانوا إذا عنّ لهم السجع ذكروه ، وإذا أعرض عنهم لم يستجلبوه [1] .

وجاء بمثال من نثر ابن عبدكان جار على طريقة القدماء من طبقة كتابة عبد الحميد وأضرابه والملاحظة الدقيقة هي في اعترافه بأن هـــذا النوع هو الأصل ، وهو يذكرنا برأي ابن أبي الخصال في الكتابة المسجوعة

٢) الحالي ويمثل المرحلة الثانية التي آلت إليها الكتابة العربيـة . قال « وإنما سمّينا هذا النوع الحالي لانه حلّي بخمس العبارة ولطائف الاشارة وبدائع التمثيل والاستعارة . وجاء فيه من الاسجاع والفواصل ما لم يأت في باب العاطل .

وربما أعمل في بعض الكلام استحلاؤها ، وأهمل في مواطن من هذا الباب استدعاؤها ولكني إنمـــا أنسب الكتاب إلى ما غلب عليه وأذكره في باب ما يميل طبعه كثيراً إليه وإن كان في بعض الأحايين يميل إلى سواه ويتحلى بغير حُلاه [2] »

---

١) إحكام صنعة الكلام ٩٥ – ٩٦
٢) إحكام صنعة الكلام ٩٦ – ٩٧

وعدّ من رجال هذا النوع ابراهيم بن هلال الصابي واختار له نماذج من رسائله واستطرد إلى قول الصاحب . كتّابُ الدّنيا وبلغاء العصر أربعة : ابن العميد ، وأبو القاسم بن يوسف والصابي ، ولمح إلى نفسه . وعد المؤلف كتابة أبي القاسم بن يوسف وابن العميد في مثل كتابة الصابي من حيث لحاقها بقسم الجالي

ومن أمثلة المؤلف في فصل الجالي قول الصابي : « وأمير المؤمنين يذهب على آثار الأئمة المَرضيين والولاة المُجتهدين في إقرار ودائعهم عند المرشحين لحفظها ، والمصطفين لحملها ، من أولاد أوليائهم وذرية أصحابهم إذكان لا بد للأسلاف أن تمضي ، وللأخلاف أن تنمي ، كالشجر الذي يُغرس لدناً فيصير عظيماً . والنبات الذي ينجمُ رطباً فيعود هشيماً فالمصيب من تخيّر الغَرس من حيث استُجيد الشجر ، واستُحلي الثمر . وتعهد بالعَرف الخير وحَسُن منه الأثر [1] » .

٣) المصنوع . وتطور النثر بتطور الزمان وإدخال الصنعة والبديع وغيره من المحسنات ، قال « وسمّينا هذا النوع المصنوع لانه نُمّق بالتصنيع ووشح بأنواع البديع وحُلّي بكثرة الفواصل والاسجاع ، واستُجلب له منها ما يلذ في القلوب ويحسُن في الاسماع . وهي كتابة الصاحب الأصبهاني وأبي الفضل الهمداني وأبي بكر الخوارزمي وأبي الفتح البستي وأبي الفضل الميكالي ، ومَن جرى مجراهم من أئمة الفصاحة ونحا منحاهم من رؤساء البلاغة [2] » ومن أمثلة المؤلف شيء من كتاب الصاحب في الاستزارة « مجلسنا يا سيدي مفتقر اليك ، معوّل عليك قد ابت راحه ان تصفو إلا أن تتناولها يمناك ، وأقسم غناؤه لا طاب إلا أن تعيه أذناك فأما خدود نارنجه فقد احمرت خجلاً لإبطائك وعيون نرجسه فقد حدقت تأميلاً للقائك . فبحياتي عليك لمـا تعجلت لئلا يخبث من يومي ما طاب ويعود من تمنّي ما طـار وغاب [3] » . وانتقى مختارات وأمثلة لأبي الفتح البُستي ، وأبي الفضل الميكالي ، والخوارزمي ، وترجم لهم باختصار

١) إحكام ١٠٥ ٢) إحكام ١١٤ - ١١٥ ٣) إحكام ١١٧

٤) المُرصَّع : وانتهى المؤلف إلى الأسلوب الذي وقف به المعري عند مُنتهاه من التّعقيد والإشارات المختلفة ، قال : وَسمّينا هذا النوع المُرصّع لانه رُصّع بالاخبار والامثال والاشعار وروايات القرآن وأحاديث النبي عليه السلام ، الى غير ذلك من النحو والعروض وحَلّ أبيات القريض .

وممن فاز في هذا الباب بالمتحيّز اللباب أبو العلاء المعري . . » واختار له مقتطفات من نثره تدل عـلى طريقته ، ثم قال . وممن جمع في هذا الفصل بين لدونة الفرع ومتانة الأصل أبو إسحاق بن خفاجة ، واختار له رسالة منهـا « أطال الله بقاء سيدي السيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستذ.اء المرفوعة قيادته ، الكريمـة بالابتـداء . فالحدوث ياء يرمي للحرم ، واعتلت واو يعزو لموضع الضم . كنتُ أعزك الله عن وُدٍّ قَـدُمَ هو الحال لم يلحقهـا انتقال . وعهدٍ كَرُمَ هو الفعل لم يدخله اعتلال . والله يجعل هاتيك من الأحوال الثـابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعدُ من الحروف الجازمة » [1] .

واختار من كتابة أبي بكر بن سعيـد البطليوسي الأندلسي باعتباره من أصحاب هذه الطريقة . ثم أثبت لنفسه فصولاً من نثره في هذا النوع أيضـاً ، وللوزير أبي أيوب بن أبي أمية [2] .

المُغَصَّن هذا النوع والنوعان الباقيـان أدخل ما يكونان في التزيينات الشكلية والأناقة الأسلوبية . فالمؤلف بعـد أن استعرض تطور النثر العربي ومدارسه ، خرج إلى ملاحظة الأسلوب من حيث بعض التفريعات الطارئة عليه تفنناً وابتداعاً .

١) قال في المغصن «وسمينا هذا النوع المغصن لانه ذو فروع وأغصان، وقلّما يستعمله الا المُحدَثون من أهل عصرنا . وهو نحو قولي «وقد يكون من النِّعَم والإحسان ما يصـدر من الفم واللسان . ومن الد،ماء والمعروف ما يُيَسر بالأسماء والحروف » . فقابلت سجعتين بسجعتين . كل سجعة موافقة لصاحبتها .

١) إحكام ١٣٣ - ١٣٤ . ٢) إحكام ١٣٧ - ١٣٩

وقد يقاتل في هذا الفصل ثلاث ثلاث كقولي أخاطب الوزير أبا بكر بن سعيد البطليوسي « ويا عجباً كيف انقلبت من ذلك الجانب بعد صفر ، ولم تحط من الجواب بعسجد ولا صفر بل انتسب برسمه أملها ، ووصف بشطر اسمه عملها »[1]

وجاء بأمثلة عن وقوع مقابلة أربع بأربع وخمس بخمس وست بست وسبع بسبع . ثم قال إنه وجد بعصره من زاد عن ذلك الحد حتى مقت وجاء بفقرات من نثر بديع الزمان الهمداني تدل على ارتياده هذا الباب[2]

٢) المُفَصَّل وهذا الفصل أظهر في كونه من الإضافات الزخرفية على الأساليب النثرية قال « وسميناه هذا النوع من البيان المفصل لانه فُصل فيه المنظوم بالمنثور ، فجاء كالوشاح المفصل » ، ونظير ذلك قول أبي محمد المَلي

فَصْل « رأيتُه فصيحَ الإشارة ، لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشردة حائمِ

وإن رامَ إسهاباً أتى الغَيْضُ بالمَدّ

وَصْل قد نظرتُه فرأيته حسناً معتدلا ، وفهماً مشتعلا

ونفساً تفيضُ كفيض الغمام

وطرفاً ينافسُ صفو المُدام[3]

واختار أمثلة لابن عبدون ، ولأبي محمد بن عبد الغفور والده ، ولنفسه أيضاً ، وللبديع الهمداني ، ولأبي الفضل الميكالي وذكر أن الكاتب قد يستعمل شعره ، وقد يستعير شعر غيره كأبي الفرج الببغاء وغيره

٣) المُخْتَدع في الكتاب صفحتان بها عدّة جداول من الحروف والكلمات ناقصة التأليف ، يقتضى قراءتها ثم ملء فراغاتها بشيء من الفطنة والتخمين ، ولكن اللوحات سيئة الكتابة ، مطموسة بعض الجوانب ، مما جعل نقلها غير ذي جدوى ولا يمكن تمامه ولكن هذا هو المبدأ فيها ، كما في

---

١) إحكام ١٤١ - ١٤٢ ٢) إحكام ١٤٣ - ١٤٤

اللوحتين ٤٥ و ٤٦ من المصورة .

وقد قال المؤلف في فصل المتدع . « والبدائع أعزك الله بعض التعلق بفصل الفصل المذكور لامتزاج المنظوم فيها بالمنثور ، وأول من جرى في هذا الباب بديع الزمان ، وقد فرع أيضاً الوزير الكاتب أبو محمد بن عبدون هذا الباب [1] » .. وذكر قسماً آخر من هذا النوع شبيهاً به ولاحقاً به فقال . « وصنعة البدائع أعزك الله غريبة الموضوع عجيبة المسموع تقع فيها كلمات تُقرأ من جهتين وثلاث ، وربما قرئت من أربع جهات » .

وظاهر أن الكلاعي مبتكِرٌ في فصل التّرسيل الذي قسمه إلى فصول ، ودرس فيه النثر العربي إلى زمانه فأحسن درسه وتبويبه واستخراج مدارسه ، وألحق بكل مدرسة نثرية أعلامها وكتّابها ، وشعر هو بهذا الابتكار فأكد شخصيته في مطلع الفصل بعبارات مؤكدة . في هذه الملاحظات تحديد واضح بيّن .

ثم إنه وضع لهذه الانواع مصطلحات مبتكرة أيضاً فيها جدة ، وفيها مطابقة لما هي عليه . وقد أفاد – لا شك – من إلماحة كان قد نقلها ابنُ بسام عن ابن شهيد [2] . ولكن ما قدّمه ابن شهيد لا يزيد عن أن يكون إلماحة ، ويبقى لابن عبد الغفور الكلاعي فضل التنبّه ، والتقسيم ، والتسمية الاصطلاحية ، والتمثيل لكل نوع بشواهد صافية دالة ، وهذا من أبرز ما قدمه في كتابه .

موضوعات أخرى

وانتقل بعد ذلك إلى موضوعات النثر الأخرى سوى الترسيل ، فعدّد التوقيع ، والخطبة ، والامثال ، والمُسْوَرَّي ، والمقامات ، والوثائق ، والتأليف ، وضمنها أموراً لاحقة بها في كل فصل ، ولا بأس من عرض هذه الفصول لنبين موقفه من بعض الموضوعات وما يختاره فيها .

التوقيع اشتهر بعض الوزراء الكتاب خاصة بالتفنن في التوقيع ، وهي

العبارات التي كانوا يذيّلون بها على الرّقاع حتى صار الإغرابُ فيها فناً من الفنون، وخرجت عن الأصل الذي وضعتْ له الى إظهار البراعة والحذق، قال الكلاعي : « وهذا النوع من الكلام مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجار والاختصار، فمن ذلك ما جاء بالكلمات . . . ومنه ما يأتي بالكلمة الواحدة ... ومنه ما يأتي بالحرف الواحد .. ونظير هذا ما أخبرني به بعض أصحابنا عن الفقيه الحافظ أبي الوليد بن رشد من أنه كان يختصر جوابه في فتواه حتى ربما ورد في السؤال أيجوز ذلك أم لا فيكتب في الجواب لا [1] » .

قال ومن التوقيع ما يأتي بالآية من القرآن، ومنه ما يأتي بالبيت من الشعر، وذكر في ذلك فقرة لا بأس من الإطراف بها وهي . « كتب أذفونش الطاغية عن إذن المعتمد بن عباد الى أمير المسلمين أبي يعقوب بن تاشفين رحمه الله يتوعّده ويتهدده، ويسأله الجواب على مُتَصَمّن الكتاب، فيُحكى أن أمير المسلمين لما قرأ الكتاب قال لكاتبه اكتب جوابه بأني أكون الجواب بنفسي . فحمل كلامه الكاتب على أن يوقع على ظهر الكتاب ببيت أبي الطيب

ولا كتبَ الا المشرفيةُ والقنا ولا رسلٌ إلا الخميسُ العَرمرمُ

فجاءهم من الرعب مع هذا الإيجار في الخطاب ما لا يكون مثله مع جزيل الإسهاب وجميل الاطناب [2] » . ولا نعدم قصصاً وأخباراً أندلسية مماثلة في الكتاب، تلوّن مباحثه، وتكسبه صورة أندلسية

الخطبة تحدّث المؤلف عن الخطبة عند العرب وما يُستحب فيها وأنواعها، وحلب نماذج منها، فقال في تعريفها « الخطبة عند العرب تقوم على كلام منظوم له بال » . ونقل أن أخطب الخطباء رسول الله ﷺ لأنه أفصح العرب لساناً .ووجه عدة نصائح للخطباء ليكونوا على براعة وحسن بيان ومن ذلك

١) يستحب في الخطب الشّرعيات القصير والإيجار ولا سيما في خطب الجمعة . وأما في غيرها فقد يُستحب التطويل، وان كان الطول والقصر غير خاضع لنظام سابق .

٢) ويستحب للخطيب أن يجمع ذهنه ويحضر تحشّمه، ويخلص لله سبحانه نيته، ويشغل بذكره حواسه [3] . والمؤلف يرى أن الخطيب بذلك يبعد ذهنه

١) إحكام ١٦١ ٢) إحكام ١٦٤ ٣) إحكام ١٦٧

عن الدّهش وشرود الكلام .

٣) ويستحب له أن يهيىء في نفسه أوليات الموضوع الذي سيطرقه والكلام الذي سيقوله ففي ذلك أمان من الزلل

٤ — ويحسن أن يشير في خطبته إلى أمور تتعلق بمصالح الناس وتعالج موضوعات تشغل أذهانهم .

٥) وتحدث عما يزين الخطبة ويجعلها أقرب إلى النفوس ، وأنجع في المسامع فقال « ومما يُستحب أن يوشح خطبه بآيات القرآن، فهو أنجح ما ضمّنه المرتجل وأرجح ما استعان به المحتفِل . لأنه الموعظة الحسنَة والحجّة البالغة والحكمة الباهرة والهادي الى الرشاد والمنجي من الضلال »[١] .

وأورد خلافهم بين القـَبول بإيراد الشعر في الخطب وبين رده، وبيّن الخطبة وقوفاً أو جلوساً ، واحتج بآراء العلماء لكلّ . وذكر خطبة واصل بن عطاء كاملة وقدم لها بأن واصلاً من أبلغ الخطباء وأنه كان يتجنب الراء في كلامه . وجاء بخطبة لرجل لم يذكر اسمه أعجبته ، وهي قصيرة فيها . « الحمـد لله رب العالمين وصلى الله على جميع النبيين. أما بعد، فإنّ الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر أيّها الناس فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم . وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولـكم[٢] » .

وإنما أوردت هذه الخطبة لكي أورد تعليقه عليها فقد قال « وهـذا من الكلام العالي الذي قلّ رجالـُه ، وعدم أو كاد في عصرنا هذا مِثاله . ولولا الفقيه الأستاذ أبو الحسن بن شريح لقلت إن هذا النوع من البيان لقد ذهب بالجملة وطمس[٢] . وانتقى خُطباً قصاراً له على ذلك المنوال وأنهى الفصل بإطراء خطبة الفصيح للمعري ، وانتقى منه نُتفاً .

وقد جعل صاحب نقد النثر الخطب في أنواع المنثور وخصها بحديث مسهب مركز ، فقال في ذلك « فمن أوصاف الخـَطابة أن تـُفتتح بالتحميد والتمجيد ، وتوشّح بالقرآن ، وبالسائر من الأمثال ، فإن ذلك يزين الخطب عند مستـَمعيها

١) إحكام صنعة الكلام ١٦٦ ٢) إحكام صنعه الكلام . ١٧٦

وتعطم به العائدة . ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله في أولهـا : البتراء ، وكل حطبة لا توشح بالقرآن والأمثال الشوهاء . ولا يتمثل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر فإن أحب أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة ، فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر في كتاب إليـه ، ولا بأس بذلك في عيرهـا من الرسائل [1] » .

وقد أوردت هده العبارة لأنها تطابق الأفكار الرئيسية في فصل الخطبة عند الكلاعي وبعض ألفاظها، ولعل صاحب نقد النثر هو المقصود في قوله وكره بعضهم الشّعر في الخطب ، وفي الرسائل التي يكتب فيها الى الخلفاء [2] وما سنراه أيضاً في فصل المورّى والمـُعَمّى سيحمل الظن أكثر ، وإن كان هذا يعني النقل عن الكتاب ، أو عن غيره بواسطة نَمَتْ اليه

الحِكَم المـُرتجلة والأمثال المـُرسلة . جعل المؤلف الحِكَم والأمثال على ضربين فمنها ما يروى في أثناء الخطب والرسائل ومنها ما يكون جواباً لسائل وهو هنا ينظر إلى الحكَم والامثال باعتبار البديهة والروية واختار أمثلة من الحديث النبوي والمأثور عن الصحابة وعيرهم في ذلك [3] . والأمثال باعتبار الأسلوب في قسمين فمعقود بالسّجع محلّى به ، وعاطل عنه خال منه[4] وقد يكون مدلول المثل مباشراً صريحاً ، وقد يجيء على وجه التمثيل والتشبيه كالحديث الشريف النـاس كأسنانِ المشط المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشد بعضه بعضاً ولاحظ أن المثَل قد يكون للمقارنة كضربهم المثل بإقدام عمرو وحلم أحنف ، أو للمبالغة كضربهم المثل بملك سليمان ، وحسن يوسف ، وشبه ذلك [5] . ونقل في أثنـاء ذلك اخباراً مشهورة وأخرى عاينها أو رويت له معاصرة .

١) نقـد النثر المنسوب إلى قدامه بن جعفر – تحقيق د طه حسين ود عبد الحميد العبادي مطبعة مصر ١٩٣٩ – صفحة ٩٥ – ٩٦ البرهان في وجوه البيان أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم الـكاتب (د. مطلوب د حديثي) بغداد ص ١٩٤

٢) إحكام صنعة الكلام ١٧

٣) إحكام ١٨١ – ١٨٢ ٤) إحكام ١٨٢ ، ١٨٣ ٥) إحكام ١٨٦

الموري : عرض في هذا الفصل للموري والمعمى من الكلام، ومر على اللغز أيضاً كما سنبين . قال : « وسمينا هذا النوع من الكلام المورى لأنه باطنه على غير ظاهره ومنه الحديث : إن الجنة لا يدخلها عجوز ، يريد انهن يعدن شواب »[1]. وذكر ان كتاب الملاحن لابن دريد يمثل مقصوده من معنى المورّى ونقل نصاً لأبي العلاء فيه فقرات من الكلام الموري نقلها عن رسالته الصاهل والشاحج . وأدخل في الموري ما يجري مجرى اللغز[2]، ولم يعرّف اللغز ولكنه اكتفى بإيراد نماذج من نثر المعري في الباب[3] وجاء في نقد النثر في باب اللغز وأما اللغز فانه من ألغز اليربوع ولغز إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمنة ويسرة ليعمّي بذلك على طالبه . وهو قول استعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجاة . وذلك مثل قول الشاعر

رب ثور رأيت في جُحر نمل وقطار في ليلة ظلماء

والثّور ها هنا القطعة من الأقط . والقطار . فرخ الحُبارى . فإذا استخرج هذا صح المعنى وإذا حمل على ظاهره كان محالاً[4] .

وذكر ابن رشيق اللغز أيضاً باختصار في باب الإشارة[5]

وألحق بالموري المُعَمّى ، قال : « وهو يكون في المنظوم والمنثور . وبسبب كونه في المنثور نبهت في هذا الموضع عليه ، وأشرت فيه إليه وصفته أن تعمد إلى بيت من الشعر أو فصل من النثر تريد أن تنثر به إلى بعض الخلان أو تمتحن به ذهن أحد الإخوان فتسمّي كل حرف من ذلك باسم من أسماء الطيور أو النبات أو غير ذلك ، فإذا تكرر في كل حرف كررت الإسم الذي سميته به . ومتى تمت كلمة أو حرف علمت علامة تدلّ أن الكلمة قد تمت . مثل أن تريد تعمية قول الشاعر

* طفرت بالاعداء يا ظافرُ *

فتكتب ما صورته أجدل ، زرزور ، عقعق ، سُبَر ، حمامة ، إوزة ،

---

1) إحكام ١٨٨ 2) إحكام ١٩١ 3) إحكام ، ١٩١ – ١٩٢
4) نقد النثر ٦٧ – ٦٨ البرهان ١٤٧ – ١٤٩ . 5) العمدة ١ ٢١٠

بُلبُل ، شُرشور ، عصفور ، إورة ، تُرَكة ، إورة ، أجدل ، إورة ، ررزور ، عَقعق »[1] .

وقد أدخله صاحب نقد النثر في باب الرمز ، مستعمِل الرمز عنده « يجعل الكلمة أو الحرف اسماً من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفاً من حروف المعجم ، ويُطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه ، فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينهما مرموزاً عن غيرهما »[2]. وقال في العمدة – في باب الإشارة – « ومنها التعمية وهذا مثل للطير وما شاكله كقول أبي نواس .

* واسم عليه خش للصما *

وما أشبهه ، وهو معنى مشهور »[3] . ولم يرد على ذلك وأورد أبو القاسم الكلاعي نماذج من الرسائل المعمّاة بين حدد وبين المعتمد بن عباد ، ودل قارىء الكتاب على طريقة فكّ المعميات وخاصة في الشعر لأنه أسهل لما فيه من وزن[4] ، وضرب لذلك الأمثال

المقامات والحكايات كان المؤلف قد ذكر بديع الزمان حين تعرض لأسلوبه النثري ، وأشار إلى أنه وصلهم نحو أربعين مقامة من مقاماته التي ذكروا أنها أربعة مئة وأطرف قارئه ببعض المقامات كاملة ، وفيها فروق ضئيلة عما بين أيدينا ، فذكر المقامة الأصفهانية والمقامة الكوفية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة البغدادية وألحق بالمقامات أشياء أخرى قال « ومن الحكايات المختلقة والأخبار المسَرّوقة المنمقة كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب القائف لأبي العلاء المعري . وقد تكلموا فيه على ألسنة الحيوان وغير الحيوان »[5] . واختار فصولاً وفقراً من كلام المعري ثم عقب بأن للمعري في كتاب القائف إبداعاً وإحساناً ، وقال . « وهو أكثر من كليلة ودمنة وَرَقاً وأفصح طلقاً ، وأطيب شميماً وعبَقاً» ، ويُستغرب من الكلاعي قوله في ختام حديثه وبقوله عن المقامات « ومحاسن أبي الفضل لا تنتهي أو يُنتهى عنها ، وقد عارضه في هذه المقامات جماعة من الكُتّاب بما نزهت عن ذكره هذا الكتاب »[5] ومعروف أن طريقة

١) إحكام صنعة الكلام ١٩٥ ٢) نقد النثر ٦٢ ٣) العمدة ١ ٢١٢
٤) إحكام صنعة الكلام ١٩٥ ٥) إحكام صنعة الكلام ٢٠٨ .

ومقاماته علبت على مقامات بديع الزمان وانتقلت معارضات الأندلسيين من البديع إلى الحريري ، ولعلّ ما يفسر هذا أن يكون الكلاعي معجباً ببديع الزمان خاصاً إياه بالسبق والفضل .

التوثيق . (١) من محاسن أبي القاسم الكلاعي أنه تنبّه إلى الأغراض المتنوعة التي عالجها النثر فذكرها ، وقدم فيها نصائح لقارئه تتعلق باختلاف الأسلوب في معالجة كل واحد من تلك الأغراض والموضوعات . ومن ذلك أنه خص التوثيق بفصل خاص . فأكد في مطلعه أهميته لأنه نزل به الكتاب الكريم . وقال إن الموثق ينبغي أن يتحلّى بالأمانة والإخلاص . ووضع شروطاً طلب التزامها ونصائح جعلها خالصة لهذا الباب مما يُستحب للكتاب أن يعدلوا في هذا الباب عن اللفظ المُحتمل والمعنى الذي فيه التماس إلى الألفاظ الواضحة والمعاني الجلية ورخص للموثق استعمال الألفاظ العاميّة والمبتذلة إذا كانت ألصق ببيان المقصود وسمح بالتكرار والتطويل والتوكيد . ولا بد من العلم بالمَحاضر والسجلات ، وحفظ الحديث ، والدقة في الفرائض ، والمعرفة بالحساب وما إلى ذلك ونصح أيضاً بسدّ الذريعة إلى التدليس فأوجب للموثق الأماكن التي يُحتمل أن يؤتَى منها سواء من الورق أو فراغات ما بين السطور أو المداد . . الخ . وطلب الاحتراس في ضبط الأعداد وضبطها بالكتابة لا بالأرقام .

وخرج عما يمكن أن نسمّي قوانين التوثيق إلى ما تتعلق بآدابه فيجب على الكاتب أن يقدم اسم صاحب المنزلة الأعلى على غيره والأب على ابنه ، وشبه ذلك . ثم قال ان اللفظ الرائق والمعنى الفائق يتصححان ويلزمان في العهود التي يكتب بها في تولية القضاة وتقديم العمال والولاة ونقل فصولاً لأبي إسحاق الصابي طويلة (٢) ، وأثبت لنفسه نص عهد كتبه (٣) وختم به الفصل

التأليف بدأ بذكر أن التأليف لا يقف على زمان دون زمان ، ويمكن أن يُقدِمَ عليه كل أحد في أي وقت ، واحتج له أحمد بن فارس في ذلك (٤) وقال

---

١) إحكام ٢١١ ٢١٣ ٢) إحكام ٢١٦ ٢٢٦
٣) إحكام ٢٢٦ - ٢٢٨ ٤) إحكام ٢٢٩

إن التواليف أقسام منها الـكتب التي تقوم على المختارات ، والمهم فيها حسن الاختيـار . ومنها اختصار الطويل وإطالة المختصر القصير . ومنها شرح معاني الأشعار . وجاء في هذا الباب بنكتة لطيفة قال : « وقلما يخلو قارع هذا الباب من متعقّبٍ ، لأن كلاً يشرح البيت بما يميل إليه طبعه وتحتمله قريحته. ولهذه العلة يعمد الحلة إلى شرح لغـــات أشعارها دون معانيها »[1] . ومثّل لهذا بكتاب ضوء السّقط الذي شرح فيه المعري كتابه سقط الزند ، قال : وإنما شرح اللفظ وترك المعنى للعلة التي قدمنا ذكرها. وأشار إلى الباب الأصلي في موضوع التأليف وعـدّ منها . ما يعتمد فيها المؤلف على فكره ويغترف من بحره ، كمؤلفات أبي العلاء وسرد ثبتاً بأسما كتب المعري التي دخلت الأندلس لعهده[2] . وأتبع وأتبع ذلك بثبت آخر جمع فيه ما وصله من كتب أبي منصور الثعالبي[3] ولم يعدم عدة نصائح يقدمها للمؤلف . فيستحب للمؤلف أن يتجنّب تكرير المعنى واللفظ ولا سيما في الكتب الموضوعة للحفظ . أما التكرار فيستحب في الكتب المرغوب فيها التفقّه . وضرب مثلاً لذلك بالمدوّنة .

ومما يستحب في التواليف البيان والبسط ، إلا إن كان المقصود أحياناً امتحان الخواطر ومثّل لذلك بكتاب سيبويه ، وساق قصة مؤداهـا أن سيبويه ألّف كتابه على هذا النحو وتلك العبارة قاصداً أن ترتاض به الأوهام وتتحور فيـــه الأفهام .[4] واستحب هو أن يوشح المؤلف جدّ تأليفه بالهزل لأن ذلك أبعث للقارىء على النشاط وهي بدعة جاحظية أشاعها في كتبنا زمناً طويلا .

السجع . فسر السجع بمعناه اللغوي ، وعرض لاختلاف العلماء فيه بين مدح وذم وجعل من وجوه ذمّه ألاّ يستطيع مستعمِلهُ على إصابة الغرض منه ، ووضعه في غير مواضعه ، وصرح عن رأيه في السجع فقال « والذي عندي في هذا أن النثر والنظم أخوان فكما لا يقدح في النظم تكلف الوزن والقافية كذلك لا يقدح في النثر تكلف السجع. وربما احتجوا في السجع بحديث رواه ابن المسيب « أن رسول الله ﷺ قضى في الجنين يُقتل في بطن أمه بغُرة عبدٍ أو

---

1) إحكام . ٢٣١ 2) إحكام ٢١١ 3) إحكام ٢٣٢ 4) إحكام ٢٣٤

وليدة فقال الذي قضى عليه كيف أعرم ما لا شرب ولا أكَلَ ، ولا نطق ولا استَهلّ ومثل هذا بطل؟ فقال رسول الله ﷺ إنما هذا من إخوان الكُهّان. وهذا محمول عندنا على أنه إنما كره سجعه بالباطل .. أما إذا كان السجع في كلام العرب الحق فذلك جائز ، وذلك في كلام رسول الله ﷺ كثير ..» [1] .

وهذا موقف واضح ولا ندري كيف جار على أبي القاسم الكلاعي هـــذا القياس الخاطىء ، وتعليل جواز السَّجع في النثر بالقافية في الشعر ، فإنه يكون نثرٌ رفيع بغير سجع ، بل هو الأحسن في الغالب فهل عنده وبقياسه أنه يكون شعرٌ بغير قافية ؟ وينقــل أبو القاسم رأيَ أبي عامر بن شهيد في السجع – وقد نقلناه قبل ذلك ولم يعلق عليه – وخلاصته أنه يجــاري أهل عصره بالسَّجع وإن كان لا يرى ذلك ، واعتبره الكلاعي موقفاً آخر .

ونظر إلى السجعة باعتبار تشكيلها الأسلوبي فجعلها ثلاثة أنواع .

١) أن يكون القسم الثاني في السجعة أكمــل من الأول ، ومثّــل له بفقرة له هي « ومما خفّف من فقده أنّك الخَلَف الصالحُ من بعده . ومما عَـزّانا في وفاته أنك مُحرز خِلاله الكريمة وصفاته ». وجعل هذا القسم نفسه على أنواع ، فمنه مقابلةُ سجعتَين بسجعتين مع وفور الأخيرة ، مثل قوله « ما لي خاطبتُ بهذا الصِّبيان والنِّسوان . فنسيتُ شيوخ الإحسان وفحول البيان » . ومنــه سجع يأتي مطابقاً القسم الثاني من غير نوع القسم الأول . ومثلُه قولُـه « ورد كتابه – أيده الله – في أمر تركة الطِّفل المتوفّى ، فــأدّينا الاجتهادَ في لثم قرطاسِه ، والانقياد طوع نصّهِ ووفق قياسه ، الحقّ الأوفى » [2] .

٢) أن يكون القسم الأول أطولَ من الثــاني ، قال وهذا النوع لا يحسن إلا في مثل قوله « لله درُّها من كتيبة . أما الأكفاء فالأسماء وأما الظروف فالحروف . وأما الشّفار فالأسطار وأما الوطيس فالقراطيس » [2] .

٣) أن يكون القسيمان متساويين ، قال ولا يحسن ذلك عندي إلاّ في فصل المفص نحو قولي «يغمر صُبابةَ بياني بحرُ بلاغته الزاخرُ . ويحقر ذُبالةَ إحساني بــدرُ فصاحته الزاهر » [3] . وليس من الضروري أن يلتزموا هذه القوعد ،

---

١) احكام . ٢٣٦ ٢) احكام . ٢٣٩ ٣) احكام . ٢٤٨

« فقد يكررون السجع ثلاثاً ، ويجعلون القسم الأول أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث » ومَثّلَ له بقوله . « وسألناه أن يثني يسيراً . فعقدنا من الفصل كثيراً ، ونوأنا من المعرفة صدراً وسريرا » [1] . قال وقد يزيدون على ذلك .

وجاء ببعض الأمثلة لما قد يُبركّبونه في اللفظ أو النطق لمطابقة السجع فقد يجدون كالهمزة في الآية الكريمة «أثاثاً وَرِئْياً» والياء في «والّليلِ إذا يَسْرِ» . وقد يزيدون ، ومنه قوله تعالى « وما أدْراكَ ما هِيَهْ » فزاد هاء السّكت ، وكقوله « وتظنّونَ بالله الظنونا » فزاد ألفاً لتستوي رؤوس الفِقَر . وواضح أنّ هذه التقسيمات شكلية جداً تزيد الأسلوب زُخرفاً وقيوداً وقد ساعدت هذه التقسيمات وجعلها قوانين في تجميد الأسلوب العربي ، وصارت تعطي زخرفَ الرونق في حين تسلب الروح .

ولم يكتف بما سمّى وبما قسّم ، فجاء بمصطلحات جديدة تتعلق بنوع السجع وطريقة إيراده ، وعدّ من ذلك أربعة أنواع

المُنْقاد . قال « وسميناه هذا النوع من السجع المنقاد لأنه ينقاد طوعاً ويأتي قبل أن يُستدعى ويُستجلب وأكثر ما يأتي في فصل العاطل » فهو ينظر إليه من حيث كونُه قد جاء بتداعي الأسلوب الطبيعي . وكان من المنطقي أن يضعه مُلْحقاً بالعاطل لأنه أيضاً يمثّل النثر المُرسل الذي لا تَعَمُّل للصنعة الأسلوبية فيه وقد يكون بالسجع والوزن مثل جبير ونصير ، وقد يكون بالسجع دون الوزن مثل عُمُر وقَمَر وربما أتوا بحروف متقاربة كالسّين والصاد ، والطاء والطاء ، مثل قولك الشّمس والنقص ، والحفظ والحفص » [2] . ولمس المؤلف خيطاً رفيعاً بين هذه وبين قولك . التّقريص والتّقريط فإن هذا أقرب إلى باب المستجلب لما في الكلمتين من إيهام التجنيس !

المستجلب وصور لنا الكَلاعي السّلسلة التي انتقل بها الأسلوب العربي من العاطل إلى الحالي وما تلاه من أساليب وبيّنَ أثر السّجع في ذلك ،

1) إحكام ٢٤٠   2) إحكام . ٢٤٢-٢٤٣

وتضمنهم في أن تكون العبارة مصنوعة من أولها إلى آخر كلمات وحروفاً وحركات وراعوا في ذلك – في المراحل التالية – أصناف الحروف بين تفخيم وترقيق وطريقة تتابع بما لا يكاد يكون هناك مزيد عليه. وهكذا « فلم يأتوا بعَفُور مع نَصير، ولا وقفوا عند إتيانهم بعفور مع شَكُور وبـ حبير مع نصير بل جاؤا بمفور مع كَفُور، فضموا الفاء وحرف المد واللين والراء. وجاؤوا بـ حبير مع ثبير وعبير وحبير . . وجـاؤوا بعَمْر مع رَمْر ولم يأتوا به مع تَمَر» [1]. وبلغ الأمر إلتزاماً أشد فقد جاؤوا بقمَر مع تَمَر « فراعوا شكل الحرف المَصمَّن» وهم لا يأتون بـ قمر مع عُمر في حال الخفض لأن دَرْجَ الكلام سيُظهرُ خلافاً في الحركات، وهذا ما لا يريدون وينبه الكَلاَعي على أن المعرّي كان يفعل مثل هذا إلاّ أنه لم يكن يحترس لحالة الإعراب، وفي مثل هذه الحالة يضع الكاتب علامة للوقوف على السَّجع ليحسُنَ في النطق ويلذ في السمع.

وتجنبوا أيضاً إيراد كلمة البَراءةَ مع القِراءةَ لأن إحدى الرائين مفخّمة والأخرى مرققة، وتجنّبوا التضمين وهو افتقار السجع الأول إلى الثاني. وعده من العيوب، وقال إنّ أبا العلاء على جلاله قدرة يأتي به في نثره» والتضمين في الشعر أن تتعلّق القافية – أو لفظة مما قبلها – بما بعدها [2] كقول النابغة الذبياني

وهم وردوا الجِفارَ على تَميمٍ وهم أصحابُ يومِ عُكاظ إنّي
شهدتُ لهم مواطن صادقاتٍ وثقت لهم بحسن الظنّ مني

فهو نقل المصطلح من الشعر إلى النّثر المحلّى بالسّجع

ولما رأى قسوة ما جاء به من أحكام تُقيّد الكاتب قال مُختتماً الفصل « وهذا كله – أعزك الله – ليس بحتم على الكاتب امتثالُه، ولا بفرض عليه اتباعه في أسجاعه كلّها واستعماله، وقد أخذت نفسي بهذا الغرض حتى سهل عليّ مأخذه » [3]

١) إحكام صنعة الكلام ٢٤٤
٢) انظر العمدة في نقد الشعر لابن رشيق ١ ١١٣ وللتضمين باب آخر في البديع العمدة ٢ ٦٨ ٣) إحكام. ٢٤٤ – ٢٤٧.

المضارع . قال في معناه وسبب تسميته بهذا الإسم : « وهذا النوع سمّيناه المضارع لأنه تتشابه حروفه ولا يتفق آخرها ، فهو لا يخلص لباب السجع المُنقاد ولا السجع المُستَجلَب ، فهو كالفعل المضارع الذي لم يخلص للحال ولا للاستقبال وهو كقولهم : « صَرّ وَصَلّ » ومثل طَاب وطارَ . ومثل النّصر والنّصل » وهو قد نقل الفن من الجناس وخصه بهذه التسمية . وقد أورد ابن رشيق في باب التجنيس شيئاً من هذا ، قال بعد أن ذكر التجنيس المطلق أو تجنيس الاشتقاق « ويقرب من هذا النوع ، نوعٌ يسمونه المضارعة وهو على ضروب كثيرة ، منها أن تزيد الحروف وتنقص نحو قول أبي تمام - وسماه الجرجاني التجنيس الناقص -

* يَمُدُّون من أيْدٍ عَواصٍ عَواصِمِ *

ومنها أن تتقدمَ الحروفُ وتتأخر . »[1] ثم قال « وأصل المضارعة أن تتقارب مخارج الحروف . وفي كلام العرب منه كثير غير متكلف والمحدثون إنّما تكلفوه »[1] وعَرّفَ القَزْويني - بعد زمان - التجنيس وعدّد أقسامه ومنه المضارع قال، وثم الحرفان المختلفان إن كانا متقاربَيْنِ سُمّيَ الجناس مضارعاً وإن كانا غير متقاربين سُمّيَ لاحقاً »[2] . وقد أخذ الكَلاعِي تسميته العمدة - أو غيرها - ولكنه ثبّته على معنى قصَدَ إليه ، وخص به هذا المعنى ، ولم يفرع منه شيئاً آخر

المشكل جعل البلاغيون الجناس على أنواع، ومنه الجناس التام الذي تتشابه فيه الكلمتان تماماً وتختلفان في المعنى - سمى قدامة هذا النوع المُمَاثَلَة -[3] ومثّل له الكلاعي بقول الحميد بن أبي الشّخْناء « الحمد لله مودع الأشياء بين الكاف والنون ، المسبحة له البحار الزاخرة والنون . الواحد الذي لا تجد له ضريباً والمُنْزِل من المُزْنِ ضريباً »[4] ونقل عن الثعالبي دون أن يشير إليه عبارته في طريقة البُستي « وكان أبو الفتح البُستي إمام هذه الطريقة

١) العمدة لابن رشيق ١ ، ٢٢٣
٢) الإيضاح للقزويني (ط محي الدين عبد الحميد) ٣٨٦ - ٣٨٧
٣) العمدة ، ١ ٢٢٠ ٤) إحكام ، ٢٤٦ - ٢٤٧

الأنيقة في التجنيس البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه فمن ذلك قوله .

وثقتُ بربي وَفوّضت أمري إليه ، وَحسْبِي به من مُعِين
فلا تبتئس بصروفِ الزمان وَدعْي فإنّ يَقِي يَقِي[1]

فكأن الكلاعي اخترع هذ الألقاب في السجع لِيتخلصَ للنثر ، واستخلص هذه الأنواع الأربعة بعد أن بنى النثر على السجع بناء مصنوعاً ، فيدث فيه كل حركة و كلمة وحرف .

قوانـين الكتابة وآدابها

قَدّمَ الكَلاَعي في كتابه هنا نصائحَ وملاحظات تفيد القاصد في إنشاء كتاب أوْ وضع رسالة من الرسائل ، وفرّق بين الخطابة والكتابة ، ونصح بأن يريد الكاتبُ في المطلوب فإنّ ذلك خيرٌ من النقص ، والأحسن من الحالين « أن يلقي كل طبقة بما يشاكلها من اللفظ ويوافقها ، ويقابلَ كل فئة بما يشاكلها من المعنى ويطابقها » ثم استدرك أنّ ترخيصه للكاتب بالزيادة جاء من قِبَل أنه ليس كل إنسان بقادر على تطبيق المفصل ومراعاة مقتضى الحال وجاء بأمثلة على الكاتب ألا يعدل عن مثلها كالوصف بلفظ الأكبر والأعظم والأعلى والأجلّ والنبيه . ومتى يكتب « ونحن فعلنا كذا » و « أنا فعلت كذا » والفرق بين « أعزك الله » و « أدام الله عزك » ودله على طريقة التسجيل بالكُنى » .

وخرج إلى نصائحَ تتعلق بالأسلوب ، ففي كتاب الاعتذار أو الاستعطاف أو الاستنزال ينبغي ألاّ يصدرَ الكتاب بالألفاظ الخشنة والمعاني القلقة ، لأنه أول ما يقرع السمع ويؤثر في نفس القارىء . وأن تكون النادرة والفِقرة في السجع الثاني لتكونَ أوقعَ وأن يستجاد آخر الرسالة ويستجاد أولها ليحسن البدء والختام . وعاد إلى الدعاء هنا ، فنبّه على ضرورة الاعتراض بحمد الله تعالى إذا ذُكر ، والصلاة على نَبيه إذا ورد اسمه ﷺ . ونصح أن يحترس الكاتب من التصحيف ، وأن يقرأ فقرات الكتاب في سِرّه قبل أن يجهر حين

1) إحكام صنعة الكلام : ٢٤٩

يُدعى إلى ذلك فمي التسرع مطنّةُ الوقوع في الخطأ والزّلل . وحذر الكاتب من تكرير المعاني والألفاظ ، ومن تكرير فِقره وجُملِه ولو كانت جميلة رائقة. فإذا قصد الكاتب الى مدح أحد فليمدحه بما فيه حتى لا يقع في التّزيد . وإذا دُعي إلى ارتجال كتاب فليتروّ ، وليُحسن ترويز كلام يصعب في الكتاب وتحبيره ، وليتوقع الحوادث وما يمكن أن يُكلّف به من أجلها ، فإذا كُلّفَ بكتاب شيء كان في ذهنه رصيد يستمد منه . فإذا أخطأ الكاتب في شيء فعليه ألاّ يُشفق على ما كتب وليكن حريصاً على تغيير العبارة وتبديلها .

وتطلّب الكلاعي في الكاتب أن يكون حاضر الجواب متقد الخاطر [1] ، مستشعراً لوقوع النوادر ، فهذا من الأسباب التي ترفع ذكره وتنبه على مكانته . وأورد نماذج من الأجوبة البديهة مشرقية وأندلسية وهذا يؤكد ما سبق أن عرضنا له من انسجام ذوقهم في الأندلس مع البديهة والارتجال ورفعهم من شأن من يجيد التصرف فيها .

ولم يترك بعض النصائح الاخلاقية أيضاً « ومما يستحب للكاتب أن يُهذّب أعماله كما يُهذّب أقوالَه ، فلا ينظر في كتاب أخيه إلا بإذنه فقد قال ﷺ من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما نظر في النار» وطلب إليه ألاّ ينظر إلى سطر قد ضرب عليه ، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وبهذا الفصل ختم الكتاب

ملاحظات .

إذا قسنا الأخبار الاندلسية بالأخبار المشرقيّة في هذا الكتاب وجدناها قليلة متَعاثرة ، ولكنها على كل حال تعطي صورة جيدة . ولم تكن الأندلس على هامش الكتاب ، فإن المؤلف حين نظر الى الاساليب العربية أنزل بعض كتابهم في منازلهم واختار لهم من كتاباتهم ، وأثنى عليهم ، وانتصر لهم . فبعد أن ذكر الكلاعي كلام الصّاحب في كتاب الدنيا وبلغاء العصر لوقته قال « وتذكرت بقول الصاحب هذا ما كان يقوله أبو الحسن بن بسّام ، فكثيراً ما كان يقول كُتّاب العصر ورؤساء النثر أربعة كلاعيان وفهريان أما الكلاعيان

---

1) إحكام ٢٥٩

فأبو بكر بن القصيرة وأبو محمد بن عبد الغفور . وأما المِهْريان فأبو القاسم بن الجد وأبو محمد بن عبدون [1] وأورد أخباراً مختلفة منها شيء عن المعتضد وابن تاشفين ونماذج من رسائل ابن عبد البر وابن حماحة ، ومن رسائله وشعره وذكر الكتب التي دخلت الأندلس من تآليف المعري والثعالبي وبديع الزمان إلى غير ذلك من الملاحظات .

وبالإضافة إلى أهمية الكِتاب باعتباره يدرس النثرالعربي ويعرض لأهم أعلامه في المشرق والأندلس ففيه ملاحظات جانبية لا تخفى أهميتها على قلتها . فقد تابع أبو القاسم الكلاعي النهج الديني الأخلاقي في النقد ، وبالرغم من إعجابه الشديد بالمعري فقد لامه على ما بدر منه من ظواهر شكوك ورَيْب « إلاّ أنه — عفا الله عنه — أساء حتى أطلم ، وأعرب حتى أعجَم وغاصَ في بحر هذه الفنون حتى تجاوز الدُر إلى الحمإ المسنون فحار في أمره ونَزِم بذات صَدره فلم يحل بطائل من دينه ولا انتفع بطبه ولا بيقيه . » [2]

والكلاعي مُعجَب بالثعالبي ، ينقل آراءه ويحتج بشهادته ، إلاّ أنه خالفه في قيمة أدبِ ابن العميد وحمل عليه في ترجمته « وأما أبوالفضل بن العميدفكاتب دليع مُجيد ، ولكن مع هذا عُدل به عن قومه ، ونُوديَ عليه بأكثر من سوق فقالوا . بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . وقد أثبت من كلامه في وصف رمضان ما لا يصدر مثله عن ضعفاء الولدان [3] » واستشهد في فصل المعصّ بنماذج من ترسل أبي محمد بن عبدون ثم قال إنه صَبٌ في هذا على قالب المهلبي [4] وإن كان مثل هذه الاشارة قليلاً في الكتاب . وذكر المؤلف بعض المصطلحات البديعية كالتكرير ، والترديد والكناية والتعريض (٩٠) والإعتراض (٧٤) ولم يُسْهِب في ذلك ، ونص في مقدمة الباب الثاني على أنه ترك التعريف بهذه الفنون لكثرة الذين كتبوا فيها .

١) إحكام ١١٠ — ١١١ ٢) إحكام ١٣٠ — ١٣١ ٣) إحكام : ١١٣
٤) إحكام ١٤٦ — ١٤٧ .

الوافي في نظم القوافي

لأبي الطيب بن شريف الرندي

في كتب النقد التي بين أيدينا كتاب الوافي في نظم القوافي ومؤلفه ذو شهرة واسعة ، سببها قصيدة قالها في رثاء مدن الأندلس بعد توالي سقوطها في النصف الأول من القرن السابع ، وتوالي نكبات المسلمين وراء ذلك . وهو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفزي ، من أهل رُندة . وتختلف كنيته في المصادر بين أبي البقاء كما في نفح الطيب [1] وأبي الطيب كما في الذيل والتكملة وأزهار الرياض والإحاطة [2] . وكان المقري يورد ذكره باسمه صالح بن شريف أكثر من إيراده بكنيته [3] . وقد غطّت شهرته إيراده بالقصيدة المذكورة على كل ما عنده من آثار أخرى كما نبدو ، وظهرت على شعر رثاء المدن الاندلسية من شبيهاتها ، وأشار المقري إلى قصيدة ابن الابّار السينية :

أدرِكْ بخَيْلِكَ خيلِ الله أنْدَلُسا إن السَّبيل إلى مَنْجاتِها دَرَسا

« والقصيدة السينية التي أشار إليها ابن خلدون كنت عزمت على ذكرها أول تراجم الكتاب حين ذكرت أمر الجزيرة وأتيت بقصيدة صالح بن شريف . فنسيت ذلك حتى قضى الله به الآن ... » [4] ومن قصيدة الرُّندي المشهورة .

* ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، بقية السفر الرابع ١٣٦ – ١٣٩ ومسالك الأبصار (مصورة بدار الكتب رقم ٥٥٩ معارف عامة) ١١ ٤٨ ونص على النقل من أبي حيان والإحاطة لابن الخطيب (نص ترجمته من مخطوطة الاسكوريال ضمن مقالة الاستاذ عبد الله كنون في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية – مدريد ١٩٥٨) ونفح الطيب للمقري ٦ ٢٣٢ ، وأزهار الرياض ١ ٤٧

١) نفح الطيب ٦ ٢٣٢

٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ١ ٤٧ ، الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع) ١٣٧

٣) أزهار الرياض ٣ ٢٠٧ ونفح الطيب ٥ ٢٧٧ و ٨ ١١٤

٤) أزهار الرياض ٣ ٢٠٧

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ
هيَ الامورُ كما شاهدتَها دولٌ من سَرَّهُ زمنٌ ساءَتْهُ أزمانُ
وهذه الدّارُ لا تُبقي على أحد ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
فاسألْ بلنسيةً ما شأن مُرسيةٍ وأينَ شاطبةٌ أم أينَ جيّانُ
وأينَ قرطبةٌ دارُ العلوم فكم من عالم قد سما فيها لَهُ شأن »[1]

وهي قصيدة طويلة استمر فيها يتفَسّس المكلوم الحزين على ما آل إليه حال الأندلس بعد تقوض أركانها بسرعة مذهلة وهذه الحال أخرجت كثيراً من الأندلسيين عن ديارهم ووطّنت في نفوس الباقين أن مقامهم ومقام الأجيال من من ورائهم في الجزيرة الحزينة لن يطول وقد أعجب الناس بالقصيدة ، وكان مما فعلوه أن أضافوا إليها زيادات مختلفة في عصور لاحقة ، تصور سقوط مدن أخرى كانت إسلامية في عهد الرُّنْدي قال المقري « ويوجد بأيدي الناس زياداتٌ فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح ابن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خطّ مَن يوثق به .. فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات »[2] .

والرُّندي شاعر أديب من أعلام القرن السابع الهجري. ولا نعرف بالتحديد مولده ووفاته . ولكنه عاش على الاغلب وبحسب القرائن في النصف الثّاني من القرن السابع. ونقل في الإحاطة أنه روى عن أبي الحسن يزيد والده، وأبي الحسن الدبّاج ، وابن الفخّار الشريشي، وابن قطرال ، وأبي الحسين بن زرقون ، وأبي القاسم بن الجد التونسي[3]

وذكره ابن الزبير في صلة الصلة فقال « شاعرٌ مُجيد في المدح والغزل وغير ذلك ، وعنده مشاركة في الحساب والفرائض ، ونظم في ذلك .. وكان في الجملة معدوداً في أهل الخير وذوي الفضل والدين . تكرر لقائي إياه وقد أقام بمالقة شهراً أيام إقرائي، فكان لا يفارق مجلس إقرائي، وأنشدني كثيراً من شعره»[4].
وقال ابن عبد الملك صاحب الذيل والتكملة : كان خاتمة الأدباء بالأندلس ،

١) نفح الطيب ٦ ٢٣٢ ٢) نفح الطيب ٦ ٢٣٤
٣) الذيل والتكملة ١٣٧ ٤) نقلاً عن الإحاطة .

بارع التصرف في منظوم الكلام، ومنثوره، فقيهاً، حافظاً، مرضياً، متفنناً في معارف شتى، نبيل المقاصد، متواضعاً مقتصداً في أحواله [1].

وكانت سكناه في رندة كما هو واضح من نسبته الشهيرة، وذكر ذلك في إحدى رسائله التي رفعها إلى أمير بني نصر في غرناطة [2]. وقال لسان الدين في الإحاطة: « وكان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها، يسترفد ملوكها وينشد أمراءها. والقصيدة التي أولها.

★ أَوَاصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً ★

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوشي أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله. وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بساتين الملك حتى يكملها في معارضة محمد بن هاني الالبيري [3].

ويبدو أنه كانت له زَوْرات وترددات كثيرة على القصر الأحمر بغرناطة، فقد قال في أحد فصول كتابه (الوافي) : « ولما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين أيده الله واقترن بذلك مولد ابنه الامير المعظم أسعده الله، قلت في ذلك في عروض قصيدة أبي الطيب :

من الظِّبَاء تروعُ الأُسْدَ بالمُقَلِ ... وما رمتها بغير الغُنْجِ والكَحَلِ
من كل رَود ترد السُّمر مشرعةً ... وما اتّقَتْها بغَيرِ الحَلي والحُلَلِ [4]

وقال في مكان آخر، « قال صاحب الكتاب وانفصلت عن الحضرة النصرية – أسماها الله – في بعض زوراتي لها، وقد تكلم بإعذار الأمير الأجل حفظ الله مجده ووصل سعده، فقلت في ذلك عروض القصيدة الدالية.

ألثام شفَّ عن وَردِ نَدِي ... أم غمام ضَحِكت عن بَرَدِ
أم على الأزرار من حُلّتها ... بَدْرُ تِمٍّ في قَضيب أملدِ » [5]

فهو يبدو أشبه بشاعر مناسبات القصر ومهرجاناته، وعبارة لسان الدين فيه تدل على تعلقه بأهداب القصر وانتجاعه بني الأحمر وما تنقّى من شعره، وبخاصة ما هو في كتابه الوافي، يدل على كثير من هذا.

١) الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع) ١٣٧ .
٢) الوافي في نظم القوافي لصالح بن يزيد الرندي (مخطوطة بالتيمورية ٦٠٣ أدب) ٥٢
٣) صحيفة المعهد ٢١٢ ٤) الوافي ٣٧ ٥) الوافي ٤١

ونقل لسان الدين أسماء تواليفه فقال ألف جزءاً على حديث جبريل، وتصنيفاً في الفرائض وأعمالها. وله كتاب كبير سماه روضة الانس ونزهة النفس، وذكر ابن عبد الملك أن له مقامات في أغراض شتّى [1]. وذكر له لسان الدين كتاباً «في صنعة الشعر سماه الكافي»، والحقّ أن اسم الكتاب هو الوافي كما سنفصل.

الكتاب. في المكتبة التيمورية[2] الملحقة بدار الكتب المصرية كتاب لطيف الحجم دقيق الخط كتب بقلم أندلسي واضح، عليه آثار الرمان، ويبدو أنه كتب في القرن السابع أو الثامن. وقد سقطت الورقة الأولى وفيها العنوان. ولكن أحمد تيمور باشا رحمه الله استدرك العنوان من صديق له ذكر أنه رأى من الكتاب نسخة أخرى. واعتنى بفهرسة الكتاب، والإشارة إلى مقطوعات المؤلف التي تركها في الكتاب. واسم هذا التأليف الوافي في نظم القوافي، والمؤلف هو أبو الطيب صالح بن شريف الرندي الأندلسي. وفي فهرس الدار أن من الكتاب نسخة أخرى قرئت على المؤلف، ولم أحْظَ بها. وعلمت بعد انتهائي من مراجعة النسخة التيمورية بوجود نسخة في الجامعة العربية — معهد المخطوطات — مصورة من فاس، فاستدركت منها الورقة الأولى.

موضوع الكتاب الكتاب لاحق بكتب النقد والبلاغة جملة، وفيه أخبار أدبية أندلسية متفرقة، ومختارات من شعر المؤلف تدل على شعر جيد، واستمرار للنَّفَس الأصيل في تيار الشعر العربي في الأندلس. وقد جعل المؤلف كتابه في أربعة أجزاء: ١) الجزء الأول فيه أربعة أبواب. الباب الأول في فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. والباب الثاني في الشعراء وطبقاتهم. والباب الثالث في عمل الشعر وآدابه. والباب الرابع في أغراض الشعر وآدابه، وفيه المدح والرثاء والهجاء..الخ ٢) الجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، وهو أربعون باباً — وذكر المؤلف في هذه الابواب طائفة من الفنون البديعية والبلاغية سنعرض لها، ونقاربها. ٣) الجزء الثالث في عيوب السرقة وهي. الإخلال والسرقة والضرورة. وجعل الإخلال في تسعة أضرب، والسرقة في

١) الذيل والتكملة. ١٣٧ ٢) أدب تيمور. ٦٣

ثلاثة فصول ، والضرورة على أربعة أنواع . ٤) الجزء الرابع : في حدّ الشعر والعروض والقافية . ولا بدّ من عَرْض موضوعات هذه الأجزاء بإجمال حيناً وتفصيل حيناً آخر ليتم لنا ما بدأنا من منهج في درس الآثار النقدية ومحاولة وضعها في مكانها .

١ – قدم الزبيدي لكتابه بمقدمة قصيرة أثنى فيها على الأدب عامة ثم انتقل إلى الشعر . ديوان العرب وديوان الأدب ، فهو « لامحالة محبوب بالطبع شهيّ للسمع ، فطرة الله التي فطر النفوس الفاضلة عليها ، وهدى العقول الكاملة إليها .. ». فهو من البداية يَرفعُ من مكانة الشّعر وكادت تختفي صور مهاجمة الشعر التي لاحقتنا في معظم العصور الماضية بوازع ديني أو بدافع أخلاقي . بل إنه يجعل الإقبال على الشعر دليل الفطرة السليمة والعقول الراجحة التي لم تتبدل فيها الفطرة الأولى . ثم بيّن المؤلف منهجه في كتابه والموضوعات التي سيطلبها بشكل عام « وأوردت في كتابي هذا جملة كافية في صنعة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره ، ويطّلع على أسراره ، ويتفنن في بديعه ، ويتبين سقطه من رفيعه ، هذا وإن كان من سلف قد سبق في هذا المضمار ، وكاد لا يبقي منه إلا كتقدير الإضمار ، فأنت ترى كيف أتى السابق بما أدرك ثم جاء اللاحق فقص واستدرك .. وربما بلغ المتأخر بشرف الاطّلاع ما لم يبلغ المتقدم بفضل الاختراع وسمّيتُ كتابي هذا بالوافي في نظم القوافي ، وقسمته أربعة أجزاء تتضمنُ ما فيه الإجزاء بحول الله تعالى » (٢)

أ – تحدث عن « فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه » فجعله من الحكمة التي ذكرها الله تعالى ، وأورد الحديث . إن من الشعر لحكمة ، وجاء بقصص وأخبار مشهورة في كتب الأدب الجامعة وبعض كتب النقد مما يتعلق بالشعر ومكانته عند النبي ﷺ والصحابة والتابعين والخلفاء ومن تلاهم من الأمراء والكبراء . ولا يكون جديد – في العادة – في مثل هذه الفصول ، فالأخبار فيها مكرورة ، تختلف بطريقة إيرادها ، والمعاني المستفادة منها . فذكر تقريظ

١) أوهم عنوان الكتاب مرتب فهرس معهد المخطوطات فأدرجه في كتب العروض .
٢) مقدمة الكتاب (نسخة الوافي بمعهد المخطوطات المجلوبة من المغرب ص ١ – ٢)

النبي ﷺ شعر حسان وحضه على قول الشعر منافحة عن الإسلام – ونقل إنه ﷺ قد مُدِحَ بالشعر فأثاب عليه . ونقل قصة وفود كعب بن زهير عليه . وجره هذا إلى قصة هشام بن عبدالملك لما تجاهل علي بن الحسين بن علي والقصيدة المنسوبة إلى الفرزدق في ذلك . ثم موقف عمر بن عبد العزيز من الشعراء حين قطع إثابتهم .

وخرج إلى الحديث عن موقف الراشدين والصحابة ومن تلاهم من الشعر قال « وقد تكلم بالشعر الخلفاء والأمراء وهم القدوة ، وفيهم لمن بعدهم أسوة ، فمن الخلفاء أبو بكر الصديق . »[1] . وروى شعراً لهم . ومن العلماء : روى للإمام الشافعي وعبد الله بن المبارك ، ولأبي الأسود الدؤلي (ص ٨) وانتقل إلى الأمراء (الحكام) فأورد شعراً للرشيد والمأمون وابراهيم بن المهدي (ص ٩) وعبدالله بن المعتز وسيف الدولة وأبي فراس الحمداني (ص ١٠) وانفصل المؤلف عن موضوعه الأصلي إلى إيراد نصوص مختارة أعجبته ، فأورد قصيدة أبي فراس .

★ أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ★

وسماها مُذهَبة . ثم أورد مقتطفات من شعر الحمدانيين

أما النقول الأولى فمنثوثة مكروررة في مصادر مختلفة ومنها كتاب العُمدة الذي سيشير المؤلف بعد قليل إلى الاستمداد منه بكثرة والاتكاء عليه ، وأما أخبار الحمدانيين فمنقول عن اليتيمة للثعالبي، وقد صرح بذلك[2]. وقد كان لكتاب الثعالبي أهمية قصوى في نقل أخبار المشرق، والتعريف بأعلامه وانتقل المؤلف بعد هذا الى أخبار أندلسية فذكر بعض أمرائهم ممّن نظم الشعر كالمنصور بن أبي عامر ، والمعتمد بن عباد ، وأضاف الأمير أبا زكريا (الحفصي) صاحب افريقية . وذِكْرُهُ منصور بن عامر كان في لهفة وإكبار ، ولعله تذكّره وحالُ الأندلس في انهيار وفي شوق إلى منقذ يجدد صنيع ذلك المحارب القوي قال . « وللمنصور محمد بن أبي عامر المؤيد ، بقرطبة ، وهو الذي قهر الروم وذلل مصاعب تلك القروم ، ودوخ أتباع بني الأصفر ، وصال عليهم صولة القَسْوَر ،

١) الوافي ٦٠ . ٢) الوافي ١١٠ .

وما زال يوالي حربهم حتى خـــافوه بخوف المنية ، ورضوا في دينهم بالذلية ...
من شعره الرائق ونظمه الفائق قوله يفخر بنفسه .

رميت بنفسي هولَ كلِّ عظيمـة
وخاطرت والحُرُّ الكريم مخاطر [1]

ونص في بعض الأخبار الأندلسية على النقل من القلائد

ب – طبقات الشعراء .

بدأ بقول الخليل بن أحمد إن الشعراء هم أرباب النظام وأمراء الكلام [2] . وقال إن الشعر ثلاثة أصناف جاهلي ومخضرم وإسلامي [3] . وعَرّف الجاهلي ثم قال ورؤوس هؤلاء الطبقة الستة المشهورون ورأسهم امرؤ القيس . وواضح أنه يقصد الستة الذين اشتهروا ، وأكثر الأندلسيون من العكوف على شرح أشعارهم . وعد من طبقة المخضرمين النابغة الجعدي وكعب بن مالك وجعل الاسلاميين ثلاثــة أنواع : صدوراً ، ومحْدَثين ، ومو ّلدين . فالصدور ثلاثـة ويشبّهون بثلاثة جرير بالأعشى ، والفرزدق بالنابغة ، والأخطل بزهير [4] . قال والمحدَثُون جماعة منهم العتّابي وأشجع السلمي والسيّد الحميدي ومروان ابن أبي حفصــة وأبو دُلامــة الأعرابي ، ورأسهم بشار بن برد العقيــلي [5] . والمولدون جماعة منهم مسلم بن الوليد صريع الغواني وأبو الشيص والرقاشي وأبان اللاحقي ، ورأسهم الحسن بن هاني [6] . وكل التقسيمات السابقة نقلها ابن رشيق بترتيبها عمن سبقه وذكر بعض مصادره . ونقل الرندي عن ابن رشيق نقلاً مطابقاً أو مقارباً . ثم قال بعد ما سبق « وقال صاحب العمدة كان ابن المعتز وابن الرومي وأبو تمام والبحتري في طبقة متداركة عطوا على من سواهم ، ثم جاء أبو الطيب فشغل الناس بشعره » [7] ثم نقل شيئاً من ترجمة المتنبي عن يتيمة الدهر . ونقل قول الصّاحب بن عباد بدىء الشعر بكندة وختم بكندة وفسر العبارة فقال يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحمداني وأبا الطيب المتنبي

---

١) الوافي ١٣ – ١٤ ٢) الوافي ١٦ ٣) العمدة ١ ٦٣ ، وانظر ٥٥
٤) العمدة ١ ٦٠ ٥) الوافي ١٦ ، العمدة ١ ٦٤ .
٦) العمدة ١ . ٦٤ ٧) الوافي . ١٧ والعمدة ١ . ٦٤ بلفظ مقارب .

فهو أقحم أبا فراس ، ورأينا ما نقله الحميدي – من قبل – في ترجمة الرمادي من أن بعض الأندلسيين يفسرون العبارة بإدخاله فيها أيضاً . وفي نقل الزبدي نظر لأن العبارة في العمدة هي « ... يقولون بدىء الشعر بكندة يعنون امرأ القيس وختم بكندة يعنون أبا الطيب وزعم بعض المتأخرين أنه جعفي . وقوم منهم الصاحب بن عباد يقولون بدىء الشعر بملك وختم بملك يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان »[1] . وهذا أمثل لأن الصاحب كان على خصام مع المتنبي ، وكان اختصار الزبدي مخلاً

ونقل جملاً مشهورة شائعة عن أشعر الناس وأشعر العرب ، مثل أشعر الناس من أنت في شعره . ونقل مقاله لبيد في الشعراء ، وقولهم أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب . . الخ ونقل ما ذكره الجاحظ من تنقله في طلب علم الشعر بين فئات مختلفة ثم وجد أنه عند الكتّاب . وفي أنواع الشعراء قال « قيل . الشعراء أربعـــة شاعر مفلق أي معجب ، وشاعر مجيد وشاعر لا بأس به ، وشُعرور وهو السّاقة الرديء » . وإياه أراد الشاعر بقوله : – وهو في العمدة لدعبل –

يموتُ رديءُ الشّعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله »[2]

والمعنى والتسمية من العُمدة حيث نقـل عن مجهول بصيغة قالوا ، وجعلهم أربعة . خنذيذ وهو الذي يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره ، ومفلق وهو الذي لا رواية له ولكنه مجود كالخنذيـذ ، وشاعر فقط وهو فوق الرديء بدرجة ، وشعرور وهو لا شيء[3] . ونقـل في العمدة تسميات أخرى مقاربة[4] .

ﺟ – عمل الشعر وآدابه . وضع الزبدي الباب الثالث ليبيّن طريقة تأليف الشعر ، والحـــال التي ينبغي أن يتهيأ الشاعر بها لكي يستطيـع الإبداع ، وعرض بمادح مما يدخل في شعر البديهة والارتجال يريد أن ذلك دليل التهؤ النّفسي والذهني لصوغ الشعر سريعاً ، فإذا كان هذا ، فالتمّهل سيكون ذا

---

١) العمدة في نقد الشعر ١ ٥٦
٢) الوافي ١٨٠ ٣) العمدة ١ ، ٧٣ ٤) العمدة ١٠ ٧٤

نتائج أوضح . ويبدأ بمقدمة لا تشاكل الباب مباشرة فقال : إن الشعر ينقسم إلى طرفين ووسط ، وأن الشعر ينتظم أموراً أربعة : اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، وأنه ربما عرض لبعضها ما يخل به . ونقل خبر بعض ممن أحجم عن الشّعر مع القُدرة عليه كالمفصل الضبي . ونظرية الاوساط أو الحدود الوسطى من الأثر اليوناني عند قدامة بن جعفر « إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان : أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة ، وحدود بينهما تسمى الوسائط . . » [1] . وبناء الشعر على هذه الأركان من قُدامة ، ونقلها ابن رشيق في العمدة في رأس باب . حدّ الشعر وبنيته [2] .

ثم انتقل المؤلف إلى عمل الشعر وجاء في هذا نصّ طريف استقى معناه من فصل عقده ابن رشيق بعنوان باب في آداب الشاعر [3] وباب عمل الشعر وشحذ القريحة له ، وكان سبق العسكريُ في الصناعتين إلى مثله ، وجعله في الأول من الباب الثالث « في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه » [4] . قال الزبدي « وينبغي لمن يروم عمل الشعر أن يتحرى أوقات الفراغ وأمكنة الخلوة ولا يعمل شيئاً من الشعر حتى يشتهيه فإن الشهوة نعم المعين وإذا سئم فليرح نفسه ولا يكره طبعه ، ويطالع من أشعار الناس ما يستجيده في المعنى الذي يريده ، ومن أمثالهم . الكلام من الكلِام . وينبغي ألا يقبل كل ما يبعثه هاجسه وتنفث به وساوسه بل ينقّح ويختار ولا يذهب فيه إلى الاستكثار . وإذا فرغ من شعره تثبّت في أمره فتأمله مرتين ورجع النظر فيه كرتين فكثيراً ما سُودت وجوه المبيضات بالتعيير وأدّى العجل إلى الندم والتحيير . وينبغي أن يعرض كلامه على مَنْ يَثِقُ بمعرفته ونصيحته ، فإن الإنسان لا يرى عيب نفسه ، والمرءُ كما قيل يفتن بابنه وشعره وقد يعرض للشاعر أن يُرتج عليه فيكهم حدّه ، ويصلد زندُه ولا يستطيع أن ينظم شيئاً وقد يتأتّى له حُسن البديهة وجودة القريحة ما

1) قدامة (نقد الشعر) ١٦ والبلاغة تطور وتاريخ ٨١ – ٨٢
2) قدامة ١٥ – ٢٥ ، العمدة ١ ٧٧ 3) العمدة ١ ١٣١ – ١٣٦ .
4) الصناعتين ، ١٠٠ .

ما يعجب منه . . . . »[1] . ونقل قصة أبي تمام بين يدي المعتصم وفي حضور الفيلسوف الكندي مثالاً . وهي في العمدة تحت باب . البديهة والارتجال[2] .

وبعد أن نقل في صدر النصيحة ضرورة التأني والتروّي وحبس الشعر عن عرضه قبل تنقيحه، انتقل إلى البديهة وكأنها فن من الفنون لا يستغنى عنه وضرب لها الأمثال . وانتقل إلى الاندلس فحكى قصة وقعت للشريف المرواني الطليق في ابتداء شعره . وحكى خبر معاصره الهَيْثم الإشبيلي وكان يُملي قصيـــدة وموشّحة ورجلاً على ثلاثة أبصـــار في وقت واحد ! ونقل خبراً آخر مماثلاً . وتحدث عن الإجارة والمماطة . وعرّف الاجازة بأن يذيل الشاعر على كلام غيره على البديهة ما يلائم مبناه ويتصل بمعناه ، وجاء بأخبار أندلسية كثيرة وأخرى مشرقية نص على نقلها من العمدة[3] . وأما الماتنة (ويقال المماطة) «فهي أن يتساجل الشاعران فيصدّر أحدهم ويعجّز الآخر كما ذكرنا عن أبي تمام.. وكفعل امرىء القيس إذ قال للتوأم اليشكري إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول» وعبارة العمدة : إن كنت شاعراً فملّط أنصاف ما أقول فأجزها . والخبر هذا في العمدة ١ ٠ ١٣٥ وله سياق آخر

د – وبحث في أغراض الشعر وآدابه : فقال إن أغراض الشعر كثيرة ولكن الذي يدور على الألسنة وتتداوله الناس ثمانية أنواع . النسيب والمـدح والتهنئة ، والرثاء والاعتذار والعتاب ، والذم والوصف . وصدّر حديثه على كل غرض من هذه الاغراض بتعريف قصير أو عبارات ملائمة للمعنى ، وأورد بعض ما جرى عليه العرب في شعرهم في كل فن وكل مطلب ، جارياً على سننهم في الشعر ، والرندي شاعر وناقد ، فآراؤه هنا تبين منهجه الشعري وموقفه النقدي وتتجاوز الى ذوق عصره تقريباً ، وبدأ حديثه عن النسيب بعبـارة شعرية . « النسيب للروح نسيب ، وهو ريحانة الأنس وسلوانة النفس لانه يستفز ويروق ويهز ويشوق ولذلك جعلوه صدراً في المدائح وسبباً للمنائح . » وقطع نصف بيت المتنبي

١) الوافي ١٨ – ١٩ ٢) العمدة ١ ١٢٦ – ١٣١ .
٣) الوافي ٢٠ – ٢٣ وأورد ابن رشيق المماتنة باسم التمليط في العمدة ٢ ٠ ٧٤

واحتج به لرأيه . وصدّر البحث بأن أورد طرفاً من غزل حسان شاعر الرسول ﷺ . ووضح مذهبه في النسيب بقوله : ومن آداب هذا الباب أن يكون اللفظ رشيقاً والمعنى رقيقاً . وإذا وصف المحبوب فالتيه والإعراض ونحو من ذلك ، ولا يقابل بالجفاء ولا يعامل معاملة الأكفاء . يقول بعضهم :

تقتلني يا أيها الظالمُ وخالقي أنت بها عالِمُ

وإنما حق المحبوب أن يُتدلل له كما تدلّل ، ويحمل الذنب على نفسه ويتحمل [1] ، ونقل شعراً لصاحبه أبي الحكم مالك بن المرحل .

لا آخذ الله أحبابي بما صنعوا إن الحبيب لمحمولٌ وإن جارا
وإن من حكمة المولى ورحمته ألا يُحمّل أهل الحسن أوزارا

ونقل أخباراً كثيرة مشرقية عن عروة بن أذينة وعمر بن أبي ربيعة وأبي الشيص والشريف الرضي ، وأشعاراً لهم وله أيضاً في الباب ، ونقل شيئاً من قصيدة ابن زيدون التي على النون [2] . وقد جعل المؤلف الغزل في مطالع القصائد شبيهاً بالغزل المحض من حيث أنه يعبر عن عاطفة وشوق وأنهم توسّلوا به في صدر قصائد المديح . والرأي قديم متداول فقال ابن قتيبة «النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء . [3] » ولم يخرج الزبدي على ما تواضع عليه الشعراء والنقاد

وتحدث عن المديح فبدأ بجمل مسجوعة المدح محبوب بالطبع شهيٌّ للسمع ، والنفوس في حبه متفقة وفي دواعيه مفترقة فالكريم يجود ويبذل المجهود ، واللئيم يتعلل ويحب أن يحمله بما لم يفعل » [4] ولعله يشير الى بعض أهل عصره من ذوي الشأن ، بالمناسبة . وقدم بعض الالفاظ والمعاني التي تصلح للمديح كنعت الممدوح بكرم العنصر والنطق بالحكمة وفرّق بين مدح الملك والوزير والقاضي والقائد وغيرهم وهذه قسمة أشبه بصنيع قدامة ، واتكأ ابن رشيق في عمدته

١) الوافي ٢٤ – ٢٥ ٢) الوافي ٢٦ – ٣١ ٣) الشعر والشعراء ١ ٧٥
٤) الوافي ٣٢

عليه في هذا الباب[1] . وعبّر الرندي عن هذا بقوله : « ومن الأوصاف مايليق بكل صنف ويحسن في كل طبقة، كالعقل والحسن والشرف وكرم النفس ومنها ما يخص قوماً دون قوم فلا يوصف بها إلا مَن كان مِن أهلها ، كالحسب والادب والعلم والبأس ونحو ذلك » [2] وشبّه بقول زهير :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفِعْلُ

وقصيدة للمتنبي ، وأورد شعراً له ولابن حمديس يمدح المعتمد ، وللحطيئة ، ثم نقل بيت زهير — في جملة أبيات —

تراه إذا ما جئتَهُ متهلّلاً كأنك تُعطيه الذي أنتَ سائله

وقال : ورأيت بعضهم يعيب هذا البيت من حيث جعله يسرُّ بالعَطاء له ، فتحررتُ من ذلك وقلت .

وأروعَ يُنسي البدر حسناً ورفعةً فواصلُه لا تنتهي وفضائِلُه
يسر بما يعطيك قبل سؤاله سرورك بالنَّيل الذي أنت نائله[2]

قلت وقد انتقد ابن شرف القيرواني في أعلام الكلام بيت زهير المتقدم وعابه [3] . وختم الرندي تلك الفقرة بمختارات شعرية مشرقية وأندلسية تصلح بمادح في باب المديح ، ونص على النقل في بعضها من العمدة [4] .

وأفرد التهنئة بفقرة خاصة وعده من أنواعه الثانية وقال إن التهنئة « من مهمّات الأغراض، ولم أجد فيها إلا الأبيات اليسيرة في المعاني القليلة. وقد أوردتُ من ذلك ما يجري مجرى المقطّعات في الأغراض المتنوعة » [5] . واختار للمتنبي أبياتاً له كثيرة ، بعضها في كاتب الدولة المصرية على أيامه أبي عمرو بن المرابط. ولم يفرد قدامة ولا ابن رشيق ولا العسكري باباً للتهاني خاصاً . ولعله انتبه إليه لكونه شاعراً ذا صلة وثيقة بالقصر والحكام ، مما يستدعي منه شعر المناسبات .

وفي الرثاء جعل مدار الرثاء على ثلاثة أمور ، وجعل المرثيين ثلاثة أنواع

١) العمدة ٢ . ١٠٥ – ١٠٨ ٢) الوافي ٣٥ . ٣) الوافي . ٤٣
٤) أعلام الكلام (ط الخانجي) ٣٤ – ٣٥ .
٥) الوافي . ٤٤ ونقل من العمدة ٢ : ١١٢

فدار الرثاء على التوجع ويكون بتعظيم الرزء وإحلال الخطب وإعمال التأسف والتأبين ويكون بذكر مآثر الموتى ومكارمه ووصفه عما يجب له ، والتعزية وتكون بالحث على الصبر والتأسي بالسلف فيما عرى من فجائع الدنيا ليتأسى بذلك ولي الهالك كما قالت الخنساء .

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي [1]

ونقل أبياتاً لأبي فراس وغيره . وقد اعتمد ابن رشيق على قدامة في ذلك إذ سمّى الرثاء التأبين وجعله وصفاً للميت وأضاف اليه التوجّع والتعزية ، بما يلابس الموضوع الاصلي .

وصنف المرثيين ثلاثة أصناف . الرجال والنساء والاطفال [2] وقال إن القول في رثاء الرجال متّسع وغير عسير ، ومثّل للرثاء الجيد بقصيدة أبي تمام :

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعَين لم يفِض ماؤها عذْرُ

ونقل لنفسه قصيدة مطلعها :

لمثلكَ من رزءٍ تهونُ المصائبُ وتنسى خطوبٌ للرّدى ونوائبُ [3]

كما أورد رسالة أنشدها في وفاة الأمير الغرناطي رفعها لولي عهده – ولم يسمّها – وأتبع الرسالة بقصيدة رثاء . فكان الزبدي يشارك بشعره في إيضاح رأيه النقدي ويجعله تطبيقاً لما يقتبس أو يجتهد من قواعد وآراء ثم نقل عن صاحب العمدة [4] أن أحسن ابتداء قاله مُوَلّد في الرثاء قول أبي تمام .

* أصمّ بك الناعي وإن كانَ أسمعا *

وأجاد في الانتهاء في القصيدة نفسها أيضاً . ونقل بعضاً من شعر ديك الجن لما قتل جارية له فرثاها .

أما مراثي النساء فيرى أن يُقصد في تأبينهن ، قال : والوجه أن يكون عمومياً على عادة الصون لهن . فيقال في المرأة انها كانت شمساً أفلت ، وزهرة ذبلت ، ونحو ذلك ، ومَثّل بشعر لأبي بكر الداني ، وأبي الطيب المتنبي ، وعاب على المتنبي قوله في رثاء أخت سيف الدولة

---

١) الوافي . ٤٦ . ٢) الوافي . ٤٩ ٣) الوافي ٥٠ ٤) الوافي ٥٣

فان تكن خُلقت أنثى فقد خلقت   كريمةً غير أنثى العقل والحسبِ

ورأى أنه غير جيد ، لأنه جعل أنوثتها عيباً ، وذِكْرُ العيب عيب . وعاب بيته الآخر في رثاء أم سيف الدولة

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفُضّلت النساءُ على الرجالِ

قال . فهو كما ترى ، وفي عمومه ما لا يخفى [1] .

وكان قد أعلن رأيه في المدح والهجاء بضرورة ذكر اسم المقصود بذلك . وانتقى لنفسه ما ارتضاه في الباب . ونقل في رثاء الأطفال مقالة ابن رشيق دون أن يذكره فقال — ونصّاهما متقاربان — وأما الأطفال فيوصفون بما كانت تعطي فيهم الفراسة ، وتقتضيه في مخايلهم النجابة ، ويقال إنهم كانوا كالأقمار خُطفت قبل تمامها ، والأزهار قطفت في كمامها [2] . واستشهد بشعر للتهامي ولنفسه ، وأورد أبيات أبي تمام التي أشار اليها ابن رشيق ، وأخرى لأبي نواس ، ولابن محرز .

الاعتذار .

أفرد الرندي للاعتذار باباً كابن رشيق [3] ، واعتمد عليه فقال . وينبغي في الاعتذار ألا ّ يؤخذ من باب الاحتجاج وإقامة البرهان ، لا سيما مع ذوي القدرة والسّلطان [4] . ثم قدم رأياً له . وينبغي أن تدمج البراءة في العذر ، ثم يلجأ إلى الصفح ، ونقل قصيدة — عدها من أحسن ما قيل في الاعتذار — لأبي الحسن بن الحاج مطلعها .

تقلّص ظل مُنك وازورّ جانبُ   وأخرز حظّي من رضاك الأجانبُ

وأورد أبياتاً للحارث بن هشام يعتذر عن الفرار يوم بدر ، ولغير هؤلاء ، وليس في الفقرة أكثر من هذا من حيث الموضوع .

العتاب :

وفتح باباً آخر للعتاب [5] وميز العتاب عن غيره من الفنون والأغراض بأنه لا يكون إلا بين الأحباب ، لأنه إبقاء للود وإطفاء لنار الحقد . ونقل شعراً

---

١) الوافي ٥٥   ٢) الوافي ٥٦   ٣) الوافي ٥٧ .
٤) العمدة . ٢ : ١٤٣   ٥) الوافي ٥٩ — ٦٠ .

للصولي من كتابه الأكفاء وغيره .

ونقل طرفاً من خبر أبي محمد بن القاسم — وسبق الحديث عنه في رسالتين نقديتين — مع صديقه أبي العباس ، وعتاب أبي محمد له لانقباضه عنه لمّا قصد تملا ، ونصّ على نقل الخبر من القلائد [1] .

وميز من أنواع العتاب عتاب الاشراف قال . فإنما يكون عتاب الاشراف اشارة استعطاف واستلطاف . قال صاحب العمدة . البحتري أحسنُ الناس طريقة في عتاب الاشراف . وله من قصيدة يُعتبُ فيها الفتح بن خاقان .

يَريني الشيء تأتي به وأكبر قدرَك أن أسترِيبا [2]

وحكى قصة عتاب المتنبي لسيف الدولة بقوله .

واحرّ قلباهُ ممن قلبُه شَبِمُ ومَنْ بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

وعلّق « وهذا كلام في نهاية الجودة ، ولكنه ارتكب فيه مخاطرة ، ولذلك همّ بقتله في ذلك . ثم قص قصة جرت بينه وبين أبي سعيد بن نصر ابن أمير غرناطة يوماً ، واعتذر بأبيات فيها احتراس من مثل جُرأة المتني مطلعها :

ما عمدةَ المُلك إلا السّيف والقلمُ ولا السّيادةُ الا الجُود والكرَمُ

ولم يأت في الباب بجديد .

الهجاء .

وتحدث عن الهجاء باسم اللمم ، وقدم للفقرة على عادته بمقدمة قصيرة توطىء للحديث . وأنكر الهجاء لا لداع من الدواعي الذم كاسمه ذميم ، لكن ربما شفى الكريم من اللئيم .. وإذا كان أكثر المدح زوراً فما ظنك بالهجو الذي كله فجور ؟ وقد أحسن الرّصافي من شعرائنا في قوله

عفـــا الله عني فإني امرُؤٌ أتيتُ الصناعةَ من بابهـا
على أن عندي لمن هاجَني كئائن َعصّت بنشّابهـا
ولو كنت أرمي بها مُسلماً لكان (السُّهَيلي) أولى بها [3]

ونقل قصصاً عن الصحاح وعبد الملك ، وأبي العيناء والمتوكل وغيرهمـا ، ثم

١) الوافي ٦١
٢) الوافي ٠ ٦٢ ، قلائد العقيان ١٣٢ .
٣) الوافي ٦٢ - ٦٣

قسم الهجاء أربعة أنواع : تعريض ، وتصريح ، وتحقير ، وتفضيل ، ولم يفصّل في هذه الأنواع . ثم أتسع ذلك قوله ، ومذهبهم في ذلك التّقصير ، ونقل جملة ألفاظ وعبارات تنفع في موضوع الهجاء . وأتسع الحديث بقصص أخرى عن الحُطيئة والمفضل الضبّي ، ولابن عمار يهجو المعتمد بن عباد .

الوصف .

ختم حديثه عن أغراض الشعر بفن الوصف . وبدأه بقوله « الوصف ذِكرُ الشيء بما يصوره في الأفهام كصورته في الحس ، ويمثّله للخيال بما له من الهيئات والأشكال ، وهو باب جليل ، وعليه مدار الشعر إلا القليل . وأكثر ما يقع ذلك بالتشبيه والتمثيل » [١] .

وقال ابن رشيق « الشعر إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل الى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه مشتمل عليه ، وليس به لأنه كثيراً ما يأتي في أضعافه . » [٢] وانتقل الربدي إلى أمثلة كثيرة مشرقية وأندلسية ملأت ما بين صفحة ٧٠ وصفحة ٩٢ . ومما يلاحظ في كتاب الربدي أنه أكثر من المختارات الأندلسية ، وجعل كثيراً من أمثلته على فصوله وأنوابه وأغراضه من شعرهم ، بالإضافة إلى نماذج مختلفة ومقطّعات منثورة من شعره هو أيضاً . فاختار لابن خفاجة في وصف الليل وابتدائه وانتهائه ، وابن هانىء الأندلسي ، ثم قال ومن منهجاتي أنا في المنزع من قصيدة مدحتُ فيها أمير المسلمين أيده الله تعالى :

وليـــلة نبّهت أحفانَهـــا والفَجر قد فجّر نهر النهارْ

والليلُ كالمَهزومِ يومَ الوغى

والشُهبُ مثلُ الشّهب عند الفِرار[٣]

وأكثر من أوصاف الاندلسيين وتشبيهاتهم فاختار لابن شهيـد ، ولابن خفاجة ، ولابن أبي العافية من معاصريه ، وللرصافي ، وللمعتمد ، ولابن عمار . وأكثر من الأخبار لنفسه أيضاً . وانتقل الى الجزء الثاني .

٢ — وموضوع الجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه . وقـد جعله

١) الوافي ٦٥ ٢) الوافي ٧٠ ٣) العمدة ٢ . ٢٢٦

لفنون البلاغة والبديع ، فأورد أربعين باباً منها ، قال : « اعلم أن أرباب صنعة ونقّاد الكلام تواضعوا في صناعة الشعر على أسماء وسَمَوا بها بدائعه، ورسموا روائعه ، فجمعوا فوائده ونظموا بذلك فرائده . وقد أوردت من ذلك أربعين باباً تروق للناظر ويفوقُ بها ، المناظر [1] » . وهذه الابواب ستكون ممثلة لمذهبه الفني، وذوقه الشعري والنقدي معاً . وسأعرض ما أورده من فنون البلاغة على سابقيه — وخاصة العمدة — وسأحيل أيضاً على كتاب متأخر هو تحرير التحبير فقد أجمل معظم الفنون لعصره؛ وفي حواشي الكتاب المطبوع إشارات وإحالات إلى شيء من الكتب المتقدمة ومواضع تلك الفنون منها وسأحاول الاختصار ما أمكن ذلك ، حتى لا يطول الحديث .

١) الابتداء . ورد الابتداء عند ابن المعتز في البديع [2] ، والعسكري في الصناعتين [3] ، وابن رشيق في العمدة [4] . ونصح الرندي أن يكون الابتداء مع اللفظ الرائق والمعنى الفائق ، وأن يفتتح بالجمل الابتدائية ، والفعلية ،والنداء والاستفهام ونحوه مما له صدرُ الكلام والأحسن أن يكون الابتداء مما يجري مجرى المثل كقول أبي تمام

* السيف أصدق أنباء من الكتب *

ونقل عن الحاتمي أن أجود ابتداء قول امرىء القيس (قفا نبك ...)
واستخلص الرندي من هذا أن المقصود في حُسن الابتداء هو الشطر الاول ، والثاني يَنصرُه أو يخذله وكمال حسن الابتداء في الشعر كله [5] .

٢) الانتهاء . ثنّى الرندي بالانتهاء بعد حديثه عن الابتداء ، وقال إنه نظير الابتداء ، وأمره مهم جداً [6] ، وربما كان بيتاً أو بيتين . وجاء بنماذج من شعر المتنبي والمعري وأبي تمام والانتهاء من أبواب العمدة (١ ١٥٩) وتحرير التحبير ٦١٦ .

٣) الاستطراد وهو أن ينفصل الشاعر في القصيدة من الغزل ونحوه إلى

١) الوافي ٧٤ — ٧٥ ٢) الوافي ٩٢
٣) البديع ١٣٣ ٤) الصناعتين ٣٤٣ ٥) العمدة ١ ١٤٥
٦) الوافي ٩٢ — ٩٣ ، تحرير التحبير ، ١٦٨

المدح بنوع يتناسب به الكلام ويلتئم معه النظام . وقد فرق ابن رشيق في العمدة بين الخروج (حسن الخروج) والاستطراد . قال : «الاستطراد أن يُري الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج ، وأكثر الناس يسمي الجميع استطراداً ، والصواب ما بينته » [1] .

ويظهر أن الزبدي اعتمد على اصطلاح الحاتمي لأن أمثلته هي نفسها كما نقلها ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير [2] ، كما أنه لم يفرق بين الاستطراد والخروج ، وإن كان نقل مثالاً لبشار عن ابن رشيق ، مما هو في باب الإستطراد (العمدة . ٢ . ٣٢) . ومثاله عند الزبدي (وهو في تحرير التحبير . ١٣١) قول حسان .

إن كنت كاذبَة الذي حدَّثـتِنِي فنجوت مَنجَى الحارث بن هشام
تركَ الأحبَّة أن يقاتِلَ دونهم ونجا برأس طِمِرّةٍ ولجام

وهذا الباب في البديع لابن المعتز (١٠٩) ، والصناعتين (٣١٦) ، وأمثلة العسكري مشابهة لأمثلة الحاتمي المنقولة في تحرير التحبير .

٤) المُطابقة : عرّف المطابقة وذكر مصادره فقال « المطابقة عند أكثرهم ذكر الشيء وضده ، وعلى ذلك أناشيد ابن رشيق في عمدته قال الحاتمي .»[3] . وجعل المطابقة على ثلاثة أنحاء . مطابقة واحدة في بيت ، ومطابقتان ، وثلاث في بيت واحد . والبحث في البديع . ٧٤ وفي نقد الشعر . ١٦٣ باسم التكافؤ ، وفي العمدة ٢ . ٦ .

٥) المُقابلة . وردت عند قدامة باسم صحة المقابلات (١٥٢) وعند العسكري (٢٦٤) وابن رشيق (٢ : ١٤) باسم المقابلة . وتعريفها متقارب ، وعرّفها العسكري فقال « المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة » . وقسم الزبدي المقابلة إلى لفظيّة ومعنوية . فاللفظية على ثلاثة أنحاء

١) العمدة ٢ ٣١ – ٣٢ ٢) ص ١٣٠ – ١٣٢ ٣) الوافي ٩٦ .

الأول أن يكون في البيت قسمان أو أكثر في كل قسم لفظان متواليان ، كل لفظ منهما يماثل نظيره في الترتيب والمادة اللفظية من اسم أو فعل أو حرف . وفي الصفة ومناسبة الاعراب وموازنة التقطيع كقول أبي الطيب :

لهم أوجهٌ غرٌ وأيدٍ كريمةٌ ومعرفةٌ عِدٌ وألسنةٌ لدٌ

وقوله .

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

الثاني أن يتقابل المصراعان من البيت فتكون كل كلمة من إحداهما تماثل نظيرها من الآخر فيما ذكر أو في بعضه ، كقول المتنبي .

لساني نطقي صامتٌ عند عاذلٍ وقلبي نصَمْتي ضاحكٌ منه هازل

الثالث : أن تكون المقابلة بين بيتين كقول المتنبي .

وصاحب الجُود لا يفارقه لو كان للجود منطقٌ عذَلَهْ

وراكب الهول ما يفتّره لو كان للهَوْل محرم هَدَلَهْ

أما المقابلة المعنوية فعلى ثلاثة أنحاء أيضاً . الأول مركّب من مماثلة ومطابقة . وذلك أن يؤتى في البيت بلفظين متواليين ثم آخرين مماثلين لهما في الترتيب وسائر الشروط ، وربما نقص بعضاً ، كقول عمرو بن معد يكرب

ويبقى بعد حِلم القوم حلمي ويفنى بعد زاد القَوم زادي

ونقل لناس يريدون بيتاً فيه مقابلة ثلاثة بثلاثة

فالأمس كنا وما يخشى تفرُّقنا واليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

ولأبي الطيب مقابلة أربعة بأربعة

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

والثاني في معنى التشبيه كقول امرىء القيس « كأن قلوب الطير » . وقول المتنبي .

نصيبُك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامِك من خيال

والثالث في معنى التفسير كقول بكر بن النطاح

أذكى وأوقَدُ للعَداوة والقِرى نارٌ تروّعه ونار رَمَد

وأضاف نوعاً سماه مقابلة منعكسة ومثّل لها بقول ابن المعتز

ثغرٌ وريق ونشرُ مِسكٌ وخمرٌ ودُرٌ

قال : كأنه طوى الشطر على الشطر، فانطبق كل لفظ على مقابله[1] » وإنما أطلت في تفصيل كلامه ، وهو عنده أطول ، لأبين عمادح من تفريعاته وتنويعاته ، وهو ما سنرى أمثلة له في باب السرقات مما سيلي .

٦) المناسبة : وعرفها بأنها « ذكر الشيء وما يناسبه على جهة الاستعارة والتشبيه. وعليه حمل بعض المفسرين قوله تعالى « أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ » فقال إن الإبل كناية عن السحاب ، وذلك لمناسبة السياق وأورد من الأمثلة قول المتنبي

سقيته عبرات ظنها مطراً سوائلاً من جفون ظنها سُحُبا[2]

٧) التشبيه[3] ذكره ابن المعتز (١٢١) وقدامة (١٢٢) والعمدة (١ : ١٩٤) ، وفي أسرار البلاغة[4] (٧٠) وفي الصناعتين (١٨٠). وجارى الربدي كثيراً من البلاغيين والأدباء في إدخال كافة الفنون البلاغية تحت باب البديع . وعرّف التشبيه وذكر منه عكس التشبيه (التشبيه المقلوب) وسمى أدوات التشبيه الصّيَغ . وأنه يمكن التشبيه بغير أداة على معنى المبالغة وجعله سبع مراتب تبتدىء بتشبيه شيء بشيء ، وتنتهي بتشبيه سبعة بسبعة. وقد سبق أن ابن حزم استحسن مثل هذا .

٨) الاستعارة[5] في بديع ابن المعتز (١٩) ونقد الشعر (وسَمّى الاستعارةَ القبيحةَ المعاظلة ، ولم يورد الاستعارة الحسنة – انظر تعليق الدكتور شوقي ضيف في البلاغة تطور وتاريخ ٩١ – ٩٢) ونقد الشعر : ٢٠١ . والاستعارة عند العسكري (٢٠٥) وابن رشيق ١ ١٨٠ . ولم يُطل الربدي فيها ، فعرّفها وفرّق بينها وبين التشبيه (البليغ) وجاء بأمثلة ، منها قول ابن حمديس

تفتح وردُ الحُسْنِ في غُصْنِ قَدّهِ
وَنَوَّرَ فيهِ أقحُوانُ التَّبَسُّمِ

١) الوافي ٩٧ – ٩٨ ٢) انظر تحرير التحبير ٢٦٣ ٣) الوافي ٦٩ .
٤) أسرار البلاغة (رشيد رضا) المنار ١٩٤٧
٥) الوافي ١٠٢ ، وهي في تحرير التحبير ٩٧

٩) **التخييل** : [١] وفرق بينه وبين الاستعارة قال : « والتخييل أصله التشبيه أيضاً وذلك أن يتوهم في الشيء معنى ليس فيه لوجود صفة فيه تكون علة لوجود ذلك المعنى في غيره ، كالخجل تكون عند الحمرة في بعض الوجوه ، فيتوهم الخجل في الورد لوجود الحمرة فيه » ومثل له بقول ابن الرومي :

خَجِلَتْ خدودُ الوَرْدِ من تفضيله
خجلاً تورُّدها عليه شاهدُ

والحق أن التخييل – حتى باعتباره هو – داخلٌ في الاستعارة ، ولكنه أضاف فيها ما يشبه التعليل .

١٠) **التفريع** ذكر في العمدة هذا الباب وفرّعه من الاستطراد (٢ · ٣٤) وكلام الرندي كله من ابن رشيق [٢] . قال . والتفريع أصله التشبيه ، وذلك أن يفرع وصف من وصف على جهة المبالغة في الثاني . وهو في سياقه نحو من الاستطراد كقول ابن المعتز ·

كلامه أخدَعُ من لحظه ووعْدُه أكذَبُ من طَيفِهِ

والتشبيه أوضح بأركانه في أمثلة أخرى ساقها هو ، وابن رشيق .

١١) **التوجيه** والتوجيه مأخوذ من توجيه الحُلّة وذلك أن يكون لها وجهان ، وكذلك بيت الشعر له وجهان من المدح أو غيره وأنشد فيه صاحب اليتيمة للمتنبي

تشرق تيجانه بغُرّته إشراق ألفاظه بمعناها [٣]

١٢) **التمثيل** والتمثيل نحوٌ من التشبيه . وذلك أن تذكر قصة وتمثل بأخرى ليصح بذلك مقصودها من ذلك قول المتنبي

ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفُن

ولابن سهل الإسلامي

هلكتُ بما رجوتُ له خلاصي وقد يروي سفينتهُ الشرّاع [٤]

١٣) في **التمثيل** · وأورده ابن رشيق باسم باب المثل السائر (العمدة ١ · ١٨٩) . وأفاد الرندي من ابن رشيق فقسم الباب على سبعة أنحاء .

١) الوافي ١٠٣ ٢) الوافي ١٠٣ ٣) الوافي ١٠٤ ٤) الوافي ١٠٥

١ – من الأمثال السائرة . أمثال الشطور كقول المتنبي :

* لكل امرىءٍ من دَهْره ما تعوّدا *

٢ – ومنها أمثال الأبيات . ٣ – ومنها مثلان في بيت . ٤ – وثلاثة أمثال في بيت . ٥ – وأربعة في بيت واحد . ٦ – ومنها خمسة أمثال ، وأنشد للقرار .

حاطر تَفُدْ ، وارتَدْ تَجِدْ ، واكرمْ تَسُدْ
وادْقَدْ تَقُدْ ، واصْحَدْ تَعُد للأكبرا [١]

١٤) التّجْنيس : بحثه في البديع (٥٥) وهو في نقد الشعر (١٨٦) والصناعتين (٢٤٩) والعمدة (١ · ٢٢٠) ولا يكاد يخلو كتاب أدب ونقد منه وقسم الربدي التجنيس إلى خمسة أنواع المماثلة ، والمشابهة ، والمقاربة ، والاشتقاق ، وما يشبه الاشتقاق . وقسم المماثلة إلى ثلاثة أضرب . وعرف ابن رشيق المماثلة بأن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى [٢] ، ومنه أخذ الربدي .

والمشابهة . تشابه اللفظ واختلاف المعنى وقسم المشابهة على ثلاثة أضرب أيضاً . والمقاربة كتجنيس المقصور بالممدود والاشتقاق ما اختلف ألفاظه في البناء لا في المعنى كقول جرير .

وما زال معقولاً عقالٌ عن الندى وما زال محبوساً عن المجد حابِسُ

وتجنيس الاشتقاق وليس منه – خامس – والفرق بينهما اختلاف المعنى كالسَهر والسَهار ، والسُهر والسهار .

١٥) المُضَارَعة [٣] قال . « والمضارعة نوع من التجنيس » ، وكذلك عده ابن رشيق ، واستعمله الكلاعي أيضاً لنوعٍ من الجناس في أواخر الفقر مما يلائم السجع . وجعله الربدي في أربعة أقسام على طريقته في التفريعات ، قال ابن رشيق وهو على ضروب كثيرة [٤] .

١٦) التّرديد . [٥] فرعه ابن رشيق من التجنيس وقال . هو أن يأتي الشاعر بلفظه متعلقة بمعنى ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو

---

١) الوافي . ١٠٥ – ١٠٧ ٢) الوافي ١٠٧ – ١١١ والعمدة ١ ٢٢٠
٣) الوافي ، ١١١ ٤) العمدة ١ ٢٢٣ ٥) الوافي ١١١ – ١١٢

في قسيم منه ، ومنه قول زهير :

من يلق يوماً على عِلاّته هَرِماً يلقَ السَّماحة منه والنَّدى خُلقا

وجعله الزبدي في الأسماء والأفعال ومثّل لكلٍ [1] وقال . واعلم أنه إذا غيرتْ إعادةُ اللفظ معناه كان ذلك تجنيساً

١٧) التّصدير . قال والتصدير نحوٌ من الترديد . والفرق بينهما أن اللفظ المُعاد في التصدير لا يكون إلا قافيـة في الشعر أو فقرة في السجع ، وإلا فهو ترديد . وجاء بمثال في العمدة . وسبق البحث في هـذا النوع عند ابن المعتز باسم رد أعجاز الكلام على ما تقدمها (٩٣) وفي الصناعتين (٣٠٥) .

١٨) الاتّباع وهو نوع فصّله واشتقه من الترديد قال وهو نوعان [2] ، الأول كقوله :

فمن عاش شَبّ ، ومن شبّ شاب

ومن شابَ شاخَ ، ومن شاخ مَاتا

ومن مات فات ، ومن فات بادَ

ومن باد عـاد ، عِظامـا رُفاتـا

والثاني كقوله

إذا وردَ الحَجّاج أرضاً مريضةً تتبـع أقصى دائهـا فشَفاها

شفاها من الداء العُضال الذي بها غـلامٌ إذا هَزّ القَناة سقاها

سقَاها فروّاها بشرب سجالة دماء رجالٍ حيث مال حساها

١٩) التّبديل [3] ذكره ابن رشيق في باب التصدير وقال عن الشاهد الثاني إنـه نوع يسميه الكتّاب التبديل ، حـكاه أبو جعفر النحاس . ونَصّ الزبدي على نقل الشاهد من العمدة [4] — وهو لابن الرومي —

ريحانُها ذهب عـلى دُرَرٍ وشرابُهم درر عـلى ذَهب

وعرفه الزبدي بأنه نوع من التصدير ، وذلك أن يقسم الكلام قسمين يذكر في الأول منها لفظ أو أكثر على ترتيب ما ثم يعاد ذلك في القسم الثاني بعكس ذلك الترتيب ، وأنشد البيت . قـال والنوع الثـاني تبديل القافية

١) العمدة ٢ ، ٢٠٢ ٢) الوافي ١١٢ ٣) الوافي ، ١١٣ ٤) العمدة ٢ ، ٦٠

والروي . فمن تبديل القافية قول الميكالي [1] .

أقول لشادنٍ في الحُسن أضحى يصيد بلحظه قلبَ الكميّ الحَايد
ملكت الحُسن أجمع في نظامٍ فأدركناه مطرك النهيّ الفريد

ومزية الزندي أنه أورده في باب خاص .

٢٠) التّضمين . وذكره ابن المعتز باسم حسن التضمين (١١٤) وجمع ابن رشيق التضمين والإجازة في باب (٢ . ٦٨) وجعله الزندي — كابن رشيق قسمين : فإمّا أن يُنبه على الكلام المقتَبس ، أو يترك ذلك لاشتهاره [2] .

٢١) الاطّراد . أخذه من صاحب العمدة ، قال . وهو نظم الأسماء على ترتيبها في الوجود . ومثاله :

وشبابٌ حَسَنٌ أوجهُهم من إياد بن نزار بن معد [3]

٢٢) التّفسير هو من أبواب قدامة (صحة التفسير ١٥٤) وأخذه ابن رشيق (٢ : ٢٨) . قال ابن رشيق . « وقلما يجيء هذا إلا في أكثر من بيت » . فجعله الزندي ضربين ، وفَصَّل [4] .

٢٣) المُبَالغة . وهو عند ابن المعتز باسم الافراط في الصفة (١١٦) وعند قدامة (١٦٠ المبالغة) وقسم الزندى المبالغة ثلاثة أقسام. أ — الابهام، ب — الاغياء ، ج — التبليغ والتبليغ عند ابن رشيق ضرب من الايغال (٢ . ٤٦) نقــــله عن الحاتمي . والايغـال والتبليغ يكونان في القافية . ولم يتوسّع الزندي في شرح الباب [5] .

٢٤) التّتْميم أورده قدامة (١٥٧) باسم التتميم وابن المعتز (١٠٨) باسم اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه . وذكره ابن رشيق (٢ ٤١) . قال الزندي والتتميم زيادة يكون بها المعنى أتم [6] .

٢٥) التّسهيم سماه في نقد الشعر والصناعتين . التوشيح [7] وسماه ابن

---

١) الوافي ١١٣ ٢) الوافي ١١٥ ، وانظر تحرير التحبير ١٤٠
٣) الوافي ١١٦ — ١١٧ ، والعمدة ٢ ٦٦ ، تحرير التحبير ٣٥٢
٤) الوافي ، ١١٧ ، تحرير التحبير ١٥٨ ٥) الوافي ١١٧ — ١١٨
٦) الوافي ١١٨ — تحرير التحبير ، ١٢٧ ٧) نقد الشعر ١٩١ ، الصناعتين ٣٠٢

رشيق التسهيم نقلاً عن ابن هارون المنجم [1] قال وسماه ابن وكيع المطمح .
قال الرندي : [2] وذلك أنه يكون فيه ألوان معروفة الترتيب ، وإذا ظهر أحدها علم ما بعده . ومثله :

أتتـــهُ الخلافة منقادةً إليـــه تجرّر أذيالَها
فلمْ تَكُ تصلحُ إلا لهُ ولم يَكُ يَصلُحُ إلا لها

٢٦) التحرُّز . هو عند ابن رشيق نوع من التتميم [3] باسم الاحتراس .
وهو في سر الفصاحة تحت اسم التحرز مما يوجب الطعن . (٣٢٢) [4] ومن أمثلته قول ابن عبدون

أقولُ لصاحبي هُمْ — لا بأمْرٍ — تَنَبَّهْ إنْ شأنك غيرُ شأني [5]

٢٧) الالتفات . ذكره ابن المعتز (١٦٠) وقدامة (١٦٧) والعسكري (٣١٠) وابن رشيق (٢ : ٣٦) قال الرُّندي والالتفات زيادة في الكلام يراد بها الاعتناء والاهتمام . وذلك على ضربين ، في أثناء الكلام كالحشو ، وبعد تمام الكلام كالفصلة . ومن أمثلته المشهورة

إنّ الثمانين — وبُلِّغْتَها — قد أحوجَتْ سمعي إلى تُرجُمان [6]

٢٨) التّحريف قال والتحريف أن يحرف عن الوصف إلى ما يُوهم أنه يناقضه ، وإنّما يحرف إلى ما كان ، كقوله

يا عجباً من خالدٍ كيف لا يخطىءُ فينا مرة بالصّوابِ
كانت قضاةُ الناس فيما مضَى من رَحمة اللهِ ، وذا مِنْ عذابِ

٢٩) الاستثناء [7] ذكره ابن رشيق (٢ ٣٩) وقال وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم ومَثّل له الرُّندي بقوله .

وليسَ غُراب البين في أعين المَها سوى الشّيب إلا أنه غيرُ أسودِ

٣٠) القلب [8] وهو عنده ثلاثة أنواع .
أحدها . ترتيب ألفاظ البيت فيستقيم وزنه ومعناه ، كقوله

١) العمدة ٢ ٢٦ ٢) الوافي ١١٩ ٣) العمدة ٢ ٢١
٤) تحرير التحبير ٢٤٥ ٥) الوافي ١١٩
٦) الوافي ١١٩ ، تحرير التحبير ١٢٣
٧) الوافي ١٢٠ ٨) الوافي ١٢ - ١٢١

حبيبٌ لقلبي : لعمري حَبيبُ عريب المَعاني : بديع عجيبُ
يذيب هواه . بلحظٍ يصيبُ

والثاني : قلب ترتيب حروف الكلام فيقرأ منعكساً كما يقرأ مستقيماً كقول الحريري :

اسد أحـــا سَاهة اس إحـــاء دسا !

قال الرُبدي : وهذا أصعب ما يُتكلف من ضروب البديع ، ولم أر لغيره ما أرتضيه إلا بيتاً من مشطور الحسب لأبي عبدالله بن الحكيم من أهل بلدنا وهو :

مَعَنَـا وانعَـمْ بِرَشا

والثالث . ما كان نحو هذا الشكل المربّع الذي صنَعْتُه ، وهو يقرأ عرضاً كما يقرأ طولاً ، وهو .

تُراهُ لمـــادا تَوَلّى تُراهُ
لمادا وما في فُؤادي سِواهُ
تَوَلّى فُؤادي إلى أنْ تَراهُ
تُراه سِواهُ تَراهُ هَواهُ ؟!

٣١) **التّصحيف** . وهو نوعٌ من أنواع التجنيس [١] . وجعله الرُبدي في ضربين تصحيف الخط كما في قول الحريري .

زينةٌ زينَت بقدٍّ يقدُّ وتلاهُ ويلاهُ نَهْدٌ يَهُدُّ

والثاني : أن يكنى عن اللفظ بما يشبهه قال . من ذلك ما كتبه إليّ صاحبنا أبو العباس بن بلال يستدعي شاشية .

يا من أرى رؤيتـــه لنحو نفسي آسِيَـــهْ
عساك أن تبعثَ لي تصحيف بنت آسِيَهْ [٢]

٣٢) **التّرصيع** : ذكره في نقد الشعر (٣٨) وقال الرُبـدي [٣] الترصيع أن يقسم القول قسمين ، في كل منهما من الفقر المتقابلة مثل ما في الآخر كقول ابن سارة .

٣) الوافي ١٢١ ، تحرير التحبير : ١٠٥
١) الوافي . ١٢١ - ١٢٢ ٢) الوافي ١٢٣

فوقوا بخرصان الرماح جبابها   وحموا بقصبان الصفاح ذمارها

والحق أن معنى الترصيع عند الربدي أخذ معنى آخر غير الشائع [1]، وقد قدم الربدي مثالاً آخر هو قول الفقيه أبي الربيع بن حبيب :

أحتقراً نهي سحر جفونه   لقد نصرت عيناك فيه بهاروت

وحتراً قلبي عز شجونه   لقد طعرت يمناك منه بياقوت

٣٣) التسجيع وهو أن يقسم البيت بفقر متماثلة غير متقاطعة كقول ابن عبدون .

من للأسرة أو من للأعنة أو   من للأسنة يهديها إلى الثغر

من لليراعة أو من للبراعة أو   من السماحة أو للنفع والضرر [2]

وذكره في سر الفصاحة باسم السجع والازدواج : (٢٠١) ، وهو في تحرير التحبير : (٣٠٠) .

٣٤) التسميط : مأخوذ من نظم السمط ، وذلك أن يكون ثلاثة أرباع البيت على فقرة واحدة ، وهو أكمل للتسميط ، كقول المعتمد

أيا نفس صبراً لحكم الهوى   وإلا فإن الأسى متتابع

حبيب جفاك ، وقلب عصاك   ولاح لحاك ، ولا مسمع

وهو عنده ضربان كامل كالسابق استوى ثلاث فقر ، وناقص فيه فقرتان متماثلتان دون الثالثة [3]

٣٥) لزوم ما لا يلزم ذكره ابن المعتز (١٣٢) وغيره [4] « وهو أن يلتزم الشاعر ما لا يلزمه براعة منه واقتداراً » [5] وعد من ذلك أنواعاً منه التزام حرف قبل الروي ، أو إعجام حروف القصيدة كلها ، أو إهمالها وعدّ منه الازدواج المفسر ومثاله قول ابن سارة

يا من يصيخ إلى داعي الضلال وقد

نادى به الناعيان الشيب والكبر

١) قارن بتحرير التحبير ٣٠٢

٢) الوافي ١٢٣   ٣) الوافي ١٢٣ - ١٢٤ ، تحرير التحبير ٢٩٥

٤) تحرير التحبير ٥١٧   ٥) الوافي ١٢٤

إن كنتَ لا تسمعُ الذّكرى فعيم ثَوى
في رأسك الواعيان . السّمْعُ والبَصَرُ

وهو في تحرير التحبير منقول باسم التوشيع [1] قال الرُندي ومنه التزام الطّرف والعطف كقول بعض أصحابنا في الرثاء .

قل للمحيّم بين السّمع والبصر ما كان أفرد بين الوِرد والصدر
فالتزم الازدواج المستّر في الشطرين

٣٦) التّفصيل . وهو أن يقسم الشعر بقسمين أو أكثر في مواضع متوازنة في أبياته ، فإذا فصل منها من كل بيت عما قبله كان الباقي تام الوزن والمعنى . ويمكنّ بذلك من المقطوعات بحسب ما تقتضيه صنعة ذلك ، فمما يمكن منه ثلاث قطع قول الحريري .

يا خاطبَ الدنيا الدنيّة إنهـا شَركَ الردى وقرارة الأكـدار

وجاء بالأمثلة إلى أن قال ومما يمكن منه تسع وستون قطعه قوله [2] :

طيـفٌ سرى . من خاطرٍ . القلب . الدوي .
هوَى . لـمـا . بعِداته وقَصى الوَطَرْ
رّ الكرى . عن ناظرِ الصّبّ . الحوي
وشفى . الضّنى . بهاتـهِ ومضى حَـذر

وقد ذكره في تحرير التحبير نقلاً عن (الأحدابي) باسم التوأم ، وأمثلتها في بعضها متشابهة [3] ، والرندي أكثر تفساً .

٣٧) التّختيم . وتسمى التقاطع والاشتراك وذلك أن تُصنَع أبياتٌ تكتب في شكل خـاتم تتقاطع أشطره ، ويشترك ما يتلاقى منهـا في مواضع التقاطع في لفظة أو حرفٍ واحد أو أكثر إما مُصَحّماً أو مختلف الضّبط وإما باقياً بحاله ورسم في الكتاب خاتمين بديعي الشكل ، ثم حل ذلك بقصدتين [4] . ولم أجِدْ مثله

٣٨) الاحالة . وهي أن يُحيل الشاعر في شعره عـلى أمرٍ مشهور كأنـه يُرى بذلك معرفته بالمعاني المعقولة ، والأخبار المنقولة كقول أبي تمام

١) ص ٣١٦ ٢) الوافي ١٢٦ ١٢٧ ٣) قارن ٥٢١–٥٢٤ ٤) الوافي ١٣٢

لعمروٌ مع الرمصاء والنار تلتظي
أرقُ وأحمى منك في ساعة الكرب

أراد البيت المصروب به المثل في ساعة الكرب : المستجير بعمرو عند كربته ... [1] .

٣٩) نفي الشيء بايجابه : استخلصه ابن رشيق من المبالغة [2] . وأخذه الربدي ومثاله :

على لاحبٍ لا يُهتدى بمناره إذا ساقه العَوْد النباطيُّ جَرجرا

أي هو طريق واضح لا منار له إذ لا يحتاج إليه [3] .

٤٠) التلغز : أضافه ابن رشيق إلى مبحث الإشارة [4] ، وأفرده الربدي بباب . وسبق عند الكلاعي ، وعند صاحب كتاب البرهان أيضاً وأكثر المؤلف من الشواهد على الباب .

عيوب الشعر :

جعل الربدي الجزء الثالث من كتابه لعيوب الشعر وهي عنده . الاخلال والسرقة والضرورة وقد قسم كل واحدة من هذه العيوب إلى أقسام تتشعب أيضاً في شعب على طريقته في التعريفات والتسميات ، وسأعرض لها سريعاً مع ملاحظات نقارن بها أو نعلق .

١ – الاخلال . جعل الربدي الفئة الأولى من العيوب باسم الاخلال وهي تتعلق بعيوب اللفظ أو المعنى أو ائتلافهما ، أو تلحق بعيوب الوزن والقافيه .

١) سوء اللفظ . [5] ويكون اللفظ سيئاً بقياسه على ثلاثة وجوه. أن يكون اللفظ غثاً وساقطاً كقول حبيب .

بلد الفلاحة لو أتاها جرول أعني الحطيئة لاغتدى حراثا !

وأن يكون اللفظ متقعّراً حوشيّاً . (ما لكم تكأكأتم .) . والثالث أن يكون اللفظ مشتركاً عما يجل بأي شكل كان « مات الفقيه الذي قد كان قرانا » . (وقد عقد قدامة فصلاً لعيوب الشعر ، منها عيوب اللفظ وركز على عيوب اللفظ (١٩٦ – ١٩٧) . وينقل ابن رشيق عن الرماني أن أحد أسباب

١) الوافي ١٣٦ ٢) العمدة ٢ : ٦٥ ٣) الوافي ١٣٧
٤) العمدة . ١ : ٢١٩ ، والوافي . ١٣٧ ٥) الوافي ١٤ – ١٤١

الإشكال إيقاع المشترك (٢ · ٢٠٦) .

٢) سوء الابتداء : وجعله الربدي ٣ أقسام [١] . سوء المواجهة كقول المتنبي :

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحَسْبُ الأماني أن يكنَّ أمانيا

وما يكره التطيّر به ، وما يتجه معه تندير ، كقول بعضهم

* فعلوا بالصبّ ما لا يحلّ ! *

وتعرض ابن رشيق لبعض هذا في العمدة في باب المبدأ والخروج والنهايـــة (١ · ١٤٨) .

٣) الانتهاء : قال وهو قطع الكلام عما قبله عند الانفصال من الغزل إلى المديح كقول المتنبي . [٢]

تناهى سكون الحُسن في حركاتهـا فليس لراءٍ وجهها لم يَمُتْ عُذْر

إليك ابن يحيى بن الوليد تجـاورت به البيد عني لحمها ، والدم الشعر

وقد فرق ابن رشيق بين الخروج والاستطراد (١ : ١٥٦) قال : « لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غـيره ، بلطف تحيّل ثم تتمادى فيما خرجت إليه » ثم قال . « وأكثر الناس استعمالاً لهذا الفن أبو الطيب فإنّـه ما يكاد يفلت منه . . . » . والانتهاء عند الربدي إساءة الخروج .

٤) التباعد : قال وهو ذكر الشيء مع ما هو بعيد [٣] عنه . ومثاله انتقادهم المشهور لبيتي امرىء القيس .

كأني لم أركب جـواداً للذةٍ ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخالِ

ولم أسبأ الزقّ الروي ولم أقـل لخيلي كرّي كرةً بعدَ إجفـال

واقتراحهم :

كأني لم أركب جواداً ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفـال

ولم أسبـأ الزق الرويّ للذّةٍ ولم أتبطّنْ كاعباً ذات خلخـال

وعلق ابن عاصم البطليوسي في شرح امرىء القيس [٤] فقال « وقد اعتُرض

١) الوافي · ١٤٢ ٢) الوافي · ١٤٢

٣) الوافي . ١٤٣ ٤) شرح ديوان امرىء القيس (ط هندية ١٩٢٨) ٥٨

امرؤ القيس في هذين البيتين وقيل حالف وأفسد،ولو جمعَ الشيءَ وشكْلَه . .
لأصاب » .

٥) سوء الـــترتيب . « وذلك بأن يقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم، فيكون عن ذلك ثلاثة عيوب . الالتباس،والتعقيد الذي يعسر معه فهم الكلام ، وفساد المقصود لفساد المقابلة [1] . وهذا النوع الثالث ورد عند ابن رشيق(٢ . ١٧)في فساد المقابلة ومثاله ومثال الرندي واحد،وهو قول المهلبي .

إلى ملك بينَ الملوك وبينه مسافةُ ما بين الكواكب والترب

وينقل في الباب قصة الحجاجي مع ابن أبي تليد في استحسان شعر ابن رشيق الأندلسي التي أثبتناها في موضعها من ترجمة أبي اسحاق .

٦) التكرير وهو إعادة اللفظ في الشعر لغير وجه يسوغه، وهو على ضربين. أن يـكون في البيت الواحد ، أو في البيتين . فإذا كان التكرار للتفخيم في باب المدح ، والاستعذاب في باب الغزل فذلك حسن [2] واستخرج الرندي هذا الباب من باب التكرار (في فنون البديع) لابن رشيق (٢ ٥٩ — ٦٣) بأمثلته ، وجاء بأمثلة من عنده أيضاً .

٧) الاعتماد وهو أن يؤتى في البيت بلفظه حشواً لا معنى لها إلا إقـــامة الوزن كقول قيس بن الخطيم [3] :

قضى لها الله حين صورها الـ....ـخالق ألاّ يكنّها الصَّدَفُ

وهو عند ابن رشيق في باب الحشو (٢ : ٥٥ — ٥٩) . ونقل ابن رشيق ولم يُسَمّ أن بعضهم يسمي هذا الارتفاد والاتكاء (٥٧٠٢) وهو قوله في البيت (الخالق) لأن لفظ الجـلالة قد تقدم (وانظر الحشو عند قدامة ٢٤٨)

٨) المعاظلة . قال وهي فساد الاستعارة [4].وهذا اصطلاحُ قدامة واستعماله (نقد الشعر ٢٠١) وخالفه ابن رشيق ، ونقل عن الفراهيدي معنى العطال في القـــافية (٢ ٢٠٤) وجعله الرندي ثلاثة أقسام سوء الاستعارة ،

٣) الوافى ١٤٥ - ١٤٦ ٤) الوافي ص ١٤٦ - ١٤٧
٥) الوافي ص ١٤٧ ١) الوافي ص ١٤٧

ووصف الاستعارة بمــــا ليس من شأنها ، ونسبتها إلى ما لا تليق به ، وجاء بأمثلة جديدة تطابق تقسيماته .

٩) التجميع . قـــال وهو اجتماع المصارعين في مصراع واحد ، وأثقل ما يكون في الأعاريض الطوال، كالطويل والبسيط والكامل.. ويخف في الأعاريض القصار.. ولا بأس بذلك في البيت المقفى كقوله .

ويُميت قبل قتاله ، ويَبش قبـــ ـــل نَوالِه ، ويُنيل قبل سؤاله

ولم يذكره قدامة .

وظاهر مما تقدم أن الزيدي استقرأ في هذا الباب بعض ما يـــكون من عيوب الكلام المنظوم من حيث اللفظ أو المعنى أو الوزن أو القافية متكئاً على الوجوه المستقبحة في بعض الفنون البلاغية ، مستمداً من قـــدامة أو ابن رشيق ، أو مبتدعاً .

٢ — السرقة : قال « وأما السرقة فهي على أنواع وبابها متسع ، والتخلص منها بالجملة يكاد يمتنع ، ويدل على استحسان الآخذ لما أخذه وعجزه عن الإتيان بما يغنيه عنه أو على قلة المبالاة بها » [١] . وجعل القول عليها ينتهد في ثلاثـــة فصول الأول في ضروب السرقة وأنواعها وجعلها في تسعة ألقاب ، والثـــاني في مراتب الأخذ ، والثالث فيما يشبه السرقة

١) بدأ الفصل الأول بالاغتصاب وهو أن يأخـــذ شاعر بيت شاعر آخر اغتصاباً [٢] ، وهو في العمدة باسم الغصب (٢ ٢١٩) وكان أجمله في مطلع حديثه عن الغصب والإغارة (٢ ٢١٥) . ٢) الانتحال وهو أن يدّعي الشاعر شيئاً من شعر غيره [٣] (العمدة ٢ ، ٢١٨) ٣) الاهتدام . وهو أن يأخذ بيت الشعر ومعناه فلا يغيّر منه إلا القليل كقول كُثَيِّر .

وإني لآتيها وفي النفس هَجرها بتاتاً لأخرى الدّهر أو لتثيب

من قول صخر الهذلي ... » [٤] .

وقال ابن رشيق الاهتدام ويسمى النّسخ أن تكون السرقـــة فيما دون

١) الوافي ص ١٤٨ ٢) الوافي ص ١٤٨
٣) الوافي ص ١٤٩ ٤) الوافي ص ١٤٨

البيت (٢ : ٢١٦) ولم يفصل « وذكر انه ينقل عن حلية المحاضرة للحاتمي، والمنصف لابن وكيع ، وعن عبد الكريم النهشلي ، و « بعض الحذاق من المتأخرين » ، والوساطة للجرجاني .

٤) الاغارة : أن يأخذ معنى البيت بعض لفظه ، وأشار إلى بيتي النابغة (ألم تر أن الله أعطاك سورة . . . . فإنك شمس والملوك . . .) وأنها من قول شاعر آخر [١] . وأورد قصصاً مختلفة . أندلسية ومشرقية في الباب . والبحث في العمدة (٢ . ٢١٨) بعبارات مقاربة ومعنى مقارب .

٥) السطو قال ويسمى الالمام [٢] . وذلك أن يرى الشاعر معنى لغيره ، فينحو منحاه من غير أخذ شيء من لفظه ، قال . وأنشد الحاتمي في ذلك لعمر بن أبي ربيعة :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلةَ لا ناهٍ ولا آمِرُ

كقول امرىء القيس . (سموت إليها . .) . والبحث في العمدة (٢ . ٢٢ وفيه : والإلمام ضرب من السطو) ومَثَّل له . وقد صرّح الرندي هنا بالنقل عن الحاتمي مباشرة . وهذا يفسر بعض الإختلافات الطفيفة بينه وبين ابن رشيق في الاصطلاح ومدلوله .

٦) الاختلاس ويسميه قوم نقلاً ، كقول محمد بن هانىء .

قد طيب الأفواه طيب ثنائه فلأجل ذا تجد الثغور عِذاباً

نقله من قول الطائي :

تعطيك منطقها فتعلم أنه لِجَنَى عذوبته يَمُرُّ بثغرها [٣]

والبحث في العمدة (٢ . ٢٢٠ — ٢٢١) .

٧) النقل وهو نقل المعنى من باب لباب. وهو عند ابن رشيق من الاختلاس ومثاله عند قول امرىء القيس . (٢ ٢٢١)

إذا ما ركبنا قال ولدانُ حيّنا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نحطب

نقله ابن مقبل إلى القدح فقال

١) الوافي ص ١٥٠ - ١٥١ ٢) الوافي ص ١٥٢ ٣) الوافي ص ١٥٣

إذا امتحنته من مَعَــدٍّ عصابة عذاريــة قَبْــل الإصابــة يقدح

٨) التلفيق وهو جمع الكلام من مواضع شتى، قال وأنشد فيه ابن رشيق ليزيد بن الطثرية

إذا ما رآني مقبلاً غضّ طرفه كأن شعاع الشمس دوني يقابلـه [١]

أوله أخذه من قول جميل . ووسطه من جرير ، وعجزه من عنترة الطائي قال جميل

إذا ما رأوني طالعاً من ثنيّةٍ يَقولون مَنْ هذا وقد عرفوني

وقال جرير

فغُضّ الطّرف إنك من نُمَيْرٍ فـلا كعبـاً بلغتَ ولا كِلابَا

وقال عنترة .

إذا أبصرَتني أعرضَتْ عنّي كأنّ الشمسَ من قبلي تدُور [٢]

٩) ومنها الاحتذاء وهو أخف السرقة ، وذلك أن يتبع الشاعر طريقة غيره ، كقول كشاجم

مراحك للمثي من العود والصبّـــا
من الريح والصافي الرقيق من الخمْر
فلو كنت ورداً كنت ورداً مضاعفا
ولو كنت طيباً كنت من عنبر الشّحْرِ
ولو كنت لحناً كنت تأليف مَعْبَدِ
ولو كنت عوداً ما افتقرت إلى زَمْر

احتذى فيه طريقة الأعرابي في قوله .

فلو كنت مـاء كنت مـاء غمامة
ولو كنت دراً كنت من دُرّة بِكرِ
ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة
ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفَجْر

١) الوافي ص ١٥٧ ٢) الوافي ١٥٣

ولو كنت ليلاً كنت "قمراء حَنْبت
نحوسَ ليالي الشهر ، أو ليلة القدر [١]

ولم يزد على دلك ولم أقع على مثله عند اس رشيق

وتحدث عن مراتب الأخذ وجعلها ثلاثاً الريادة ، والمساواة ، والتقصير . قال . فأما الريادة فيمتعر بها دىب السرقة وربما فار الآخد بالمعنى ، وكان به أولى ، وذلك بأحد ثلاثة أشياء ريادة المعنى ، وحسن العبارة ، والاختصار . وحاء بأمثلة ، ونص على النقل من الحاتمي [١] ومن أمثلة المساواة قال اس المعتز .

دعوا الأسد تَسْكُنْ في عابها ولا تدحلوا بينَ أنيابها

وقال الآخر

دعوا الأسد تسكن أعيالها ولا تقربوها وأشبالها

والنوع الثالث التقصير [٣] ، واكتفى بالامثلة دون الشرح . وقد أحل اس رشيق هده المعاني في العمدة (٢ ٢٢٣)

أما الفصل الثالث فهو « فيما يشبه السرقة وليس منها » وجعله أيضاً ثلاثة أنواع التوارد ، والاحتلاب ، والتداول .

١) التوارد هو موافقة الشاعر لعيره في البيت ونحوه من عير أن يسمع به ، وإذا رعم دلك من يحسن الظن به قُبِلَ قوله ومثاله قول امرىء القيس

لها أذنان تعرف العِتْقَ فيهما كسامعتي مدعورة أم ربرب

وقول طرفة

لها أدمان تعرف العتق فيهما كسامعتي مدعورة أم فرقد

وهو ينص على النقل في بعض الأمثلة من اس رشيق والبحث في العمدة (٢ ٢٢٢) ثم أورد الزبدي أحباراً مشرقية وأندلسية أيضاً [١] .

٢) الاحتلاب أن يورد الشاعر في شعره بيتاً مشهوراً لعيره كالمتمثل به ، نقله عن اس رشيق (٢ ٢١٧) ونقل قول أبي عمرو بن العلاء في أنه عيب . كما استعمل الزبدي – كابن رشيق – عبارة « استلحق » في موضوع

---

١) الوافي ١٥٤

الاحتلاب [1] .

٣) التداول : إيراد اللفظ الذي لا يستقل بالفائدة كقول كثير

فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزة كانت غمرة فتجلت

ولآخر

فلا يحسب الواشون أن قناتنا تلين ، ولا أنا من الموت نجزع [2]

وقال ابن رشيق : وليس بسرق اشتراك اللفظ المتعارف [3]

فالرندي في بحث السرقات جاء بشيئين : الأول أنه اختصر آراء عدة أدباء ممن سبقوه وأهمهم الحاتمي وابن رشيق . وأفاد من قدامة والثعالبي .

والثاني : أنه استنبط بعض الأسماء لمسميات موجودة ، وزاد في تفريعاتها وتنويعاتها . أما الموضوع نفسه فلم يزد فيه شيئاً يذكر . وأما موقفه من السرقات . تحسينها والحد منها فهو موافق لما كان جارياً عندهم من استحسان أخذ المعنى والزيادة عليه ، وخاصة إذا تغيّر الموضوع . وهذا معنى قوله « وأما الزيادة – يعني زيادة الآخذ للمعنى فيه – فيغتفر بها ذنب السارق ، وربما فاز الآخذ بالمعنى وكان أولى به » وما أظن أنه يضيف جديداً . ولكنه البحث يصور لنا الحال التي كان عليها الأدب والأدباء في القرن السابع ، في نصفه الآخر خاصة ، فالرندي شاعر ومؤلف وأديب

٣ – الضرورة : الباب الثالث في الضرورات الشعرية . قال . والضرورات الشعرية على الجملة من العيوب ولكن بعضها أخف من بعض وجعلها في أربعة أنواع . التبديل ، والتقديم والتأخير ، والزيادة والنقصان [3] . وقد ألحق المؤلف بالباب فصلاً فيما يجوز في الشعر بغير ضرورة ولا يتسنى أن نعرض ما يقوله الرُّندي في الضرائر على سابقيه فقد أكثروا من الباب . وتحدث فيه النحويون واللغويون والنقاد والأدباء وخصصت كتب في موضوعه كما قدمت في فصل سابق. وقد وضعوا للضرائر قوانين استقرؤها واختلفوا في

١) الوافي ص ١٥٦ . ٢) الوافي ص ١٥٨ . ٣) الوافي ص ١٥٧
٣) الوافي ص . ١٥٧

جزئيات بنوا عليها أحكاماً . وقد قدمّ ابن رشيق لبـاب الرخص في الشعر بقوله إنها ما يجوز للشاعر استعماله إذا اضطر إليه على أنه لا خير فيه في الضرورة على أن بعضها أسهل من بعض . قال ومنها ما يسمع عن العرب ولا يعمل به لأنهم أتوا به على جِبِلّتهم ، والمؤلف المحدَث قد عرف أنه عيب ، ودخوله في العيب يلزمه إياه [1] .

والرندي لم يلتزم بقواعد منسقة ولم يصنع قوانين جديدة ولكنه جمع مما قرأ ودوّنه على الأبواب التي قدمتها . وهذا عرض سريع لما فيها يحسن أن يقارن — في دراسة مستقلة — بكتب الضرائر المتقدمة وبالعمدة ، وإن كان ابن رشيق لم يبوب جرياً على عادته وقـد أجمل الرندي في التبديل قلب الإعراب ، ونصب الفعل بالفاء دون شرائطها ، ونقل حركة الوصل إلى الرويّ ، وتبديل الحرف الصحيح بحرف العلة ، وتذكير المؤنث حمـلاً على اللفظ وعلى المعنى ، وتذكير المؤنث إذا تأخر الخبر ، ووضع الجملة موضع اسم الفاعل ، وضع الكاف موضع مثله كقوله « رحبا بكاس الماء يجدب وسطها . » ، ووضع مهما موضع ما الاستفهامية ، وضع فعل الأمر موضع فعل الخبر [2] .

ومن التقديم والتأخير الفصل بين الصفة والموصوف ، والفصل بين المضاف والمضاف اليه ، والفصل بين الظرف ومعموله ، والفصل بين الجـار والمجرور ، وتقديم الفاعل على فعله ، وتقديم المضمر على الظاهر [3] .

والزيادة زيادة حرف ، وزيادة حركة فمن زيادة حرف المد واللين ، ومد المقصور على مذهب الكوفيين ، وصرف ما لا ينصرف ، وتضعيف حرف الروي ، ومن زيادة الحركة إجراء الحرف المعتل مجرى الصحيح ، وإظهار المدغم ، وتحريك الساكن لكثرة السواكن [3] .

والنقصان أربعة أنواع نقصان حركة ، ونقصان حرف ، ونقصان أكثر من حرف ، ونقصان كلمة . فمن نقصان الحركة (اليوم أشربْ غير مستحقب .) ومن نقصان الحرف ترخيم ما ليس بمنادى ، وحذف حرف المد واللين ، ووصل

١) العمدة ٢ ٢٠٨   ٢) الوافي ١٥٧ - ١٥٨   ٣) الوافي . ١٥٨
٤) الوافي ١٥٩ - ١٦

ألف القطع وحذف ألف الاستفهام ، حذف الواو والياء من ضمير الغيبة المفرد المنفصل ، وحذف الألف من ضمير المؤنث ، وحذف اليـاء من الاسم المنقوص (كنواح ريش حمامة .) ومنع الصرف مما ينصرف عند الكوفيين ، وحذف التنوين ، وقصر الممدود .

وأما نقصان أكثر من حرف فمثل (قواطنا مكة من ورق الحمـا) يعني الحمام) .

ومن نقصان الكلمة . العطف على ضمير الرفع والخفض من غـير إعادة العامل ، وحذف الموصول وإقامة الصلة مكانه [1] .

وما يجوز في الشعر بغير ضرورة إقامة الجمع مقام المفرد ، وإقامة المفرد مقام التثنية ، وأن يذكر الشيئين المتلازمين ويخبر عنهما معاً لدلالة أحدهمـا على الآخر ،وعطف الشيء على ما ليس من جنسه ، وزيادة الهاء وأنت تريد إسقاطها ، وحذف الهاء مع نية اثباتها وإضمار ما لم يذكر كقوله تعالى (حتى توارت بالحجاب)

ومعظم ما في الجزء موجود في عُمدة ابن رشيق ، وعنده أمثلة استدركها من الكتب الأخرى وهي متفرقة وله فضل جمعها وتبويبها ليس غير . ولم يأت بجديد ، وأحال على خلافات الكوفة والبصرة على حالها ثم استخرج الضرورات الجائزة ، وأفردها بباب خاص

أما الجزء الرابع فخصصه بحد الشعر والعروض والقافية ، وهو لاحق بالبحوث العروضية الخالصة . وقد تحدث عن البحور والأوزان والقوافي فعـد الخمسة عشر بحراً الأصلية ثم استخرج البحور المهملة وأضاف اليها المتدارك ، ومثّل لكل ذلك بما يناسب الطريقة التعليمية الواضحة [2]

١) الوافي ١٦٠ - ١٦٣ ٢) الوافي ص ١٦١ - ١٨٢

وبعد

فإن كتاب الرندي وَجْهٌ آخر من كتب النقد والبلاغة الأندلسية . وقد أطلَعنا على ذوقهم وآرائهم في القرن السابع ، ومقاييسهم التي كانت شائعة أيامهم . والكتاب من جهة أخرى ذو أهمية كبرى في إمدادنا بنماذج أندلسية من الشعر المعاصر للمؤلف ، ومن شعر الرندي نفسه تصلح مادة وافية لمؤرخ الأدب في هذا العصر .

منهاج البلغاء وسراج الادباء

لحازم القرطاجني

٦٠٨ – ٦٨٤

اشتهر حازم القرطاجني في كتب التراجم والأدب بأنه صاحب المقصورة التي شرحها أبو القاسم محمد بن أحمد القاضي ، المشهور بالشريف الغرناطي ، وسمّى شرحه رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة [١] . ولكن كتابه منهاج البلغاءوسراج الأدباء – وقد صدر أخيراً مطبوعاً – [٢] ذو أهمية بالغة في تاريخ النقد الأندلسي ، وإن كان جاء متأخراً . وهو على طريقة خاصة جعلت الاهتمام به قليلاً بالقياس إلى آثار المؤلف الأخرى كالمقصورة ، وكادت نسخه تندثر لولا واحدة مخرومة بتراء تنقد الكثير على كل حال .

والمؤلف هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن الاوسي أبوه من سرقسطة وقد ولد سنة ٥٥٤ ، وكان موصوفاً بسعة المعرفة في الفقه والحديث والأدب [٣] ، وعيّن قاضياً في قرطاجنة الأندلس ، وهي مرسى على البحر المتوسط قرب مدينة مرسية وأقام الوالد في قرطاجنة مدى حياته (ت ٦٣٢) ، وبها ولد ابنه حازم سنة ٦٠٨ .

وتلقى حازم علومه الأولية على والده وعلى طبقة من شيوخ عصره تسمح بهم

* القدح المعلى لابن سعيد ٢٠ – ٢١ أزهار الرياض ٣ / ١٧٢ درة الحجال ١٣٧ ، بغية الوعاة للسيوطي ١ ٤٩١ – ٤٩٢ نفح الطيب للمقري ٣ ٣٤١ – ٣٤٦ مقدمة كتاب منهاج البلغاء ٥٢ – ٧١ و Brock G I 269, S I 474

١) كتاب رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة للشريف الغرناطي طبع مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٤ هـ – في جزأين

٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء صنعه أبي الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤) تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – تونس ١٩٦٦ – نشر دار الكتب الشرقية .

٣) التكملة لابن الأبار (ط مصر) ٢ ٦٣٣

طروف والده ومكانته . وتنقل في طلب العلم فأخذ عن العروضي والطرسوني من شيوخ مُرسية . وقصد غرناطة وإشبيلية وغيرهما يستحير العلماء ، ويستزيد من العلم . ولقي في إشبيلية أبا علي عمر بن محمد الشَّلَوبيني إمام نحاة المغرب [1] ورحل زمانه ، فتأثر به وترسم خطاه . ويقول محقق المنهاج مستنتجاً ما كان بين الشيخ وتلميذه « ومن المُقَدَّر أن هذا الإمام لاحظ في مُريده شيئاً من الاستعداد للاخذ بالعلوم العقلية ، فلم يجد منه راوية كاس الآثار أو لغوياً فقط فيقتصر على تدريسه كتاب سيبويه ، بل حمله على الأخذ بالعلوم الحكمية الهيلينية ووجهه إلى دراسة المنطق والخطابة والشعر » [2] .

وما من شك في أن حازماً اطلع على التراث اليوناني ، فقد أفاد من الفارابي وابن سينا في كتابه كما سنشير في الدراسة . ونقل المقري عن أبي حيان أن شيوخ حازم بلغوا نحو ألف واحد [3] . والمفروض أن هذا العدد يشمل الذي تلقّى عنهم حقيقة ، والذين أخذ عنهم إجازات أو بعثوا بها إليه ، على مثل ما كان شائعاً في زمانه .

شهد حازم وفاة والده في قرطاجنة الأندلس سنة ٦٣٢ وهو ابن أربع وعشرين سنة ، ثم تنقطع أخباره لنعلم أنه زار المغرب وكان في حضرة الرشيد الموحدي (٦٣٠ - ٦٤٠) ومعنى هذا أنه غادر الأندلس قبل سنة ٦٤٠ بعد أن كانت مدن الأندلس الكُبرى تتساقط في أيدي الإسبان ، مثل قرطبة (٦٣٣) وبَيَّاسة (٦٣٤) وبَلنسية (٦٣٦) وشاطبة ودانية (٦٣٨) .

ونقل ابن سعيد في ترجمته - مركّزاً على شاعرية حازم - أنه « شاعر مجيد مقتدر على حَوْك الكلام ، مديد الباع في ميدان النظام » وذكر خبر رحلته عن الأندلس فقال « رحل إلى المغرب فاشتهرت له به قصائد لم يَحْلُ بنظمها من فرائد ، ثم قصد هذه الحضرة العليّة (بتونس) . فكانت له بها أمداح كطلوع أنوار الصباح »

ونلاحظ هنا - وهي ملاحظة هامة - أن حازماً خرج من الأندلس مكتمل

---

١) المغرب لابن سعيد ٢ ١٢٩ ٢) منهاج البلغاء ٥٣ - ٥٤ .
٣) أزهار الرياض ٣ ١٧٢

الثقافة ناصح الفكر مطمئناً إلى ما بين يديه من صناعة ،وما في مقدرته من شاعرية وعلم . وكان مقامه بتونس لجوءاً إلى دار هجرة لا إلى دار نشأة ، فهو أديب أندلسي عريق ، لا مُشاحّة في ذلك . وإن حازماً لم يُطل المقام في المغرب لسبب لا نعلمه – ولعلّه حقق المنهاج باضطراب البلاد – فانتقل عن الرشيد إلى إفريقية (تونس) ومَثل بين يدي أبي زكريا الحفصي (ت ٦٤٧) وأنشد بين يديه قصيدة ولاءٍ مؤثّرة ، ولحق بلاط الحفصيين وخدم في بلاط المستنصر والواثق ، واستمر على حاله المعزّزة إلى سنة ٦٨٤ حيث توفي بتونس .

مؤلفاته .

١) أول ما يذكر لحازم قصيدته **المقصورة** وقد نشرها مع مقدمة عن فن المقصورة الدكتور مهدي علام في حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس [١] ، والمقصورة أرجوزة جعلها الشاعر في ألف بيت وستة أبيات [٢] ، عارض بها مقصورة ابن دريد ، نظمها في المستنصر الحفصي لمناسبة تجديده الحنايا الرومانية (القنوات) بين إحدى العيون ومدينة تونس .

٢) **شد الزيار على جحفلة الحمار** . وهو في الرد على ابن عصفور في كتابه **المقرب** . ذكره في النفح ٥ ٢٧٨ .

٣) **التجنيس** وشرحه ابن رُشيد .

٤) **القوافي** وشرحه ابن رشيد أيضاً (النفح ٧ ٤٠١) .

٥) كتاب في **العروض** ذكره في المنهاج ٢٥٩ .

٦) كتاب **المنهاج** الذي نعرض له .

٧) وله ديوان حققه الاستاذ عثمان الكعّاك ونشر في سلسلة المكتبة الأندلسية ببيروت .

وثبتُ مؤلفات حازم يدل على مشاركته في فنون الأدب والنحو والعروض والنقد والبلاغة [٣] .

مكانته في نفح الطيب خبر طريف يدلّ على ماناله حازم من مكانة علمية هَيّأت له أن يحكم على نتاج معاصريه ، مفوضاً من الأمير ، ملتزماً بمقاييس

١) حوليات كلية الآداب/جامعة عين شمس ٢) مقدمة المنهاج ٨١

٣) مقدمة المنهاج ، ٨٧

النقد والأدب دون أي قيد آخر . ففي ترجمة الفقيه النحوي أبي جعفر أحمد ابن يوسف الفهري اللبلي أنه ألّف كتاباً باسم وشي الحلل شرح فيه أبيات الجمل ، ورفعه للملك المستنصر الحفصي « فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وحده . فحكى أبو عبدالله القطّان المُسَفّر – وكان يخدم حازماً – قال كنت يوماً بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب فسمعت نقر الباب فخرجت فإذا بالفقيه أبي جعفر فرجعت وأخبرت أبا الحسن فقام مبادراً حتى أدخله وبالغ في بره وإكرامه ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له يا أبا الحسن قال الشاعر

★ وعين الرضا عن كل عيب كليلة ★

فقال له يا فقيه أبا جعفر ! أنت سيدي وأخي ، ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلا قول الحق ، والعلم لا يحتمل المداهنة . فقال له فأخبرني بما عثرت عليه . قال له . نعم ، فأظهر له مواضع فسلّمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه » [1] فهذا موقف السلطان والعلماء منه ، وموقفه من العلم وآدابه وقد لقيه ابن الأبار وابن سعيد ، ونقلا عنه أخباراً وأشعاراً .

الكتاب . عن النسخة الوحيدة بالمكتبة الصادقية بتونس نُشر كتاب **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، فسدّ نشره ثغرة واسعة في التراث الأندلسي ، وصار لا بد من اعتبار الكتاب عند الحديث عن النّقد العربي والحديث عنه لا يزال حديداً مثل حال كتاب **إحكام صنعة الكلام للكلاعي** ، **والوافي في نظم القوافي للرندي** ، وصار للاندلس ذكر في هذا الباب كان مطموساً

وقد تعرض لدراسة الكتاب أوالتعريف به أو الإفادة منه عدد من الدارسين، منهم الدكتور شكري عياد إذ أجرى ذكره في كتابه أرسطوطاليس في الشعر وهو رسالته للدكتوراه ونشر مؤخّراً [2] ونشر قسماً منه الدكتور عبدالرحمن بدوي [3] مع مقدمة خلص منها الى الحكم بأن حازم القرطاجني أحسن مَنْ

1) نفح الطيب للمقري ٢ ٧ ٤
2) كتاب أرسطو طاليس في الشعر – حققه مع ترجمة حديثه الدكتور شكري عياد – نشر دار الكاتب العربي ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م 3) مقالة عن حازم في كتاب (إلى طه حسين) ونشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في فصله من الكتاب مستقلة

فهم أرسطو من النقاد والبلاغيين العرب .

ولم يورد الدكتور مهدي علام ذكر الكتاب في مقالته التي نشرها في حوليات كلية آداب عين شمس ، والتي أتبعها بشر المقصورة (العددان الأول والثاني) وجرى ذكر الكتاب أيضاً في « تاريخ النقد العربي » للدكتور محمد زغلول سلام في فصل قصير (١)

عنوان الكتاب — كما هو على المخطوطة الناقصة — مُضافٌ على ورقة أُلحقت به لتكون صفحة بداية ، وفيها بخط مغاير المناهج الادبية أو رجّح المحقق أنه من وضع أحد مالكي النسخة . وورد اسم الكتاب في الكتب الأخرى باسم المنهاج — على الاختصار — وسراج البلغاء ، ومنهاج البلغاء ، وكان نص عبارة العنوان في عروس الأفراح للسبكي حيث ورد فيه كاملاً (٢) وقد وضع حازم كتابه على أربعة أقسام ، وجعل كل قسم في أربعة أبواب ، وسمّى كل باب مَنهَجاً وفرّع من المناهج فصولاً سمّى كل واحد منها مَعلَماً أو مَعرَفاً . وقد يتبع المنهج — بعد الفراغ منه كله — أو المَعلم والمَعرف داخل المنهج نفسه بملاحظات نقدية وبلاغية تتعلق بما هو سبيله تحت عنوان تَمامٌ أو تَمام وأراد أن يضع عنوانات جانبية لرؤوس الفقر داخل المعرف أو المعلم فلم يوفق ، واهتدى إلى التنبيه على الانتقال من فكرة إلى أخرى أو من جزئية إلى أخرى في الفكرة نفسها بكلمتين تدلان على ذلك ، فاستخدم كلمتي إضاءة ، وتنوير لتحقيق ذلك فنحن نبدأ بالقسم يتلوه المنهَج ، وفي المنهج مَعلم أو مَعرف ، وفي المَعلم . إضاءة وتنوير . ويلحق بعض المناهج أو المعارف أو المعالم المأم أو المأم، فهذا معنى عباراته الاصطلاحية .

عَرض الكتاب بدأ الكتاب بخرم أسقط شيئاً من أوّله وقد تبين أن الساقط منه هو قسمه الأول، وبقي القسم الثاني تنقص بعض الصفحات من أوله، والثالث كله والرابع ينقصه قليل من آخره لا يكاد يسيء إليه ومن الإشارات

١) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري — د. محمد زغلول سلام
دار المعارف بمصر (١٩٤ - ٩ ٢)

٢) مقدمة المنهاج ٩٣ — ٩٤ .

التي أحال بها حازم على هذا القسم ، ومن بعض النقول يظهر أنه يتناول بالبحث القول وأجزاءه والأداء وطرقه ، والأثر الذي يحصـــل للسامعين عند صدور الكلام . وفيه حديث عن السجع وعن الحكم والامثال ، وعن التشبيه وأدواته وأشكاله وصوره ، وعن الاحتياط في استعمال بعض الالفاظ وتقدير الإستعمال ، وعن الزيادة والقلب والالتفات والترتيب في المعاني والأغراض[1] . وموضوعات ما تبقى من المنهاج تبحث في الشعر وطريقة نظمه وما يتعلق بذلك من البلاغة والأوزان . وخص القسم الثاني بالمعاني ، والثالث بالمباني (النظم) والرابع بالاسلوب (الطرق الشعرية) .

القسم الثاني (المعاني)

١) سقط عنوان القسم الثاني من أول النسخة ، وذهب المنهج الأول إلا بقايا قليلة . وهذا القسم « خاص بالمعاني وما تعرف به أحوالها من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها »[2] وبقي من المنهج الاول مَعْلَمٌ واحد وجعل المنهج الأول للإبانة عن ماهيات المعاني وأنحاء وجودها ومواقعهـا ، والتعريف بضروب هيئاتها وجهات التصرف فيها ، وما تُعتبر به أحوالها في جميع ذلك ، من حيث تكون ملائمةً للنفوس أو منافرة لها ولم يكد يبدأ المَعلم الأول حتى ضاع وسقط وأراد أن يتحدث عن طريقة حُصول المعاني في الذهن . فهناك أعيان موجودة تحتك بهـــا الأذهان فتحصل فكرة أو معنى يَتصوّر بصورة عبارة . وانتهى المنهج الاول بانتقاد الشعر المشرقي في زمانه والى مئتي سنة خلت قبله وخلوه من الشعراء الذين يصارعون الفحول ، لعدم فهمهم حقيقة الشعر . وفي هذه الفقرة الباقية تبيان لمذهبه في الشعر أيضاً قال « فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة مَنْ نحا نحوَ الفُحول ، ولا مَنْ ذهب مـــذاهبهم في تأصيل مبادىء الكلام ، وإحكام وضعه ، وانتقاء مواده التي يجب نحته منها ، فخرجوا بذلك عن مَهيَع الشعر ، ودخلوا في محض التكلّم هـــذا على كثرة المُدعين المتقدمين في الرعيل الأول من قدمائهم والحلبة السابقة زمانا وإحساناً

١) نقلا عن الزركشي ، مقدمة الكتاب ٩٥ . ٢) المنهاج صفحة ٩

منهم »[1] . فللشعر مواد ينحت منها ، فاذا خلا منها صار مجرّد كلام ، وإن محاكاة الأوائل ومجاراتهم تسوق الشاعرية إلى الإبداع وتنمّيها

٢) المنهج الثاني .

وهو في الابانة عن طرق اجتلاب المعاني ، وكيفيات التِئامها ، وبناء بعضها على بعض ، وما تُعْتَبر به أحوالُها في جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها » .

والعنوان على طوله لا يُختصر فيه رأيه في عنواناته كلها طويلة ومفصّلة ذات شعب، ولكنه يعني بها ما يقول . وهذا المنهج في اثني عشر فصلاً بين مَعْلم ومَعرف ومأمّ .

تحدث عن الأعراض الباعثة على قول الشعر وسمّاها أغراضاً أول لا بد لمن أراد التصرف في المعاني من معرفتها . وهذه الأعراض هي أمور تحدثُ عنها تأثّرات وانفعالات للنفوس إما لمناسبتها لها وإما لمنافرتها . فالنفس تأنس بالمسَرّة والرجاء وربما الاستغراب أيضاً ، وتنقبض بالكآبة والخوف . والارتياح للأمر السار يحرك إلى المَدح ، والارتماضُ للأمر الضّار يحرك إلى الذم . وفرّع من هذين الوجهين درجات وأنواعاً استخرج منها الرجاء ، والرّهبة والتأسي والتندم ، والاستلطاف والاعتاب وفصّل بشكل آخر فقال إن لأعراض الشعر أجناساً ، وأنواعاً تحتها أنواع فالاجناس الأُول الارتياح والاكتراث وما تركب منها . والأنواع التي تحت هذه الاجناس هي : الاستغراب والاعتبار والرضى والغضب والنزاع والنزوع والخوف والرجاء والانواع الاخرالتي تحت تلك الانواع المديح والنسيب والرثاء والتذكرات وأنواع المشاجرات[2] . ووعد بالعَود إلى التفصيل ، وسنعرض لذلك في مكانه — ، فمعاني الشعر إذن إما ترجع الى وصف أحوال الأمور المحركة إلى القول ، أو إلى وصف أحوال المتحركين لها ، أو إليهما معاً .

وقسم المعاني الى معان أول ومعان ثوان ، ومعان أخر لاحقة بها[3]، وقال إن مَن أراد التصرف في المعاني ينبغي له أن يعرف وجوه انتساب بعضها إلى

١) المنهاج: ١٠ ٢) المنهاج ١٢ . ٣) المنهاج ١٣ - ١٤

بعض ، ويحمل المعنى الواحد في حيّزين ، فتكون المناظرة بينهما عن طريق : اقتران التماثل – أو اقتران المناسبة – أو اقتران المضادّة المؤدي إلى المطابقة والمقابلة [1] . وفرق بين المعاني التي لها وجود خارج الذهن ، وبين التي ليس لها وجود خارجه ، واشترط أن يكون الانتقال في المعاني الذهنية بين بعضها بعضاً غير خارج عن الهيئات التي عرفها العرب [2] وتحدث عن حدة موضوعه وصعوبة المقصد الذي يبحث فيه. ثم بحث في طرق المعرفة بأنحاء وجود المعاني ففصل ما كان أسلف إجماله من أن المعاني لها حقائق موجودة في الأعيان ، ولها صور في الأذهان ، ولها من جهة ما يدل على تلك الصور من الألفاظ وجود في الأفهام وأحال على القسم الأول المفقود فيما يتعلق بالألفاظ ، وتحدث عن المعاني في من حيث توجد في الأذهان [3] وقال : إن أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت عُلقته بأغراض الإنسان ومالت إليه نفوس الخاصة والعامة .

وخرج عن موضوع تأثير الشعر في سامعه من الخاصة والعامة إلى تقرير أن المهم في حقيقة الشعر هو : التخييل والمحاكاة في أي معنى اتفق ذلك [4] وبيّن الطرق التي تجعل المعاني عند الجمهور أكيدة ، وقال إن أحسنها ما لاءم فطرة النفس من استلذاذ ، أو تألم ، وأن طرق الشعر : مفرحة أو مؤلمة أو مستطابة. وعاد ففصّل المعاني الأول والثّواني ، وطلب أن تكون الثواني أشهر في المعنى من الأُوَل أو مساوية لها لتوكيد المعنى : فالأوَل هي التي يكون مقصد الكلام وأسلوب الشعر يقتضيان ذكرها ، وبنية الكلام عليها . والثواني هي التي لا يقتضي مقصد الكلام وأسلوب الشعر بنية الكلام عليها » [5]. فما ائتلف مع النفوس من المعاني كان أصيلاً وما اختلف كان دخيلاً . وقال إن كل ما اشتهر من معاني الشعراء إنما هو من المعاني الأوَل والثواني ، دون ما وراء ذلك

الطبع والدّرْبة هاجم حازم الشعراء الذين يظنون أن الكلام الموزون المقفى ُ عد في الشعر ، وقال إن الطباع اختلت ولا يمكن أن يتأتى الطبع

---

١) المنهاج ١٥ ٢) المنهاج ١٧ . ٣) المنهاج ١٩ .
٤) المنهاج ٢١ ٥) المنهاج ٢٤ .

بغير دُربة . فقد كان الشعراء يروون شعر غيرهم ويَلزمون الفصحـاء . وانتقد تعريف الشعر بأنه « كلام موزون مقفى » . واستدرك على طلبه المعنى المعروف عند الجمهور بشيئين . أولهما أنه طلب احتساب المعاني المتعلقة بصنائع أهل المهن، والثاني أنه نصح باستعمال اللفظ المستعذَب وإن حمي عنهم ، وكل ما تتأثر به النفس وترتاح له [١]

وفرق بين المعاني الحسيّة والمعاني الذهنية ، وقال إن الشعر يبني على الأولى ، وأخرج المعاني العلمية من الطرق الجيدة لأن من يستعملها يريد التمويه بأنه شاعر عالم ، وهو نقيض ما يجب في الشعر

وتحدث عن طرق المعرفة بكيفيات تركيب المعاني وتضاعفها [٢] فوجدها مفردة ومتضاعفة . وجعلها من حيث التعدد والاتحاد في أقسام ثمانية، وبيّن متى يقع استخدام كل من تلك النواحي ورأى أن صور المعاني إما متكررة وإما غير متكررة ولا بد للتكرار من موجب له من تقديم وتأخير في الحيزين ، أو اختلاف جهة التعلق فيها ، أو الاجمال والتفصيل أو ما شابه [٣] .

وانتقل إلى طُرق استثارة المعاني وقال إن الاصل في ذلك هو معرفـة أوصاف الاشياء والهيئات التي تكون عليها ووجد لاقتباس المعاني واستثارتها طريقين أحدهما يقتبس منه بمجرد الخيال ، والثاني يقتبس منه بسبب زائد على الخيال والفكر فالأول يكون بالقوة الشاعرة بأنحاء اقتباس المعاني وملاحظة وجوه التئامها – وهو يعني ما يشبه الإبداع – والثاني يكون بالاستناد الى كلام سابق من نظم أو مثل أو حديث أو غير ذلك ، وبيّن أن طرق الأمر الثاني كثيرة وتختلف بحسب الاشخاص وقدراتهم

ونظر في الشعر فوجد أنه لابد لتأتّيه من أمور ثلاثة [٤] الهيئات والادوات والبواعث . أما الهيئات فالبيئة المعتدلة جغرافياً ، والبيئة الفصيحة ثقافياً . فالمهيّئ الاول يسمّي الاستعداد ، والثاني يمد بالمعلومات ويصحح اللغة ويُشرب الفكر بالمعاني والأوزان . والادوات تنقسم إلى ما يتعلق بالمعاني ، وما يتعلق بالألفاظ ، والبواعث تنقسم إلى أطراب وآمال .

١) المنهاج ٢٨-٢٩ ٢) المنهاج ٣٢ ٣) المنهاج ٧٦ ٤) المنهاج ٥٤ - ٥٥

ولا بد للشاعر لكي يجيد أعراضه من قوة حافظـــة ، وقوة مائزة وقوة صانعة .

فالحافظة تمد الشاعر بصور الاشياء مترتبة على ما هي عليه .

والمائزة هي التي بهـا يميز الانسان ما يلائم الموضع والنظم والاسلوب مما لا يلائمه .

والقوة الصانعة هي التي تضم الالفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية بعضها إلى بعض واجتماع القوى الثلاث هو المعبّر عنه بالطبع الجيد في صناعة الشعر [١]

وبحث في طرق العلم بالمناسبة بين بعض المعاني وبعض ، فقال إن من المعاني ما يتطالبُ بحسب الإسناد خاصة ، ومنها بحسب انتساب المعـاني بعضهـا إلى بعض في أنفسها بكونها أمثالاً أو أشباهاً أو أضداداً أو متقاربات من الأمثال أو الأضداد . فالنسب الإسنادية تلاحظ البيـان ، والمبالغـة ، والمناسـبة ، والمشاكلة . والنسب الأخرى تقع فيما بين المعاني بواسطة أو بدون ذلك . وإذا اتسقت النسب بين المعاني خرج أحسن الشعر لما في ذلك من ملاءمة النفوس بين تشابه وتقارن وتضاد . قال وإذا كان في صور المتقابلات زيادة معـنى على التقابل المفرد زادت الصياغة حسناً . ومثل لذلك بالقلب كما في قول الشاعر

فليعجبُ الناسُ منّي أنّ لي بدناً   لا روحَ فيه ، ولي روحٌ بلا بدن

وكإيراد المتشابهات بلفظ متماثل ، مثل

ومَنْ طالما التقت أعينُ المُرْ   دِ عليها وأدْمُع العُشّاقِ

وجاء بقوانين جزئية تحدد كيفية الإتيان بالتماثلات والمتشـابهات ليكـون الكلام أوقع [٢] . قال . أما المتخالفات والمتضادات فالصيّغ فيها تقسيمية وتصييرية ودخل بعد هذا إلى التفصيل فتحدث عن الطبـاق ، وإلى مخالفـة قدامة إذ سماه التكافؤ . وقسم المطابقة إلى محضة (كلمتان متضادتان) وغير محضة (ما ينزل منزلة الضد) . هذا عن التضاد ، أما المخالف فكمثل (أبيض وأحمر) . وأبدى حازم إعجابه ببيت المتنبي

---

١) المنهاج ٤٣   ٢) المنهاج ٤٦-٤٧

أرورُهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصُّبح يغري بي

ورأى أنه يجري مجرى المُطابقة تخالف وضع الألفاظ لتخالفٍ في وضع المعاني ، مثل : (١)

أنت للمال إذا أصلحتَهُ فإذا أنفقتَهُ فالمالُ لك

وتحدّث عن المقابلة ناقلاً عن قدامة وابن سنان الخفاجي ، وفرّق بين المقابلة الصحيحة والمقابلة غير الصحيحة (٢) .

ثم تحدث عن ضروب التقسيم (٣) ، وأنواع التفسير (٤) وطلب أن يطابق المفسِّر المفسَّر ، ومثل للتفسير الذي لم يوافق المعنى المفسر بقول أحدهم

فيا أيها الحَيران في ظُلَم الدُّجى

ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا

تعال إليه تلقَ من نور وجهه ضياءً ، ومن كفيه بحراً من الندى

قال « فمقابلة ما في عجز البيت الأول بما في عجز الثاني غير صحيحة ، والتسامح في إيراد التفسير على مثل هذا مُخل بوضع المعاني ومُذهبٌ لطلاوة الكلام ، فينبغي أن يُتحرز منه وألا يتسامح في مثله»(٥) وهذا مثل تطبيقي لانتقاده وإصراره على ما يريد بضروب من العبارات وتحدث عن التفريع في آخر قسم من هذا المنهج ، فعرّفه ، ومثّل له بأول مثال في هذا الباب عند ابن رشيق (العمدة ٢ ٣٤) . وطلب في التفريع أن تكون النسبة بين المعنيين متناسبة ، وان يكون بينهما اتصال وحُسن اقتران وإلا كان حشواً والتفريع يحسن في البيت الواحد وفي غير كثرة حتى لا ينقلب الى عكس المقصود منه .

٣) المنهج الثالث . بحث حازم في المنهج الثالث ما تقوم به صنعتا الشعر والخطابة من التخييل والاقناع . وبدأ بالتفريق بين ما به ، لتقوم صناعة الخطابة ، وصناعة الشعر . فاعتماد الصناعة الخطبية يقوم على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين إلا اذا عَدل الخطيب عن الإقناع الى التصديق واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبّر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة (٦) وليس من الضروري دائماً أن يكون الشعر صادقاً أو كاذباً ،

١) المنهاج ٥٤-٥٥ ٢) المنهاج ٥٥ ٣) المنهاج ٥٦ . ٤) المنهاج ٥٧ .
٥) المنهاج ٥٨ - ٥٩ . ٦) المنهاج . ٦٢

في نظر حازم ، ولا بأس بالتناوب بينهما ، وخرج من الموضوع الذي شغل النقاد العرب طويلاً في الموقف من الصـــدق والكذب بأن حوّل الموضوع إلى اتجاه آخر : إذ ما تتقوم به الصناعة الشعرية وهو التخييل غير مناقض لواحـد من الطرفين (الصدق والكذب) فلذلك كان الرأي الصحيح في الشعر أنّ مقوماته تكون صادقة وتكون كاذبة ، وليس يعد شعراً من حيث هو صـدق ولا من حيث هو كذب ، بل من حيث هو كلام مخيل[1] . وهذا الموقف الجديد أثر من آثار استقلال فكر حازم ، ونابع من تأثره بترجمة (الشعر) لأرسطو .

أفاد حازم من ترجمة الفارابي وترجمة ابن سينا لكتاب الشعر وأشار هو إلى ذلك وله بقول عنهما أيضاً وقد سبق الفارابي إلى استعمال كلمة التخييل في معنى المحاكاة التي وردت في ترجمة مَتّى لكتاب الشعر [2] ، واستخدمها ابن سينـا — بعد أن وضعها الفارابي — ولكنه ضيّق معناها حين قسم أنواع المحاكاة ، متأثراً بغموض ترجمة مَتّى ، إلى تشبيه واستعارة وتركيب منها [2] وقـد وسّع حازم استخدام فكرة التخييل والمحاكاة وتطبيقاتهـا ، وقال في ذلك الدكتور شكري عياد في دراسته الفائدة عن تأثر حازم بأرسطو «ولا نغلو إذا قلنا إن حازماً قد توسع في تطبيق هـذه الفكرة على الشعر أكثر ممـا توسع أرسطو[3]» فقد درس أرسطو المأساة اليونانية ، في حين شملت تطبيقات حازم ألواناً كثيرة من الفن القولي وسنُحيل على التأثرات الأرسطية في مواضعها من هذا العرض .

أضرب حازم عن ذكر الميْز بين الصدق والكذب اللاحقه بالمنطق ، ودل الخطيب والشاعر على الطرق التي تصير الأقاويل الكاذبة بها موهمة أنها صدق [4]. وردّ تلك الطرق إلى تمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له وهي موهوبة أو قـد تُكتسب . ودل حازم الأديب على ذلك وقرر أن ضروب الإبداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب، والخلل الواقع في القياس . ونقل عن ابن سينا [5] شيئاً عن طرق التمويهات الخطابية ، وطلب ألا

١) المنهاج ٦٣ ٢) كتاب أرسطو طاليس في الشعر الدكتور شكري عياد ٢٥٧
٣) المصدر نفسه صفحة ٢٦٣ ٤) المنهاج ٦٣
٥) المنهاج ٦٤ — ٦٥

يطول الكلام ويثقل ولا يخف فيستر، وخير الامور أوساطها . وجعل كل ما كان من الأقاويل القياسية مبنياً على تخييل وموجودة فيه المحاكاة أنه يعد قولاً شعرياً سواء كانت مقدماته برهانية أو جدلية أو خطابية يقينية أو مشتهرة أو مظنونة فإن بنى الكلام على الاقناع خاصة كان أسيلاً في الكتابة ، سائغاً (مقبولاً) في الشعر ، فإن خلا الكلام من الإقناع أو المحاكاة سقط . وشرح نفسه لماذا وسع الباب في المحاكيات الشعرية كما أسلف هنا ، وكما سيذكر بعد، فقال « إن الحكيم أرسطوطاليس وإن كان اعتنى بالشعر بحسب مذاهب اليونانية فيه ، ونبّه على عظيم منفعته وتكلم في قوانين عنه ، فإن أشعار اليونانية إنما كانت أغراضاً محدودة في أوزان مخصوصة [1] ، ومدار جُلّ أشعارهم على خرافات كانوا يضعونها ، يفرضون فيها وجود أشياء وصور لم تقع في الوجود ، ويجعلون أحاديثها أمثالاً وأمثلة لِما وقع في الوجود وكانت لهم أيضاً أمثال في أشياء موجودة نحواً من أمثال كليلة ودمنة ونحواً ممّا ذكره النابغة من حديث الحيّة وصاحبها وكانت لهم طريقة — وهي كثيرة في أشعارهم — يذكرون فيها انتقال الأمور في الزمان وتصاريفه ، وتنقّل الدول وما تجري عليه أحوال الناس وتؤول إليه . فأمّا غير هذه الطرق فلم يكن لهم فيها كبير تصرف كتشبيه الأشياء بالأشياء . فإن شعر اليونانيين ليس فيه شيء منه ، وإنما وقع في كلامهم التشبيه في الأفعال لا في ذوات الأفعال [2] » .

وتدبّر حازم مناحي القول عند العرب مقارناً بما وجده في ترجمة أرسطو

١) قال ابن سينا في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو « واليونانيون كانت لهم أغراض محدودة يقولون فيها الشعر، وكانوا يخصون كل غرض بوزن على حدة ، وكانوا يسمون كل وزن باسم على حده . (أرسطوطاليس فن الشعر - ترجمه وحققه عبد الرحمن بدوي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٣)

٢) في ترجمة ابن سينا أن المحاكاة يقصد بها التحسين أو التقبيح ، واشتمال اليونان كان بمحاكاة الأفعال والأحوال دون الذوات على خلاف العرب « فإن العرب كانت تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر في النفس أمراً من الأمور تعد به ، نحو فعل أو انفعال ، والثاني للعجب فقط ، فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه » ١٧ المصدر نفسه . واستناد حازم كان على هذه الفقرة وما تلاها .

فوجد قوانين هذا في كتابه قاصرة عن الإحاطة بها والانطباق عليها ، ووجد أن مهمته هي إنشاء عمل كامل يتناول ذلك وقال في ذلك «ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الأمثـــال والاستدلالات واختلاف ضروب الابداع في فنون الكلام لفظـــاً ومعنى ، وتبحرهم في أصناف المعاني .. لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية »[1]. وعضد رأيه بما ختم به ابن سينا كتاب الشعر من وروده عن أرسطو غير كامل [2].

الصدق والكذب : شرح حازم الفرق بين الشّعر والخطابة من حيث اعتبار الإقناع — وهو قوام الخطابة — والتصديق وقال إن الشعر كلام مخيّل ولهذا فإنه يتضمن الصدق والكذب والعبرة بتخييله لا بصدقه أو كذبه [3] . وتحدث عن ماهية الشعر وحقيقته. فأعاد تعريف الشعر معدّلاً فيه حدود تعريف قدامة، مفيداً من خبرته الأرسطية وذوقه الشعري « الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكرّه إليها ما قصـــد تكريهه . بما يتضمن من حُسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن هيأة . »[4] وخرج من مسألة الخلاف على الصدق والكذب بما أسلفت من اعتبار التخييل والبراعة الفنية ، « فأفضل الشعر ما حَسُنَت محاكاتـه وهيأته ، وقويت شهرته أو صدقه ، أو خفي كذبه وقامت غرابته ، وإن كان قد يعد حذقاً للشاعر اقتداره على ترويج الكذب وتمويهه عــلى النفس . وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيأة ، واضح الكذب ، خلياً من الغرابة » وقرر بوضوح أن الشعر إذا خلا إلا من الوزن والقافية لم يعد شعراً ، ورجح جانب الصدق على كل حال فان أمكن الشاعر أن يقضي غرضه به فهو الأولى وإلا لجأ إلى الكذب . ونبّه على الفرق بين الكذب وبين التشبيه والمحاكاة في الشعر وإن ظهر بشكل متقـــارب [5] وجعـــل الكـــلام بالقيـــاس إلى الصدق والكذب في ثلاثـة أطراف . صدق ، وكذب ، وحال تجمع بينهما

١) المنهاج ٦٩ ٢) أرسطو (بدوي) ١٩٨ ٣) المنهاج ص ٧ – ٧١
٤) المنهاج ٧١ ٥) المنهاج ٧٥.

ودخل في تفريعات مغرقة فهناك الاختلاق الإمكاني ، والاختلاق الامتناعي ، والإفراط الامتناعي ، والافراط الاستحالي . فالممتنع متصوّر في الذهن وإن انعـــدم وجوده والاستحالي لا هو موجود ولا هو يُتَصور . فالاختلاق الإمكاني يقع للعرب دون الاستحالي في حين يقع هذا لليونان [1] ، ونقل عن ابن سينا نصوصاً في هذا .

وبحث في أغراض الشعر من هذا القصد وجعل الاختلافات اقتصادية وإفراطية ، وجعل الافراطية ممكنة وممتنعة ومستحيلة . وأفاد من استعمالات أهل المنطق وعباراتهم وتفصيلاتهم وبعد تفريعاته ثبت له أن للاستساغة في الكلام الشعري ستة مذاهب وللاستحسان أربعة ، وللصدق ثلاثة[2] وعلل إطالته هذه باقتضاء الرد على من زعم أن الأقاويـــل الشعرية لا تكون إلا كاذبة [3] ولخص موقفه بأن أفضل المواد المعنوية في الشعر ما صدق وكان مشتهراً ، وأحسن الألفاظ ما عذب ولم يبتذل في الاستعمال [4] وأسلس قياد أحكامه فقال إن قوانينه ليست واحدة دائماً بل يحسن إيثارها وعيّن للأديب المواضع التي يصلح فيها استعمال كلٍّ من الأطراف الثلاثة من صـــدق وكذب وجمع بينهما ، وهاجم المتكلمين الذين ظنوا أن الشعر لا يكون إلا كاذباً ، وردّ عذرهم إلى ضعف بضاعتهم [5] ، لأنهم اضطروا إلى معرفـــة شيء من علم البلاغة والفصاحة بما لحون به موضوع إعجاز القرآن فدخلوا في الوهم .

التخييل

وتحدّث عن التخييل فأكد أنه من مقومات الشعر « الشعر كلام مُخَيّل موزون.. » [6] وأنه يقع في جهة المعنى والأسلوب ، واللفظ ، ومن جهة النظم والوزن وهو ضروري وغير ضروري . فالتخاييل الضرورية هي تخـــاييل المعاني من جهة الألفـــاظ ، والأكيدة المستحبة هي تخاييل اللفظ في نفسه ، والأسلوب ، والأوزان والنظم ، وآكدها تخاييل الاسلوب وعَرّفـــه فقال التخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر أو معانيه أو أسلوبـــه ونظامه ،

١) المنهاج ٧٨ ٢) المنهاج ٨٠ - ٨١ ٣) المنهاج ٧١
٤) انظر أرسطو (بدوي) ابن سينا ١٦٢ ٥) المنهاج ٨٦ - ٨٧
٦) المنهاج ٨٩ ، وهو تعريف ابن سينا (الشعر ١٦١)

لها انتساب إلى ما
وتقبيحها بالشيء
والمصلحة (و
بعضها ببعض ٢٤
إليها ثمانية وجوه
الدائرة (وسماها
المحاكاة التشـ
الوجود والفرص
لا مفروض » (٣)
يقصد بها وصو
الغرض بأيطل الا
الحيوانية بالسا
المحاكي به معد
الصفات و
تصيرها ، بما يلا
بالحسن والقبح
مقدار صغير
محاكاة فعليها
مثله أو مزيـ
ويلاحظ
ترجمة ابن سيـ
« المحاكاة التشـ
وانتقل إ
موقع المحاكاة

و صور ينفعل لتخيلها وتصورها ، أو تصور شيء آخر
إلى جهة الانبساط أو الانقباض (١) » ويحس بالتخييل
ى أثره وأن يترأس إلى أنحاء من التعجيب ، فيقوى
، الكلام (٢) ، وألا يكون التخييل بكلام ساذج غير
في هذا من ابن سينا وبخاصة فكرة التخييل المقرون
ن أثر في النفس (٣) .

ماكيات

، قسمة ابن سينا إلى . محاكاة تحسين ، ومحاكاة تقبيح ،
سم التخييل بالنظر إلى متعلقاته قسمين قسم يخيل
صافه التي تحاكيه ، وقسم يخيل على الشيء في غيره .
ل المصور الذي ينحت أو يخط ، والمرآة التي تعكس
ل بالتصوير مأخوذ عن ابن سينا أيضاً بزيادات وفصل
اة بحسب تنوّعها إلى المألوف والمستغرب ومقابلة بعضها
ـموس لها تحرك شديد للمحاكيات المستغربة . وفرق
، القديمة والمتدعة المخترعة ، وفصّل النوع الثاني

فيما كان قسم المحاكاة إلى محاكاة الشيء نفسه ،
ره ، وجاء بأحكام كل نوع وعنى بالمحاكاة الأولى
بيه ومحاكاة الشيء بنفسه أو الأشياء التي تقع عليها
الحس ، وقد لا تدرك . وطلب أن يتناول الشاعر
س والتي لا تحس بطريقة دائماً ، وأن نبدأ فيها بالأشهر
ـب التخييل تقع في الأشياء المحسة على خواصها
كانت الأعراض شهيرة قريبة من عرض القول

١) المنهاج
٤) المنهاج

٢) المنهاج ٩١
١٦٢ وانظر (الشعر د شكري عياد) ٢٦٤
سينا ١١ ٥) ابن سينا ١٧ ٦) المنهاج ٩٥

كانت أحسن ، وأنه يختلف في أجزائه وأشكاله باختلاف الشيء المحاكى في كل ذلك . فإذا حوكي الشيء يجب أن تؤخذ أوصافه المتناهية في الشهرة والحسن إن قصد التحسين ، وفي الشهرة والقبح إن قصد التقبيح ، وليبدأ في كل ذلك بالأظهر الأوضح على ترتيب ونظام ، فلا تكون المحاكاة طفرة ولا سقوطاً وانحطاطاً [1] .

ومثّل لتناسب المحاكيات والأوصاف بقول أبي تمام :

إنا غدونا واثقين بواثقٍ بالله ، شمس ضحى وبدر تمام

وانتقل إلى موضوع جانبي لماذا قدم العرب في كلامهم أدنى المعنيين على الآخر كما هي الحال في التغليب واعتبار المثنيين ، وقال « إنما يغلّب الأرجح من جهة الفصاحة أو البلاغة لفظاً أو معنى » . وهذا تخريج جيد يفسر أصل الوضع ، وليس بالضرورة علة له .

وطلب حازم في المحاكاة التسلسل المنطقي أو الوجودي (الطبيعي) قال . « ويجب في محاكاة أجزاء الشيء أن ترتب في الكلام على حسب ما وجدت عليه في الشيء . فلا يوضع النحر في صور الحيوان إلا تالياً للعنق ، وكذلك سائر الأعضاء » [2]

وقسم المحاكاة إلى تامة ، ومحاكاة تقع في بعض الأجزاء ومثّل للمحاكاة التامة بقول الأعشى

كن كالسموأل إذ طاف الهمامُ به في جحفلٍ كسواد الليل جرّارِ
إذ سامه خطتي خسفٍ فقال له قل ما تشاءُ فإني سامعٌ حارِ
فقال غدرٌ وثكلٌ أنت بينهما فاختر وما فيهما حظٌ لمختار
فشكّ غير طويلٍ ثم قال له أقتل أسيرك، إني مانعٌ جاري [3]

« فهذه محاكاة تامة ولو أخل بذكر بعض أجزاء هذه الحكاية لكانت ناقصة » [4]

وقال إنه لمعرفة طريقة التحسين والتقبيح — التي تستهدف إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه — يجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر هي الأشياء التي

١) المنهاج . ١٠٢ . ٢) المنهاج ١٠٤ ٣) المنهاج ١٠٥ ٤) المنهاج ١٠٦

لها انتساب إلى ما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده . وطرق تعلق تحسين المحاكاة وتقبيحها بالشيء أو فعله أو اعتقاده من أربعة وجوه . الدين والعقل والمروءة والمصلحة (وسماها الحظ العاجل) . وأخرج حازم من متعلقات هذه الأمور بعضها ببعض ٢٤ وجهاً أدرجها (١) ، وعد للمخيلين في التخييلات التي يحتاجون اليها ثمانية وجوه (٢) ، وختم الفقرة بالعَود إلى توكيد أهمية امتزاج المَلَكة مع الدُّربة (وسماها المزاولة) .

المحاكاة التشبيهية . تحدث عن التشبيه ونظر إليه من جهات ، فمن ذلك الوجود والفرض ، « وينبغي أن تكون المحاكاة على الوجه المختار بأمر موجود لا مفروض » (٣) وطلب لزوم المحاكاة بالمحسوس ، وأن تكون المحاكاة التي يقصد بها وُضوح الشبه منصرفة إلى جنس الشيء الأقرب . ومنه تشبيه أيطل الفرس بأيطل الظبي ، أو الجنس الذي يلي الجنس الأقرب كتشبيه الأشياء الحيوانية بالنباتية ، نحو تشبيه قلوب الطير رطبة بالعُنّاب . وأن يكون المثال المحاكى به معروفاً عند جميع العقلاء أو أكثرهم ، وأن يقع التشبيه على أشهر الصفات وطلب أن يكون ما يحاكى به الشيء قصد استمالة النفس أو تنفيرها ، مما يلائم ذلك ، فإن كانت المحاكاة للمطابقة فالمذهب محاكاة الحسن بالحسن والقبيح بالقبيح . وجاء ببعض القوانين في محاكاة ذي مقدار كبير بذي مقدار صغير (٤) ، وإمكان عكس المحاكاة ، ومحاكاة الشيء بالشيء — والقصد محاكاة فعليهما — وأنه مستساغ في الشعر أن يحاكى المقصّر بالمقصر وأن يجعل مثله أو مُربياً عليه (٥) .

ويلاحظ أن حازماً أفاد في موضوع الوصف (تشبيه الشيء بنفسه) من ترجمة ابن سينا للشعر وما سماه (محاكاة الذوات) في حين أنه تأثر في القسم الثاني « المحاكاة التشبيهية » بكتاب الخطابة (٦)

وانتقل في آخر هذا المنهج إلى بحث طرق المعرفة بالوجوه التي لأجلها حسُن موقع المحاكاة من النفس ، وسبب الولوع بالتخييل ونقل ملاحظات وعبارات

١) المنهاج ٧ ١ ٢) المنهاج ٩ ١ - ١١ ٣) المنهاج ١١١
٤) المنهاج ١١٤ ٥) المنهاج ١١٥ ٦) (أرسطو د شكري عياد ٢٦٤)

من ابن سينا بالنص ، من كتاب الشفاء . وفرّق بين حصول الأقاويل الشعرية في الذهن ، وحصول الأقاويل غير الشعرية . وضرب المثل بالفرق بين المعرفة بامتلاء إناء بشيء ما وبين « ما تشف لك آنية الزجاج عن صورة ما تحويه »[1].
وبيّن أنّ التأثر بالمحاكاة يتبع شيئين . الإبداع الفني ، والإستعداد الشخصي . وفصل في ذلك أموراً وتنبه إلى أمر هام في اللغة العربية ، فهم زينوا كلامهم بتماثل المقاطع كالسجع والقافية وعلل ذلك بعلل موضوعية [2] وتحدث عن بعض معاصريه من الشعراء المقصّرين ، الذين يُحملهم التكسب على التحسين وتوهيم الناس بأن الشعر زور .

٤ — المنهج الرابع أتم حازم في المنهج الرابع حديثه عن المعاني . وعقده لبيان الأحوال التي تعرض للمعاني في جميع مواقعها من الكلام [3] .

وبدأ النظر في أحوال المعاني وما يعتبر في ذلك من جهتين الأولى ترجع إلى المعاني نفسها ، والثانية ترجع إلى ما يقترن بها ويتعلق . فمن الجهة الأولى ينظر إلى المعنى من حيث مادته وتأليفه ومقداره وهيئته ، ويعتبر فيه كونه ضرورياً أو متأكداً أو مستحسناً ويكون كمال المعنى باستيفاء أحوائه البسيطة والمركبة ، وبيّن المقصود من هذه التفصيلات .

المبالغة ونظر إلى المعاني من حيث صحتها وسلامتها من الاستحالة المؤدية إلى الإفراط في المبالغة فقال إن المقصود بالمدح أو الذم هو واجب أو ممكن أو ممتنع أو مستحيل « والوصف بالمستحيل أفحش ما يمكن أن يقع فيه جاهل أو غالط في هذه الصناعة » [4] وذكّر بتعريف الممتنع والمستحيل وأيد « العلماء بصناعة البلاغة » بأن ما أدى إلى الإحالة قبيح، ووصف الذين استحسنوها بعدم التحقيق ولكنه سمح بما يؤدي إلى الإحالة في مجال التهكم والزراية كقول الطرماح

ولو أن بُرغوثاً على ظهر قملةٍ يكرُّ على صَفَّيْ تَميمٍ لولّتِ[5]

ونبه على أن غلط الناس في هذا جاء من عدم تمييزهم بين ما لا يخرج عن حد

١) المنهاج ١٢ ٢) المنهاج ١٢٣ - ١٢٤ ٣) المنهاج ١٣
٤) المنهاج ١٣٣ ٥) المنهاج ١٣٤

الإمكان وبين الاستحالة . واستحسن قدامة المبالغة ووصفها في نعوت المعاني[1]، ونقل في العمدة (٢ : ١٣ فما بعد) أقوال علماء مختلفين في استحسان المبالغة واستهجانها .

فساد التقابل وبحث في صحة المعاني وما يقع له من الاستحالة بفساد التقابل فقال إن التقابل يقع من أربعة وجوه : الاضافة ، والتضاد ، وجهة القُنْية (الوجود) والعَدم ، وجهة السلب والايجاب ، فلا يصح أن يقال أعمى وبصير في جهة واحدة ولا . ماء بارد حار في وقت واحد . « فضروب التقابل الأربعة إنما يصح منها ما لم يتواف المتقابلان فيه مِنْ جهة واحدة ، ولكن يربط هذا بجهة وهذا بجهة » . وسوّغ ذلك بشروط تدفع اللبس وتصحح بترك التناقض جملة ، قال . ومما حمل على التناقض من أقاويل الشعراء قول عبد عبد الرحمن القس .

أرى هَجرها والقتل مثلين فاقصروا ملامَكُمُ ، فالقتل أعفى وأيسَرُ

ونقل في هذه الفقرة من قدامة (باب الاستحالة والتناقض)[2] ، وأخذ من شواهده ونقل من ابن سنان الخفاجي . وناقش قدامة في استحالة معنىً لأبي نواس ، ثم اقترح ألا يُضيّق الأمر على الشعراء الفحول وأن يُتَوَخّد معانهم كما أرادوا لثقوب أذهانهم وذكاء أفكارهم[3] وهذه فكرة طريفة ، استوحاها من حذقه باعتباره شاعراً

وتحدث عما يوضع من المعاني موضع غيره فقسم ذلك إلى طرق : فواجب وممكن ، وممتنع . وطرق الجد يجب فيها ألا يوضع الممتنع موضع الواجب ، وربما وضع موضع الجائز في المبالغة فحسب ، ويسمح به في الهزل حين يقصد التهكم. وبشكل عام لا يجوز أن يوضع الواجب أو الممكن موضع المستحيل في جد ولا في هزل ، ونقل عن الخفاجي ما يماثل رأيه ويعضده[4]

وتحدث عن بعض الأحوال التي تستعمل فيها معان شائعة لمعنى مخصوص في موضع معنى آخر مما يوقع « التدافع بين بعض المعاني وبعض » . فمن ذلك أن

١) نقد الشعر لقدامة ١٥ ـ فما بعد
٢) نقد الشعر ، ٢٣٢ ٣) المنهاج ١٤٣ ٤) المنهاج ١٤٦

تورد عبارة المديح حيث تريد وجه الذم ، ومثل بقول الفرزدق

بأي رشاءٍ يا جريرُ وماتحٍ تدلّيتَ من هامات تلك القماقم

فقال جرير . جعلتني أتدلى على قومك » (١) . ومن ذلك أن تأتي العبارة في صورة ما يضادّ الغَرَض ، كقول أحدهم في المهرجان .

لا تقل بُشرى ولكن بُشرَيَان غُرة الدّاعي ويومُ المِهرَجان

ولحص الأبواب التي تجر إلى ذلك « وقد تكون العبارة دلالة على أمر مكروه خارج عما جيء به للدلالة عليه إما باشـــتراك وقع في اللفظ ، أو بعُرف واستعمال حدث فيه ، ولو للعــامة ، فيجب أن يتجنب من ذلك حيث تتهيأ تلك العبارة . » (٢) . وبصح في المواضع المطلوب فيها التباعد عن الفحش بعـــدم استعمال أيّ لفظ أو عبارة توهم ذلك ومَثّـل بقول المتنبي

رواق العز فوقك مُسبَطِرٌ وملكُ عليٍّ ابنك في كَمال

قال « فلفظة مسبطر بعد قوله للمرأة فوقك، قبيحة »(٣) ومن تطبيقات ذلك أن الكلمة إذا شاعت لمعنى ، حَسُنَ ألا يعبّر استعمالها وإيجـــاء كلمة (قفا) في كلامهم مفارق أصل الوضع اللغــوي وختم الفقرة بأن الوضع المؤثر هو وضع الشيء في الموضع اللائق به بالتوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض وقد عقد قدامة فقرة نهى فيها عن « مخالفة العرف » (٤) ممـــا هو متصل بهذا الكلام

كمال المعاني ونقصها

والمقصود بالمعاني في هذه الفقرة المعـاني الجزئيـة في الفقرة ، أو البيت الواحد ، أو العبارة فالكمال في المعاني يـكون باستيفـاء أقسامها وانتظام العبارات جميع أركانها ، ولا يغفل عن قسم ، فــلا يتداخل بعض الأقسام في بعض . ومثّل للقسمة التامة بقول نصيب

فقال فريق القوم لا ، وفريقُهم نَعم ، وفريق أيمن الله ما ندري !

ومن المعاني التي وقعت قسمتها ناقصة قول جرير :

١) المنهاج ١٤٨ ٢) المنهاج ١٥
٣) المنهاج ١٥١ ٤) نقد الشعر ٢٤٤

صارت حبيعةُ أثلاثاً فثُلْثهمُ   من العَبيد ، وثلثٌ من مواليها

وقد عقد قدامة فصلين لصحة التقسيم (١٤٩) ، وفساد الاقسام : (٢٢٦) ونقل عنه ومن شواهده .

وأشار إلى أهمية وضع المعاني في مواضعها اللائقة [١] ، فإن ذلك يمكّن للمعاني ويبرزها ومثّل له بقول الفرزدق

وإنك إذ تهجو تميماً وتَرتشي   سرابيل قيس أو سحوق العمائم
كمهريق بالفَلاةِ وغرّه   سراب أذاعته رياح السّمائم

وانتقل إلى بيتَيْ المتنبي

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً   ووجهُك وضّاحٌ وثغرك باسمُ

وأورد نقدسيف الدولةفي تبديل طرفي البيتين ليحسن المعنى، واحتج للمتنبي فقال « إن أبا الطيب أراد أن يقرن بين أن الردى لا نجاة منه لواقف وبين أن الممدوح وقف ونجا منه . وبيّن أن الأبطال ريعت وانهزمت وأن سيف الدولة لم يُرَع ولم ينهزم . وانتسام الثغر وانبلاج الوجه مما يدل على عدم الروع » [٢] . فهذا تخريج جيد ، ناسبه حازم مع ما تصور من مقصد المتنبي ، وهو يجري مع طريقته في احترام « شعر الشعراء الكبار وفهمه كما أرادوا وقصدوا إليه»

وبحث في المعاني الاصيلة في باب المدح والذم [٣] ، ومهد لذلك بأن الإنسان يسعى إلى كمال بدن وصلاح نفس وينبغي أن يكون الإيثار لطلب صلاح النفس وكمال العقل ودخل إلى مذهب العرب من أنها تعتدّ في المدح الأفعال التي تتجشم الأنفس فيها الضرر لنفع غيرها ، وجعل تجشم الكرم إما واجباً فيكون نصَفَة وإما غير واجب فيكون نافلة وفضلا ، والثاني أروع للمدح وفرّق بين الذم الحقيقي والمدح الحقيقي ، وعكس ذلك ونقل عن قدامة — ذاكراً إياه — الفضائل الأربعة العقل والعدل والعفة والشجاعة ، وقال إن العرب عرفوا هذا قبله [٤] . ومثّل بقول زهير في المدح

---

١) المنهاج ١٥٨   ٢) المنهاج ١٦١   ٣) المنهاج ٥٢   ٤) نقد الشعر ٦٩

تراه اذا مـا جئتـه متهلـلاً   كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ونقل حازم أن الشعراء قد يُربون على هذه الفضائل بذكر المعرفة والحيـاء والبيان والسياسة ، والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة .. وغيرها من أقسام العقل ، والقناعة والطهارة.. من أقسام العفة ، والحماية والأخذ بالثأر .. من أقسام الشجاعة ، والسماحة والتبرّع من أقسام العدل واستخرج من تركيب الفضائل مع بعضها بعضاً ستة أقسام. وكل هذا وارد عند قدامة في بحثه المشار إليه آنفاً .

وعلق حازم بعد ذلك على قول قدامـة إن كل فضيلة وسط بين مذمومين فأيدها ومثّل لها . [1] ونصر حازم قدامة في أن المدح بالجمـال والذم بالقبيح ليس على الحقيقة ، وأوّل ذلك بأن تغيير الخلقة غير ممكن ، ولكن الطبـع ممكن التطبع فيعيّر المرء بما اكتسبه .

اختلاط طرائق المدح طلب حازم من الشاعر إذا قصد القول في المدح أن يلحق بالممدوح ما يليق به من الأوصاف والأقاويل وما يحسن تقريظه به من الفضائل فمدْح الخلفاء يكون بنصر الدين ، وإفاضة العـــدل وحسن السيرة والسياسة ، والعلم ، والحلم والتقى ، والورع .. الخ. وميزبين أصناف الممدوحين مثل مدح الامراء ، والوزراء ، والقضاة ، واستحسن في مدح الخلفاء الإفراط ، وورع الباقين في رتب [2] وهذا البحث عند قدامة ، قريب المأخذ مما هو عند حازم (نقد الشعر ٨٨ — ٩٧)

وضوح المعاني وغموضها

قال إن الدلالة على المعاني تقع في ثلاثة أضرب [3] . **دلالة ايضاح ، ودلالة إبهـــام ، ودلالة ايضاح وابهـــام معـــاً** وقال ان لكل واحـد من هـذه موضعـاً ، ويكون غموض المعـاني راجعـاً إلى المعاني نفسها ، أو الألفاظ ، أو إليهما معاً . فقد يكون في المعنى الإحالة على خبر أو مثل أو فيه كناية ولغز وقد يكون اللفظ حوشياً ، أو غريبـاً ، أو من المشترك ويقع في الغموض طول العبارة والتقديم والتأخير والاعتراضات

١) المنهاج ١٦٧   ٢) المنهاج ١٧٠ - ١٧١   ٣) المنهاج ١٧٢

وما شابه والمطلوب أن يكون الشاعر قاصداً للوضوح أو قاصداً للغموض ولا يخلط بين الحالين ، ودلّه على طرق اجتناب مساوىء ذلك [1] .

ثم أفاض في فقرة تالية فيما ألمّح اليه هنا ، وجعلها لطرق إزالة الغموض والاشكال اللذين يعرضان في المعاني فهناك معان يُقصد بها البيان (الوضوح) ومعان نقصد بها الغموض، وأخرى متوسطة بينهما وجاء بصفات المعاني المقصود بيانها [2] كأن يكون المعنى دقيقاً في نفسه ، وأن يناسب المعنى الغرض ، وتستوفى أقسام المعنى ، ويحسن ترتيبها ، وألا ينحرف المعنى عن قصده .

الضرائر

فرّع حازم مما سبق شيئاً يخص الضرائر فبعض اللغويين والنقاد يبنون أحكام الضرائر على فرائد أبيات وشطحات شعراء في حين « يجب ألا يقبل من الضرائر إلا ما وجد فيما اجتمعت عليه الروايات الصحيحة من كلام علية الفصحاء منهم ، مما تحقق براعته انتسابه اليهم كقصائد امرىء القيس والنابغة وزهير ومن جرى مجراهم » [3] وناقش بعض الأبيات التي حملوها على القلب [4] وناقش فيما يخص اللفظ كونه حوشياً أو غريباً فطلب اجتناب ذلك [5] وعالج المشترك بإيراد القرائن وطلب ألا يترك لفظ يوقع وهماً كقول أحدهم [6]

لَمْ يَمالوا مثل الذي نِلْتُ منهم وسواءٌ ما نلتُ منهم ونالوا

يريد لمي ترخيما لاسم لمياء ، ونقله عن خبر للأصمعي [7] .

وطلب اجتناب مثل قول الفرزدق

وما مثلُه في الناس إلاّ مملكاً أبو أمّه حيّ أبوهُ يُقاربه

الالفاظ والمعاني المتعلقة بالصناعات

قسم المعاني إلى ما يحتاج إلى مقدمة لفهمه، وما لا يحتاج فالثانية هي المعاني الجمهورية (الشائعة) يعرفها العام والخاص ، والأول التي يحتاج فى فهمها الى مقدمة ضربان

١) المنهاج ١٧٦ ٢) المنهاج ١٧٧ ٣) المنهاج ١٨ - ١٨١
٤) المنهاج ١٨٣ - ١٨٤ ٥) المنهاج ١٨٥ ٦) المنهاج ١٨٦
٧) ورد فى المنهاج « لم ينالوا » كأنها تحاكي طريقة النطق الذي يوقع اللبس

١) واحد يتوقف فهمه على معاني صنعة ما .

٢) وآخر يتوقف فهمه على معرفة قصّة ما . وما تعلق فهمه بمعاني صنعة ما قبيح في الشعر يحسُن تركه . والمعاني المتوقفة على قصة مشهورة لا بأس بها دون القصة المجهولة . وطلب الاكثار من المعاني التي لا تتعلق بصنائع أهل المهن، ولا بقصص مجهولة ، لأنها اذا تعلقت بذلك نزلت منزلة اللفظ الحوشي الذي لا يفهمه إلا القلة من الادباء [١] ، ويحسن الاعتماد دائماً على المشهور وانتقد الإكثار من المعاني المتعلقة بالصنائع كالنحو وعلم الكلام والأخبار الدقيقة كما يفعل أبو تمام والمعري ومثّل بقول الطائي .

مَودّةٌ ذهبٌ ، أثمارها شَبَهٌ وهِمّةٌ جوهرٌ ، معروفها عَرَضُ

شيء في السرقات

نظر حازم المعاني من حيث هي قديمة متداوله أو جديدة مخترعة [٢] ، فقال إن المعاني إن المعاني إما متصورة في كل فكرة (معروفة) أو في بعض الخواطر دون بعض (يعرفها الخاصة) أولاً إرتسام لها في خاطر . وهذه الأخيرة هي مجال اختراع الشعراء وموضع براعتهم وإبداعهم ، وبَصَح بهذا القسم لكمال الشاعرية فأما القسم الاول فلا سرقة فيه [٢] وأما القسم الثاني وُيتسامح فيه بشرط كأن يركّب معنى على معنى آخر ، أو يزيد فيه زيادة حسنة ، أو يقلبه (يعكسه) ، أو يركب عليه عبارة أحسن من الأولى . والقسم الثالث فيه الإبداع ، ويسمونه . المعاني العقم [٣] — وطلب ألا يتعرض الشاعر لمعنى فائق سبق إليه حتى لا يسقط — وقال وأما من نقل المعنى النادر من غير زيادة فذلك من أقبح السرقات ، لأنه تعرض لسرقة ما لايخفى على أحد أنه سرقة » — [٤] وهذا موقف سبق مثله عند كثير كابن بسام والزبيدي وابن شهيد وغيرهم — واستدرك على ذلك التسامح بأن يأخذ الشاعر المعنى فيكسوه لفظاً أحسن ، فيكون بذلك مشاركاً الأول ، وأن يزيد في المعنى فيستحقه دون الأول .

---

١) المنهاج ١٨٨ - ١٨٩ ٢) المنهاج ١٩٣ ٣) المنهاج ١٩٥ .
٤) المنهاج ١٩٣

القسم الثاني : وهو في (النظم) :

كيف يكون ملائماً للنفس أو منافراً ، وما يتعلق بذلك من قوانين البلاغة

تحدث في المنهج الاول [1] عن قواعد الصناعة النظمية التي تقوم عليها مباني النظم، التي تؤدي إلى أحسن ما يرجى من الشعر . وقرر أن النظم صناعة آلتها الطبع ، وأن النفود في مقاصد النظم يحتاج إلى قوى فكرية ، وهي عشر [2] القوة على التشبيه ، والقوة على تصور كليات الشعر .. ، والقوة على تصور صورة القصيدة تكون بها أحسن ما يمكن ، والقوة على تخيل المعاني ، والقوة على ملاحظة وجود تناسب المعاني ، وقوة التهدي إلى العبارات الحسنة ، والقوة على جعل العبارات مترتبة ، والقوة على الالتفات من حيز إلى حيز ، والقوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض ، والقوة المائزة حسن الكلام من قبيحه [3] وجعل الشعراء بالنظر الى شاعريتهم ثلاث طبقات تذكر بما نقله ابن رشيق وسبقت الإشارة اليه ، وقسم الطبقة الأولى ثلاث فئات على طريقته في التقسيم .

وتحدث عن كيفية تأتي الشاعر للمعاني وأخذه لها وطلب الالتزام بوصاة أبي تمام لتلميذه البحتري وأوردها كاملة - وكان ابن رشيق قد أثبتها أيضاً في العمدة - ووصل تلك الوصية بجملة أمور مفصلاً كاملاً ، فتحدث عن استحضار المعاني في الذهن وتقسيم المعاني والعبارات على الفصول ، ثم نظم تلك المعاني شعراً بنسق وتسلسل

الاوزان الشعرية .

ودخل في الاوزان الشعرية فقال إن عروض الشعر إما طويل أو متوسط أو قصير ، وإن الأغراض الشعرية لها علاقة في التلاؤم مع الأوزان فالأعاريض الفخمة تصلح لمقاصد الجد كالفخر ، والمقاصد التي يقصد فيها إظهار الشجو والاكتئاب تليق بها الأعاريض التي فيها حنان ورقة [4] ونظر إلى ما يصنعه الشعراء في المطالع وما يجب في القوافي فوجدهم على ثلاثة مذاهب المعتنون بالمبادىء فيجعل الشاعر مبدأ كلامه دالاً على مقصده ، والمذهب الثاني من آثر بنية الروي على ما تكاثر من المقاطع وافتتح بعمدة غرضه والمذهب الثالث ترجيح القوافي حيث نقل المقاطع وترجيح المبدأ فيما توسطت مقاطعه

١) المنهاج ١٩٥ ٢) المنهاج ٢ ٣) المنهاج ٢٠١ - ٢ ٤) المنهاج ٢٠٥

وقال إن للشعراء في طريقة العبارة عن المعاني وتطبيقها وتفصيلها على الأوزان ثلاث مراتب الأولى مرتبة الملاءمة [١] وأرجع التقصير في ذلك إلى ثمان نقاط أربع منها للشاعر كلال الخاطر، وانشغاله، وسهوه، وتكلفه المعنى البعيد. وأربع للشعر أن يكون قدر الوزن أكبر من المعنى، أو عكسه، أو دقة المعنى، أو ندرته وقلته. والمرتبة الثانية من لا يستطيع ذلك على البديهة إلا قليلاً، والثالثة مرحلة أدنى ثم بحث في اختلاف قدرة الناس على سرعة النظم والعوامل التي تتدخل في ذلك وبحث ولم يطل في موضوع المرَوّى والمرتجل، فقال إن الارتجال لا يكون دائماً على حال واحدة من إيضاح المعاني وقسم طبقاته [٢] فالكلام. مستقصى المعنى مقترن بين أجزاء معانيه، ومستقصى غير مقترن، ومقترن غير مستقصى، وخال من الطرفين [٢]. وقاس المُرَوّى على المُرْتَجَل فاستحسن المُرَوّى وبخاصة حسنه الأول لأنه العريق في الروية. واشترط لِحُسن الشعر المروى أن يكون فيه الاستحداد والتأنق. فلا يسرق، ويبلغ أقصى درجات الابداع

وتحدث في « طرق المعرفة بكيفية التصرف في مقاصد الشعر وجهاته[٣] ». وجهات الأقاويل الشعرية هي ما يكون الكلام منوطاً به من الأشياء المقصود وصفها أو الإخبار عنها. وهي على نوعين ضرب يقع في الكلام مقصوداً لنفسه، وضرب ليس له بالغرض علقة، وإنما تتعلق ببعض الجهات المتعلقة بالغرض فهو تابع له. وقال إن تفاوت الشعراء في الضرب الثاني أوضح لأن الضرب الأول ممكن الحصر. وبيّن اختلاف الشعراء في قدرتهم على معالجة الموضوعات، وإجادة بعضهم شيئاً دون آخر. فمن استطاعوا النفوذ في مجال التقاط المعاني الدقيقة وتحديدها ابن الرومي. ومنه قوله في صفة من شعرها أسود.

أكْسَبَها الحبَّ أنها صبغت ... صِبغة حبِّ القلوب والحَدَق

وبيّن أثر القوى المتخيلة والشاعرة في حسن التصرف في الأمور الثواني. وقال بعد ذلك إن من الشعراء من يحسن القول في جهة واحدة دون قدرته على أن يأخذ في جهة أخرى بلطف المآخذ، ومنهم القادر على ذلك. واستبان

١) المنهاج ، ٢٠٨ ٢) المنهاج ، ١٢٣ ٣) المنهاج ٢١٦

ما يميل إليه بعض الشعراء من الميل إلى ناحية من نواحي القول : « فمنهم من تشتد عنايته بالأوصاف كالبحتري ، وبالتشبيه كابن المعتز ، وبالأمثال كالمتنبي ، وبالتواريخ كابن دراج القسطلي . ومنهم مَنْ يتوفر قسطه من جميع ذلك كأبي تمام ، وإن كان غيره أشف منه في التشبيه والحكم »[1] .

وفصّل في الأنحاء المستحسنة في الكلام وهي . الأوصاف والتشبيهات والحكم والتواريخ – التي يشذ أن يستحسن غيرها – وأورد صفاتها[2] وختم المنهج الأول بكيفية تحسين هيئات العبارات والتأنق في اختيار موادها[3] باختيار المواد اللفظية الجيدة واجتناب القبيحة ، وبحسن تأليف الكلام ، وتلاؤمه مع بعضه بعضاً باجتناب التفاوت ، وبترك التكلف بالتطويل أو التكرار أو التقديم والتأخير ويُحَسّنُ العبارة . حسن الوضع اللفظي بأن يؤاخي بين الكلام ، وألا يزاد على الحاجة من كل ما يُستحسن .

٢ – المنهج الثاني . وجعله لأنماط الأوزان ، وكيفيات مباني الكلام والقوافي وما يتعلق بكل ذلك . فبحث في العروض والأوزان الشعرية ليكون في ذلك فائدة لبحثه عن الشعر ولبيان ملاءمة كل وزن لكل معنى . وبدأ بهجوم على العروضيين – كأن ذلك لاستقلال العروضيين بفنهم عن النقاد والبلاغيين – وقسم أصناف الأجزاء الوزنية إلى خماسية وسباعية وتُساعية ، قال . « وإن لم يُسَلّم العروضيون ! وليس يجب أن يُلتفت إلى تسليمهم ذلك ولا منازعتهم ، فإنهم فقراء إلى أن يقتبسوا تصحيح أصول صناعتهم من هذه الصناعة – يعني النقد والبلاغة – فإن معرفة صناعتهم موقوفة على معرفة جهات التناسب في تأليف بعض المسموعات إلى بعض ووضع بعضها تالية أو موازية لها في الرتبة[4] » .

وعلل ذلك بأن التناسب في المسموعات والمفهومات لا يكفي لفهمها علم اللسان ولا بد من العلم الكلّي – علم البلاغة – ويشمل عنده النقد – وقسم الأوزان إلى خماسية ، وسباعية ، وتساعية . وقال إن منها أيضاً ما يتركب من . خماسية وسباعية ، وسباعية وتساعية ، وخماسية وسباعية وتساعية . فمن

---

١) المنهاج ٢١٩ ٢) المنهاج ٢٢٠ – ٢٢١

٣) المنهاج ٢٢٢ ٤) المنهاج ٢٢٦

الخماسية السادحة : المتقارب فهو مبني على فعولن ٤ مرات في كل شطر . وما تركب من السباعية السادحة. الرجز وبناء شطره مستفعلن ٣ مرات.والكامل وبنـــاء شطره متفاعلن ٣ مرات والوافر فأصل بناء شطره مفاعلن ٣ مرات إلا أن الثالثة في كل شطر صارت فعولن لحذف السبب . . . (١) .

وميز في الاوزان بين ملائمة خفيفة وبين متنافرة ثقيلة من أسباب الثقـل وقوع الأسباب الثقيلة والأوتاد المفروقة في نهايات الأجزاء التي ينبغي أن تكون مواطن ارتياح ومقاطع أنفاس، فلا تلائم النفس (٢) . وجـــاء بأمثلة أخرجَ العروضيين بعدها من الذوق،وأن الصناعة المحض شغلتهم عن فهم دقائق الأوزان « إذ كانوا جهـــالاً بطرق التناسب والتنافر ». ثم وضع اليد على وجه ما يريـد « ينبغي لمن طمحت همتـه إلى مرقـــاة البلاغة المقصودة بالأصـول المنطقية والحكمية ولم تسفف به إلى حضيض صناعات اللسان الجزئية المبنية أكثر آرائها على شفا جرف هار ألا يعتقد في وزن من الأوزان أنــه مفتقر في وضعه إلى أن يعلم من نظام آخر بل إنما يستنبط الوزن باستقصاء ضروب تركيبات الأسباب والأوتاد ... » (٣) . فصرح بما كان يستطاع تقديره من أنه أفاد من علوم المنطق — وقد أفاد من علوم الموسيقى أيضاً كما كان سوف يصرح — ولم يقبل بمقايسات العروضيين وتفريعاتهم النظرية ، فهو شاعر ، ذواقة ، أحال الحـكم النقدي إلى تجربته ، وتذوقه إلى خبرته المنطقية فوجد البون بينه وبينهم لا يقاس .

وأتم حازم أمثلته الشعرية ممثلاً لاقسام الاوزان محتكماً إلى ذوقه، ومقاييسه فيما يلائم وما لا يلائم ، مستنداً إلى « صناعة الموسيقى » (٤). وفي بحر المقتضب ناقش العروضيين في أحد الشواهد وقال إنهم أوردوا « فعولات» بدل «فاعلات» فيه ، على حين أنه « قد وضع في صناعة الموسيقى أن فعولات مضاد لفاعلات كما أن فعولن مضاد لفاعلن . وبيتُهم .

أتَانا مُبَشِّرُنا بالبَيانِ والنُّذُر

في حين أن روايته ، وكذا يجب أن تكون

١) المنهاج ٢٢٧ — ٢٢٨ ٢) المنهاج ٢٣٠.

٣) المنهاج . ٢٣١ — ٢٣٢ ٤) المنهاج ٢٣٤

جاءنا مُتَشَوِّرًا بالبيان والنُّذُر

ومن ذلك انتقاده العروضيين حين جعلوا المجتث ضرباً ثالثاً من البسيط وقدروا شطر الضَّرب منه .

★ مستفعلن فاعلن مستفعلان ★

« ومقاييس البلاغة تقتضي أن يكون تقديره

★ مستفعلن فاعلاتن فاعلان ★

لوجوه يطول ذكرها . » [1] . وأهم الأسباب التي أوردها أن العرب لم تضاعف جزءاً سباعياً في ما يلي نهايات الأشطار لاستثقال ذلك [1] ونبه إلى أن الوزن المتركب من سباعي وتساعي هو من وضع متأخري المشارقة وهو الدوبيت وشطره المستعمل :

★ مستفعلن مستفعلن مفتعلن ★ [2]

ثم قال إن أوزان العرب الأصلية هي أربعة عشر وزناً ، ويشك في أن العرب وضعت الخبب ، والدّوبيت وضع محدث . وأقام الدنيا على رأس وزن (المضارع) قال : « مما أرى أن شيئاً من الاختلاق على العرب أحق بالتكذيب والرد منه ؛ لأن طباع العرب كانت أفضل من أن يكون هذا الوزن من نتاجها » [3] .

وبحث في تركيبات الأوزان وما وقع منها متلائماً [4] فقال إن ورود أنواع الأشياء مترتبة منظمة متلائمة متشاكلة أدعى لتعجيب النفس وإيلاعها بالاستمتاع ومن هنا كان الولع بالأوزان الشعرية ، ويزيد ذلك كلما زيد في دقتها وإحكامها وحسن ذلك . ومثّل بأجزاء الأوزان وقايس بين أنواع التفعيلات . فمنها ما يتصارع مثل فعولن مفاعيلن ، ومنها ما يتضاد مثل مفاعلتن متفاعلن ، ومنها ما يتنافر مثل متفاعلن مفاعيلن . والتراكيب المتناسبة مثل الشطرين الأولين . وعلل بناء البيت على شطرين وسبب تسميته بالبيت ، وقابل بين بيت

1) المنهاج ٢٣٧ وانظر في موضوع بحر المجتث كتاب « المعيار في أوزان الأشعار لأبي بكر الشنتريني الأندلسي – تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية – دار الأنوار – صفحة ٧٨ » . 2) المنهاج ٢٤١

3) المنهاج ٢٤٣ وانظر بحر المضارع في المعيار ص ٧٥ وأصل وزن المضارع مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن . واستعمل مجزوءه العروض والضرب مفاعيل فاعلاتن

4) المنهاج . ٢٤٥ .

الشعر وبيت السكن من حيث ما اصطلح لها ومن حيث أثرهما في النفس (١) ووازن بينهما من حيث الأقسام من أوتاد وأسباب وفواصل وعهود. وتحدث عن اجتماع تلك الأجزاء في الوزن الشعري وافتراقها وتباينها واتفاقها . وشبه اتصال المنزل المكاني باتصال البيت الشعري الزماني بوجه من المقايسة لطيف مما يؤول إلى أسباب منطقية فلسفية (٢) . وختم تفصيلاته العروضية بعبارة تشابه ما بدأه « فهذا الذي قلته في مجاري الأوزان وأنحاء تركيباتها وما يسوغ فيها هو الرأي الصحيح الذي تعضده الآراء البلاغية والقوانين الموسيقية ويشهد به الذوق الصحيح والسماع الشائع عن فصحاء العرب » (٣) . وأزرى بما وضعه العروضيون وما جاء به الرواة من الأوزان المصمعلة التي لا نظير لها في الأشعار الفصيحة وأشار إلى كتاب له في العروض استقصى فيه وإن كتاب (منهاج البلغاء) هذا بحاجة إلى عرضه على كتب العروضيين ومَنْ كَتَبَ في الموسيقى تأليفاً أو ترجمته لرمانه لتبيُّن الجَديد من رأي حازم ، وموقفه من العروضيين والرواة بعامة ، وهو لاشك ذو موقف متمرد ، ويستحق بحثاً مستقلاً

وتحدث عن مقادير تناسب الاوزان وما يطرأ عليها من تغيير والسائغ من ذلك وما هو غير سائغ (٤) وقال تكون الأوزان متناسبة تامة التناسب ، متركبة التناسب ، متقابلة التناسب ، متضاعفة التناسب ، وبالقياس إلى تركبها من حركات وسكنات هي أوزان سبطة وجعدة ولينة وشديدة ومنها ما هو قوي وما هو ضعيف ، وفصل القول فيها وفي ترتيباتها

وبحث في التغييرات اللاحقة بالأوزان من زيادة ونقص (٥) ، وبين أنواع النقص من خرم وغيره . وجعل الزيادة إما في القوافي وإما في الأعاريض . ونفى وجود الخرم في الأوزان، وألحق الزيادات التي يضعونها في مستهل الأبيات أحياناً بما هو خارج عن العروض وقال إنهم لم يعدوها في الوزن عندما زادوها للتنبيه ، وقال في العمدة إن الخليل أنكر الخرم (٦)

وتحدث عما يستحسن وما يستقبح من أنواع ذلك ومقاييسه في ذلك « أن

١) المنهاج ٢٥ ٢) المنهاج ٢٥٥ . ٣) المنهاج ٢٥٨
٤) المنهاج . ٢٥٩ ٥) المنهاج ٢٦٠ ٦) العمدة ، ١ ، ٩١

يؤثر من ذلك أن توحد الأوزان حارية من جميع ذلك على ما يحسن في السمع ويلائم الفطرة السليمة الذوق ، ويوحد مع ذلك كثيراً مطرداً في أشعار فصحاء العرب » [١] .

وانتقل إلى مسألة بناء الأشعار على أوفق الاوزان لها [٢] ، فأعراض الشعر شتى والأوزان شتى فمص الأعراض يميل إلى الجد والرصانة ومصها إلى الهزل والرّشاقة . ومىها ما هو إلى البهاء والتفخيم أو الصّغار والتحقير .ولهذا « وجب أن تحاكي تلك المقاصد عا يناسبها من الأوزان وتخيلها للنفوس » [٣] فالفخر تناسبه الأوزان الفخمة الرصينة ، والهزل والاستخفاف تناسبه الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك كل مقصد . . وصرح بأخذ الفكرة عن ابن سينا (وهي في ترجمة د بدوي ١٦٣) وألحق الفكرة النظرية عما وجده من استقراء فإن الكلام واقع على البحور بمثل الهيئة التي اقترحها من تطلّب المناسبة . وجاء بمثال أوضح . فإن الشاعر القوي المتين الكلام إذا صنع شعراً على البحر الوافر اعتدل كلامه دون سائر البحور،والمعري يُجيد في هذا البحر فإذا سلك في الطويل تَوَعّر في كثير من نظمه حتى يتمعّص [٤]

وبحث في القوافي ووضع القافية في البيت ، فقال إنه ينظر إليها من أربع جهات جهة التمكن ، وصحة الوضع ، ، وكونها تامة وغير تامة ، واعتناء النفس بها [٥].وطلب أن يلتزم في القافية حرف الروي دائماً ويتحاشى من عيوبها واستحسن في القوافي المقيدة أن تسبق بفتحة دائمًا أو ضمة أو كسرة فلا بأس ، مستفيداً في حكمه من استقرائه شعر الجاهليين والإسلاميين ، وأن يلتزم قبل الضمائر والكافات حرف آخر ، ونبه على أهمية كلمة القافية وعاب مثل قول الصاحب في عضد الدولة .

ضمنتَ على أبناءِ تغلبَ تاءَها فتغلبُ ما كَرّ الجديد أن تغلبُ

فقد قال عضد الدولة بعد ذلك ، يَقي الله ! لأن القافية كانت « تُغلبُ » فساء موقعُها وأنكر التّعمية في موضع القافية بوقوع التضمين [٥]

ونظر أيضاً في « تأصيل القافية ، وبناء ما قبلها عليها ، وبنائها على ما

---

١) المنهاج ٢٦٤ ٢) المنهاج ٢٦٥ ٣) المنهاج ٢٦٦
٤) المنهاج ٢٦٩ ٥) صفحة ٢٧١ من المنهاج .

قبلها » وحمل ذلك في قسمين : أن يبني الشاعر البيت على القافية أو القافية على البيت [١] وكلاهما : قد يعتمد فيه المناظر . مع المعـاني أو لا يعتمد . فمن اعتمد التقابل وصدور أبياته مبنية على القوافي تأتّى له حسن النظم . ومن اعتمد التقابل وقوافيه مبنية على الصدور فهو يوسع على نفسه في الصدور يضيّق عليها في القافية ، ومن هنا يقـــع التكلف في القوافي الذي يجتنبه المحسنون ، والإجادة فيه صعبة جداً [٢] . وقال إنه قد يبني على القافية جميع البيت ، وتارة شطره أو معظمه ، ثم تسد الثلمة . ومن بنى آخر الكلام على أوله عرض له العكس فجـاء بالكلام ثم تطلب القافية ، والمذهب المختار عنده هو بناء البيت كله على القافية ، وقد عرض قدامة لموضوع القافية بائتلافها مع المعنى في موضعين موضع النعت [٣] وموضع ذكر العيوب [٤] . وأفاد منه حازم ، ولكن قدامة أوجز وأقلّ في حين وسع حازم و َقعّد و َفصّل

المنهج الثالث « في الإبانة عما يجب في تقدير الفصول وترتيبها ، ووصــل بعضها ببعض وتحسين هيئاتها [٥] وما يتعلق من جميع بأحوال النظم » فبحث في مباني الفصول كيفية جعلها حسنة ملائمـة ، وهو يَعني بالفصول الفِقر أو الموضوعات الجزئية التي تكوّن الموضوع الكبير أو الأصلي « فالفصول المؤلفة من الأبيات هي نظائر الكلم المؤلفة من الحروف ، والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ . وقال إنه ينظر إلى الفصول مـن وجهين . فهي ُتعتبر في أنفسها وما يتعلق بهيأتها ووضعها ، وهي أيضاً ُتعتبر بحسب الجهات التي تضمنت الفصول الأوصاف المتعلقة بها وأخضع الفصول من حيث ذواتها ، ومن حيث ما يجب في وضعها ، وترتيب بعض الكلام مع بعض إلى أربعة قوانين . الاول في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها والثاني في ترتيب الفصول والموالاة بين بعضها وبعض . والثالث في ترتيب ما يقع في الفصول . والرابع في ما يجب أن يقدم في الفصول وما يجب أو يؤخر ويختم به .

١ ـــ فنصح باستجادة مواد الفصول متناسبة حسنة غير متخاذلة النسج مناسبة للغرض

١) المنهاج ٢٧٨ ٢) المنهاج ٢٧٩ ٣) نقد الشعر ١٩
٤) نقد الشعر ٢١٤ ٥) المنهاج ٢٨٧ .

٢ — وأن ترتب الفصول فيقدم ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود
٣ — وأن تكون الأبيات في الفصل نفسه مرتبة متسلسلة وأن يجعل المعنى الشريف في الفصل متعلقاً بالمعنى المناسب، وبعضهم يختم به الفصل، ومن المجيدين في هذا الباب المتنبي (١) . ويصح أن يكون في رأس الفصل ما يُشعر بذلك .
٤ — ويختار الفصول عنده فيما اتصلت فيه العبارة والغرض : أن يتعلق أول الفصل بآخر الفصل السابق · علقة من جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة . وخيرها على الإطلاق أن يتصل المعنى وينفصل اللفظ (٢) .

وحازم في فكرة النظم واحد من عديد من الباحثين عالج أمرها . فقد أسلفت أن المتكلمين شغلوا بهذا الموضوع وسبق المعتزلة إلى بيان وجوه النظم المختلفة ، وهم أهل الفصاحة والبيان ولا أريد أن أحكم بشيء عن الأثر اليوناني في دراسات المعتزلة فذلك له مجال آخر . ولكن الظاهر أن حازماً تأثر في قوله بالنظم وتفصيله فيه بأرسطو خاصة،لأن كتابه مبني أساساً على قواعد منطقية .

ويرى الدكتور شكري عياد أن العرب لم يفهموا نظرية وحدة العمل الفني عند أرسطو، وأن عبد القاهر نظر إلى شيء آخر وقال إن حازماً استطاع أن يفهم أكثر من أي باحث عربي آخر فكرة أرسطو وطبقها خاصة على الشعراء المحدثين كالمتنبي ، ولم تكن عنده وحدة تكامل بل وحدة تسلسل (٣)

والوجه هنا أن حازماً لم يبدل في نظام القصيدة العربية بل أخذها على أن فيها عدة موضوعات ، فكان جهده العناية بكل فقرة من القصيدة ، والعناية بحسن الانتقال الملائم للنفس بين أجزائها فحازم اجتهد في وضع قوانين لأحكام الكلام عبارة عبارة وجملة جملة ، ثم التفت إلى وضع قوانين لأحكام الفقرات بحيث وحدة متكاملة ، وعالج القصائد كما هي بين يديه في الواقع وفي التراث فهناك قصائد بسيطة (ذات غرض واحد) وقصائد مركبة، كما يظهر مما أعْرِضُ لكتاب المنهاج .

وتحدث عن الفصول من جهة اشتمالها على المعاني (٤) ومن جهة مقاصدة

---

١) المنهاج ٢٨٩ ٢) المنهاج ٢٩١
٣) أرسطو (الدكتور شكري عياد) ٢٧٤ — ٢٧٦ ٤) المنهاج ٢٩٢

التخييل فيها بالاقناع . فقال إن مِنَ الشعراء مَنْ يستطيع أن يصف فيبلغ الغاية ويبالغ فيوهم السامع أكثر من الحقيقة في حين يقصر آخرون، وفيهم من يخل بالمعاني بزيادة أو نقص. وفيهم من يقتصر على المعاني المخيلة ولا يعرج على الإقناعية ومنهم من يعكس ذلك ، وطلب الاعتدال لترويح النفس كفعل أبي الطيب .

وعاد إلى موضوع الكذب في الشعر فسمح به في الممكنات دون المُستحيلات واستحسن استقصاء المعاني في الجهات التي معانيها — مع شرفها — قليلة . ونبه على أن اعتماد الشاعر يكون على معانٍ كلية مفهوماتها حسية أو نوعية، أو معان جزئية مفهوماتها شخصية أو يمزج بين الطريقين ، وهذا عنده المطلوب .

وابتدع اسمين لنوعين بلاغيين وضعهما ابتداء بحثه في موضوع الفُصول هذا، أولهما سماه التسويم[1] وهو أنه لمّا قسم الشعراء قصائدهم إلى فصول ليستجمّ القارىء والسامع ، واعتنوا باستفتاحات الفصول وصدورها بما يلائم وينبه ، ولما كان لفواتح الفصول في نظره تلك الأهمية سَمّى الإجادة في ذلك التسويم وممّن أحسن في الباب المتنبي . فبدأ قصيدة له

أغالبُ فيكَ الشّوقَ والشّوقُ أغلبُ
وأعجبُ مِن ذا الهَجْرِ والوصلُ أعْجَبُ

ففي البيت تعجيب ، وهو فَصْلٌ برأسه ، ثم إنه أتم معنى الفصل الأول بقوله يذكر لجاج الأيام

فللّه سَيْري ما أقلّ تئيّةً عَشيةَ شرقيّ الحدالى وغُرّبُ

وجاء حازم بعدة رؤوس فُصولٍ مما يطابق عنده معنى (التسويم) في اصطلاحه .

والاسم الثاني الذي اخترعه : التحجيل[2] قال « وإذا ذيلت أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية ، واتضحت شيات المعاني بهذه الصفة على أعقابها ، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل — زادت الفصول بذلك بهاءً وحسناً ووقعت في النفوس أحسن موقع » . ومدح هذا الفن بأنه فن من صناعة النظم شريف جداً ، واشترط له أن يكون اللفظ والتركيب فيه سهلاً جزلاً ،

(1) المنهاج ٢٩٥ (2) المنهاج ٣٠٠ .

وتكون قافيته متمكنة . وقال إن زهيراً اشتهر بهذا النوع وجاء من المحدثين المتنبي فبرز فيه وجلى . واحترس لهذا النوع بألا يُكْثَرَ منه حتى لا يُبتذل .

٤ — المنهج الرابع : وهو في « كيفية العمل في إحكام مباني القصائد وتحسين هيئاتها » (٣) فوجد القصائد ثلاثة أنواع مطولة ومتوسطة ومقصورة . وهي بسيطة الأغراض ومركبتها . فالبسيطة ما اقتصرت على نوع واحد كالمدح والنسيب .. والمركبة ما اشتملت على أكثر من واحد . ولم يعالج موضوع الابتداء بالنسيب في القصائد بل أخذه مسلماً به ووصف أقسام ذلك . وطلب من الشاعر إن ذكر ما يشجيه مع محبوبه أن يعقبه بما يسرّه لتتم المقابلة وتتدارك النفوس شجاها . واستحسن التحيّل في النقلة وأن يحسن « عطف أعنة الكلام إلى المديح » (٤) .

وفي المديح يصدر بذكر فضائل الممدوح ويتلى بتعديد مواطن بأسه وكرمه .. ويختم بالتيمن للممدوح والدعاء له ، ولاحظ أن المحدَثين أبرع في ذلك التعطف من القدماء . وطلب في القصائد البسيطة أن يحسن الافتتاح ويكون مناسباً لموضوع المدح ولا بأس البدء بالنداء أو المخاطبة أو الاستفهام مما يثير التعجيب والتهويل . أما وصف الحروب فتكون العبارة فيها فخمة والأوصاف مهولة . وأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعانٍ سارة فيما قصد به التهاني والمديح وبمعانٍ مؤسية فيما قصد به التعازي والرثاء وركز الانتباه على حسن المبدأ ، وحسن التخلص .

الابداع في الاستهلال . نبه على أهمية هذا الباب لأنه الطليعة الدالة على ما بعدها (١) ، وتؤثر في النفس مباشرة . وقال إنه يجب أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم فالفخر وجه غير وجه النسيب أو المدح . وأحسن المبادىء عنده ما تناصر فيه حُسْنُ المصراعين ، وحُسن البيت الثاني ، وأكثر من أجاد في هذا المحدثون لأن القدماء لم يهتموا فيما بعد البيت الأول والمرتبة الثانية أن يحسن المصراعان دون البيت الثاني ، والمرتبة الثالثة أن يحسن المصراع الأول فقط ، ومثل هذا كثير . وجاء بأمثلة لحسن المطالع ومما اختاره لابن دراج

١) المنهاج ٣٠٣ ٢) المنهاج ٣٠٥ . ٣) المنهاج ٣٠٩

أهلّ بالسين فابهلّت مدامعهُ
وآنس الفقر فاستكّت مسامعهُ [1]

وبراعة الاستهلال أو حسن المطالع فنّ متداول قديم .

أنحاء التخلصات تحدث عن وجه « التخلص من حيز إلى حيز وعطف أعنّة الكلام من جهة إلى جهة » فقال إن الشاعر بانتقاله إما قاصد في انتقاله أن يكون الكلام الأول سبباً للثاني أو غير قاصد . ففي الناحية الثانية يكون (الالتفات) أما القسم الأول فقسمان واحد فيه التفات وواحد خلوٌ منه .
وعرّف الصورة الالتفاتية بأنها « هي أن تجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض وأن ينعطف من أحدهما إلى الآخر على جهة من التحوّل » والانعطاف غير الالتفاتي يكون بواسطة بين المنعطف والمنعطف منه . وجعل الالتفات ثلاثة أصناف فيما يعني به أهل البديع — وأصنافه عنده كثير —
١ — ما أوهم ظاهره أنه كريه وهو مستحسن مثل :

إن الثمانين — وبُلّغتها — قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

٢ — أن يلتفت الشاعر عند ذكر شيء إلى ماله في نفسه من غرض جميل أو غير ذلك ، فيصرف الكلام إلى جهة ذلك الغرض نحو قول جرير .

طرب الحمام بذي الأراك فهاجني لا زلت في غلل وأيكٍ ناضر

٣ — أن يلتفت إلى نقص خفي داخلي في مقصد كلامه أو يخشى تطرق النقص إليه مثل .

فسقى ديارك — غيرَ مفسدها — صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

ونقل عن أهل البديع أنهم يسمون ما كان الخروج فيه بتدرج تخلصاً ، وما كان بانعطاف طارىء كالالتفات استطراداً مثل قول حسّان

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام [2]

وهذا إيضاح لعبارة ابن رشيق في العمدة في باب الاستطراد [3] .

---

١) المنهاج : ٣١٣ ٢) المنهاج . ص . ٣١١ — ٣١٧
٣) العمدة ٢ . ٣٢ ، وباب المبدأ والخروج والنهاية ١ ١٥٧ .

ولاحظ حازم أيضاً أن المُحدَثين أكثر براعة في باب حُسن التخلّص وفي الاستطراد من القدماء الذين كانوا يستعملون مثل : عَدِّ عن ذا : و : دَعْ ذا ، وغيرها .

ونصح أن يوضع اسم الممدوح – في الانتقال إلى المدح – في القافية ، قال « والناس يسمون هذا النوع : « الشق على الاسم » كقول البحتري .

ولو انني أعطيتُ فيهن المُنى لسقيتهن بكفّ إبراهيما [1]

ولخّص كلامه في الخروج بألا ينفصل الكلام بعض من بعض في الخروج ، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام .

حسن التخلص .

وتحدث عن « مذهب الابداع في التخلص والاستطراد [2] » وقال إن للتخلص طريقتين . أن يُتدرج في ذلك وينتقل بلطف حيلة إلى ما يراد التخلص إليه مما يكون منه بسبب . وأن يكون الانتقال بالتفات الخاطر من غير مقدمة تشعر بذلك ، فينعطف الشاعر إلى ما يريد ناقصاً أو طالعاً [3] وقد يقع التخلص في بيت أو شطر بيت أو في بيتين ، وخَيرُ التخلص ما كان في القافية لأنه أشهر وأحسن موقعاً في النفس ، فإن كان في المدح حَسُن إيراد الاسم في القافية ، فإن تسلسل الاسم لطوله سمي ذلك بالاطّراد كقوله

قَتلنا بعبد الله خير لِداتِه ذؤاب بن أسماء بن زيدِ بن قارب

والاطّراد فن اخترع اسمه ابن رشيق [4] ، وهو مَثّل له بأبيات منها بعض ما سبق ولم ينبه [5] حازم على ابن رشيق صراحة لا في ذم ولا في مدح ، طولَ الكتاب .

وقدم المؤلف عدة نصائح تتعلق بموضوع التخلص [6] ، وعد منها أن يجهد الشاعر نفسه لتحسين البيت التالي لبيت التخلص حتى يستمر الذهن نشيطاً ومتابعاً . وفرق بين المُقَصِّد والمُقَطِّع [7] بأن المقصد هو الشاعر المبدع

١) المنهاج ٣١٨ ٢) المنهاج ٣١٩ ٣) المنهاج ٣٢
٤) العمدة ٢ ، ٦٦ ٥) العمدة ٢ ٦٧ ٦) المنهاج ٣٢١
٧) المنهاج ٣٢٣ – ٣٢٤

الحقيقي والمقطع هو ناظم ضعيف الشاعرية .

القسم الرابع «في الطرق الشعرية وأساليبها ، والتعريف بمأخذ الشعراء في ذلك » [1] وجعل المنهج الاول للابانة عن طريق الشعر من حيث تنقسم إلى حد وهزل وأحوال ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها . وقسم الشعر إلى جدّ وهَزل « فأما طريقة الجد فهي مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك. وأما طريقة الهزل فإنها مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك » [2]

ما يجب اعتمادُه في طريقة الجِد : [3]

طلب حازم من الشاعر في طريقة الجد ألاّ ينحرف إلى طريقة الهزل كبير انحراف ، فالجد يقصد به أهل الجِد ، وكثير منهم يكره الهزَل أو يفضّل اجتنابه . فجملة ما يجب أن يُتجَنَّب في ذلك هي الجهات المختصة بالهزل والمعاني الواقعة في تلك الجهات ، واستعمال صِيغ شاعت في طريقة هزلية . وقال إنه يجب أن يتجنب في الطريقة الجدية : الساقط من الألفاظ ، والمولّد ، ويقتصر على الفصيح ، وأن تكون العبارة متينة رصينة ، ويحترس من ذكر ما يشين ذكره .

ما يجب أن يُعتمد في طريقة الهَزْل قال إن طريقة الهزل بجملتها منافية لأهل طريقة الجد ، ولكن ليست كل طرائق الجد منافية لأهل طريقة الهزل ، ولذلك يمكن أن لطريقته الهزل الأخذ من الجدية بعض الشيء دون العكس ، ويستباح إشراب الطرق الجدية بشيء من الهزل إذا لم يقدم في طريقة الجد كبير قدح [4] ، ونقل عن سقراط عبارة تؤيد رأيه هذا . وتختص طريقة الهزل بأن تكون النفس في كلامها مُسفّة الى ذكر ما يقبح أن يؤثر وألا تكبر عن تصغير ولا ترتفع عن نازل ، وأن ترد ما يفهم منه الجد الى ما يفهم منه الهزل ، كما فسر بعضهم قول مهلهل

فلولا الريحُ أسمع من بحَجْر صليل البيض تقرع بالذكور

---

١) المنهاج ٠ ٣٣١ ٢) المنهاج ١٢٧ ٣) المنهاج ٠ ٣٢٨ ٤) المنهاج ٣٣٠

على أنه في الهجاء ، وطلب حازم في طريقة الهزل رشاقة العبارة ، وعدم التكلف . ووجد المجال متسعاً للعبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة . ومثّل لهذا بشعر أبي نواس المُجوني وقال إن شعره هذا غير منقود عليه[1] ، ولاحظ أن طريقة الهزل قد لا تسوغ لمن شاع عنه وُعرف بطريقة الجد .

وبحث فيما تأخذه طريقة الجد من طريقة الهزل . [2] فقال إنها :

١ – المعاني التي في ذكرها بعض الإطراب والبسط للنفوس وما خف من الإحماض . وطلب أن يأخذ الشاعر من ذلك بما يناسب طبع المخاطب وألا يتجاوز إلى ما يقدح .

٢ – وتشاركها رشاقة العبارة في المواضع التي يحسن فيها ذلك. أما ما تأخذه طريقة الهزل وطريقة الجد فكل ما يتلاءم معها[3]. وربما أخذ معظم طريقة الجد إذا قصد به الهزل وأحسن ذلك . وتشارك الطريقة الجدية بطرف من المتانة ويصح بعدم الحُكم بين شاعرين ماجنين قبل معرفة قوانين طريقتيهما فبذلك يُعرف نمط كلامها .

وتقسيم حازم الشعر العربي إلى (جد وهزل) ، يوحي باستفادته من أرسطو أيضاً. وكان متّى مترجم أرسطو قد أشاع ترجمة الكوميديا والتراجيديا بـ(المدح والهجاء) وتركها ابن سينا ، وتابَعه ابن رشد على (طراغوديا وقوموديا) . وقد استطاع حازم ببراعته أن يفيد من ذلك ويَخْلصَ من الغموض معتمداً « على ما لاحظه أرسطو من أن الشعراء الأخيار مالوا إلى محاكاة الفضائل والشعراء والأرذال مالوا إلى محاكاة الرذائل ، وما فهمه من تلخيص ابن سينا من أن التراجيديا محاكاة يُنحى بها منحى الجد . والكوميديا محاكاة ينحى بها منحى الهزاء والاستخفاف ، فيجعل ذلك أساساً لتقسيم الشعر العربي الى طريقتين . طريقة الجد وطريقة الهزل » . [4]

٢ – المنهج الثاني عن طريق الشعر وأغراضه [5] تحدث حازم عن قسمة « بعضهم » أغراض الشعر وأورد نماذج لها (ذكر بعضها ابن رشيق في عمدته

١ المنهاج ٢٢٧ ٢) المنهاج ٣٣٣ ٣) المنهاج ٣٣٤
٤) أرسطو الدكتور شكري عياد ٢٧٦ – ٢٧٧ ٥) المنهاج ٣٣٦

١ : ٨٧) ثم قال إنها كلها غير صحيحة . ونبه على الوجه الصحيح كما يراه . وجعل قسمة الشعر الى أغراضه مرتبطة بالمقصود قوله فيه ، وبما يُتوقع من آثار ذلك في النفوس « إن الأقاويل الشعرية لما كان القصد بها استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس الى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد بما يخيل لها فيه من خير أو شر ، وكانت الأشياء التي يرى أنها خيرات أو شرور منها ما حصل ومنها ما لم يحصل ، وكان حصول ما من شأنه أن يطلب يسمى ظفراً وفوته في مظنة الحصول يسمى إخفاقاً ، وكان حصول ما من شأنه أن يهرب عنه يسمى أذاة أو رزءاً وكفايته في مظنة الحصول تسمى نجاة . سمي القول في الظفر والنجاة تهنئة ، وسمي القول بالإخفاق إن قصد تسلية النفس عنه تأسياً وإن قصد تحسرها تأسفاً . وسمي القول في الرزء إن قصد استدعاء الجلد على ذلك تعزية وإن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعاً . فإن كان الظفور به على يدي قاصد للنفع حوري على ذلك بالذكر الجميل وسمي ذلك مديحاً ، وان كان الضار على يدي قاصد لذلك ، فأدى ذلك الى ذكر قبيح سمي ذلك هجاء . واذا كان الرزء بفقد شيء فقدت ذلك الشيء سمي ذلك رثاء »[١] .

وانما أوردت النص لأن تلخيصه سيطيل في الحديث بأكثر منه ، ولأنه على مثال لطريقة حازم ونظرته الجديدة الى كثير من قضايا النقد التي سلم النقاد بها منذ نشأتها وتناقلوها كما هي فلا يكون للمتأخر الا فضل التفريع والتزيين .

أغراض الشعر. قسم المنافع إلى ما يكون بالنسبة والملاءمة أو الفعل والاعتقاد . فما تعلق من المنافع بهوى النفس سمي نسيباً وما تعلق بالأشياء المستدعية رضى النفس سُمّي مديحاً وما تعلق بالذكر القبيح المنافر للنفس سُمّي هجاء ، فالمضار أضداد المنافع وقرن بين النسيب والرثاء ، فالأول توجع القائل لموجود والثاني تفجع القائل لمفقود[٢] .

ولما أدخل الأغراض الفرعية في حسابه مثل المعاقبة والتعديد والتقريع والتوبيخ قسم الأقوال « فيما حصل مما شأنه أن يطلب أو يهرب عنه الى . تهانٍ وما معها ، وتعازٍ وما معها ، ومدائح وما معها ، وأهاج وما معها »[١] . فإن

١) المنهاج : ٣٣٧ .
٢) جعل قدامة المراثي مدح الميت (نقد الشعر ص . ١١١ وما بعدها)

كان المتكلم هو الطالب لتلك الشئون أو الهارب عنها كان لدينا : الاقتضاء ، والاستعطاف والاستبطاء والايعاد والتهديد والإنذار ونحوه ، وذكر فنوناً جانبية أخرى . ثم قرر أن أمهات الطرق الشعرية أربع . التهاني وما معهـا ، والتعازي وما معها ، والمدائح وما معها ، والأهاجي وما معها . وأرجع كل ذلك الى ما الباعث عليه الارتياح والى مـا الباعث عليه الاكترات ، والى مـا الباعث عليه الارتياح والاكترات معاً [1] .

تفاوت الشعراء في القوة على الاغراض .

بيّن أن إبداع الشاعر يكون فيما هو من طبعه فأفضل النسيب ما صدر عن سجية نفس شجية وقريحة قريحة ، وان كان لبعض الشعراء القدرة على اصطناع حال من له سجية في فنه ، فيبدع مثله . وقال إن النسبة بين الكلام والمعنى الشعري كنسبة القلادة الى العنق « لأن الألفاظ والمعاني كاللآلىء والوزن كالسلك والمعنى الذي هو مناط الكلام وبه اعتلاقه كالجيد له » . ومَثّل بمهيار الديلمي لمن يستطيع أن يأخــذ مناحي شعراء عدة في نواحي مختلفـة ويصيغها الى طريقته [2] ، وهذا راجع الى القوة في منحى كلامه وأسلوبه ومنزعه وممن يُجيد أيضاً في كل الأغراض بروح واحدة قويــة ابن خفاجة [3] وسمّى تلـك القوة القوة التشبيهية وهي عنده بمثابة مانسميه الموهبة يفطر الإنسان عليها ، قد يستطيع بالدُربة استدراك بعضها .

وتحــدث في معلَم ٍ دال عن انقسام الشعر بحسب اختلافات أنحــاء التخاطُب ، فالمتكلم إما يريد افادة المخاطب أو الإستفادة منه ، ويكون ذلك بلفظ يدل على تأدية شيء من المتكلم بالفعل أو معرفة بالقول ، أو اقتضاء شيء من المخاطب الى المتكلم بالفعل أو اقتضاء معرفة بالقول « فكلام المتكلم فيما يؤديه قسمان قسم يقع فيه الاستدلال ، وقسم الاستدلال فيه » [4]

وخرج عنده من انقسام الكلام من حيث ما فيه من تأدية واقتضاء باعتبار البساطة فيها والتركيب ستة أقسام .

١) المنهاج ٣٤١ ٢) المنهاج ٢٤٢
٣) المنهاج ٣٤٣ وقد وصف ابن خفاجة شعره بمثـل هذا في مقدمه ديوانه ولم يعطىء حازم ما كسبه ابن خفاجة ثم .
٤) المنهاج ٣٤٧

الحيل الشعرية : بحث في انقسام الشعر بحسب ايقاع الحيل الشعرية فيه وقال إن إيقاع الحيل في الشعر عمدة في إنهاض النفوس وجهات اعتناء الشاعر في ذلك تتجه الى : القول نفسه ، أو الى القائل ، أو ما يرجع الى المقول فيـه أو ما يرجع إلى المقول له .

١) ووضح كلامه بأن القول في شيء يصير مقبولاً عند السامع «بإبداع الصنعة في اللفظ وإجادة هيأته ومناسبته لما وضع بإزائه . »[1] وأن يحتال الشاعر في انفعال السامع لمقتضى القول باستلطافه وتقريظه في الوجهة التي جرت العـادة عـلى امتثالها وسمح – لهذا السبب – باستعمال الإقناع . آلة الخطابة في الشعر

٢) أما الحيلة الراجعة إلى القائل فتتأتى مع استعمال ضميري المتكلم كثيراً.

٣) ويستعمل مع السامع الصيغ الأمرية

٤) وأما ما يرجع الى المقول به فكثيراً ما تقع فيها الأوصاف والتشبيهات، وأكثر ما يستعمل ذلك مع ضمير الغيبة » . وقال إن ما يساعد على إيقاع الحيل الشعرية ألا يستمر الشاعر على وصف حال واحدة ، فإذا ما ركب الأحوال واقترن الكلام كان « ألذ وأطيب » .

وبسبب اختلاف ميل شاعر دون آخر إلى موضوع ما أو منهج ما – مما أسلف جازم في قوانينه – اختلف الناس في طرائق الشعر ، ووجد لكل شاعر ذوق خاص به وسمة مميزة .

ما يعتمد من المعاني في الاغراض المختلفة

وبحث فيما يجب اعتماده في كل غرض من أغراض الشعر فقال إن غرضه أن يضع قانوناً لما يحسن ويقبح من الجمع بين كل غرضين متضادين من هذه الأغراض . فالذي يقبح جمع الغرضين المتضادين كالمدح والذم من جهة واحدة وفي محل واحد ، وهو يحسن إذا كان المقصدان غير منصرفين إلى محل واحد ، أو غير منبعثين من محل واحد . والذي يحسن ويعد بديعـاً أن يكون أحد المتضادين يقصد به في الباطن غير ما يقصد به في الظاهر مثل

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهُم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ

١) المنهاج ٣٤٦

فجمع بين المدح وما يوهم أنه ذم وهو في الحقيقة مدح [1]

وقدم حازم جملة نصائح في بعض الفنون الشائعة: ففي المدح يجب أن يعطى الممدوح غايات الأوصاف، وعدم الإطالة في كل موطن وألا يوصف أحد إلا بما يليق به، وأن تكون الألفاظ والمعاني جزلة فخمة، على نظم متين فيه عذوبة، ويكون القول في الرثاء: شاجي الأقاويل مبكي المعاني، مثيراً للتباريح بألفاظ سهلة في وزن متناسب .. وقدم الأحكام للنسيب والفخر والاعتذار والهجاء والتهاني، وغير ذلك [2]

٣ - المنهج الثالث في الابانة عن الاساليب الشعرية وأنحاء الاعتمادات فيها وأحوالها عامة. فأساليب الشعراء تتنوع بين خشونة ولين ومنزلة وسط. وقال إن للكلام بحسب هذه الأنحاء المتركبة في الأسلوب ثلاثة أساليب ينحى بالكلام فيها بحسب البساطة والتركيب عشرة أنحاء [3] « وتختلف الميول إليها باختلاف الناس وطباعهم.

وتحدث عن الأساليب من جهة أن يقصد حسن موقعها من النفوس فيجعل الناس ثلاثة أصناف. ١) مَنْ عَظُمَت لذّاته وقلت آلامه ٢) من عظمت آلامه وقلت لذاته ٣) من تكافأت الأمور عنده [4] فأحوال الأول مفرحة وأحوال الثاني مُفجعة وأحوال الصنف الآخر في معظمها شاجية

وجعل الأقاويل الشعرية بإضافة أحوال الناس تلك إلى البساطة والتركيب سبعة أقسام ١) مفرحة و ٢) شاجية ٣) ومفجعة ٤) ومؤتلفة من سارة وشاجية ٥) ومن سارة ومفجعة ٦) ومن شاجية ومفجعة ٧) ومؤتلفة من الأنواع الثلاثة. وقال « إن النفوس تختلف في تفضيل واحد منها بحسب اختلاف حالها. فيجب أن يُمال بالقول إلى القسم الذي هو أشبه بحال مَنْ قُصد بالقول وضع له » [5]

« ولتحسين موقع الاسلوب يجب ذكر أفضل الاحوال الطيبة والسارة

---

١) المنهاج ٣٥٠ ٢) المنهاج ٣٥١ - ٣٥٣
٣) المنهاج ٣٥٤ ٤) المنهاج ٣٥٦ ٥) المنهاج ٣٥٧

وأحدرها ببسط النفوس وذكر أعلق الأحوال الشاجية بها . والأحوال المستطابة هي التي تكون فيها المدركات منعمة [1] وعاد إلى توكيد أن مدار الشعر على مدركات الحس كذكر العِناق واللثم والماء والخضرة ونسيم الطيب والروض .. والأحوال السارة نحو مجالس الأنس ومواطن السرور . وفصّل في بيان الأحوال المفجعة والشاجية ، وطلب أن يُراوِح الشاعر بين الطريقتين الإقناعية والتخييلية . فإذا أحس أنه تمادى في معانٍ قد تقبض النفس وتوحشها ، فعليه أن يميل الى معان أُخر للتلطيف والإيناس ، على ألا يشغله الذهاب في تأنيس المعاني الأولى إلى الإطالة » [2]

وعاد الى شرح ما ألمح إليه من ضرورة المُراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية فاستعمال الإقناعات – وهي ألصق بالخطابة – في الأقاويل الشعرية ، وقوامها التخييل ، سائغ [3]. وإنما ساغ لكليهما أن يُستعمل يسيراً فيما تتقوّمُ به الأخرى لأن الغرض في الصناعتين واحد وهو إعمال الحيلة في القاء الكلام من النفوس بمحل القبول فتتأثر لمقتضاه » [3] والشعر المُراوح بين معانيه أفضل من غيره وكذا الخطبة . وطلب أن تكون الأقاويل المقنعة في خدمة الأقاويل المخيّلة في القصيدة ، مسابقة لها . وللمراوحة حدود فلا ينبغي أن تطغى على الأصل ، ومثاله فيمن راوح فأحسن المتنبي [4] .

فهو عالج اطّراد المعاني بالتأنيس ، واطّراد التخييل وحده بالمراوحة استعانةً بالإقناع ، وهدفه استمرار تأثير الشعر في النفوس من وجوه عدة .

وختم المنهج بالبحث في كيفية الاستمرار في الأساليب ، والاطراد عليها وما يعتمد فيها ، وقرر أن الأسلوب هو هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية في حين أن النظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية ، وطلب أن نلاحظ في المعاني حُسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة كما يلاحظ في النظم حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض .

---

١) المنهاج ٣٥٧ ٢) المنهاج ٣٥٩ . ٣) المنهاج ٣٦١
٤) المنهاج ٣٦٣

٤ — المنهج الرابع : في المنازع الشعرية وأنحائها ، وطرق المفاضلة بين الشعراء في ذلك ، وعرّف المنازع بانتهاء الهيئات الحاصلة عن كيفية مآخذ الشعراء في أغراضهم وأنحاء اعتماداتهم فيها ، وما يميلون بالكلام نحوه أبداً ويذهبون به إليه .. » [1] ومثّل بذلك بنزع ابن المعتز في خمرياته ، والبحتري في طيفياته فإن منزعهما فيما ذهبا إليه من الأغراض منزع عجيب [1] .

وجعل الشعراء في قسمين . فإما هو مقلد لغيره ، أو ذو منزع خاص به ومن هؤلاء مهيار وابن خفاجة [2] . وأصحاب المنزع الخاص إما يؤثرون طريقة واحدة دائماً أو يركبون منزعهم في كل غرض من طريقة وشرح المنزع بمعنى آخر وهو كيفية مأخذ الشاعر في بنية نظمه وصيغة عباراته ، وما يتخذه أبداً كالقانون في ذلك كمأخذ أبي الطيب في توطئة صدور الفصول للحكم التي يوقعها في نهاياتها .. فالمنزع عنده أقرب الى ما نسميه بطريقة الشاعر في كذا من الأغراض ، أو أسلوبه بعامة

وجعل الأنحاء التي ينزع بالمعاني إليها في قسمين ما يمكن أن تعرفه الكثرة وما لا تعرفه إلا القِلّة [3]. ومازَ بعضَ فروع تلك المنازع وقال إن المُحْدَثين أجادوا فيها وجاء بنماذج منها ، وتسامح في تنويع المنازع ما لم تتعدْ إلى مخالفة كلام العرب واستعمالاتها [4]

وقال إن هناك منازع يحسن بها الكلام ولكنها تكون بوجه قد يخفى ويصعب ادراك وجهه [5] بسبب تلطف الشاعر في ايراد الكلام بحيث تكون عليه الطلاوة ويقع من النفس موقعاً حسناً ، وهذا لا يعرفه الا الناقد الماهر ومنه قول أبي تمام

يا بعدَ غاية وسع العين إن بعدا هي الصبّابة طولُ الدهر والسّهد

وأعجبه في ذلك (يا) التي أعطت معنى التعجب في حين لا تنفع أداة أخرى بديلاً عنها في موقعها .

وقد يصعب بيان حسن المنزع في بعض الشعر على جماله وروعته مثل قول المخزومي

١) المنهاج ٣٦٥ ٢) المنهاج ٣٦٦ ٣) المنهاج ٣٦٧
٤) المنهاج ٣٧ ٥) المنهاج ٣٧١ .

ذبي الى الحيل كَرّي في حواسها   إذا مشى الليث فيها مَشْيَ مُحتَبِلِ

والإبداع في حسن المنزع يرجع الى أمور لفظية أو معنوية أو نظمية أو أسلوبية ، فهو واسع .

المفاضلة بين الشعراء : أوضح حازم من البداية أن الفصل والحكم بين الشعراء الذين أحاطوا بقوانين الصناعة لا يمكن تحقيقه إلا على وجه التقريب [1] وقال إنّ حكم كل انسان متعلق بما يلائمه ويميل اليه طبعه ، والشعر في نفسه يختلف ١) بحسب أنماطه وطرقه ، ٢) وبحسب الأزمنة ٣) والأمكنة ٤) وبحسب الأحوال وما تصلح له وما يليق بها وتحمل عليه ٥) ويختلف بحسب الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعاني ٦) ويختلف بحسب ما تختص به كل أمة من اللغة المتعارفة عندها ، الجارية على ألسنتها .[1] وهذه مجموعة ملاحظات محيطة تأتت له من ملكته الفائقة وقوته الشعرية .

١ – فلاختلاف الشعر بحسب اختلاف أنماطه وطرقه نجد شاعراً يُحسن فيما يلائمه الجزالة والمتانة من الشعر دون ما يقصد به اللطافة والرقة ، ونجد آخر يُباينه في هذا السبيل ، ونجد شاعراً يسلك طريق الهجاء فيبدع ويقصر فيما سواه .

٢ – ولاختلاف الشعر بحسب الزمان نجد تفشّي طرائق معينة وأغراض مخصوصة في زمان دون آخر كالشعر في النقائض ، ووصف الحروب ، والقيان والخمر ..

٣ – ويختلف الشعر بحسب الأمكنة لأن الشاعر أقدر على محاكاة ما ألفه وتأمله فبعضهم يحسن وصف الوحش ، وبعضهم يحسن وصف الرياض

٤ – ٦ ولاختلاف أحوال القائلين ، وما يتعرض للقول فيه ، وبحسب اختلافهم فيما يستعملونه من اللغات نجد واحداً يحسن في المدح ولا يحسن في الهجاء ، وبعضهم يجيد مدح الأعلين دون الأدنين – ولهذا فإن مقياسه هو أن

---

١) المنهاج ٣٧٤

ـكثر الثناء على الشاعر الذي يجيد في غير الموضوعات التي هو يجيدها أصلاً ،
ولهذه الأسباب كلها فإن الحكم بين شاعرين صعب (غير عملي) و تمكن المفاضلة
بين قوليهما اذا اجتمعا في غرض ووزن وقافية واحتج بأن بعض فصحاء
القدماء – مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه – توقف في الحكم بين الشعراء،
ورد لكل شاعر نوعاً من الإحسان وشدد هجومه على مَنْ يفضل القديم لقدمه
ويسد الحديث لحدثه [1] وهي فكرة قديمة متجددة عند معظم النقاد

وختم رأيه في هذا الموضوع بفقرة صغيرة تصلح أن تكون أيضاً محصولاً
لهذا الكتاب ألا وهو القدرة على الحكم بين الشعراء وتبيان مسالك الشعر
طرقه بما يرتفع به إلى أحسن مايكون ليفيد منه الناس ويكون لهم مقياساً .
ال فأما المفاضلة بين جماهير شعراء توفرت لهم الأسباب لقول الشعر والأسباب
الباعثة على ذلك ، وقد أومأت اليها في صدر الكتاب ، وبين جماهير لم تتوفر
لهم الأسباب المهيأة ولا البواعث ، فلا يجب أن نتوقف فيها بل نحكم حكماً
جزماً أن الذين توفرت لهم الأسباب المهيئة والباعثـة أشعر من الذين لم تتوفر
لهم وذلك كما نفضّل شعراء العراق على شعراء مصر ولا نتوقف في ذلك إذ لا
مناسبة بين الفريقين في الإحسان في ذلك ، كما لا تناسب بينهم في توفر الأسباب
ان كان أكثر تلك الأسباب أيضاً في الصقع العراقي قد تغير عما كان عليـــه في
زمان المتقدم » [2]

وهذا النص هام من وجوه مختلفة ذكرت بعضها في التوطئة له ، وأضيف
ما تطبيق حازم نظريته في الشعر على (مناطق) الشعر العربي وبيئاته ناظراً
في ذلك إلى الشعر وإلى الشاعر وإلى البيئة بالمعنى العام الذي فهمه حازم واعتمده
في منهاجه ثم إنـــه اعتمد شاعرية الفحول المتقدمين واحتفظ – شاعراً أو
قداً – بالذوق الأصيل في زمان (القرن السابع) كادت تمّحي فيه الصناعـة
الأساليب العربية .

وختم حازم كتابه بأنه اجتهد في التخليص والاختصار ، وأنه ترك أشياء

---

1) المنهاج ص ٣٧٨ 2) المنهاج ٣٧٩

يمكن استقصاؤها ، وأشياء لا يمكن استقصاؤها لتشعبها ، مثل دكر كال الشعر ، وتفصيل القول في المهيئات له والأدوات والبواعث عليه واعتبار كل نمط من أنماط اللفظ بكل نمط يوقع عليه من أنماط المعاني والنظام والأساليب والأوزان . . . الخ وكأنه أراد أن يدير المناوبة بين الاركان الخمسة . اللفظ والمعنى والنظم والاسلوب - بمعناه عند حازم - والاوزان في ائتلافها مع بعضها بعضاً ، واختلافها صلاحاً وفساداً ولو فعل إذن لأطال الكتاب أضعافاً ولكنه كان يخرج قليلاً عن التكديس النظري لكتابه إلى نمط تجريبي عملي . ثم انقطع الكتاب قبل خاتمته بقليل .

ملاحظات أخرى .

كتاب أرسطو عند العرب . دخل كتاب أرسطو الثقافة العربية منذ وقت مبكر واشتغل به المناطقة والفلاسفة ومن ثم المتأدبون والمتكلمون والنقاد والبلاغيون ، على درجات من الاهتمام وزاوية النظر واختلاف المنزع والمقصد . وترجمه في المشرق مَتّى من يُونس القنائي المتوفي سنة ٣٢٠ هـ ، وكان زعيم المنطقيين في زمانه وأما الفلاسفة فقد تناول كتاب الشعر لأرسطو منهم أربعة بارزون . الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وبحث الدكتور شكري عياد هذا الموضوع بإسهاب وقدم لذلك بعد أن تحدث عن ترجمة متى لكتاب الشعر عن السريانية بقوله « لئن كان المترجم السرياني قد قدم من كتاب الشعر صورة انطمس كثير من معالمها وتداخل كثير من أجزائها ، فلقد حاول فلاسفة الإسلام أن يوضحوا هذه المعالم ويزيلوا هذا التداخل وأن يعرضوا لكتاب في معرض يسهل قبوله على الأذهان العربية ، فتناوله بالتخليص فلاسفة الإسلام الأربعة »(١)

والبحوث عن تأثر النقاد والبلاغيين مستفيضة متراوحة بين من يُثبت تأثير كتاب الشعر بخاصة ، والتأثير اليوناني بعامة في معظم تراثهم ، وبين من يرى أن أحداً من العرب لم يفهم كتاب الشعر ، وإن أثبت أن ابن سينا فهم نظرية

١) أرسطو . الدكتور شكري عياد ١٩٣

المحاكاة [1] . من الطرف الأول الدكتور ابراهيم سلامة قال : « لم يكن أرسطو غريباً عن العرب ، بل يكاد يكون من بين القدماء الوحيد الذي أغرم به العرب، وقبلوا تفكيره وانتفعوا به عند ما أكبوا على تدوين علومهم : انتفعوا به في المنطق . . وانتفعوا به في الجدل . . وانتفعوا به في الأخلاق والسياسة وأخيراً انتفعوا به في البلاغة والنقد وطاوعتهم في الانتفاع بها حساسية دقيقة في تذوق الكلام وفرز أساليبه » [2] .

ولا أريد أن أطيل في غير مقام ، ولكنني أقول إن المشرق عرف كتابين — عرف أحدهما وربما كلاهما ، كما أسلفت عند ذكر البلاغي ، في البلاد الأندلسية — وهما كتاب قدامة ابن جعفر نقد الشعر ، وكتاب البرهان لابن وهب الشائعة معرفته باسم نقد النثر ويرى الدكتور شكري عياد أن تأثر قدامة بكتاب الشعر لأرسطو كان ضئيلاً وأنه في ناحيتين . فنون الشعر ، والغلو في المعاني [3] . بينما يرى الدكتور شوقي ضيف أنه فهم كتاب الشعر وأحسن الإطلاع عليه . وفي حين يرى الدكتور طه حسين أن قدامة تأثر بكتاب الخطابة فحسب نرى أن الدكتور شوقي ضيف ينسب إليه التأثر بها معاً ويمثل لذلك بالشواهد ، [4] وهذا هو رأي الدكتور سلامة حيث قال إنه قرأ من غير شك ما ترجم من كتاب الخطابة وأدرك من غير شك كتاب الشعر في أوائل ظهور ترجمته « فاستأثر به وأخفاه في كمه وأخذ يتطلع إليه من وقت لآخر ليصنع قواعد جديدة للشعر العربي » [5]

أما إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب مؤلف «البرهان في علوم البيان» [6] فقد تأثر بكتابي أرسطو في الشعر وفي الخطابة وتأثر بالثقافة اليونانية عموماً

١) أرسطو الدكتور شكري عياد ٢٢٥
٢) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان الدكتور إبراهيم سلامه (الطبعة الثانية) ٤
٣) أرسطو د. شكري عياد ٢٣٣ ٤) البلاغة تطور وتاريخ ١٨ وما بعدها
٥) بلاغة أرسطو ١٤٨
٦) لا يكاد يرد كتاب البرهان لابن وهب بطبعته الكاملة عما في نقد النثر في موضوع النقد والبلاغة فالذي انتزع نقد النثر من أصل الكتاب لم يعمد

بشكل أوضح وأدق مما صنع قدامة ، وقد استند الدكتور سلامة إلى هذا في نفي نسبة نقد النثر إلى قدامة ، فهو يمتاز عن نقد الشعر ويخالفه بأمور كثيرة تمنع ذلك [١] . وناقش الدكتور شوقي ضيف ما في كتاب نقد النثر ونبه إلى أن اسم الكتاب الأصلي هو البرهان وأجرى فيه دراسة قيمة ثم انتهى إلى أنه لم يحسن تطبيق الوجوه البلاغية التي عرض لها واقتبسها من أرسطو ، وأوغل في التفكير اليوناني فكان ذلك سبباً في أن البلاغيين من بعده أهملوه [٢] .

واتصلت الأقوال وتشعبت في موضوع تأثر النفر الكثير من النقاد والبلاغيين بأرسطو كالآمدي والعسكري والقاضي الجرجاني وعبد القاهر وغيرهم ، والبحث في هذا استُقصيَ في مواضعه ، وفي كتاب الدكتور عياد إلمامات عن بحث في ذلك ودراسة فيها للطالب غناء . فإذا وصل إلى كتاب حازم أكبره ، ورثى لما آلت إليه حال الكتاب من إهمال . وكان وجه اهتمامه به من زاوية واحدة هي مواضع تأثر حازم بكتاب أرسطو (الشعر) وتعريضه على مواضع أفاد فيها من (الخطابة) أيضاً . وقد نبهت على صنيعه في مواضعه من عرض المنهاج. وحكمه العام عليه يحملُ في فقرة واحدة لا بأس من إيرادها ، قال . « ومنهاج البلغاء يمثل قمة من قمم النقد الادبي في اللغة العربية ، فصاحبه قد أطلع على خير ثمار النقد العربي إلى عهده . فهو يشير إلى آراء الجـاحظ وابن المعتز وقدامة والآمدي وابن سنان الخفاجي وغيرهم . وإذا أورد شيئاً من كلامهم فهو ينصه في دقة وعناية ، ثم يناقشه أو يوازن بينه وبين غيره ، أو يشرحه ويبسطه في قوة واقتدار . وربما ولّدَ من الفكرة القديمة أفكاراً جديدة قيمة ثم هو — وإن غلبت على كتابه صفة البحث النظري — واسع الأفق في استشهاده بالشعر يختار نماذجه من جميع عصور الشعر العربي، وإن كان ميله إلى المحدثين أظهر ونصيب المتنبي — خاصة — من نماذجه أوفر » .

والملاحظة على هذا الكلام هي موضوع تفضيله أو إعجابه بالمحدثين بأكثر من إعجابه بالقدماء ، والذي جرّ إلى هذا هو أن حازماً لاحـظ أن بعض

١) المنهاج ١٧٢ — ٢٠٠ . ٢) البلاغة : تطور وتاريخ . ١٠٢

الفنون والبراعات الشعرية ظهرت عند المحدثين بشكل أوضح مما هو عند القدماء مثل براعة الاستهلال وحسن التخلص وإجادة ما اصطلح عليه فن التسويم .
وقايس الدكتور عياد بين أفكار حازم وأصولها الأرسطية في موضوع . اللفظ والمعنى [1] والتخييل والمحاكاة [2] وقضية الصدق والكذب وما يتسع ذلك من حديث المبالغة [3] وقضية النظم [4]

مصادره . لا يمكن أن نحصي مصادره العامة فإنه أفاد من ثقافته الواسعة أي إفادة واطلع - بلا شك - على التراث العربي وبخاصة ما يتعلق بالنقد والبلاغة ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض مصادره في الفقرة السابقة . وقد نقل عن الفارابي وابن سينا مباشرة ،ونقل عن السياسة لأفلاطون [5] ،ونقل قولاً لسقراط بنى عليه حكماً وأغفل ذكر ابن رشد على شهرته في الأندلس بالموضوعات الفلسفية وشرحه على أرسطو . كما أغفل اسم كتاب العمدة ، وإن كان أشار إلى بعض ما فيه مراراً

وانتقد تعريف ابن رشيق وتقسيمه لأغراض الشعر . ولئن صحت عن حازم إمكان الاحتجاج بابن رشد صاحب لا نعرفه ، فتفسير إهمال اسم ابن رشيق له معنى ، وقد ألف كتابه - على الأرجح - في تونس (إفريقية) بلد ابن رشيق ولعله أضرب عن أمره إجلالاً لذكره - وهو كتاب شائع - ولم نعد إليه عودة الناقل المستفيد كثيراً ومن ذلك اتكاؤه عليه في بحث الإطراد ، وإن وجه الحديث على منهجه ومنحاه

خصائص الكتاب : لا يسع دارس الأدب العربي - النقد منه بخاصة - إلا أن يقف مستغرباً كيف دفنت في زمان ما هذه الدراسة الفذة العربية ثم تركت هكذا بغير الاهتمام اللازم ، والأدب والأدباء بحاجة إلى مثله ، ولو أنهم اهتموا به وأفادوا منه لتغير وجه الدراسات من بعده ، بل لأثر في مجرى الشعر العربي نفسه ولكنه بالقياس إلى موضوعه يشبه ابن خلدون في بابه نجم سطع فلم يستضيء بنوره إلا القليل

١) أرسطو « شكري عياد » ٢٥٦ ٢) المنهاج ٢٦٣
٣) المنهاج ، ٢٦٨ ٤) المنهاج ٢٧٤ ٥) المنهاج ١١٩

جعل حازم كتابه على أربعة أقسام :وجعل في كل قسم أربعة مناهج،وقسم المناهج إلى معالم ومعارف ومآم . وجعل الأقسام الأربعة تدور حـول اللفظ ، والمعنى ، والنظم ، والأسلوب ، أما القسم الأول فهو المفقود . ولكنه نبه على كثير من مواضعه في أثناء الكتاب وقد أوضح حازم العلاقـة بين هذه الأمور الأربعة في فقرة عارضة في المنهج الثالث من القسم الرابـع نوردها كما هي لأنها تغني عن طويل من الشرح ، قال :

« معلم دال على طرق العلم بكيفية الاستمرار في الأساليب والاطراد عليها وما يحسن اعتماده فيها » .

لما كانت الأعراض الشعرية يوقـَع في واحد منها : الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد ، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ، ومسائل منها تقتني كجهة وصف المحبوب وجهة وصف الخيـال وجهـة وصف الطلول وجهة وصف يوم النوى وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من من بعضها إلى بعض وبكيفية الإطراد في المعاني صورة وهيئة تسمى الأسلوب ، وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة جهـة من جهات غرض القـول ، وكيفية الإطراد من أوصاف جهة إلى جهـة فكان بمنزلة النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفيـة الاستمرار في الألفاظ والعبارات ، والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض ومـا يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحـاء الترتيب فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية ، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية » [1] .

وهو أدرك أنه يصنع شيئاً جديداً،وأنه يتناول النقد الأدبي والبلاغة بتحديد لم يُسبـَق إليه . قال « وقد سلكتُ من التكلم في جميع ذلك مسلكاً لم يسلكه أحد قبـلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرماه وتوعر سبيل الوصول إليـه هذا على أنه روح الصنعة وعمدة البلاغة وعلى هذا جرنت في أكثر ما تكلمت به فيما عدا هذا القسم من أقسام الكتاب فإني رأيت النـاس لم يتكلموا إلا في

١) المنهاج ص . ٣٦٠ – ٣٦٤ .

بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة ، فتجاوزت تلك الظواهر بعد التكلم في جمل مُقنعة مما تعلق بها إلى التكلم في كثير من خفايا هذه الصنعة ودقائقها . . » [1] وأثنى على كتابه وعلى أنه يحل مشكلات – كان يعرض لها – في مواضع مختلفة .

ومن وجوه أهمية الكتاب أنه توصل إلى وضع قوانين للنظر في الشعر والحكم عليه وتذوقه وإجادته وإحكامه واعتبر في الشعر خصائص وفي الشاعر مميزات درسها ، وصحح منها ونهج لها . وهو يصرح بأنه استفاد من أرسطو ، وجعل عمدته في الإفادة كتاب ابن سينا ونقل منه نصوصاً كاملة . فهو إذن ترسم على هدى الشعر ، وأفاد من تفسيرات وشروح سبقه إلى التنبيه إليها الفارابي وابن سينا وغيرهما وأخذ عن قدامة شيئاً قليلاً – كما أشرت في العرض – وترك مما وضع أموراً كثيرة ، لأنه لم يكن يجمع كتاباً ولا يلفق بل إن كل ما أفاده من النقاد السابقين كان بمثابة من يستفيد من أحجار بناء متهدم لإشادة بناء جديد مخالف ، وما أقل اللمسات التي استمارها . وكان عمله أنه أنشأ دراسة جديدة بنى فيها النظرة النقدية على دعامتين أساسيتين

الأولى هي الاخذ من المبادىء الارسطية في (الشعر) وشيء من (الخطابة) وأهم أخراتها فكرة التخييل والمحاكاة واعتبار ما في الشعر ، وما ينبغي أن يكون فيه ، من حيث يكون ملائماً للنفس أو منافراً لها

والثانية هي الركون إلى الذوق الادبي الصادر عن نفس شاعرة وإخراج ذلك الذوق من داخل قالب قوانين منظمة . ولم يكن ركونه إلى أرسطو استنامة بل إنه – كما نبهت في موضعه – استدرك على قواعد أرسطو التي وصلته ووجدها قاصرة عن استيعاب ما في الشعر العربي [3]

وقد « عيب » على الكتاب منذ عصر مؤلفه [4] قلة الشواهد ، نعني إكثاره من البحث النظري دون الإفاضة في الأمثلة . وهذه ولا شك ملاحظة

١) المنهاج ، ١٨ . ٢) المنهاج ، ٦٩ . ٣) المنهاج ٣

واضحة في الكتاب . ولكن حازماً تنبّه في مواضع مختلفة على طلب الاختصار كما نصح بأن يقاس على كلامه ويجري التطبيق وفق قوانينه . ولعله انساق مع ما شعر من نفسه ، من إبداع واختراع فطلبه البحث باعتباره فكرة دون أن يمثل له بقدر كاف . ويلاحظ أيضاً الأسلوب الذي يرتقي أحياناً إلى لغة المنطق والفلسفة. ومَنْ تمرّسَ بالكتاب هان عليه الأمر ، ثم إنه ليألفه دون سواه .

وقد جره التفكير المنطقي ، وما في تفكيره المستتر من آثار كتب الفقه، إلى كثير من التقسيمات والتفريعات قد يستغنى عن بعضها لأنه هو يسقط ذلك من حسابه ، فالتقسيم الشكلي بين أمرين أو أمور لابد منه عنده ، ثم يأخذ بعد ذلك في الحديث عما يشاء فحسب

ومن الملاحظات الهامة في الكتاب نظرته إلى العروض ، وعلاقته بالموسيقى ، وازراؤه بالعروضيين الذين تشدّوا شيئاً من علوم اللسان وهذه نظرة ذات أهمية كبرى لأن وضع العروض في الأصل بدأ من هذه الزاوية ، ولاحظ حازم انحرافهم عن ذلك ، فجرهم القياس الخاطىء إلى التدخل فيه بما يسمو به عن السمع ، وهو أمر يستحق بحثاً مفرداً .

أما شواهده من الشعر العربي ، وأورد فقرة نثرية أو فقرتين . وأعجبه من المحدثين أبو تمام (وقال إنه من فحول المحدثين) والمتنبي وقد أثنى عليه مراراً . وأعجبه من ابن الرومي قدرته على الوصف ، وقدرته على الاستقصاء ، وبراعته في الاختراع وهي ملاحظات تدل على نفوذ حازم ومَيـَّز من الأندلسيين ابن خفاجة ونبه على طريقته الخاصة التي اشتهرت بالنزعة الخفاجية . وأورد نماذج واستشهادات من ابن دراج القسطلي ، وهما رأسان من بارعي شعراء الأندلس .

حازم وإعجاز القرآن

نقل السيوطي في الاتقان وفي كتابه الآخر المسمى معترك الاقران في إعجاز القرآن — وهو مخطوط — فقرة لحازم ، نصّ على أنها من منهاج البلغاء ، فسّر فيها حازم الإعجاز بأنه ظاهر في اطراد أسلوبه من الفصاحة والبلاغة ، بحيث لا تنزل درجته ولا تتغير ، والنثر عاجزون عن ذلك قال ،

وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب. ومَنْ تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود . ثم تعترض الفترات الإنسانية فينقطع طيّب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه »[1] . والنص من الأجزاء المفقودة من الكتاب .

وبعد فإن هذه مقدمة لدراسة حازم لأنه بحاجة إلى سفر وإنه لينوء به ، وقد كتبتُ عنه في هذه الرسالة بما يتساوق مع فصولها وأقسامها ونظامها . وأرى أن كتاب حازم هو أول كتاب عربي متكامل في النقد الأدبي واضح الخطة ، كامل القوانين ، بعيد في صحّة الأحكام والمقارنات والنتائج ، إلى حد أتجاوز به حد الإبداع .

١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي مصورة بدار الكتب المصرية

عصر غرناطة وآثاره النقدية

عصر غرناطة وآثاره النقدية

لا نقع في العصر الغرناطي على كتاب نقدي متخصص نقف عنده ، فقد أنهى حازم القرطاجني الكتابة في النقد ، فلسنا نجد بعده ومضة من ومضاته ، ولا نكاد نجد تأثيراً صحيحاً بمدرسته النقدية التي أرساها ، وهذه العُجالة مجال ضيق — لا يمكن الاتساع فيه أصلاً — سأعرض فيها نماذج تتعلق بالنقد والبلاغة ، بما يمثل ذيلاً لها

ابن جزي في كتاب التسهيل (١)

من كتب التفسير الأندلسية كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جُزي الكلبي وقد قدم المؤلف لكتابه ببعض الفصول مما يتعلق بعلوم القرآن . ومن ذلك فصلان أدخل في بحثنا ، أحدهما في الفصاحة والبلاغة وأدوات البيان ، والثاني في إعجاز القرآن .

١) ويقع فصل الفصاحة عنده في (الباب العاشر) من أبواب مقدمته ، وقد ميّز بين الفصاحة والبلاغة ، وتحدث عن أدوات البيان أي عناصر علم البيان كما سنبين واشترط للفصاحة خمسة شروط (٢) :

الأول أن تكون الألفاظ عربية لا موَّلدة ولا عامية .

والثاني أن تكون من الألفاظ المستعملة لا الوحشية المستثقلة .

١) التسهيل لعلوم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي — مصر ١٣٥٥ هـ — طبعة مصطفى محمد .

٢) التسهيل ص ١٢ .

والثالث : أن تكون العبارة واقعة على المعنى ، موفية له ، لا قاصرة عنه .

والرابع . أن تكون العبارة سهلة سالمة من التعقيد

والخامس خلو الكلام من الحشو .

فهو إذن أدخل الفصاحة على اللفظة وعلى العبارة ، أي مفردة ومركبة ، وأجمل مقصوده من البلاغة بقوله وأما البلاغة فهي سياق الكلام على ما يقتضيه الحال والمقال من الإيجاز والإطناب ، ومن التهويل والتعظيم والتحقير ، ومن التصريح والكناية والإشارة وشبه ذلك بحيث يهز النفوس ويؤثر في القلوب ويقود السامع إلى المراد أو يكاد »[1] .

أما أدوات البيان فعرّفها ابن جزيّ بأنها « صناعة البديع ، وهي تزيين الكلام كما يزين العلم الثوب » ، وذكر في بابه هذا ما وجده في القرآن الكريم من أنواع البيان وهي اثنان وعشرون .

الأول المجاز وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة بينهما وهو اثنا عشر نوعاً « التشبيه والاستعارة والزيادة والنقصان والتشبيه المجاور باسم مجاوره والملابس باسم ملابسه والكل واطلاق اسم الكل على البعض وعكسه والتسمية باعتبار ما يستقبل والتسمية باعتبار ما مضى » وردّ المؤلف على من رأى أنْ لا مجاز في القرآن ، وقال إنه فيه أكثر من أن يُحصى .

الثاني . الكناية وهي العبارة عن الشيء فيما يلازمه من غير تصريح .

الثالث الالتفات وهو على ستة أنواع خروج المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة ، وخروج من الخطاب إلى المتكلم أو الغيبة ، وخروج من الغيبة إلى التكلم أو الخطاب .

الرابع التجريد وهو ذكر شيء بعد اندراجه في لفظ عام متقدم ، والقصد بالتجريد تعظيم المجرد ذكره أو تحقيره أو رفع الاحتمال .

(1) التسهيل ص ١٢ - ١٣

الخامس : الاعتراض وهو إدراج كلام بين شيئين متلازمين .

السادس : التجنيس .

السابع . الطباق .

الثامن المقابلة وهو أن يجمع بين شيئين فصاعداً ثم يقابلهما بأشياء أخر .

التاسع . المشاكلة وهي أن تذكر الشيء بلفظ آخر لوقوعه في صحبته

العاشر . الترديد « وهو رد الكلام على آخره ويسمى في الشعر ردّ العجز على الصدر . » ومعروف أن للترديد معنى آخر في اصطلاح البلاغيين

الحادي عشر لزوم ما لا يلزم .

الثاني عشر القلب « وهو أن يكون الكلام يصلح ابتداء قراءته من أوله وآخره نحو دعد » أو تعكس كلماته فتقدم المؤخر منها وتؤخر المقدم .

الثالث عشر . التقسيم .

الرابع عشر . التتميم

الخامس عشر التكرار

السادس عشر . التهكم .

السابع عشر . اللف والنشر

الثامن عشر . الجمع .

التاسع عشر الترصيع

العشرون التسجيع

الحادي والعشرون الاستطراد

الثاني والعشرون . المبالغة

وقد أوردت الأنواع التي ذكرها ابن جزي من فنون البديع واستخرج لها أمثلة لا شك ــ ولكنه لم يوردها في كتابه لأنه بناه على الاقتصار – وهي فنون بديعية وبيانية مشرقية الأصول والأسماء وظاهر أنه خص الفصاحة بفقرة خاصة وطبقها على الكلمة والجملة . وخص البلاغة بما هو موضوع علم المعاني ،

وإن كان أضاف عبارات أخرى عمّت كلمة البلاغة وجمّلتها بمعناها الشائع من حسن البيان . أما علم البديع وعلم البيان فهو ما سماه أدوات البيان .

باب في إعجاز القرآن : (١)

جعل المؤلف الباب الحادي عشر من مقدمته للحديث عن إعجاز القرآن ، وإقامة الدليل على أنه من عند الله عز وجل . وسار على نهجه من الاختصار الشديد وإن كان يمتاز بالوضوح واستيفاء الغرض وقد جعل وجوه الإعجاز عشرة :

الاول : فصاحته التي امتاز بها عن كلام المخلوقين .

الثاني : «نظمه العجيب وأسلوبه الغريب من قواطع آياته وفواصل كلماته» ويلاحظ أن استعمال ابن جزي لكلمة النّظم يماثل استعماله كلمة الأسلوب ، ولم يقصد إلى المعنى المُختَلف عليه ، والذي علل به بعضهم الإعجاز

الثالث . عجز المخلوقين في زمان نزوله وبعد ذلك إلى الآن عن الإتيان بمثله.

الرابع أن ما أخبر فيه من أخبار الأمم والقرون الماضية – في حين أن الرسول ﷺ أمّيٌ لم يتعلم ولم يقرأ

الخامس . ما أخبر فيه من الغيوب المستقبلة فوقعت كثيرة .

السادس ما فيه من التعريف بالباري عز وجل ونقل أوامره ونواهيه والدعوة إلى الصراط المستقيم

السابع أحكام القرآن من حلال وحرام مما هو غاية الحكمة وثمرة العلوم

الثامن كونه محفوظاً عن الزيادة والنقصان دون سائر الكتب .

التاسع تيسيره للحفظ .

العاشر كونه لا يمل قارؤه

---

١) التسهيل – ص ١٤

وقد حمل ابن حزم* الأبواب الثلاثة الأولى خاصة بالحديث عن الإعجاز من الوجهة البيانية . فالوجه الاول فصاحته المميزة عن كلام البشر . والوجه الثاني أسلوبه الخاص الذي أعجز العرب وغير العرب فعجزوا عن الإتيان بمثله منذ زمان نزوله إلى الآن ولم يدخل المصنف في مناقشات وتفصيلات واكتفى بهذا الاجمال .

ابن الأحمر في نثير الجمان

في شعر من لطمني وإياه الزمان

هـذا الكتاب لاحق بكتب التراجم الأدبية ، فقد ترجم فيه لعدد من أدباء عصره وملوكهم وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم وقسم هؤلاء على دولهم في الأندلس والمغرب ، الأقصى والأوسط والأدنى . والمؤلف من أسرة بني نصر (بني الأحمر) الذين حكموا غرناطة وما حولها منذ منتصف القرن السابع إلى آخر عهد الاسلام بالأندلس . وكانت ولادته نحو سنة ٧٣٠ هـ وتوفي سنة ٨١٠ أي أنه من أهل القرن الثامن وأدرك بعض التاسع

عقد ابن الأحمر باباً للحديث « في فضل الشعر وإباحة انشاده بالمساجد » عرض فيه لقضيه المُباح من الشعر والمنكر وكأنه يكتب في موضوع جديد . ذلك أننا صرنا في القرن الثامن ولا زالت هذه المسألة دائرة ، ويبدو أن الأدباء والنقاد كانوا مضطرين لبحثها بسبب وجود من يثيرها ويجعل منها قضية

١) قال في مقدمة الفصل الأول « الشعر لا يقوله إلا أهل الفضل والذكاء ، ولا يرتاح لها إلا الكرام . وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يحب أن ينشد بين يديه قصيدة امرىء القيس

* ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي *

وبعض المتفقهين الذين لا أدب عندهم ولا هو في طبعهم ينكرون الشعر ويذمونه ، يرون أنه قبيح وقائله مذموم ، فليت شعري لِمَ أنكروه ، وهـذا رسول الله ﷺ وهو الأسوة والقدوة كان يحب سماع قصيدة امريء القيس المذكورة ، وكانت في أكثر الاوقات تُنشد بين يديه » وأورد عدة قصص

مما هو ثابت في السيرة عن سماعه ﷺ الشعر وإثابته عليه ، وتشجيعه حسان بن ثابت . وروى عدة أحاديث في هذا المعنى أيضاً . ونقل أطرافاً من شعر الخلفاء والصحابة ومن تبعهم ، وكلها أخبار مشهورة منقولة في السير والتواريخ والكتب الجامعة .

٢) وقصد إلى تفسير آية الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاوون . » ووجهها إلى مناسبتها ، وإلى شعراء الكفار ونقل آراء كثيرة في إخراج شعراء المسلمين من تبعتها . وبالطريقة نفسها عالج الحديث « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » . وخرج إلى رأي خاص لاحق في حملته بالمواقف الدينية من قضية الشعر التي ألمحنا إليها عند ابن بسام وابن حزم . ورأي ابن الأحمر أكثر اتزاناً وموضوعية — بالإضافة إليهما — فقد قال في إجمال رأيه : « إن الشعر ليس بمنكر وإنما المنكر ، والمذموم . الاكثار منه ، أو ما يتضمن من الهجاء للمسلمين ، وقذف المحصنات والتشبيب بالحُرَم ، وذكر أوصاف الخمر ، وأنواع الباطل ، ويُتيح الشر للمرتكبين لذلك ويحرضهم على المعاصي »[1] . واحتج لكلامه بفتاوى للمازري والقاضي عياض .

٣) وختم هذا الباب بأن بأن ذكر طرفاً من أمور البيان والبديع يحتاج إليها الشاعر ، بالإضافة إلى علم العربية وعلم اللغة وعلم العروض . ونقل أربعة أنواع سماها ما يُبنى عليه علم البيان[2] وهي الكناية ، والاستعارة ، والتمثيل ، والإشارة والمقصود بالإشارة عنده (الإيجاز) مما هو لاحق بعلم المعاني — وسماه ابن خلدون علم البلاغة —[3] .

وعدّ من فنون البديع ستة وعشرين نوعاً هي « التجنيس ، والترصيع ، والاشتقاق ، والتطبيق ، ولزوم ما لا يلزم ، والتضمين المزدوج ، والالتفات ، والاعتراض ، واللف والنشر ، والتفسير ، والتعديد ، والتّجنيس — وحقه أن يدخله في علم البيان — والمتواتر وردّ العجز على الصدر ، والمساواة والعكس

١) نثير الجمان (مصورة عن نسخة دار الكتب) ص ١
٢) المصدر السابق ص ١١ ٣) مقدمة ابن خلدون ٥٤٨

والتبديل ، والإستدراك والرجوع ، والإستطراد ، والإستهلال ، والتخليص ، والترديد، والتتميم، والتفويف، والتجاهل ، والهزل المراد به الجد ، والتنبيه ».

ولا شك في أن الفنون البديعية لزمان ابن الأحمر كانت أكثر ، وأن علوم البديع والبيان والمعاني كانت استقلت عن بعضها بعضاً ، ولكنه اكتفى بما يزين به كتابه .

المعيار في نقد الأشعار
للأندلسي

في دار الكتب كتاب صغير الحجم مصور[1] عنوانه الكامل كتاب المعيار في نقد الأشعار وفارقاً بين النقّاد والمختار ، وطُرَفِ فنون البديع من النثر والنظم البارع الرفيع ، تأليف العالم العلامة العمدة الفهامة الأديب الأريب المتفنن اللبيب أبي عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد الاندلسي رحمه الله » . وقد ذكره الدكتور محمد زغلول سلام [٢] وقال في أثناء الحديث إنه . محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الكفيف الذي طاف ببلاد المشرق ومرّ بمصر وتأثر إلى حد كبير بدراسة المشارقة في النقد والبلاغة في عصره ، وأنه توفي سنة ٧٨٠ هـ .

والحق أن ابن جابر دخل المشرق وتأثر بالمشارقة وترجم له في الدرر الكامنة [٦] – ومنه نقل الدكتور سلام ولم يرجع إلى غيره كما يبدو – ولم يذكر في مؤلفاته (المعيار في نقد الأشعار) هذا . وترجم له السيوطي في بغية الوعاة[1] بإسهاب فذكر من كتبه . شرح الألفية ، ونظم الفصيح ، وكفاية المتحفظ ، والحلة السيراء (قصيدة بديعية) وشرح ألفية ابن معطي . ولابن جابر صديق اسمه : أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرّعيني الأندلسي [٣] توفي قبل صاحبه بسنة (ت ٧٧٩) وذكر له شرح الحلّة السيراء ، وبيّن ما فيها من صنوف البديع ، فهذا الذي نعرفه للمؤلف الذي نسب إليه الدكتور تأليف المعيار .

٤) نسخة مصورة بالفوتستات في دار الكتب المصرية (برقم ٦١١٤٠ هـ)
٥) تاريخ النقد العربي (ج ٢) محمد زغلول سلام . ص ١٧٠
٦) الدرر الكامنة (ط . الهند) ٣ ٣٣٩ – ٣٤٠ .

والمؤلف الذي ظنه د. سلام هو مشهور عند المشارقة باسم ابن جابر وكان أولى أن يسمى كذلك في عنوان الكتاب لو كان هو المؤلف ، وإن كانت عبارة (جمال الدين) من جملة الألقاب التي اشتهر بها المشارقة دون الاندلسيين .

والكتاب على كل حال لاحق بكتب النقد والبلاغة المتأخرة ، فإن تقسيماته وتفريعاته تجعله من العصر الغرناطي ولعل سكوت مثل لسان الدين بن الخطيب عنه وسكوت المشارقة المتلقّين كالسيوطي أيضاً يجعل المؤلف فيما أظن مما وراء العصر الغرناطي — ممّن اشتهر في المغرب باسم الأندلسي إضافة إلى أصله — أو من أواخر العصر الغرناطي .

وقد خلط المؤلف موضوعاته النقدية والبلاغية معاً وجعل كتابه في واحد وعشرين باباً هي كما يلي [٣] : الباب الأول في تقاسيم الكلام ، الباب الثاني . في الحقيقة والمجاز ، الثالث في البلاغة ولها أربعة فصول . التاريخ والتشبيهات والاستعارات والبسط وقسّم الاستعارات إلى الإرداف والتقديم وإطلاق اللفظ على ما يجاوره والكنايات والمراوحة ، واستعمال اللفظ على التهكم ، والمحوى ، والتمثيل ، والتضمين ، والمساواة

ومن باب البسط ، التكميل ، والتمليح ، والتذييل ، والاستعارة والتأكيد والتكرير .

والباب الرابع في الحذف . والخامس في التجنيس وضروبه والسادس في التصحيف . والسابع في المطابقة والتاسع في التدارك والعاشر في الجمع بين النقيضين والحادي عشر في التبيين . والثاني عشر في التقسيم والثالث عشر في الإيغال والرابع عشر في الالتفات والخامس عشر في الترصيع . والسادس عشر في التصريع . والسابع عشر في النظم والتاسع عشر في الوزن والعشرون . والواحد والعشرون في أنواع السرقات

وبيّن في المقدمة أنه لابد لمن تعرض لنقد الشعر على وجه جيد من ثلاثة أمور

١) بغية الوعاة ٢ ٣٤ — ٣٥ ٢) بغية الوعاة ٢ ٣٥ ٣) المعيار ص ٥

الادوات من اللغة والاخبار ، والطبع ، وآلات النقد ، قال : «.. فالمتعاطي لقرض الشعر ونقده وإن حصل جل أدواته من اللغة العربية والاخبار ، فلا بد له من آلات النقد إلى ما يرشده ويعضده ليكون مجيداً فيما ينسجه ويقيده »[1]

وجعل الأدباء في نسج الشعر أربعة أنواع .

١) نوع لا يقول الشعر ولا يعرف نقايته ونمايته

٢) ونوع يحوك الشعر ولا يعرفه ، فينسج حراً نواف ومطرفاً بآلاف .

٣) ونوع يعرفه ولا يقرضه .

٤) ونوع يعرف الشعر — علم الشعر — ويقرضه : فهذا هو الغاية والنهاية[2].

ودخل في أبواب الكتاب ، وهي مختارات سريعة من كتب ملفقة ، ولم يشر إلا مرة واحدة إلى قدامة حين ذكر التجنيس ، وهو يكثر من النقل وينص على ذلك دون تسمية ، والكتاب أشبه بكراسة فيها عددٌ من الموضوعات المتلاحقة ، فلا يمكن أن نرى فيه كتاباً نقدياً مستقلاً بنظرية ما .

١) المعيار ص ٢ ٢) المعيار في نقد الأشعار ص ٤

لاحظ ابن خلدون قلة التأليف في علوم البيان المختلفة عند المغاربة والاندلسيين لعهده ، وفيما سبق أيضاً قال « والعناية به (علم البيان) لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه – والله أعلم – أنه كمالي في العلوم اللسانية . والصنائعُ الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرنا . أو نقول لعناية العَجم – وهم معظم أهل المشرق – كتفسير الزمخشري ، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله . وإنما اختص أهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرّعوا له ألقاباً ، ونوّعوا أنواعاً ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب . وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما .

وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور ، وجرى كثير من أهل افريقيه والاندلس على منحاه . واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن »[1] .

فابن خلدون شرح لنا أسباب اهتمامهم بتفصيلات علم البديع وإعراضهم – عن قصور – عن البلاغة (المعاني) والبيان ونبّه الى ما توصلنا اليه من اعتماد جمهرة المغاربة والاندلسيين على ابن رشيق في عمدته والعرب أنه لم يشر إلى حازم ولم يفرد للنقد الأدبي باباً مستقلاً

١) مقدمه ابن خلدون ٥٤٩

كتساف المصادر والمراجع

المخطوطه والمطبوعه الوارده دكرها فى هوامش الرسالة

ا ـ المصادر المحطوطه :

١ ـ ايصاح المنهج لاس ملكوں الحصرمى (مصورة بالحامعه العربية ٢٤ لعه)

٢ ـ برىامح اس عطيه المحاربي (مصورة بدار الكتب ٢٦٤٩١) .

٣ ـ تحمه الانمس لاس هديل (دار الكتب) .

٤ ـ ترسل الكاتب العميه اس ابي الحصال (مصورة بمعهد المحطوطات ٤١٨ ادب) .

٥ ـ التسيه على المىرد ى « الكامل » (معهد المحطوطات ٣٥٢ ، ٣٢٦ ادب)

٦ ـ التسيه على المعالطه والتسويه (مصورة عىد صديقىا محمد س شريفه عں ٢٩٦ اسكوريال) .

ـ التسيهاتعلى ما ىالتبيان من التمويهات لاںعميرة المحرومي(مصورة)

٧ ـ الدحيرة ى محاسں اهل الحريرة (القسم الثاني ـ مصور بـدار الكتب ـ وتتمه القسم الرابع ى حامعه القاهرة) .

٨ ـ الديل والتكمله لاس عىد الملك المراكشي (محطوطه باريس) .

٩ ـ رسائل احوانيه اىدلسيه (دار الكتب) .

١٠ ـ سير اعلام النبلاء (مصورة ىدار الكتب ح ١١)

١١ ـ شرح الاسعار الستة للاعلم الشنتمري (٨١ أدب ش) .

١٢ ـ شرح الاشعار السته للاعلم (٤٥٠ شعر تيمور) .

١٣ ـ شرح ديوان المتنبي لابن الافليلي (مصورة عن اصل مخطوط بفاس، في معهد المخطوطات) . ـ نسخه اخرى عن المتحف البريطاني بلندن .

١٤ ـ شرح الشعراء السته لابي بكر عاصم بن ايوب البطليوسي (مصورة بمعهد المخطوطات) . ـ نسخه مكبرة في جامعه القاهرة .

١٥ ـ شرح مشكل ابيات المتنبي لابن سيدة (دار الكتب) .

١٦ ـ لمح السحر لابن ليون (نسخه فى دار الكتب) .

١٧ ـ المسار فى نقد الاشعار (مصورة بدار الكتب) .

١٨ ـ المنهل الصافي لابن تغري بردى (دار الكتب ١١١٣ تاريخ)

١٩ ـ نثير الجمان فى شعر من جمعني واياه الزمان لابن الاحمر (دار الكتب)

٢٠ ـ الوافي فى نظم القوافي لابي الطيب الرندي (ادب تميور) ـ نسخه مصورة عن فاس بمعهد المخطوطات .

ب ـ المصادر المطبوعه .

١ ـ احكام صنعه الكلام للكلاعي ـ تحقيق محمد رضوان الدايه ـ دار الثقافه بيروت ـ ١٩٦٧

٢ ـ اخبار ابي تمام للصولي (لجنه التاليف والترجمه والنشر ـ القاهرة)

٣ ـ اخبار البحتري للصولي ـ تحقيق د . صالح الاشتر ـ المجمع العلمي العربي بدمشق .

٤ ـ ارشاد الاريب لياقوت الحموي (طبعه القاهره ٢٠ جزءا) .

٥ ـ ازهار الرياض فى اخبار عياض (مصطفى السقا واخرون ـ القاهرة)

٦ ـ اعجاز القرآن للقاضي الباقلاني ـ تحقيق السيد صقر ـ دار المعارف بمصر .

٧ ـ اعجاز القرآن للقاضى عبدالجبار الهمداني ـ الدار القوميه ـ القاهرة

٨ ـ اعلام الكلام لابن شرف القيرواني (ط الخانجي بمصر) .

٩ ـ اعمال الاعلام ' لسان الدين بن الخطيب (قسم الأندلس) ـ ليفي بروفنسال ـ بيروت .
١٠ ـ انباه الرواة للقفطي ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار الكتب
١١ ـ الاحاطة في اخبار غرناطة ـ لسان الدين بن الخطيب (عنان ـ دار المعارف) .
١٢ ـ الحلة السيراء لابن الابار ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس .
١٣ ـ الاقناع في العروض للصاحب بن عباد (ط بغداد) .
١٤ ـ الانتصار ممن عدل عن الاستبصار لابن السيد البطليوسي (د . حامد عبد المجيد) .
١٥ ـ الايضاح للعروضي ـ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مصر .
١٦ ـ البيان والتبيان للجاحظ ـ الطبعة الثانية ـ عبد السلام هارون .
١٧ ـ البرهان فى وجوه البيان (ط العراق) .
١٨ ـ البديع في وصف الربيع للحميري ـ هنريس بيرس ـ الرباط ١٣٥٩
البديع لابن المعتز (ط محمد عبد المنعم خفاجي) مصر .
١٩ ـ بغيه الملتمس للضبي (المكتبه الاندلسيه بمدريد) .
٢٠ ـ تاريخ علماء الاندلس (الدار القومية ١٩٦٦ القاهرة) .
٢١ ـ تحرير التحبير لابن ابي الاصبع . وحفني شرف .
٢٢ ـ التقريب لحد المنطق لابن حزم (تحقيق الدكتور احسان عباس) .
٢٣ ـ التكمله لكتاب الصله لابن الابار (ط العطار ـ مصر) .
٢٤ ـ جذوة المقتبس للحميدي (ط ـ العطار) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي .
٢٥ ـ جمهرة انساب العرب لابن حزم ليفي بروفنسال دار المعارف .
٢٦ ـ الحدائق فى المطالب العالية الفلسفية العويصه لابن السيد ـ شرح الشيخ زاهد الكوثري .

٢٧ ــ الخصائص لابن جني ــ الشيخ محمد النجار ــ دار الكتب المصرية .
٢٨ ــ خلق القرآن للقاضي عبد الجبار الهمذاني ــ الدار القومية بمصر .
٢٩ ــ دار الطراز لابن سناء الملك ــ الدكتور جودة الركابي ــ دمشق .
٣٠ ــ الديباج المذهب لابن فرحون ــ طبعه ابن شعرون ــ مصر .
ــ ديوان الاعمى التطيلي ــ تحقيق الدكتور احسان عباس ــ نشر دار الثقافه بيروت .
٣١ ــ ديوان ابن خفاجه ــ الدكتور سيد غازي ــ منشأة المعارف ــ الاسكندرية
ــ ديوان ابن رشيق القيرواني ــ تحقيق الدكتور عبد الرحمن ياغي ــ دار الثقافه بيروت .
٣٢ ــ ديوان صريع الغواني ــ الدكتور سامي الدهان ــ دار المعارف بمصر
٣٣ ــ ديوان المتنبي ــ تحقيق د. عبد الوهاب عزام ــ لجنه التاليف
٣٤ ــ ديوان ملك غرناطه ــ الاستاذ عبد الله كنون ــ مكتبه الانجلو .
٣٥ ــ الذخيرة لابن بسام ــ القسم الاول (جزآن) القسم الرابع (ج ١) جامعه القاهرة
٣٦ ــ الذيل والتكمله (اقسام منه) تحقيق الدكتور احسان عباس .
٣٧ ــ رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد ــ تحقيق غومز ــ مدريد ١٩٤٢ .
٣٨ ــ رسائل ابن حزم ــ تحقيق الدكتور احسان عباس ــ مصر ــ نشر الخانجي .
٣٩ ــ رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة للشريف الغرناطي .
٤٠ ــ الروض المعطار (وصف جزيرة الاندلس) تحقيق ليفي بروفنسال ــ لجنه التاليف بمصر .
٤١ ــ زاد المسافر لصفوان بن ادريس ــ الجزائر ــ عبد القادر محداد ــ ١٩٣٩ .
٤٢ ــ شذرات الذهب (ط القدسي) مصر .

٤٣ ــ شرح التبيان للعكبري (المطبعة الشرقيه ــ مصر ١٣٠٨) .

٤٤ ــ شرح ديوان امرىء القيس بشرح الاعلم ــ دار المعارف ــ محمد ابو الفضل ابراهيم .

٤٥ ــ شرح ديوان امرىء القيس بشرح ابي بكر عاصم بن ايوب ــ ط ــ هنديه ١٣٤٨ .

٤٦ ــ شرح ديوان النابغه بشرح ابي بكر عاصم ــ ط ــ مصر (مع الشعراء الخمسه) .

٤٧ ــ شرح مقامات الحريري للشريشي ــ مصر ١٣٠٠

٤٨ ــ شروح سقط الزند (دار الكتب) مجموعه من الدراسين .

٤٩ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبه ــ الشيخ محمد شاكر ــ دار المعارف ــ الطبعه الثانيه .

٥ ــ الصله لابن بشكوال (الدار المصرية ١٩٦٦)

٥١ ــ الصناعتين للعسكري (ط الاستانه) .

٥٢ ــ طبقات الامم لصاعد الاندلسي (طبع مصر) .

٥٣ ــ طبقات النحويين واللغويين (ط الخانجي ــ محمد ابو الفضل ابراهيم)

٥٤ ــ العمدة لابن رشيق ــ محمد بدر الدين النعساني ــ مصر (ط السعادة ١٣٢٥) .

٥٥ ــ عنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد ط ــ مصر .

٥٦ ــ فهرسه ابن خير ــ طبعه بيروت .

٥٧ ــ قضاة قرطبه للخشني ــ الدار المصريه ١٣٦٦

٥٨ ــ كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس للكتاني الطبيب ــ تحقيق الدكتور احسان عباس .

٥٩ ــ كمامه الزهر وفريدة الدرر لابن بدرون ــ تحقيق دوزي ١٨٤٩

٦ ــ لحن العامه لابن هشام (فصلة تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ــ مجله معهد المخطوطات عدد ٣) .

٦١ ـ المحكم والمحيط الاعظم لابن سيدة (ط الحلبي) تحقيق الاستاذ السقا والدكتور نصار .

٦٢ ـ مستودع العلامة ومستبدع العلامة لابن الاحمر ـ ط المغرب .

٦٣ ـ مشاهدات لسان الدين (تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي) ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٦٤ ـ المطرب من اشعار اهل المغرب لابن دحيه ١٩٥٤ ـ القاهرة .

٦٥ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ـ مصر ١٣٨٧ ١٩٦٣ ـ محمد سعيد العريان .

٦٦ ـ معجم شيوخ الصدفي لابن الابار (ط مدريد) .

٦٧ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي (ط اوروبا)

٦٨ ـ المعيار في اوزان الاشعار للشنتريني الاندلسي ـ تحقيق الدكتور محمد رضوان الدايه ـ دار الانوار ـ بيروت .

٦٩ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ـ الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف .

٧٠ ـ مقدمه ابن خلدون ـ المطبعه الاميريه ـ بولاق ١٣٢٠ .

٧١ ـ منهاج البلغاء وسراج الادباء حازم القرطاجني ـ تحقيق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجه ـ تونس .

ـ الموشح للمرزباني (علي البجاوي) مصر

٧٢ ـ نفح الطيب للمقري ـ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مصر ١٩٤٨

٧٣ ـ نقد الشعر لقدامه بن جعفر ط الخانجي

٧٤ ـ نقد النثر المنسوب لقدامه (وهو قسم من البرهان) تحقيق الدكتور العبادى والدكتور طه حسين .

٧٥ ـ الوساطه للجرجانى (ط مصر) محمد ابو الفضل ابراهيم

٧٦ ـ الوافي بالوفيات دى دريبغ . استانبول .

٧٧ ـ وفيات الاعيان ـ محمد محيي الدين عبد الحميد .

ج ـ المراجع :

١ ـ ابو المطرف بن عميرة المخزومي ـ محمد بن شريفة ـ الرباط ـ ١٩٦٦
٢ ـ الاعلام للزركلي (ط ـ دمشق) .
٣ ـ ادب الاندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات) ليفي بروفنسال ـ مترجمه القاهرة ١٩٥١ .
٤ ـ بلاغه ارسطو بين العرب واليونان الدكتور ابراهيم سلامة ـ الانجلو المصرية .
٥ ـ البلاغه تطور وتاريخ ـ د . شوقي ضيف ـ دار المعارف .
٦ ـ تاريخ الادب العربي العصر الجاهلي ـ العصر الاسلامي ـ العصر العباسي الاول ـ الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف .
٧ ـ تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبه ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ الدكتور احسان عباس .
٨ ـ دراسات فى تاريخ الادب العربي ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي ـ موسكو ١٩٦٥ .
٩ ـ الشعر الاندلسي ـ غارثيا غومز ـ لجنه التاليف ١٩٥٢ ـ د. حسين مؤنس .
١٠ ـ شعر الطبيعه فى الادب العربي ـ سيد نوفل ـ مطبعة مصر ١٩٤٥ .
١١ ـ فجر الاندلس ـ د. حسين مؤنس . مصر .
١٢ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربي ـ د شوقي ضيف ـ لبنان ط ثانية
١٣ ـ كتاب الشعر لارسطو (تحقيق ودراسة الدكتور شكري عياد) ط الدار القوميه ـ القاهرة .
١٤ ـ كتب برامج العلماء . الدكتور عبد العزيز الاهوانى ـ مجلة معهد المخطوطات . مجلد ١ .
١٥ ـ كشف الظنون لحاجي خليفه .

١٦ ـ مشكلة السرقات فى النقد العربي ـ د مصطفى هدارة ـ الانجلو ١٩٥٨

١٧ ـ مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الاسد ـ دار المعارف .

١٨ ـ مصر فى تاريخ البلاغة ـ امين الخولى ـ مقاله بمجله كليه الاداب ـ جامعه القاهرة . (فصله منها) .

١٩ ـ معجم الانساب لزامباور ـ د زكي حسن وجماعه ١٩٥١

٢٠ ـ النقد ـ د . شوقي ضيف ـ دار المعارف .

٢١ ـ النقد الادبي ـ احمد امين ـ لجنه التاليف .

٢٢ ـ النقد المنهجي عند العرب ـ محمد مندور .



للمؤلف

١) **احكام صنعه الكلام** ـ لمحمد س عبد الغفور الكلاعي الاشبيلي الاندلسي تحقيق ـ طبع دار الثقافه ـ بيروت ـ ١٩٦٦

٢) **نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان** ـ للامير اسماعيل س الاحمر الغرناطي الاندلسي ـ دراسه وتحقيق ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧

٣) **الجمان فى تشبيهات القرآن** ـ تاليف ابن ناقيا البغدادي ـ تحقيق ـ بالاشتراك مع الاستاذ عدنان محمد زرزور ـ الكويت ـ ١٩٦٨

٤) **تاريخ النقد الادبى في الاندلس** ـ دراسه ـ طبع دار الانوار ـ بيروت ـ ١٩٦٨

٥) **المعيار فى اوزان الاشعار** ـ لابن عبد الملك الشنتريني الاندلسي ـ تحقيق ـ طبع دار الانوار ـ بيروت ـ ١٩٦٨

تحت الطبع

شرح مشكل أبيات المتنبي ـ لابن سيدة ـ .

فهرس موضوعات الكتاب

الباب الثاني

الباب الثالث

مطابع
معتوق إخوان
بيروت - لبنان